



# الطَّاءُوسُ الرَّبِيعُ

-الجزء الثاني-

منال محمد سالم

رواية

# الطاوس الأبيض

-الجزء الثاني-

منال محمد سالم



جميع حقوق النشر محفوظة

لموقع

<https://www.facebook.com/LoveStories.by.Man/alSalem>

قصص وروايات بقلم منال سالم



نوع العمل : رواية

اسم العمل : الطاووس الأبيض الجزء الثاني

اسم المؤلف : منال محمد سالم

الطبعة الأولى ( إلكترونية ) 2020

الناشر : موقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

التدقيق اللغوي : منال محمد سالم

تصميم الغلاف : منال محمد سالم

التصميم الداخلي : منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكترونية محفوظة لموقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

[/https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem](https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem)



-إهداء-

إلى محبي قراءة الروايات التي يسطرها قلبي في كل مكان ..

منال سالم

## تنويه-

تم نشر فصول الجزء الأول في رواية منفصلة تحمل نفس الاسم حتى الفصل **الخامس والثلاثين**، واستأنفت باقي أحداث الفصول بالتتابع في الترقيم، أي من **السادس والثلاثين**، ودون مقدمة تمهيدية ..

## غلاف الجزء الأول





## الفصل السادس والثلاثون

بنصف عينٍ تطلعت أمامها محاولة إجبار نفسها على الاستيقاظ بعد ليلة مرهقة ذهنيًا وعصبيًا لها، غلبها النعاس واستكانت لبرهة، استشعرت "خلود" سطوع النهار من خلال تلك الإضاءة الخافتة المتسللة من نافذة الغرفة الموصودة، تقلبت على جانبها الآخر ويدها قد امتدت لتتحسس الفراش، لم يكن دافئًا مما أوقظ إدراكها، وباتت واعية تقريبًا، فتحت عينيها على الأخير، تلفتت حولها باحثة عن زوجها الذي على ما يبدو هجر فراشها، تساءلت مع نفسها:

هو راح فين؟

بدا المكان ساكنًا من حولها، ظنت أنه ربما ذهب إلى عمله مُبكرًا، ولم يرغب في إيقاظها، اعتدلت في رقدتها واستدارت ناحية الكومود لتمسك بهاتفها المحمول حتى تنظر إلى الوقت، لكنها تفاجأت بوجود زجاجة الدواء التي قامت بتبديل أقراصها موضوعة عليه، انقبض قلبها في خوفٍ، وأحست برهبة موترة تجتاحها، مدت "خلود" يدها لتلتقطها، تفحصتها بعينين خائفتين، ابتلعت ريقها وتساءلت في توجس:

إيه دي؟ بتعمل إيه هنا؟

أحست بثقلٍ يجثم على صدرها، كما ازدحم عقلها بأفكار متواترة تشير إلى احتماليات مخيفة لم تحبذ التفكير بها لأنها ستحيل حياتها إلى جحيم، وجدت لسان حالها يلهج باسمه:

- "تميم"!

أزاحت الغطاء عنها، وهبطت عن الفراش لتفتش عنه في أرجاء المنزل لتتأكد من وجوده، توجهت ناحية الحمام، دقت على بابه قبل أن تفتحه، لم يكن متواجداً بالداخل مما زاد من ريبتها، واصلت البحث عنه في كل غرف المنزل انتهاءً بالمطبخ، كان الاحتمال الأكبر أنه اتجه لعمله بالدكان، ظلت محتفظة بالزجاجة في يدها، ثم نظرت مطولاً إليها، وتساءلت، وكأنها:

هو ساب الإزاة دي ليه هنا؟

.....

تردد في الذهاب إلى نفس الصيدلية التي يتعامل معها، خشي أن يكون هناك خطب ما في الدواء الذي بحوزته، لذا استقل سيارته واتجه إلى واحدة منزوية في مكانٍ بعيد عن منطقتة، ترجل "تميم" من السيارة بعد أن صفها أمامها، تنحني بصوته الخشن وهو يلج المكان، كان شبه هادئ، قليلٌ من الزبائن متواجدون به، اتجه نحو الزاوية وانتظر دوره .. ألقى نظرة عابرة على الرفوف الزجاجية المليئة بأصنافٍ مختلفة من الدواء وهو يقف مستنداً بقبضته على إحدى واجهات العرض المنخفضة، تحرك الصيدلي الذي انتهى من إحضار المكتوب في رويته أحد المرضى نحوه لينظر له باهتمامٍ، بادر "تميم" مستهلاً حديثه:

سلامو عليكم.

رد التحية برسمةٍ بحتة:

-وعليكم السلام، اتفضل يا أستاذ.

أخرج "تميم" من جيبه القرص الذي غفلت "خلود" عن أخذه أو حتى تبديله ليضعه في كفه وهو يسأله بملامحه الجادة ونظراته الحائرة:

-لا مؤاخذة أنا كنت عاوز أسأل عن نوع برشام معين.

نظر الصيدلي إليه متسائلاً بهدوء:

-معاك اسمه؟

أجابه نافيًا وهو يفتح راحته ليريه إياه:

-لأ، مش معايا، بس شبه القرص ده!

تناوله منه وألقى نظرة متفحصة عليه، ألح عليه "تميم" بسؤاله:

-ها عرفته؟

مط فمه وقد بدا منشغلاً في تحديد ماهيته بالضبط، استدار خلفه ليفتح أحد

الأدراج الرمادية، وأخرج منه علبة تحتوي على شرائط أدوية، فتحها والتقط واحدًا

منهم ثم رفعه نصب عينيه، واستطرد بهدوءٍ مستريب:

-هو شبه الموجود في الشريط ده.

سأله بنفاذ صبر:

-أيوه، يعني عبارة عن إيه؟

أجابه بوجه جامد وقد انخفضت نبرته قليلاً:

-منشطات..

أصابه التخبط من الحقيقة الصادمة التي هبطت عليه كالصاعقة، اتسعت عيناه في

ذهول وهو يغمغم بصوتٍ هامس:

-يخربيتك يا "خلود"! ودي هتعمل بيها إيه؟

سأله الصيدلي في اهتمام:

-بتقول إيه يا أستاذ.

رد بصوته الأجش:

بسأل إن كنت متأكد من الكلام ده ولا آ....

قاطعته موضحًا عن ثقة:

-يا فندم الحباية دي معروفة.

عبوس واجم غطا قسماات وجهه، ورد بامتعاوض:

-ماشي.. متشكر.

حذره الصيدلي بجديّة:

-خد بالك يا أستاذ، كتر الحاجات دي مش حلو عليك، يعني ليها تأثير و...

قاطعته بتحفز، وهو ينذره بنظراته التي غامت:

-حد قالك إني خرع؟ ده مش بتاعي، وأنا مش محتاج للبرشام ده.

رد عليه بهدوء ليمتص غضبته قبل أن تندلع مستخدمًا يده في الإشارة:

-أنا قولتلك ما يملي عليا ضميري المهني، وانت حر.

ظهرت العصبية في نبرته وهو يقول محتجًا على تلميحه الذي ينتقص من رجولته:

-بردك هايقولي بتاعي!!!

ثم ضرب بكفيه في تشنّج وهو يكمل:

-حاجة تجن العاقل، جاي اسأل على حاجة يلبسني تهمة.

أدرك الصيدلي أن الجدل معه لن يجدي، وربما قد يتهور ويُخرب في المكان جراء عصبيته، لذا قال مبتسمًا بنبرة عملية:

-أسف يا أستاذ، شرفتنا.

وأعاد وضع القرص أمامه على السطح الزجاجي ليلتقطه "تميم" ويدسه في جيبه قبل أن يخرج من المكان مبرطمًا بكلمات منزعة.

.....

بإجهادٍ واضح عليها وهي تجرر ساقها نحو باب المنزل الذي سمعت قرع جرسه قبل لحظاتٍ، خاصة وأنها أنهكت في متابعة تنظيف المطبخ وغرف البيت ليلة أمس بمساعدة إحدى الخادמות، شهقت مصدومة حين أبصرت "محرز" واقفًا عند أعتاب الباب، تجمدت الدماء في عروقها، واندفعت نحو الخارج وجعلت بابها مواربًا حتى تتحدث معه، كزت على أسنانها تسأل في توترٍ خائف:

-إنت بتعمل إيه السعادي؟ الواد "هيثم" لسه جوا!

تباهى "محرز" في وقفته، وقال ببرودٍ، وكأن اكتشاف تواجده في تلك الساعة لا يعنيه:

-ما إنتي ما بترديش عليا، وموبايلك مقفول.

ردت بصوتها المتوتر وهي تتلفت حولها:

-تلاقية فصل شحن، ما هو دايمًا بيعمل كده معايا.

غمز لها قائلاً بسماجة:

-ما تغيري العدة يا خالتي!

حذرت بصوتها الخفيض ووجهها الذي احتلته تكشيرة عظيمة:

-بأقولك إيه الحكاية مش نقصاك، قول جاي في إيه بسرعة وخلصني.

دس يده في جيب سترته الجلدية ليخرج منها رزمة من النقود، مد ذراعه نحوها قائلاً بمكرٍ:

ده نصيبك من التوريد إياه، شوفتي أنا حقاني إزاي.

اختطفت النقود من أصابعه ونظرت لهم بعينين طامعتين .. لسنوات كانت شريكة "محرز" السرية في سرقة "بدير" واختلاس الأموال والبضائع من خلال تجارتها غير المعلومة، تربحت الكثير، وادعت فقرها لتستمر في مص دمائه واكتناز الكثير .. رفعت وجهها إليه وسألته:

-كام دول؟

أجابها وهو يمسح على صدره:

عشر بواكي يا خالتي.

سال لعابها وقد شردت تحسب في عقلها إجمالي ما معها من نقود، راقب "محرز" ببسمة ساخرة نظراتها الطامعة، وسألها بتسليّة:

-قوليلي يا خالتي بقي معاكي كام؟ قفلتي الأرنب ولا لسه؟

رفعت كفها أمام وجهه لترد بحدّة:

-الله أكبر، هو أنا معايا حاجة، ده مصاريف البيت شافطة كله.

غمز بطرف عينه وهو يسخر منها:

-أ ما هو واضح، الله يعينه الحاج "بدير"، مش ملاحق بردك.

خبأت النقود في حجابها المنزلي، وابد وجهها بعلامات التجهم قبل أن تأمره بغلظة بالرغم من خفوت صوتها:

-يالآ امشي قبل ما "هيثم" يشوفك.

هز رأسه ليقول ملوحًا بيده:

-ماشي.. هنياله!

راقبته "بثينة" حتى هبط الدرجات فعادت إلى الداخل، وأغلقت الباب بهدوء، اشربأت بعنقها وقد تسمرت للحظات في مكانها لتتأكد من عدم ملاحظة ابنها لما حدث، أرهفت السمع فالتقطت أذناها صوت انهمار المياه الخاصة بالдуш، ابتسمت في انتشاء، وسارت بخفة نحو غرفتها، وبحرص مبالغ فيه أوصدت الباب بالمفتاح لتضمن عدم اقتحام "هيثم" للغرفة في غفلة منها.. اقتربت من الفراش وأزاحت حجابها ووضعت النقود على طرفه، ثم عند قائمته اليمنى الملاصقة للكومود أحنت جسدها لتزيح السجادة القديمة، استخدمت دبووسًا معدنيًا رفيقًا كانت تربط به شعرها في خلع إحدى البلاطات القديمة المتخلخلة، أمسكتها بعناية بيدها ووضعتها إلى جوار النقود على الفراش، ثم التقطت الرزمة ونظرت لها بوهج متحمس قبل أن تقبلها في سعادة، ضمتها إلى جوار مثيلاتها، و همست لنفسها وكأنها تتبادل الحديث مع أموالها:

بكرة أروح أبدلكم بورق من أبو 200 جنية عشان ماتخدوش مكان!

وفي أقل من دقيقة، أعادت "بثينة" كل شيء إلى وضعه السابق لتبدو الغرفة على هيئتها القديمة .. اعتدلت في وقتها، وجمعت حجابها الملقى بإهمالٍ على الأرضية لتستعد للخروج من الغرفة، وبقيت تلك الابتسامة المزهوة تغطي محياها.

خرجت من الحمام ورأسها يلتف بالمنشفة القطنية، سارت بخطواتٍ متهادية نحو التسريحة وجلست على المقعد أمامها، مدت يدها لتسحب علبة الكريم لتدلك به بشرتها، لم تنتبه لصوت فتح باب المنزل، التفتت "خلود" للخلف حين لمحت انعكاس وجهه القاتم في المرآة، لم تكن ملامحه طبيعية، ناهيك عن نظراته الغريبة المسالطة عليها، تعجبت من حضوره المبكر، وسألته باندھاش وقد انزوى ما بين حاجبيها:

إنت متأخرتش برا يا حبيبي؟ ولا نازل ثاني؟

باغتها "تميم" متسائلاً دون تمهيد:

قولتيلي البرشام ده بتاع إيه يا "خلود"؟

تجمدت في مكانها مصدومة من سؤاله المباشر، أحست برجفة تلتاب جسدها، وكأن دلوًا من الماء المثلج هبط فوق رأسها ليشل تفكيرها ويشوش ذهنها .. حاولت التماسك وبذلت مجهودًا كبيرًا لفعل هذا حتى لا ينكشف ملعوبها الحقير في جذبه للفراش تحت تأثير ذاك الدواء، لعقت شفيتها وأجابته بابتسامة باهتة وبصوتٍ مرتبك:

ف.. فيتامينات.



تقدم نحوها بوجهه الذي أريد بغضبه الملبك للأبدان، وأعاد تكرار السؤال عليها كما لو كان يحقق معها:

-إنتي متأكدة؟

بلعت ريقها، وجاهدت لتظل ابتسامتها المزيفة مرسومة على شفيتها حين ردت:

-أيوه يا حبيبي...

ثم أدارت رأسها في اتجاهه، وتابعت بقليلٍ من الثقة:

-دي ماما متعودة تجبهولي وآ...

قاطعها بنظراته الذكية المتشككة في أقوالها:

-بس الدكتور اللي في الصيدلية قالي غير كده!

هربت الدماء من عروقها، ورددت بصوتٍ متقطع في صدمة:

-...دكتور مين ده؟

طوقت أصابعه معصمها ليشدها منه ويجبرها على النهوض، جذبها بعنفٍ محسوسٍ

نحوه متابعًا باقي جملته، ونظراته النارية مرتكزة على عينيها المدعورتين:

قالي دي لا مؤاخذه كده منشطات، وللرجالة!!!

هوى قلبها بين قدميها ارتعابًا، تطلعت عليه بعينين شاخصتين، أحست بأن نهايتها

قد أوشكت، تجمدت الكلمات على طرف لسانها وهي تعتصر عقلها اعتصارًا

لتخلق أي أكذوبة تنجدها من شره المستطير. هزها "تميم" بقسوة وهو يسألها بما

يشبه التهكم:

- ما هو أيد المنشطات دي مش ليكي يا "خلود"؟  
تشنجت خوفاً من عدائته الواضحة، وردت بتلعثم مذعور:  
-أنا.. كنت

استغربت من توجه تفكيره للظن بتعاطيها لتلك النوعية من الأدوية، لكنه صدمها  
بسؤالٍ كان وقع عليه كمن لامس بدنه تياراً كهربياً شديد القوة:  
-ولا دي ليا وأنا مش عارف؟

ألجمت الصدمة الممتزجة بالخوف لسانها، نظرت له في هلعٍ، بينما تابع هزه القاسي  
لها وهو يصرخ بها:  
-انظقي.. سكتي ليه؟

ردت بصعوبةٍ، وعيناها تهربان من نظراته التي تكشفها:  
-إنت.. فاهم غلط.

أرخی قبضته عن يدها التي اصطبغ جلدها بحمرة شديدة من ضغط أصابعه عليها،  
لوح بذراعيه في الهواء مكماً صياحه الهادر بها ليستنطقها:

حبيب فهميني إنتي الصبح بدل ما أنا واقف زي القرطاس كده قصادك.

برق عقلها بفكرة جهنمية، وكأن شيطانها يعمل بكامل طاقته لتطويع الأمور لصالحها،  
استجمعت جأشها لتدعي كذباً:

-ده.. بتاع.. "هيشم".

ارتسمت أمارات الاستغراب المستنكر على وجهه وهو يقول في حيرة:

- "هيشم؟ ويعمل إيه عندك؟

تفست الصعداء حين رأت خدعتها تنطلي عليه، وتابعت مسترسلة في كذب:  
-دي.. ماما لاقته عنده في الأوضة.. أيام المشكلة إياها مع البت خطيبته.. خافت  
يكون بيتعاطى حاجة، فقالتلي أعينه هنا.

نظر لها في شكٍ قبل أن يعقب متسائلاً:

-والله! طب وهي مرمتهوش في الزبالة ليه؟

تصنعت العبوس، وجاوبته بضيقٍ لتزعزع شكوكه نحوها، وكأنها ليست الملامة في  
تلك المسألة الخطيرة:

-معرفش.. اسألها.

علق بلهجة جادة أخافتها:

-ما أنا لازم هسألها.

تماسكت أكثر بعد تحويل دفة الأمور نحو والدتها، وأضافت بما يشبه الرجاء:  
-ماتنساش يا "تميم" إن "هيشم" ده أخويا، وأنا خايفة عليه.. فمافيش داعي تكبر  
المسألة.

سد لها نظرة غائمة وهو يقول بصوته المحتقن:

-وماله.. حقك، بس بتكدي عليا ليه؟

ارتفع حاجباها للأعلى في توترٍ، بينما أكمل بتشنجٍ والاتهامات التي تدينها تتصاعد  
في عينيه:

-لأ وتقومي تتسحبي في نص الليل زي الحرامية عشان تبدي الدواء، آل يعني مكفراني نايم على وداني، مش دريان بحاجة.

هتفت تلومه ومبررة تصرفها:

خوفت تعمل مشكلة تانية معاه، ولا حتى تضربه، واحنا مصدقنا حاله ينصلح.

هدر في تهكمٍ ساخط:

يا سلام على الطيبة!!

ارتخت أعصابها المشدودة قليلاً، شعرت أن الكفة رجحت مجددًا لصالحها مما أكسبها المزيد من الثقة، وردت بصوتها الذي غلفه الضيق لتبدو مقنعة في غضبها منه:

-إنت عارف احنا كلنا يهمننا مصلحته، أكيد مش هابقي عاوزة أضرب أخويا، وإنت لو مكاني هتعمل اللي تحافظ بيه على أهل بيتك، ما تلومنيش لما أحاول أحميه.

نظر لها مطولاً بغموض، لم تعرف إن كانت نظراته النافذة نحوها جعلته يصدقها أم لا، وباقتضابٍ قال لها:

-ماشى يا "خلود".

خشيت من تبعات ردة فعله غير المتوقعة، فالأمر تلك المرة اتخذ منحًا آخرًا لم تُرتب له جيدًا، وكما عهدته لم يكن ليمرر تلك المسألة دون تحقق متعمق فيها، لهذا سألته وقد ضاقت عينها:

-إنت مش مصدقني؟

أوما برأسه قائلاً:

هنشوف.

نظرت في عينيه قائلة بثبات:

-اطلب أُمي لو عاوز تتأكد، وهتعرف منها الحقيقة..

ثم وضعت يديها على ذراعيه، ضغطت برفقٍ على عضلاته، وأسبلت عينيها نحوه، تنهدت ببطءٍ لتعاود تسول عواطفه وهي تهتف:

- "تميم"، أنا بأحبك ومقدرش أبعد عنك، نفسي نرجع زي أول جوازنا، الحياة بينا كانت أحسن من دلوقتي، كفاية تعذب فيا.

ولتظهر شغفها به طوقت جسده بذراعيها ليشعر بها عليه، وارتمت برأسها على صدره هامسة له بحرارة:

-أنا محتاجة حضنك أوي.

نبتها عنه قائلاً بجمودٍ، والجفاء يظهر في نظراته نحوها:

مش وقته.

أنقذه من دلالتها غير المستساغ رنين هاتفه المحمول، أجب على اتصال والده به قائلاً بزفيرٍ متعب:

-أيوه يابا، لأ أنا جاي على طول، كان ورايا مصلحة كده، تمام، مش هتأخر.

أنهى المكالمة معه، ونظر لها ليقول وهو يشير بسبابته:

هنتكلم أما نرجع.

رسمت بسمه ناعمة على شفيتها حين ردت:

حاضر يا حبيبي.

تبعته في خطواته متسائلة:

عاوزني أطبخلك إيه على الغدا؟

رد بتجهم:

هاكل مع الرجالة، عندنا شغل كثير.

دعت له من خلفه، وتلك البسمة المتكلفة تزين محياها:

-ربنا يقويك يا حبيبي، أدها وإدود.

ظلت تسمعه بكلماتها المحفوظة عن ظهر قلب والتي تشد بها من أزره إلى أن خرج من المنزل وأغلق الباب ورائه، اندفعت عائدة إلى غرفة النوم بخطواتٍ أقرب للركض، أمسكت بهاتفها المحمول واتصلت بأحدهم، وضعت الهاتف على أذنها وصاحت بأنفاس مضطربة ودون مقدمات حين سمعت صوت والدتها:

-أيوه يامه، في مصيبة حصلت!!!!

.....

ألقت نظرة أخيرة مدققة على حقيبة ظهرها التي ملأتها بما تحتاج إليه من أدوات لتستخدمها في وظيفتها الجديدة مع رفيقتها "علا" التي عرضت عليها العمل معها في محل تغليف الهدايا الذي تديره في وقت فراغها، لم ترفض "فيروزة" عرضها، كانت بحاجة ماسة للنقود لتسدد الالتزامات الملاقاة على كاهلها .. رأتها والدتها فأقبلت عليها تسألها باهتمام:

-مش هتفطري برضوه يا "فيروزة"؟

أجابت نافية وهي تشد السحاب لتغلقتها:

-أ يا ماما، ورايا كام مشوار كده هاخلصهم، وبعدين عاوزة ألحق أروح لـ "علا"  
عشان نجهز ديكورات السبوع، يدوب الوقت يكفي بحيث نسلمها قبل العصر.

ربتت على كتفها، وقالت كنوع من الدعم لها:

-ربنا معاكو يا بنتي ويكرمكم.

ابتسمت تقول في تعب:

-اه يا ماما إدعيلي، لو الشغل بتاعنا ده ضبط هنتشهر أوي، الحاجات دي بتاكل  
مع الناس.

ردت بحنو أمومي:

-أنا بأدعيلك من غير ما توصيني يا "فيروزة".

حركت رأسها في استحسان، وعلقت حقيبتها على كتفها استعدادًا للذهاب،  
استوقفتها "آمنة" متسائلة:

-قوليلي، لسه زعلانة من أختك؟

تنفست بعمق لتثبط ما يعتريها من مشاعرٍ مستاءة، وردت بوجوم:

-هي حرة، وأدرى بمصلحتها عني.

مسحت أمها برفق على ذراعها، وقالت لها بنظراتٍ متوسلة:

-إنتو بقالكو كثير متخاصمين، وهي مضايقة إنك واخدة جمب منها، وده آ....

قاطعتها بحدة ملحوظة:

-ولا واخدة جمب ولا حاجة، كل الحكاية إني ماليش دعوة بأي حاجة تخص الجواز دي.

رجتها بغصة عالقة في حلقها:

يا بنتي إنتي بس لو تسمعيها، تفهمي هي عملت كده ليه.

قالت بحسمٍ لتنتهي النقاش في تلك المسألة:

سمعت اللي أنا عاوزاه خلاص، كلامي مالوش لازمة معاها، ولا هيقدم ولا هياخر، ويالا عشان اتأخرت على "علا".

تحركت في اتجاه باب المنزل، لكن اعترضت "همسة" طريقها، واستطرد تقول وعبراتها الرقراقة تحتجز في حدقتها:

- "فيرو"، أنا ...

لم تنظر نحوها، بل تعمدت تجاهلها بقساوة اكتسابها نحوها بعد موقفها الأخير الذي أخرجها وأخذلها، تجاوزتها قائلة ببرود:

-سلام يا ماما.

تنهدت "همسة" في إحباطٍ حزين وهي تراها تخرج من المنزل صافقة الباب بقوة خلفها، التفتت ناظرة إلى والدتها، وهتفت بصوت مليء بالشجن وقد انسابت دموعها:

-برضوه دماغها ناشفة، هي بس لو تديني فرصة أشرح لها أسبابي.

هونت عليها والدتها من الأمر، وعلقت بنبرة مواسية:



معلش يا حبيبي، يومين وهتهدي، وكل حاجة هترجع زي ما كان.  
ردت بيأس:

يا ماما ده احنا داخلين في أكثر من أسبوعين من ساعة اللي حصل، وبرضوه هي  
مقطعاني، حتى معدتش بتنام معايا، وأنا قلبي واجعني أوي، احنا عمرنا ما اتخصمنا  
كل المدة دي

علقت عليها بنبرة مليئة بالعشم:

هتكلم معاها تاني، وربك يهديها، ويصفي النفوس.

تحت طائلة من الضغوطات المتصاعدة التي استنزفت طاقتها بالكامل وافقت  
"همسة" على عرض الزواج المتكرر لتهي صراعها النفسي، لا أحد يشعر بذلك  
الخوف العظيم الذي ينتابها كلما اختلت بنفسها وتذكرت كلمات "بثينة" القاتلة  
لإحساس الأمومة الغريزي في أي فتاة.. افتقرت إلى الشجاعة لتوافق آنذاك على  
القيام بالتحليل الذي يثبت صحة ادعائها من عدمه.. خافت من الحقيقة التي يمكن  
أن تصدمها إن صدق قولها وكانت امرأة عقيم، رفضت ارتعابًا مما يمكن أن يصيبها  
جراء المعرفة التي ربما ستوصمها للأبد، سيطر عليها ضعفها وخوفها من المواجهة  
لترك تلك المسألة المصيرية في طيات الغيب، ارتضت بـ "هيثم" عن طيب  
خاطر، فبالرغم من كل العقبات التي واجهها إلا أنه ما زال متمسكًا بها، يحبها  
بجنون، ويُرِيدُها كزوجة ولن يتراجع عن رغبته بها.

.....

لفت شرائط الزينة حول العلبة الكرتونية التي انتهت من تغليفها لتضعها على الجانب،  
مدت يدها لتمسك بالورقة الصغيرة وترفعها أمام عينيها لتراجع مهامها المتبقية،

اتجهت نظرات "فيروزة" نحو الباب الزجاجي الذي فتح للتو، ابتسامة صغيرة تكونت على شفيتها وقد أطلت "علا" بوجهها البشوش عليها.. نظرت إلى ما تحمله يداها من أكياس ممتلئة، أسندتها على الطاولة وألقت بثقل جسدها على مقعدها، سألتها الأولى مستوضحة:

ها لاقيتي ورق السلوفان؟

أجابتها بعد زفير طويل:

أيوه، ده بعد دوخة، لاقيته في الآخر عند المكتبة النوعية.

ردت وهي توزع نظراتها بينها وبين الأكياس الورقية التي تقوم بوضع الحلوى بها:  
أنا من الأول قولتلك روجي هناك، هما عندهم كل حاجة.

وافقتها الرأي، وقالت:

معاكمي حق، بعد كده اللي هايبقى ناقص عندنا هنشوفه هناك على طول بدل اللفة الطويلة.

التقطت "علا" أنفاسها ونهضت من مقعدها لتتجه إلى رفيقتها، وقفت قبالتها وسألتها:  
ها.. قوليلي، أساعدك في إيه؟

ابتسمت تجيبها موضحة من تلقاء نفسها:

أنا خلاص قفلت هدايا عيد الميلاد بتاع البنوتة "سما"، وبأجهز دلوقتي في شنت السبوع، حطيت البونبونيرات بعد ما قفلتها، ولزقت الكروت، والشيكولاته ظبطتها، وآ...

قاطعتها في انبهارٍ:

- ماشاء الله عليكي، بتنجزني بسرعة.

ردت بتفاخرٍ، وعيناها تلمعان في فرح:

طبعًا، هو أنا جاية أهزر، أنا أستاذة في تقفيل الحاجة.

مدحتها "علا" قائلة:

- لأ برافو عليكي، أنا بأخذ وقت طويل، وبصراحة إنتي مضبطة كل حاجة.

قالت "فيروزة" مجاملة دون أن تفتت ابتسامتها:

حبيبتي، تسلميلي.

انتبهت كلتاهما لذاك الشخص الذي ولج لتوه للمحل، هلت "علا" في سعادة غريبة:

- مش معقول، شوفي مين جاي عندنا!

رفعت "فيروزة" أنظارها نحو "آسر" الذي صدمها بحضوره، رسم تلك الابتسامة

اللبقة على ثغره، واستطرد يقول وهو يحمل باقة ضخمة من الورد الأبيض الملفوف

بغطاءٍ بلاستيكي شفاف:

صباح الورد عليكم.

على الفور ردت "علا" بمرح زائد:

صباحك جميل.

أضاف بلطافة:

-الورد للورد.

تناولت "علا" الباقة منه بحذر، وشكرته بابتسامتها الرقيقة:

ميرسي أوي.

كان الوقت قد قارب الظهيرة تقريبًا، ولم تحبذ "فيروزة" الاستئذان مبكرًا بحجة كاذبة وإلا لبدا الأمر مكشوفًا لكونها لا تحبذ أسلوب "آسر" التطفلي في فرض شخصه عليها، أولته ظهرها وادعت انشغالها بتغليف إحدى الهدايا، عله لا يبادر بالحديث معها .. اقتربت منه "علا"، ورددت برقة:

-أنا مش مصدقة، دي أول مرة تشرفني هنا يا "آسر".

تنحج بصوتٍ خفيض، وعلق عليها:

مبروك على المحل يا "علا"، أنا أسف، هي متأخرة شوية، بس كان لازم أجي بنفسي وأباركلك.

هتفت في حبور:

-الله يبارك فيك.

ثم اتجهت إلى مكتبها الذي يحتل الركن الخلفي من المحل ووضعت الباقة عليه ريثما توضع لها مكانًا آخرًا يظهر اهتمامها بها، استدارت تشكره مجددًا:

-الورد شيك أوي.

قال وعيناه تتجولان على ظهر "فيروزة" عله تستدير وتنظر إليه:

دي حاجة بسيطة، ويا رب ذوقي يعجبك.

تنهدت قبل أن تثني على هديته:  
تحفة يا "آسر"، عندك استايل في الهدايا مختلف.  
- ماشي.. مقبولة منك يا "آسر".  
حين لاحظ تجاهلها لها، تنحج الأخير متسائلاً عن قصد:  
- إزيك يا آنسة "فيروزة"؟  
أجابت وهي تنظر له بطرف عيناها:  
- الحمد لله.  
دنا منها متسائلاً باهتمام:  
- وأخبار أختك إيه؟  
أجابته باقتضابٍ موجز، وتلك النظرة المنزعجة تكسو عيناها:  
- تمام.. بقت أحسن.  
تساءلت "علا" بتهديبٍ وقد تحركت من مكانها لتصبح قريبة منه:  
قولي يا "آسر" عاوز تشرب إيه؟  
التفت برأسه نحوها، ورد مبتسماً:  
- لو قهوة يبقى تمام.  
عضت على شفثها السفلى، وقالت بحرجٍ وتعبيرات وجهها توحى بخجلها:  
- أوبس.. احنا معندناش قهوة.

علق دون تكليف:

-خلاص مش مشكلة يا "علا".

اقترحت عليه بعد تفكيرٍ سريع:

-بص في محل قريب يعمل كابتشينو حلو، هاطلب أورد ر بسرعة وأرجعلك على طول.

اعترض بلباقة:

-ماتتعبيش نفسك يا "علا".

أصرت عليه بحماس:

-لأ إزاي، دي أول مرة تشرفني هنا، أنا أصلاً مش مصدقة إنك موجود..

اتجهت بخطواتٍ شبيهة متعجلة نحو باب محلها، والتفتت نحوه ترجوه بدلالٍ مستحب:

-اوعى تمشي، بجد هزعل.

هز رأسه موافقاً وهو يرد:

حاضر.

خرجت من المحل قاصدة المطعم القريب لتأتي بمشروبات ساخنة لثلاثتهم .. شعر "آسر" بالرضا، فقد بدت الفرصة سانحة لتبادل الحديث الودي مع "فيروزة" التي اتخذت الصمت سبيلها خلال تواجده، طرق بأصابعه على الطاولة مردداً بصوتٍ شبه مرتفع ليثير انتباهها:

لطيفة "علا".

لم تعلق عليه، واكتفت بتحريك رأسها بإيماءة خفيفة، سألتها بتهذيب:

محتاجة مساعدة؟

رفضت بجمود:

شكراً.

لاحقها "آسر" بنظراتها للحظاتٍ قبل أن يدنو أكثر منها لتشعر باقترابه الذي يزعجها، زفرت في ضيقٍ، وظهرت علامات التبرم على محياها، لم تملك من الصبر ما يجبرها على تحمله، لذا استدارت كلياً نحوه وأشارت بيدها الممسكة بمسدس الشمع الساخن:

إنت ممكن تستريح لحد ما "علا" ترجع.

أسبل نظراته نحوها، وغمغم بابتسامة مرسومة بعناية:

أكذب عليك لو قولتلك إن جاي مخصوص عشانك.

لم تطق "فيروزة" ابتساماته السخيفة، ولا تعليقه الأخير، قطبت جبينها متسائلة  
بوجومٍ مستنكر:

أفندم، مش فاهمة؟!

تابع موضحاً، وعيناه تتأملان تعبيراتها:

-يعني أنا هسافر بكرة، ورايا شغل ضروري أخلصه، وحييت أسلم عليك قبل ما أمشي، أصلي حابب إن الناس اللي بأعزهم يكونوا آخر حد أشوفهم.

فهمت تلميحه المتواري خلف تلك الكلمات المرتبة، تقلص وجهها وردت بحدة طفيفة قاصدة لإحراجه:

-أستاذ "آسر" متزعلش مني لو قولتلك إنه مش فارق معايا اللي بتقوله ده.

بدا ردها فظًا ومخالفًا لما توقعه حين يبدي اهتمامه بها، تنحج معتذرًا منها:

-أحم... أنا أسف لو ضايقتك.

قالت ببرودٍ، وكأن اعتذاره لا يعينها من الأساس:

-إنت حر في حياتك، ده شيء ما يخصنيش.

حاولت تبرير اهتمامه، وهتف بتلغيم:

-أنا بس كنت حابب يعني آ....

قاطعته بنبرة جافية ونظراتها الممتعضة مرتكزة عليه:

يا أستاذ "آسر"، أنا واحدة دوغري ماليش في أي حوارات، فيا ريت توفر على

نفسك أي كلام هتقوله.

ابتلع ريقه، ونكس رأسه قائلاً:

-أنا.. بأجدد اعتذاري منك..

تجاهلت التعليق عليه ورمقته بنظرة جليدية جافة، وجد "آسر" نفسه في موقف

حرج، تراجع مبتعدًا عنها وادعى تطلعه إلى الهدايا المعلقة على الأرفف .. ومع ذلك

لا ينكر اهتمامه بتلك الحالة المتفردة والمناقضة للمعهود من الفتيات التي التقى بهن،



استحوذت على تفكيره بالرغم من أسلوبها الجاف، عادت "علا" من الخارج، وهتفت متسائلة بصوتٍ شبه لاهث ووجه مشرق:

-أتأخرت عليكم؟

ردت "فيروزة" نافية وابتسامةٍ سخيفةٍ للغاية:

-لأجيتي في وقتك يا "علا"، الأستاذ "أسر" كان يدوب هيمشي.

تحولت أنظارها نحوه، وسألته بعبوسٍ احتل قسماتها:

-إزاي؟ إنت لحتت؟ ده أنا قولتلهم بيعتوا الأورد على هنا، تعالى نتكلم شوية.

نظر إلى "فيروزة" بضيقٍ قبل أن يرد متصنعاً الابتسام، وكأنه يتحدى بموافقته فظاظتها معه:

عشان خاطر بك بس يا "علا"، أنا مش هامشي.

رمقته "فيروزة" بنظرة باردة منزعجة قبل أن تشيح بعينيها بعيداً عنه، هزت رأسها في سأم لتغمغم مع نفسها بكلماتٍ متبرمة تعبر عن استيائها:

-الحكاية مش نقصاك ..... !!!

.....

## الفصل السابع والثلاثون

زحامٌ لا يطاق سيطر على الأزقة الضيقة والطرقات المؤدية إلى الدكان في ساعة الظهيرة مع ارتفاع درجة الحرارة نسبيًا، كذلك احتلت ناصية الشارع شاحنة ضخمة لتفرغ البضائع التي أتت بها، انهمك العمال في حمل الأقفاص ونقل الخضر والفاكهة إلى مكان تخزينها بالدكان، بينما تحرك "تميم" في اتجاه "محرز" الذي كان يقف على رأس العمال ليتابعهم، سأله الأول بصوتٍ مجهود:

-دي النقلة الكام كده؟

أجابه بوجه متعرق:

-الخامسة يا "تميم".

زفر قائلاً في تعب:

-كده مش فاضل غير نقلتين كمان ويبقى قفلنا التوريد، مضبوط؟

هز رأسه معقبًا:

-أيوه.

سأله "تميم" بجديّة ظاهرة على قسماته:

-الفواتير استلمتها؟ لو معاك هاتها، عاوز أرجعها.

تردد للحظة في إعطائها له، فهناك حمولة زائدة تخصصه جاءت ضمن المنقول، وليست مسجلة في الأوراق، وربما إن قام بالمراجعة لاكتشف أمرهم، ابتسم "محرز" ليخفي توتره، وقال:

حاضر يا أبو نسب، أخلص بس دول وهاشوفهم.

تعقدت تعايره متسائلاً في استغراب:

ليه؟ هما مش معاك؟

أجاب بنفاذ صبر:

هما موجودين جوا، بس إنت شايف الشغل الكثير و..

أنجده من افتضاح أمره رنين هاتفه، ادعى بحته عنه وتابع:

هاشوف مين بيتصل.

التوى ثغر "تميم" في امتعاض من سماجته ومماطلته، تلفت حوله ليتابع حركة

العمال البطيئة، هدر بهم بضيق:

يالاً يا رجالة، مش هاتقضي اليوم كله في الكام قفص دول.

هتف "محرز" فجأة وقد تبدلت تعايره للقلق:

جاي على طول يا "هاجر"، هو واقف جمبي، إنتي بس متتحركيش.

انتبه له "تميم"، وسأله:

في إيه؟

أجابه وتلك الربة قد سيطرت عليه:

- "هاجر" بتولد، وأنا رايجلها.

ربت على كتفه قائلاً:

-الحقها، وأنا هاجيب أمي وأحصلكم على المستشفى.

رد عليه مؤكداً:

-متأخرش بالله عليك، لأحسن دي موصياني.

علق مبتسماً:

يا عم دي أختي، هي حد غريب؟ كفاية رغي وروحها

على طول، كملها بالخير معاها يا رب.

هتف "محرز" بتلك الكلمات وهو يهرول ركضاً نحو سيارته ليستقلها، بين اتجاهه "تميم" عائداً إلى والده ليطلعه بأمر شقيقته -وكذلك والدته- ليصطحبهما لاحقاً إلى المشفى بينما يتابع هو استكمال الأعمال الناقصة.

.....

زغرودة تبعتها بأخرى أكثر حماسة وسعادة لتملأ جنبات الغرفة بصوتها المهلل تعبيراً عن ابتهاجها بولادة حفيدها الأول، اضطرت "ونيسة" مرغمة أن تتوقف عن ذلك بناءً على الاعتراض الجدي من إدارة المشفى لأجل توفير الهدوء للمرضى، غطت علامات الفرحة أوجه كل المتواجدين، ورغم أنين "هاجر" الخافت إلا أن فرحتها كانت لا توصف، فاليوم قد وضعت رضيعها، أدارت رأسها للجانب لتتحقق في فراش المولود الملاصق لفراشها، مسحت والدتها على جبهتها بيدها، وانحنت عليها تقول:

-حمدلله على سلامتك يا قلب أمك.

تساءلت "هاجر" بصوتٍ واهن:

-وابني؟

أجابتها بفرحة تغمر صوتها ونظراتها نحوه:

-بخير يا حبيبتى، أهوو جمبك نايم زي الملاك، ربنا يحفظه من العين.

هلل "محرز" صائحا ببهجة عارمة:

-الحمدلله ربنا رزقنا بأول حفيد للعيلة...

ثم دنا من حماه وأضاف بلؤم ماكر:

-وبعد إذذك يا حاج "بدير" أنا ناوي أسميه "سلطان" عشان تحل البركة علينا.

ربت الأخير على كتفه مرحبا:

-وماله يا ابني، ونقوط "سلطان" الصغير جاهزة.

هتفت "ونيسة" من خلفه معقبة:

-ده غير أحلى ليلة وسبوع هيتعمله، ده أول فرحتنا، بس تقوم أمه بالسلامة إن شاء الله.

اتسعت ابتسامة "محرز" المنتشية، وقال بامتنان:

-ده ابنكم قبل ما يكون ابني.

بالطبع كان مترقبا على أحر من الجمر لتلك اللحظات حتى يحصل على جزءا آخرًا من تلك الثروة التي لا تنضب، يحتاج لملء جيوبه بالمزيد من الأموال، وإن كان بالتملق والتدليس، المهم ألا يخرج فارغ الأيدي.

.....

لم تترك لها الخيار سوى الذهاب إليها، وإجبارها على الحديث معها في مقر عملها، فإن كانت ترفض مواجهتها وتتجنبها، وكأنها غير موجودة، فهي لن تستسلم وترتضي بعزوفها عنها، لن تترك الأمور معلقة بينهما هكذا، ستدفعها للإصغاء إليها وتقبل وجهة نظرها، تشجعت "همسة" واتجهت إلى محل الهدايا الذي تعمل به توأمتها، سحبت نفسًا عميقًا لفظته دفعة واحدة قبل أن تلج لداخل المكان، ألقت نظرة مترددة على من فيه، شعرت بقليل من الارتياح لعدم وجود زبائن فيه، ستكون على أريحيتهما، التفتت برأسها للجانب حين نادتها "علا" بترحيب ودود:

-مش معقول، "همسة"! إيه المفاجأة الحلوة دي!؟

ابتسمت برقةٍ وهي تسألها مجاملة:

إزيك يا "علا"؟

أجابتها بحيويةٍ وقد امتدت يدها لتصافحها:

أنا تمام ..

ثم أحنت رأسها عليها لتقبلها من وجنتيها قبل أن تتراجع "همسة" لتقول ونظراتها تتجه ناحية شقيقتها:

-مش هاعطلكم كثير، أنا كنت جاية لـ "فيروزة".

هزت "علا" رأسها في تفهم، كانت على علم مسبق بالخلاف بينهما، دعتهما للبقاء قائلة بلباقةٍ ومن تلقاء نفسها:

-تعالي يا "هموسة"، ده محللك، كده كده أنا طالعة أسلم أوردرات، خدوا راحتكم.

شكرتها بنظراتها الممتنة، وترقت انصرافها لتبادر ممهدة للحديث بينهما:

لسه برضوه زعلانة مني؟

تجهمت تعابير "فيروزة"، ورمقتها بنظرة حادة قبل أن تدمدم في ضيقي:

جاية ليه؟

ابتلعت ريقها وردت:

عاوزة أتكلم معاكي.

هتفت ببرود، وكأنها تطردها:

-وده مش مكان للكلام، أنا ورايا شغل كثير.

وبالرغم من أسلوبها القاسي المليء بالجفاء إلا أنها تفهمت موقفها نحوها، وقالت

بإصرارٍ رافضة الاستسلام:

-مش هامشي يا "فيرو"!

ضاقت عينا "فيروزة" بانزعاج واضح، بينما تابعت "همسة" موضحة:

-ما هو أنا مش عارفة أتلّم عليك في أي مكان، وإنتي مش مدياني فرصة أشرحك

حاجة، وآ....

قاطعتها بحدّة لتغلق سبل الحوار معها:

-إنتي حرة في اختياراتك، أنا ماليش دعوة بيكي.

اعتذرت منها "همسة" برأس منكس قليلاً، وعينين حزينتين:

-أنا أسفة يا "فيروزة" .. حقك عليا ...

سددت لها نظرات غاضبة، وأطبقت على شفيتها مانعة نفسها من الكلام، في حين أكلت "همسة" بنفس الوتيرة الهادئة، وتنهيداتها تسبقها:

-أنا مقصدش أخرجك قصادهم، بس فعلاً أنا عاوزة أكمل حياتي مع "هيشم" واتجوزه.. هو بني آدم كويس ويحبني.

انفجرت صارخة فيها عليها تفيق من الأوهام التي تظن أنها تملأ رأسها الفارغ:

-ده مش مناسب ليكي، إنتي تستاهلي الأحسن منه، إيه اللي يربطك بواحد زي ده؟ عشان كلام اتقال من أمه الحقودة ولا أخته الغلاوية؟

اعترفت لها بصدق، ودون ادعاء:

-أنا بأحب "هيشم" زي ما هو بيحبني، دي الحقيقة.

ردت ساخرة منها:

-بتحبيه؟ على إيه بالضبط؟ إيه المميز فيه يخليكي تحبيه؟

أجابتها ببساطة:

متمسك بيا رغم اللي حصل.

يأست "فيروزة" من محاولاتها الفاشلة لإزالة تلك الغشاوة التي تحجب الحقيقة عنها، وهتفت ترد بإحباطٍ ظاهر على ملامحها، وأيضاً ملموس في نبرتها:

-بصي أنا تعبت من الكلام في الحكاية دي، اعلمي اللي إنتي عاوزاه، ميخصنيش.



ثم أولتها ظهرها لتكمل عملها في تغليف علبة الهدايا، ورغم الحزن البادي على وجه "همسة" من جمودها معها، إلا أنها تقدمت نحوها، وضعت يدها على ذراعها، وقالت بما يشبه الرجاء:

-أنا عاوزاكي جمبي زي زمان، احنا روح واحدة وآ...

هتفت مقاطعة جملتها المستجدية لمشاعر الأخوة:

- "همسة" أنا ورايا شغل، مش فاضية.

لم تجد الأخيرة بدءًا من النقاش معها، ومع ذلك امتدت ذراعها لتحتضنها من الخلف، أسندت "همسة" رأسها على كتف توأمتها، وأخفضت صوتها قائلة لها بصدق:

-حقك عليك يا "فيرو"، مسمحاكي مهما زعلتي مني، وبأحبك على فكرة أوي.

اقشعر بدنها من كلماتها العفوية، كانت تفتقد إلى حضنها كثيرًا بالرغم من القساوة التي تدعيها، أدارت رأسها نحوها وردت بصوتٍ شبه مهتز محاولة إخفاء تأثرها: ممكن تسيبني أكمل شغلي.

أرخت ذراعها عنها، وتنهدت قائلة:

-حاضر، بس هستناكي نتغدى سوا لما ترجعي البيت.. مش هاكل غير واثني معايا، ماشي؟

وقبل أن تعلق بالرفض انسحبت "همسة" من المحل تودعها:

-أشوفك على خير.

نظرت "فيروزة" مطولاً وبعينين مشفقتين نحو الباب الذي خرجت منه توأمتها وقد تهدل كتفاها، ثم نفخت مرددة باستياءً، وكأنها تبوح بمشاعرها المخبأة علناً:  
-أنا خايفة عليك يا "همسة"، وزعلني منك عشان ترجعي عن اللي في راسك.

.....

بنظراتٍ مأكرةٍ ووجه تحتله أمارات الخبث أصغت "بثينة" -التي جاءت لزيارة ابنتها بعد بضعة أيام- للتطورات الحادثة بين ابنتها وزوجها بعد الحادثة الأخيرة التي كادت تكشف مخططتهما اللئيم في استنزاف رجولته بالأدوية المنشطة .. اشتكت "خلود" لوالدتها من حالة الجفاء السائدة بينهما، وهجر "تميم" للفراش بشكلٍ أصابها بالخوف والحنق ليلاً متواصلة. احترقت شوقاً لأحضانه، كما تلهفت بجنون لحبه النابع منه وليس بمفعول الدواء الذي يثير غرائزه، اغرورقت عينها بالدمعات الكثيفة، وهتفت متسائلة في حيرة، والحزن العميق يخيم على قلبها:

-يامه ده مش عاوز يقرب مني من ساعة اللي حصل، وبينام في الأوضة الثانية، وأنا هاموت ويرجع معايا زي الأول.

زمت شفيتها قائلة بتعاير جادة:

-كله هيتحل، وبعدين هو إنتي عملتي حاجة غلط!؟

أومات نافية، فواصلت والدتها القول موضحة لها:

-إنتي اتصرفتي صح، وجدعة إنك رستيني على الحوار من أوله...

ثم شددت من نبرتها حين أضافت تنصحها:

-واتكي على النقطة دي كثير، إنك عملتي ده عشان تخلي أخوكي مايعملش الغلط مع بنات الناس، وما تزوديش معاه في الكلام.

ارتفع الكدر في عيني "خلود"، شهقت قائلة بأنفاس متقطعة بسبب بكائها المتزايد: أنا قلبي واقع في رجليا من اليوم ده يامه، خايقة يكتشف الحقيقة، ولا أغلط بكلمة توديني في داهية.

قاطعته حاسمة الأمر بالنسبة لها لتحثها على السيطرة على خوفها:

يا بت اجمدي كده، وبعدين قولتلك أي مصيبة تحصل لبسيها في أخوكي والبومة اللي اتنيل خطبها، أل يعني هي عاوزة تخرب بينكم عشان تنتقم لأختها، وكتر خيك إنك بتحاولي تجمعي بينهم.

برقت نظراتها بشكلٍ أظهر قبولها بكلماتها الخبيثة .. ابتسمت "بثينة" مضيفة في مكر:

-وأنا هافهم المحروس جوزك كده بالمحسوس إنه يراعي ربنا فيكي، إتي ليكي حقوق عليه، والمفروض ما يقصرش معاكي.

هنا هتفت "خلود" ترجوها، وكأن حية لدغتها لتتوقف نوبة بكائها ذعرًا:

-لأ يامه، كده هتعملي مشكلة معاه، هو ما يبجش نتكلم في المواضيع دي مع أي حد، ده لو عرف إني بأحكملك أي حاجة هيولع فيا!!!!

هزت رأسها معلقة بامتعاض:

-خلاص هاجيبهاله بشكل ثاني، إني نفسي أفرح بعوضكم، أظن ده من حقي؟!

وافقت على ذلك، وردت بإيجاز:

-ماشي.

لكزتها والدتها في جانب كتفها، وأضافت:

-وبعدين كده روقي، ده إنتي ربنا ساترها معاكي عشان نيتك الصافية.

كفكت عبراتها المحتجزة في عينيها لترد بعبوس: موافق

-أيوه.. بس هو مش جمبي.

نظرت لها في ضيقٍ قبل أن تشرد لبرهة لتستغرق في أفكارها، وكأنها تسعى لإيجاد الحل السحري الذي يعيد روابط الود والوصال بينهما، هداها عقلها بعد تفكيرٍ متعمقٍ لحل بسيط، كانت واثقة أنه سيفي بالغرض .. وبثقة واضحة استطردت تقول:

-محلولة يا بت، وحياة مقاصصي هيلزق فيكي.

أوحت لها تعبيرات والدتها أنها على يقين كامل من صلاحية اقتراحها الغامض، لذا قطبت جبينها متسائلة في فضولٍ متلهف:

-إزاي؟

أجابت مسترسلة:

-استغلي موضوع ولادة أخته وقوليله إنك عاوزة تقعدي مع خالتك تساعديها، باعتبار إن البت "هاجر" أختك، وماينفعش تسبيها، وبكده إنتي هاتجبريه ييات معاكي في نفس الأوضة، ولما يبقى معاكي لوحده ادلعي عليه، وبكام حركة كده من إياهم هتلاقي الشوق جايبه.

انفجرت أساريرها مبتهجة لحلها، ودون انتظارٍ ارتمت في أحضانها تحتضنها قائلة بما يشبه الثناء:

-الله عليك يامه، هي دي الحلول، من غيرك ما كنتش هاعرف أتصرف.

ربتت على ظهرها قائلة بتفاخرٍ:

-ده بنتي، هو أنا هابخل عليك بحاجة؟

ثم أبعدها عنها، وتابعت بتعبيراتها المهمة:

-قومي يالا كلميه عشان تعرفيه إنك هتروحي هناك.

ردت واللهفة تملأ قسماتها:

على طول.

.....

على غير المتوقع، انتهت كلتاها من إنجاز العمل المطلوب في زمن قياسي، وتبقى فقط جرد النواقص لشرائها في الغد، فرغت "فيروزة" من معاينة ما يخصها وسجلته في ورقة صغيرة، ثم أضافت عليها "علا" ما تحتاجه لتتولى الأخيرة بعد ذلك الاتصال بالمكتبة للتأكد على إرسال المطلوب كاملاً، وبعد نصف الساعة كانت الاثنان تقفان أمام باب المحل بعد إغلاقه .. مدت "فيروزة" يدها بورقة صغيرة مطوية لرفيقتها، وقالت:

-دي ورقة بالحاجات الناقصة، هنراجعهم لما الطلبات توصل الصبح قبل مانستلم الحاجة.

ردت عليها "علا" بإيماءة صغيرة من رأسها:

-أيوه، المرة اللي فاتت كان ناقص الكروت الكبيرة والجليتر.  
أكملت حوارها بجديّة وهي تعلق حقيبتها على كتفها:  
-أنا عاملة حسابي، مش هاخلي صاحب المكتبة يغالطنا ثاني.  
تفحصت "علا" قفل المحل بدقة لتتأكد من إغلاقه قبل أن تعقب بإيجاز:  
تمام.

ثم التفتت نحو "آسر" الذي تساءل عاليًا بمرح:  
-أوعوا تكونوا قفلتوا؟

شعت نظراتها بحيوية غريبة بالرغم من اندهاشها لتواجده، أجابته مبتسمة بفرحة ظاهرة عليها:

- "آسر"! حمدلله على السلامة، إنت رجعت امتي؟

أوضح بهدوء وعيناه تتحولان للنظر نحو رفيقتها المتجهمه:

-دي كانت سفريه يومين وخلصت، مالهاش لازمة الأعدة هناك.

حاولت "فيروزة" ألا تتطلع إليه، كان حضوره ثقيلًا عليها، غير مستساغ رغم لطفه الزائد، نظرت فقط إلى "علا" التي ردت بابتهاج كبير:

-بصراحة فرحتني أوي يا "آسر"، وأنا مش واخدة على المفاجآت الحلوة دي.

سألها مجددًا ونظراته تتوزع بينهما:

-إنتو رايعين فين كده؟

جاوبته بعفوية:

-مروحين، خلصنا بدري النهاردة  
على الفور استغل الفرصة ليقول بانثشاء معكوس على ملامحه:  
حطب اسمحولي أوصلكم.  
هنا بادرت "فيروزة" بالرد بتكشيرة متعاضمة:  
-ماشي يا "علا"، أنا هاطلع أركب من على أول الشارع، ورايا مشوار كده هاخلصه  
نظرت لها في دهشة، وعلقت:  
غريبة؟ إنتي مقولتليش على كده.  
ادعت كذبًا:  
-راح من بالي يا "لولو"..  
ثم تصنعت الابتسام، وتابعت:  
-وبعدين مش هاينفع يا "علا"، خليكي إنتي مع الأستاذ، وعشان معطلكوش.  
التوت شفنا "آسر" بابتسامته العذبة، اقترح بلطف مستخدمًا يده في الإشارة  
قاصدًا الضغط عليها لتقبل بعرضه:  
-أنا فاضي يا آنسة "فيروزة"، شوفي إنتي حابة تروحي فين وأنا هاوصلك، وبعدين  
عربيتي موجودة، وأحسن من بهدلة المواصلات.  
تقلصت تعبيراتها بوجوم أكبر، وقالت دون أن تبتسم:  
-شكرا، أنا طريقي غير طريقك.

رفع عينيه إلى وجهها، بدا فيهما تصميم عجيب على عدم التفريط بها، ثم هتف  
بالحاح:

-أنا مُصر، مش هاقبل بالرفض يا آنسة "فيروزة"، مش معقول هتكسفيني كده كل  
مرة، قولي لصاحبتك يا "علا".

غامت عيناها من أسلوبه المراوغ في إقناعها، بينما تعلقت رفيقتها بذراعها، أسبلت  
عينها هامسة بما يشبه الرجاء:

-ماتبقيش بايخة بقي، تعالي يالا، واحنا هنركب سوا.

ضغطت على شفيتها لترد بصوتٍ خافت:

يا "علا" آ.....

قاطعتها بتوسلٍ كبير:

-بليز.. عشان خاطري، أنا عاوزة نكون سوا.

تخرجت من الرفض أمام نظراتها المستعطفة، وقالت بسأم لتعبر عن رضوخها:

-أوف.. طيب.

حلت تعابير السرور على وجه "آسر"، وهتف متغزلاً ونظراته تتركز على "فيروزة":

ده أنا أسعد واحد النهاردة، الجميلات هيركبوا معايا في عربيتي المتواضعة.

ورغم عبارته التملقية التي يمكن أن تسعد أي فتاة تتوق لسماع معسول الكلام إلا  
أن تعبيراتها إربدت بالعبوس الواجم.

.....



كل المؤشرات رجحت إدانته في مسألة تعاطيه لتلك المنشطات إلا أن "تميم" لم يحدد مفاتحة ابن خالته في الأمر حتى لا يفقده الثقة في نفسه بعد أن تعهد له بـدفن الماضي بما فيه من أمور مخزية، تخرج من سؤاله بشكلٍ مراوغ بعد ملاحظته لتعديل سلوكياته المنحرفة مؤخرًا وتركه لكافة الموبقات، ليدع الأمر جائبًا الآن إلى أن تأتي اللحظة المناسبة .. تحرك بسيارته نحو وجهة محددة، منزل عائلة "همسة" لدعوة أفراد أسرتها لحضور حفل الاحتفال بالمولود الصغير في منزل أبيه "بدير"، ذاك الحفل الذي يُصر الجميع على إقامته، ومع ذلك ذهبه لدعوتهم بشخصه زيارة غير مستحب تواجده فيها لأسبابٍ لم يحاول التطرق لها وإن كان بين نفسه .. فضل البقاء منتظرًا في سيارته على ألا يصعد للأعلى، ليس فقط تجنبًا لرؤية من تسبب له التخبط في أفكاره والارتباك في مشاعره، ولكن لكونه قد حسم الأمر بعدم السماح لنفسه بالالتقاء بـ "فيروزة" تحت أي عذر حتى لا يتمادى في تفكيره غير الجائز بها، أقنع نفسه بضرورة التركيز حاليًا مع ما يصيب استقراره الشخصي والعائلي، وخاصة المشكلات التي نشبت في الآونة الأخيرة مع "خلود"، انتشله من سرحانه المحير والمفعم بالتوتر والإرهاق الذهني صوت "هيثم" المتسائل:

-هتعمل إيه يا "تميم"؟

أجابه باقتضاب:

-زي ما أنا.

أعاد تكرار السؤال عليه بصيغة أخرى:

-يعني مش جاي معايا؟

رد نافيًا:

-لأ، مالوش لازمة أطلع.

أشار بيده معترضًا عليه:

حطب ما إنت أخوها، ولما تيجي منك هاتبقى تقدير كبير ليهم، ودي فرصة تقرب  
حبال الود بين الجماعة.

زفر مرددًا بوجه مكفهر:

-معلش، أنا مش عاوز أتحشر في أي حاجة، مش ناقص مشاكل، وماتضغطش  
عليا.

تحدث "هيشم" من زاوية فمه قائلاً:

-براحتك.

امتقع وجهه أكثر وهو يأمره بلهجة خشنة:

-بس ماتطولش فوق، انجز معاهم، كلمتين في السريع.

هز رأسه بالإيجاب قبل أن يترجل من السيارة ليرد:

طيب.

تتبعه بعينيه وهو يتجه للمدخل حتى اختفى بداخله، نفخ مجددًا في ضجرٍ ليتلفت  
بعدها حوله ناظرًا بغير تركيز، بحث عن ولاعته في جيبه بعد أن أخرج علبة  
السجائر .. أشعل "تميم" طرف السيجارة وترجل من سيارته ليستند بذراعه على  
بابها المفتوح، لفظ دخانها الحارق الذي تشبعت به رثيته في الهواء، ثم استدار  
برأسه للجانب ليتابع حركة السيارة الأخرى التي تباطأت في سرعتها ليتمكن من  
لمح وجهها من النافذة الخلفية، خفق قلبه بقوة وارتبك بدنه، دومًا لها تأثير السحر

عليه بالرغم من كافة السبل التي يبذلها لمقاومتها، ازدرد ريقه ودقق النظر فيها وقد فتحت "فيروزة" بابها وأطلت بعنفوانها المحفز لحواسه، تحولت نظراته الفضولية لجمرات متقدة حين أبصر "آسر" يترجل من الأمام وتلك الابتسامة السمجة تزين وجهه، قست ملامحه وتوحشت عيناه سائلاً نفسه باستنكارٍ بيّن:

إيه ده؟ هي بتعمل إيه معاه .....!!!!?

.....

## الفصل الثامن والثلاثون

لم تنخفض نظراته عنها طــــوال الطريق المؤدي إلى منزلها، كان يراقبها بإمعانٍ، ابتسامته اللبقة احتلت قسماًت وجهه وهو يدعي متابعتها لحديث "علا" الأجوف، لكن عقله وكامل حواسه كانت تركز معها فقط، وكأنه يحفظ ما يخصها ليحفره في ذاكرته. شعر "آسر" بالانزعاج لكون مهمته قد انتهت بإيصالها، بدا ذلك مرثياً على خلجاته، انتفض مترجلاً من سيارته حين ترجلت "فيروزة" منها، لحقها قبل أن تتجه للرصيف متسائلاً، ودون أن ينتبه لمن يقسو عليه من الخلف بنظراته المحتقنة:

-هاشوفك تاني؟

التفتت "فيروزة" نحوه متعجبة من سؤاله الغريب، غطى وجهها الوجوم وهي ترد باستنكارٍ:

-أفندم؟! مش فاهمة معنى كلامك؟

صح مقصده ليقول مبتسماً وقد دار حول مؤخرة السيارة ليصبح مواجهاً لها:

-يعني إنتي موجودة مع "علا" دايمًا، صح.

مطت شفيتها في امتعاضٍ، وزفرت ترد باقتضابٍ غامض:

-ربنا يسهل.

مد يده ليصافحها قائلاً:

عمومًا هيبقى من حظي إن أقابلك.

نظرت ليدته مطولاً ونظراتها المنزعجة لم تفارق عينيها، وقبل أن تفكر في تبادل المصافحة معه منعاً لإحراجه، امتدت يد "تميم" لتقبض على كفه، اعتصره بأصابعه القوية مرحباً به:

-منور حنتنا يا أستاذ.

اختفت مظاهر السرور من تعبيراته، وتطلع إليه في استغرابٍ مزعوج، ثم رد متسائلاً وهو يحاول سحب يده من قبضته الشديدة:

-إنت مين؟

دقق "آسر" النظر فيه متفرساً في وجهه المألوف قبل أن يتابع:

-أنا تقريباً شوفتك قبل كده! بس مش فاكرفين.

تعمد التحقير من شأنه كي لا يعطيه قيمة بالرغم من تذكره لملامحه المتجهمه، بينما حلت الدهشة على "فيروزه" التي تفاجأت هي الأخرى بوجود "تميم"، تلقائياً انخفضت عيناها لتأمل يده القابضة على كف "آسر"، والأخير يحاول جاهداً جذبها منه في يأس، تقوست شفتها قليلاً بابتسامة ساخرة من إحراجه أخفتها سريعاً قبل أن يلاحظها أحدهما، فالاثنان يليقان ببعضهما البعض، تصنعت الجمود وتركزت عيناها مع "تميم" عندما استطرد قائلاً بصوته الأجلش:

-افتكرني كويس، أنا المعلم "تميم سلطان".

هز "آسر" رأسه بإيماءة بدت مستهزأة به، وقال بنصف ابتسامة:

-تشرفنا.

ثم التفت نحو "فيروزه" ليخاطبها:

لو عوزتي أي حاجة يا آنسة فأنا تحت أمرك.

نظرت له بحدة وهي ترد:

-شكراً، مش محتاجة لحد.

تنحنح معقبا:

طيب عن إذنك.

تحركت عينا "فيروزة" نحو زجاج السيارة حين سمعت رفيقتها تودعها:

باي يا "فيرو"، أشوفك بكرة.

ابتسمت مجاملة وهي ترد:

إن شاءالله.

لوح "أسر" بيده لها قبل أن يستدير متجهاً إلى سيارته ليستقلها، بينما تحركت

"فيروزة" مبتعدة عن "تميم" لتصعد على الرصيف، انتفضت كلياً في ضيقٍ عندما

اعترض الأخير طريقها بجسده، رفعت عينيها إليه وهتفت فيه، وكأنها تأمره:

في حاجة يا معلم؟ يا ريت وسع من طريقي

-يصح اللي عملتيه ده يا أبله؟

كتفت ساعديها متسائلة بأسلوب هجومي، ونظراتها النارية تنفذ إليه:

عملت إيه؟

أجابها بضيقٍ غير مفهوم بالنسبة له:

-ماينفعلش تنزلي من عربية واحد غريب، احنا في حنة شعبية، ومليانة رجالة ولاد بلد.

انقلبت تعبيراتها لعبوس أكبر، وعلقت بتهمكم:

-لا والله!

تابع مبررًا بعبارات منتقاة بعناية حتى لا تسيء فهمه:

-مش عاوزين حد ياخذ فكرة عنك وحشة لو شافك معاه..

صمتت "فيروزة" لتأمله في دهشة مستنكرة، فالتقت النظرات المتوترة بالعينين العميقتين، اهتز كيانه بشكلٍ عاصفٍ مما زاد من تخبطه، استجمع "تميم" أفكاره التي تطايرت من رأسه أمام نظراتها المباشرة والنافذة إليه، وقال بصوتٍ بدا مذبذبًا لكنه عبر عن صدق نواياه، وربما مشاعره:

-الناس ما بترحمش، وأنا خايف ع.. عليكي .. قصدي كلامهم ما آ....

ارتخى ساعداها، وقاطعته قبل أن يتمادى في سرد أعدار ترفضها كليًا مشيرة بيدها: -ولو إني مش المفروض أرد عليك ولا حتى أبرلك إنت أو غيرك تصرفاتي، بس أنا مكوتنش لوحدي معاه ولا أداة جمبه، صاحبتني كانت موجودة.. واضطريت أركب، ارتحت كده:

تنحنج مرددًا بنبرة موجزة سبقتها تنهيدة سريعة:

-كويس يا أبله.

غمغمت في تبرم:

-يا دي كلمة أبله اللي طالعلي بيها.

سألها والدهشة تعتريه:

-هي بتضايقك؟

عقدت حاجبيها في استغرابٍ وهي توجه الحديث لنفسها بنفاذ صبرٍ وبصوتٍ مسموع:

-أنا وافقة معاك ليه، عن إذنك؟

تجاوزته لتعبر الرصيف وتتجه إلى مدخل بيتها، تابعتها "تميم" حتى اختفت عن أنظاره ليتساءل مع نفسه بما يشبه السخرية:

-يعني أقولك إيه؟ "فيروزة" حاف؟!!!

التقى بها "هيشم" أثناء خروجه، رمقها بنظرة حذرة وهو يسرع الخطى ليجتنبها، تنهد في ارتياح وهو يقول:

-الحمدلله خلصت مهمتي قبل ما تيجي، كان زمانها قفلت كل السكك في وشي، ده إن مكانش طردتني.

رد عليه "تميم" معترضًا بأسلوب مازح:

-دي قلبها طيب.

هتف في استنكارٍ تام:

-دي؟ يا عم قول كلام ثاني...

ضاقت عينا "هيشم" متسائلًا في اهتمام فضولي:



هو إنت اتكلمت معاها؟

أجابه نافيًا وقد ظهرت ربكة طفيفة عليه:

-كلام إيه يا ابني، هي بتدي فرصة لحد ييلع ريقه حتى!

وافقه الرأي معلقًا عليه:

على رأيك.

وكزه "تميم" بخفة في جانب ذراعه ليحثه على التحرك قائلاً:

-بيننا من هنا، وخلينا نشوف شغلنا.

طيب.

قالها "هيثم" وهو يفتح باب السيارة ليستقر في مقعده قبل أن يجلس ابن خالته إلى جواره ونظراته لا تطاوعه، ما زالت تبحث عن طيفها لتشبع تلك الرغبة المتأصلة في إدراكه، تلك التي يسعى لكبتها قبل أن تتفاهم وتخرج عن السيطرة.

.....

نظرة متأنية ألقتهما على المكان بمجرد أن وطأته مع خطيبها الذي أصر على دعوتها لتناول الطعام معه بالخارج بعد استئذان والدتها، ثم القيام بنزهة سيرًا على الأقدام في منطقة الكورنيش، أشار "هيثم" بيده نحو مائدة منزوية في نهاية المطعم وبالقرب من شاشة التلفاز، اتجهت "همسة" إلى حيث أرشدها وجلست قبالتة، أمسك الأول بقائمة الطعام وتصفحها بنظرات سريعة وهو يسألها:

-نفسك تاكلي إيه؟

أجابته بحيرة ظاهرة عليها:

-أي حاجة؟ كله كويس.

نحي القائمة جانبًا، وقال ببساطة:

-بصي أنا ماليش في الأسماء المكلكة اللي مكتوبة هنا، إيه رأيك ناكل مشكل

مشاوي؟

ابتسمت وهي تومئ برأسها موافقة:

-ماشي.

استدعى "هيثم" النادل بإشارة من يده فأتى إليه الأخير وسجل في ورقة صغيرة

طلبهما لينصرف بعدها، تنهدت "همسة" مضيفة بحمايس:

على فكرة "فيروزة" رجعت تكلم ثاني معايا.

لم يظهر على وجهه علامات الرضا وهو يستمع إلى جملتها الأخيرة، فرك طرف ذقنه

متسائلًا بقليلٍ من التعجب:

-خير، وعلى كده هت حضر معاكي السبوع؟

هزت كتفيها تجيبه:

-مش عارفة، ماما هتقولها، وإن شاء الله توافق.

دمدم مع نفسه بصوتٍ خفيض:

-يكون أحسن إنها ماتجيش، مش ناقصة نكد.

أحضر النادل أصناف الطعام المطلوبة، وشرع كلاهما في تناوله مع تبادل الأحاديث الودية اللطيفة .. طرأ في بال "همسة" شيء ما، لذا تركت شوكتها واستندت بمرفقيها على الطاولة، ركزت أنظارها مع خطيبها، وقالت:

-أما جت في دماغي حته فكرة، لو ضبطت معانا هتحسن علاقتك بأختي.

رمقها بنظرة حائرة قبل أن يسألها:

فكرة إيه دي؟

أوضحت له بابتسامتها المتحمسة:

-دلوقتي "فيروزة" شغالة في محل بيعمل هدايا ويجهز حاجات السبوع، إيه رأيك لو تخلوها هي اللي تعمل حاجة المولود قريبيكم؟

بدا غير مستوعب لما تقصده من إشراكها في الأمر، واستفهم منها:

-مش فاهم، يعني عاوزاها تعمل إيه؟

لوحث بكف يدها متابعة عن ثقة اكتسبتها وقد تخمرت الفكرة أكثر في رأسها:

-هاوضحك أكثر، وصدقني ده هيفيدك جدًا، بس تعمل اللي هاقولك عليه بالضبط.

هز رأسه موافقًا وهو يرد:

-ماشي.

.....

كان اقتراحها بسيطًا للغاية؛ الذهاب لمحل الهدايا الذي تعمل به توأمتها والإصرار على شراء ما يلزم المولود الجديد من أشياء تُستخدم خلال حفل (السبوع) منه،

مع الإشادة بمجهود "فيروزة"، تفانيها، ودقتها في العمل لتشعر بالحرع من الإطراء الذي تتلقاه منه تحديداً، وفي نفس الوقت تُمحي أي ضغائن سابقة ليبدأ كلاهما صفحة جديدة .. لم يكن من اليسير عليه أن ينفذ فكرتها بحذافيرها دون اللجوء لمساعدته، وبرجاءٍ أقرب للتوسل طلب "هيثم" مساعدة ابن خالته في تلك المسألة التي اعتبرها مصيرية، قَبَل "تميم" على مضضٍ الذهاب معه، ليس محبة فيه، لكن إشباعاً لتلك الرغبة المُلحة التي تستحثه على رؤيتها تحت أي ظرف، استنكر انسياقه وراء نزوة عابرة احتلت لا وعيه وباتت تنغص عليه وعيه، نزوةً خيالية هو طرفها الوحيد، يعيش تفاصيلها بمفرده وبين جوارحه خلصة وفي أحلامه المحظورة .. قاوم تلك المشاعر غير المألوفة عليه مُجبراً نفسه على مواجهتها ليثبت أنها من محض خيالاته المحرمة. قبيل العصر اتجه الاثنان إلى المحل .. تطلعا إلى الواجهات المختلفة للمحال التي تتجاور فيما بينها في ذلك الشارع الحيوي، تساءل "تميم" بجدية وإرهاق:

هو ده المكان؟ متأكد منه يعني؟

حك مؤخرة عنقه قائلاً بتردد:

مش عارف، بس ما فيش إلا هو في الحتة...

ثم أشار بيده نحو اللافتة، وواصل القول:

مكتوب عليه هدايا أهوو.

كان يعلم أنها ضيقة الصدر، تميل للتشاجر، وربما رؤيته ستجدد تلك النزعات الكارهة نحوه، نفخ "تميم" بزفيرٍ طويل قبل أن يرد عليه متسائلاً:

أنا مش عارف إنت ليه حاشرني معاك؟!!

أجابه بمنطقية بحتة:

-المرادي لازم تبقى موجود، إنت خال المولود، يعني الكلام جاي منك على طول،  
مش من حد ثاني ...

وضع يده على كتفه وأكمل بوجه بائس:

-وبعدين اقف جمبي في الخدمة دي، خلي الجوازة تكمل.

ضغط "تميم" على شفثيه قائلاً بضيق:

-إنت بتورطني، وأنا مش عاوز كده.

رد عليه "هيشم" ونظراته مسلطة عليه:

-اعتبرها بجميلة معايا، ومردودالك.

تنفس بعمق ليعلق بعدها بنبرة موجزة:

يا مسهل.

شحد "تميم" كامل قواه ليتقدم بعدها في اتجاه باب المحل، دفعه بيده، وولج

للداخل ملقياً التحية:

-سلامو عليكم.

بحث عيناه سريعاً عنها، لكن كان المكان خالياً من حضورها مما أصابه بالإحباط،

التفت برأسه للجانب حين ردت عليه "علا":

-وعليكم السلام، أي خدمة؟

يبدو أنها لم تتعرف إلى شخصه بالرغم من تذكره لوجهها، تنحني متسائلاً بوجهه الجاد:

-أومال فين الأبله؟

زوت ما بين حاجبيها متسائلة في حيرة:

-أبله مين؟

تدخل "هيشم" في الحوار ليوضح أكثر:

-بصي .. أنا خطيبي "همسة" أختها شغالة هنا.

ابتسمت "علا" قائلة لكليهما ونظراتها تتجول عليهما:

قصدكم "فيروزه"؟ هي في مشوار وجاية، تحبوا تستنوها؟ أنا ممكن أساعدكم لو في حاجة ضروري.

وقبل أن يكمل "هيشم" حديثه فُتح الباب مجدداً لتطل "فيروزه" بوجهها المشدود شاكية بتذمر:

يا ربي على الزحمة، مش ممكن، الواحد مش عارف الناس دي كلها جاية منين.

رفعت عينها نحو الاثنيين المحققين بها، حلت بها الصدمة، ونطقت في دهشة عجيبة:

-إنتو؟

لا يدري لماذا تصيبه تلك الربكة في حضورها، كانت قادرة على إفساد ترتيباته، وكلما أعد نفسه للمواجهة فشل قبل أن يحاول، حتى أن تأثيرها قد امتد ليؤثر على

جسده، شعر بتقلصات في معدته، بعدم انتظام أنفاسه .. تركزت أنظار "فيروزة" معه، حدقت فيه مطولاً، وكأنها تريد النفاذ لداخله، انتظرت أن يبادر بتفسير سبب تواجده، لكنه استطرد يقول ببلاهة:

صباحك فل.

ضغطت على شفيتها تسأله بنبرة عملية بحتة:

خير، في حاجة؟

رد عليها "هيشم"، وتعاييره توحى بانزعاجه:

-أحنا جاينين في شغل؟

رفعت حاجبها للأعلى مرددة في استغرابٍ وهي تتجه إلى الطاولة المستطيلة لتسند عليها الحقائق التي تحملها في يديها:

-شغل؟!؟

هز برأسه مؤكداً وهو يرد:

-أيوه، طبعا..

ثم دفع بيده ابن خالته حين أضاف:

-ماتقولها يا "تميم".

خشى الأخير أن تتبين مدى الارتباك الواضح عليه، غالب حالة التخبط المتمكنة منه باحثاً عن خيط يبدأ به حديثه، وكان الكلمات قد فرت من على طرف لسانه

كفرار الطريدة من الأسد المتربص بها.. ساعده انشغالها بترتيب الحقائق على تصفية ذهنه، استنشق الهواء بعمق، ثم قال بلجلجة محسوسة:  
-بصي.. احنا عندنا سبوع و.. كنا عاوزين نشوف إيه المطلوب واللي المفروض يتعمل فيه.

هزت رأسها في تفهم لترد دون أن تنظر إليه:  
-تمام.

أضاف "هيثم" موضحةً أكثر ليظهر جديته في الأمر مثلما أخبرته "همسة":  
-السبوع ده بتاع ابن أخته حبيننا كلنا..  
وتابع موجهًا سؤاله لـ "تميم":  
صح ولا إيه يا خال؟  
لعق شفثيه وحرك رأسه قائلاً:  
-مضبوط.

ردت باقتضاب تهنئه وقد استدارت كلياً لتنظر إليه:  
-مبوك.

وكان طاقة عظيمة من المشاعر المستثارة قد نفذت إليه لتضاعف من الاضطراب الدائر بداخله، اكتفى بإشارة خفيفة من رأسه، بينما تساءلت "فيروزة" باهتمام وهي تدون ما يقوله في مفكرة صغيرة:  
طيب إتنو عاوزين إيه بالظبط؟



تبادل "تميم" مع "هيثم" نظرات حائرة وهمهمات خافتة لتعبر عن تخطيها ..  
تدخلت "علا" في الحوار مقترحة:

في أوبشنز كثير عندنا، ممكن أقولها لكم باختصار لو تحبوا.

التفت "هيثم" نحوها ليعلق:

-أنا عايزين أحسن حاجة.

أشارت "علا" بيدها متابعة:

-أوكي، في حاجات ممكن أوريها لك وإنت تقولي رأيك تنفع أو لا.

قال في استحسان:

-إن كان كده ماشي.

ثم مال على ابن خالته يسأله:

-هاتي جي معايا يا "تميم".

تنحنح قائلاً بصوت متحشرح:

-أيوه.

منحها نظرة أخيرة مهمة قبل أن يسير بخطوات متكاسلة نحو الجانب الآخر من  
المحل حيث المعروضات التي تخص المواليد الذكور، ساعدتهما "علا" كثيرًا في  
مساعدهما، وبقيت تلك النظرات الخاطفة عليها من آن لآخر وسيلته المتاحة ليملي  
عينيه منها، وكأن القلب ينتعش بها. أفسد متعته السرية مجددًا حضور "آسر"،

والذي على ما يبدو اعتاد المجيء إلى المحل، ليريد وجهه بالضيق الشديد حين هتف بسماجة ليمدح الشابتين:

قمرات المكان.

تركت "علا" ما في يدها بعد أن رأته، اعتذرت مبتسمة بتلهف ونظراتها تتجه إليه:  
آآ..خذوا فكرة وأنا رجعا لكم، عن إذنكم.

استدار "هيثم" لينظر إلى حيث تحديق، وتساءل بصوت خفيض:  
هو مش ده الرخم إياه؟

رد عليه "هيثم" بعبوس غلف كامل تعابيره:  
آه هو.

وقفت "علا" أمامه تتغنج في مرح قبل أن تقول:

- "آسر"، أنا كده هاتغر، إنت كل يوم عندي.

ابتسم موضحًا بأسلوبه اللبق في الحوار:

أصلي حيت المكان هنا، وكمان لما بالأقي نفسي فاضي بأعدي عليكم، يعني معرفش غيركم بصراحة.

هتفت بأنفاس منفعة في سرور:

آنا بصراحة مبسوة أوي إنك بتعمل كده.

انخفضت عينها نحو يده التي أخرجت بلورة بها ثنائي متحابين يجلسان على فرع شجرة تدور وتدير حين تضغط على زر صغير بأسفلها، قدمها لها قائلاً:

-تفضلي.

عضت على شفتها السفلى في رقة، وسألته بوجه متورد:

-إيه دي؟

أخرج "آسر" واحدة أخرى من الحقيبة، وثبت عيناه على "فيروزة" متابعًا بهدوء:

-دول هدايا كنت جيبها لكم من آخر سفريه بس ملحقتش أديها لكم.

ردت "علا" تشكره بامتنان:

-ميرسي أوي يا "آسر"، مكانش ليه لزوم.

ابتسم مجاملًا لها، وسار نحو رفيقتها ليقدم لها هديتها قائلاً بتهديب:

-تفضلي يا آنسة "فيروزة"، دي عشانك.

نظرت له بحدّة، ورفضت بجمود:

-شكرًا مش عاوزة.

ألح عليها بلباقة وقد أسبل عيناه:

-مش هاقبل تكسفيني، ده تذكّار بسيط، والنبي قبل الهدية.

تابع "تميم" المشهد من الخلف وذلك الغليان يستعر بداخله، كان يتعاضم مع

سماجة "آسر" المتزايدة، بدت كالحنط في الجوف، همس لنفسه بحنقٍ متوعد

وهو يكور قبضته:

-خدبها منه وإديها له في نافوخه.

أسند "أسر" البلورة على الطاولة التي تخصصها، لم تبتسم له، وحذرتة بلهجة لا تمنح:

-كثر خبيرك، بس يا ريت متكرر هاش.

حاضر.

قالها وقد تقوست شفناه عن بسمة صغيرة، ثم استدار ليتحدث مع "علا" التي كانت تستعلم منه عن مسألة ما، في حين ارتكزت أنظار "تميم" على البلورة، استحوذ على تفكيره المزيد من الأفكار السوداوية تجاهه، تنتهي كلها بتحطيمها فوق رأس ذاك السخيف، أحس بشيء مزعج يجثم على صدره ويستحته على تنفيذ ما يدور في رأسه ليفرغ تلك الشحنة العدائية المتعاضمة بداخله، خرج من تحديقته الغاضب بالبلورة على صوت "فيروزة" المتسائل:

عاوز كام كارت كبير؟

نظر بتردد لابن خالته، مال الأخير عليه يهمس له:

إنت عاوز كام تقريبًا.

حاول "تميم" بحسبة سريعة إجرائها في عقله احتساب العدد المطلوب تقريبًا، ثم تقدم نحوها وتلك الابتسامة العبيثة ترسم على شفثيه، ففكرة أخرى ماكرة راودته للتو، ونفذهها ببساطة، وقف قبالتها ولوح بظهر كفه قائلاً:

-تقريبًا خمسين كارت..

حينها دفع - وعن قصدٍ- البلّورة لتسقط عن الطاولة ويتهشم زجاجها ليبدو وكأنه لم يفعل ذلك عمدًا، أحدث صوت تحطيمها ضجة كبيرة، ناهيك عن الفوضى التي عاثت في المكان، وابتسامة منتصرة هتف معتذرًا:  
-لا مؤاخذه، مقصدش.

انتفض "هيثم" مرددًا في صدمة:

يا ساتر، في إيه؟

ردت فيروزه عليه بوجهٍ غير غاضب، وكأنها استراحت لتخلصها منها:  
-حصل خير.

أضاف "تميم" بعفوية:

-ياللا أهى خدت الشر وراحت.

تحرك "آسر" في اتجاهه ليتفاجئ بتهشيم بلّورته، تشنجت عروقه، واختلج وجهه بغضبٍ مبرر، ثم صاح يسأله في حدة حانقة:

-إنت عملت إيه؟

رد "تميم" ببرود استفزه:

-ولا حاجة

هدر به في غيظٍ تضاعف بعد نظراته الشامتة الظاهرة عليه:

-إنت أصلاً بتعمل إيه هنا؟

أجابته "تميم" بسخطٍ، وعيناه تحذراه من غضبته الوشيكة إن استمر في مناطحته  
الند بالند:

هو ممنوع ولا نيحي هنا ولا حاجة يا كابتن؟

رد عليه بوقاحةٍ متعمداً ازدرائه بنظراته الاحتقارية:

لأ.. بس واضح إن في ناس مابتفهمش في الذوق

لكزه "تميم" في كتفه بقساوة وهو يرد:

نعم ياخويا؟ الكلام ده ليا؟

تدخلت "علا" في الحوار قبل أن يتطور لمشادة كلامية:

حول زباين يا "آسر"، أنا هاشوف طلباتهم، متضايقش نفسك..

والتفتت تنظر إلى "فيروزه" لتتعامل مع الموقف، خاصة أنهما على صلة بها، ادعت  
الأخيرة الابتسام، واعتذرت بلطفٍ بدا مصطنعاً:

خلاص يا أستاذ "آسر"، حصل خير، أكيد مايقصدش.

تنفس بعمقٍ ليكبح غضبه، وقال وعيناه تقدحان بالشر لـ "تميم":

-مافيش مشكلة، هاجيبك مكانها.

أشارت بكفها رافضة:

-متكلفش نفسك.

تنحنحت "علا" بصوتٍ مرتفع، وقالت وهي تشير بيده:

-اتفضل معايا يا أستاذ عشان نعمل الفاتورة.

طيب.

قالها دون أن يبعد نظراته المتشفية عن وجه ذاك السمج، وقبل أن يتبعها مال عليه برأسه ليخبره بصوتٍ خفيض، وبما يشبه النصيحة:

خدها مني كلمة، الحاجات اللي زي كده آخرها الزبالة.

اشتعلت عينا "آسر" على الأخير عقب جملته تلك، بينما بدا "تميم" مستمتعا بتخريب هديته وتعكير مزاجه، راقبه بصدري مغلول إلى أن ابتعد عنه ليغمغم بين أسنانه يسبه في حقدٍ ظاهر عليه:

-بني آدم مستفز ..... !!!

.....

## الفصل التاسع والثلاثون

سحبت شعرها الذي تناثر أسفل بلوزتها المنزلية لتجمع خصلاته معًا وعقدته كعكة أعلى رأسها، ثم التفتت نحو الفراش لتلتقط ثيابها الملائمة عليه ووضعها في السلة الخاصة بالملابس المتسخة. لمحت "فيروزة" توأمتها وهي تختلس النظرات من باب الغرفة، بالطبع كانت تتشوق لمعرفة نتائج المقابلة المدبرة مع "هيثم" وابن خالته، جلست على طرف الفراش تطالعها بنظراتها المتفرسة فيها، تقدمت "همسة" نحوها وهي تفرك يديها معًا، في حين استطردت الأولى تفتاحها في الحديث:

-مكانش ليها لازمة الحركة دي يا "همسة"، باينة أوي على فكرة.

ابتلعت ريقها، وعلقت بتباطؤ محاولة البحث عن كذبة جيدة لتنطلي عليها:

هو "هيثم" كان.. بيسأل.. عن حد يعمل هدايا السبوع.

قالت بتهمك:

على أساس إن مافيش غيرنا في البلد؟!  
عضت على شفتها السفلى في ربكة أكبر، وهتفت مبررة:  
- ما هو.. يعني.. إنتي أولى.. والحكاية جت بالصدفة.

لوت ثغرها مرددة بنفس الأسلوب الساخر:  
- بجد؟ صدفة؟

ابتسمت "همسة" مضيئة وهي تجلس إلى جوارها:  
-إنتي مكبرة الموضوع ليه يا "فيروزة"؟ دول زباين زي أي حد.  
رمقت توأمها بنظرة متشككة نفذت إليها، وردت عليها بجدية:  
عمومًا بلغيه يجي يستلمها بنفسه، مش لازم البودي جارد بتاعه.  
تطلعت إليها في حيرة، وسألته مستفهمة:  
-قصدك مين؟

أجابته بنبرة تعمدت تفخيما لتسخر منه:  
-هايكون مين غيره، سبع الليل المعلم "تميم".  
دافعت عنه "همسة":

-تعرفي إن "هيشم" على طول بيشكر فيه ويقول عليه جدع وابن بلد وآ....  
قاطعتها بنبرة ناقمة وقد قست نظراتها:



- "همسة" الظاهر إنك بتنسي بسرعة، اللي بتقولي عليه جدع ده هو السبب في كل المشاكل اللي وقعنا فيها.

نظرت لها توأمتها في خجلٍ، كانت مصيبة في قولها، بينما تابعت "فيروزة" الإفراج عن مكونات صدرها لتذكرها بما غفلت عنه:

عاوزاني أصدق إنه ابن بلد وإنتي شوفتي البلطجية بتوعه عملوا فينا إيه؟ دول حرقوا عربيتنا ومحدث قدر يفتح بؤه، مش عشان هو جدع وابن أصول، لأ عشانه بلطجي ودي العينة اللي مصاحبها..

غلف صوتها المزيد من المرارة والألم وهي تكمل:

حتى حتي مخدتهوش منه، ده أنا اتنازلت عنه مُجبرة بعد ما خالك عدمني العافية..

نكست "همسة" رأسها في خزي، وأضافت "فيروزة" بصوتها الذي اختنق:

- وإنتي نفسك خطوبتك مكانتش بالرضا، فأكرة حصلت إزاي؟ بالإجبار يا "همسة"، بالإجبار!

انتفضت واقفة لتقول برجاء:

- كفاية يا "فيروزة".

نهضت واقفة هي الأخرى، وأمسكت بها من كتفها لتديرها إليها، ثم نظرت في عينيها لتقول بجمود اكتسبته نبرتها:

- دي الحقيقة اللي إنتي بتحاولي تخليني أنساها، وأتعامل معاهم عادي، بس للأسف مش نافع.

ورغم إحساس القهر الذي يعتريها إلا أنها ردت:

-انسي الماضي باللي فيه، وجايز اللي جاي يكون أحسن.

تساءلت في استنكارٍ:

-بأمارة إيه معلش؟!!!

تبادلت كلتاهما نظرات مطولة متناقضة، فالأولى رافضة لمبدأ التسامح مع من تسبب لها في الأذى، والثانية تميل للخنوع والاستكانة .. وقفت والدتها عند أعتاب الغرفة متسائلة في استغرابٍ حين رأتهما على تلك الحالة:

في إيه يا بنات؟

التفتت "همسة" برأسها نحوها، وأنهت المناقشة قائلة:

-مافيش يا ماما.

تراجعت "فيروزة" عن توأمتها لتعاود الجلوس على طرف الفراش، وظلت الأخيرة واقفة تستمع إلى والدتها التي استأنفت كلامها:

حطب تعالوا .. مرات خالكوا برا

وضعت "حمدية" يدها على كتف شقيقة زوجها، وقالت مبتسمة بسماجة:

-ويجوا ليه؟ هو أنا غريبة، دول بناتي.

سلطت أنظارها عليهما قبل أن تلج للغرفة لتلقي نظرات متفحصة على محتوياتها، وهتفت في لؤم:

-سمعت إنكم رايجين السبوع حفيد المعلم "بدير"، وطبعًا احنا معاكم.

نفخت "فيروزة" في سأم، وعلقت هامسة بتبرم:

يا ربي، أنا مش نقصاها.

وضعت "حمدية" ذراعها على "همسة"، وسألته بنظرات غريبة غامضة:

- "هموستي" حبيبتي، هو إنتي هتلبسي شبكتك؟

لم تفهم المغزى من سؤالها، وأجابت وهي تهز كتفيها بالنفي:

معتقدش.

برقت عيناها بوهجٍ مآكر وهي تستأذنها بلطفٍ مبالغ فيه لا يتمشى مع شخصيتها:

طب أنا كنت عاوزة أستلف منك السلسلة ألبسها يومها؟ ماشي يا حبيبتي ..

ثم تصنعت العبوس، وأكملت بأسلوبها الناعم الملتوي المراوغ في الحديث لتحصل على مبتغاها:

- لأحسن معديش حاجة تليق، برضوه لازم نظهر قصاد نسايبنا إننا نملى العين، ولا إيه رأيك يا "آمنة"؟

اندهشت "همسة" من وقاحتها التي لا يضاهيها شيء، ونظرت إلى والدتها منتظرة تدخلها لحسم الأمر حتى لا تختلق مشكلة معها من لا شيء، لكن الأخيرة ألقت الكرة في ملعبها حرجًا منها، واستطردت تقول:

مش عارفة يا "حمدية"، دي حاجة "همسة"، هي اللي تقول.

زوت ما بين حاجبيها بقوة، وغمغمت محتجة بتأفف:

هو أنا هسرقها؟ ده الحاجة معايا تزيد يا "آمنة" .. جرى إيه؟

لم تجد "فيروزة" بدءًا من إحراجها حين رأت التردد على وجهي كليهما، فتشدت متسائلة بما يشبه السخرية:

-تفتكري يا مرات خالي لما نساينا المجلين يلاقوي لابسة شبكة "همسة" هيقولوا إيه؟!!

تجاهلت الرد على سؤالها، وصاحت بتذمر:

-قولوا إنكم مستخسرينها فيا؟

ردت عليها تواجهها ونظرات الازدراء تملو حدقتها:

-لأ يا مرات خالي، بس مش هاينفع، فكري فيها كويس.

سدت لها "حمدية" نظرة نارية مغتظة منها تود خنقها، وهتفت بتكشيرة عظيمة: ماشي بشوقكم.

ثم اتجهت للخارج فتبعتها "آمنة" على الفور لتسألها:

-رايحة فين يا "حمدية"؟ ده أنا علق ت على الشاي و...

قاطعتها بتجهم كبير ملوحة بذراعها:

طالعة بيتي، نفسي اتسدت.

ضربت "فيروزة" كفها بالآخر مبتسمة في سخطٍ قبل أن تعلق على الموقف برمته:

-أنا مشوفتش في بجاحتها الصراحة.

شاركتها "همسة" الابتسام وردت:

-معاكي حق.

يومان آخران اقتضيا عليها في المحل وقد أكملت كل ما كلفت به من مهام لتصبح كافة الطلبيات جاهزة للتسليم، تركتها "علا" بمفردها في المحل لتبتاع النواقص، وتابعت "فيروزة" ترتيب الرفوف العلوية بالجديد من المعروضات لتلفت أنظار الزبائن حين يزورون المحل، لم تنتبه لذلك الذي وطأ المكان في ميعاده المحدد مُسبقًا لرؤيتها وهي تقف على الكرسي الخشبي توليه ظهرها، وكأن تركيزها بالكامل منصب على ما تفعله .. خفقة موترة داعبت قلب "تميم" حين رآها بجسدها المشدود أمامه بمجرد دخوله وبحث عيناه عنها، أخفض نظراته في حرج، وتنفس بعمق ليثبط تلك المشاعر التي استيقظت فجأة بداخله، وحدها من تفعل به ذلك رغم الجهد العنيف الذي يبذله لوأد تلك الأحاسيس التي أصبحت ملازمة له في حضورها، وكلما قاومها أصرت ألا تستسلم وتعاود الظهور كل مرة بشكل يفوق المرة السابقة ليصبح أكثر انجذابًا إليها .. لعق شفثيه وازدرد ريقه في حلقه الجاف متسائلًا مع نفسه في تخبطٍ ملحوظٍ عليه:

-أناديها يا أبله زي تملي ولا أقولها يا .. عروسة؟

التوى ثغره بابتسامة صغيرة متابعًا حديث نفسه بمرح:

-وساعتها هتفتكرني بأعاكسها وتسود عيشتي، وأنا واخذ كفايتي منها.

تأهب في وقفته وتحفرت حواسه حين هتفت فجأة دون أن تنظر إليه وذراعها ممتد للخلف:

-امسكي يا "علا".

أكتست تعابيره بعلامات التردد، تفقه ذهنه لكونها تعتقد أنه رفيقتها في العمل، وليس أحد العملاء، كان يخشى من ردة فعلها إن أدركت وجوده خلفه، ربما سيختل توازنها وتسقط عن المقعد إن صحح خطأها، أو ربما ستقذفه بشيء في وجهه لتشتيت انتباهها .. تدارك الموقف ولازم الصمت، ثم مد يده ليتناول منها العلبه دون أن ينطق بكلمة واحدة تعبر عن كينونته، بينما تابعت "فيروزه" من تلقاء نفسها: -كده عاوزين نجيب صمغ لمسدس الشمع، خلص الموجود عندنا.

أطبق على شفثيه وهو يهز رأسه، كأنه يشاركها الحوار بلغة الصمت .. هبطت عن المقعد لتستدير كليًا نحوه، تفاجأت بوجوده على مسافة قريبة منها؛ يفصل بينهما طاولتها المستطيلة .. ضاقت عيناها في انزعاج، وكزت على أسنانها مرددة: -إنت؟

تنحج مبعداً نظراته عن وجهها المتشنج، وقال مرحبًا بأسلوب ودود: -سلامو عليكم.

استندت ضاربة بكفيها بقوة طفيفة على الطاولة لترد بوجوم: -وعليكم السلام .. جاي ليه؟

تعجب من سؤالها الفظ وكأنه يتسول منها، غلف وجهه تعبيرات ضائقة، وعلق في استنكار:

-أفندم؟ أنا جاي زي ما بلغتونا بالميعاد على فكرة.

زمت شفثيها قبل أن تصح له، وقد لاحظت ضيقه:

-أقصد ما بعش "هيثم" قريك بدل ما تكلف نفسك وتيجي؟

تقدم نحوها ليقول بنبرة ذات دلالة واضحة:

-أنا خال النونو....

لكن تحول أسلوبه الجاد للمزاح وهو يتابع:

-والمثل يقول جحا أولى بلحم توره.

أخفت ابتسامتها على طرفته، وأولتها ظهره لتقول بجديّة:

-أها .. تمام ..

انحنت "فيروزة" لتحمل العلب الكرتونية الضخمة التي وضعت بها ما تم طلبه من

قبل واحدًا تلو الآخر لتسند على الطاولة أمامها، وقالت:

-تفضل، كل حاجة جاهزة.

ألقي نظرة فاحصة لما تضمنته العلب وهو يسألها:

-والحساب؟

أشارت بيدها نحو المكتب الفارغ قبل أن تجيبه:

مع "علا" الفاتورة بتاعتك.

التفت برأسه للجانب لينظر إلى حيث أشارت، عاود التحديق في وجهها متسائلًا:

-وهي فين؟ أنا مش شايفها!

أجابته ببساطة:

-هي في مشوار وجاية دلوقتي، تقدر تستناها عند مكتبها.

هز رأسه معقبًا عليها:

ماشى، بس هاودي الحاجة العربية.

أوكي.

اقتضبت في الحديث وهي تجلس على المقعد لتراقبه خلال ذهابه وعودته بعينين نافذتين حتى انتهى من وضع كافة الصناديق، ورغم يقينه من انزعاجها لوجوده إلا أنه كان مستمتعًا باللحظات المحدودة التي يقضيها بصحبتها، خاصة حينما تكون ساكنة، رائقة المزاج، وبدون من يقاطعه.

.....

مر بعض الوقت ولم تعد "علا" بعد من الخارج، وظل كلاهما في المحل بمفردهما دون أن يدخل إليه أحد، وكأن العالم خلا إلا من وجودهما .. جلس "تميم" على المكتب قبالتها يتطلع إليها بنظرات حذرة محاولاً التمتع بتأمل ملامحها دون أن تمسك به، بضعة أسئلة شغلت تفكيره كلما أطال النظر إلى وجهها وشرد في تعبيراتها العابسة، ما زالت لمحة الحزن تغلف قساماتها، تشجع ليقول وهو يضغط على أصابع يده:

هو أنا مضايقتك في حاجة؟

اعتدلت "فيروزة" في جلستها خلف طاولتها، سلطت أنظارها عليه وسألته بجمود وكامل عيناها عليه:

تفتكر إيه؟



سحب شهيقًا عميقًا يضبط به تلك الزوبعة الدائرة فيه، واسترسل معبرًا عما يشعر به حين يلتقي بها:

-يعني .. حاسس إنك مش طيقاني، وأنا ما بحاولش أفرض نفسي عليكِ..

ابتسمت في استخفافٍ من جملته تلك، وتنهدت تجيبه بلمحةٍ ساخرة:

-باختصار لو فكرت فيها كويس هتلاقي إنك سبب كل مصيبة حصلتلي..

برقت عيناه مصدومًا من صراحتها غير القابلة للتزييف، نكس رأسه في أسفٍ، وسمع صوتها تقول له:

-أظن كده الإجابة وصلت؟

لم يستطع الرد عليها أو حتى التبرير، كانت محقة في اتهامه مباشرة بأنه المتورط الأساسي في كل ما حل على رأسها من أذى وخراب، شعر بغصة مؤلمة تجتاحه حين تابعت بنفس أسلوبها الجاف والقساوة تنطلق من عينيها:

-سوري عندي شغل، مش فاضية للكلام معاك، ده أكل عيشي.

أشاح بوجهه كليًا عاجزًا عن رفع أنظاره نحوها، شعر بغصّة تضرب قلبه لتزيد من إحساسه بالذنب نحوها .. مشاعر أخرى ناقمة تنضم للكراهية والعدائية نحوه تحديدًا، لا أمل للتصالح أو النسيان، أكدت له ببرتها ذلك وإن لم تبوح بهذا علنًا.

.....

في تلك الأثناء، صف "آسر" سيارته على الجانب المقابل لرصيف المحل لعدم وجود مكانٍ شاغر لركنها به، كانت السعادة تتراقص بين ضلوعه لذهابه إلى هناك، خاصة أنه رغب في رؤيتها بشدة، اختفى الحماس المليء باللهفة حين لمح "تميم"

عبر الزجاج جالسًا بالداخل، تقلصت عضلات وجهه، وارتد بالضييق الواجم، ظلت عيناه المنزعجتان ترتكزان عليه خلال عبوره للطريق وهو يسأل نفسه:

-يعمل إيه جوا البني آدم ده؟

تجاهل صوت البوق الصاح الذي ينبه للسيارة القادمة بسرعتها من على بعد، حاول قائدها تفاديه لكن لمساحة الشارع الضيقة لم يتمكن من فعل ذلك، فما كان منه إلا أن صدمه ليتدحرج "آسر" على الطريق وسط صرخات وصدمة الجميع ..

انتفض من جلسته "تميم" لينظر من الزجاج للحادث المروري الذي جرى على مقربة منه مرددًا:

يا ساتر يا رب.

ومن تلقاء نفسها خرجت "فيروزة" لتتفقد الحادث، ذهول صادم حل بها حين أبصرت جسده مسجى على الأسفلت، تحركت شفتها لتناديه بارتعابٍ طبيعي من هول المنظر:

ده "آسر"، حصله إيه؟

نظر لها "تميم" بعينين مزعوجتين لترديدها اسمه، أحس بمشاعره الحانقة تطفو على السطح لتغطي أي مشاعر نادمة أو حزينة، تبعها متجهًا إليه وسط الحشد الذي تجمع حوله، تعالت الأصوات اللائمة فقال أحدهم:

يا عم في بشر ماشيين على الأرض، مش حيوانات عشان تدوسونا.

احتج قائد السيارة المتهم ليدافع عن نفسه:

-وربنا هو اللي غلطان، أنا ضربتله كلاكس من أول الشارع وهو مصمم يعدي، ولا  
كان في حد بيزمرله.

لكزه أحدهم في كتفه قبل أن يلومه:

-دوس فرامل يا جدع إنت.. وخلونا نشوف هو مين ولا آ....

جثت "فيروزة" على ركبتيها قبالة "آسر" لتقول عاليًا:

-أنا عارفاه يا جماعة..

ثم انخفضت نظراتها نحوه لتسأله في قلبي:

-إنت كويس؟ حاسس بإيه؟

اندفعت حمية "تميم" الذكورية لتغزي عروقه في ضيق سافر وهو يتابع المشهد  
الدائر، غالب ما ينتفض في كيانه وسلط نظره على "آسر" الذي صرخ متأوهاً بآلم  
وهو يتحسس ساقه:

-آه.. مش قادر.

سألته "فيروزة" بعينين تدوران على وجهه لتفحص بنظراتها مدى خطورة إصابته:

حطب قادر تتحرك؟

هز رأسه بالنفي وصرخاته تعلو في الهواء، اقترح عليه المتسبب في الحادث بعد  
الاعتذار منه:

-يا أستاذ أنا والله ما أقصد، ولو تسمحلي أوديك أقرب مستشفى نظمن عليك،  
والتكاليف على حسابي.

ردت عليه "فيروزة" دون تفكير:

-أنا هاجي معاه، أنا أعرفه كويس.

هنا تدخل "تميم" ليقول وهو يدفع الرجل للخلف ليقف مكانه في الصدارة:

-لأ خلاص يا كابتن، الموضوع مش مستاهل، وأنا معايا عربية وهوديه.

واصل "آسر" صراخه الموجوع، واستنجد بها بعد أن قبض بيده على ذراعها

ليتشبث أكثر بها وليضمن عدم تركها له:

-الحقيني يا آنسة "فيروزة"، أنا بموت ولا إيه؟

هزت رأسها ترد وهي تنتزع يده عنها:

-متقلقش، احنا كلنا جمبك..

ألقت نظرة غريبة على "تميم" الذي مرر ذراعيه أسفل جسد "آسر" ليرفعه عن

الإسفلت، اعتدلت في وقفاتها وأشارت نحو الخلف متابعة حديثها بأنفاس شبه

مضطربة:

-أنا هاقل المحل وأجي معاك، اطمن.. هاتبقى كويس يا أستاذ "آسر".

ضغط "تميم" بقبضتيه على ضلوع الأخير الذي يسنده، وكأنه يريد تفتيتها وهو يتابع

مدى اللهفة والخوف في عينيها، شعورٌ خائِقٌ للصدور تمكن منه، ولم يستطع كبحه

أو إيقافه، بل تركه يسري في بدنه ولسان حاله يردد بغيظ:

-هي واخدة بالها أوي منه كده ليه

آآه

صرخ "آسر" متألماً من ضغطاته العنيفة على أنحاء جسده الذي يئن بالأمها المستحدثة، ونظر له باشمئزازٍ من طرف عيه كما لو كان يوبخه، ولكن بلهجة آمرة:

-بالراحة، هو إنت معندكش دم، مش شايفني متبهدل إزاي؟

توحشت نظرات "تميم"، وكز على أسنانه ليرد بوقاحة:

-بقي اتعلم تمشي إزاي في الشارع بدل ما تكوم كده، واللي زيي في الآخر بيثيلك.

ثم لف ذراعه حول كتفيه ليتمكن من السير به إلى سيارته، فتح له الباب الخلفي وأجلسه على المقعد ليمدد ساقه المتألّمة في المساحة المتسعة، لم يكف "آسر" عن الصراخ والشكوى، أغلق "تميم" الباب ونظراته المزدرية نحوه لا تفارقه، استدار ليجد "فيروزة" مقبلة عليه فسد بجسده الباب الخلفي مقترحاً عليها:

-تعالى قدام هنا، مش معقول هتلزقي فيه، وإنتي شايفة حالته عاملة إزاي؟

سبت على قدميها محاولة النظر من خلف كتفه، وقالت في تفهم:

-معاك حق.

بدا كمن أزيح عن صدره ذلك الثقل الجاثم بعدم اعتراضها على طلبه، ودمدم مع نفسه بارتياح:

-كويس..

وفي لباقة غريبة منه فتح لها الباب الأمامي لتجلس على المقعد، استقرت فيه، وأغلقه ليدور حول مقدمة السيارة هامساً لنفسه في سرورٍ بدد ضيقه المسيطر عليه قبل لحظات:

أخيراً عملت حاجة عدلة في حياتك يا برميل الرخامة.

.....

مالك مكضمة كده ليه؟

سألت "بثينة" ابنتها بتلك الكلمات المهمة وهي تتمعن في وجه ابنتها المكفهر بداخل غرفة نوم "تميم" في منزل أختها، وكأن السعادة قد فارقتها منذ أدهر، وتركت فقط آثارها على ملامحها نفخت "خلود" في زفيرٍ ممل وطويل لتشرد أمامها بنظرات فارغة جوفاء، أدارت رأسها ناحية والدتها التي كانت تنتظر ردها، وقالت بيأس:

-كنت مفكرة إن "تميم" هيبات معايا لما جينا هنا..

وضعت إصبعيها أسفل ذقنها، وردت تسألها في إنكار:

-أومال بيبات فين؟!!

أجابتها بإحباط:

يا في الوكالة يا في البيت ..

ثم زمت شفتيها لتتابع بتدمر:

-وأنا اتهد حيلي هنا، طلبات عمال على البطال، وهو طول النهار برا أما خلاص هاشق هدومي من الغيظ.

ربتت على ظهرها في حنو، وشدت من أزرها قائلة:

-معلش يا بت، بكرة تتعدل معاكي.

انتهت كلتاها للدقات الخافتة على الباب فتوقفتا عن الحديث، أطلت "ونيسة" برأسها وهي تسأل في فضول:

-واخدين جمب كده ليه يا "بثينة" وقافلين عليكو الباب؟

أجابتها الأخيرة ببسمة مفتعلة مستخدمة يدها في الإشارة:

-مافيش ياختي، ده احنا عاملين بنرتب للسبوع، بنشوف هنعمل فيه إيه.

ردت عليها والحماس يملأوها:

-ماتشلوش هم، الحاج "بدير" هيعمل كل حاجة.

هزت "بثينة" رأسها في استحسان، وأضافت:

-ربنا يبارك في عمره.

دنت "ونيسة" من ابنة أختها لتمسح على جانب وجهها الهادئ بحنو، نظرت إليها

بنظرات أمومية قبل أن تدعو لها:

-وعقبال ما نفرح بعوض حبيبة قلبي.

انطلقت تنهيدات عاشمة من بين شفثيها وهي تغمغم برجاء متزايد:

يا رب يا خالتي، ادعيلي كثير.

قالت مبتسمة:

-بأدعيلك ربنا يدعيلك على أد نيتك

علقت "بثينة" في تهكم:

-ما بلاش الدعوة دي، ادعيلها ربنا يفتحها في وشها.

كركرت "ونيسة" ضاحكة لترد بعدها بسجيتها الطيبة النابعة من فطرة لم تدنسها  
الضغائن:

حاضر يا حبيبي، هو أنا عندي أغلى من مرات ابني، دي بنتي الثانية  
!! .....

.....

## الفصل الأربعون

جلسا متقابلين على المقاعد المتاحة في الردهة بالمشفى بعد إيصال "تميم" لذاك  
السمح الذي تعرض لحادث السير وتولي الطاقم الطبي مهمة التعامل مع حالته، لم  
تتركه "فيروزة" وظلت باقية تنتظر بتوتر نتائج فحص حالته، بالطبع اضطرت أن  
تهاتف رفيقتها "علا" لتطلعها على الأمر، لكونها أيضًا لا تعرف أصدقاء له أو حتى  
أي أقرباء سواها، نفخت في سأم وهي تنظر لساعة هاتفها المحمول، مر الوقت  
بطيئًا عليها، وكانت في حالة قلق واضحة، خشيت من وقوع الأسوأ. راقب "تميم"  
ما يصدر عنها بنظرات حذرة آملًا ألا تمسك به وهو يتطلع إليها خلسة، كان على  
دراية بحدة طباعها، وعصبيتها الوشيكة، ناهيك عن تحفزها للانقضاض في التو  
على من يتجرأ عليها.



لاحظ الإرهاق البادي على ملامحها، ما زال بها ذاك الشيء الغامض الذي يستحبه على النظر إليها دون ضجرٍ وفي صمتٍ لذيذ، حتى عيناها كانتا متعبتين، كل بضعة لحظات تفركهما بأناملها، تآهب في جلسته وقد نظرت إليه بغتة لتسأله:

في حاجة؟

تنحج بخفوتٍ قبل أن يجيبها متعللاً:

مكانش ليها لازمة تتعبي نفسك وتيجي، أنا بأعرف أتعامل في المواقف اللي زي دي و...

قاطعته وهي تشيح بوجهها للجانب:

شكراً.. كان لازم أجي، أنا أعرفه، بس إنت لآ.

ورغم إحراجها الواضح له إلا أنه لم ينزعج من صراحتها، لكن أغضبه اهتمامه الزائد بذلك الغريب الذي على ما يبدو لم تلتقي به سوى بضعة مراتٍ ليستحوذ على ذلك القدر من قلقها، شعوره بالغيرة منه تعاضم بداخله، انصرف عن التفكير في تصرفاتها معه حين أطل عليهما الطبيب، نهض واقفاً لينظر إليه، وقبل أن يبادر بالسؤال عن أحواله كانت "فيروزة" تتساءل بتلهف:

خير هو عامل إيه دلوقتي؟

كان "تميم" كالقابض على جمرٍ في راحته، كظم تلك الأحاسيس المنزعجة في صدره وحاول أن يبدو هادئاً، ما زال ذلك السؤال الغريب يلح عليه في رأسه، لماذا هو حانق هكذا بشأن اهتمامها بغيره؟ أليست غريبة عنه وأمرها لا يعنيه؟ كيف تنتابه

تلك المشاعر المستاءة وتكاد تفتك بصدرة؟ انتبه لسؤال الطبيب الروتيني  
المستفهم:

-أتوق قرايب المريض؟

تبادلت معه "فيروزة" نظرة مترددة قبل أن تعاود التحديق في وجه الطبيب لتجيبه:  
-أيوه.. أنا أعرفه، وكلمت معارفه وهما في الطريق.

استفاض في شرح حالته موضحًا:

عمومًا هو بخير، مافيش غير كسر في الساق، وهيتحط في الجبس لمدة شهر، مع  
شوية رضوض وكدمات طبعًا ده نتيجة الارتطام العنيف بالأرض، احنا عملنا له أشعة  
مقطعية على المخ، والحمد لله مافيش ضرر.

تنهدت في ارتياح وهي تجيبه:

-الحمد لله.

تابع الطبيب حديثه قائلاً:

-هو دلوقتي واخد مسكنات ونايم، وعلى الصبح هايكون فاق وتقدرنا تتكلموا معاه.

هزت رأسها في تفهم وهي ترد:

-تمام .. شكرا يا دكتور.

قال مجاملًا قبل أن ينصرف:

-ربنا يطمنكم عليه.

ظلت "فيروزة" متسمة في مكانها وقد بدت إلى حد ما شاردة ومستغرقة في أفكارٍ تخصها .. حك "تميم" مؤخرة عنقه متسائلاً في اهتمام، ونظراته مرتكزة عليها:

-أومال هتعملي إيه بعد كده؟

على ما يبدو أنها لم تنتبه له، صمتت مطولاً فلوح بيده أمام وجهها قائلاً:

يا أبله سمعاني؟

تقلصت تعبيراتها من حركته تلك، وعلقت بتهجم:

في إيه؟

تحدث من زاوية فمه قائلاً:

-بأقولك هو إنتي آ....

لم يتمكن للأسف من إتمام عبارته بسبب صياح رفيقتها المزعج:

-إيه الأخبار يا "فيروزة"؟

نظر لها في ضيقٍ وهي تلاحقها بأسئلتها:

-"آسر" عامل إيه دلوقتي؟ كويس ولا جواله إيه؟

ربت على كتفها في رفقٍ، وأجابت بابتسامة صغيرة حتى تهدأها:

-اطمني يا "علا"، الدكتور لسه مخلص كلام معايا، وقالي حالته كويسة وتمام.

تنفست رفيقتها بعمقٍ لتريح تلك الكتلة المقلقة الجاثمة على صدرها، وقالت بتضرعٍ

وهي تضم قبضتها معاً:

-الحمدلله يا رب.

غمغم "تميم" مع نفسه في سخط:

-إيه المبالغة دي؟ هو داسه قطر وأنا معرفش؟!!

بينما رفعت "فيروزة" أنظارها نحو أخيها الذي جاء بصحبتها، وسألته من تلقاء نفسها:

-إزيك يا "ماهر" بيه؟

سألها الأخير بصوتٍ جاد:

-إيه اللي حصله يا "فيروزة"؟

هزت كتفيها في عفوية وهي تجيبه:

-مش عارفة بالضبط، بس الظاهر إنه كان بيعدي الشارع وماخدش باله من العربيات، لأن شوفناه مرمي جنب الرصيف والناس حواليه.

حرك رأسه معقبًا عليها بلهجته شديدة الجدية:

-دلوقتي هنتكلم معاه ونفهم بالضبط إيه اللي حصل.

ردت عليه مشددة:

-لأ مش هاينفع، الدكتور قال على بكرة هنقدر نشوفه.

وضعت "علا" يدها على ذراع رفيقتها لتقول بنبرة ملتاعة، وعيناها تحبسان الدمع فيهما:

-كويس إنك كلمتينا.. أنا هاتجنن بصراحة عليه.

عضت "فيروزة" على شفتيها مبررة تصرفها في حرج طفيف:

ما هو أنا معرفش قرايب ليه، وبما إنه عارفكم فأكيد هتعرفوا تتعاملوا.  
هزت رأسها في استحسانٍ وكأنها تشكرها على لجوئها إليها لمساعدته في أزمته  
المفاجأة، بينما تحولت كافة الأنظار إلى "تميم" الذي أشار إلى وجوده حين  
استطرد هاتفاً:

شدة وتزول.

ضاقت عينا "ماهر" بشكٍ وهو يسأله بما يشبه العالي:  
هو إنت؟

لوح "تميم" بيده بحركة عسكرية مرحباً بالضابط:  
مساءك فل يا باشا  
قال باقتضابٍ وترفع:  
أهلاً..

أشار "تميم" بيده إلى صدره متابعاً:  
أنا اللي لفحته على كتفه وجيبته هنا على فكرة.  
التفتت "علا" نحوه لتشكره ببسمة متكلفة:  
ميرسي على تعبك.

رد عليها بفتور:

مافيش فيه حاجة خطيرة، هيعدي منها على خير يا أستاذة.

أكتفت بهزة خفيفة من رأسها قبل أن تنظر ناحية شقيقها لتطلب منه برجاءٍ كبير:

عاوزين نطمئن عليه ونشوفه يا "ماهر"، بليز خليهم يوافقوا ندخله.

استسلم أمام إلحاحها فقال على مضض:

حاضر.

شعرت "فيروزة" أن وجودها لم يعد مجديًا، بالإضافة إلى تأخرها كثيرًا في العودة إلى منزلها، وحتما ستقلق والدتها، لذا تشدقت قائلة:

طيب أنا هستأذنكم هامشي دلوقتي، مش هاینفع أقعد أكثر من كده، وفي البيت قلقاين عليا.

ردت عليها "علا" وقد تفهمت أسبابها الشخصية:

مش عارفة أقولك إيه يا "فيروزة"، وجودك فرق معاه حقيقي.

ابتسمت وهي ترد:

-ربنا يقومه بالسلامة.

اقترح عليها "ماهر" بلباقة:

تحبي أوصلك؟

اعتذرت بتهذيب:

-المشوار مش بعيد ولا حاجة يا "ماهر" بيه، خليكوا إنتوم مع الأستاذ "آسر"، وإن شاء الله بيتقى كويس.

تضرعت "علا" مرددة في رجاء:

يا رب.

حافظت "فيروزة" على ابتسامتها المرسومة على شفيتها، وقالت:  
-هاكلمك آخر النهار يا "لولو".

ردت وهي تومئ برأسها:  
-أوكي.

تبادلت الاثنتان القبلات على الوجه لتعلق بعدها "فيروزة" حقيبتها على كتفها،  
اتجهت بخطواتٍ شبه سريعة إلى الدرج لتهبط عليه، ولكن استوقفها "تميم" الذي  
لاحقها منادياً:

يا أبله..

استدارت لتنظر نحوه بوجوم:  
-خير.

مرر يده على رأسه في ربكة ظاهرة نسبياً عليه، وقال مقترحاً عليها بأسلوب جاهد  
ليبدو لطيفاً للغاية:

-أنا رايح على الدكان، ممكن أوصلك في سكتي لو مش هيضايقتك.

نظرت له بغرابة قبل أن ترد معذرة:

-شكراً، هاركب من على أول الشارع.

وكان برحيلها يصيبه فارغاً عجيبيًا، فأصر عليها مماًزحاً:

يا ستي الطريق واحد، اعتبريني تاكسي لو ده يريحك.

التزمت برفضها، وعلقت عليه:

-مش هاينفع.. عن إذذك!

لم تتمهل في خطواتها وهي تهبط الدرجات سريعًا لتختفي من أمامه، تباطئ "تميم" في سيره مرددًا لنفسه بما يشبه المدح، وملامحها القريبة المليئة بالتفاصيل المشوقة قد باتت محفورة في ذاكرته:

-دماغك حجر .. بس بنت بلد وجدعة.

.....

على الأريكة المريحة أمام شاشة التلفاز العريضة جلست "خلود" بشروءٍ واجم تحديق بعينين غير مكرثتين المشاهد المتتابعة التي تُعرض أمامها، حادثتها خالتها لأكثر من مرة، وكأنها ترغب في مشاركتها التعليق على الأحداث، لكنها ظلت صامتة، تسرح في عالم خاصٍ بها، انتبهت لها "ونيسة" واعتدلت في جلستها لتسألها مباشرة، ونظراتها مثبتة عليها:

-مالك يا "خلود"؟ مضايقة من إيه؟

زفيئر مهموم خرج من جوفها قبل أن ترد باقتضاب:

-مافيش.

أثارت في نفسها الشكوك بردة فعلها الحزينة التي تحمل الكثير من الدلالات المقلقة، لذا أصرت عليها علها تنجح في سبر أغوارها:

-إزاي مافيش؟ هو أنا عامية مش شايفة شاكلتك عامل إزاي؟



نكست "خلود" رأسها لتبدو أكثر حزناً، واستندت بوجهها على راحة يدها دون أن تنطق فتشير من فضول خالتها، تحركت الأخيرة من مكانها لتجلس إلى جوارها، مسحت برفقٍ على كتفها وجانب ذراعها، ثم قالت:

قولي يا حبيبي، في إيه اللي حصل؟

حاولت أن تستدعي عبراتها لتحجزها في محجربها وهي تجيبها:

أنا حاسة إن "تميم" واخذ جمب مني.

قطبت "ونيسة" جبينها متسائلة في قلق:

ليه بتقولي كده؟

استرسلت مستفيضة في توضيح أسباب استيائها:

معرفش.. بس من ساعة ما جيت هنا وهو زي ما يكون مصدق، طول النهار برا، لا يبجي يأكل ولا حتى بيعدي يسأل عليا..

قصدت أن يظهر صوتها مختنفاً وهي تكمل شكواها:

-ويدوب لو جه يغير هدومه آخر يوم بينزل ثاني على طول..

انفجرت بأكية لتواصل حديثها بصعوبة فتتلع من يصغي إليها:

ده أنا ما بلحقش أشوفه ولا اتكلم معاه، زي ما أكون غريبة عنه، ده غير إنه قاصد يبات برا، وأنا زعلانة منه بصراحة، هو أنا مش مراته ومن حقي أقلق عليه؟!

ربتت مهونة عليها حزنها، وقالت بنبرة مواسية:

يا عيني يا بنتي .. كل ده شيلاه في قلبك وساكته.

أخفت عينيها الباكتين عنها براحة يدها، وعلت بلووم:

- ما أنا خايفة اشتكي تزعلوا مني.

ردت عليها خالتها بحزم، وقد بدت داعمة لها:

- لا مالوش حق، إنتي مراته مش حد غريب، أنا هاكلم عمك "بدير" وهاخليه يشد عليه.

رفعت أنظارها نحوها، ثم ادعت النحيب وهي ترجوها بأسلوبٍ ماكر خبيث:

- لأ بلاش يا خالتي، "تميم" يزعل مني إكمني اتفكيت معاكي بكلمتين.

ابتسمت تقول عن ثقة وقد سقطت بسداجةٍ في فخها البسيط:

- متخافيش، مش هاجيبيله سيرة، أنا أمه وليا لي كلام معاه، والليلة هايكون في حضنك.

على الفور احتضنتها في امتنانٍ زائف وهي تشكرها:

- ربنا ما يحرمني منك يا خالتي.

تراجعت عنها الأخيرة لتنظر إليها وهي تكفكف عبراتها، ثم قالت بوداعة:

- ده إنتي غالية عندي..

وربتت على كتفها مجددًا قبل أ، تداعبها في ود:

- شوفي الضحكة نورت في وشك إزاي.. ربنا ما يجعلها تفارقك

تنهدت معقبة عليها:

- يا رب يا خالتي.. يا رب.

.....  
أتت شكواها بنتائجها المرجوة، فحين حل المساء، كان "تميم" عائداً بصحبة أبيه إلى منزل الأخير ليقضي ساعات الليل به، بالطبع تلقى توبيخاً لا بأس به من أبيه، ولم يبرر لهما تصرفه في الانزواء عن زوجته، كان كعادته يُقي ما يخصه سرّاً لا ييوح به لكائنٍ من كان .. ولج إلى غرفته بتباطؤٍ، أزاح سترته عنه وأسندها على المشجب ليلتفت نحو زوجته التي باغته باحتضانه وضمه إليها، بدا كالصنم للحظة من المفاجأة غير المرغوبة، لم يحاول حتى محاولتها، تجمد في مكانه وهي تقول له باشتياق:

-وحشني حضنك أوي.

أبعدها عنه برفقٍ ليقول ببرودٍ واضح في نبرته ونظراته إليها:  
-أنا لسه ماصفتش من ناحيتك.

غالبت غيظها من قساوته، وسألته بنبرة مستكينة تدعي من خلالها براءتها:  
-وهو أنا غلظت في إيه يا حبيبي؟  
أجابها بما يشبه الهجوم:

-إنك تخبي عليا حاجة ولا تستغفني ده أنا مقبلوش!!!!  
عادت لتضمه، واستندت برأسها على صدره معتذرة منه بصوتها النادم:  
-حقك عليا، أنا عمري ما أقدر أزعلك، إنت حبيبي وبس.

مل "تميم" من سماع مثل تلك العبارات المستهلكة، خاصة أنها لم تكن تلامس مشاعره، ولم يصل مضمونها الصادق إليه، أزاح ذراعيها عن جسده وتحرك نحو الدولاب ليأتي بملابسه، تبعته مختلقة المزيج من الأكاذيب:

إنت عارف "هيثم" أخويا، مستهتر ومايهموش حد، وإنت أكيد اتكلمت مع أمي وقالتلك على عمايله، أنا نفسي حاله يتصلح.

دمدم مع نفسه بصوت خفيض ظن أنها لن تسمعه:

ما جاز تكونوا مطبخينها سوا، الله أعلم بنواياكم!

انقبض قلبها مما التقطته أذناها، ورددت والخوف يكسو تعبيراتها:

نعم.. مش فهماك؟

التفت ليواجهها قائلاً، وتلك النظرة المتشككة تملأ حدقتيه:

-شوفي أخوكي فيه كل العبر، بس سكة المنشطات دي غريبة عليه، ومالوش فيها.

لعت شفتيها، واستطردت مدافعة عن كذبتها:

إنت.. بتقول إيه؟ يعني.. أنا هاكذب؟

لوى ثغره مردداً بجمود:

-الله أعلم..

وحدث نفسه في شكٍ دون أن يبعد نظراته النافذة عن وجهها المرتبك في تعبيراته:

-مسيري هسأله في مرة.

استندت "خلود" بيدها على ضلفة الدولاب وقد شعرت بدوارٍ عجيب يلف رأسها،  
ترنحت في وقتها، وقالت وهي تضع يدها على جبينها:

-مش عارفة مالي.. أنا دايدة كده.

علق "تميم" في تهكمٍ وهو يتعد عنها:

-ما إنتي كنتي زي القردة من شوية.

ردت بأنفاس مضطربة، وهي بالكاد تحاول الوقوف ثابتة:

-لا.. مش قادرة أقف على حيلي.

دقق النظر في هيئتها، لم تكن طبيعية بالمرة، عاد إليها وعاونها على السير ليمدها  
على الفراش، تأوهت أكثر من التعب، ألقت نظرة حائرة عليها، ثم قال:

-استني أشوفك برشام ولا حاجة في الدرج.

فتح الكومود الملاصق لفراشه فوقعت عيناه على منديل الرأس والمشبكين، تلبك  
بشكلٍ متوترٍ وأغلقه على الفور، سلط أنظاره القلقة على زوجته المستلقية في حالة  
من الإعياء محدثًا نفسه:

-دي لو شافتهم هتقلبها حريقة.

تنحنح يقول لها:

-مافيش هنا، أنا هاطلع أشوفك دواء يناسبك عند أمي.

ردت بوهنٍ وبصدرٍ متهدج:

-ماشني.. يا حبيبي.

خرج "تميم" من الغرفة و"خلود" تتطلع إليه بنصف عين، وما إن اختفى حتى اتسعت حدقتها وزفرت كتلة من الهواء دفعة واحدة، وكأنها تخلص من شيء يجثم على أنفاسها، تحسست وجهها المتعرق بعرقه البارد قائلة بصوتٍ خفيض:  
-كنت هاتكشف.. ربنا عداها على خير.

.....

لليوم الثاني على التوالي، ولم تظهر على الساحة، اكتفت بمكالمة عادية لرفيقتها لتطمئن منها على وضعه دون القيام بأي زيارة استثنائية له مبررة بأنها المسئولة حاليًا عن إدارة المحل في غياب صاحبتة التي تفرغت للبقاء بجواره.. ظهرت علامات الإحباط واضحة على وجه "آسر"، ورغم تعافيه قليلاً إلا أن انزعاجه كان واضحًا، حاولت "علا" تسليته، فاقترحت عليه:

-تحب أجيبك شطرنج؟ أنا عارفة إنك بتحب تلعبه، أنا ممكن أغلبك كمان و..  
قاطعها في فتور:

-لا ماليش مزاج.. أنا عاوز أفضل كده.

ضمت شفيتها بيأس وصمت لتراقبه في صمتٍ، حملق "آسر" في الفراغ مستعيدًا في ذاكرته مشهد تشجع قليلاً ليسألها بأسلوب مراوغ:

-مافيش حد سأل عليا؟

هزت رأسها بالنفي وهي ترد:

-لأ..

ابتسم قائلاً بما يشبه المزاح:

صاحبك مش جدعة على فكرة، مفكرتش تيجي تزورني مرة، كإنها مصدقت  
خلصت مني.

أوضحت له بعفوية:

غصب عنها، هي شايلة الشغل كله مكاني، وأنا ما بروحش خالص، بس كذا مرة  
اتصلت تسأل عليك.

انتبه لجمالها الأخيرة فتأهبت حواسه، وسألها بتلهف:

-بجد؟ سألت عليا؟

ردت مبتسمة في رقعة:

-أيوه..

ثم عمدت إلى تغيير مجرى الحوار، وسألته:

قولي مش عطشان؟ أجيبك عصير؟ في نكهات كتير هنا.

تنهد معلقًا بحماس:

-شوفي اللي يعجبك، أنا راضي بيه.

أحست "علا" بفيض من السعادة يتسلل إليها لاستجابته لطلبها بأسلوبه المعتاد  
الذي يجذبها دومًا إليه .. لم تعلم أن حماسه الغريب راجعًا لاهتمامه بـ "فيروزة"،  
تلك التي شغلت تفكيره أكثر مما مضى بإنقاذها لحياته.

.....

بعينين طامعتين يملأهما الشره والجشع حدقت "حمدية" في صواني الطعام المعبأة بالأطباق الشهية وهي تتجه نحو بناية عائلة "سلطان"، زمت "حمدية" شفيتها لأكثر من مرة ولعابها يكاد يسيل طمعا في الاستحواذ على كل تلك الخيرات، مالت برأسها على زوجها ليبدو صوتها قريبًا من أذنه وهي تقول بحقد:  
باين عليهم صارفين ومكلفين، شايف الأكل يا "خليل".

جاء زوجها بنظراته على الأوجه المألوفة المترابطة على المقاعد الخشبية حول المدخل في تجمعات بشرية ليرد عليها باتشياء:  
- اللهم صلي على النبي، لأ وكبار التجار منورين كمان..  
انخفضت نبرته محدثًا نفسه بنوع من التفاخر:

- وقریب هابقی قاعد معاهم ومنهم لما نوضب الدكان وأتعرّف عليهم.

توقفت "حمدية" عن السير لتخبره بما يشبه الأوامر:

طيب أنا هاطلع مع الحريم فوق وإنت خلي العيال معاك بدل ما يلبخوني.

هتف معترضًا بنبرة متدمرة:

-بس دول هيصدقوا دماغني.

زجرته قائلة بصوت خافت وبضيق وهي تكز على أسنانه:

يا خويا بأقولك عشان أعرف أعبي الأكل براحتي، إنت مش واخذ بالك من الهلومة دي ولا إيه؟!!

رد على مضض وهو يحك رأسه:



طيب.

نظرت "حمديّة" من خلف كتف زوجها لتأمر أخته بنبرة مهمة:

-مدي رجليكي شوية يا "آمنة"، هنتأخر على الجماعة.

لوحث لها الأخيرة بذراعها مرددة بابتسامتها الودودة:

-أنا وراكي أهوو.

نفخت "فيروزة" ملعقة بقليلٍ من السخط:

-هي مستعجلة على إيه؟

مازحتها "همسة" بضحكة حذرة:

-تكونش نسايبها واحنا منعرفش!

أضافت توأمتها ساخرة منها بأسلوبها المتهمك:

-هي مرات خالك كده، تحب تتحشر في اللي مالهاش فيه، وفي الآخر بتأخذ على دماغها لما تلتزق.

أخفضت "همسة" من صوتها لتقول:

حطب أقولك تلاقيا جاية مخصوص عشان تأكل وتلغ.

ردت عليها مؤيدة إياها في الرأي:

-أيوه، وتعبني في شنطتها، هي عادتتها ولا هتشتريها.

استمعت "آمنة" إلى ثرثرتهما الخافتة فنهرتهما محذرة:

-بطلوا يا بنات بدل ما تسمعكم

كتمت الاثنتان ضحكاتهما العابثة ولحقتا بوالدتهما لتصعد ثلاثهن الدرجات على مهلٍ حتى وصلن إلى منزل "بدير" .. استقبلت "ونيسة" ضيفاتها فاتحة ذراعها في الهواء، وهي تردد بصوتها المهلل:

يا مرحب بالغالين.

مدت "حمدية" يدها لمصافحتها، وقالت بعشمٍ مبالغ فيه:

مبروك يا حاجة "ونيسة" يتربى في عزكم، وربنا كأنه ابننا بالظبط، ده احنا من ساعة ما سمعنا الخبر واحنا الفرحة مش سيعانا.

جاملتها في الرد هاتفة:

-الله يبارك فيكي، تعالي عشان تسلمي على أم العريس.

ربتت على ذراعها في لطفٍ وهي تقول بضحكة مفتعلة:

حطبعا، دي الغالية أم الغالي، عريسنا الصغير.

ثم أسرع في خطواتها لتقدم التهنئة لـ "هاجر"، وقفت "آمنة" عند أعتاب باب المنزل تقوم بدورها في المباركة، ابتسمت مستطردة حديثها معها:

إزيك يا حاجة، ربنا يبارك في الحفيد الصغير.

انحنت عليها "ونيسة" لتقبلها من خديها بعشرات القبلات المتتابعة قبل أن تشكرها:

-الله يبارك فيكي، وعقبال ما تفرحي بالبنات وعوضهم.

هزت رأسها معقبة:

إن شاء الله.

قدمت كلاً من "فيروزة" و"همسة" مباركاتهما لها قبل أن تستقر الاثنتان بجوار والدتهما على المقاعد الشاغرة .. توالى دخول البقية ملقين التحيات والتهنئات ليبدأ بعدها الحفل المعتاد بتريد أغاني السبع الشهيرة بواسطة فرقة شعبية ملأت الأجواء صخبًا وحماسة .. بعد ما يزيد عن نصف الساعة هدأت الضوضاء لتبدأ "ونيسة" وقربياتها في توزيع الحلوى والفول السوداني على الحضور كتقليد متبع عند الاحتفاء بالمولود الجديد .. انتظرت "حمدية" ريثما اقتربت منها صاحبة المنزل لتسألها بوقاحة ودون أدنى تمهيد:

-أقولك إيه يا حبيبتى؟ عاوزين كده نبص على الشقة اللي هتتجوز فيها عروستنا، مش بردك هي هنا في العمارة؟

ورغم استغرابها من طلبها الذي لا يعد مناسبًا في مثل هذا الظرف العائلي إلا أنها ردت بتهذيب:

-أيوه .. إديني لحظة أقول للحاج "بدير" يجيبلي المفتاح.

سألها "حمدية" مستفهمة وقد ضاقت نظراتها:

هو إنتي مش معاكي نسخة؟

جاوبتها بالنفي وموضحة أيضًا:

-لا، هو اللي متولي موضوع الشقة من الألف للياء .. مش كان متفق معاكو على كده؟!

رفعت "حمدية" حاجبها للأعلى، وأضافت بوقاحة سمة:

طب احنا كمان عاوزين نسخة.. يعني العروسة محتاجة تطل كل شوية عليها  
تشوف ناقص إيه وتحطه، مش معقول في الراحة والحماية هنعدي عليكم.. زدي  
حقها بردك! ولا أنا غلطانة!؟

استنكرت "ونيسة" طريقته المبتذلة في التوضيح، وردت بوجه عابس:  
-ماهي بتاعتها، محدش قال غير كده.

قالت "حمدية" مُلطفة حين لاحظت تبدل تعبيراتها للضييق:

-أنا مش عاوزاكي تضيقي مني يا حاجة، ده إنتي على راسي من فوق والله...  
ثم سحبته من ذراعها بعيدًا عن الضوضاء والأعين المراقبة لها لتهمس بمكرٍ مخادع:  
-بس هاعمل إيه أخت جوزي عمالة تزن عليا، وأنا الصراحة محروجة منك وفي  
نص هدومي.

هزت رأسها في تفهمٍ دون أن تنطق، بينما ابتسمت لها الأولى قائلة بخبث:  
-تعيشي يا حاجة، وعقبال ما نفرح بعوض المعلم "تميم".  
ردت مجاملة باقتضاب:

يا رب.

نظرت "فيروزة" شزرًا إلى تلك السمجة التي تتطفل بلا داعي فيما يخص شئون  
عائلتها، وانزعجت أكثر حين رأتها تنفرد بمضيفتهن، تمتمت بضيقٍ معكوسٍ على  
قسماتها المشدودة:

-الولية دي إيه اللي حاشرها معانا، مش فاهمة بصراحة، لولا الفضايح كنت قومت اتخانقت معاها.

قالت "همسة" بصوتٍ خفيضٍ محاولة تهدأتها:

-كبري دماغك منها، هي حابة تعمل نمره قصادهم، ما إنتي عارفها، ماتستهلش إننا نسأل فيها، دي تلاقيها متغاضة مني عشان موضوع السلسلة.

نفخت عاليًا وباستياءٍ ضجر منها، انتبعت "فيروزه" لتلك الاهتزازة في حقيبتها، فتحتها لتخرج منها هاتفها المحمول، نظرت إلى شاشته فوجدت اسم رفيقتها يحتله، نهضت واقفة ووضعت حقيبتها مكانها لتقول بوجهٍ جاد في تعبيراته:

ثواني هاشوف "علا" بتتصل، هاطلع أكلها من برا.

أومات "همسة" برأسها:

حبيب يا "فيرو".

بحثت وسط الزحام المتزايد في المنزل عن منفذٍ يمكنها من الخروج، لكن بدا الطريق مسدودًا بسبب المقاعد الكثيرة المتراسة حتى المدخل، التفتت تبحث عن مخرجٍ آخر لها، فلمحت الردهة، اتجهت إلى هناك لتقف عند بقعة شبه خالية من الضيوف، وقبل أن تجيب على الاتصال بدأت الفرقة الشعبية تشدو أغانيها من جديد مما أفسد عليها الفرصة لسماع الطرف الآخر بوضوح، تابعت سيرها في الردهة الطويلة حتى نهايتها عند غرفة ما بابها موارب، سدت أذنها بيدٍ، ووضعت الهاتف على الأذن الأخرى تُجيبها بعبارات متلاحقة:

-الوو.. أيوه يا "علا" معلش يا حبيبتي مش عارفة أسمعك كويس، أنا برا مع آ...

بترت عبارتها وقد اعتلى تعبيراتها صدمة كبيرة، ثم قالت في ذهول:  
-أستاذ "آسر"؟

وعلى ما يبدو أنها لم تدرك وجودها بالقرب من غرفة الجد "سلطان" حيث كان حفيده بالداخل معه يدثره في فراشه بعد أن قضى الأول بعض الوقت بالخارج مستقبلاً المهنيين مع ابنه ليتمكن منه التعب فيستأذن ليسترخ .. فتح "تميم" باب الغرفة على مصرعيه ليتفاجأ بها قبالتة، خفقة كالصاعقة ضربت قلبه وانتشر كامل تأثيرها في كيانه، ابتسمت شفثاه تلقائياً، ولمعت عيناه بشكلٍ عجيب، ما لبث أن اختفى ذلك في لحظة وقد التقطت أذناه اسم هذا اللزج تردده، وبكل ما اعتراه من مشاعر مغتظة اندفعت بغتة لتغزي عروقه تجراً ونادها مجردة من أي ألقاب:

- "فيروزة" ..... !!

.....

## الفصل الحادي والأربعون

على ما يبدو أنها لم تنتبه إلى صوته المنادي باسمها مجرداً من أي ألقابٍ بسبب الضوضاء الصاخبة المحيطة بها مما منح "تميم" الفرصة لتدارك نفسه قبل أن يحدث

ما لا يُحمد عقباه مع شخصية مندفعة مثلها، في حين استغرقت "فيروزة" في مكالماتها غير المريحة محاولة الإصغاء لصوت الطرف الآخر مما اضطره -وبناءً على رغبة ملحة بداخله- للتجراً قليلاً والنقر بإصبعه على كتفها الأيمن لتشعر بتلك اللمسة الغريبة عليها، ربما لم يكن ليفعل ذلك مُطلقاً لولا سماعه لاسم هذا الكائن اللزج ينطلق من بين شفيتها، استشاط غضباً وكان بينهما عداوة غير مفهومة، استدارت كلياً للخلف لتتفاجأ به واقفاً ورائها، سريعاً ما احتل قسماتها الضيق، تحفزت لاختلاق المشاكل معه، وسألته بتلقائية:

-إنت بتعمل إيه هنا؟

ابتسم لرؤيتها محدقة به، وأجابها ببساطة، وبنبرة أقرب للمزاح:

على حد علمي ده بيت أبويا.

تذكرت "فيروزة" أين هي، وشعرت بالحرج الشديد، ابتلعت ريقها ورددت معذرة منه:

-سوري .. مخدتش بالي...

كذلك انتهت أيضاً للمكالمة الدائرة مع "آسر" فأشارت بسبابتها لـ"تميم"، وأضافت: لحظة كده.

حافظ الأخير على ابتسامته اللطيفة مرسومة على محياه إلى أن استطردت قائلة بشكلٍ آلي:

-حمد لله على السلامة يا أستاذ "آسر"، مش هاينفع أتكلم مع حضرتك، لا الوقت ولا المكان مناسبين لده، بس دعواتي ليك بالشفاء، سلامو عليكم.

أحس "تميم" بالارتياح لأسلوبها الجاف في التعامل معه، وكأن كلماتها الجامدة قد أثلجت صدره، نظرت إليه مجددًا في استغراب حائر، بدا مستمتعًا على عكس طبيعته، انتبه لنظراتها الفضولية، واقترح عليها وتلك الابتسامة البلهاء تشكلت على ثغره:

لو عاوزة تتكلمي براحتك فأوضتي القديمة هناك، مافيهاش حد وتقدري تاخدي راحتك.

لوحث بهاتفها المحمول أمام وجهه لتقول حاسمة الأمر:  
-شكرًا.. المكالمة خلصت.

من تلقاء نفسه علق ساخرًا:  
-أحسن برضوه.

لم تفهم كلماته المبرطمة فسألته وقد انعقد حاجباها:  
-بتقول حاجة؟

حك جبينه قائلاً بأسلوب مموه:

-بأقول إن الطريق من هنا عشان ماتهويش.

هزت رأسها في تفهم وهي ترد:

-أها.. شكرًا.



انتظر في مكانه ونظراته ترافقها إلى حيث اتجهت، خرج من صدره تنهيدة بطيئة مليئة بمشاعر أصبحت من طقوسه المميزة حين يراها، تحفز في وقفته وانتصب كتفاه حين سمع والدته تناديه عاليًا:  
- "تميم!" تعالي عاوزاك.

اقترب منها متسائلًا، وعيناه تبحثان في خلسة عن "فيروزة" بين الحضور:  
خير يامه؟

أمسكت به "ونيسة" من ذراعه واشرأبت بعنقها للأعلى لتهمس له في أذنه بنبرة آمرة:

-انزل لأبوك قوله يجيب مفتاح الشقة اللي فوق، نسايب "هيثم" عاوزين يشوفوها.  
توقف عن الدوران بعينه حين حدد مكان جلوس "فيروزة"، عادت الابتسامة لتشرق على تعابيره وهو يرد:  
طيب.. هنزله.

ألقي "تميم" نظرة أخيرة عليها لينصرف بعدها لينفذ ما أملتته عليه والدته من طلبات، بينما مالت "همسة" على توأمتها تسألها في اهتمام بعد أن هدأت الضوضاء قليلاً:  
في حاجة مهمة حصلت مع "علا"؟  
ردت نافية:

-لأ يا "همسة".

-أومال اتأخرتي ليه؟

أجابتها باقتضاب:

-ها بقي أحكيك لما نروح البيت.

هزت رأسها في تفهم:

-ماشي.

.....

على الجانب الآخر، وبداخل المطبخ المزدهم بعشرات الصحون المليئة ببقايا الطعام والتي تم تجميعها في الحوض لغسلها لاحقًا بعد جمع الأوساخ في القمامة جلست "خلود" في حالة من الإعياء وإلى جوارها والدتها تمسح على ظهرها برفق، حاولت الأولى رفع رأسها المحني للنظر إليها، لكن ظل ذاك الدوار المزعج ملازمًا لها مما أجبرها على تنكيس رأسها أغلب الوقت، تحسست بيدها بشرتها، وهتفت شاكية:

-مش قادرة يامه، من الصبح بطني قالبه عليا.

سألتها "بثينة" بجديّة:

-كلتي إيه؟

التقطت أنفاسها بصعوبة لتهدأ من إحساس الغثيان الذي يعترها، وجاوبتها نافية:

-ولا هوا..

تأوهت من الألم، وتابعت القول:

-شكلي خدت برد.

نهضت والدتها لتتجه للدواليب الخاصة بأدوات المطبخ باحثة عن أعشاب ما في داخل البرطمانات المتراسة به، وقالت بنوعٍ من التبرم:

-دلوقتي اعملك حاجة سخنة تهدي معدتك، ما إنتي يا حبة عيني مفحوتة معاهم، إياكش يقدرُوا!

شعرت "خلود" أنها على وشك التقيؤ من تلك الرائحة النفاذة التي تزعج أنفها وتزيد من تحفيز تقلصات معدتها، عبرت عما ينتابها من تقلبات غريبة قائلة:

في ريحة كده غريبة .. مخلياني كده قرفانة.

انتصبت "بثينة" في وقفقتها بعد أن تركت ما في يدها لتستدير نحوها، دنت منها متسائلة في لؤمٍ وقد انخفضت نبرتها:

-لأحسن يا بت تكوني آ....

بترت عبارتها عن عمد ليتفقه ذهن ابنتها لما ترمي إليه من كلمات مقتضبة ذات دلالات صريحة غير قابلة للتشكيك، برقت عينا "خلود"، وهمست بقلب يدق في توتر:

قصدك إنه حصل يامه؟

ظهرت ابتسامتها من خلف تلك الضحكة الماكرة وهي تؤكد لها:

-مش بعيد، كل كلامك يتفهم كده.

خفق قلبها بشدة وقد راققتها الفكرة كثيرًا، قبضت "بثينة" عن رسغها مشددة عليها بلهجة لا تقبل بالهزل وقد غامت نظراتها:

-أقولك إيه إخفي على الخبر ماجور لحد ما تتأكد، واللي يسألك قوليله كلتي حاجة قلبت معدتك.

سألته باسترابة:

ليه؟

أجابته بنفاذ صبر:

-عاوزانا نعمل هوليعة على الفاضي، ويطلع في الآخر مافيش حاجة، لازم تتأكد وبعد كده نرمي الخبر زي القنبلة.

هزت رأسها توافقها الرأي وهي ترد:

-حاضر يامه.

تابعت قائلة بصوتها الخافت، وكأنها تملي عليها أوامرها:

-ومن بكرة الصبح هعدي أخدمك نعمل تحليل.

طيب

قالتها وهي تعتدل في جلستها على المقعد، ناولتها والدتها كوبًا من الماء لترشفه، وحذرتها مشيرة بنظراتها:

-وانتي ماتخليش المحروس يقرب منك لحد ما نظمن.

تقلصت تعبيراتها بقليل من الانزعاج، وتساءلت في ضيقٍ رافضة إطاعتها في مسألة علاقتها الحميمة بزوجها:

-ولو سألني؟ وكان عاوز آ.....

قاطعتها بفضاظة حاسمة المسألة عليها:

ياختي حوش حوش كان مغرّك بحبه، ده ما هيصدق يا ادلعي إنه يخلع.  
وكأنها لامست وترا حساسًا في علاقتها به، غلف وجهها تعابيرًا غاضبة، وردت  
بحزنٍ غطى صوتها:

-الله يامه، إنتي هتعتي (توبخ) جتتي!

قالت لها بجمودٍ:

-لأ ياختي، عاوزة مصلحتك..

ثم ركزت أنظارها عليها لتتابع بنبرة أقلقتها:

-اسمعي كلامي وإنتي هتكسبي، غير كده هتخسري، وساعتها هتجيلي أصلحك  
اللي فات.

لم يكن أمامها بدًا من الاعتراض أمام تعليماتها الواضحة، اضطرت أن ترضخ لها  
وتنفذ ما طلبته على غير رضا منها.

.....

لمحه وهو يصطف بسيارته النصف نقل على مسافة قريبة من الحشد المرابط أمام  
مدخل البناية، لوح بذراعه لبعض المهنيين الذين قدموا لمباركة المولود الجديد ..  
لحظاتٍ واتجه "تميم" إلى ابن خالته وقد حصل على مفتاح المنزل من والده، انتظره  
حتى أوقف المحرك وترجل من السيارة ليسأله باهتمام:

-تأخرت ليه يا "هيثم"؟

أجابه مسترسلاً في الإيضاح بعد أن أوصد الباب:  
-كان في شوية عكوسات في التوريد في المينا، بس ضبطت الدنيا.  
أثنى عليه قائلاً وهو يربت على كتفه:  
-الله ينور.

سأله "هيثم" مبتسماً:

-السبوع خالص ولا إيه؟

رد نافيًا:

-لأ .. لسه شغال ..

ثم مد يده بالمفتاح ليقول له:

-خذ المفتاح واطلع لنسايك وريهم الشقة.

أشرق وجهه المرهق وهو يسأله بسعادة غريبة كست كامل ملامحه:

-هما جوم؟

تعجب من تبدل أحواله، ورد مشيرًا بيده:

-من بدري.

هندم "هيثم" من هيئته ليتأكد من ضبط ثيابه عليه، وقال بحماس أكبر وقد همَّ  
بالتحرك:

-طيب هاطلعلهم على طول.

ـ ماشي

قالها وهو يستدير ليتبعه بخطواتٍ متهادية وهو ما زال متعجبًا من تأثير الوقوع في العشق عليه، إن لم يكن يعرف "هيثم" جيدًا لظن أنه يخادعه، ولكن إحقاقًا للحق خلال الفترة المنصرمة أظهر تغييرًا جذريًا في شخصيته المستهترّة ليتحول للنقيض،  
أيمكن أن يفعل الحب المستحيل؟

.....

عبأت حقيبتها بما استطاعت حمله من أطعمة شهية حتى لم تعد قادرة على غلق سحابها، ابتسمت "حمدية" لنفسها في انثناء لكونها قد اختارت تلك الحقيبة الجلدية المتسعة لتستخدمها خلال الحفل، استعانت أيضًا بحقيبة بلاستيكة سوداء وضعت بها الحلوى والفول السوداني متعلقة أنهم لصغارها الأبرياء، ولم تبخل عليها مضيفتها في منحها المزيد حتى تألمت عضلات ذراعيها من حجم الثقل الذي تحمله، ورغم الوزن الزائد أصرت على الصعود للطابق العلوي لتتفقد المنزل مع البقية، ارتفع حاجباها للأعلى في اندهاش من مساحة المنزل المتسعة، حاولت أن تخفي غيرتها بوضع قناع الجمود، لكن بقيت نظراتها الحاقدة ظاهرة عليها، غمغم مع نفسها في غيظٍ:

يا بنت المحظوظة، كلي دي هتبقى بتاعتك.

تساءل "هيثم" عن الانطباع الأولي لما أجراه من تعديلات وهو يراقب ردة فعل خطيبته:

ـ إيه رأيك؟

وبنظراتٍ متأففة متعالية بادرت "حمدية" بالرد:

-مش بطال.

صححت "همسة" على الفور ببسمة رقيقة:

-ماشاء الله جميلة.

بينما احتدت نظرات "فيروزة" نحوها، لم تحبذ أبدًا وجودها المستفز، ناهيك عن تعليقاتها السخيفة المحبطة، حاولت قدر المستطاع تجاهلها حتى لا تتسبب في إفساد الوضع، لتبقى على الحياد كما اختارت إلا إن تطلب الأمر تدخلها، تجولت في أرجاء الشقة متفقدة غرفها، في حين تولى "هيثم" مهمة شرح ما تم إجرائه من تعديلات مؤخرًا فيها، فقال بصوت مرتفع نسبيًا مستخدمًا يده في الإشارة:

-النجارين غيروا حلقان الأبواب والشبابيك، وخذوا مقاسات الشبابيك الجديدة وهيدهنوا ويكونوا جاهزين كمان كام يوم.

ردت "همسة" تجامله:

-تمام .. تسلم على تعبك.

وأيدتها والدتها الرأي فقالت:

-ربنا يعينك يا ابني، الحاجات دي بتاخذ وقت ومجهود.

ابتسم لهما في سعادة، وتابع بنفس النبرة المتحمسة:

-أحنا عملنا البلاط فاتح عشان يدي وسع للشقة.

علقت عليه "حمدية" بشفاهٍ مقلوبة وهي تتجول بين الصالة والردهة:

-مايضرش.



رمقتها "همسة" بنظرة منزعة منها، والتفتت نحو "هيثم" الذي واصل حديثه قائلاً:

-والعفش في أي وقت نروح المعرض ننقي ونشتال على طول.

زمت "حمدية" شفيتها معقبة عليه:

-وماله.

ظهر الضيق على "هيثم" من تدخلها غير المقبول في الحوار، وتساءل:

في حاجة مش عجباكي يا "همسة"؟ حابة تغيري في الألوان؟

أجابته مشيرة بيدها نحو الحائط:

مممكن نخلي الصالة بيح، مش بأحب الألوان الغامقة.

هز رأسه قائلاً:

-اللي تعوزيه، هاعدي عليكي بعد بكرة يكون البوهيجي جابلي الكتالوج نختار منه

اللي يعجبك.

ابتسمت في حبورٍ وهي ترد:

-شكرا.

وقفت "حمدية" أمام النافذة المفتوحة فضربت نسمات الهواء العليلة وجنتيها،

تنفست بعمقٍ وأخرجت الهواء من صدرها مرددة بما يشبه الحسد:

-الشقة شرحة، وبرحة، وهواها بحري يرد الروح.

علق عليها "هيثم" بعفوية:

-ولسه لما تتقبل.. هتبقى حاجة تانية خالص.

ردت عليه "آمنة" في استحسان:

-تتهنوا بيها إن شاءالله يا ابني.

ضجرت "فيروزة" من الانتظار فقالت:

-مش يالا بقي.

حدجها "هيثم" بنظرة حادة قبل أن يعترض عليها:

-أنا لسه مخدتش رأيها في الإيشاني بتاع المطبخ.

نفخت الهواء دفعة واحدة لترد عليه:

-أوكي ..

ثم وجهت حديثها لتوأمتها ووالدتها قائلة:

-أنا هانزل أستناكو تحت.

ردت عليها "آمنة" بإيماءة صغيرة من رأسها:

-ماشني يا "فيروزة".

خرجت الأخيرة من المنزل متجهة إلى الدرج لكنها تفاجأت باتصالٍ متكرر من

"علا"، ظنت أن "آسر" هو من يحاول التودد إليها مجددًا، وبحزمٍ قررت أن

تويخه، لكن خاب تخمينها مع سماعها لصوتها المألوف، بادرت بمعاتبتها بضيق:

-ينفع كده يا "علا"؟ هو أنا بتاعة الحركات دي؟

صمتت لتصغي إلى تبريرها:

هو طلب مني إنه عاوز يشكرك بنفسه..

هتفت فيها بقليلٍ من الضيق:

-ده أنا كنت هاحرجه والله.

احتجت على جفائها قائلة:

يا "فيرو" أنا شايفة الموضوع عادي.

أيقنت أنها لن تصل إلى نتيجة معها في ذلك النقاش لكونها متساهلة بعض الشيء فيما يخص علاقتها بالجنس الآخر، على عكسها دومًا متحفظة فيما يخص شئون الرجال، زفرت ببطءٍ قبل أن تنطق:

حصل خير.

استأذنتها "علا" في رقة:

-بصي يا قلبي، أنا بكرة مش هاينفع أروح المحل، أنا عارفة إني تقلت عليك  
اليومين دول و...

تفهمت أسبابها وقاطعتها قائلة:

خلاص ولا يهمك، أنا هتعامل وهاخلص المطلوب

شكرتها بحماسٍ رهيب:

حبيبتني يا "فيرو"، ربنا يخليكي ليا.

.....

في تلك الأثناء، ظهر رفيقه القديم على الساحة ليقدم التهنئة له، تعامل معه "تميم" بفتور واضح، وكأنه لا توجد صداقة بينهما امتدت لسنوات كثيرة، ما زال صدره يحمل له الضغينة جراء تهوره الأرعن، رأى بصحبه كلاً من "حمص" و"شيكاجو"، كلاهما قد جاءا لتقديم المباركات، وبنفس الأسلوب الحذر المقتضب تعامل معهما، حاول "ناجي" ممازحته ليذيب الجليد السائد بينهما، فسأله بابتسامة عريضة:

إيه يا عم لا بتعدي ولا بتسأل؟

رد عليه متسائلاً بوجوم، ونظراته تجوب على أوجه الثلاثة:

عاوز إيه يا "ناجي"؟ وجايب جوز المقاطيع دول معاك إيه؟

تلقائياً استدار برأسه للخلف لينظر إلى تابعيه، وعاد ليحدق فيه موضعاً بنفس الأسلوب المازح:

قولنا نعمل الواجب مع الحاج "بدير"، مبروك يا خال، وعقبال فرحتنا بولادك.

اقتضب في الرد قائلاً:

متشكر.

ثم تركه ليرحب بآخر قبل أن يتجه إلى مدخل البناية، استوقفه "ناجي" الذي تبعه عند أعتاب المنزل صائحاً بنبرته الجادة:

شكلك لسه زعلان مني من ساعة الحكاية إياها.

التفت نحوه "تميم" ليرد بحدّة:

-بصراحة أه...-

لم يدرك الأخير بوجود "فيروزة" في تلك البقعة المعتمة نسيبًا حيث كانت تهاتف رفيقتها، انبثت للأصوات المرتفعة خاصة حين تابع "تميم" بنبرته اللائمة:

-إنت لبستني ليلة ماليش فيها يا "ناجي"، والجماعة مفكرين إني حرقت عربية الأكل بسبب جوز البهايم اللي معاك  
تقدم صديقه نحوه متحجبًا:

-مكانوش يقصدوا يا سيدي، كانوا مفكرين إنهم بيوجبوا معاك لما حرقوها.  
هدر به في غيظ:

-وهو أنا طلبت منك تعمل كده؟

أجابه نافيًا وقد نكس رأسه قليلًا:

-الصراحة لأ.

حذره مجددًا بلهجة يشوبها الصرامة:

-فهم الجوز اللي معاك إني مش عايز منهم أي مصلحة، مشاكي بأحلها بنفسني!  
حلت الدهشة المصدومة على تعبيرات "فيروزة" بعد أن عرفت الحقيقة كاملة بمحض الصدفة، وقالت مستنكرة حكمها المجحف في حق من نصبته عدو مصلحتها:

-معقول .. يعني أنا ظلمته؟

حاول "ناجي" تلطيف الأجواء، فقال بنبرته الهازئة وهو يربت على كتفه:

حطب روق يا خال، ده الليلة فل وحاجة آخر جمال.

رد عليه بجمود:

- "ناجي" شوفلك سكة دلوقتي عشان أنا مش رايقلك.

تفهم عزوفه عن مجاراته في الحديث، وقال بيأس:

- ماشي يا صاحبي، مش هعاتب عليك، لينا أداة سوا بعدين، سلام!

لوح له بيده باستخفاف:

- سلامين يا سيدي.

استدار "تميم" ليتابع سيره نحو الدرج ليتفاجأ بوجود "فيروزة" قبالته، نفس تلك الحالة المتخبطة تظهر من العدم لتريكه، استغرب من نظراتها التي تتأمله بشكل غريب لم يألّفه منها، أحس بانقباضة تضرب قلبه، وباهتمام زائد سألها:

-خير يا أبلّة؟ في حاجة حصلت فوق؟

باغته بسؤالها المباشر، وعيناها مثبتتان عليه:

-إنت محرقتش العربية؟

تدلى فكه السفلي في صدمة لحظية من سؤالها، خاصة مع لمعان حدقتها المتسعيتين، تشوش تفكيره لثوانٍ، لم يتوقع أبدًا أن تكون حاضرة خلال تلك المحادثة التي ربما رتبها القدر له، وسألها كما لو كان يفكر بصوتٍ مسموع:

-إنتي سمعتي الحوار؟

تنحنت مبررة وجودها بنبرة هادئة حتى لا يُساء فهمها:

-بالصدفة، مكونتش قاصدة يعني.

بدا مسرورًا للغاية من استكائها العجيبة التي نادرًا ما يراها في حضوره، وكأنها  
ازدادًا فتنة وسحرًا بتلك الهالة غير الاعتيادية من الرقة الخفية، وجد نفسه يبتسم  
في ابتهاج وهو يرد:

مش مشكلة، المهم تتأكدي إني ماليش دخل في العوًا ده كله.

تصنعت الجدية وعقبت عليه:

هو موضوع واتقفل، وأنا ما ببصش ورايا.

تشجع ليطلب منها قبول تعويضه فبحث عن الكلمات المناسبة لخلق جملة مرتبة،  
لكن على ما يبدو خانه لسانه من جديد، وبريكة ظاهرة عليها حاول أن يقول:  
حطب إن كان ينفع آ.....

فسدت جملته قبل أن تكتمل واكتسب وجهه لمحة عابسة حين سمع الصوت  
الأثوي المنادي من الأعلى:

نادي على خالك يا "فيروزة" لو شايفاه عشان احنا ماشيين.

أدارت رأسها للخلف، وردت:

حاضر يا ماما.

عادت "فيروزة" لتحقق في وجه المتجهم بشكلٍ غريب قائلة:

عن إذنك، عاوزة أروح لخالي.

لم ينتبه "تميم" لجسده الذي سد الطريق عليها، وفهم من نظراتها وحركة يدها أنها تريد المرور، عاد عقله ليعمل بكامل إدراكه بعد حالة التخبط المستحوذة عليه ليقول بصرامة ونظراته الجادة توحى بعدم تقبله للرفض:

-خليكي إنتي.. هو قاعد وسط الرجالة، مايصجش تخشي وسط الزحمة.

فاجأته للمرة الثانية بردها الهادئ المغلف بالشكر:

-اوكي .. شكرا يا معلم

ابتسم قائلا في انثناء وقلبه يقفز طربا بين ضلوعه، وكأن حفلة صاحبة تُقام الآن فيه:

-العفو.

أملى عينيه بتأمل وجهها في تلك الثواني المعدودة قبل أن يستدير خارجا من مدخل البناية وهو يفرك رأسه ومؤخرة عنقه، بدا كالمراهق في تصرفاتها الغريبة تلك، ومع هذا كان مستمتعا لأقصى الحدود بما يفعله.

.....

ليلة كئيبة محبطة نالتها مرة أخرى بعزوفه عنها وقضائه معظم الوقت بصحبة الحفيد الجديد يدلله ويداعبه، كظمت "خلود" كمدتها في صدرها صاغرة لأوامر والدتها بعدم محاولة جذبته إلى أحضانها بالغنج أو بغيره، عليها أن تتخذ حذرهما حتى تتأكد إن كانت تحمل في أحشائها طفله أم مجرد حالة إعياء عابرة، وبأعصابٍ مشدودة انتظرت وحيدة في فراشها حتى أشرق عليها النهار، حينها نهضت وارتدت ثيابها لتقابل والدتها متعلقة بحاجة الأخيرة للمساعدة في تنظيف وترتيب المنزل بعد اعتذار



الخادمة عن المجيء، وفي المكان المتفق عليه التقت بها. توجهت كليهما إلى المختبر للقيام بتحليل للحمل، لم تفهم إحداها نوعية التحليل المطلوب فوق الاختيار على ذلك الذي تظهر نتائجه بعد نصف ساعة .. استلمت "بثينة" النتائج وقلبا ينبؤها بصدق حملها، أطلعتها الموظفة الموجودة بالمكان على إيجابية النتائج فغمرتها فرحة لا توصف، ومع ذلك أصرت على التوجه بابنتها التي بلغت عنان السماء بتلقيها مثل تلك الأخبار السارة إلى الطبيب النسائي، انتظرت الاثنتان دورهما الذي استغرق المزيد من الوقت، وبعد نظرة سريعة من الطبيب على ما في يده من تحليل استطرد يقول بهدوءٍ مريب:

-المدام فعلاً حامل.

أطلقت "بثينة" زغرودة عالية كتعبير عن اكتمال فرحتها قبل أن تهلل:  
-الله أكبر.

أشار لها الطبيب بيده راجياً:

-اهدي يا حاجة، احنا في عيادة.

بررت له "خلود" معذرة، وسعادتها تتراقص في عينيها:

-معلش يا دكتور أمي فرحناي، ودي عوايدنا.

هز رأسه في تفهمٍ قبل أن يضيف بلهجة روتينية:

-تمام، كل ده مفهوم، بس أنا عاوزك عملي التحليل الرقمي.

تكشيرة عظيمة احتلت وجه "بثينة" التي بدت كمن تهاجمه حين سألته:

-وايه الفرق؟ هي مش طلعتش حامل؟

رد موضحًا بتمهلٍ حتى تستوعب مقصده:

أيوه، بس ده يقول إن كانت حامل ولا لأ، لكن الثاني يطلع النسب المئوية بالظبط، ويوضحلنا هرمون الحمل بيزيد ولا لأ.

تعذر عليها تفسير مقصده، فعلمت بتوجس:

إنت كده قلقتنا، يعني البت حامل ولا لأ؟

سحب شهيقًا عميقًا لفظه بتريثٍ وهو يخبرها دون أن يظهر الانزعاج على وجهه:

يا حاجة التحليل يقول حامل، لكن أنا عاوز أطمئن إن الحمل ماشي في مرحله الطبيعية، مافيش فيه خلل.

زمت شفيتها لترد:

طيب.. أما نشوف آخرتها إيه!!!

التفت الطبيب برأسه نحو "خلود" طالبًا منها وهو يدون شيء ما في الأوراق الموضوعة قبالة:

هتطلعي من عندي عملي التحليل الرقمي، وأنا كاتب اسمه في الروشته هنا، وبعد يومين هتكرري التحليل ثاني، وترجعيلي بالنتائج كلها.

ثم مد يده بالورقة لتأخذها منه وهي ترد:

-ربنا يسهل.

تبادلت "خلود" نظرات حائرة مع والدتها التي انتظرت انتهاء المقابلة لتردد بتزمّت:

-شكل الضاكتور ده مايفهمش حاجة، هي كتر فلوس؟ تحاليل إيه دي اللي طالعنا فيها؟

ردت عليها مفسرة الأمر لها:

خلينا نطمن يامه، المهم إني حامل.

تنهدت تضيف في سأم وقد تعكر مزاجها:

-أيوه.

بضعة خطوات سارت بها نحو الأمام قبل أن تتوقف فجأة لتعاود تذكير ابنتها وقد قست نظراتها نحوها بشكلٍ لئيم:

-بت يا "خلود"!

تطلعت إليها الأخيرة في اهتمامٍ والهموم المحبطة تنعكس عليها، فأوصتها والدتها مؤكدة من جديد بنبرة شديدة اللهجة حتى تلتزم بإبقائه سرًا:

-اوعي تتهني في عقلك وتحكي عن اللي عملناه النهاردة! زي ما اتفقنا ماتقوليش لحد ما نقطع الشك باليقين، وساعتها هتبقي فوق دماغ الكل

!!! .....

.....

## الفصل الثاني والأربعون

يبدو أن رفيقتها استغلت الفرصة لتحصل على عطلة طويلة الأجل امتدت لأيام متعاقبة دون أن تكبد نفسها مشقة المجيء لتفقد مالها، ووحدها من باتت مسئولة عن كل ما يتعلق بالعمل، لم تمنع "فيروزة" بالقيام بمسئولياتها على أكمل وجه، ربما أكسبها ذلك المزيد من الخبرة حين تدير عملها الخاص في المستقبل، انتهت من توضيب صندوق آخر مليء بالمطلوب لأحد الزبائن، راجعت محتوياته لمرّة أخرى حتى تتأكد من عدم إغفالها لما يخص العميل، اتجهت بعدها لمكتب "علا" لتخرج دفتر الفواتير منه، اثبتت للفاتورة التي لم تحصل بعد، رفعتها لتقرأ الاسم، كانت مسجلة باسم "تميم سلطان"، تبدلت تعبيراتها للضيق، حكّت مقدمة رأسها وهي تتساءل في حيرة:

-مش معقول، ده فاتورته لسه هنا؟

اعتصرت ذهنها لتستعيد سبب غفلتها عنها، بدت وكأنها تتناقش مع نفسها بصوت مسموع حين تابعت:

-أيوه.. من ساعة حادثة "آسر"، معنى كده إن الفلوس مادفعتش.

ضربت جيبها وهي تتابع بنبرة لائمة:

-ده الموضوع راح من بالي خالص، العمل إيه دلوقتي؟

أسندت الفاتورة على سطح المكتب، ونقرت بأصابعها عليه في لزمة متكررة لتفكر مليًا في حلٍ ملائم لتلك المعضلة، خاصة بعد أن مر على انقضاء حفل السبوع ما يقرب من ثلاثة أيام، رددت مع نفسها في ضيقٍ حرج:

-ما هي لو كانت فلوسي كنت عدت الموضوع، ودفعت الفرق حتى من جيبني، بس الفلوس اللي معايا ماتكفيش ربع المبلغ ده .. المفروض اتصرف إزاي؟

أراحت ظهرها للخلف وقد ظهرت عليها أمارات الحيرة أكثر، نفخت في استياءٍ قبل أن تقول لنفسها:

-بتهيالي مافيهاش حاجة لما أفكره بده، أكيد هو زبي ناسي..

ثم ابتسمت لنفسها وهي تعلق بتهكم:

-ما هو كان معايا أصلاً!

طوت "فيروزة" الفاتورة ووضعتها في حقيبتها وقد باتت شبه حاسمة لأمرها بعد تفكيرٍ عميق، ستذهب إليه خلال فترة استراحتها عند دكانه في زيارة ودية، قصيرة وسريعة تطالبه فيها بسداد ثمن البضائع دون حرج .. هكذا أقنعت نفسها ببساطة!

.....

قدمت خطوة وأخرت الثانية وهي تسير في اتجاهها نحو الدكان، نظرة مدققة ألقتها على من يمرون أمامه عليها تجده بينهم، لم تتمكن من إيجاده فتابعت تقدمها نحو

المكان وهي تعيد ترتيب أفكارها، كانت متحرجة من الموقف برمته، فليس من المفترض أن تطالبه بسداد شيء ما وهي في الأصل تدين له بمال المشفى، وإن كان ينكر ذلك، لكنها متيقنة من كونه الوحيد الذي راوغها خلسة وخدعها بطريقة ما لا تعلمها ليعيد بها المال المال، أفاقت "فيروزة" من سرحانها السريع في أفكارها على صوت أحد العمال المنادي لزميله، تنبته لوجودها أمام المدخل، استعادت زمام أمرها، والتفت برأسها للجانب لتجد الحاج "بدير" يتطلع إليها بوجهه البشوش، هتف الأخير مرحبًا بها:

صباح الخير يا بنتي.

بادلته ابتسامة ودودة وهي ترد:

صباح الخير يا حاج..

ثم ألقت نظرة عابرة على من بالداخل وهي تواصل القول:

هو المعلم "تميم" موجود؟

أجابها نافيًا:

لا.. في مشوار.. خير في حاجة؟.

مطت شفيتها في حيرة، فأصر عليها "بدير" بنظراته الجادة المسلطة عليها:

قولي ماتتكسفيش.

تشجعت لتقول بحذر:

أصل الحكاية وما فيها إنه كان اشترى حاجات من المحل اللي أنا شغالة فيه عشان

سبوع حفيدك، والفاتورة.. لسه مادفعتش.

سألها مباشرة:

هي فين؟

أخرجتها من حقيبتها لتعطيه إياها، نظر لها بإمعانٍ بعد أن تناولها منها، شعرت "فيروزة" بمزيدٍ من الحرج مع تدقيقه الواضح فيها، وقالت:

-أنا مكسوفة من حضرتك أوي.

رد عليه بابتسامةٍ عادية:

-حقك يا بنتي، أنا بس بأراجع الحسبة عشان لو في غلطة ولا حاجة، متأخذنيش اتعودت على كده.

علقت عليه بتوترٍ طفيفٍ مستخدمة يدها في الإشارة:

-المشكلة دي فلوس ناس، ومش بتاعتي، وأنا المفروض كنت أخذ بالي.

قال ببساطة:

-الاتفاق اتفاق.. هو كلام عيال ولا إيه؟

نهض من جلسته مستندًا على عكازه، ثم دعاها بترحابه الودي:

-اشربي حاجة عقبال ما أجيبلك الفلوس.

ردت بتهذيبٍ وهي تجاهد لتحافظ على بسمتها العملية قبالتة:

-مالوش لازمة.

ألح عليها بجديّة:

-لا إزاي.. ما يصحش، تبقي عندي وتتعاملي زي الغريب..

هزت رأسها بإيماءة موافقة، فأضاف في حماس:

-وبعدين أكون وصيتهم يجهزوا كام حاجة بيعتوها على البيت.

شعرت بحرج أكبر من كرمه الزائد، واعتذرت منه بلباقة:

-خيرك سابق يا حاج، مافيش داعي و...

قاطعها "بدير" بإصرارٍ مشيرًا لها بنظراته:

-ده واجب عليا، ده إنتو من العيلة..

ثم رفع من نبرته ليأمر أحد عماله:

-كرسي بسرعة يا وله.

أحضر لها العامل مقعدًا خشبيًا بعد تلميعه لتجلس عليه، ابتسمت وهي ترد:

-شكرا يا حاج "بدير".

غاب في الداخل لبضعة دقائق، وانتظرت "فيروزة" بتربق تتابع في فتور حركة

المارة العابرين من أمامها، استرعى انتباهها أصوات الشاحنات التي تنقل البضائع من

والى الدكان، وكأن العمل لا يتوقف للحظة، عاد إليها "بدير" يمد يده ناحيتها أولاً

بمفتاح معلق به ميدالية فضية موضحة:

-دي نسخة من مفتاح الشقة عشان أما تروحوها في أي وقت.

ضاقت عينها مرددة في استغراب:

-شقة؟!!

تعجب من الحيرة الظاهرة عليها، وقال بمزيدٍ من الإيضاح:



-بتاعة أختك.

الآن تفقه ذهنها للأمر، ووضعت في حقيبتها لتقول متصنعة الابتسام:

-أيوه.. تمام.

استرسل في الحديث ليضيف من تلقاء نفسه:

-كانت الحاجة قالتلي إنكم عاوزين نسخة تبقى معاكو، وأنا كنت مستني قرب ما العمال تخلص شغل فيها عشان اخلي النجار يغير طبله الباب وتبقوا معاكو النسخ الجديدة.

ورغم دهشتها من ذلك الطلب إلا أنها ردت مادحة إياه، فإذ ربما دار الحوار بينهما في عدم وجودها:

-مش مشكلة، كفاية اللي حضرتك عامله عشانا.

.....

على الجانب الآخر، هبطت كلتاهما الدرجات الرخامية من تلك البناية -حديثة الطراز في تصميمها- بعد انتهائها من الكشف النسائي بعيادة الطبيب الذي قررت المتابعة معه، تأكدت "خلود" من سير حملها في مراحلها الأولى بشكل طبيعي من خلال نتائج التحاليل الرقمية التي أجرتها، حينها فقط قررت الإفصاح عما تحمله أحشائها، اتجهت مع والدتها التي لازمتها إلى الطريق الرئيسي حيث ستتحرف منه عند الناصية للزقاق الجانبي لتصل منه إلى الدكان، بدا الوجوم بائناً على ملامح "بثينة" التي عاتبته بضيق:

-بردك مصممة عملي اللي في دماغك يا "خلود"؟ خلينا نرجع البيت، وابقى قوليله هناك.

أصرت عليها بحمايس، والسعادة تتراقص في حدقتها:

فرصة يامه واحنا خلاص بقينا قريبين من الدكان، عاوزة أطل عليه، وبالمره أفرح حمايا، ويعرف إن حفيده الحقيقي جاي.

ضاقت نظرات والدتها بشكٍ نحوها، وكأنها تنفذ إليها لتكشف عن أغوارها، تنهدت تسألها في مكرٍ:

-حماكي بردك؟ ولا عاوزة تفتشي ورا جوزك؟

ثم مصممت شفيتها لتدافع عنه بصدق:

مع إنه مالوش في الف ولا الدوران.

تطلعت إليها ابنتها بنظرة غامضة، فوالدتها الوحيدة التي تقرأها بوضوح وتعرف نواياها، حاولت التهرب من إجابتها بصراحة، وقالت.

-أنا عارفة، بس هوديني وخلص، مش هنخسر حاجة.

زفرت ترد على مضض:

-أما نشوف آخرتها إيه، بس عاوزين نجيب الفيتامينات والمثبتات اللي قال عليها الضاكتور ده

ابتسمت قائلة لها:

-هنعدي على الصيدلية في طريقنا..

وقبل أن تنحرف الاثنتان عند الناصية لمحت كلتاها "بدير" وهو يمد كفه بمظروف به نقودٍ ليعطيه لـ "فيروزة"، على ما يبدو كان يحصيهم قبل غلقه للتأكد من العدد، شخست أبصارهما في ذهولٍ، وفي لحظة اختفت علامات الفرحه لتظهر مكانها القتامة والكراهية .. كزت "خلود" على أسنانها في غيظٍ كبير، وهتفت بأنفاسٍ شبه منفعة تشكو والدتها:

-شوفتي، أهوو أنا قلبي كان حاسس، بنت الأبلسة واقفة هناك أهي!!

تساءلت "بثينة" في فضولٍ متزايد، وعيناها تلمعان بشكلٍ مقلق:

-ودي جاية ليه؟

أجابت نافية وشعورها بالغيرة قد تعاضم بداخلها:

-مش عارفة، بس أكيد عاوزة تشغل جوزي، أنا إحساسي ما بيكدبش.

أضافت عليها والدتها في امتعاضٍ حاد:

-لأ وشوفي حماكي بيطلع بواكي فلوس ويديها، وهي ما هتصدق تغرف طبعا، ما هو مال سايب وأتة محلولة

ردت عليها "خلود" بنبرة عبرت عن غلها:

-أكيد جاية تبلفه بكلمتين وتضحك عليه بوش العقارب ده.

أيدتها الرأي، وأضافت عليها في حنق:

-أومال إيه؟ لزوم تكاليف توضيب الشقة، ويبقى ما صرفوش حاجة، وابني عمال يدفع ويصرف على البت دي.

شحذت "خلود" قواها الغاضبة لداخلها، ونطقت من بين شفثيها تتوعدها:  
-أنا رايحلها أعرفها مقامها.

حذرتها والدتها بجديّة وقد شدت على رسغها لتوقفها:

-اوعي تعلمي حاجة مجنونة يا بت، ماتبوظيش الطبخة على شوية ملح.

استلت يدها من أصابعها، وقالت بكل غيظها المتجمع بداخلها:

-سيبيني يامه، لازم أوقفها عند حدها.

اعترضت طريقها بجسدها، وحذرتها من جديد بلهجة صارمة وهي تشير لها بعينيها  
الخبثتين:

-ماتخليش واحدة زي دي تعلي عليكى وتكسب الراجل ده.

صاحت بها في عصبية:

-حاسبي يامه، كله إلا جوزي.

دفعتها لتواصل تقدمها وشرارات الغضب تنطلق من حدقتيها المشتعلتين، دمدمت  
والدتها من ورائها:

-استر يا رب.

نفخت كتل الهواء من جوفها طوال سيرها المتعصب نحو الدكان، ثم استنشقت  
دفعة أخيرة بعمق لتحجم بها انفعالاتها الثائرة، للحظة تداركت نفسها ومنعتها من  
التهور برعونة، حاولت أن تبدو لطيفة، طيبة، ودودة حين قالت بابتسامة لطيفة:

-سلامو عليكم، إزيك يا عمي؟

استدار نحوها "بدير" ليتفاجأ بوجودها، تساءل بعفوية:

- "خلود"، خير يا بنتي؟ جاية هنا ليه؟

ضغطت على كل كلمة تتلفظ بها وهي ترد، وعيناها تنظران إلى "فيروزة" بحقدٍ رغم وداعتها المصطنعة:

جاية أبشرك بأخبار حلوة، بس "تميم" جوزي فين؟ عاوزاه يسمع معاك يا عمي.  
أجابها "بدير" بتمهل:

- وراه مصالح بيخلصها.. عاوزة تقولي لي إيه؟

احتدت نظرات "بثينة" التي أتت ركضاً من خلفها، همست لنفسها برجاءٍ آمله في نفسها ألا تفسد ابنتها ما تخطط له:

- اوعي يا بنت المجنونة! كده هتبوظي كل حاجة!

ماطلت "خلود" في حديثها قائلة:

- أصل أنا كنت تعبانة اليومين اللي فاتوا دول أوي يا عمي، مكوتش قادرة أقف على حيلي أبداً، والحمد لله اطمنت وعرفت السبب.

انتبه لجمالها الغامضة، وتساءل والفضول مرسوم على ملامحه:

خير يا بنتي؟ إن شاء الله ما فيش حاجة خطيرة.

ابتسامة مأكرة احتلت شفتها وهي توضح:

يا عمي كلها كام شهر وتبقى جد لحفيد من صلبك، أنا قولت أبشرك قبل أي حد..

هلل "بدير" بفرحة حقيقية:

-اللهم لك الحمد والشكر، إني متأكدة يا بنتي؟

ردت بابتسامة أكثر اتساعًا:

-أيوه، حتى جوزي الغالي لسه مايعرفش.

رددت "فيروزة" مع نفسها بنبرة متهمكة ساخرة منها وهي تصغي لكم الزيف في حديثها الأجوف:

-أه طبعا جوزي حبيبي قره عيني.

تابعت "خلود" حديثها قائلة بتملق مليء باللؤم:

-البشارة يا عمي لازم تكون عندك الأول، ده إنت الغالي عندي.

وكان سعادة الدنيا قد تجمعت في نظراته نحوها بعد أخبارها المشوقة تلك، امتداد اسم عائلته سيكون من خلال الحفيد المنتظر، عبر "بدير" عن فرحته العارمة قائلاً:

-اللهم صلي على النبي.. هي دي الأخبار اللي تفرح، يا خير ما عملتي.. ربنا يكملك على خير..

ربتت "بثينة" بيدها في قوة ملحوظة على كتف "فيروزة" تستحثها بنبرة ذات مغزى:

-مش تباركلي لـ"خلود" يا حلوة.

نظرت لها الأخيرة شزراً من طرف عينها قبل أن توجه نظراتها نحو ابنتها السمجة، وقالت باقتضاب:

مبروك.

ردت عليها "خلود" بترفع، كأنها تجبر نفسها على الحديث معها:

متشكرة.

تنحنح "بدير" مقترحًا:

ما تمشوش، أنا هابعت معاكو حد يوصلكم البيت عشان بهدلة المواصلات، وأول ما "تميم" يرجع هبعته عندك تفرحيه.

ردت "خلود" تشكره بتعبيراتٍ مبتسمة:

-كتر خيرك يا عمي.

ابتعد "بدير" للحظاتٍ لتفرغ الساحة لثلاثتهن حيث تتكشف الأقنعة وتظهر الأوجه الحقيقية، ألقت "خلود" نظرة احتقارية شملت "فيروزة" من رأسها لأخمص قدميها قبل أن تنطق بوقاحة:

عقبالك إنتي وأختك... ولو إن مافيش حاجة مضمونة اليومين دول، صح يامه؟

دعمتها "بثينة" في حديثها السمج، وقالت:

-أيوه.. كله مغشوش يا بت، وياما كتير اتغفلوا أونطة

تحفزت "فيروزة" في وقفتهما لتنظر لكتيها باستخفافٍ، دلت كلماتهما على حقدتها الدفين، بدت أكثر ثباتًا وغرورًا عن زي قبل وهي تعمق من نظراتها نحوهما، ثم علقت حقيبتها على كتفها لترد ببرود استفزهما:

معاكو حق.. حتى الحامل نفسها، مش مضمون يكمل حملها ولا لأ.. وخصوصًا لو كانت منفسنة وبتغل في نفسها كثير.

استشاطت "خلود" غضبًا، وردت عليها بحدّة، وكأنّ الدماء تكاد تنفجر في عروقها:

-إنتي بتقولي إيه؟

تابعت "فيروزة" القول بنفس البرود الهادئ دون أن تتبدل تعابيرها:

-خافي على صحتك يا .. مدام وبلاش هري كثير، مش كويس عليكى.. إنتي لسه في الأول!

أبتعت جملتها بضحكة مستهزأة بها، فاغتاظت "خلود" أكثر من نبرتها الهازئة، وهمت بلعنها بصوتٍ محتد:

يا بنت ال.....

منعتها والدتها من التفوه بحماقة لتهمس في أذنها:

-اهدي يا "خلود"، ليها يومها

ردت عليها بنظراتها المشتعلة:

-إنتي مش شيفاها يامه؟

توعدها بكلمة حاسمة كانت واثقة أنها ستنفذ ما تنتويه:

-اصبري، ماتبوظيش الدنيا.

ضغطت "خلود" على أسنانها هامسة بسخط:



عقبال ما نعزي فيها قريب.

خطت "فيروزة" مبتعدة عن الاثنتين قبل أن تتورط معهما في مشكلة حتمًا ستنتهي في القسم الشرطي بعد ضربهما بشراسة، اتجهت إلى داخل الدكان لتقول لـ "بدير" الذي كان مشغولاً بالحديث في هاتفه:

-هامشي أنا يا حاج عشان لسه ورايا شغل.

أبعد الهاتف عن أذنه ليرد:

-استني ده أنا جاي أقعد معاكي.

اعتذرت بلطف:

-تتعوض وقت ثاني، ومبروك ..

قال في ابتهاج:

-الله يبارك فيكي.

تعمدت "فيروزة" أن تخرج من الباب الآخر للدكان لتتجنب رؤية تلك الوقحة وأمها، اتجهت صوب الشارع الفرعي لتختصر المسافات لتعود إلى عملها، في حين انتظرت "خلود" بالخارج وحقدتها متفشي فيها، تساءلت في مكرٍ محاولة إخفاء غضبها حين عاد إليها حماها:

-أومال أخت عروسة أخويا جاية ليه؟

رد "بدير" متهربًا من الإجابة لكون الأمر لا يعنيها:

-كانت جاية في مصلحة كده وانتهت.

ابتلع ريقها على مضض، وقالت ونيران غيظها تكاد تنفث من أذنيها:

-أنا هاقوم يا عمي، هارجع بيتي بقي، لأحسن تعبانة.

رد في تفهم:

-ماتعمليش حاجة، وأنا أول ما "تميم" يرجع هابعته عندك.

ابتسمت بود زائف وهي تقول:

-ياذن الله.

استندت على ذراع والدتها لتسير معها وقد تبددت اللطافة الظاهرة عليها، وبختها

"بثينة" بوجهها العابس:

-اتسحبتني من لسانك وقولتي قصاها ليه؟ دي ممكن تحسدك!

نفخت قائلة في سأم:

-أهوو اللي حصل..

ما لبث أن تحولت نبرتها للحقد عندما تابعت:

-وبعدين كان لازم أوقف البت دي عند حدها يامه، عشان لو بترسم على جوزي.

زجرتها أمها قائلة:

-وأنا مليون مرة أفهمك جوزك مالوش في الملاوعة، وشغل الحريم الصيع.

ردت بإصرارٍ وقد امتلأ صدرها بأضعافٍ مضاعفة من الغل والكرهية غير المبررة

ناحياتها:

-لأ يامه إنتي مش فاهمة البت دي...

غامت عيناها أكثر وعكست حدقتها ظلامًا واضحًا عندما أكملت:

-زي الحراية، بتمسكن لحد ما تتمكن!

.....

ألقت بنفسها في أحضانه بمجرد أن عاد إلى المنزل -بعد يوم مرهق كالعادة- مغلقًا الباب من خلفه، مرغت "خلود" رأسها في صدر زوجها، وضغطت على جسده بذراعيها لتشعر نفسها بأنه يحتويها ويضمها إليها رغم كونه لا يزال جامدًا في مكانه، رفعت رأسها لتنظر إليه بعينين يملأوهما الشغف، ابتسمت قبل أن تنهد بعمق لتقول له بأشتياق:

حبيبي، وحشتني أوي.

هز "تميم" رأسه مبتسمًا، وكان الكلمات تأتي الخروج من جوفه لتنطق كذبا معبرة عن مشاعر لا يشعر بها نحوها، ما زال عالقًا في منطقة الحياض فيما يخص أمرها .. خللت أناملها في أصابعه لتسحبه خلفها وهي تتابع بحماس:

-تعالى عشان هافرحك.

تساءل في اهتمام قليل وهو يتبعها:

خير، أبويا قالي إنك عاوزة تقولي حاجة مهمة.

أجلسته على الأريكة القريبة وجلست في حجره، مسحت بيدها على ذقنه النابتة وعيناها المسبلتان تتجولان على تفاصيل وجهه، بادلها نظرة حائرة مستغربًا مما تفعله، فاستطردت تقول بابتسامة عريضة أظهرت نواجذها:

-أنا .. حامل.

تأهب في جلسته وردد مصدومًا:

حامل؟!!

أومات برأسها مُسهبة في الحديث معه:

-أيوه، روحت للدكتور واتأكدت، والحمدلله ربنا كرمنا، وهتبقى أب يا حبيبي.

للحظة ظل على حالة من الدهول الصادم، مزيج من المشاعر العجيبة اقتحمته فجأة، حلمًا لم يكن تحقيقه في الحسبان بعد، لم يعرف كيف يعبر عما انتابه في تلك اللحظة، أو حتى يوصف حالته في مثل ذلك الموقف.. راقبت "خلود" ردة فعله الفاترة، وسألته بتوجسٍ وقد خبت سعادتها نسبيًا من صمته المستريب:

هو إنت مش فرحان ولا إيه؟

أخفض "تميم" يده ليتلمس بطنها ومسح عليها برفقٍ، ثم نظر إليها مبررًا ربكته:

فرحان طبعًا، أنا بس مش مصدق، يعني مش عارف أقولك على اللي جوايا، بس أنا مبسوط يا حبيبي.

رغم انزعاجها من رده العادي الذي خالف ما تخيلته في عقلها من حماسٍ مفرط فور تلقيه ذاك الخبر السار، أو حتى قيامه بالرقص ابتهاجًا وتعبيرًا عن فرحته، وربما تقبيلها بعشرات القبل الحميمة إلا أنها أخفت ضيقها منه، ابتسمت مستأنفة حديثها معه:

-ولسه لما تشيله بين إيديك، مش هتصدق نفسك، هيبقى حته منك.

لجأت كذلك للحيلة لتطلب منه:

-مش عاوزاك تزعلني بقى، الزعل مش حلو على اللي زيي، وإلا هاشتكيك لعمي  
"بدير".

سألها في اهتمام:

-أبويا عرف؟

ردت مؤكدة وذلك البريق الغريب يكسو نظراتها:

-أيوه، وطاير من الفرحة، ده الحفيد اللي بجد يا حبيبي.

هز رأسه في جبورٍ قبل أن تكمل بمكرها الخبيث المغلف بمعسول الكلام:

حطبًا، ده حفيده اللي هيشيل اسم العيلة من بعد عمر طويل، ولسه لما جدي  
"سلطان" يعرف.

مسح على وجنتها قائلاً:

-ربنا يباركلنا في عمرهم.

أسبلت "خلود" عينها نحوه لتقول بغير احترام:

-إنت مش عارف أنا كنت مستنية اللحظة دي لإزاي، زي ما يكون حلم واثقق،

ده أنا كنت مستعدة أعمل أي حاجة عشان أخلف منك.

بدت جملتها الأخيرة نزقة بعض الشيء، فسألها مستوضحًا:

-مش فاهم؟ تعملي إيه بالضبط؟

أدركت زلة لسانها، وقالت مراوغة لتغطي على غبائها:

ده أنا حاسة إني بأحلم، عاوزة أملئ البيت ده كله عيال، يكونوا شبهك في كل حاجة.

تغاضى عن ردها الغريب ليمازحها:

هيتهد حيلك معاهم.

هتفت غير مبالية وقد بدت أكثر حماسة عن ذي قبل:

مش مهم، كفاية إنهم منك، وهيشيلوا اسم العيلة.

أزاحها "تميم" برفقٍ عنها ليتمكن من الوقوف، نظر لها بتفاؤلٍ وهو يعقب عليها:

قومي من الحمل ده على خير الأول، وبعد كده ربك يسهل.

احتضنته من جديد لتقول بتنهيدة عميقة، ورأسها مستند على كتفه:

يا رب.

عند تلك اللحظة الفاصلة قرر "تميم" أن يُغالب تلك المشاعر غير الاعتيادية التي غزت وجدانه، أن يُوأدها في مهدها، أن يقتلع جذورها قبل أن تتغلل أكثر فيه، فزوجته لا تستحق منه ذلك، وإن كانت أحاسيسه لا تتخطى حاجز خيالاته، لكنه ملتزم بالإخلاص لها، بالتفكير فيها وحدها، سيسعى جاهداً لمنحها الاهتمام، سيعطيها الحب الذي لا يستطيع الشعور به نحوها، سيوجد من العدم مشاعرًا جديدة تشملهما، وربما سينجح في ذلك من أجل أسرته.

.....

اصطفت سيارة النقل الصغيرة أمام مدخل البناية لتنقل المنقولات التي تخص العروس، تعاونت "فيروزة" مع توأمتها في حمل الصناديق واحدة تلو الآخر، وتولت

والدتهما مهمة إفراغ ما بهم لرصهم على الفور في أماكنهم، بالطبع كانت الأسبق في الحضور "حمدية" لتقف على رؤوس الأشهاد في تلك المناسبة، توقفت الأختان لالتقاط أنفاسهما للحظات، وتساءلت "همسة" في تعبٍ بعد ذلك المجهود الشاق الذي بذلته في فترة وجيزة:

فاضل كام كرتونة؟

أجابتها "فيروزة" وهي تنظر لورقة صغيرة في يدها:

-أحنا طلعلنا 15 واحدة، ناقص 10.

علقت عليها توأمتها بما يشبه المدح:

-كويس إنك مرقماهم، عشان ماتلخبطش.

أضافت موضحة أيضًا وقد أبرزت مفكرة صغيرها احتفظت بها في جيب بنطالها:

-وكل كرتونة مكتوب فيها ايه، ده هيسهل علينا كثير.

اقتрحت عليها "همسة" بنوعٍ من التذمر:

-مش كنا قولنا لـ "هيشم" كان جه وساعدنا

رمقتها بنظرة حادة قبل أن ترد:

- "همسة" إنتي عارفاني، عاوزين نكون على راحتنا، مش ناقصين دوشة ومُحن من

خطيبك ده، وجايز يبقى جايب أمه معاه، صدقيني مش هنخلص، ده غير حرقة الدم.

قالت على مضضٍ، وقد بدت شبه عابسة:

طيب.

التفتت كلاتهما للخلف معًا حين سمعا الصوت المتسائل:

إنتو هنا من بدري؟

ملاً السرور تعابير "همسة"، فخطيها قد جاء -ليس بمحض الصدفة- لرؤيتها،

نظرت له بخجلٍ، وردت مبتسمة ابتسامة صغيرة:

-يعني.. مش أوي.

سددت "فيروزة" لتوأمتها نظرة حادة متشككة، وأخفضت صوتها لتقول بتبرم:

ده بيحي على السيرة ولا إيه؟

ألقي "هيثم" نظرة متفحصة للصداديق التي احتلت ركنًا من الصالة، وتساءل:

طلعتوا دول لواحدكم؟

أجابته "همسة" على الفور مستخدمة يدها في التلويح:

-أيوه، ولسه في شوية تحت وهانروح نجيب شنت الهدوم وآ...

قاطعها بحزم:

طيب كفاية عليكو كده، ارتاحوا، وأنا و"تميم" هنطلع الباقي.

اعترضت عليه "فيروزة" بلهجة أظهرت انزعاجها:

-لأكثر خيرك، مالوش لازمة تعرفه، احنا هنعرف نظبط أمورنا.

استغرب "هيثم" من عزوفها عن مساعدته، وقال بإصرار:



- ما هو شايف العربية اللي سادة المدخل، وبعت جاب عمال من عندنا كمان عشان  
ننجز وننقل حاجتي بالمرة.

احتجت بمزيد من العناد المعارض لقدمه:

-وليه يتعب نفسه من الأساس؟

مالت "همسة" على شقيقتها لتهمس لها في أذنها:

-إنتي ناسية إن ده بيت عيلته؟ أكيد هيبقى عارف.

ردت عليها بصوتها الخافت:

-ماشى، بس مش مبرر يعني.

نظرت لها برجاء قبل أن تُصر عليها:

-معلش بقى، وبعدين كده هنلحق نخلص بدري عشان نطلع على الأتيليه ونشوف  
الفيستان يا "فيروزة".

كانت محقة في الجزئية الأخيرة، الوقت محدود للغاية لإنجاز الكثير فيه، تنهدت  
قائلة في استسلام:

-إن شاء الله.

تدخل "هيثم" في حوارهما مشددًا:

-زي ما اتفقنا يا "همسة"، مش بأحب الحاجات العريانة ولا المكشوفة.

توردت بشرتها وهي تعلق عليه:

-اطمن، أنا أصلاً مش كده.

اضطرت "فيروزة" أن تتراجع خطوة للخلف وتتنحى للجانب حين لمحت "تميم" صاعدًا على الدرج، لم تحبذ رؤيته، خاصة بعد الصدمات غير اللطيفة مع زوجته، والتي لا تتوانى عن مضايقتها إما بحديثٍ أرعن أو تلميحاتٍ سخيفة، انسحبت نحو الردهة مدعية انشغالها بتفحص الصناديق .. وبهدوءٍ يناقض طبيعة دقات قلبه المتحفزة بشكلٍ عجيب استطرد "تميم" ملقياً التحية:

-سلامو عليكم.

أفسح له "هيثم" المجال ليمرق وهو يدعو للدخول:

-تفضل يا "تميم".

تساءل الأخير في حيرة:

-أحط الكرتونة دي فين؟

أجابته "همسة" ببساطة:

-اسندها في أي حطة، احنا لسه هنشوف هنرص الحاجة إزاي.

وكان بالقلب بوصلة تقوده إلى حيث المرفأ والوطن الحقيقي، اتجه عفويًا إلى المكان الذي تقف به "فيروزة" وتلك الابتسامة المرححة تزين شفثيه، وكأنها تتحداه، لم يدرك أنه يبتسم لها، لكن قُوبل وجوده بنفورٍ صريح على تعبيرات وجهها مما أجبره على العبوس والتزام الصمت، لم يكن ليفرض نفسه أبدًا عليها، انحنى ليضع الصندوق دون أن ينبس بكلمة، كان جلًّا ما يكفيه منها ابتسامة عادية تسعد روحه المعذبة مؤخرًا، ابتسامة ساخطة ظهرت على جانب شفثيه وهو يشعل تلك السيجارة ليدخلها بالقرب من النافذة، وكان الحياة تعانده بخلق الفرص بينهما، فكلما

قاوم حضورها كلما ظهرت وغطت بقوة عليه لتستحوذ على فراغ عقله، ووحدها فقط من تغدو المسيطرة عليه.

هتفت "آمنة" من الداخل بنبرة عالية:

-تعالوا يا بنات شوفوا الرصة اللي في الدولاب دي كويسة.

استدارت "همسة" برأسها لترد بصوتٍ شبه مرتفع:

-حاضر يا ماما.

انتبهت "حمدية" للأصوات الذكورية التي تصدح في الصلاة، حثها فضولها على الخروج من غرفة النوم لتفقد المتواجدين وهي تتساءل مع نفسها:

هما بيرغوا مع مين برا؟

تجمدت نظراتها على "هيثم"، وقالت بشفاه مقلوبة:

-الله، ده العريس هنا.

تبعته بنظراتها الماكرة وهو يمد يده ليصافح "آمنة" قائلاً لها بود:

إزيك يا حماتي؟

ردت عليه بإيماءة صغيرة من رأسها:

-بخير يا ابني.

تقدمت "حمدية" في خطواتها لتصبح على مرأى ومسمع مما يحدث، ثم بادرت تشكو بتنمرٍ مفتعل:

-أحنا طالع عينا من بدري، وريقنا ناشف، وما فيش حتى لقمة ترم عضمننا.

التفتت نحوها "فيروزة" لترد بضيق وقد تخرجت كثيرًا من طريقتهما السخيفة في التسول:

في إيه يا مرات خالي؟ ما احنا اتغدينا قبل ما نازل، ولا هي طفاسة؟  
ردت ببرود:

-الله، إنتو كلتوا، أنا ملحقتش احط لقمة في بؤي، ولا أخرت خدمة الغز علقة؟  
لاحظ "هيثم" التوتر السائد بين الاثنتين، واقترح بلطف:  
طب ارتاحوا شوية وأنا هابعت أجيب أكل  
مدحته "حمدية" بابتسامة متكلفة:  
-يدوم العز.

في حين حدجتها "فيروزة" بنظرة نارية من عينيها وهي تردد بتبرم:  
-واحدة جعانة فعلاً، بطنها ما بتشبعش!  
تلقائياً تحركت نظراتها مع "هيثم" الذي صاح:  
-بصي يا "همسة" أنا حطيت صورة أبويا هنا في الصالون، لو مضيقاكي نغير مكانها.  
ردت باستحسان:  
-لأ تمام.

تابع "هيثم" مكماً وهو يشير لها لتتحرك نحو زاوية أخرى:  
-وأما نتجوز نبقى نخط صورة فرحنا في الحنة دي.

-ماشي.

ظلت أنظار "فيروزة" مثبتة على الصورة الفوتوغرافية الكبيرة التي احتلت مساحة لا بأس بها من الحائط، دنت أكثر منها لتمعن النظر في تفاصيلها غير الغريبة عليها، لم تحد ببصرها عنها وهي تتساءل في حيرة:

-الشكل ده مش غريب عليا.

اعتصرت عقلها بجهد كبير محاولة تذكر أين رأت ذاك الرجل، برقت عيناها فجأة في ذهولٍ ملبكٍ لبدنها، للحظة توقف الزمن عن الدوران لتعود عقارب الزمن بها للوراء لسنوات مضت، عند تلك اللحظة الشنيعة التي عاشتها بكيانها، وجوارحها، بل وظلت مخلدة في وجدانها .. لا تفارقها أبدًا .. تراودها في صورة ومضات تقتحم عقلها بين الحين والآخر .. انخفضت أنظار الصغيرة "فيروزة" نحو السبرتاية التي نشرت شرارات لهبها المتطاير حولها لتصل إلى ما يحاوطها، رأت كيف اندلعت النيران بغتةً في دلو مليء بزيت الطلاء، ذعرت وتراجعت للوراء وقلبها يخفق بقوة، كانت صغيرة بالقدر الذي يمنعها من إدراك الموقف والاستغاثة فورًا، راقبتها متوقعة أن تخبو، لكن حدث العكس، في أقل من دقيقة انتشرت النار بشكلٍ مخيف، ضاقت نظراتها مع احتدام ألسنة النيران وازدياد قوتها، وبعفوية هتفت وهي تقاوم السعال الجارح لحلقها مستخدمة يدها في الإشارة نحو الحريق:

عمو، في نار كثير هنا.

انتفض "غريب" خوفًا مع رؤيته لذلك المنظر المرعب، هب ركضًا للداخل محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه وهو يردد:

يا ساتر يا رب، وده حصل إزاس؟

التفت الفتى الذي بدت ملامحه مألوفة لها، ولكن في عمرٍ أصغر مما عليه الآن، حين صرخ بها:

-ابعدني عن النار..

قبض على رسغها ليجذبها بعيدًا عن كتلة اللهب الحارقة، دفعها في عنفٍ طفيف نحو الخارج ونظرته الصارمة ناحيتها ما زالت تذكرها، أحضر "غريب" ملاءة قديمة حاول بها إخماد اللهب الذي وجد ضالته الثمينة في الانتشار بسرعة أكبر وهو يصيح بصوتٍ بدا مختنقًا من كثافة الدخان الخانق:

-نادي على أبوك بسرعة يا "تميم"، قوله المحل بيولع.

رد عليه الفتى يحذره بأنفاسٍ لاهجة:

-خد بالك يا عم "غريب".

تحولت نبرته لصراخٍ قوي حتى يلفت انتباه الجميع:

-انجدونا يا جدعان، النار هبت في المحل.

لحظة واحدة مميتة طالت فيها ألسنة اللهب جسد "غريب" الذي اشتعل بالكامل وسط صرخات الصغيرة وهلع الفتى، هرع إليه الأخير لينقذه وقد التقط دلوا مليئًا بالماء ليطفئ ما استعر في جلده المتآكل من نار حامية، لكن سقطت تلك الكتلة الخشبية عليه فطرحته أرضًا، انتفضت "فيروزة" في مكانها جزعًا، لكنها هرولت بشجاعة متهورة تناقض سنوات عمرها الصغيرة نحوه لتهب لنجدته بعد أن سكن جسده كليًا، وكأن غريزة البقاء كانت ما تستحثها، جثت على ركبتيها تهزه بعنفٍ.. لا استجابة على الإطلاق! تلفتت حولها باحثة عن من يساعدها، الكل مشغولٌ بإخماد

الحريق الهائل، نهضت مستندة على كفيها لتقف عند قدميه، انحنت عليه بجسدها الهزيل لتمسك به من عقبيه، حاولت جره بعيداً عن النيران لكنها لم تستطع، فقد كان وزنه ثقيلاً بالنسبة لها. لهثت وتعرقت وتسارعت أنفاسها، ومع ذلك لم تياس، استمرت في المحاولة مستنزفة كل قواها، بدأت في السعال المتألم بعد أن ازدادت كثافة سحب الدخان الذي عبأ المكان وملاه. توقفت عن سحبه لتضع يدها على أنفها مانعة نفسها من استنشاق المزيد من الأدخنة الخائقة، جابت بنظراتها المرتاعة المكان الذي تحول لكتلة من الضباب وهي معتقدة أنها النهاية، لا مخرج.. لا نجاة، تهاوت جاثية على ركبتيها وقلبها يكاد ينخلع من عنف دقاته، وضعت يديها المرتعشتين حول عنقها المتيبس تتحسسه في عجز، وكأنها تستجدي بذلك آخر نفس لها في الحياة.

ظلت عالقة لبرهة في تلك الذكرى المؤسفة، بل بدت كما لو كانت تعايشها الآن بكامل حواسها، انتبهت "همسة" لشرودها الغريب، تقدمت نحوها ونادتها بخفوت عليها تستفيق مما هي فيه، لكنها بقيت على جمودها المريب، تُطالع الصورة بوجه شاحب أرعبها، أدركت على الفور أن توأمتها تعاني من نفس حالة الصدمة التي لازمتها لوقت طويل، صرخت بها وقد لاحظت تلك التشنجات التي أصابت جسدها:

- "فيروزة" ..... !!

.....

## الفصل الثالث والأربعون

دفعة من الدخان الحارق تحررت من رثتيه ليتبعها بأخرى تلفظها عله بذلك يذهب غيظ قلبه قبل أن يلقي بعقب سيجارته أسفل قدمه ليدعسه وهو يقف خارج المنزل مترقبًا وصول عامل توصيل الطلبات، لم يحبذ التواجد بالداخل ونفورها منه واضحًا، نأى بنفسه بعيدًا عنها وبقي مستندًا بظهره على الدرايزين .. شكره "هيشم" على كرمه الزائد مع عائلة خطيبته وتحمله تكاليف تلك العزومة الطارئة، لم يكثر



"تميم" للأمر كثيرًا، لكونه من طباع أسرته إكرام الضيف وحسن ضيافته، استغل تلك الفرصة الجيدة لينصح ابن خالته بما يفيد ولا يضره، فاستطرد يقول له:  
-عاوزك تخف البرشام إياه.

نظر له "هيثم" في حيرة قبل أن يسأله:

برشام إيه؟

أجابه مباشرةً وقد أشعل سيجارة أخرى لينفث دخانها:  
-الحباية الزرقا.

امتعضت تعبيرات "هيثم" بشكل مزعج، وعلق بما يشبه التهكم:

-مش للدرجادي أنا واقع وخرع!

ازداد عصبيًا وهو يضيف:

-كمان هاخذ حباية منيلة زي دي، على أساس إني مش راجل؟

استغرب من حدته في تلك المسألة التي تعتبر عادية بالنسبة له بناءً على الادعاءات السابقة من زوجته عليه؛ بأنه يتعاطى المنشطات الجنسية بصورة شبه مستمرة، قرر استدراجه في الحديث ليكشف الحقيقة الغائبة عنه، وتابع بأسلوبٍ مراوغ:

-أومال أنا سامع كلام إنك على طول بتاخده.

انفجر فيه محتجًا بحدة أكبر:

-ده مين ابن ال..... اللي قال كده؟ هاتهولي أخزقله عينيه.

ورغم الضيق البادي على ملامح "تميم" لتأكده من كذب زوجته عليه إلا أنه حافظ على جمود ملامحه، وعلق عليه:

يا عم دي نصيحة لله.

رد عليه ابن خالته بنفس النبرة الغاضبة:

-حد الله بيني وبين الهباب ده، صحيح عملت حاجات كتير غلط، بس البرشام أزرق ولا أخضر ماليش فيه...

تجهمت ملامح "تميم" بشكلٍ يدعو للريبة، بينما أكمل "هيثم" حديثه قائلاً:

-هما يدوب نفسين كده بأخدهم في ساعة رواقه، وكمان بطلتهم من ساعة ما ربنا هداني.

هز رأسه معقباً عليه وقد غامت نظراته:

-كده الكلام بقي حلو أوي.

سأله في عدم فهم:

-كلامه إيه يا عم؟ بأقولك ما بخدش برشام.

ربت على كتفه ليقول متصنعاً الابتسام:

-مصدقك يا سيدي.

لكن نظراته أوحى بغيظٍ متعاضم بداخله لكونه قد صدق كالأحمق كذبة زوجته التي نشطت ذهنه بمشاعرٍ حسية كانت تتنابه بشكلٍ شبه منتظم تستنزف قواه الذكورية رغم عدم رغبته في ممارسة مثل تلك الأمور الغرائزية.

.....  
وكأنها قد رأت شبحًا قادمًا من عالم الموتى متجسدًا أمامها بألسنة اللهب التي تأكل جلده حيًا، انحبس صوتها في حلقها رغم محاولاتها المستميتة للصراخ ونجدته قبل أن يتفحم، فشلت مجددًا والدموع الحارقة تنساب بغزارة من مقلتيها، كانت "فيروزة" عالقة بين اليقظة والهديان، انخرطت في نفس الذكرى بتأثيرها المؤلم بشكل يكاد يكون حسيًا عنه معنويًا، انفصلت عن حولها وعاشت أسوأ أيامها إلى أن انتشلها صوت "همسة" المدعور من تلك الدوامة القاتلة لتغرق في ظلام آخر ربما يكون الأمن لها حاليًا .. ترنح جسدها ومال بثقله على توأمها التي تلتفتها بذراعيها وهي تصرخ خوفًا عليها:

- "فيروزة"!

وبحذر تام تمددت بها على الأرضية وهي تحاوطتها، استغاثت منادية والدتها بنبرة آثارت فزع البقية:

يا ماما الحقيني بسرعة!

تنبه كلاً من "تميم" و"هيشم" لصوت صراخها فتوقفا عن التدخين، هروا الاثنان للداخل ليجدا "فيروزة" مستلقية على الأرضية وشقيقتها تحاول إفاقتها، حالة من الخوف الممزوجة بالقلق الشديد سيطرت على "تميم" لمجرد رؤيتها هكذا، وكأنه تناسى كليًا الوعود التي قطعها على نفسه بعدم الاقتراب منها، أو التواجد في محيطها، اندفع جاثيًا على ركبته بعد أن أبعد توأمها عنها ليرفع جسدها إليه بعد أن مرر ذراعيه من أسفل ذراعيها ليسحبها نحوه، وللمرة الأولى ترتطم رأسها بصدرة ليسعر بتلك الخفقة المؤلمة التي وخزت قلبه هلعًا عليها، أمعن النظر في ملامحها

الباهتة التي غلفها الإعياء، تدخل " هيثم " هو الآخر ليعاونه في رفعها، حيث أمسك بها من ساقها، رغم كونها خفيفة الوزن حملها الاثنان واتجها بها نحو الأريكة الجديدة الموضوعة بردهة المنزل المتسعة، لم يكن ليتركها "تميم" أبدًا لولا ما قد يُقال بالباطل عنها إن ظل ملتصقًا بها، وخوفه الزائد عليها بائن على ملامحه، تراجع للخلف مفسحًا المجال لوالدتها لتمر، جلست قبالتها على مقعدٍ أحضره لها "هيثم"، وأسرعت "همسة" بإخراج زجاجة عطرها من حقيبتها لتستخدمه في إفاقتها من تلك الإغماء التي قلما تتكرر.

كانت الفرصة مناسبة لـ "تميم" للتحري بدقة عن حالتها، لعل وعسى يخرج بمعلومة مفيدة من خلال "حمدية" التي أظهرت امتعاضها، دنا منها متسائلًا باهتمام:

هي الحكاية دي بتجيلها كثير؟

أجابته بعد زفيرٍ بطيء:

ساعات كده، مش دايمًا...

ثم أخفضت نبرتها لتضيف بخبث:

-بعيد عنك وعن السامعين الظاهر لابسها جن من ساعة الحادثة إياها.

لم يكثرث للهراء الفارغ الذي تفوهت به، استرعى انتباهه كلمة واحدة بدت بالنسبة له محور كل شيء، ضاقت نظراته وهو يعاود سؤالها بفضول:

حادثة إيه دي؟

هزت كتفها وهي تجيبه مسهبة في الحديث معه:

مش فاكرة بالضبط، بس أبوها الله يرحمه هو اللي كان معاها وقتها.. أصلها كانت عيلة صغيرة بصفير ساعتها، بس اللي افكره إننا غلبنا معاها عشان تطلع من الهم ده، ولف بيها من دكتور للتاني عشان تتعالج، وفين وفين لما بقت كويسة، بس الظاهر إن الحالة رجعتها من تاني.

لم يتبين من حديثها ما يشبع فضوله، ولم تكن "حمدية" من ذاك النوع الواضح في الإجابات، مجرد ردود عادية لا تسمن ولا تغني من جوع، حرك رأسه متسائلاً:

هي بتاخذ الدواء ده لسه؟

لوت ثغرها قائلة بتأفف:

مش عارفة، اسأل أمها.

تأكد "تميم" أنه لن يحصل منها على ما يرضيه، مجرد ثرثرة فارغة تحشو بها أذنيه، تركها واتجه بعيداً عنها باحثاً عن زاوية جيدة تمكنه من رؤية وجه "فيروزة" الذي بات محجوباً عنه، عل قلبه الملتاع يهدأ قليلاً.

.....

بدت وكأنها تغرق في سبات عميق، وديعة، هادئة، لا تعاني من شيء، دوماً كان ينتهي ذلك الكابوس المؤلم بنوبة من السكينة العجيبة، شعرت "همسة" بالارتياح بمجرد خبوت تلك التشنجات واستغراق توأمتها في النوم، أحضرت لها غطاءً وضعتته على جسدها ومسدت برفق على رأسها، بينما ظلت والدتها باقية إلى جوارها تقرأ لها من المصحف الصغير الذي تحتفظ به دائماً في حقيبتها.. أشار "هيثم" بيده لخطيبته لتأتي إليه، سألها بنوعٍ من المزاح:

-أول مرة أعرف إن أختك بهفة!

رمقته بنظرة حادة وهي تعاتبه:

- "هيشم" لو سمحت ما فيش داعي للكلام ده، إنت مش عارف حاجة.

قال معبرًا عن اندهاشه مما رآه:

-أصل اللي يشوفها وهي طايحة في خلق الله ما يشوفهاش وهي كده.

قالت على مضض وهي تضغط على شفيتها:

-حكمة ربنا هنعمل إيه بقي.

ابتسم معقبًا عليها:

-ولا حاجة،

حاول أن يصلح زلة لسانه التي بدت سمجة ليقول ملطفًا:

-متقلقيش، دلوقتي هتبقى كويسة.

تنهدت قائلة في رجاء:

يا رب

مصممت "حمدية" شفيتها قبل أن تنطق بفضاظة، وقد ضجرت من جلوسها هكذا

لا تفعل شيئًا، ناهيك عن تقلصات معدتها التي أشارت لجوعها:

-هي عاداتها ولا هتشرتها، لازم الشويتين دول يتعملوا عشان الصعبنيات.

ردت عليها "همسة" ترجوها بنبرة منزعة:

-الله يكرمك يا مرات خالي، الحكاية مش ناقصة.

لوحث لها بيدها متابعة قولها:

حطب تعالي كده اشريك حاجة بدل ما شكل الدم هريان من وشك.

نفخت مرددة في سأم:

-شكراً، ماليش نفس.

علقت عليها بتدمر:

-يعني وقفك جمبها هتفوقها؟ يا بت خلينا ناكل حاجة بدل ما الأكل بيدرد، الناس

صارفة ومكلفة.

نظر لها "هيثم" بغرابة، بينما تخرجت "همسة" من أسلوبها غير اللطيف في التعبير

عن شراحتها للطعام، وبضيق ملموس في صوتها ردت:

-روحي إنتي يا مرات خالي..

تطلع "حمدية" إلى "هيثم" تسأله، وتلك الابتسامة السخيفة مرسومة على ثغرها:

-أومال إنت حاطط الأكل فين يا عريس؟

أجابها مستخدماً يده في الإشارة:

هناك يا حاجة.

ربت على كتفه تشكره في امتنان، وقد سال لعابها:

تسلم وتعيش.

ظلت أنظاره تتابعها وهي تتفحص أكياس الطعام لتنتقي الأفضل وهو يقول لخطيبته  
بما يشبه السخرية:

عسل أوي قريبتكم!

سألته في استخفاف:

ده بجد ولا تريقة؟

أجابها بصراحة غير قابلة للتشكيك:

-تريقة طبعا، هو حد طايقها أصلا.

.....

انزل عن البقية ليفكر بترو فيما عرفه مصادفةً عن تلك الحالة المرضية الغريبة التي  
تصيبها، وكأن الأمر ينقصه ليفكر فيها وحدها دونًا عن بقية النساء، كانت كاللغز  
المشوق بالنسبة له، لا يمل منها أبدًا، كلما اكتشف جزءًا فيها ظهر في طريقه آخر  
استحثة على اكتشاف المزيد، تابع "تميم" والدتها التعيسة التي لم تتركها للحظة،  
أحضر لها علبة عصير لتتناول محتوياته بعد أن انخفضت مستويات السكر لديها  
تأثرا بحال ابنتها المقلق، آه لو تعلم ما الذي يعتريه حاليًا رغم ادعائه بالصلابة  
والتماسك! أصر عليها "تميم" لتكمل شربه، وسألها باهتمام اعتبرته كرمًا فائضًا من  
ناحيته:

لو عاوزاني أبعث أجيب دكتور أنا جاهز.

ردت تشكره بتنهيذة متعبة:

-كثر خيرك يا ابني، شوية وهتفوق وهتبقى عادي..



استطاع أن يرى لمحة الحزن في نظراتها وتعبيراتها وهي تكمل بحسرة:  
- احنا مصدقنا عدينا الحكاية دي، أنا مش عارفة إيه اللي رجعلها ثاني.  
بدا كل ما يسمعه يستثير جنونه ويدعوه لمعرفة المزيد، ومع ذلك تساءل باحتراز:  
هي حادثة كبيرة؟

حركت "آمنة" رأسها بالإيجاب وهي توضح له:  
- تقريبًا، وقتها وقبل ما نستقر هنا، كنت بأجي من وقت للتاني عند بيت أبويا، تقعد  
أسبوع كده ولا 10 أيام قبل ما نساfer بلدنا.  
حافظ على جمود تعبيراته متسائلًا:  
- وبعدين؟

تابعت بزفيرٍ مهموم:  
- زي ما إنت عارف، احنا كنا جيران الحاجة "ونيسة" زمان، في البيت اللي قصادها،  
وفي اليوم المشؤوم ده الحتة كلها اتقلبت عشان حريقة كبيرة حصلت.  
هتف مدهوشًا:  
حريقة؟

تأهبت حواسه وتنشطت خلايا عقله بعد تلك الكلمة الخطيرة، فالحريق الوحيد  
الذي أفزع الجميع كان له صلة به، وظل الحديث عنه ممتدًا لسنوات، ما زال  
يتذكر صورة مبهمة غير واضحة المعالم لطفلة صغيرة التقاها فيه مصادفة لمرّة واحدة  
لم تتكرر، آنذاك حاول إخراجها قبل أن تحرقها النيران الجائعة، خفق قلبه بقوة،

وشعر بوجود رابط خفي ربما يجمعه بها، لكنه لم يكتشفه بعد .. المشهد لا يزال ناقصًا، أضافت "آمنة" بحزن، وكأنها تعافر لنسيان الماضي وآلامه المفطرة للقلوب:  
-أيوه، معرفش إيه اللي فكرنا بالماضي ده، الله يرحم عبيده..

كان على وشك سؤالها لولا رنين هاتفه الذي منعه من ذلك، اعتذر منها وهو يخرجها من جيبه لينظر إلى شاشته:

هستأذنك أشوف التلفون اللي معايا.

ردت بتفهم:

-تفضل يا ابني.

وضع الهاتف على أذنه ليجيب بجديّة بحتة:

-ألو، أيوه يا حاج "عوف".

.....

كانت كمن تلاعب أحدهم في لعبة أحجية غامضة دامت لسنوات استهلكت فيها تفكيرها ولا وعيها إلى أن ظنت أنها تغلبت عليه وانتصرت، لكن الحقيقة الصادمة أزاحت الغطاء عن كل شيء، أكتمل الناقص الآن، وباتت الأوجه معروفة لها، الفتى الغاضب الذي تسبب في إحراق المحل هو "هيثم" حين سرق والده في غفلة منه، وأسقط السربتاية أرضًا لتشتعل النيران وتحرق كل ما طالته حتى أبيه "غريب" صاحب الصورة الفوتوغرافية، والفتى الآخر الذي سعت لإيقاظه بعد أن فقد وعيه هو من تُشاجرهِ حاليًا؛ "تميم" .. لم يعد هناك أي مفرٍ من الإنكار، أصبحت تدرك الحقيقة بملابساتها المؤلمة، بدأت تستفيق ببطءٍ وهي تحرك رأسها للجانبين،

استغرقت بضعة لحظاتٍ لتستعيد كامل وعيها، اعتدلت في رفقتها وأنزلت قدميها على الأرض، تأوهت "فيروزة" بصوتٍ خفيضٍ مقاومة ذلك الصداع الهائل الذي يدور في رأسها، رفعت أنظارها نحو توأماتها التي ابتسمت لرؤيتها بخير، سألتها الأولى في حيرة:

هو إيه اللي حصل؟

تلمست براحتيها وجهها وهي ترد متسائلة:

إنتي كويسة يا حبيبتي؟ حاسة بحاجة؟

أجابت نافية، وكأنها تستغرب خوفها عليها:

-أنا تمام.. مافيش حاجة فيا.

ألحت "همسة" في إصرار:

طمنيني عليكي؟

أكدت عليها بهدوء:

-أنا بقيت أحسن، متقلقيش..

لم يخبُ الخوف من نظرات توأماتها، فحاولت طمأنتها وقالت ساخرة من الأمر برمته:

ما إنتي عارفة اللي فيها، دايمًا كل فترة كده يحصلي حاجة غريبة، شكل مرات خالك حسدتي.

تنفست بعمق لتعبر عن ارتياحها بعد سماعها لتلك العبارات، بينما ألقّت "فيروزة" نظرة مدققة تجوب على المكان وما فيه، وكأنها تفتش عن شخص بعينه قبل أن تنطق فجأة بنبرة عازمة وهي تهتم بالنهوض:

بصي أنا هنزل وكملاوا إنتو شغل.

وقفت "همسة" على قدميها، وقالت بتلهف:

طيب استني هاجي معاكي، مش هاسيبك لوحداك.

اعترضت بابتسامة فاترة:

-لأ أنا بخير.. وكمان عشان تلحقوا تخلصوا، ده لسه في الفستان، ويدوب تلحقوا ميعاد الأتيليه.

ردت عليها بجدية وهي تومئ بعينيها:

طيب، هنادي ماما، هي دخلت مع مرات خالي جوا يكملوا توضيب حاجة الدولاب، هما تلاقيهم خلصوا و...

قاطعتها بحسم:

-لأ خليها .. وقوليلها أنا بقيت كويسة لو سألت عليا، وشوية وهاتصل بيها.. كفاية الخضة اللي عملتها

ردت بنوع من التعاطف:

-متقوليش كده، هو احنا عندنا حد أعلى منك

احتضنت "فيروزة" توأمتها في حبٍ قبل أن تنسل من أحضانها لتوصيها:

خذوا بالكم من نفسكم، وربنا يعينكم

ابتسمت قائلة بركة:

حاضر.

.....

أرادت الهروب من ذاك الجو الخانق الذي يطبق على أنفاسها، بل ويضغط عليها للروح بما لا تستطيع قوله حتى بينها وبين نفسها، شبهت حالتها المضطربة بالفأر المدعور الذي وُضع في متاهة لا خروج منها، تدور في نفس الدوائر المغلقة من معاناتها الصامتة حتى تخور قواها على أمل أن ينتهي ذلك العذاب، ومع ذلك تمت في نفسها أن يظل الماضي حبيس أعماقها فقط، لا يعاني سواها من تبعاته المدمرة، التفتت كالمسوعة برأسها للجانب حين سمعت صوت "تميم" الرخيم يسألها:

يا أبله! إتي كويسة؟

تفاجأت "فيروزة" بوجوده خارج المنزل على الدرج تحديدًا- في مواجهتها، تحاشت النظر إليه وأجابته بصوتٍ فشلت أن يكون ثابتًا:

آ.. أيوه.

صعد إليها ليبدو قريبًا منها معترضًا طريقها بجسده فلا تتمكن من المرور إلا بدفعه، ورغم هذا لم تكن بالجسورة التي تناطحه الند بالند، كانت مختلفة كليًا، تعبيراتها واجمة، شاردة، ربما متعبة، إن صح التعبير مرتاعة قليلًا .. تعجب من نظراتها المتوترة التي تتجنبه، لم تكن أبدًا بالنافرة منه إن تم مقارنتها بالمعتاد منها، بدت وكأنها تخشاه، تحاول المناص منه بكافة السبل، كذلك لاحظ تلك الريكة الخفيفة

في طريقة إمساكها بالدرابزين وضغطها عليه بأصابعها بعصبية طفيفة، وزاد هذا من فضوله، سلط كامل عيناه عليها مستطرًا:

-هو كان في حاجة عاوز أسأل عنها وآ...

قطعت جملته قبل أن يتمها لتقول متهربة منه عن عمد:

-معلش.. ورايا شغل، عن إذناك.

حتى أنها لم تنظر إليه ليتحرك، بل تنحى للجانب من تلقاء نفسه ونظراته تصاحبها خلال ابتعادها المريب، تخبط كل ما يدور في رأسه حاليًا بشأنها، لكن رحيلها بتلك الصورة ترك أثرًا عميقًا في نفسه، انتبه "تميم" لصوت والدته التي خرجت من منزلها لترفع رأسها نحوه تسأله:

خلصتوا يا "تميم"؟

ابتسم وهو يجيبها ليخفي حيرته:

فاضل حاجة بسيطة.

ردت في تفهم:

-ربنا يعينكم، ولو الجماعة فوق عايزين حاجة قولي، أنا جاهزة أطلع أساعدهم.

قال بفتور:

-كله تمام يامه.

للحظة طرأ بباله أن يتحرى عما يشغله ممن عاصروه، لذا بادر متسائلًا باهتمام:

-بأقولك هو جدي صاحي؟

أجابت والدته بكلمة واحدة:

أيوه.

هبط الدرجات متابعًا بعزم:

طيب أنا داخله.

رحبت به أمه قائلة بوجهها البشوش:

تعالى يا ابني، إنت بتستأذن في بيتك؟

.....

خير يا "تميم"، جيتك السعادي مش لله، ولا أنا غلطان؟

تساءل "سلطان" بتلك العبارة بعد أن استأذن حفيده في المكوث معه لبعض الوقت دون أن يبدي أسبابًا واضحة لذلك خاصة في هذا التوقيت المتأخر غير الاعتيادي، ولكون جده على دراية بما ينتابه من حالات تخبط يلجأ فيها إليه، استهل "تميم" حديثه معه قائلاً بأريحية:

إنت صح يا جدي، أصل في حاجة كده شاغلة بالي، وكنت عاوز أتأكد منها منك.

رد عليه بنبرته الخشنة:

قول عاوز تعرف إيه.

دون مراوغة أو مماطلة سأله على الفور:

هو في حريقة حصلت زمان غير بتاعة محل عم "غريب"؟

شرد مليًا للحظة ليفكر في الجواب المناسب قبل أن يدمدم موضحةً له:

على حسب علمي، ما فيش إلا هي.

ضاقت حدقتاه بشدة وهو يلاحقه بسؤاله التالي:

-ما فتكرش حصل إيه بالضبط؟

استراح في رقدته على الفراش بعد أن وضع الوسادة خلف ظهره ليقول بعدها بتنهيدة بطيئة:

عمك "غريب" الله يرحمه كان طماع، عاوز يتغنى بسرعة، معندوش صبر على حاجة، وخالتك زي ما إنت شايف ماتوصتتش، مش تقوله بلاش ولا كفاية، لأ كانت بتشجعه يعمل أي حاجة إن شاء الله بالغش، المهم يبقى معاه فلوس كتير.

تحدث من زاوية فمه قائلاً:

-ما كل ده أنا عارفه.

تطلع "سلطان" إليه في حيرة، وسأله:

-أومال بتسأل عن إيه؟

تشجع ليروح له بما يدور في رأسه من أمور تشغله بشأنها:

-يوم الحادثة يا جدي، كان معايا بت صغيرة، مضبوط؟

ظهرت علامات التفكير العميق على وجهه وهو يرد:

-تقريبًا، كانوا لاقوها جمبك، ماسكة فيك.

تضاعفت خفقات قلبه القلقة وهو يسأله بنبرة بدت إلى حد ما متلهفة:

-وكانت عايشة ولا ميتة؟



أجاب منهياً حيرته:

-إنتو الاتنين بس اللي ربنا نجاكم من الحريقة.

أخرج "تميم" نفساً عميقاً من صدره أزاح به كل التوترات التي أرهقته، ثم عاد ليسأل باهتمامٍ وقد أضاءت عيناه بوهجٍ غريب:

-ماتعرفش هي مين؟

هز رأسه نافيًا:

-مش فآكرها يا ابني .. السن بقي وأحكامه، ودي حاجة عدت عليها سنين.

تقدم "تميم" نحو جده ليحني رأسه عليه، قبله من جبينه وهو يدعو له بتضرع:

-ربنا يديك طولة العمر يا جدي.

ربت الأخير على كتفه بودٍ قبل أن يكمل مستفيضًا بتلقائية:

-بس على ما أظن أبوها كان راجل في حاله، طيب مش بتاع مشاكل، كان شغال صياد، مراكبي، حاجة زي كده، واسأل أبوك هو فآكر عني...

أكتفى حفيده بالابتسام، لكن تفرس "سلطان" في ملامحه وهو يسأله بدهشة مبررة:

-بس إنت إيه اللي فكرك بالحكاية دي دلوقتي؟

تعلل كاذبًا ليخفي ما لا يريد الإفصاح عنه له:

-يعني كنت بأدردش أنا و"هيثم"، وافتكرنا حكاية موت أبوه.

بدت إجابته مقنعة، فلم يشك بأمره، وقال:

-ربنا يرحمه، ويحسن ختامنا جميعًا.

يا رب.

أضف "سلطان" بنبرة عادية:

-الواد ده نبتته كويسة، بس مالوش كبير يحاسبه، ده غير أمه، كتلة شر.

ابتسم لصراحته مؤيدًا إياه:

صدقت يا جدي.

عمق "سلطان" من نظراته نحوه وهو يقول:

-وبنتها عاملة إيه معاك؟ كويسة ولا شبه أمها؟

أجاب بعبوس كسا وجهه:

-يعني .. ربنا يهديها.

رد عليه في سخريّة:

-هما كل الحریم كده، مافيش من وراهم راحة.

وكأنه أظهر المزيد من انزعاجه على تعابيره عندما قال بزفيرٍ طويل:

على رأيك يا جدي.

مازحه الأول مبتسمًا ليبدد الوحشة التي ملأت محياه:

-ولسه لما تخلف كمان، هاتشوف العجب منهم، هتطفش يا واد يا "تميم" وتيجي

عندي..

ضحك على طرفته، فأكمل "سلطان" بنوع من التمني:

-ربنا يمد في عمري وأشوف عيالك.

رد عليه برجاء كبير:

إن شاء الله يا جدي، ويطربوا تحت طوعك

صدرت إيماءة خفيفة من رأسه حين قال معقبًا:

يا رب.

.....

انزوى بالشرفة جالسًا في كرسيه الخشبي يشعل سيجارة تلو الأخرى دون أن يحصي عدد ما دخنه، كان عقله مشحونًا، ومشغولًا بالكثير، من ناحية رغبته في معرفة هوية الطفلة الصغيرة التي تواجدت معه خلال الحريق المروع، وهو اجسه نحو واحدة بعينها، ومن الناحية الأخرى شكوكه في زوجته، كيف يخبر الأخيرة ببساطة أن كذبتها التي برعت في إحكامها عليه قد انكشفت؟ خدعته لتخفي أمرًا لثيمًا حاكته من ورائه، إن كان الدواء المنشط لا يخص أخيها فإذا هو لمن؟ إجابة السؤال كانت واضحة كالشمس في كبد السماء، بالطبع ليس لها! في البداية تحير كثيرًا ورفض تصديق الأمر إلى أن تجلت الحقائق في عقله كمشاهد متعاقبة ترشده إلى نهاية لا مناص منها؛ كان هو المغفل الذي يتجرعه ليلة بعد أخرى لتتحرك شهواته باهتياج تعجب منه شخصيًا، قوته الذكورية كانت مفرطة معها رغم فتور مشاعره نحوها، يندفع غرائزيًا لا وجدائيًا، يمنحها ما تريد ويخبو لهيب الرغبة فجأة كما اندلع فجأة.. ظل السؤال الذي يراوده كيف يتم الأمر؟ ومن أين واثتها الجراءة لتفعل ذلك به؟ لكن عاد عقله لينذره بهاجس مريب لم يستسغه؛ ألا يتسرع في

إصدار الحكم عليها لمجرد إنكار "هيثم" لذلك، أليس من المحتمل أن يكون هو الطرف الكاذب؟ ربما أراد تحسين صورته أمامه وهو مقبلٌ على الزواج، انتشلته من حيرته المتعبة على صوتها المتدلل:

-مش هتاكل يا "تميم"؟

نظر لها مليًا بنظرات غريبة، مطولة، مليئة بالشك، وكأنه يريد النفاذ إلى داخل رأسها الداهية ليكشف عن خباياه، تعجبت "خلود" من تحديقه المطول بها وأعدت تكرار السؤال عليه ليرد بوجوم:

-لأ.. ماليش نفس.

دقت النظر في ملامحه المكفهرة وهي تتساءل:

-هو إنت كنت برا؟

أجاب باقتضاب:

-لأ..

ألحت عليه بشدة:

-أومال إيه؟ ده أنا محضراك الأكل اللي بتجبه، يالا عشان تاكل وتقعده سوا تحكيلى عملت إيه.

استاء من ضغطها المستمر عليه، خاصة وهو مهموم بشأن كذبتها، لذا صاح بها بعصبية

-مش عاوزي يا "خلود".

استغربت من صياحه المنفعل، وقالت بتبرم:  
براحتك.

لم يعلق عليها وظل يرمقها بتلك النظرات الغامضة التي لم تسترح لها، جلست  
"خلود" على الكرسي المقابل له تسأله بفضول، وكأنها تشك في أمر ما:  
- "هيشم" كان قال لأمي إنك كنت معاه لما نقلتوا حاجته النهاردة.  
انحنى للأمام ليطنى سيجارة أخرى وهو يرد موجزًا في الحديث:  
أيوه.

برقت نظراتها حين سألته في خبث:  
على كده خطيبته وأمها كانوا هناك؟  
قال بهدوء:

أيوه  
احتدت نظراتها حين انتقلت للسؤال التالي:  
- والبت "فيروزة"؟

تحفز في جلسته وبادلها بنظرة شبه مزعوجة وهو يرد:  
مالها؟

أجابت متسائلة وقد بدت متأهبة لسماع رده:  
- كانت معاهم؟

لم يمنحها ما تريد، وراوغها بالقول:

-بتسألني ليه؟

حاولت الابتسام وهي ترد:

-عادي يعني، عاوزة أعرف.

وكأنه يُعيد اكتشاف طباع زوجته الحقيقة لأول مرة دون زيف أو تجميل، لم تكن نظراتها مريحة، ولم تكن تعبيراتها مسترخية، قناع الغيرة الذي ترتديه لم يستلذه مطلقاً، نفخ في الهواء قبل أن يجيبها بسأم واضح عليه:

-أأكد.. طالما أختها هناك هتبقى معاهم.

ركزت عينيها عليه عندما سألته مباشرة:

-وانت شوفتها؟ أعدت معاها؟

ضاقت نظراته هاتفاً في استنكار:

-"خلود" هو ده تحقيق وأنا مش عارف؟

تصنعت الضحك وهي تبرر أسئلتها المتعاقبة:

-لا يا حبيبي، أنا بس بأدردش معاك، وبعدين مافيهاش حاجة لما أطمئن على جوزي حبيبي.

هب واقفاً ليجمع علبه سجائره وولاعته قبل أن ينطق بتزمت:

-وأنا مش شايف أي دردشة، ولو عاوزة تعرفي حاجة كلميني دوغري، بلاش شغل التلت ورقات ده.

نهضت هي الأخرى لتقول بتأفّف:

-أصل أنا مابستريحش للبت دي، سهونة كده وخبث الدنيا فيها، وجواها إسود  
كده، ربنا يحفظنا من اللي زيها.

وكأنها تحرضه على وغر مشاعره ضدها أكثر، نظرة استحقارٍ استطاعت أن تراها  
في عينيه وهو يحدق بها ليعقب بعدها:

-أنا رايح أنام، تصبحي على خير.

لاحقته بنظراتها الفضولية المتعجبة قبل أن تسأل نفسها في حيرة:

-هو ماله ده .....؟!.....

.....

الفصل الرابع والأربعون

بدافع من الحب الغريزي نحو شقيقتها قررت إبقاء الأمر طي الكتمان حرصاً على سعادتها البادية عليها، وحتى لا يُقال أنها أفسدت عليها فرحتها قبل اكتمالها، خاصة في مثل هذا التوقيت الحرج .. دفنت ما عرفته ضمن صفحات الماضي، لا داعي لإثارة الجدل بعد ما اكتشفته مصادفة، لتكن وحدها من يحمل السر إلى القبر .. تلقت أيضاً توبيخاً تستحقه لهروبها خلسة قبل أن تراها والدتها وتطمئن عليها، وكأنها ارتكبت ما تخجل منه، لم تلقِ بالألحدة أمها معها، أرادت فقط تخطي تلك الليلة بما احتوته من ذكريات مؤلمة. طوقت "همسة" توأمها بذراعيها من كتفها لتحتضنها وهي تنهد قائلة:

مش عاوزاكي تزعلي يا "فيرو"، والله ماما بتحبك، وأنا حاولت أفهمها إنك بقيتي كويسة.

ردت بتفهم قبل أن تحرر من حضنها الدافئ:

عادي يا "هموسة"، ماتحطيش في بالك.

أمعنت الأخيرة النظر في تعبيراتها الساكنة متابعة تبريرها لشدة والدتها معها:

هي مكاتتش حابة إنك تبقي لوحدك بعد اللي حصل، طبيعي تخاف عليكي وتقلق.

كانت "فيروزة" متفهمة لأبعد الحدود، بل بدت مسترخية أكثر من اللازم بما يدعو للشك، استلقت على الفراش، وعلقت:

-الموضوع مش مستاهل.

طيب.

عادت "فيروزة" لتسألها لمرّة أخيرة:



قوليلي إنتي فعلاً بتجبي "هيثم" ده؟ يعني واثقة إنه هيسعدك؟ يستاهل حبك  
ليه؟

لاحت بسمة ناعمة على ثغرها وهي تجيبها بتأكيد:

-أيوه.. أنا بأحس معاه إني واحدة تانية، وهي بيعمل كل حاجة عشان يفرحني.

كان ردها كفيلاً بإعلانها الرسمي بالتزامها بما عاهدت عليه نفسها، تحركت شفتاها  
لتظهر ابتسامة لطيفة حين عقت عليها:

-ربنا يفرحك يا "هموس"، إن شاء الله تبقي أحلى عروسة.

.....

من تطلع إليه في تلك اللحظة ودقق النظر في تعبيرات وجهه المتقلصة لأدرك أنه  
يخوض الآن حلماً يعايشه بكل طاقاته اللا شعورية، سحبت آلة الزمن المتحركة في  
أحلامه المكبوتة -إيرادته- إلى سنوات مضت؛ حيث الحريق المشؤوم، في البداية  
بدا كل شيء متداخلاً، ومضات تروح وتجيء بشكل غير مفهوم إلى أن استقر  
المشهد على طفلة تشير بيدها نحو حريق بالخلف، انعقد حاجباه بقوة وهو يحاول  
تبين ملامحها، كانت مألوفة بدرجة جعلت قلبه يخفق، ونبضاته تتلاحق، نفس  
النظرات الحادة، والوجه الصارم، حتى أنه تذكر الجديلتين، أما رسمة الطاووس  
الملفتة التي احتلت صدر ثوبها عززت من إحساسه حول معرفته الشخصية بها،  
تذكر أيضاً تلك اللمسة الخشنة منه على رسخها الضعيف وهو يجرها للخارج ليمنع  
ألسنة النيران من الإمساك بجسدها الضئيل.

انتفض "تميم" محاولاً إنقاذ زوج خالته، لكن شرارات النار الجائعة كانت أسبق منه  
إليه، نالت من جسده وأحرقتة حياً وسط صرخات مفزعة مميتة للقلوب، شخص

بأنظاره من هول المنظر المرعب، أحضر دلوًا مليئًا بالمياه لإطفاء ما استعر به، لكن عرقته الكتلة المؤلمة التي انهالت على كتفه فتدحرج الدلو من يده، وطرح أرضًا لا يقدر على الحركة، كان في حالة أقرب للإغماء وهو يرى من خلف ضلالاته المشوشة رسمة الطاووس المزركش وهي تدنو من عينيه تحاول شده إليها وسط حشجة صوته الذي اختنق بالدخان القاتل، غزاه الظلام وهو يشعر بحركة عاجزة من الطاووس يحاول بها جره، أدرك أنها النهاية، لن ينجح ذلك الكائن الضئيل في نجدته، جاهد ليفتح عينيه ليلقي نظرة أخيرة على ما حوله وسط سحب الدخان الرمادية الكثيفة، كان وجهها ملاصقًا له، ساكنًا، مرتخيًا، ملامحها أصبحت واضحة، امتدت أصابعه المرتجفة لتلامس وجنتها المشتعلة بحمرة نتجت من عنف مجهود يفوق قدراتها الجسمانية، لم تتحرك .. بقيت هادئة، حينها فقط خرج صوته هامسًا يحمل أنينًا حزينًا وكأنه يناديها:

- "فيروزة!"

التقطت أذناها صوته الخافت وفتحت عينها على اتساعهما، حملت "خلود" في السقفية باندهاش غاضب قبل أن تدير رأسها في اتجاه زوجها النائم إلى جوارها لتحقق فيه بكل ما يتقاذف من عينها من شرارات الغضب والغل، أرهفت السمع لتتأكد إن كان ما سمعته صحيحًا أم مجرد خزعبلات وهمية أصابت رأسها غير الواعي حين غفلت بعد عناء .. ظل "تميم" صامتًا، لم يتفوه بشيء، راقبته جيدًا وتابعت انتظام حركة أنفاسه، على ما يبدو ما زال مستغرقًا في النوم، انسحبت من الفراش وهي تشعر بقلبها المذبوح يتمزق لعشرات القطع، أيعقل أن يحلم بغيرها وهي تنام في أحضانه على الفراش؟ ربما كان يمنحها حبه الجسدي ويغدق على تلك البغيضة بما ضمن عليها به! ضببت بمجهودٍ عنيف أعصابها حتى تخرج من

الغرفة لتستنشق الهواء بعد أن شعرت أنه يطبق على صدرها ويكاد يكتفم أنفاسها ..  
اتجهت للمطبخ لتشرب كوبًا من الماء البارد، ما زالت الشكوك تلعب برأسها بشأن  
وجود ما يخفيه عنها.

هجرانه لها أم جفائه معها لا تستطيع أن تحدد تغير معاملته رغم كونها تحمل في  
أحشائها طفله، يكاد ذلك يصيبها بالجنون، وما ظنت أنها سمعته عظم من  
إحساسها بالغضب المحقون، تسلت "خلود" بحذر لتجلس في غرفة النوم الأخرى  
ومعها هاتفها المحمول بعد أن ألقت نظرة عابرة من الخارج على الفراش المتكومة  
أغظيته معتقدة في قرارة نفسها أن زوجها ما زال مستغرقًا في نومه العميق، يغط في  
أحلامه المحرمة تاركًا إياها تعاني ويلات برود مشاعره، وارتب الباب خلفها واتجهت  
بخطواتٍ شبه متعصبة نحو الفراش، جلست على طرفه وظلت تهز ساقها في  
عصبية، لم تستطع صرف ذهنها عن التفكير في "فيروزة"، تلك الحقيرة التي تنسج  
الخيوط حول زوجها لتجره إليها جرًا، البغاء في أقدر صورته متجسدًا في شخصها  
اللعب، التقطت هاتفها بيدها، ووضعت على خاصية السماع الخارجية ليبدو  
صوت والدتها واضحًا نظرًا لتعذر سماعها بدون تلك الخاصية بسبب العطب الذي  
أصاب جهازها، وإغفالها عن إصلاحه، تنفست بضيق قبل أن تنطق:

-أيوه يامه

أجابت عليها "بثينة" باستغراب:

في إيه يا بت؟ إنتي صاحبة ليه السعادي؟

أجابتها بقنوط:

خلاص معنتش قادرة استحمل، أنا شوية وهاتجنن، جبت أخري.

اختفت نبرة النعاس من صوت والدتها وهي تسألها بانتباه:

ليه حصل إيه تاني؟ جوزك عرف بحكاية البرشام إياه؟

في تلك الأثناء، نهض "تميم" من نومه على كابوسه المفرح، لكنه منحه إجابات كانت تنتظره حتى ينبش فيها، هو متأكد أنه لم يخطئ في حدسه، "فيروزة" هي الطفلة الصغيرة التي كانت معه، ولها بنقوشات الطاووس وأشكاله المختلفة لا يزال مرتبطًا بشخصها، نفس الملامح لم تتغير كثيرًا، حتى النظرات الحادة التي دومًا توحى بغضبها كما هي، التفت لجانبه ليتفقد زوجته فلم يجدها، دعك رأسه وفرك عينيه وهو ينهض عن الفراش حتى يستفيق، اتجه للخارج باحثًا عنها، صوت همهمات متعصبة كان يصدر من غرفة النوم الأخرى المضيئة، تحرك صوبها وقبل أن يضع يده على الباب الموارب كانت أذناه قد التقطت -بمحض الصدفة- جملة جعلته يتصلب في مكانه مصدومًا، انزوى في بقعة معتمة حتى لا ترى انعكاس خيال ظله ليسمع بوضوح حديثهما الخطير .. نخت "خلود" قبل أن ترد بنبرتها المنزعجة:

-لأ، "تميم" ما يعرفش حاجة.

ردت "بثينة" ساخرة بعد ضحكة رقيقة مستمتعة:

-وهيعرف إزاي وإنتي كنتي بتحطوله في الأكل؟ ما تجربي ده تاني، أنا هاجيبلك كام حباية كده تداريهم بمعرفتك.

اتسعت عينا "تميم" في ذهولٍ وقست تعابيره بشكل ينذر بعواقب غير محمودة أبدًا، أطبق على قبضتيه بقوة حتى ابيضت مفاصله من غضبه المكبوت، حافظ على ثباته عليه يكتشف المزيد، في حين كزت "خلود" على أسنانها قائلة:

-الموضوع ده عدى وانتهى، ومش هاینفع أعمل كده تاني.

سألتهما والدتها بجديّة:

-هو مسألکیش تاني عنه؟ يعني دخلت عليه حكاية إنه بتاع "هيشم"؟

أجابت على مضض:

-أيوه.

عاد الفضول ليشغل تفكيرها وهي تسألها:

-أومال في إيه؟

أجابت بضيق وهي تقضم أظافر يدها بأسنانها في توتر:

-شکله متغير عليا.

نهرتها والدتها بضجر:

-هو إنتي غاوية تجيبي النكد لنفسك؟ هو كان لونه أصفر وقلب أخضر! يا بت  
اركزي وخدي بالك من اللي في بطنك، ماتبقيش حماية وغبية كمان.

هتفت محتجة عليها دون أن ترفع من نبرتها:

-لأ إنتي مش فاهمة يامه، مابقاش زي الأول كده عاوزني وملهوف عليا.

ردت ببرود شبه مستفز غير مبالية بمشاعر ابنتها المحتقنة:

-وايه يعني؟ مصلحة! ما الدكتور قايلك مافيش داعي للكلام إياه الفترة دي.

استاءت من فهم والدتها المنحصر في مسألة العلاقات الجسدية فقط، كانت تريد الأعمق من ذلك، الاستحواذ عليه في كل شيء يتضمن المشاعر، التفكير، وحتى في اختياراته البسيطة، حاولت أن تفسر الأمر لها، فاسترسلت بتنهيدة مهمومة: مش ده اللي بتكلم فيه، أنا حاسة بيه، هو متغير معايا، جمبي أه بس عقله بعيد عني.

علقت ببساطة متجاهلة أحاسيسها:

- ما جايز في حاجة في الشغل قرفاه.

اعترضت بألمٍ شعرت به ينغص صدرها:

-لا، قلبي بيتقولي غير كده.. وأنا شاكة إن البت العقربة إياها ورا قلبته عليا

تحفز "تميم" في وقفته وقد انخلع ما بين ضلوعه في توترٍ بعد استماعه لشكوكها، لكنه لا يقارن أبدًا بغضبه المتأجج فيه جراء الحقيقة المخجلة، ضغط على شفثيه بقوة ليمنع نفسه من التهور، ما زالت الأمور في أولها، تساءلت "بثينة" بصوت وصل إليه:

-تقصدي مين؟

أجابت بغيطٍ واضح:

-الهابة "فيروزة"! هو في غيرها؟

سألتهما والدتها من جديد في استغرابٍ مستنكر:

-وهي مالها بيه؟

ردت بغلٍ بائن في صوتها قبل نظراتها:

إنتي ناسية يامه المحروس أخويا وشبكته السوداء، ما هما ساكنين فوق خالتي،  
طبعا في الطالعة والنازلة هتشوف "تميم" وترسم عليه وتشاغله، ونظراته ليها مش  
مريحاني.

سخرت أمها من خيالها الجامح، وهتفت بتهكم:

-وربنا كتر فرجتك على التلفزيون لحست مخك، جوزك ده زي القطر، مايعرفش  
لا حب ولا غيره.

تغاضت عن استخفافها بها، وأصرت على ما تقول:

-الحاجات دي تتحس يامه.

هتفت بها تحذرها من تماديتها في أوهامها الحمقاء:

-بأقولك إيه اهتمي بصحتك اليومين دول، خلي حملك يكمل على خير، والبت دي  
سيهالي، أنا هاشوف شغلي معاها.

أوغر صدر "تميم" في حقدٍ وكره ناغم من المؤامرات الماكرة التي تُحاك من وراء  
ظهره، والأدهى من يدبرها؟ زوجته بمساعدة خالته! استنشاق غضبًا لكونه في  
موقف الأبله الذي منح ثقته لمن لا تكف عن إيذائه، ناهيك عن إفشاء أسرار بيته  
مخالفة عهدها معه .. توسلت "خلود" لوالدتها:

-بالله عليكي يامه اقفي جمبي، أنا مش هاستحمل واحدة ثانية تشغل بال جوزي  
ولا تاخده مني، هو بتاعي أنا وبس، أنا صبرت ده كله واستحملت أسلوبه وطريقته  
عشان نبقي لبعض.

نصحتها والدتها بلهجة شبه حازمة:

حبيب.. قومي نامي في فرشتك جمب جوزك بدل ما يقوم ومايلاقيكش.

تنهدت ببطءٍ قبل أن ترد:

حاضر.

أنهت معها المكالمة بعد بضعة وصايا أخرى تخص الانتباه لصحتها وتناول الطعام الصحي لتنهض من الفراش وهي غير متوقعة من يقف لها بالخارج، انتفضت مترجعة للخلف في ارتعابٍ حين فتحت الباب وأطلت برأسها لتتفاجأ بزوجها يسد الطريق عليها، شبحت بشرتها، وأحست بتلك الخفقة العنيفة المرعوبة تضرب قبلها، اهتزت شفتاها ناطقة:

- "تميم"!!

لعت شفتيها واستجمعت نفسها لتبدو طبيعية أمامه، اجتهدت لتبتسم لكن خرجت بسمتها مهزوزة يشوبها الخوف، سألته بعينين تدوران على وجهه القاتم بترقبٍ متوجس:

-إنت هنا من امتي؟

لم يجبها، لكن تعايدته القاسية حذرتها من شيء مهلك، لوحت بالهاتف أمام وجهه موضحة بصوتها المرتبك:

-أنا.. كنت بأكل ماما .. بتظمن على صحتي، مشغول بالها عليا و.. محبتش أعمل دوشة وإنت نايم، ماهي طلبتني.. وإنت عارفها بتحب ترغي وآ.....

ابتلعت باقي جملتها الكاذبة في جوفها حين صرخ بها بصوتٍ هز أركان الغرفة:



-يعني كنت أنا المغفل اللي بتحطيله الهباب ده؟

تراجعت بخطواتٍ مرتجفة للخلف لتتحاشى اقترابه الغاضب منها، وهتفت ترد في هلع:

-إنت فاهم غلط

واصل صياحه المتشنج وعروقه تنتفض غضبًا وحنقًا:

-وفي الأكل يا قادرة؟

جحظت بعينها حتى كادت تخرجان من محجريهما من شدة خوفها أمام شراسته المتعاطمة، تابعت تراجعها للخلف وقلبا يدق في عنفٍ، بينما أضاف "تميم" بصوتٍ متهدج من انفعاله الكبير:

-شغل ولاد ليل بصحيح، آل وأنا اللي مفكر إن أخوكي بيبلبعه عمال على بطال.. طلعت أنا الخرع اللي بأخده ليل نهار.

هزت رأسها نافية وهي تشير بيدها أمام وجهه:

-لا يا "تميم"، إنت غلطان..

شعرت أن قلبها على وشك الاقتلاع من صدرها حين سألها بصوته الجهوري، ونظراته النارية:

-وكنتي بتحطهولي كام مرة في اليوم؟

ارتعشت وانكمشت على نفسها وهي بالكاد تحاول الصمود أمام بطشه المهدد، ابتلعت ريقها وردت بصوتٍ لاهث:

-مش كده خالص..

هدر بقوة أرعبتها أكثر:

-مجاش في بالي أبدًا إن مراتي بتديني برشام عشان أنام معاها لأنها شيفاني  
منفعش!!

نفت بصوتها الذي بح من شدة خوفها من وحشيته المتجسدة أمامها:

-أبدًا والله، إنت سيد الرجالة كلهم.

ارتطم ظهرها بالدولاب، لم يعد هناك مهربًا لها، خبأت بذراعيها وجهها خوفًا من  
اعتداء سافر عليها جراء مصيبتها، لكنه قبض على رسيغها يشدها منهما بعد أن  
قيدهما بكفه ليظهر وجهها، وبيده الأخرى أطبق بغلاظة على فكها يعتصره تحت قوة  
أصابعه، هزها بخشونة مؤلمة وهو يسألها:

عملتي كده ليه؟

ردت من بين شفيتها وهي بالكاد تحاول الكلام:

-أنا .. كنت .. بس آ...

بدت كمن يحاول اختلاق كذبة سريعة عليها تنطلي عليه، صفة أولى قوية هوى بها  
على خدها أصابتها بألم شديد قبل أن يتبعها بأخرى فقدت خلالها إحساسها بذلك  
الجانب، كما نزت خيطًا رقيقًا من شفيتها التي جرحت بأسنانها، وقبل أن يفكر في  
إكمال ضربه لها، صرخت ترجوه:

-حرام عليك.. هاموت في إيدك، أنا حامل ماتنساش ده، عاوز ابنك يموت؟

ألجمته تلك الجملة فتجمد في مكانه دون أن يحررها، وكأنه يعيد التفكير في شأنها لأجل مصير ذلك الجنين، لكنه لعنها بكلمات نابية جرحت كرامتها بشدة:

يا بنت ال.....، ما فيش (... منك!

اعتذرت منه ببكاءٍ اعتقدت أنه سيجدي نفعًا معه ويسترق قلبه بعد نجاحها في كبح غضبه المندلع:

-أنا أسفة، أنا غلظت.. بس والله ما أقصد أضرك.

دفعها بعنف لتصطم بضلفة الدولاب التي آلمت كتفيها، انصرف من الغرفة يلعنها وهو بالكاد يكافح لضبط أعصابه قبل أن يعود وينحر عنقها لكونها قد عبثت واستهانت برجولته غير القابلة للتشكيك.

.....

ما يقرب من الساعة مكث فيها بالشرفة يحرق سيجارة وراء الأخرى حتى نفذ ما بعلبته، ضرب بقبضته على حافة السور لأكثر من مرة، فكلما تذكر كلماتها كلما تجدد حنقه عليها، ظلت مشاعره الثائرة تغلي في صدره حتى أوشكت أن تجهز عليه، اعتقدت "خلود" من سكونه الزائف أنه هدأ قليلاً، وربما يمنحها ذلك فرصة لتبرير الحقيقة وإعادة سردها بشكلٍ يخدمها أكثر، بدلت قميصها المنزلي القطني بآخر حريري بنفسجي اللون يبرز مفاتها، وأفرطت في وضع عطرها المغربي لتضمن تأثيرها الأنثوي على تحفيزه جسديًا، وضعت الروب على كتفيها لتغطي بشرتها، ثم وقفت عند أعتاب الشرفة تناديه بتنهيدة بطيئة:

- "تميم"

امتقع وجهه من حضورها المقيت، وشعر بالغثيان من صوتها المنفر وهو يهدر بها مهددًا:

-ابعدني عن وشي السعادي.

تلمست جانب عنقه بأناملها بحركة مغرية ومحفزة في نفس الوقت هامسة له:

حبيبي، خليني أشرحك الحكاية، إنت فاهم غلط.

استدار نحوها يرمقها بنظرة احتقارية قبل أن يغرز أصابعه في لحم ذراعها ليدفعها للداخل وهو يصيح بصوته الأجش:

حكاية؟ ده إنتي كدبتني عليا لما سألتك! لأ وأنا الحمار اللي صدق كل حرف قولتيه، طلعتك الملاك الغلبان، وأنا المفترى الظالم.. يا شيخة ده إنتي إبليس يتعلم منك.

كان لا يزال في ذروة غضبه، لم يتبدد أو ينتقص شيئًا، لكنه لم يؤذها، مجرد دفعات بسيطة، أو سباب مهين لها، وذلك طمأنها أكثر.. لذا استعادت جأشها لتقول:

غصب عني يا "تميم"، أنا بأحبك أوي.. أنا عاوزاك ليا وبس.. نفسي في حضنك أوي.

مل من سماع نفس العبارات المستهلكة التي لم يشعر بصدقها أبدًا، كيف لرجل أن يقبل ببساطة أن تدس له زوجته في طعامه دواءً قد يقضي على رجولته لمجرد أنها وسيلتها لجره للفراش واستنزافه؟ استنكر بشدة ما فعلته، وهاجمها بكلماتٍ عدائية:

-بالطريقة الـ ..... ده؟ فكرك إن البرشام هايجبني ليكي راع؟ هيخليني تحت رحمتك، ما جايز إنتي أصلاً ماتمليش عيني؟ وأكيد كنت هادور على واحدة تانية غيرك.. أخونك معاها.

أهانها بكلماته الجارحة التي ذبحتها، وردت محاولة جمع ما بعثر من كبرياتها النازف مؤكدة على إخلاصه:

إنـت مش كده، إنـت بتحبني لوحدي زي ما أنا بأحبك.

ربما لم يقدم على الخيانة فعلياً، لكنها لا تستحق شفقتة أو عطفه، استمر في ضغطه على ذراعها حتى أنت من الألم وهو يواصل تعنيفه بها:

-لأ وأمك.. اللي هي خالتي، بدل ما تقولك لأ، موالسـة معاكي في الليلة دي من الأول، وأنا ليه مستغرب؟ ما هو طبعا إنتي بنتها وتربيتها فكان ده المتوقع منكم..

دافعت عنها بوقاحة استفزته وجعلت الدماء تثور في عروقه:

هي عايزة مصلحتي، ماتلومهاش

رمقها بنظرة تحتقرها وهو يرد:

-ماهو باين.. جوز أبالسـة!

واجهته بأسلوب اعتبره فجاً للغاية:

- "تميم" قدر موقفي بقي.. أنا استنيتك كثير، محبتش حد في حياتي غيرك، اتولدت عشان أحبك إنـت وبس، رضيت ببعدك، واستحملت كل حاجة عشان تبقى ليا، وكنت مستعدة أعمل أي حاجة تخليك على طول جمبي وليا لي لوحدي.

ترك ذراعها الذي التهب، ثم أولاهها ظهره رافضاً النظر إليها، كأنها عاهرة رخيصة ارتكبت فاحشة مبينة، وقال بسأم دون أن تخبو نبرته المنفعله:

-يا دي أم الأسطوانة المشروخة دي! زهقت، غيري منها.

لحقت به، وقالت بجرأة، ويدها قد امتدت لتلمس ذراعه المشدود في عضلاته:

-"تميم" استنى، أنا معملتش حاجة حرام.

انتفض في نورٍ جلي من اقترابها، وكأن قاذورات قد ألقيت عليه، ثم صاح بها:

-بس.. ماتلمسينش! أنا مش عايز أقولك أنا حاسس بإيه دلوقتي ناحيتك!

ترقرقت العبرات المقهورة في مقلتيها بعد عبارته تلك، استطاعت أن ترى بوضوح

مدى بغضه لها، ومع ذلك قاتلت لتستجدي عشقه بتسول:

-أنا بأحبك يا "تميم"، ليه بتعذبني؟ ليه قاصد دايمًا تجرحني وتقلل من حبي ليك؟

اكتسبت نبرته المزيد من الخشونة عندما سألها باستنكار:

-هو اللي إنتي عملتيه ده بتسميه حب؟

قالت على الفور:

-أنا بأعشقك.. إنت بس لو تسمعني ه...

قاطعها بحدّة رافضاً السماح لها بخداعه:

-يا شيخة ده أنا كان ممكن أموت من البرشام ده ومش دريان.

هتفت نافية والدموع تُذرف من عينيها:

-استحالة كنت أذيك.. إنت حياتي..

ثم كففت عبارتها، وأضفت موضحة بغبائه مستحكم:

- ده كان كل كام يوم لما بأحط قرص، ومش كله.. بيكون مطحون.

لم يعلم "تميم" إن كان من المفترض أن يضحك على جملتها تلك أم ينقض على عنقها يخنقه، رد في تهكم ووجهه يكسوه علامات الغضب الشديدة:

- والمفروض أنا أفرح كده؟

ردت ببساطة:

- اعتبره فيتامين.. لو ده يريحك، مش عيب إن الواحد ياخد حاجة تخلي صحته أفضل

كان من المستحيل أن يظل ساكناً دون رد رادع يؤديها، كل ما كان يفعله هو كبح جموحه العنيف قبل أن ينفجر فيها ويزهق روحها بلا ندم، شعرت باحتدام عدائي مهدد يغلف نبرته عندما قال وهو ينظر لها باستهجان:

يا برودك، الموضوع عادي بالنسبالك.. إنتي تحمدي ربنا إنك حامل، لأن لو مكوتنش كده، أنا مش عارف كنت هاعمل فيكي إيه!

تطلعت إليه في خوفٍ محسوس، وسألته:

قصدك إيه؟

أجاب ملوحاً بذراعه:

جوازتنا من الأول غلط.

تناسست في لحظة ما ارتكبتة من إهانة رجولته، وحولت الأمر لاتجاه مغاير بالقول بصراحةٍ ملقبة اللوم كله على "فيروزة":

-إيه؟ أنا كده فهمت! إنت عاوز تلبسني الغلط عشان الست هانم بتاعتك!

غامت نظراته وتجهم وجهه أكثر وهو يرد بإنكارٍ:

-نعم؟ هو أي هبل بتقوليه والسلام، هانم مين دي؟

قالت بضحكة مفتعلة متهكمة، وكأنها أصابت بصحة افتراءها:

-إيه وجعك الكلام؟ فكرك أنا مش واخدة بالي من اللي بيحصل؟

تدلى فكه السفلي في امتعاضٍ عجيب من قدرتها الرهيبة في قلب الحقائق وتزييف الأمور، بدت كما لو كانت قرينة للحرباء المتلونة، سألها بصوته المليء بالدهشة:

-إنتي بتتكلمي عن إيه؟

بوقاحةٍ فظة أجابته:

عن الزفتة اللي اسمها "فيروزة"، بترسم عليك وبتشاغلك وإنت مبسوط بكده، عاوز تحس إن في واحدة غيري مهمة بيك، لأن اللي قايدة صوابها العشرة مش مكفياك ولا مالية عينيك!!

تجدد غضبه أضعافًا مضاعفة، لم يتحمل أبدًا أن تمسها بالسوء، أو أن تزج باسمها في أكاذيبها، اندفع "تميم" نحوها كالمجنون ليمسك بها من ذراعها، ضغط عليه بقوةٍ وكأنه يريد خلعه من كتفها وهو يسألها:

-إنتي مجنونة؟ إنتي سامعة نفسك؟



حاولت التملص منه، وردت تجاهمه وقد أقنعت عقلها بذلك اقتناعًا تامًا لتبدو في نظر نفسها كالمجني عليها لا الجانية:

- وطبعًا هتلاقيلها أي مبرر، المهم إنك تحس بنفسك معاها.

رفع سبابته يحذرها بوجه قاتم تحولت فيه نظراته للإِظلام:

- "خلود!" لحد دلوقتي أنا ماسك أعصابي بالعافية، مش عايز أتغابي عليك! "

استفزته بسؤاله:

قولي؟ اتجوزتني ليه طالما مش طايقني؟ اتجوزتني ليه؟ رد عليا؟

اعترف بصدقٍ مزيحًا ذلك الثقل الجاثم على صدره:

غلطت يا ستي، مكانش المفروض أتنبيل أعمل كده!

حز بشدة في قلبها ما قاله، كأنه طعنها بخنجر حاد النصل قاصدًا قتلها، ومع ذلك

رفضت تصديقه موهمة نفسها أنه يفعل ذلك لتعذيب روحها العاشقة له، وبكل

غيظها تابعت ادعاءاتها:

-أقولك أنا، لأني الغبية اللي مشيت ورا قلبها، ورضيت تتجوزك وإنّ مش

بتحبها.. ما أنا اديتك فرصة وقولتلك سيبي وبلاش تظلمني معاك، بس إنت

وعدتني تفضل معايا ورضيت بيا على عيوي، ماتجيش دلوقتي تقولي غلطة، إنت

بتحبني لوحدي.

نظر لها بازدراءٍ، بدت في تلك اللحظة كاللعنة المهلكة، وقال بنبرة مفعمة بالندم:

-مكونتش أعرف إن كل ده هيحصل!

أصرت على تصديق ما رسمه عقلها، وأضافت.

لأ.. وانت عارف كويس إني زي ما أنا، بأحبك من زمان، وحببي ليك ماتقصش حاجة، ومستعدية أضحي بنفسني عشانك.

ضاق ذرعًا بأسلوبها المذل لاستجداء مشاعره، ورد بقساوة:

-كل الأفلام دي عشان تداري على عملتك السوداء، مافيش واحدة محترمة تعمل كده في جوزها!

علقت بمرارة وقهر، وقد تجمعت الدموع بكثافة في مقلتيها:

-أنا عاوزاك ليا، غلظت في إيه؟ قولي.

لم يجد ما يعلق به عليها، لكن سريعًا ما إربدت قسماته بالمزيد من الغضب الثائر حين بررت بوقاحة:

-كل ده عشان كام مرة حطيتك فيها برشام جايز تحس بمشاعري وتديني حبك؟ ما أنا كنت زي زيك؟ مقصرتش معاك، وشوفت مزاجك على الآخر!

أسلوب رخيص لا يصدر إلا من امرأة بائسة تحصر مشاعر المودة والحب في تلاحم الأجساد، لوح يصبغه أمام وجهها ينذرهما وقد تمكن منه غضبه الأعمى:

-ماتستفزينيش بكلامك، بدل ما رد السجون اللي جوايا يطلع، وتشوفي الوش الثاني!

نظرت له بعينيها الدامعتين وقد ارتفع نحيبها، منحها نظرة باردة قبل أن ينطق بعزم:

-ولا أقولك أنا سايلك البيت وهاغور في داهية!

لم تتحمل فكرة ابتعاده، وانفجرت ثائرة فيه بيأس غير مبالية بتبعات لسانها السليط:  
أيوه، عاوز تروح عندها.. جاز تحسسك إنك راجل وتنفع من غير برشام.

تخشب في مكانه مستنفرًا ودمائه المغلولة تندفع بغزارة لكامل جسده تزار بقوة  
وطالبة بالثأر لرجولته التي استهانت بها وحطت من قدر إمكانياته، تخطى ذروة  
غضبه ليلفت نحوها قائلاً بزمجرة قادمة من أعماق الحميم:

إنتي طلبتيها ونولتيها!

انزع قلبها من نظراتها التي توحشت، وتعايدته التي تحولت للشراسة، سألته والذعر  
يقفز من عينيها:

إنت... هتعمل إيه؟

توحشت عيناه أكثر قبل أن يجيب بصوت أجفل كامل بدنهما:

هاعرفك أنا راجل إزاي.. ومن غير برشام!

.....

أطبقت على جفنيها بقوة وهي تنن من الألم الذي انتشر في جسدها، لم تبك أسفًا  
على حالها بعد تعامله البربري معها، اعتبرت تلك الحالة الغرائزية الوحشية التي  
أطلق فيها العنان للحيوان القابع في الظلام بداخله تجربة شعورية جامحة غير  
اعتيادية بالنسبة لها، وأن لقاءه الحميمي بها بالأمس توثيقًا آخرًا لمشاعره الذكورية  
المفرطة، وإن كان على حساب إهانتها وتحقيرها لتعامل كامرأة لإشباع الشهوة  
وليس زوجة محبة، المهم أنها نالت مرادها واستنزفت قواه أيضًا، ظنت أنها خرجت  
من تلك المعركة المؤسفة منتصرة بجره إلى الفراش بعد هجران طويل، هكذا أقنعت

نفسها! رغم كون الحقيقة أنه لم يقدم لها حبًا عاصفًا، وإنما وحشية لا إنسانية تحت غطاء الغرام، أجبرت نفسها على النهوض والسير بتمهلٍ لتتفقدته بعد أن رحل عنها، كان بالخارج يرتدي حذائه، تصنعت الابتسام، وقالت:  
صباح الخير.

نظر لها باشمئزازٍ قبل أن يشيح بوجهه بعيدًا عنها، دنت منه قائلة ببرود امتنع منه أكثر:

-ها.. اتبسط معايا امبارح؟

تحفز في وقفته، وحاول ألا ينساق في حوار معها، لكنها تابعت بنفس الأسلوب المنفر:

-ده أنا مراتك وقومت بواجبي معاك، مش المفروض تشكرني؟

كانت بأئسة للحد الذي تتباهى فيه باعتدائه عليها، سدد لها نظرة احتقارية قبل أن ينطق بصوت اقشعرت من مجرد تخيل تكرار الأمر:

-حلو.. عشان من هنا ورايح هابقي كده!

ابتلعت ريقها الذي تحول لعلقمٍ مرير، ورغم خفقات قلبها المفقهور إلا أنها حافظت على ثبات ابتسامتها الباردة وهي ترد:

-وماله يا حبيبي، طالما يرضيك.

رمقها بنظرة دونية مشمئزة منها، لم يتخيل أن ينتهي بها الحال لتقبل ذلك وإن كان على غير رضاه، أطلق سبة لاعنة قبل أن يخرج من المنزل صافقًا الباب خلفه بعنفٍ انتفضت فيه على إثر قوة الصوت، تخلت "خلود" عن جمودها الزائف لتتحول

تعبيراتها للاحتقان، ونظراتها للاشتعال، تهدل كتفاها في خزيٍ ونهج صدرها علواً وهبوطاً في انكسارٍ، أي حياةٍ وضيعة ارتضت بها الآن لتضمن أن يكون لها وحدها بجسده لا بروحه!

لم يتخيل مطلقاً أن يتصرف كذئب مفترس ينهش طريدته بلا رحمة، خاصة في طقوس الحب الحميمية، اخترق جسدها لا لمنحها الرضا والسعادة الأبدية، وإنما لإذلالها، لجرح كبرياتها أكثر معتقداً بذلك أنه يلقنها درساً لاستهانتها برجولته التي تعد خطأ أحمرًا لا يُسمح بالمساس به أو تخطيه، ظلت المشاهد العنيفة حاضرة في ذهنه بالرغم من ابتعاده عن محيط المنزل وما يذكره بوحشيته المفرطة، تلك التي طالما استخدمها في محبسه لدرء الخطر، وكأن لـ "خلود" تعويذة مميتة لا تنتهي إلا حينما تزهب الأرواح البريئة، بدا الترياق الشافي لنفسه المعذبة هو رؤيتها، ودون ندمٍ تواجد منذ الساعات الأولى أمام محل عملها آملاً أن يتحدث معها، شعر بتلاحق دقائقه فجأة قبل أن يلمحها، استشعر وجودها بالقرب منه، وصوتها الرنان عبر الهاتف داعب أذنيه كنغمة مخصصة لتحفيز الحواس، أدار رأسه في اتجاهها، وتلك الابتسامة الحزينة قد شقت طريقها في وجهه، تعجب "فيروزة" من وجوده، ورددت بدهشةٍ حين وقفت قبالة:

إنت!

ارتكزت كامل نظرات "تميم" على وجهها ليملي عينيه منها متأكدًا بنفسه من كونها الصغيرة صاحبة الملامح المبهمة التي كانت تزوره من آن لآخر، تجددت بسمته بقليلٍ من الإشراق حين رأى حقيبتها مزدانة برسمة الطاووس المميزة وهي تدس بها

هاتفها وتخرج المفاتيح منها، هزت رأسها في استغرابٍ من تحديقه المطول، لم تنكر أن طريقته في التطلع إليها باسترابةٍ قد أقلقها، توترت من احتمالية كشف هويتها، لامس قلبها تيارًا خفيًا جعل تلك الرجفة تسري في عروقها من تلك النظرة العميقة التي نفذت إليها من عينيه .. انفرجت شفتاها في صدمة وهو يسألها مباشرة ليبدد شكوكه:

إتتي كنتي موجودة في حريقة محل عم "غريب"، أو نقول "أبو هيثم" الله يرحمه  
!؟ .....

.....

## الفصل الخامس والأربعون

تقاذفت شارات الفضول المتقد من عينيه وهو يتربح بتلهف تأكيد ما استشعره بكامل لا وعيه قبل إدراكه، لكنها لم تهتز قيد أنملة، أجادت الحفاظ على ثبات تعبيرات وجهها فبات غير مقروءٍ بالنسبة لها حين صدمها بسؤاله غير المتوقع، فقط رجفة خفيفة من رموش عينيها تداركتها سريعاً، مع خفقة لحظية متوترة عصفت بضلوعها، تصلبت "فيروزة" في وقتها وبقيت ساكنة للحظة، فإن لانت قليلاً لربما أدرك أنه أصابها في مقتل، وباستغرابٍ مفتعل رددت تسأله، وكأنها تسمع عن الحادثة المرعبة للمرة الأولى في حياتها:

حريقة إيه؟

اغتاظ "تميم" من ادعائها الإنكار، وقال مباشرة:

إنتي فهماني كويس.

أصرت على إنكارها قائلة:

-أنا مش عارفة حريقة إيه دي!

ثم أولته ظهرها لتقوم بفتح باب المحل وهي تتابع دون أن تنظر إليه حتى لا يكشف كذبها المرتب بعناية:

-شوف يا معلم "تميم"، الموضوع ومافيه إني تعبت شوية...

ولجت للداخل وأشعلت الإنارة لتضيء المكان ريثما تزيح الستائر الحاجبة للضوء، استرسلت في حديثها مضيئة بهدوء:

-يعني زي ما إنت شايف الشغل كله هنا على دماغني، مابخدش أجازات ولا بارتاح، كل الحكاية إرهاق وبس.. لا أكثر ولا أقل.

انتظر إلى أن استدارت نحوه لينظر في عينيها بتشكك، وسألها بنظرات ذات دلالة خاصة:

-إنتي متأكدة؟

وللمرة الأولى ركزت عينيها في عينيه لترد مبتسمة بثبات:

-أيوه.

ربما فشل في الحصول على إجابات لتساؤلاته الحائرة، لكنه فاز بنظرة خالية من الكراهية من عينيها مع ابتسامة رقيقة جعلته لوهلة يرتعد من احتمالية أن يكون مفتونًا بأي ما يصدر عنها، بادرت بسؤاله بطريقة عملية بحتة:

لو في حاجة تبع الشغل ممكن تطلبها، فأنا تحت أمرك.

بدت مهذبة معه أكثر من المعتاد مما أربكه بشكل غير اعتيادي، أخفض نظراته وتصنع الجدية معتذرًا:



-لا مؤاخذة عطلتك.

ابتسمت في لطافةٍ وهي ترد:

-ولا يهملك.

لم يجد "تميم" ما يعلق وسط ما تمنحه اليوم له من وداعة غير مسبوقه جعلته بشكل أو بآخر لا يتوقف عن التفكير فيها متناسيًا ليلة أمس المشحونة بالكراهية والوحشية .. انسحب في هدوء خارجًا من المحل، لكن العواصف الدائرة بداخله لم تخبت للحظة، التفت برأسه ليلقي عليها نظرة أخيرة عبر الزجاج، لم يشعر بنفسه وهو يبتسم .. ما أفسد عليه تلك اللحظات القيمة التي لا يجد من الكلمات المناسبة ما يوصفها هو ظهور اللزج "آسر"، منحه الأخير نظرة استعلاء واضحة وهو يمرق بجواره ليدلف من المحل غير عابئ بإلقاء التحية عليه، شعر الأول بغليان يستعر في صدره، بصعود الدماء المحتقنة إلى رأسه تحته على افتعال التشاجر معه من العدم لكونه لا يروقه دون سبب معلوم .. أسرع في خطاه محاولاً كبح أفكاره العدائية الجامحة آملًا في نفسه أن يستمر طاووسه الأبيض في التعامل مع أمثال ذلك السخيف بجفاء وصرامة.

.....

تركت ما في يدها لتتجه بخطوات متعجلة إلى رفيقتها فور أن رأتها تدخل المحل برشاقة وضحكاتهما المتحمسة الرنانة تسبقها إلى المكان، نادتها بترحيب وهي تقبل عليها لتحضنها في اشتياق واضح:

- "علا"، نورتي مكانك .. أخيرًا قررتي تيجي.

تراجعت عنها لتقول بحمايس وهي تدير رأسها للجانب:

مش هاتصدقني مين جاي معايا، ومصمم يشوفك.

تطلعت إليها في حيرة سريعة تلاشت فورًا حين رأت "آسر" يتقدم نحوها وهو يستند على عكازه المعدني، اندهاشة طفيفة كست تعبيراتها ما لبث أن تحولت لابتسامة فاترة وهو يقول لها:

صباح الخير يا آنسة "فيروزة".

ردت تهنئه بخروجه من المشفى وتعافيه من إصابته:

حمدلله على السلامة أستاذ "آسر".

تقدم خطوة أخرى نحوها ليقصص فارق المسافات بينهما، وتابع بنبرة متعشمة:

-ولو إني ليا لي عتاب عندك، عشان ما فيش ولا مرة فكرتي تيجي تشوفيني فيها.

اعتذرت منه بحرج:

-مكانش ينفع والله، أنا .. كنت مشغولة، وبعدين "علا" كانت متواجدة باستمرار مع حضرتك.

علق على كلمتها الأخيرة مرددًا باستنكارٍ:

-حضرتي؟ طب ليه الرسميات دي؟

غيرت مجرى الحوار معه، وسألته بنبرة ادعت فيها اهتمامها به وهي تستدير عائدة لطاوتها المستطيلة لتختبئ خلفها:

خرجت امتي؟

أجابها بعد زفيرٍ متعب وقد أحضرت له "علا" مقعدًا ليجلس عليه:

-النهاردة.

أضافت "علا" بمرح:

-ده زي العيال الصغيرة يا "فيرو"، كل يوم يشتكي ويزن عاوز يطلع من المستشفى،  
وانه زهق من الأعدة، وكلام كثير كده.

تجاهل عباراتها السخيفة وثبت نظراتها على "فيروزة" ليقول بابتسامة ذات دلالة  
خاصة:

-كان لازم تكوني أول حد أشوفه.

ضاقت عينها باسترابة بعد سماعها لتلك الجملة الموحية، تجاهلت التعليق عليها  
لمنع أي فرصة للتودد معها، ادعت انشغالها بتغليف أحد صناديق الهدايا، لكن  
صوت "علا" القريب منها سألها:

-بيتهياي مش فاضل كثير على جوازة "همسة" يا "فيرو"، صح؟

أجابت بلهجة جادة محاولة ألا تنظر في اتجاه "آسر"، حيث حرك الأخير مقعده  
ليدنو قريبًا من طاولتها:

-لأ .. على الأسبوع الجاي، وخالي سافر البلد يعزم قرايننا.

تنحنح "آسر" مهنتًا، وتلك الابتسامة المرسومة تحتل شفتاه:

-ألف مبروك، وعقبالك.

ردت فقط على الجزء الأول من مباركته قائلة:

-الله يبارك فيك..

أراح "آسر" ذراعه على طاولتها متعمداً أن تلمس يده كفها الذي يغلف الصندوق وهو يقول:

-وشكراً على مساعدتك.

سرت في جسدها قشعريرة منزعجة بمجرد أن شعرت بلمس يده المباغت على بشرتها، سحبت يدها كالمسوعة من أسفل كفه وهي ترمقه بنظرة محذرة، ثم أولته ظهرها قائلة بنبرة رسمية:

-أنا ما عملتش حاجة، وأي حد مكاني كان هيتصرف كده.

نقر بأصابعه على السطح الخشبي مصححاً لها بنظرة نافذة ليؤكد لها أنه يقصدها:  
-بس إنتي مش أي حد.

كانت تملك من الذكاء ما يخولها لفهم ما يرمي إليه ضمن حديثه، ومع ذلك فضلت أن تظل صامته لتقتصر في الكلام معه، سألتها بهدوء:

-آنسة "فيروزة"، تسمحيلي أحضر الفرح، ده لو مش هيضايقتك.  
صوتٍ تردد في عقلها يستنكر تطفله:

-يحضر بصفته إيه إن شاء الله؟!!!

حمدت الله في نفسها أن تفكيرها غير مسموع وإلا لشعر بنبرة الازدراء الظاهرة في صوتها، انتبهت لـ "علا" حين دعت دون انتظار ردها النهائي:

-أنا رايحة وش يا "آسر"، وأكيد إنت معايا، "فيرو" ومامتها مش هايمنعوا، احنا تبع العروسة، وده عادي..

ولتظهر دعم رفيقتها لدعوتها سألتها منتظرة تأييدها:

صح يا حبيبي؟

تنحنحت قبل أن ترد عليها بجدية، وقد باتت في موقف حرج بسبب تسرعها:

طبعًا.. هتنورونا يا أستاذ "آسر"، وكمان كل العيلة الكريمة.

أسبل نظراته قائلاً بتنهيده سعيدة:

-وأنا مش هتأخر..

حاولت ألا تنظر ناحيته طوال الفترة الطويلة التي مكث بها في المحل لكونها لا تشعر بالارتياح من نظراته الموجهة لشخصها فقط، وحتى حديثها كان محدودًا مقتضبًا، لا تعلق إلا في أضيق الحدود، على عكس "علا" التي لم تتوقف عن الثرثرة والضحك معه، وكأنها مستمتعة بكل لحظة تقضيها في حضوره.

.....

أراحت ظهرها في المغطس بعد أن ملأته بالمياه الدافئة، آتات خافته موجوعة انفلتت من بين شفيتها وهي بالكاد تحاول استعادة قوتها البدنية التي استنزفت بالأمس، ما زالت آثار وحشيته مطبوعة على بشرتها، ومع ذلك بدت راضية كليًا عما وصلت إليه، اعتبرت ما حدث من زوجها من لقاء غرائزي بحث يخلو من أدنى المشاعر بأنه الوجه المرادف للحب الشغوف الذي يتضمن في طياته رغبات عنيفة، لا مانع من بعض القسوة طالما أنه يجدها قادرة على تلبية احتياجاته، لاقت فكرة كونها زوجته المطيعة حيث مباح له أن يفعل بها ما يشاء استحسانًا كبيرًا في تفكيرها المريض، لتفعل المستحيل حتى لا تسرقه منها غيرها، لتكن معه كالعاهرة في

الفراش إن كان يستهويه الأمر، لا يهم! ففي النهاية استحوذت عليه، وقضى ليلته معها يطارحها الغرام.

عززت تلك الفكرة كثيرًا لتبرر تصرفه بل وربما تمتدحه على قدراته الفائقة، لم تهتم بإهانتها، بإذلالها، بتقليل منزلتها واحتقارها بتلك الصورة البشعة، المهم ألا تتحول لبضاعة راكدة في عينيه، نهضت "خلود" من المغطس لتلف نفسها بروبها القطني حتى يجف بدنها، خرجت من الحمام متجهة إلى غرفها نومها، تأملت الفراش غير المرتب الذي ما زال يحتفظ بأغظيته، ابتسمت في انتشاء وعيناها تتوهجان بوميض غريب، لم تكن بحاجة لجرعات المنشط لتحصل على غايتها منه، فالليلة السابقة كانت جامحة ومختلفة، توقعت أن يكرر الأمر للتباهي بفحولته العظيمة، وهيات نفسها للتجاوب معه متناسية تحذيرات الطبيب بضرورة تجنب اللقاءات الزوجية في تلك الفترة حرصًا على اكتمال الحمل، توقفت عن التحديق في الفراش حين سمعت قرع جرس الباب، ترددت في فتحه قبل أن تبدل ثيابها، ومع ذلك خرجت لتتفقد الطارق من العين السحرية، وضعت يدها على المقبض لتديره وتستقبل والدتها التي هتفت تسألها بأنفاس لاهثة:

إنتي فين يا بت من بدري؟ ما بتريش ليه على التليفون؟

ابتسامة صغيرة جانبية تشكلت على شفيتها وهي تدعوها للدخول:

خشي الأول يامه، هنتكلم واحنا واقفين؟

خطت للداخل وهي تتأمل روبها وشعرها المبتل، سألتها بفضول:

هو إنتي كنتي بتستحي ولا إيه؟

للحظة طراً ببال والدتها أن تكون ابنتها قد خالفت تعليمات الطبيب لتستجيب  
لرغبة زوجها، فنطقت على الفور معبرة عما يدور في رأسها بصوتٍ مستنكر:  
-اوعي تكوني يا بت نمتي مع جوزك وآ....

بترت عبارتها عن عمد وهي تنظر ملياً لابنتها لتتأكد من هواجسها، أصابت هدفها  
فتبدلت تقاسيم وجهها للغضب، قبضت على ذراعها تجرها منه خلفها وهي توبخها:  
-إنتي عاوزة تضيعي اللي في بطنك بجريك ورا حبيب القلب.

تأوهت "خلود" من الألم الشديد الذي انتشر في عضلات ذراعها مع هز والدتها  
العنيف له قبل أن تتوسلها:  
-بالراحة يامه، مش قادرة، جسي مكسر.

استغربت "بثينة" من ردة فعلها رغم كونها لم تتعامل بعدائية معها، وسألتها:  
في إيه يا بت مالك؟

ولكونها تتطفل على ما يخص علاقة ابنتها الحميمة بزوجها استطاعت أن  
تستدرجها في الحديث لتفهم سبب أوجاعها، شهقت لاطمة على صدرها لتتهف  
باستهجان:

-يخربيت عقلك؟ وإزاي توافقي على كده؟ إنتي مش حاسة بنفسك عملتي إيه؟  
قالت ببرودٍ استفز والدتها بشدة:  
-أنا مراته، وبأشوف مزاجه.

لم تتحمل غبائها فلكرتها بغيظٍ في جانب صدرها وهي تعنفها:

-الله يحرقك، كنتي كلمتي نصحتك تعملي إيه بدل الوحلة السوداء دي.

شهقة أخرى مفروعة امتزجت مع ما يشبه العويل وهي تشير بعينيها نحو الأسفل:

يا نصيبي، إيه ده؟

أخفضت ابنتها نظراتها نحو بقعة الدماء الصغيرة التي انزلت من بين ساقها لتلوث الأرضية، جحظت أمها بعينيها، وصرخت في وجهها تلومها:

-شوفتي جنانك وصلنا لإيه؟ ضيعتي الواد اللي كان هيقش كل حاجة!

جزع قلب "خلود" بشدة وأحست بانقباضة مميتة تعتصره وقد توقعت الأسوأ، إجهاض جنينها قبل أن يكتب له الحياة، اهتز جسدها بشدة، وبدأت فاصلاً من اللطم والعويل على صدغيها بعد أن تداركت تبعات كارثة تلك الليلة المحفولة بالمخاطر والإهانات .. أسرع "بثينة" تجذبها من معصمها نحو غرفة النوم قائلة بحزم، ودون أن تمنحها أي فرصة للاختيار:

-انجري قدامي غيري هدمك عشان نروح أوام للدكتور يشوفلنا حل..

بالطبع لم يكف لسانها عن لعنها فأضافت:

منك لله يا شيخة، تخطيبي كله باظ!!

.....

نظرة عميقة لا حدود لنهايتها تركزت على أمواج البحر المتلاطمة وهو يستند بجسده على سيارته التي صفها بالقرب من منطقة الصخور الحجرية في نهاية الشاطئ الرملي، تأملها بعقلٍ شارد، حيث تكالبت مشاهد ليلة أمس في رأسه لتغص عليه الصفاء الوقتي الذي حاز عليه بصحبة طاوسه قبل قليل، عاد الحزن



ليحتل قلبه ويستأثر به من جديد، لم يجذب "تميم" أبدًا أن يصبح مع زوجته الشخص الذي كان عليه بالأمس، وإن كانت فعلته بغرض الثأر لرجولته المنتهكة على يد من أئتمنها على نفسه قبل جسده، لكنه نبذ تصرفه الجامح بشدة .. خنفته الدموع ندمًا، لن ينساق وراء تناطحت أفكاره ما بين ثائرة ورافضة لما ارتبكه، تحفزت أنفاسه وامتلاً صدره غضبًا لمجرد أن رنت كلمات "خلود" المستفزة في عقله، وكأنها لم ترتكب أي خطيئة تلام عليها، فرك وجهه في تعبٍ وهو يزفر ببطءٍ طامعًا أن يتمسك ببقايا عقله المشحون، لم يذهب إلى عمله، ولم يرغب في رؤية أحدهم، لينفرد لبعض الوقت بنفسه على ثورته التي تحرق أحشائه تستكين.

ألقي نظرة فاترة على شاشة هاتفه المحمول حين رأى اسم والدته ينير عليها، تجاهل الرد عليها في المرة الأولى، لكن حين ألحت عليه اضطر أن يجيب حتى لا تقلق، وبصوتٍ متحشرح قليلاً قال:

-أيوه يامه، في حاجة مهمة؟

لاحقته بأسئلتها القلقة:

-إنت فينك يا "تميم"؟ أبوك قالب عليك الدنيا، لا بترد ولا بتكلم حد، حصل حاجة؟

تنهد مليًا قبل أن يدعي كذبًا:

-ورايا كام مصلحة بأخلصها.

سألته مستفهمة:

تبع الدكان؟

رد نافيًا:

-لأ، حد من صحابي قاصدني في خدمة، وأنا معاه بأنجزها.

قالت بتفهم:

-وماله يا ابني، خلاص أنا هاطمن أبوك، ولما تفضى عدي عليا، عملالك ورق العنب اللي بتحبه، هستناك.

حك ذقنه مغمغماً بفتور:

-ربنا يسهل.

ألحت عليه بطريقتها الأمومية الناجحة في اجتذابه:

-والله ما هادوقه إلا لما تيجي، يرضيك أمك تفضل جعانة؟

وكأنه بحاجة ماسة إلى أحضانها الدافئة لتريح عنه همومه، لم يرفض طلبها، وابتسم بعدها:

طيب.. هاجيلك يامه.

.....

يا حاج "بدير"!

نادت بصراخ مرتفع تعمدت أن تلفت به أنظار المارة وتحشد به المتواجدين بالزقاق ليكونوا على رؤوس الأشهاد فيما ستفعله لاحقًا، تلك النظرة الخبيثة الماكرة توهجت في عينيها وهي تتأكد من تحقيق مسعاها الذي أتت لأجله، وبالرغم من كون حالة ابنتها بعد فحص دقيق لرحمها وأنسجتها من قبل طبييها المتابع لحملها كانت لا

تستدعي كل تلك الضجة إلا أنها كانت الفرصة المثالية لتحقيق أطماع لثيمة، فالطبيب أخبرهما ببساطة أن بقع الدماء النازفة هي ردة فعل طبيعية بعد لقاء حميمي جامع من غير المفترض أن يتم في تلك الظروف، لكن ما زالت حالة الجنين مستقرة لا تدعو للخوف (حاليًا) .. ومع تكرارها لذلك النداء الغاضب تجمع الكثيرون أمام أبواب الدكان، خرج إليها صاحبه وعلامات الاندهاش تكسو وجهه، وقف قبالتها ينظر إليها بحدة، لكنها تابعت ملقاة اللوم بأكمله على ابنه البكري:

هي دي الأمانة اللي ابنك المفروض يحافظ عليها!؟

سألها "بدير" في ضيق بصوته الأجلح الحازم:

في إيه يا "بثينة؟ جاية بزعايب أمشير ليه؟

زمجرت هادرة بكل ما فيها من عصبية لتبدو صاحبة حق تطالب بالقصاص العادل لفلذة كبدها المكلوبة على أمرها:

-بقي أنا يا حاج يا بتاع ربنا أجوز بنتي لابنك بعد ما استنته بالسنين ورفضت تقابل أي حد اتقدملها عشان سواد عيونه، وهو يعمل فيها كده!!؟

تطلع بعينين مزعوجتين سريعًا في أوجه الحضور وقد لاحظت الهمهمات الفضولية الدائرة من حوله قبل أن يرد بحدة:

-أنا مش فاهم حاجة، ما تقولي "تميم" عمل إيه؟

تابعت نديها الساخط مستخدمة ذراعيها في التلويح:

طب بلاش تقول إنها مراته قبل ما تكون بنت خالته، يرحمها عشان اللي في بطنها، خلاص الرحمة اتعدمت من قلبه!

نقد صبره من مماطلتها المتعمدة لتشويه سمعة ابنه على مرأى ومسمع من الحضور،  
وصاح بها:

- ما تنطقي وتقولني في إيه بدل ما إنتي بتكلمي بالألغاز كده!  
أرادت أن تبدو منكسرة، مهیضة الجناح حين أجابته بنواح  
-يرضيك إنه يضربها ويعدمها العافية عشان اتمنعت عليه لأجل مصلحة ابنه اللي في  
بطنها..

تعقدت تعابيره في استنكارٍ حائر وهي تراوغه بالكلمات المثيرة للشكوك، فسألها  
بصوتٍ خبت حدته قليلاً:  
قصداً إيه؟

أجابت مسترسلة بأسلوب فج استطاعت به الحصول على مهمات ولمزات  
مستنكرة غاضبة ممن حولها:

-إيش حال ما كان الدكتور منبه إنه مايقربش منها، وأنا موصياها يراعي ربنا فيها،  
يطنش ده كله، ويركب دماغه، إن شاء تسقط فيها!

كانت وقحة بشكلٍ يدعو للنفور للبوح بأسرار البيوت علناً دون رادع، عنفها بنبرة  
اخشوشنت على الأخير.

ده كلام مايصحش يتقال هنا يا "بشينة"! عيب كده، تعالي تتكلم عندنا في البيت.  
اعترضت عليه بشدة:

-أنا مش رايحة معاك في حتة يا حاج، وبنتي هتفضل عندي لحد ما تشوفلي صرفة  
مع ابنك.

انضم "هيثم" إلى المشادة المحترمة متسائلاً بغرابة:

هو في إيه يامه؟ جاية عند الدكان ليه؟

وجهت أنظارها النارية نحوه لتجيبه قاصدة استثارة مشاعره الأخوية:

فيه إن ابن خالتك الفتوة ضرب أختك وعدمها العافية، ها يا ابن بطني، هاتسكت عن اللي عمله؟

نكست رأسها في أسف وادعت أنها تمسح دموعها غير الموجودة بطرف حجابها قبل أن تكمل:

دي يا حبة عيني كانت هاتروح فيها، لولا ستر ربنا ...

تهنعت بنواح عالٍ مكلمة استفزازها لمشاعره الذكورية وتحفيزه ضده للثأر منه:

آل والمعدول ابنك يوم ما "هيثم" اتهف في عقله واتصرف بطيش وغلط عدمه العافية! ده مخلاش فيه حته سليمة.

نجحت بمكرها الداهية في قلب ابنها على زوج أختها، انتفض "هيثم" ثأراً ليقول بوعيد شرس:

-وربنا ما هاسكت، هي أده عشان يمد إيده عليها

تلك النظرة الخبيثة الفرحة برقت في عينيها قبل أن تخفيها لتلول بانكسار:

يا بهدلتنا من بعدك يا "غريب"، الكل عاملنا ملطشة للي رايح واللي جاي.

هتف بها "بدير" بصرامة:

لمي الدور يا "بثينة" .. بنتك زي بنتي، وأنا اللي هاجيبك حقها.

احتج عليه "هيثم" بعنادٍ أظهر فيه عدائته الصريحة:

حق أختي هاخده منه يا جوز خالتي، هي معدمتيش!

كالأفعى السامة نجحت "بثينة" في وغر صدور الجميع وشحنهم بالكراهية والغضب، بل وقلب الطاولة على رأس "تميم" لتضعه في موقف حرج متخاذل مع أبيه أولاً قبل صدامه الشرس مع "هيثم"، كانت نظراتها المنتصرة تؤكد إحساسها بالنشوة من أدائها لدورها ببراءة، والحق يُقال أن "محرز" من قدم لها المشورة لتطيح بالابن المفضل عن عرش قوته في ضربة واحدة سهلة مستغلة وحشيته مع ابنتها لصالحها.

.....

أكتفى بتناول القليل من ورق العنب الذي أعدته والدته إرضاءً لها وتقديرًا لتعبها في إعداده، كان شهياً بالقدر الذي جعله يرغب في المزيد، لكن حالته المزاجية لم تسمح له بالاستمتاع بتذوقه، اقتضب في الحديث معها رغم محاولاتها المتنوعة لاستخراج الكلمات من جوفه لتعرف سبب عبوسه والهموم المقروءة في عينيه، كان على وشك الانصراف حين تلقي مكالمة هاتفية من ابن خالته يطلب فيها رؤيته في التو والحال، توقع "تميم" أن يكون للأمر صلة بتجهيزات العرس، ولم يطرأ بباله مطلقاً تسبب خالته في جلبه من شأنها تدمير سمعته وشهامته بين أوساط رجال منطقته الشعبية.

فتح الباب لاستقباله لكنه تلقى لكمة عنيفة من "هيثم" أصابت فكه السفلي وهو يسبه:

-بتشطر على أختي يا (...)?

في البداية ترنح من المفاجأة، لكن ما لبث أن استعاد تماسكه ليرد متسائلاً بخشونة وقد توحشت نظراته:

-إنت اتجننت؟

رد غير مبالٍ وهو يقبل عليه متحفرًا للتضارب معه:

-ده الجنان الأصلي هايطلع عليك دلوقتي!

رفع "هيشم" ذراعه ليلكمه مجددًا، لكن قبضته وجدت ذراع "تميم" تصدها وتحول دون وصولها لوجهه، بل وبيده الأخرى المتكورة سدده له واحدة طرحته أرضًا إلى خارج المنزل من شدة قوتها، تأوه "هيشم" من الألم وهو يستند على مرفقه لينهض، بينما اندفع "تميم" للخارج مغلقًا الباب من خلفه ليمنع والدته من مشاهدة شجارهما العنيف، وإن كانت تصرخ من ورائه في جزع وصدمة.

انحنى على ابن خالته ليجذبه من تلايبه، والآخر يسبه ويلعنه، كان "تميم" يفوقه في الطول، والقوة الجسمانية، ناهيك عن معرفته الجيدة بأساليب العنف ومواضع الإيلام التي يجيدها جراء بقاءه في السجن لسنواتٍ طويلة، وبكل غيظه وغضبه المتجمع فيه دفعه دفعًا للطابق العلوي للانفراد به هناك بعيدًا عن عائلته، وحفظًا لماء الوجه حاول "هيشم" عرقلته والتصدي له بالركل تارة، وباللكم تارة أخرى في معركة غير متكافئة بينهما لفارق القوى الجسمانية ولصالح "تميم".

تجاذب الاثنان بشراسة وتلاحما جسديًا فوق سطح المنزل، هدر "هيشم" منفعلًا يلومه:

-بتغابي عليها ليه؟ لو فآكرها من غير ضره تبقي غلطان!

حال دون وصوله إليه بالإمساك بقبضته ولف ذراعه خلف ظهره ليعيقه مرددًا:

-إنت مش فاهم حاجة.

رد يتوعده بكامل عصبيته العمياء:

-ولا عايز أفهم غير إنك مديت إيدك على أختي! وأنا مش هاسيها تعدي كده.

نجح "تميم" في لف ذراعه حول عنقه، أحكم سيطرته عليه وجعله مقيدًا غير قادرٍ على الإفلات منه قبل أن يدافع عن نفسه هاتقًا:

-إنت عارف أصلًا هي عملت إيه؟ ولا عرق الرجولة نط فيك فجأة فجاي تجربه فيا؟

اغتاظ "هيثم" من استخفافه به، وصاح في غضبٍ متعاضم وهو ينتفض بجسده ليتخلص من قبضتيه:

-أنا راجل غضب عن عين أتخن تخين في الحتة دي!!

تحرر منه وتراجع وهو يلهث في انفعالٍ، فواصل "تميم" القول بنوعٍ من السخرية المطعمة بالسخط:

-لأ جدع ياخويا، مافيش أرجل منك، بس قبل ما تيجي تغلطني مع مراتي، اللي بينا حاجة ماتخصكش.

رد عليه بعينين يتطاير منهما الشرر:

-لأ يخصني طالما عاوز تنام معاها عافية!



غامت عينا "تميم" وغلفهما غضب مخيف، انقض عليه يجذبه من ياقتيه وهو يصيح مستنكرا وقاحة ما تنطق به، خاصة فيما يتعلق بحياته الزوجية الخاصة:

-إنت بتقول إيه؟

قال غير مبالٍ بردة فعله العنيفة:

-اللي سمعته.. "خلود" ليها أهل يعرفوا يجيبوا حقها من حيوان زيك مرعاش ربنا فيها ولا اللي في بطنها!

تفاجأ "تميم" من تلميحه الصريح عن ليلته الحميمية مع زوجته، وكأنه حوارًا مباح الكلام فيه بأريحية، وإن كان ما يعرفه قدرًا بسيطًا فقط لاستفزازه إلا أنه لم يكن - مطلقًا وأبدًا- ليقبل بتداول حياته الشخصية على ألسن الغرباء قبل الأقرباء .. كز على أسنانه متسائلًا بأنفاس مختنقة، ووجهه يلمع بوهج كأنه يفح نارًا حامية:

-هي وصلت لكده؟

بجراءة وعزم رد عليه "هيثم" غير معتقد بتفكيره الضيق بأنه يمنحه الحل السحري في نهاية المطاف بعد صراع وتخبط عظيمين بالقول دون احترازٍ وبنية صريحة:

-أه، و"خلود" مش رجعالك تاني.. اللي ما يصونش أختي ويقدرها ما يلزمناش

!! .....

.....

## الفصل السادس والأربعون

العائلة .. دومًا تأتي في المقام الأول لديه، حين تتكالب المصائب فوق الرؤوس، تتكاثر الأزمات والمحن، تكون هي السند القوي الذي يشد من الأزرق؛ وإن انفرط جبل الود والوصال بين أفرادها باتوا مهددين بالتفرق والضياع .. انحدرت أخلاقها لتبوح بما يدور في فراش الزوجية دون حياءٍ أو وقار، استباححت الخوض في شرفه متلذذة بتحقيق انتقامها فيه، والنيل من سمعة العائلة. كل ما شعر به "تميم" حاليًا هو ضرب من الاستياء العميق بعد الفضيحة التي لحقت به، بدا في نظر نفسه كحيوانات البرية، يجري وراء غرائزه، ولا يختلف عنهم إلا بلسانٍ ناطق.

ظلت يده قابضة على تلايب ابنه خالته؛ لكن نظراته احتوت على غضب مخيف. هزه بعنف وهو يسأله بأنفاس متلاحقة، وقد استبد به حنقه:

هي اللي قالتك كده؟

رد "هيثم" بصوته الأجهش:

مش محتاجة تقول، وأنا مش هستنى لما تموتها عشان أدافع عنها، ولا أحميها منك.

تحركت قبضته لتطبق على عنقه، فأنحشرت أنفاس ابن خالته في جوفه، ولم تجد لها المفر للانطلاق أو الدخول. قست نظراته والتهبت حين هدر به موضحًا:

-الواحدة لما تطلع أسرار بيتها لمين ما كان ما تستهلش تكون على اسمي!!  
منعه من التماذي في عنفه البدني معه صوت أبيه المنادي به، بكل ما أوتي من قوة:  
- "تميم"!

تجمد في مكانه، وعروقه منتفخة بدمائه الشائرة؛ لكن لم ترتخ قبضته عن عنق "هيثم"، في حين قاتل الأخير للنجاة بحياته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على يده. تحرك "بدير" على الفور ليقف قبالة، لإيقافه عن التصرف برعونة، وسحب ذراعه من على مجرى تنفسه المسدود أمرًا إياه:

-سيه يا "تميم"!

بصعوبة تمكن من إقناعه بتركه، فسعل ابن خالته بألم طلبًا للهواء لينعش به رثتيه، بقيت نظراته المليئة بكل ذلك الغضب مرتكزة على وجهه وهو يقول:

لو على القتل ما فيش أسهل منه، بس أنا حسابي مش معاك...

توقف للحظة ليلتقط أنفاسه، وربما لإضفاء المزيد من الرعب في كلامه، قبل أن يتابع بوعيد مهلك:

حسابي مع اللي اتجوزتها!

حذره "هيثم" بصوته المبحوح:

إياك تقربلها، هتلاقيني واقفلك! حتى لو دخلت السجن

هنا صاح "بدير" بنفاذ صبر:

-ولا كلمة زيادة إنتو الاتنين!

ثم التفت موجهاً حديثه لـ "هيثم" يأمره:

-انزل من هنا يالا، مش وراك شغل متعطل وطلبية توصلها؟

رد معترضاً بنظراتٍ مغلولة:

-أيوه يا جوز خالتي، بس أختي آ....

قاطعته بصوته الأجش الصارم:

-هي كلمة! الموضوع عندي، وأنا هاتصرف فيه، وأختك لو ليها حق هيرجع

قال بنوعٍ من التهكم، دون أن تبتعد نظراته عن "تميم":

هنشوف!

وقبل أن ينطق ابن خالته هرب من محيطه متجهاً نحو باب السطح، استوقف

"بدير" ابنه بوضع يده على كتفه، واستطرد ينصحه بحنكته:

-ماينفعش تاخذ قرار، وإنت في الحالة دي.

انفجر صائخاً به بشراسة:

-حالة إيه ياأبا؟ إنت ماسمعتش بيقول إيه؟

رد عليه بضيقٍ لم يقل عنه؛ ولكنه كان أكثر هدوءاً في التعامل مع الموقف الحرج:

-ما هو أمه منها لله رمت الإسفين في الدكان، وقلبتة آ....

حملق فيه مصدومًا من الكارثة الأخرى التي عرفها للتو، لم يأتِ بمخيلته أن يتم فضحه علنًا، وتداول ما حدث بينهما من عنف زوجي على ألسن العامة؛ وكأن شرفه مسألة عادية يجوز الخوض فيه دون احترازٍ، قاطعه بصوتٍ أشد تشنّجًا:

-كمان، يعني أمة لا إله إلا الله كلها عرفت؟

حاول تخفيف وطأة الأمر عليه قائلاً:

-اهدى بس، وكل حاجة هتتحل.

تقوس فمه مرددًا في سخطٍ متهمك، وقد بات قاب قوسين أو أدنى من التحول لحالته الإجرامية السابقة:

-تحل إيه؟ ده ناقص يعلقوا يُفط في قلب الحتة، ويكتبوا فيها شوفتوا "تميم" عمل إيه مع مراته في أوضة النوم!!!!

لم يجذب أبدًا وضع ابنه في مثل ذلك النزاع العائلي، والتقليل من شأنه، لذا رد عليه "بدير" بحذرٍ، وهو يتطلع إليه في حزنٍ:

-مش للدرجادي يا ابني، يومين وكل حاجة هتدى، بلاش تكبر الحكاية في ساعة شيطان.

أظلمت عيناه، واختفت تعابير الرحمة منهما ليحل الشر المطلق، ثم قال بصوتٍ بدا أتياً من الجحيم:

-هي كبرت لوحدها!

حرق فيه والده بنظرات حائرة محاولاً تبين ما ينتوي فعله؛ لكن تركه "تميم" واندفع ركضاً بكل ما يعتريه من غضب، غيظ، غل، أي مشاعر عدائية صريحة- نحو باب السطح قاصداً إشعال الأرض بمن عليها، لحق به "بدير" يرجوه:  
-استنى يا "تميم".

لكنه فشل في الوصول إليه أمام خطواته السريعة، هبط الدرجات قفزاً لیتجه للأسفل، وجد والدته في انتظاره، اعترضت طريقه فاردة ذراعيها في الهواء؛ وخصوصاً بعد أن عرفت أسباب ثورته العارمة. سألته بقلب يدق في خوف، وعلامات الارتعاب مرسومة على صفحة وجهها:

-رايح فين يا ابني؟ كلمني وقولي؟

لم ينطق بكلمة؛ لا جدوى من الحديث العقلاني، الرد العنيف هو كل ما يفكر به حالياً، حاول المناص منها؛ لكنها سدت عليه الطريق بجسدها المترهل وخطاها الثقيلة. لم يمساها، ورجب في إزاحتها بالصراخ بها دون دفعها بالصياح بصوته الهائج:  
-حاسبي يامه.

تعلقت بذراعيه، وقبضت عليهما بيديها المرتجفة. نظرت له " ونيسة" من بين عينيها الباكتين خوفاً عليه تتوسله:

-بالله عليك ما تروح عندها وانت كده.

وكانها تتحدث عن أي شيء يمكن التفاوضي عنه سوى ذكوره المستباحة حالياً، لا بديل عن الثأر لرجولته، هدر بها بعصبية، وقد توحشت نظراته:

-يووه، حاسبي من سكتي...

اختنق صوته، وبدا وكأنه يفح نارًا حين تابع:

-أنا بأغلي من جوايا يامه، وهاصور قتيل السعادي.

انقبض قلبها بين ضلوعها، أحست بروحها تقتلع من جسدها، لا يمكنها بأي شكل أن تسمح له بالذهاب، حتمًا سيودي بنفسه للتهلكة، لذا ردت تستجديه بخوفها الغريزي النابع منها:

-إنت عاوزني أموت بحسرتي لما أسبيك تروح عندهم وترتكب جناية وتخش السجن من تاني؟!

زمجر معقبًا عليها، دون أن يأبه لما يمكن أن يحدث:

-إن شاء الله أتعدم حتى، أنا مش هاعدي الليلة دي على خير!

نظرت "ونيسة" من فوق كتفه لتجد زوجها يهبط الدرجات، صاحت به مستغيثة: حوشه يا "بدير".

التفت ابنها عفويًا برأسه للخلف ليجد والده مقبلًا عليه، وامتدت يده لتمسك به من كتفه، رجاه الأخير بصوته الرزين:

-تعالى يا "تميم" معايا، واستهدى بالله كده.

رد برفض قاطع:

-لا يا بابا.

رمقه بنظرة حادة، وسأله:

-بتعصاني؟

تملكته نزعة الاعتزاز برجولته والثأر لها، اعتذر منه بصوته اللاهث من فرط انفعاله،  
قاطعًا عليه كل السبل لأي مفاوضات:

-سامحني يا حاج، بس المرادي الكلام مايتسكتش عليه.

في تلك الأثناء، خرج من غرفته، ووقف عند أعتاب المنزل، لم يفهم سبب الجلبة  
الدائرة بالخارج؛ لكن الجو العام ينذر بكارثة بالفعل حدثت .. وليملمم شتات  
الأمر، دك بعكازه الخشبي الأرض بقوة اختلطت مع صوته الجهوري الأجش  
لينادييه:

- "تميم!"

كان صوت جده "سلطان" كفيلاً بتثبيته في مكانه، ليس فقط رهبة منه؛ وإنما  
احترامًا وتوقيرًا لمكانته الغالية في قلبه. التفت حفيده نحو برأسه يرمقه بعينين  
تقدحان بالغضب، ومع ذلك أجابه بتمهل محاولاً ألا يظهر غضبه:  
أيوه يا جدي.

أمره بلهجة من يقرر عنه بحسم لا من يخير:

-مافيش نزول من البيت.

ضغط على شفتيه محتجًا بحذر:

-بس آ...

قاطعته بحزم، وبضربة أخرى من عكازه الغليط على الأرضية:

-هي كلمة، سمعت!!!



كبح غضبه الثائر - والمتراقص في عينيه - ليرد بأنفاس هادرة حارقة:

- ماشي يا جدي.

أمره "سلطان" بصرامة:

- تعالي ورايا.

وكان حضوره كطوق النجاة لغريق أوشك على لفظ أنفاسه الأخيرة، ربت "بدير" على كتفه يحثه بصوتٍ خفيض:

- ورا جدك، اتحرك يا ابني.

كان يدفعه دفعًا للتحرك واللحاق بجده، ليثبط ما يعتريه من ثورة غاضبة مهددة بتخريب كل شيء، بناءً على سموم تلك الأفعى الخبيثة؛ "بثينة". تنفست "ونيسة" الصعداء، وتمتت بتضرع كبير:

- الحمد لله يا رب، اهديه وابعده عنه شيطانه.

شتان الفارق بين الشقيقتين؛ إحداهما وديعة، نقية القلب، لا تنطق إلا بالطيب، والأخرى حرباء، مأكرة، تبث شرورًا لا حصر لها.

.....

أفادها الجلوس في منزل والدتها قليلاً بعد التوتر المخيف الذي عاشته لحظة أن رأت بقع الدماء تنساب من جسدها، توجهت إلى الطبيب المتابع لحالتها، وبخها الأخير لتقصيرها في الحفاظ على صحة جنينها، ومنعها منعًا تامًا من إقامة أي لقاء حميمي مع زوجها، وإلا ستكون ردة الفعل غير مضمونة؛ نظرًا لتعرضها لخطر النزف المبكر من رحمها، والذي يعد مؤشرًا غير مطمئن في الأشهر الأولى من الحمل.

خرجت "خلود" من غرفتها وهي تحمل بيدها كوبًا من المشروب العشبي الدافئ الذي أعدته، لاحظت الصدام الكلامي الحاد بين والدتها وشقيقها عن أحدهم، وتطور الموقف لبعد خطير، لم تفهم سببه، فارتشفت القليل، وتساءلت ببرود:

- هو في إيه؟ مين ده اللي بتكلموا عنه؟

لوت "بثينة" ثغرها، وقالت من زاوية فمها باستهجانٍ غامض:

-المعدول .. هو في غيره!

تقلص وجهها، وجزع قلبها في ارتعابٍ قلق. ابتلعت ريقها، وتساءلت:

قصدك مين؟

جاوب "هيثم" عن والدتها حاسمًا ما لم تتفقه إليه بعد:

هي هتفضل هنا لحد ما نشوف صرفة مع جوزك.

انزع قلبها مرة أخرى، وغمغمت بصدريّ يلهج، وعيناها تبرقان في توجيسٍ مرعب:

- "تميم".

علقت عليه "بثينة" بمزيد من السخط المهين:

-أيوه، بلطجي المنطقة.

تركت "خلود" الكوب من يدها، ووضعت على أقرب طاولة، اتجهت لتقف بينهما،

ووزعت أنظارها متسائلة بقلبٍ يدق في عنفٍ من قلقها الزائد:

-إنتو عملتوا إيه؟

تفرست في تعبيرات وجهيها، كلاهما كانا يبدوان منزعجان، وربما الأسوأ، ركزت نظرها مع أمها تُلح عليها بتوترٍ رهيب:

-قولي يامه عملتي إيه مع "تميم"؟

ابتسمت في انتشاء، وأجابت رافعة حاجبها للأعلى في تفاخر:

عرفته غلظه، بس بطريقتي!

أدركت من تلك النظرة التي تحتل وجهها، ومن إيماءاتها أنها ارتكبت كارثة مدمرة، وبغفوية نطقت معبرة عما تشعر به:

-يبقى عملتي مصيبة..

أكتفت "بثينة" بالنظر نحوها بعينيها الحاقدين، في حين التفتت "خلود" نحو شقيقها قابضة على ذراعه، هزته بعصبية منه وهي تسأله:

-قولي يا "هيثم" إيه اللي حصل؟

أطبق على شفتيه، كأنه لم يسمع شيئاً، أمعنت النظر في الخدوش وآثار الحمرة في وجهه وحول عنقه، اتسعت نظراتها، وسألته بحلقٍ جاف، وهي تتمنى في نفسها ألا تكون شكوكها حقيقية:

-وانت متبهدل كده ليه؟

أجابها بنوعٍ من التفاخر، وإن كان أغلب حديثه من وحي خياله:

-كنت بأدب جوزك بعد ما أمك سيحِتله قصاد الدكان، سخنتني عليه، وروحت أجيب حَقك منه.

جحظت بعينها في صدمة، تخيلت المشهد في عقلها؛ وإن لم تكن حاضرة، تمزق قلبها بين ضلوعها، أدركت أنها بفعلة والدتها الهوجاء قد منحت "تميم" الفرصة الذهبية للخلاص منها، وللأبد، وبأسباب منطقية تعطيه العذر للتخلي عنها، ونبذها خارج حياته. لطمت "خلود" على صدغها عدة مرات في ألم شديد لا يتحمله إنسان عاقل، وصوت نواحها يرن في أرجاء المنزل:

يا لهوي، يا لهوي، يا لهوي!

لم تكثرث "بثينة" بحالة الجنون التي انتابت ابنتها، وقالت ببرودٍ لتظهر استمتاعها بالحاق الأذى به:

-ما يستهلس إلا كده، أنا عملت معاه السليمة، وفضحته.

هاجت مهاجها، وصرخت بلا وعي تلوم والدتها بحرقة، وعيناها تبكيان بدموع غزيرة:

يا نصيبي، طب ليه كده؟ هو أنا اشتكيت؟ هو أنا طلبت منك تعلمي حاجة؟

ردت بشفتين ممتعضتين؛ وكأنها لم تقترف جرماً في حق كليهما:

-أنا عملت اللي فيه مصلحتك، ويعززك عند عيلته، أومال عاوزاني أسكتله؟

ضربت "خلود" على صدرها بقوة متابعة عويلها الصارخ:

حرام عليكو، كده بيتي اتخرب، ومش بعيد "تميم" آ....

ازداد اتساع حدقتها، حتى كادت تخرجان من محجريهما، وقالت بأنفاس متلاحقة:

-... يطلقني!

كان وقع التفكير في احتمالية حدوث ذلك مهلكًا لها، مدمرًا لحياتها، ومزهقًا لروحها، لم تتحملة، واندفعت بكل رعونة تسحب إسدالها لتضعه على جسدها، تبعثها والدتها تستوقفها:

-استني يا بت، رايحة فين؟

عندما أوشكت على الخروج قبضت على راسها، وشدتها منه قائلة لها بصيغة شبه أمرة:

-استني هنا.

استلت ذراعها بعنفٍ من يدها لترد بصوتٍ باكٍ، وهي في حالة انهيارٍ تقريبًا:  
-سيبني يامه، خليني ألحق جوزي.

تطلع إليها "هيثم" بضيقٍ وهو يفرك مؤخرة عنقه الملتهبة، ثم نطق بقنوط:

-روحيله، وشوفي إن كان طلقك ولا لسه

هوت كلماته الواقعية على قلبها كخناجر حادة حزت فيه بضراوة، في حين صاحت والدتها من خلفها توبخها:

طول عمرك كده هتفضلي غبية، ولا فاهمة حاجة، ويوم ما أجي أعمل حاجة في  
مصالحتك تبوظيها!

وكأنها تحادث الفراغ، اختفت "خلود" على الفور من أمام أنظارها، لتهبط الدرجات ركضًا دون أدنى اهتمام بما تحمله أحشائها، فما يهم الآن هو زوجها؛ عشقها الأول والأخير.

.....

وحده من يملك مفاتيح التحكم فيه؛ أو الأخرى ضبط انفعالاته غير العقلانية وتحويلها للتقيض بحديثه المنطقي الهادئ الذي ينفذ إلى عقله، وقلبه، ويخفف من حدة غضبه. أجلسه الجد "سلطان" بداخل غرفته معزولاً عن الخارج، ووقفت "ونيسة" على بابه تدعو الله في نفسها أن ينجح فيما عجزت عن فعله، وإلى جوارها وقف "بدير" يقول:

-ربنا يديك الصحة يا بابا، لولاه مكوناش عرفنا نمناه يا "ونيسة".

ردت بأنفاس ارتياح:

يا رب يهديه على إيديه..

لكن ما لبث أن تحول صوتها للخوف وهي تتابع:

-هاضيع نفسه عشان شوية كلام اتقال.

نظر لها "بدير" بحدة من عينيه الغائمتين، وقال معقبا عليها:

-ما هو ما يصحش اللي أختك عملته بردك، لأ وقصاد الخلق، خلت إيه للغريب؟

تبرأت من ذنبها قائلة على الفور:

-وربنا ما كنت أعرف يا "بدير"، أنا في حالي طول عمري

كان يعلم جيداً الاختلاف الجذري بين الشقيقتين، ولذا لم يكن من اللائق لومها

على أخطاء غيرها، تنحج بخشونة، وأضاف:

-مش وقته، خرينا في ابننا دلوقتي.

صوت الدقات العنيف المصحوب بالقرع المتواصل على جرسه جعل الاثنان يلتفتان في اتجاهه؛ كانت "ونيسة" أول من أسرع الخطى للاتجاه نحوها. فتحته لتتفاجأ بوجود "خلود" قبالتها، بل وتحاول دفعها برفقٍ للمرور للداخل، برزت عينا خالتها في صدمة مستنكرة، وقبل أن تستوعب حقيقة وجودها، بادرت تسألها بصوت لاهث ونظراتٍ مرتعبة:

- "تميم" فين يا خالتي؟

وضعت "ونيسة" يدها على حافة الباب لتمنعها من الدخول، وسألتها بوجوم:

جاية ليه السعادي يا "خلود"؟

ردت بكاءً، عليها تستعطفها:

خليني أدخل الأول.

اعترضت عليها تحذرها، ودون أن يرتخي ذراعها:

ده لو ابني شافك هتحصل مصيبة.

على الفور نفت من تلقاء نفسها:

-أنا ماليش دعوة بأي حاجة يا خالتي، ومعرفش إيه اللي حصل، كل اللي أنا عاوزاه جوزي.

احتارت بشأن في السماح لها بالدخول؛ لكن إصرار "خلود" كان أقوى من ترددها، أبعدت يدها وولجت للداخل تجوب بعينين تائهتين الصالة المتسعة بحثًا عنه. لم يسعفها صبرها، وصاحت تنادي عاليًا، غير مكترثة بما يمكن أن يحدث:

- "تميم"!

انتفض جسدها مع خروجه لمواجهتها بكل غيظه وحنقه، ومع ذلك تماسكت لتناديه  
بجراءة:

حبيبي.

رفع "بدير" عكازه أمام جسد ابنه ليمنعه من المرور، ورجاه بصوته الأجلش:  
-خش يا ابني جوا.

نفت "خلود" بصوتها المهزوز وهي تتقدم نحوه في خطوة شجاعة منها:  
-أنا ماليش دعوة باللي أمي عملته، اقسم بالله ما كنت أعرف حاجة.

حدجها بنظرة مميتة جعلت والدته التي تراقبه عن كثب ترتعب من مجرد التفكير  
فيما يمكن أن يفعله بها إن تجاوز والده، وامتدت يده لتطال عنقها؛ حتمًا سيديكه.  
دنت "خلود" أكثر منه، ولم تبق على مسافة آمنة بينهما، ازدردت ريقها، وحاولت  
الابتسام، لكن صوتها خرج مذبذبًا حين شرحت له:

-أنا مراتك حبيبتك، عمري ما استغنى عنك، كل اللي اتقال واللي حصل ولا فارق  
معايا، المهم إنت عندي.

كان في نظراته شرًا عظيمًا ينتظر اللحظة التي يخرج فيها ليذمر ما حوله، وبلا صبرٍ  
هدر عاليًا يهددها؛ وكأنه التحذير الأخير قبل ارتباك جريمته:

-ابعدوها من قدامي، بدل ما ارتكب جناية حالاً.

خرج "سلطان" هو الآخر ليشهد على ما يحدث، ويلمسة خشنة على كتفه أمره:  
-اهدي.



اشتعل وجهه، وظهر انتفاخ عروقه المشحونة بكل الأدرينالين الحائق، ضم "تميم" شفثيه مرغمًا، انصاع لأمر جده النافذ بصعوبة كابحًا تلك الرغبة الجنونية بتوجيه جم غضبه عليها، وفي حضرة عائلته، في حين اتجه "بدير" إليها ليبقيها بعيدًا عن وجهه، فاستطرد يقول لها:

-تعالى معايا يا "خلود".

اعترضت بسالةٍ متهورة:

-لأ يا عمي، أنا لازم أتكلم مع جوزي ويسمعني.

خطر لها خاطر سريع؛ لما لا تستغل وجود ذويه حولها في ضمهم لصفها؟ وبكل براءة أضافت، بكت بآلم، وانتحبت باختناقٍ؛ لتبدو في أعينهم حملاً وديعًا جنت عليه الحياة بشرور البشر:

-أنا غير أمي خالص، وخالتي عارفة ده، أنا متريية هنا في البيت ده، وهنا مكاني وآ.....

نبرة صوتها مع ملامح وجهها شكلت لوحة مقززة لا يرجو التطلع إليها أبدًا بعد ما عاشه معها، وبهدير مختنق صاح:

-مش عاوز أسمع صوتك، هاخنقك، اقسم بالله هاقتلك!

استمرت في الاقتراب منه رغم ارتجافها من تعايره الشرسة، وردت:

-والله ما كنت أعرف إنها هتعمل كده.

لوح بذراعه هادرًا بها بكلمات أصابتها في مقتل:

-اللي تفضحني وسط الخلق مالهاش دية عندي.

تمسكت بآخر بقايا الأمل في الاحتفاظ به، ودافعت عن حقها فيه قائلة باستماتة:  
يا "تميم" صدقني، أحلفك بإيه أنا مقولتهاش على حاجة بينا، وانت حر معايا  
تعمل اللي عاوزه، وأنا مش هاقولك لأ!  
كان ناقرا منها لأقصى الحدود، غير متقبل لاقتراحاتها السخيفة. رمقها بنظرة دونية  
قبل أن يهتف باستهجان، متذكرا في عقله اتفاقها الشيطاني السابق مع والدتها  
لاستنزاف رجولته:

-والمفروض أصدقك؟ ما هو قالوا للحرامي احلف!

التفتت "خلود" إلى خالتها ترمقها بنظراتها المنكسرة، بكت في عجز، ورفعت من  
صوت نحيبها لتحصل على تعاطفها، ونجحت في ذلك؛ حيث تأثرت "ونيسة" بحالتها  
البائس، شعرت بالألم يجتاحها لرؤيتها تُهان هكذا، وتدخلت من تلقاء نفسها قائلة  
بما يشبه الرجاء؛ عليها تنجح في ترميم علاقتهما التي أصبحت محطمة تقريبا:  
مش طريقة تفاهم يا ابني، اسمعها وآ...

قاطعها "تميم" مشيرا بسبابته:

-ماتدخليش يامه.

لما لا تتقن دور الضحية أكثر؟ وإن كانت فعلاً هكذا، لذا ردت عليه "خلود"  
بتخاذل، وكأنها تهدده:

طالما مش هصدقني، أنا هاموت نفسي.

قال ببرود غير مبالي جعلها تستشيط غضباً على عدم مراعاته لها، وتلك النظرة  
المقيبة تكتسح وجهه:

-اعملها وريحنا كلنا.

ترددت في تنفيذ ما قالته، أوهمت نفسها أنه سيمنعها، وسيقبل عليها؛ لكنه كالعادة وقف قبالتها يتطلع لها بكراهية لم ترها في عينيه من قبل، اندفعت كالمغيبة نحو المطبخ الذي تعرفه كأصابع كفها، بينما ردد "بدير" على مسامع ابنه يعاتبه بحذر:  
ده مش أسلوب كلام يا ابني.

وقبل أن يرد عليه بحدّة تركت نظراته على زوجته التي أحضرت زجاجة تحوي سائل (الكيروسين)؛ تلك التي تحتفظ به خالتها في الدرج الموجود أسفل الحوض، لاستخدامها عند اللزوم. انتزعت غطائها، وأفرغت محتوياتها على رأسها، فابتلت ثيابها، ثم أمسكت بولاعةٍ تستخدمها "ونيسة" في إشعال البوتجاز مهددة بها:  
حالما مش مصدقني، يبقى الموت أريح.

لطمت خالتها على خدها صارخة في دهشة مذعورة:

يا لهوي، إنتي بتعملي إيه؟

ثم التفتت نحو ابنها تستجديه:

حوشها يا "تميم"!

لم تهتز له شعرة، وأشاح بعينه بعيدًا عنها غير مصدق لعرضها المبتذل، تكاد ترف ابتسامة مستهجنة على زاوية فمه من شدة استنكاره لأسلوبها الرخيص في الاستحواذ على شفقتة. رأت "خلود" انصراف نظراته عنها، فوخز ذلك قلبها، وقالت بمرارة وذل:

-الموت أهونلي من إنك تسبني، ولا تبعد عني.

تحرك "بدير" نحوها يرجوها بشدة:

-اغزي الشيطان يا "خلود"، ماينفesch كده.

تجاهلته رغم حبها لعطفه الأبوي، وقالت موجهة حديثها لزوجها الذي تحجرت  
مشاعره من ناحيتها:

-إنت ظلمتني يا "تميم" ..

دمدم بغيظٍ دون أن ينظر في اتجاهه:

-إنتي اللي ظلمتي نفسك.

ضغطت على زر إشعال الولاعة بيدها، وتابعت بأنفاسٍ مضطربةً مكلمةً تهديدها؛  
وكانها تحمله بذلك الذنب كله:

خلاص، بس إنت السبب في موتي، وزى ما أبويا اتحرق زمان قصاد عينك  
ومعرفتش تعمله حاجة، فأنا هاحصله ومعايا ابنا.

استدار "تميم" برأسه ناحيتها ليجدها بالفعل على وشك إضرار النار في جسدها  
المشبع بالكبروسين، رأى والدته تقف على بعد خطوة منها تحاول إثنائها عن رأيه  
بالتوسل، وعيناها تبكيان:

حرام عليكى، هتموتي نفسك؟

أجابتها بوجه أريد بمزيد من الحمرة المنفعلة:

-محدث عايزني، وهو السبب.

أراد "تميم" إيقاف تلك المهزلة الرخيصة، ليس حرصًا منه على حياتها، وإنما لكشف حقيقتها أمام الأقرب إليه، فعلى ما يبدو قد انخدعوا بتمثيلها البارع، فيما عدا جده الذي ظل صامتًا، لم ينبس بكلمة، وراقب جيدًا ما يدور؛ وكأنه سيعيد سرده على الآخرين. اندفع نحوها يأمرها:

-إياكي تفكري تعملها، إتي مش ملك نفسك!

كان لتأثير كلامه عليها وقعًا عظيمًا، تجمدت عيناها عليه، تركته ينتزع الولاة من يدها، وثبتت كامل نظراتها على وجهه، وهي لا تصدق أنها بالكاد استعادته، تطلع إليها "تميم" بعينين قاتمتين، لا تظهر حبًا ولا تعاطفًا معها؛ ومع ذلك كانت كافية لإقناعها بأنه عاد إلى أحضانها، ارتمت على صدره، ومرغت رأسها في كتفه تبكي وهي تقول له:

-أنا بأحبك، ومش هاستحمل تبعد عني.

أبعدها عن أحضانه؛ وكأن عقربة لدغته، لينظر إلى وجهها المفضوح قائلاً بلهجة خشنة:

-إتي هاتفضلي هنا، بس أمك هحاسبها على اللي قالتة..

ردت بنزق:

-اللي إنت عاوزه أعمله، أنا كلي ملك.

تابع محذرًا إياها بقساوة:

-وإياكي تفكري تأذي اللي في بطنك، لأنني مش هارحمك.

رفرت بعينها قائلة بخنوع:

حاضر يا حبيبي.

شعر بالحنق منها، بالطبع سيستغرق الأمر وقتًا لكشف حقيقتها؛ لكنه سيتخلص منها في الأكد، عليه فقط أن يرجئ مؤقتًا وضع الأمور في نصابها الصحيح، حتى يكون رده قويًا، وموجعًا.. الوحيد الذي أدرك ما يفكر فيه "تميم" كان "سلطان"، لاح على ثغره بسمة استخفاف، لم ينطق بحرف، وانسحب عائداً إلى غرفته متوقعًا تصعيد الأمور في وقت قريب.

.....

الأيام مضت سريعة عليها؛ كأنها في سباق مع الزمن، ليأتي يوم الزفاف الموعود، بعد مشقة وعناء. تم إعداد كل شيء، ووضعت اللمسات الأخيرة في منزل الزوجية، ليستقبل العروسين بعد انتهاء حفل عرسهما، وكذلك تم دعوة الكثير من المعارف والأقرباء للحضور في السرادق الكبير المقام عند منزل عائلة "سلطان". وطوال تلك الفترة الماضية لم تذهب "فيروزة" مع توأمتها لتوضيب منزلها، تجنبت على قدر المستطاع الالتقاء بـ "هيثم"، ما زالت تحتفظ بذكراياتها الأليمة معه فيما يخص تسببه في اندلاع الحريق، لم ترغب أن تلاحظ "همسة" توترها، وربما عزوفها عن الحديث معه، وإلا لساورتها الشكوك بشأنها. كما أن الأخير لسبب معلوم لأغلب من بالمنطقة تشاجر مع ابن خالته، وعلى ما يبدو حدثت قطيعة بينهما، بالرغم من تواجدهما معًا بالدكان، فقط لتبديد الشائعات التي تم تداولها بشأن اعتداء "تميم" على زوجته؛ ومع هذا لم يتعاونوا معًا.

زغرودة فرحة عالية انطلقت من جوف "آمنة" تبعثها بأخرى صاخبة، والمصففة تضع الطرحة فوق رأس العروس التي تزينت في أبهى الأثواب لتفتن عريسها، وتسلب

لبه بمجرد أن يتطلع إليها. كان ثوب "همسة" منفوشًا، له فتحة صدر مثلثة، لكنها لا تتخطى مسافة شبر من بداية عنقها، بدت محافظة نوعًا ما، وأكمامه من قماش الداتيل بنقوشاته الناعمة. لم تترك شعرها منسدلاً، عقدته في تصميم جديدة بشكلٍ معكوس دون أن يتحدد لها بداية أو نهاية، ووضعت الطرحة أعلاها بعد تثبيت التاج الرقيق بها. انحنت "فيروزة" على أذن شقيقتها اليمنى لتضع لها القرط المرصع بفصوصه اللامعة قبل أن تنتقل للأذن الأخرى، حملت فيها قائلة يا عجاب وهي تضغط على كتفها برفقٍ:

- ماشاء الله زي القمر.

رفعت يدها لتلمس يدها الموضوعه على كتفها، وقالت مجاملة:

- حبيبتي يا "فيرو".

تمتت والدتهما بالدعاء وهي تلقي نظرة على ابنتيها:

- ربنا يتملك على خير يا بنتي، ويكفيكي شر العين، وعقبال لما أفرح بيكي يا "فيروزة".

ردت بتكليف:

- يا رب

تقدمت "فيروزة" خطوة نحو المرأة لتضبط مشبك رأسها، والذي اتخذ رسمة الطاووس المزركش، ثبتته في الجانب جيداً لكونه ينزلق من خصلات شعرها ويضيع دون أن تعرف أين وكيف. تلك المرة اختارت أيضًا أن ترتدي ثوبًا من اللون الفيروزي المشوق ليشبه اسمها، فتحة صدره دائرية، أبرزت عظام الترقوة، وحتى

لا ينال منها البرد ليلاً اختارت أن تلف حول عنقها شالاً قصيراً من الحرير، لونه درجة داكنة للون الفيروزي. استدارت نحو زوجة خالها التي اقتحمت الغرفة تطالعها بنظرات حادة حين بادرت بالقول:

قوليلي بت يا "همسة" ..

أجابت عليها العروس بهدوء:

خير يا مرات خالي

سألتها مباشرة وهي تختطف أحمر الشفاه من يد المصنفقة لتضعه على شفيتها:

هو صحيح "هيثم" اتصالح مع المعلم "تميم"؟

ردت على مضيض، وقد بدا الانزعاج واضحاً على تعبيراتها:

معرفش.

سألتها بتطفل أكبر:

هو مش بيكلمك كل يوم، يعني أكيد فضفض معاكي بكلمة كده ولا كده!

علقت "همسة" مصححة لها:

أه بنتكلم، بس مش بنجيب في سيرته.

زمت "حمدية" شفيتها مرددة بتذمر:

ده أنا قولت رجعوا سمنة على غسل من ثاني، والحياة بقت وردي بينهم..

لم يكن حديثها بالمشير لتتابعه "فيروزة"، لكن زوجة خالها أصرت على إفراغ ما في

جعبتها، وقالت متمرة على "خلود" تحديداً:



-أصل بعد الفضيحة إياها أخته كانت لازقلنا في كل حاجة كنا بنعملها في الشقة،  
ياياي، دي سمجة بشكل، حاشرة مناخيرها في كل حاجة، تقولش بتفتش ورانا!  
بمنطقية أوضحت لها "همسة"

طبيعي تعمل كده، طالما أعدة في بيت حماها، اللي هو تحتنا، هنلاقيها موجودة  
معانا.

علقت "حمدية" بسخافة:

-أهي بوزها شبرين، وبومة!

نظرت لها "فيروزة" شزراً قبل أن تتجه نحو حقيبة يدها الصغيرة، حيث اتبعت  
لرنين هاتفها المحمول بها، أخرجته منها، وتطلعت إلى شاشته، كانت المتصلة  
رفيقتها، أجابت عليها بتنهيدة متعبة قليلاً:

-أيوه يا "علا"، إنتو وصلتوا ولا إيه؟

أناها صوتها قائلاً بحمايس:

-أحنا واقفين تحت بيتك، وهنبقى معاكي في زفة العريبات.

ردت بابتسامة صغيرة:

طب كويس.

سألتها "همسة" باهتمام:

هي "علا" جت؟

أجابت دون أن تنظر ناحيتها:

-ايوه

ثم اتجهت تلقائياً نحو النافذة لتنظر إليها، رأتها في ثوبها الذهبي البراق تشير لها بيدها، وباليد الأخرى ترفع طرفه حتى لا تتعثر به. رفعت "فيروزة" ذراعها لتلوح لها به؛ ولكنها تفاجأت بظهور "آسر" من خلفها، ويلوح لها أيضاً بإتسامته اللبقة المزيفة، ربكة حرجة اجتاحتها لحضوره، فأخفضت يدها على الفور، خشيت أن يظن أنها ترحب به أيضاً، وقد توقعت لآخر وقت عدم قدومه؛ لكنه صدمها بمجيئته. أبعدت عينيها عنهما، وحركتهما في اتجاه السيارة الأخرى المزدانة بأشرطة الزينة البيضاء، رأت باقة من الورد على مقدمتها، وهتفت بعفوية:

-باين العريس جه كمان!

جلبة خفيفة تصاعدت من ورائها استعداداً لاستقبال "هيثم"، ومع ذلك بقيت "فيروزة" في مكانها عند النافذة تحديق منها بفتور. كان كل شيء مثالياً وهي تواصل تأملها لما يوجد بالأسفل إلى أن توقفت نظراتها على صاحب زوج الأعين الغاضبة المستند على جانب السيارة؛ كان يتطلع إليها بنظرات طويلة مليئة بالحنق، على ما يبدو رأى ما فعلته قبل قليل خلال ترحيبها برفيقتها. نظراته لم تكن بالعادية، بل كانت قاسية، نافذة، موترة؛ وكأنه يُدينها ..... !!

.....

## الفصل السابع والأربعون

ضاقت عيناها نحوه بشكلي غريب حائر، استاءت من نظراته المليئة بالغضب، وتحفزت بشكلي ما ضدها؛ وكأنها ارتكبت جُرماً في حقه. توجهت تعبيراتها قليلاً، فإن كانت تلك وسيلته لإرهابها، حتى تعترف له بأنها من كانت معه في الحريق المشؤوم، فلن يحدث أبداً! ليست "فيروزة" من ذاك النوع الخائف المرتعد، استقامت في وقفها، لم يرف جفناها، وبادلته نظرة متغترسة تنم عن شخصيتها القوية قبل أن تتراجع لتختفي بالداخل؛ لكن بقيت دقائق قلبها تنبض في عنفٍ، لم تفهم سبب توترها، وأرغمت نفسها على تجاوز لقائه العابر. عادت لتبتسم بتكليف وهي ترى زوجة خالها تحمق فيها بفضولٍ، ركزت عينيها عليها، ثم سألتها بأسلوبها الجاف:

خير يا مرات خالي؟

أجابتها متسائلة بسخافة:

-أومال فين الشبكة؟ ولا العروسة مش هتلبسها النهاردة كمان؟

ضغطت " فيروزة" على شفيتها بقوة مانعة نفسها من التفوه بحماقة، حتى لا تفسد الأجواء المبهجة، بينما تابعت "حمدية" بنوع من العجرفة:

-ده كل العيلة هنا النهاردة، عاوزين تتمنظر قصادهم، ولا رأيك إيه يا "آمنة"؟  
التفتت والدتها نحوها تسألها في حيرة:

-رأيي في إيه؟

أجابت "حمدية" موضحة بعبوس مزعوج:

-الشبكة يا أم العروسة، هتخلي رقبة بنتك وإيديها فاضيين، عاوزة الناس تاكل وشنا؟

تداركت "آمنة" خطئها، وقالت على الفور:

-معاكي حق، راح من بالي خالص.

ثم اقتربت من "فيروزة" تقول لها بجدية:

-علبة الشبكة يا "فيرو" في الدولاب، إنتي عارفة مكانها، هاتيها

ردت عليها بتبرم قبل أن تتحرك نحو الخارج:

-ماشى

سددت "فيروزة" في طريقها نظرة سريعة حادة نحو "حمدية" التي بدت أكثر

استمتاعًا بسيطرتها على والدتها الطيبة، ومنحتها الأخيرة نظرات مغتررة وهي تربت

على كتفها تستحثها:

-ماتتأخريش يا أخت العروسة.

كزت "فيروزة" على أسنانها تنعتها بهمهمة خافتة:

حشرية!

ارتفع الصخب من جديد في أرجاء المنزل الذي عَجَّ بالكثير من الأقارب، خاصة السيدات والفتيات والأطفال الصغار، ولولا بعض المساعدات العائلية من نساء عائلتها لما تمكنت "فيروزة" أو والدتها من التعامل مع الحشد المتواجد في الصالة والردهة المؤدية لغرفة نومهما. دنت إحدى السيدات -ذات الوجه البشوش- من "فيروزة" ما إن لمحتها تمر بجوارها، ونادت عليها بنبرتها الحنون:

-بنت الغالي.

التفتت برأسها نحوها، تحولت ملامحها للين والابتهاج حين رأت زوجة عمها السمحة؛ "سعاد"، أو كما تحب أن يدعوها الجميع "أم فضل" نسبة لابنها البكري. أقبلت عليها مرحبة بها، فقد وصلت للتو:

مرات عمي، إزيك؟ وحشاني أوي؟

بادلتها الترحاب الحار، واحتضنتها بشدة، ثم قالت:

حبيبة قلبي من جوا.

تراجعت عنها "فيروزة" لتسألها باهتمام:

حمدلله على السلامة، وصلتني امتي؟ وفين بنات عمي؟

أجابتها بتنهيدة بطيئة نسيًا:

-الله يسلمك.. الدور ده أنا جاية بس مع عمك، لكن تتعوض إن شاءالله ليلة فرحك نكون عملنا حسابنا من بدري.

ردت بنفس ابتسامتها المسرورة:

-إن شاءالله.. ده ماما هتفرح أوي لما تشوفك.

علقت عليها بابتهاج:

-وأنا والله، هو في زي "آمنة" وحلاوتها، أومال بناتها طالعين قمرات لمين؟!!

ابتسمت في سعادة لكلماتها المادحة، وشكرتها بلطف:

-ربنا يخليكي لينا يا مرات عمي، وأخبار "فضل" إيه؟

جاوبت بحماس انعكس في نظراتها أيضًا:

-الحمدلله، أجزته قريت، هينزل كمان شهرين.

عادت لتسألها عن أحواله مبدية اهتمامها بتبادل الحديث معها:

-ربنا يجيبه بالسلامة، ومراته وعياله كويسين؟

ردت وهي تبسم:

في أحسن حال.. لو كان عندي ولد ثاني مكوئتش سيبتك يا غالية.

لم تكن لتفعل شيئًا في تلك المسألة، أولاً لكون ابن عمها يفوقها عمراً، وكانت لا

تزال صغيرة حين حضرت عرسه، ثانياً زوجة عمها لم تنجب بعده سوى ثلاثة

بنات، وأربعتهم يعدوا في منزلة إخوتها، وثالثاً بالنسبة لعمرها الحالي فقد يعتبرها

البعض -من عائلتها- بأنها تخطت سن الزواج بكثير، وبالتالي فرص ارتباطها

وتأسيس أسرة محدودة للغاية. انحت "فيروزة" على جبينها لتقبلها منه، وقالت  
بتفهم:

-كل واحد يياخذ نصيبه، وأنا الحمد لله راضية بحالي.

غيرت "سعاد" مجرى الحوار لتسألها بنبرة ذات مغزى:

-الكلام خدنا ومشوفتش "حمدية"، هي فين؟ وزى ما هي كده ولا اتغيرت؟

ضحكت قبل أن تجيبها متسائلة:

-تفتكري إيه؟

لوحث بيدها متصنعة العبوس وهي تعقب عليها:

-يبقى زي ما هي، ربنا يهديها حالها.

.....

أفسحت لزوجها عمها المجال وأرشدتها عبر الردهة لتلج للداخل، ثم تركتها لتعود  
لإتمام مهمتها السريعة المكلفة بها من قبل والدتها؛ كانت أول من أبصرها "حمدية"،  
امتعضت ملامحها، وظهرت تكشيرة كبيرة على وجهها، زفرت على مهل، ودنت منها  
متسائلة، دون أن تكلف نفسها عناء ترحيبها:

- "سعاد" وصلتي امتي؟

لم تنكر أن علامات الكراهية بائنة عليها، لأسباب شخصية، ولما لا؟ فقد وقع  
الاختيار عليها لتتزوج أحد أعيان بلدتهم بدلاً منها حين تم التفضيل بينهما! وبوجه  
هادئ رددت "سعاد":

-شكلك مش مبسوط يا "حمدية" لما شوفتيني؟

ردت بترفح وهي ترمقها بنظرة حاقدة لم تخفها:

-لأ ياختي، متقوليش كده، نورتي البيت.

تجاهلت سماجتها المعلنة لتسألها:

فين أم العروسة؟

أشارت بيدها قائلة على مضض:

هناك.

تحركت أنظار "سعاد" نحو الركن الداخلي للغرفة، حيث تقف "آمنة" خلف ابنتها

التي انتهت لتوها من زينتها، استدارت نحوها الأولى، وتلك الابتسامة العريضة

تختلج تعبيراتها، هتفت مهللة لاستقبالها:

حاجة "أم فضل"، تعالي يا حبييتي.

أقبلت عليها تحتضنها بذراعيها وهي تردد:

-الغالية مرات الغالي الله يرحمه.

بادلتها نفس الأحضان المشتاقة قبل أن تنطق وهي تستدير سائرة في اتجاهها:

يا مليون حمدلله على السلامة.

توقفت كلتاهما عن الحركة، بينما عاتبته "سعاد" دون أن تفتر ابتسامتها:

-بقي كده تاخدونا في توكة وماتقولوش من بدري؟ كنا عملنا الواجب وزيادة يا

"آمنة".



اعتذرت منها بشدة:

معلش، كل حاجة جت بسرعة، والعريس مستعجل

ربتت على جانب ذراعها قائلة بتفهم:

خلاص.. ملحوة في "فيروزة"...

هزت رأسها في استحسان، لكن تبدلت تعبيراتها للقلق قليلاً حين أكملت:

الحاج "اسماعيل" كان حلفان ما يجي.

جزعت متسائلة:

حطب ليه بس؟

أجابتها موضحة:

إنتي عارفة مسائل الجواز وغيره لازم الكبارات يعرفوا بيها الأول، مش يبقوا زي الغريب

نكست رأسها في حرج، فهناك بعد التقاليد الواجب اتباعها عند القيام ببعض

المسائل العائلية المصيرية، والتي يتحتم فيها تدخل ذوي الشأن لإبداء الرأي الأخير؛

أما الغفلة عنها فتولد بعض المشاكل الجسيمة التي ربما تؤدي للقطيعة ونكران صلة

القربة، زمت شفيتها وغمغت:

معاكي حق.

لكن عادت "سعاد" لتؤكد عليها انتهاء المشكلة، وأضافت:

-بس عشان مايكسرش بخاطر "همسة"، ما هو بردك عمها الكبير، ولازم تتبها بيه  
قصاد نسايبكم.

تنفست الصعداء، وهتفت تشكرها:

-معاي حق، الغلط مننا، وإن شاء الله مايحصلش.

ظلت "سعاد" محتفظة بابتسامتها المشرقة، ورددت في اهتمام وهي تواصل التقدم  
نحو العروس:

-سيك من ده، وخليني أطل على عروستنا .. اللهم صلي على النبي، بدر البدور.

همت "همسة" بالنهوض لتحيتها قائلة:

-مرات عمي.

لوحث لها بذراعيها لتظل جالسة وهي ترد:

-ماتقوميش يا قمر العيلة، أنا هاجيلك لحد عندك.

بادلتها العروس ابتسامة رقيقة تناسبت مع جمالها الفاتن، ولم ترغب زوجة عمها في  
إفساد زينتها بالتقبيل الزائد عن الحد، لذا اكتفت بالتطلع إليها بنظراتها المليئة  
بالفرحة والسعادة للغاية.

.....

-العريس جه برا يا بنات.. وسعوا السكة.

ترددت تلك الكلمات العالية لتصل إلى آذان الجميع، بما فيهم العروس التي تلبكت  
واضطربت، وأحست بتقلصاتٍ خفيفة تصيب معدتها من توترها الطبيعي، ناهيك

عن تخضب بشرتها بحمرة زائدة عن الحد. رفعت عينيها لتنظر إلى "فيروزة" التي أمسكت بزجاجة العطر، وأغرقت به ثوبها لتبدو رائحتها جذابة ومثيرة. تنحت للجانب حين رأت "هيثم" يدخل، وقبل أن ينطق بكلمة اشْرأبت "همسة" بعنقها لتهمس لتوأمتها:

- ما تسبنيش

ردت عليها "فيروزة" بصوتها الخافت:

- حاضر.. أنا معاكي.

للحظة ظن أن القمر قد ترك محله بالسماء، وهبط على الأرض لينير حياته الكئيبة بحضورها. بسمة غير عادية زينت وجه "هيثم"، كانت خطيبته جميلة الملامح؛ لكنها ازدادت جمالاً بعد ارتدائها لثوب العرس، أحس بالإثارة تجتاح جسده، كان لرؤيتها الأثر الحسي والإيجابي عليه، تذكر الأيام التي سبقت خطبته، حين فُرضت عليه بشكلٍ متعمد، وامتعاظه في البداية منها، ومع ذلك كانت لحظة التحول الجيدة في حياته العابثة. أفاق من سرحانه السريع على تعبيراتها الناعمة، تأمل اهتزازة شفيتها اللاتين بدتا كقطعيتين من الفراولة، كم تتوق لتذوقهما! ركز كامل عينيه عليها ليؤكد لنفسه أنها باتت أخيراً خاصته، لم يبصر سواها حوله، خرجت أنفاسه حارة حين قال لها:

- مبروك.

لعت "همسة" شفيتها، وقالت بخجلٍ متحاشية النظر إلى عينيه المسلطتين عليها:

-الله يبارك فيك.

حانت منها نظرة جانبية لتوأمتها تؤكد عليها بهمة خفيضة:

هتركي معايا يا "فيروزة"، أنا خايقة .. ماتسبنيش.

تفهمت حالة الارتباك الجلية، المصحوبة بالحياء الشديد، بسبب خصوصية تلك

الليلة، تلمست جانب ذراعها، وردت وهي تومئ برأسها:

أنا معاكي.

هتفت إحدى السيدات من الخلف تمدح عروس العائلة:

صلي على النبي يا عريس، مش كل يوم هتلاقي حلاوة بالشكل ده.

رد، وعيناه تحدقان في وجه "همسة"، وبهما رغبة وشوق:

عليه الصلاة والسلام.

.....

لا يمكن أن يُسمى ما حدث الفترة الماضية سوى بأنها فترة الهدوء التي تسبق العاصفة، رضح إلى ذي الشيبة الحكيم الذي يعرف مفاتيحه جيدًا، ليتبع توصياته الجادة كما أملاها عليه حتى يصل لمبتغاه؛ وإن كان في ذلك استنزاف صبره المستهلك مسبقًا، خاصة مع بعض الأمور الغامضة المليئة بالألم، والتي عايشها قبيل فترة مراهقته. عاد "تميم" بذاكرته لليوم الفارق في حياته مع زوجته غير الأمينة على سره، حيث انساق وراء جده، لينزوي معه بالغرفة قبل أن تصل "خلود" لمنزله. العائلة وما يرتبط بها من قيم نبيلة لا تتفق مع حائل الشيطان الخبيثة، مثاليته الزائدة فيما يخص شئون أسرته ربما لن يرضى عنها الجميع، واحدٌ غيره لأقام الدنيا ولم يقعدا لإهانة رمز رجولته.

خرج من شروده المحير على إشارة جده له بعد أن جلس الأخير على طرف الفراش، ودعاه للجلوس في مقعده المفضل أمراً إياه:

-اقعد يا "تميم"، واحكي لي حصل إيه.

رفض ذلك، وصاح به بكل ما يعتري صدره من غضب وغل:

-سيبني يا جدي أروح أخد حقي.

تقبل عصبيته قائلاً:

-هاسيبك...

ثم منحه للحظة ليلتقط أنفاسه قبل أن يقول بهدوئه المكتسب عن خبرة طويلة بالحياة:

-بس لما أسمع الأول وأعرف كل حاجة حصلت، من طأطأ لسلامو عليكم.

رد "تميم" على مضضٍ عله يأخذ بمشورته:

-ماشي

وبالفعل بدأ في سرد ما تعرض له من مؤامرة دنيئة، عرف عنها بمحض الصدفة، نالت من رجولته، واستهانت بقدراته البدنية، وما تلاها من بعض الأحداث المدعاة للانتقام والثأر. لم يقاطعه "سلطان"، تركه يصول، ويجول، وينفعل، ويفرح عن مكنونات صدره، إلى أن خبت الشحنة المتأججة بداخله. وبوجه بارد، لا يحتله سوى تجاعيد الزمن وآثاره أردف متسائلاً:

-عاوز الخلاصة بعد اللي قولته؟

رد "تميم" بنفاذ صبر:

-أيوه.

ظهر الاسترخاء على تعايره وهو يستطرد:

-الكلام اللي اتقال ده كله ولا يسوى مليم واحد!!!!

تفاجأ من عدم مبالاته، وهتف بصدر مختنق:

-نعم؟

علل "سلطان" أسبابه موضحًا:

-ده هري حريم أعدين على الشلت، يومين وهيطلعوا يلكوا في حكاية تانية، الحتة ما بتبطلش حكايات ولت وعجن.

صاح في استنكارٍ مغتاظ:

-ده الناس كلها عرفت اللي حاصل بيني وبين مراتي.

صمت جده للحظة قبل أن يتابع مسهبًا بلا تردد أو ندم؛ وكأنه يكشف له عن حقيقة ونوعية البشر الذين يعاشرهم:

-أنا عارف إنك عملت ده عشان توربها إنها متجوزة راجل من ضهر راجل، مش عيل (...)، بس هي غلطانة، ومحقوقالك في ده، مكانش يصح تقول لأمها كتلة الشر دي على أي حاجة، لأنها على طول بؤها في وذن الناس، هتخور، وتجود من عندها، ويا داهية دُقي..

كان محققًا في وصفها ببساطة، لم يعقب عليه، بدا فقط متجهماً، حانق النظرات.  
أضاف جده بترو:

-بس اسأل نفسك هو إنت عملت حاجة حرام؟ نمت مع واحدة وقفشوك؟  
على الفور قال نافيًا:

-لأ يا جدي .. أعوذو بالله، دي مراتي!

لاح على ثغره بسمة هادئة وواثقة وهو يتابع نصائحه الثمينة:

-خلاص اللي يفتح بؤه الرد جاهز، مراتك غلطت، وخرجت عن طوعك، وعصيتك  
من غير ما تعلم حاجة، وإنت كنت بتأديها، ومحدثش ليه عندك حاجة!

صمت وصدرة ينهج في قوة كتعبير عن غضبه المكبوت، بينما استأنف "سلطان"  
حديثه بأسلوبه المتروي؛ وكأنه يكشف له حلول الأحجية التائهة عنه:

-أما الحكاية الثانية، فدماغ أبالسة اللي تفكر فيها، القادرة تحطلك برشام؟!!

زم شفتيه مغمغماً بعد زفيرٍ منزعج:

-لأ ومش عاجبها يا جدي

ثم تنفس بعمق ليديمدم بسخط:

-وده اللي عرفته.. الله أعلم مستخبي إيه تاني!

رد عليه جده بهدوء:

-ولو إنك تزعل مني.. بس البت دي من زمان أنا ما بتسريحلهاش!

انعقد حاجباه، وسأله بنظرات تتفرس تعابيره الهادئة:

ليه يا جدي بتقول كده؟

أجابه مستفيضًا بتلقائية:

-كانت داخلة على أمك بالحنجل والمنجل، طول النهار زن في دماغها، ويا خالتي ويا عينيا، وكلام ملزق مايتبلعش، ملاوعة وكهنها باين، مايدخلش عليا بتعريفه، والمثل بيتقول اقلب القدرة على فهمها.. تطلع البت لأمها، ودي تربية "بثينة"، مهما كانت قدامك عاملة فيها غلبانة، ومكسورة الجناح..

قاطعته حفيده متسائلًا دون تفكير:

-زي أخوها يعني؟

نفي مبررًا أسبابه:

-لأ.. دي بلوة، والفرق بينها وبين أخوها إن الواد "هيشم" دغوف، مايفكرش، لما بتهب في دماغه حاجة بيعملها، إن شاءالله تكون هتوديه في داهية، متسرع .. بس مافيش منه قلق، يعني ورقه مكشوف، لو شاييل منك هايقول، وساعة الحق بينطق مايبخافش..

بسمة ساخرة استحوذت على شفتي "تميم"، بينما واصل "سلطان" القول بنبرة تحولت للقتامة:

-الدور والباقي على الحراية اللي في وشها ليل نهار، هتخطلها صح، وتقولها تعمل إيه.. كرشها واسع وماتشبعش.

همهم "تميم" بحنق:

خالتي "بثينة".



-بالظبط.

تساءل حفيده بندم بدا ظاهرًا عليه:

-تفتكر كنت غلطان لما كملت الجوازة دي يا جدي؟

لم يجبه على الفور، وانتظر للحظات قبل أن ينطق بحكمةٍ أراحت صدره:

-إنت عملت الأصول يا "تميم"، لميت عرضك، وعاشرت مراتك بما يرضي الله ..

يعني رديت المعروف.. بس في غير أهله!

وكأنه يقاتل في معركة خاسرة، لا أمل للفوز أبدًا فيها، انتفض "تميم" يثور من

جديد:

-أنا معنتش طايقها، قرفان منها، ولولا اللي في بطنها كان هيقالي تصرف ثاني، أنا

هاين عليا أولع فيها وأخذ تأييده.. إن شاء الله يعلقوني على حبل المشنقة.

عقب عليه الجد مشددًا بنبرة ذات دلالة قوية:

-اللي في بطنها من دمنا، ومن صلبك.. واحنا ما بنفرطش في عيالنا.

ظهر الإحباط على قسماته، وسأله بصوتٍ عبر عن حزنٍ عميق:

-وايه العمل؟ هاعدي اللي حصل كده؟

غامت عيناه قبل أن يجاوبه بنبرة غامضة، لكنها متزنة:

-لأ.. احنا هنقطع راس التعبان وديله.

قطب "تميم" جبينه في حيرة، وسأله:

-مش فاهم يا جدي.

أشار له بيده ليجلس على المقعد الذي لم يلمسه إلى الآن، وقال بمكر:  
-هاقولك تعمل إيه..

كانت تحتفظ ببعض قطع الثياب في منزل خالتها، عليها تحتاج إليها في يوم ما، إن قرر زوجها المبيت هناك، وبالتالي لم تجد أي صعوبة في تبديل ملابسها المليئة بالكورسين بأخرى نظيفة، مرتبة. انتظرت "خلود" زوجها بالجلوس في منتصف الفراش، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتعدد ذراعيها حولهما. أخفت تلك البسمة اللثيمة التي تقا تل للظهور على محياها بعد تمثليتها الهزلية، تنفست الصعداء لكونها انطلت عليهم، وإلا لاضطرت لحرق جزء من جسدها وتشويهه، وحينها لن يرغب حبيبها في التطلع إليها. اعتقدت أنه سيكون غيبًا ليفرط في جنينه المنتظر مهما كان يمقتها، وأمام والديه، ليبدو مذنبًا في أنظار الجميع إن تركها تتصرف برعونة. جفلت بقوة حين فُتح الباب فجأة، أرجأت أفكارها الشيطانية لوقت لاحق، وارتدت قناع الخوف. نظرت بترقب لزوجها الذي أطل منه، تشجعت تناديه بصوتٍ أقرب للهمس:

- "تميم"!

احتقرها بنظراته القاسية؛ وكأنها قمامة، لا ترتقي حتى للحديث معها، شعرت بازدرائه المهين لها دون أن ينبس بكلمة، أغلق الباب من خلفه، واستقام واقفًا يرمقها بتلك النظرات المليئة بالبغض والحقد.. ورغم هذا جاهدت لتستدعي دموع غير موجودة لتعتذر منه:

-أنا أسفة...

تجمد في مكانه ينظر لها مليًا بغموضٍ لم تسترح له، نظرات التوق والتلهف كانت أبعد ما يكون عنه، بل بدا النفور والاشمئزاز الأقرب للوصف. تحركت من على الفراش لتهبط عنه، وتمهلٍ حذر تقدمت نحوه. لم تتجرأ على لمسه، رغم حاجتها إلى الشعور بامتلاكها له، اكتفت بالنظر في عينيه، وتابعت بانكسارٍ:

-اللي حصل ده كله مش هايتكرر ثاني..

ثم أخفضت يدها لتلمس بطنها بحركة دائرية، وألحت عليه راجية:

-وحياة ابنك تسامحني، أنا مقدرش استغنى عنك...

كان صامتا للحد الذي منحها المزيد من الثقة، لن يجرؤ على المساس بها في منزل أهله، ليس على تلك الدرجة من الحماسة. تشجعت لتقلص المسافات بينهما بعد أن رأت جموده، واعتقدت أنه سيرتضي بالأمر الواقع، ولن يتخذ موقفاً عدائياً نحوها. أسبلت عينيها نحوه، ثم هتفت تعبر له عن حبها المتيم الذي يحرقها:

-إنت حبيبي ويس.. أنا ما حبتش في حياتي إلا إنت، وكنت مستعدة أستناك العمر كله.. ماتبعدهش عني يا "تميم"، ارضى عني يا حبيبي.

سألها بوجه جامد غير مقروء التعبيرات:

-تفتكري بعد اللي عملتيه ده أنا أتصرف إزاي؟

تخلت كلياً عن رهبتها الزائفة أمام سلبيته الواضحة، ربما سلاح إغرائه كان ناجحاً ليجبره على نسيان ما اقترفته. مدت يدها لتمسك بذراعه، ولم يعترض أو يبنذها. ظلت عيناها تركز على عينيه الصارمتين، وردت بأنفاس شبه لاهثة:

-أعمل فيا أي حاجة إلا إنك تسيني..

منحها بسكوته الضوء الأخضر لتتحدى معه، لذا شبت على قدميها، واشربت بعنقها نحو وجهه لتقترب من شفثيه، ثم همست له بحرارة تأكدت أن تلهبه، وتؤجج الرغبة به:

-ولو عاوزني أقاطع أمي أنا موافقة، المهم عندي إنت وبس.

نظر لها شزرًا، لم يبدو مقتنعًا بأي حرف تنفوه به؛ وإن كانت صادقة، فحتى أسرار الزوجين -والتمثلة في نظرة كالمقدسات- انتهكتها بوقاحة، دون ندم أو خوف، واليوم لا مانع لديها في قطع صلة الرحم مع الأقرب إليها، فقط لكسب وده، واستعادته إلى أحضانه بشكل لا تقبله أي زوجة تمتلك كرامة بعد ما ارتكبت في حقها. تلك الطريقة الرخيصة المبتذلة التي تعرض بها نفسها عليه لم يستسغها. أزاح يدها بعيدًا عنه، ورفضها بشكلٍ مشمئز انعكس على تعبيرات وجهها المصدومة، ليقول بعدها بجمودٍ، وتلك النظرة الجليدية تعلو وجهه:

-أمك ماتخصنيش، العيب من الأول عليكِ إنتي.

ورغم النظرات المهينة التي يرمقها بها إلا أنها قالت متسولة مشاعره من جديد:

-أنا غلطانة، وصدقني مش ها يحصل ثاني.

حاولت التودد إليه بشكلٍ حميمي، لعبت بجراءة على مشاعره الذكورية، وحاولت تحفيز الرغبات الغرائزية به بملاطفات خبيثة تشعل العاطفة بالجسد؛ لكنه لم يتأثر مطلقًا مما ألقها، وقبل أن تواصل ما تفعله، نبذها بالابتعاد عنها.. تطلعت إليه بغرابة، كانت دومًا تنجح في جره لشباك أنوثتها، ومع ذلك بدا كالصنم، لا يبالي بما تمنحه له. بلعت ريقها، وسألته بقلبي واضح عليها:

- "تميم" رد عليا، إنت ناوي على إيه؟ خلاص سامحتني؟ قولي، ماتفضلش ساكت كده.

اتجه نحو باب الغرفة ليقول لها بغموض أربكها:  
- كل وقت وليه أدان.

ضاقت عينها متسائلة في توتر:  
- قصدك إيه؟

تجاهلها مبتسما ابتسامة جانبية أثارت حفيظتها، تبعته متسائلة في جزع:  
- رد عليا يا "تميم".

إشارة صارمة من سبابته أوقفها أمرا بما يشبه التهديد:

- مكانك، ماتطلعيش برا الأوضة دي.. ده لو مش عايزة تخسريني!  
هزت رأسها في انصياع، ودون إعادة التفكير قالت، والقلق يعتريها:

- حاضر ..... !!!

.....

## الفصل الثامن والأربعون

على الرغم من مغيب الشمس وحلول الظلام إلا أن هذا لم يمنعه من القيام بتلك الزيارة الاستثنائية لها، ليطرق على الحديد وهو ساخن. لم تتوقع "بثينة" رؤية ابن أختها واقفاً على أعتاب منزلها، بالطبع كان من البديهي أن تظن أنه قد جاء لتهديدها، وربما الانتقام منها لفضحه بوقاحة؛ لكنها كانت أقوى من الشعور بالضعف أو الندم، رمقته بنظرة مستخفة به، وسدت عليه المدخل متسائلة بفضافة:

جاي ليه يا ابن "بدير"؟

رد عليها "تميم" بنوعٍ من العجرفة، وهو يجوب عليها من رأسها لأخمص قدميها بنظرة احتقارية صريحة:

-كويس إنك عارفة أنا ابن مين، وابن "بدير" لو ليه حق عند حرمة هياخده برضوه!  
استشعرت التهديد من نبرته ونظراته، فاتخذت موقفًا هجومياً، وقالت متعمدة التقليل من شأنه بأسلوب سافر:

-إنت جاي تهددني في بيتي؟ دي القوالب نامت والأنصاص قامت.

فرد ذراعه ليستند على حافة الباب، وانتصب بكتفيه متطلعًا إليها بنظرة خالية من أي عطف، ثم استطرد يقول بصوتٍ أقرب للفحيح، تسلل إلى بدنها وأرعبها:

-التهديد دي للهفأ، أنا بأجيب حتي بإيدي، ومن كل واحد جاب في سيرتي بالغلط.  
لن تنكر "بثينة" أنها شعرت بالخوف من طريقة تحديقه به، لم يظهر عليه المزاح، كان يقتلها بنظراتها، على الفور تبدلت تعبيراتها للحزن، وادعت النحيب، ثم قالت بصوتٍ متقطع:

-كل ده عشان بأحمي بنتي؟ بقي تهون عليك يا "تميم"؟ تضربها وعاوزني أسكت، حرام والله، طب واللي في بطنها؟ عاوزها تسقط؟ ده أنا أم، وبأحس بضنايا.

أطلق ضحكة عالية هازئة بها قبل أن يصمت فجأة ليقول ساخرًا منها:

-إيه الحنية دي كلها؟ بس تصدقي مش لايقة عليك خالص!!

واصلت عويلها قائلة:

-الله يرحمك يا "غريب"، موت وسبتنا آ....

اخشوشنت نبرته على الأخير، واشتدت عروقه، حين قاطعها بغتة:

-بلاش جو الصعبيات ده لأحسن مايباكلش معايا، اللي مات مات خلاص، ولو عاوزة الحي يحصله فأنا جاهز!

عفويًا تلمست عنقها مرتعدة من فكرة إقدامه على زهق روحها، أوحى لها هيئته الغريبة أنه قادر على تنفيذ ذلك دون أن يجفل، سألته من تلقاء نفسها آملة ألا تكون هي المنشودة بتهديده الضمني:

قصدك عليا؟ أهون عليك؟ عاوز تموتني يا "تميم"؟ ده أنا أمك الثانية

رد مصححًا بوقاحة:

-أنا ماليش إلا أم واحدة..

ثم صمت للحظة قبل أن يكمل وصلة إرهابها:

-اللي يمسيني آخرته كفن ونعش، فاللي يجي في دماغك يا خالتي، إنتي، بنتك، ابنك .. مش فارق معايا، لا دم ولا نسب، ولا صلة رحم! أصل في كتير عاوزين الدبح، والناس ما تصدق تترحم عليهم.

شحب وجهها بشكلٍ مخيف، خاصة مع إشهاره لمدية صغيرة أمام عينيها فجأة، انتفضت لاطمة على صدرها، وقد كتمت شهقة مذعورة/ وجستها في جوفها. سأل "تميم" بطرف المدية المدبب أسنانه الجانبية، خاتمًا حديثه بما يشبه النصيحة:

-أحسنك تصلحي الليلة بدل ما تردم في الآخر عليك.



هزت رأسها بإيماءات متعاقبة تعبر عن قبولها، وبإبهامه أعاد النصل الحاد إلى جرابه..  
كان على وشك الانصراف؛ لكنه تذكر جملة جده التي أوصاه بتريدها على  
مسامعها قبل أن يرحل. راقب ردة فعلها عن كثب، فعمد لتنفيذ ذلك حرفيًا، وقال  
وهو يتجه للدرج:

-أه صحيح.. لسه بتشيلي الفلوس تحت البلاطة جمب سريرك؟ ولا غيرتي النظام؟  
تلبكت وردت بذعر:  
-إنت.. بتتكلم عن إيه؟

اكتسب وجهه طابعًا غامضًا أصابها بمزيد من الخوف، تحدث من زاوية فمه يودعها  
مشيرًا بإصبعه على جبهته:  
-سلام يا خالتي!

لم ينظر نحوها مستشعرًا حالة الذعر البادية على تقاسيمها، وهبط الدرجات مدندنا  
بصافرة بطيئة لاستفزازها، غمره شعورًا عظيمًا بالارتياح افتقده لوقت كبير، حان  
وقت الثأر، ورد الاعتبار!

.....

عاد "تميم" إلى أرض الواقع متأملًا من حوله بنظرات عابرة، جالت عيناه على  
الأوجه المتزاحمة، والتي ملأت مدخل البناية تقريبًا. حرك رأسه للجانبين محاولاً  
الرؤية من بين تلك الرؤوس المتداخلة؛ كان يبحث عنها تحديداً، ولمحها من على  
بعد فتأهب في وقفته نافضاً وراء ظهره غضبه الذي اندلع قبل قليل. رفعت "فيروزة"  
طرفي ثوبها حتى لا تتعثر في خطواتها خلال سيرها خلف توأماتها العروس، فالذليل

الذي امتد لما بعد أطرافه شكل عائقًا مزعجًا لها، تابعتها بنظرات مسرورة لفرحتها الظاهرة عليها، لمسة جادة من يد "علا" على كتفها أجبرتها على الالتفاف والنظر نحوها، فاقترحت عليها رفيقتها؛ وكأنها تفرض الأمر عليها:  
-تعالى عشان تركبى معانا.

سألتها "فيروزة" باندھاش، غير متوقعة أن يبادر أي أمر آخر لذهنها:  
-أركب فين؟

ردت ببساطة، وتلك الغبطة ظاهرة عليها:  
-معايا أنا و"آسر".

على الفور تحولت أنظارها نحو السيارة المصطفة خلف سيارة العروس، لتجد ذلك السمج يقف عند مقدمتها، عاقدًا لذراعيه أمام صدره، أبعدت عينيها عنه، والتفتت تسألها باستغرابٍ مستنكر:

-هو مش رجله مكسورة؟ بيسوق إزاي أصلاً؟  
ربما لم تنتبه لتعافيه، فأجابتها بمنطقية:

-ما هو فك الجبس من كام يوم، أنا كنت معاه، يالا بقى قبل ما يتحركوا.  
ردت عليها معذرة بوجه منقلب:

-مش هاينفع يا "لولو"، أنا وعدت "همسة" إني هاركب معاها.  
وبديهيّة معروفة كما المعتاد سألتها "علا":

ليه هي أخت العريس مش هتركب؟

نفت بزفيرٍ منزعج:

-لأ.. هي مش موجودة هنا أصلاً.

هزت رأسها معقبة عليها:

-تمام.. فهمت.. عموماً احنا وراكو..

ثم احتضنتها دون مقدمات، وهنأتها بلطفٍ مرح:

-ومبروك يا قلبي

ربتت على ظهرها تجاملها:

-الله يبارك فيكي.

عضت "علا" على شفتها السفلى، وقد حانت منها نظرة سريعة نحو "آسر"، لتقول

بعدها بتنهيدة هائلة:

-هابقى أقرصها في ركبتيها.. مش بيقولوا كده برضوه؟

ابتسمت "فيروزة" وهي ترد:

-أيوه.. عشان تحصيلها في جمعتها

خرج من جوفها تنهيدة أخرى راجية رددت خلالها بأمل كبير:

يا ريت

.....

استقرت في المقعد الخلفي بعد ترتيب ثوبها، ليكفي المساحة الشاغرة المخصصة لها، وتلميحات "فيروزة" باتخاذ حذرهما حتى لا يتجعد ترن في أذنيها، بالرغم من

عدم تحديقها بها. بدا كل شيء مشوشًا، مربكًا، ومتداخلًا في عقلها. حاولت "همسة" السيطرة على كم الأفكار الحائرة التي تسبح في فضاءات خيالها، لكنها فشلت، ربكتها أقوى من قدرتها على إيقاف الصخب الدائر في رأسها.. كانت الليلة في بدايتها؛ لكن أغلب قواها مستنزفة، مرهقة، ومتوترة. انتفاضة خفيفة اعترت جسدها حين التصق بها "هيثم"، بدا الأخير متحمسًا للغاية، على عكسها، وبخجلٍ زائد أخفضت نظراتها سريعًا عندما مدحها بنظراتٍ نهمّة، مليئة بالرغبة:

-زي القمر يا "هموسة".

تخضب وجهها بمزيدٍ من الحمرة الدافئة، فيكفيها ما ألقى على مسامعها من أمور مخجلة طوال الأيام الماضية من كل امرأة تمتلك خبرة لا مثيل لها، كنصائح جادة ومثالية للحصول على حياة زوجية مستقرة، تنعم فيها بالجانب الحسي والوجداني في العلاقات الحميمة مع زوجها، أحست بشرارات من الخجل الممتزج بالخوف وقد تبادر إلى ذهنها تلك التلميحات المتجاوزة -وربما البذيئة- عما يحدث في ليلة العرس تحديدًا بعد انصراف المدعويين. أتى صوتها مهتزًا وهي ترد عليه بعد برهة مدركة أنه لا يزال ينتظر ردها:

-شكرًا.

تجمدت في مكانها مترددة للحظاتٍ، لم تتوقع أن يقود "تميم" السيارة، خاصة بعد أنباء القطيعة التي أشيعت في الأيام الأخيرة بينه وبين ابن خالته؛ لكن على ما يبدو كانت الأمور عادية، ولا مجال للخلاف أو الخصومة، كلاهما يبدوان طبيعيين، وإلا لما كان الأول يقود السيارة له. تشجعت "فيروزة" ملقبة وراء ظهرها كل ذلك

اللغو، وجلست في مكانها الشاغر - مثلما وعدت توأمتها - عاقدة العزم على ألا تسمح له بالنقاش معها فيما يخص ذلك الحريق المشؤوم، ليبقى الماضي في مكانه دون نبش. تخرجت حين وجدته يمد ذراعه فجأة نحو التابلوه، شعرت بتلك الخفقة الموترة تجتاحها، وكان كل ما فعله ضبط إحدى الألعاب المتحركة الموضوعة عليه حتى لا تسقط. سدد لها "تميم" نظرة غريبة نافذة من تلك المسافة القريبة، شعرت وكأنها تخترقها، وتعري أسرارها المخبأة.

عبست "فيروزة"، وانعقد حاجباها، ثم رمقته بنظرة منزعة تنذره بعدم تكرار الأمر، ومع ذلك قابلها بابتسامة غامضة؛ وكأنه يظهر لها عدم انصياعه لأوامرها الصامتة. نفخت في سأم، وأشاحت بوجهها لتحقق في الطريق عبر نافذتها، وزع "تميم" نظراته بينها وبين العروسين قبل أن يتنحج بخشونة لينطق بعدها موضحًا:

- احنا هنطلع على طريق الكورنيش، هنلف هناك شوية، ومنه هنرجع

علقت "فيروزة" بنزق؛ وكأنها تفرض عليه المسألة كأمر واقع لا نقاش فيه:

- "علا" و"أسر" و"رانا، أنا هاعرفهم رايجين فين عشان منتوهش من بعض

تحولت تعابيره للتجهم، وغامت نظراته لنطقها باسم هذا الكائن المتطفل مجردًا من أي ألقاب، رافعة الكلفة بينهما، مما استفزه بشكلٍ لا يطاق. تنفس بعمق ليثبط أي مشاعر ناقمة تتسرب إليه، وقال باقتضاب:

طيب.

.....

لو لم يكن محترفًا في القيادة لظن من يركب إلى جواره أنه يتعمد ارتكاب حادث مروع مع السيارة التي تتبعه؛ وكان هناك مطاردة بينهما، إلى أن تمكن من الإفلات منها ليفقدها وسط زحام السيارات بالطريق المختنق، التوى ثغر "تميم" بابتسامة منتشية لنجاحه في تضليل "آسر"، وواصل القيادة بتمهلٍ ممل لم تلاحظه سوى "فيروزة" المراقبة لحركة السيارة، سألته بعد أن أخفضت صوت المذياع الصاخب قليلاً:

هو احنا رايجين فين كده؟ ده مش طريق البيت!  
أجاب مبتسماً ببرودٍ، وتلك النظرة المتسلية ظاهرة في عينيه:  
-بناخذ لفة يا أبله.

ردت بلهجتها الجادة، لتتأكد من وضع حدود في العلاقة بينهما:  
-مش عايزين تتأخر على المعازيم.

آمال رأسه ناحيتها ليضمن التفافها نحوه، ثم قال بثقةٍ غامراً لها بطرف عينه:  
-طول ما إتي معايا ماتقلقيش.

تجهمت تعبيراتها أكثر، وظهر الاستنكار على محياها لتعلن بذلك عن رفضها لأريحيته في الحديث معها. ربما ندم لتسرعه في إلقاء تلك الجملة العابرة، بتلك الطريقة الودية المتخفية عن أي تحفظٍ على مسامعها؛ وكان القلب نطق عن العقل معبراً عن اهتمامه الجاد بها. توقع أن توبخه، لكنها لم تعقب، كانت مشغولة بالتطلع لهااتفها المحمول، نظرة خاطفة مختلسة ألقاها عليها فلاحظ أنها تراسل أحدهم، وبشكٍ مبرر له أسبابه المنطقية ظن أنه الكائن اللزج المدعو بـ"آسر"، لذا بغیظٍ

أدار المقود بحركة دائرية مباغتة، أجبرت السيارة على الانحراف عن الطريق، والالتفاف بشكلٍ قوي جعل الهاتف يرتد تلقائيًا من بين أناملها، وتميل بجسدها نحوه لترتطم بكتفه، وقبل أن تعنفه لرعونته، هتف "هيثم" من الخلف مبدئيًا حماسه: -الله عليك، عاوزين خمسات وعشرات كده.

تراجعت "فيروزة" عن توبيخه متوهمة أنه ربما يكون اتفاقًا ضمنيًا بينهما، وهي لم تنتبه له. لقي "تميم" استحسانًا من ابن خالته، وكذلك تقبلًا من طاووسه القريب منه، مما جعله يكرر تلك الفعلة قائلًا بحماس يفوقه:

أي حاجة يا عريس!

في المقعد الخلفي، كان "هيثم" مستمتعًا بذراعه الملتف حول عروسه وتطويقها، وكأنه يمهد لها بقرب احتضانه الحميمي لجسدها، لكنها لم تكن واعية لذلك، حيث تلبكت من الحركات العنيفة للسيارة، وظنت أنها ستقلب بهم إن لم يتخذ "تميم" حذره، شهقت صارخة لأكثر من مرة، لكن مال "هيثم" نحوها ليقول بمدح:

-ما تخافيش يا عروسة، "تميم" أستاذ الحركات الخطرة كلها.

ابتلعت "همسة" ريقها، وقالت برهبة طفيفة، غير تلك المسيطرة عليها بسبب طبيعة اليوم:

-رينا يستر.

هتفت "فيروزة" من الأمام بما يشبه التهكم، لتظهر مشاركتها في حوارهما:

-المهم نوصل حتة واحدة.

تعقد حاجبا "تميم" بشدة، ورمقها بنظرة لائمة لكونها شككت في قدراته القيادية،  
وقال بقليلٍ من العجرفة:

-احنا عفاريت الأسفلت يا .. أبله!

رف على جانب شفيتها ابتسامة ساخرة وهي تغمغم باقتضاب:

-باين..

لم يكثرث إن كانت تسخر منه أم تثني عليه، يكفيه أنها الآن تبتسم في حضوره،  
وعلى كلماته التلقائية.

.....

كانت لتتقبل بإلقاء نفسها في الجحيم، لتحترق حية، وتأكلها ألسنة النيران، على أن  
ترى ما يحدث الآن نصب عينيها. برزت عينا "خلود" من محجريهما وقد رأت  
زوجها يترجل من السيارة ليدور حولها قاصداً الجانب الآخر، وبتهذيبٍ يدل عن  
لباقةٍ لم تختبرها معه فتح الباب لعدوتها؛ "فيروزة". كانت الأخيرة جالسة في المقدمة  
إلى جواره، حيث من المفترض أن تكون "خلود" بديلتها، في رفقة زوجها. توهم  
خيالها الكثير من الأمور غير الحقيقة، معتقدة أنها كانت تحادثه بأريحية، تبتسم له  
ياغراءٍ بين الحين والآخر، وربما التصقت به عن عمدٍ لتؤثر به بأسلحتها الأنثوية  
الفتاكة؛ هكذا حُيل إليها!

تحفرت لتتنقض عليها ناقضة كل العهود التي أبرمتها مع نفسها بالظهور أمام العامة  
بالزوجة المحبة لبيتها، الطيبة لزوجها، واللطيفة مع الغرباء، لتؤكد للجميع بأنها  
ضحية اضطهاده العنيف، حتى وعدها بعدم الاتصال مع والدتها خالفته؛ وكانت  
تفني كالعادة بسرها لها، تستشيرها في كل صغيرة وكبيرة؛ تاركة إياها تتلصص على



تفاصيل حياتها. لولا قبضة "بثينة" التي اشتدت على معصمها تستحثها على البقاء، لتحركت نحوها متسببة في فضيحة كبيرة تُحطم به الهالة البريئة المرسومة حولها. همست لها أمها متسائلة من بين ابتساماتها المتكلفة، والتي توزعها على الحضور:  
-رايحة فين يا بت؟

تخشب جسدها، وانتفضت دماؤها المغلية في كامل عروقها لتعزز من رغبتها في الفتك بها، بصعوبة أدارت رأسها في اتجاه والدتها تسألها بصوتٍ محموم بغضبه:  
-عاوزاني أقف اتفرح يامه على المسخرة دي؟

بهتت ابتسامتها، وحذرتها بلهجة شديدة، حين رأت في عينيها إصرارًا على التصرف برعونة:

-اثبتي، بلاش فضايح، الناس هتتفرح علينا، واحنا مصدقنا الليلة اللي فاتت اتلمت. اختنق صوتها وهي ترد بنبرتها الساخطة:

فضايح؟ ده إنتي لسه هتشوفي الفضايح اللي بجد؟ عاوزاني أحط الجزمة في بوي وأرضى بواحدة زي دي ماتسواش نكلة تاخذ مكاني؟ أنا مراته، مش هي! أنا المفروض اللي أبقى معاه مش هي!

ردت عليها "بثينة" بتبرم، وتعبيراتها تحولت للعبوس:

-ما إنتي اللي صممتي تفضلي هنا.

قالت بأنفاس هادرة رغم خفوت نبرتها:

-مجاش في بالي إنه هيوصل "هيشم"، فكرت بعد اللي حصل بينهم مش هيروح معاه في حته.

شردت نظرات أمها، وقالت بتوجسٍ حقيقي:

-محدث عارف جوزك يفكر إزاي اليومين دول!!

واصلت "خلود" هجومها المتحفز على غريمتها، فلعننتها قائلة:

-وطبعا بنت ال(...) دي مصدقت تستفرض بيه، مالهاش كبير يلماها ال (...)!

عللت أمها وجودها معه قائلة:

-أكيد جت صدفة.

استنكرت جملتها تلك، وانفجرت تزار في وجهها، بالرغم من خفوت صوتها عن حولها:

-مافيش حاجة صدفة يامه، البت دي سهونة ومش سهلة، دي خطافة رجالة.

نصحتها "بثينة" بهدوءٍ عليها تصغي لها:

-سيبك منها دلوقتي، هنتعامل معها بعدين، إنتي روعي لجوزك، وإنتي بتضحكي في وشه، ماتحسس هوش إن في حاجة، ولا إنك غيرانة وآ...

قاطعتها محتجة بشدة على كلماتها الأخيرة، وتلك النظرة الاحتقارية تغلف عينيها:

-أنا أغير من السنكوحة دي؟ على إيه؟ دي ماتسواش جزمة في رجلي!

جارتها في ازدرائها المهين لها، وأضافت بنفس أسلوبها الناصح:

-كويس، اتعاملي معاها كده، واترمقي على جوزك قصاها، خليها تفلفل وتطق منك.

نفخت قائلة بغلي، دون أن ترتد نظراتها عن "فيروزة":

-ماشي يامه.

أوصتها مكررة نصيحتها حتى لا تتصرف بهوجائية:

-بالراحة ومن غير عصبية

.....

على ما يبدو كان من العسير عليها أن تخرج من السيارة، دون مساعدة خارجية، حاولت مرارًا وتكرارًا ففتح بابها؛ لكنه لم يستجب لها. كسا وجهها تعبيرًا مدهوشًا، - وأيضًا خجلًا- حين ترجل "تميم" من السيارة يستأذنها بتهذيب غريب عليه:

-بعد إذنك يا أبله .. استني شوية.

توقفت عن تحريك المقبض المتعثر، وتابعت بنظراتها الحائرة وهو يدور حول مقدمة السيارة، توقف بجوار بابها ليفتحه لها، ازدادت حرجًا من قيامه بتلك الخطوة، نظرًا لتعطل القفل الإلكتروني. لم تحبذ أن يظن بها أحدهم السوء، أو أن يفسر الموقف بصورة خاطئة، منحته نظرة ناعمة ممتنة مع ابتسامة مجاملة قبل أن تشيح بوجهها في اتجاه توأمتها، لتساعدتها في فرد ثوبها، وإعادة تنسيق أطرافه التي تجعدت. أرهفت السمع للصوت الأثوي الحاد الذي أتى من خلفها مادحًا:

-ماشاء الله يا حبيبي، بتفكرني بليلة دخلتنا..

نظرت "فيروزة" من طرف عينها نحو "خلود"؛ تلك الفظة بشحمها ولحمها ظهرت على الساحة، وأدركت أنها كعادتها أتت للاستعراض أمامها، وكذلك التمر على شخصها. حدث ما خمنته عن طباعها الاستفزازية، وتابعت قائلة بميوعة ثقيلة:

-وعقبال يا رب ما تزف عيالنا، ربنا يخليك ليا يا حبيبي، ويبعد عنك عين الحسود.

لم تأبه بها "فيروزة"، التجاهل أفضل ما يمكن فعله مع أمثالها، سمعتها تردد عاليًا:

هاشوف العرسان، استناني مش هتأخر عليك يا سيد المعلمين.

وكالعادة لم تلق لسماجتها بالآ، بقيت واقفة إلى جوار توأماتها تدعمها معنويًا بابتساماتها الودودة وهمماتها العادية. رأت "فيروزة" نظرات "خلود" المغلولة مثبتة عليها، وبصورة سافرة، حتى وهي تخاطب أخيها:

مبروك يا "هيثم"، ربنا يتملك على خير، وتكون فعلاً تستاهلك.

رد "هيثم" بسعادة واضحة عليه يمدح خطيبته -التي باتت على وشك أن تقترن به دون زيف أو نفاق:

يا ريت أنا اللي استاهلها، هو أنا أطول القمر ده يبقى جمبي؟

رفرت "همسة" برمشيها في حرج كبير، وحدهما أو أمام الحضور لا يكف عن التغزل بها. أشار "هيثم" لها بيده يحثها على التحرك، فبدأت بالسير، ومن ورائها "فيروزة" تكلمها:

بالراحة يا "همسة".

تبعتها على مهل، لكن استوقفتها "خلود" بشدّها بغيظٍ من ذراعها، متعمدة غرز أظافرها الحادة في لحمها، ألقت عليها نظرة حاققة، وسألتهما ببرود:

إيه مافيش مبروك؟

أزاحت "فيروزة" يدها عنها، وقد شعرت بشراستها على جلدها، حدجتها بنظرة غائمة متحفزة وهي تسألها متجاهلة إحساسها الحالي بالألم:

لمين بالظبط؟

استغربت من جمودها، وقالت بتهكم سافر:

-أه صح، نسيت إنك أخت العروسة، مخدمتش بالي منك، ولولا إنك واقفة جنبها  
مكونتش شوفتك أصلاً، ماهو المثل بيقول لبس البوصة تبقى عروسة.

كركرت "فيروزة" ضاحكة قبل أن ترد ببرود استفزها سريعاً:

-دي البوصة مش أنا..

ثم ربتت على جانب ذراعها مكلمة نصيحتها النارية لها:

-وابقي اكشفي نظر عشان تشوفيني حلو.. أصل السواد اللي في قلبك من ناحيتي  
طفحت على عينك.

تبعث جملها بضحكة مستخفة بها أشعلت من غيظها، وزادتها كمدًا. تسمرت  
"خلود" للحظات في مكانها محاولة وأد مشاعرها الحاقدة عليها، حتى لا تبدو  
منهزمة أمامها. رسمت بسمتها السخيفة، واتجهت إلى زوجها الذي بادر متسائلاً  
بتهكم رافضاً تزييف مشاعر غير موجودة بينهما:

-لازمتها إيه الحركات القرعة دي؟

تأبطت ذراعه بشكل مبالغ فيه؛ كأنها تخشى هروبه، وتعلقت به كالعلاقة تشده من  
كتفه، لتبدو أكثر التصاقاً به، قبل أن تجيبه:

-هو أنا قولت حاجة غلطت؟ ده أنا بأوجب مع العروسة وأختها!

قال بتحفز:

-ماهو باين.

جذبتة ليتحرك معها وهي تهتف:

-يا لا يا حبيبي ده الزفة بدأت

استل ذراعها بقوة منها ليقول بنبرته الباردة، ونظراته نحوها خالية من الاهتمام:

-شوفيتها لوحدك.. أنا رايح عند معلمين السوق.

جاهدت لتبدو مبتسمة أمام إخراج العلي لها، وقالت بابتهاج زائد حفظًا لماء وجهها:

-وماله يا حبيبي، ما إنت ابن الكبير ..... !!

.....

## الفصل التاسع والأربعون

خرقت مبادئه السامية حول أهمية العائلة بالنسبة له، وخربت كل شيء اعتبره مثاليًا للتضحية من أجله، فقط لترضي نزعته التملكية في الاستحواذ على شخصه؛ وإن كان في ذلك إيذائه. ترك ما تعهد تجنبه ليغدو شخصية أخرى غير المتعافية، ليصبح على ما كان عليه سابقًا، عل حينها تدرك الخطأ الجسيم الذي فعلته، ودفعه بكراهية للتحول للنقيض. شتت "خلود" تفكيرها عنه، وحافظت على بسمتها الزائفة لتسير في اتجاه بعض الشابات، حيث استوقفتها إحداهن تسألها:

عاملة إيه دلوقتي؟

ردت بنفس البسمة المحافظة:

-الحمد لله

كانت تعلم في قرارة نفسها أن تلك الشابة تحاول أن تشبع فضولها بتحري المزيد من أخبارها الخاصة، جراء الفضيحة الأخيرة، وبكل جراءة سألتها أخرى:

صحيح، جوزك عامل معاكي إيه بعد اللي حصل؟ احنا شايفينكم زي السمنة على العسل!

كركرت "خلود" ضاحكة قبل أن تقضم ضحكتها لترد بخجلٍ مفتعل:

هو في زي المعلم "تميم"، ربنا يخليهولي.

ركزت الشابة أنظارها عليها، وتابعت أسئلتها الصريحة:

-يعني مش زي ما اتقال عنه؟ أصل في كلام داير في الحتة عن إنه آ.....

قاطعتها "خلود" مؤكدة بتعايير مرتخية وهي تتدلل بكتفها:  
دي كانت ساعة شيطان وراحت لحالها...

ثم أخفضت نبرتها، ووضعت يدها أمام فمها لتوحي بأن حديثها يحتوي على عباراتٍ  
مخجلة قبل أن تكمل:

-وبيني وبينكم أنا زودت العيار معاه، وادلعت عليه، وهو ما يستغناش عني.. ما إنتو  
عارفين الرجالة

افتعلت الضحك، وشاركتها الشابات في ذلك، بعد أن تحول مجرى الحوار عن  
أمرٍ شبه جامحة بين الزوجين. بقيت معهن لبعض الوقت تتبادل معهن الحديث  
الودي العابر؛ وكأنها زوجة محبة، تُلقي بالنصائح الإرشادية اللازمة، لتستحثهن على  
استرضاء أزواجهن. اختطفت نظرة سريعة نحو زوجها على أمل أن يرمقها بعينه،  
لكنه بدا مشغولاً بالحديث مع اثنين من معارفه، لم تدقق النظر فيهما، وصرفت -  
مؤقتاً- انتباهها عنه.

.....

بابتسامةٍ مبتهجة، ونظرات فرحة حقًا، أقبل "تميم" على ضيوفه الأعداء ليرحب بهم  
واحدًا تلو الآخر بحرارة طغت على مشاعره المنزعجة من تصرفات زوجته، تبادل  
مع اثنين منهما الأحضان الرجولية عن الآخرين، ليتراجع خطوة عنهما وهو يتابع  
ترحيبه بهما هاتفًا:

-حمدلله على السلامة، نورتوا المكان.

رد "منذر" بصوته الأجلش وهو يمسح بنظراته المكان برمته:



يا عم المكان منور بأصحابه، فين العريس أومال عشان نباركله؟

أجاب عليه مستخدماً يده في الإشارة:

-بيجهز للزفة.

علق "دياب" مازحاً وهو يلوح بذراعه:

آه مين أده.

التفت "تميم" نحوه ليرد غامزاً له بطرف عينه:

يا سيدي احنا فيها، انوي إنت بس، والتساهيل على الله.

لمعة خفية غطت عينا "دياب" قبل أن يدمدم بتنهيذة بطيئة:

-ريك كريم.

انشغل الاثنان في حوارهما المازح، بينما تباعدت نظرات "منذر" عنهما، على ما يبدو كان محققاً بنظراتٍ مطولة بأحدهم، زادت نظراته تجهماً، وقد انعكس الضيق على محياه، فبعض الوجوه كانت مألوفة له، تربطه بينهم معارك سابقة، ومشادات عنيفة، وحتى يقطع الشكوك التي تساوره استدار نحو رفيقه "تميم" ليربت على كتفه، ثم سأله بهدوء، وعينه تتركزان على وجهي كلاً من "فتحي" و"اسماعيل":

-باقولك إيه إنت تعرف الناس دي؟

جال "تميم" بنظراته على معظم الأوجه المتجمعة في هيئة تكتلات بشرية متسائلاً بحيرة:

-أنهو ناس؟

أوماً بعينه متابعًا توضيحه الغامض:

-اللي هناك، قاعدين نواحي الحاج "عوف".

ضاقت عينا "تميم" بشك وهو محقق بهما، سكت للحظات؛ وكأنه يعتصر ذهنه لتذكرهما، وللواقع كانت مرته الأولى التي يلاحظ فيه وجودهما، لذا رد نافيًا:  
-لأ.

أطبق "منذر" على شفثيه، وتبادل نظرات غريبة -شبه صارمة- مع أخيه الذي بقي صامئًا هو الآخر، رغم تبدل تعابيره للتجهم أيضًا؛ وكان بينهما إشارات غير منطوقة. تنحح "تميم" قبل أن يتابع مجددًا من تلقاء نفسه:

-بس شكلهم من قرايب العروسة، خالها واقف معاهم.

رد "منذر" بوجهٍ مقلوب:

طيب.

كان يملك من الفراسة ما يؤكد له حدسه بوجود خطب ما بهما، صمتهما المستريب، نظراتهما الحذرة، وحتى هدوئهما غير الاعتيادي الذي ساد فجأة. لاحظ "تميم" امتعاض وجهيهما، فتساءل باهتمام:

في حاجة قلقاك يا "منذر"؟ إنت تعرفهم؟

أجابه بتحفظٍ بعد زفيرٍ بطيء:

-بص من الآخر كده، الجماعة دول بتوع مشاكل وحوارات كانت معانا من قريب، فخذ بالك منهم!

قال "دياب" دون احتراز:

-بس احنا علمنا عليهم.

استرعت كلماتهما الجادة كامل انتباه "تميم"، وتساءل مستوضحًا:

-مشاكل إيه بالضبط؟

لم يكن الظرف مناسبًا للتطرق لمثل تلك المسائل الشائكة، وبالتالي رد "منذر" متهرّبًا منه:

-بعدين .. هتقابل معاك وتكلم على راحتنا.

التفت "تميم" برأسه نحو أحد الرجلين، وكان يحدق بـ "منذر" بكراهية واضحة، بدا ذلك جليًا على تقاسيم وجهه، ولم يكلف نفسه عناء إخفاء مشاعره، توقف عن التحديق به ليلتفت نحو "دياب" حين هلل مازحًا وهو يصفق بيديه:

يا جدعان احنا في فرح، خلونا نفرش، ونروق على العريس، قبل يرجع يندم ويغني ظلموه.

ضحك "تميم" على طرفته، وأيده غامزًا له بطرف عينه:

-ده ليلته الكبيرة

هز "دياب" رأسه مضيئًا بعبوس زائف:

-مضبوط، لأن الغم جاي بعدين، إنت ناسي إن النكد أسلوب حياة الحریم عندنا.

.....

في القلب ضغائن ما زال يحملها في طياته، لا يقدر الزمن على محوها، لكونها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشاعر الحسية والوجدان. توقفت "حمدية" بالركن تدعي ابتسامها لمن اجتمع بالقرب من زفة العروسين، ومع هذا تشتت أنظارها عن الجميع، وشردت تتذكر ماضيها البعيد. كعادة معظم العائلات بالمناطق الريفية يتم تزويج الإناث في سن مبكرة؛ بمجرد بلوغهن، وقد لا تصلن أعمارهن لسن الخامسة عشر في بعض الأحيان، وبالتالي يلتقى على كاهلي تلك الفتاة الصغيرة مسئولية أفراد عائلة بأكملها، وتحمل عبء تأسيس أسرتها بالإيجاب.

في تلك الفترة الزمنية البعيدة، كانت "حمدية" في الرابعة عشر من عمرها، تكبرها "سعاد" إحدى بنات البلدة بعامين، لم يكن الفارق المادي بينهما كبير، كلتا الفتاتين من عائلات بسيطة؛ لكن تمتاز الأولى بحرص عائلتها على ذهابها للمدرسة، وکلتاهما كانتا مرشحتين لنفس الشخص؛ "اسماعيل" الابن البكري لعائلة "أبو المكارم". وقعت "حمدية" في حبه منذ اللحظة الأولى، وتمنت بشغف أن تكون زوجته، لما يمتاز به من سمات جسمانية جيدة، بالإضافة لطباع كيسة، وشخصيته القوية غير الاتكالية. جاءت الصدمة حينما رفض الارتباط بها، وفضل عنها "سعاد". نبعت الكراهية نحوها من أعماقها، خاصة مع إنجابها لأول أبنائها، والذي من المفترض أن تكون هي من تحمله بين أحشائها.

وقبل أن تتعاطم الكراهية بداخلها، وتأكلها الغيرة أكثر، سعت للموافقة على أول من يطرق بابها، حتى لا يطاردها لقب العانس. كان المرشح آنذاك فقيرًا، شبه معدم، وقبلت به. استمرت خطبتها له لبضعة سنوات ريثما يعود من الخارج نهائيًا بعد جمع ما يمكنه من أموال لبناء منزل الزوجية، وللأسف قُتل زوجها المستقبلي في حادث عرضي يخص الثأر قبل أسبوع من عرسها. عزفت عن الخطبة لبعض الوقت حدادًا

على الفقيد، رغم عدم وجود أي مشاعر تربطها به، ومع هذا جددت سعيها للارتباط بغيره. وبسبب أطماعها وافقت على الزواج من رجل ثري - وإن كان يفوقها عمراً - نكاية بغيريمتها القديمة، لتظهر لها ثرائها، فقد ظلت "سعاد" تعاني من عثرات مادية مع زوجها لوقت لا بأس به.

أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، ومات الزوج قبل موعد الزفاف ببضعة أيام .. وقتها خشيت معظم العائلات من تكرار نفس المصير الأسود المشؤوم الذي اقترن بها، وعزف أغلبهم عن ترشيحها لأي شاب يسعى للزواج، إلى أن ابتسم لها الحظ بعد سنواتٍ عجاف، وتعرفت إلى "خليل"؛ صهر عائلة "أبو المكارم"، حيث تزوجت شقيقته "آمنة" من الشقيق الأصغر لـ "اسماعيل". بعد فترة وجيزة كانت تُزف إليه، لتصبح تتبع عائلة حبيبها القديم بشكلٍ غير مباشر.

تبدلت الأحوال، ورأت على أرض الواقع ما حظيت به "سعاد" من ترفٍ، ونعيم، وأربعة أبناء؛ ذكر، وثلاثة إناث، بالإضافة للمشاعر المحبة من زوجها نحوها، بينما كانت لا تزال قابضة في بؤسها وشقائها، مع انعدام مشاعر اللطف بينها وبين "خليل"؛ أصبحت حياتها جحيمًا يوميًا. لم تتغلب "حمدية" على مشاعرها الناقمة، وركزت أهدافها على تحقيق الثراء بأي وسيلة، لتناطح "سعاد" الرأس بالرأس، اعتقدت حين تتباهى في حضورها بأنها أنجبت من الأبناء الذكور ثلاثة، فقط لتظهر تفوقها عليها في تلك المسألة، أن مشاعر الغيرة ستظهر لديها، لكنها ببساطة لم تهتم، بل لم تكثر مطلقًا، وبدت هائلة في حياتها المرفهة. ورغم ابتعادها عنها لسنوات إلا أن مشاعرها الحاقدة لم تخبت يومًا؛ وإن كانت لا تظهر ذلك علنًا.

أفاقت من شرودها الحائق على صوت إحداهن تهنئها، ابتسمت بتكليف، وردت عليها:

-الله يبارك فيكي.

لمحت "سعاد" من زاويتها، فغمغت مع نفسها بحقدٍ:

-كان زماني مكانك، لولا الحظ!

رأت "سعاد" نظراتها نحوها، فتقدمت نحوها متسائلةً بابتسامتها الودية:

-مالك يا "حمدية"؟ إيه اللي مضايقتك؟

ردت بتجهم:

-ما فيش حاجة تقدر تضايقني.

ناكفتها بمزاح:

-أصله باين على وشك، في حد قالك كلمة كده ولا كده؟

علقت عليها بسخطٍ، وهي تترفع في نظراتها نحوها:

-محدث يقدر! ده أنا أعكزن على بلد وما اتعكننش.

ابتسمت وهي ترد:

في دي معاكي حق، ربنا يصلح حالك.

نظرت لها بعينين تتقدان غيظًا قبل أن تنطق بتبرم:

-ما هو متصلح، خلي دعوتك لنفسك.

.....

-الحكاية جت بسرعة.

تعلل "خليل" بتلك الجملة السخيفة حين لم يتوقف "اسماعيل" عن معاتبته بين الحين والآخر، لعدم التزامه بالقواعد المتبعة عند قيام أحدهم بالتقدم لخطبة إحدى بنات العائلة، بدا رده سمجًا، وغير مراعٍ لضيافته، فامتلاً وجهه بأمارات الضيق، واستمر يلومه:

-مكانش يصح بردك، ده أنا عمها الكبير، يعني عصبها على طول، في مقام أبوها، ولا إنت نسيت الأصول يا "خليل"؟

نفخ في سأم من مناقشته العقيمة معه، وتكرار نفس الجمل السخيفة كلما رآه؛ وكأنه ارتكب جرماً لا يُغتفر، ويتبرم رد عليه:

-لا مانستش، وأنا خالها .. والخال والد يا حاج "اسماعيل"، وعملت الصح والمناسب معاها.

لم يشاركهما الحوار في البداية، كان مشغولاً بمراقبة خصمين استفزاه من قبل، وأحرجاه علناً، أبعد نظراته عنهما ليدير رأسه في اتجاه "خليل"، بدا "فتحي" متعصبًا ومتحيزًا ضده، ثم لكرز بعكازه على الأرضية معبرًا عن احتجاجه، وحاوره بصوتٍ غلفه التزمّت:

-بس كان المفروض عريسها يخطبها من عندنا.

استدار نحوه مبتسمًا ابتسامًا باهتة، ورد بدبلوماسية:

-تتعوض يا حاج "فتحي" في اللي جاي.

لم يستسغ الأخير رده، وأضاف بنبرة حاقدة متعمدًا تصعيد الغضب بين القرابين:

-ولا شكلنا مانشرفش نسايبكم؟

رمقه "خليل" بنظرة قوية حانقة، كان يعلم جيدًا أنه من النوع المثير للمتاعب بأسلوبه المستفز والمحفز للحمية الذكورية، وكل من تعامل معه يُدرك براعته في توغير النفوس، وملء الصدور بالغل، لذا ببرودٍ شديد رد عليه:  
-لأ إزاي، ده إنتو فوق راسنا.

ولكون "اسماعيل" يعلم أنها وسيلته المعتادة لإثارة الشغب، خاصة فيما يتعلق بقرينته "أسيف"، وما حدث مؤخرًا من شجار دموي عنيف، ربما قد يتكرر إن صمت ولم يوقفه عند حده. تنحج بخشونة، واستطرد يقول له بهدوء:

خلاص يا حاج "فتحي"، مالوش لازمة العتاب دلوقتي، اللي حصل حصل.  
اضطر على مضمض أن يبتلع "فتحي" حنقه الذي تعاضم بمجرد رؤية كلاً من "منذر" و"دياب"، وكيف تمت إهائته أمام العامة، فحاول صب جم غضبه المشحون وتوجيهه نحو "خليل"، لكن الأخير كان أذكي قليلاً ليتجنب الانسياق ورائه، تجاهله ليرد على صهره:

تسلملنا يا حاج "اسماعيل".

.....

بكل ما فيها من حماسٍ وشغف، اضطرت أن تدعم موقف من اعتبرته أقرب أصدقائها -رغم الفارق العمري- في اهتمامه الواضح برفيقتها، وبالرغم من كونها تكن له المشاعر النبيلة والغالية، إلا أنها لم ترغب أبدًا أن تكون سببًا في تعاسته. اعتبرت حبها العذري له سرّيًا، مقدسًا، نقيًا، مترفعًا عن أي أهواء، ذي نوعية متفردة، ولا يجب البوح به أبدًا. لهذا لم تتردد في إظهار تعاطفها معه، حين اعترف لها بانجذابه نحو "فيروزة". قاومت مشاعرها، وقررت مساعدته في التقريب بينهما،



دون أن تخبو رغبتها أيضًا في أن يدرك ما تكنه له، وطالما أنها تحتفظ بمكانتها المميزة في حياته، لن تتوانى عن الوقوف بجواره. كانت أجدر الناس على قراءته، حيث دومًا يفضل اختبار العلاقات الغريبة عليه، كما لو أنها تمنحه شعورًا بالقوة والسيطرة؛ لكنه لم يستمر في أي علاقة انخرط بها مطولاً، فقط نزوات عابرة تحت أي رباط رسمي لتنتهي مثلما بدأت في لمح البصر، ولكونها تعرفه جيدًا، كانت واثقة أن ارتباطه برفيقتها لن يدوم، سيشعر بجفائها، وجديتها، وسيضجر منها بعد بعض الوقت، حسناً لتتركه يتذوق فقط نوعيتها المستعصية عليه قبل أن يلفظها كغيرها. جلست "علا" على مقربة من "آسر"، لم ترفع عينيها عنه، وراقبت وسامته بابتسامة رقيقة، التفت نحوها متسائلاً بتوتر:

-يعني أطلبها من خالها ولا أفاتها الأول؟ شوري عليا؟

رمشت بعينيها، وقالت بصوتٍ رقيق، لكنه جاد:

على حسب معرفتي بـ "فيروزة" مش هترضى بجو الفريند والحاجات دي، وعشان بيان إن كلامك جاد، ومش مجرد تسالي.

ضاقت نظراته نحوها متسائلاً:

قصدك ماديهاش فرصة ترفضني؟

هزت رأسها مؤكدة:

-أيوه.

ضغطت على شفثيه ليرد باقتضابٍ موجز بعدها، والحيرة تملأ تعابيره:

-أوكي..

ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، نظرت إليه "علا" بين الحين والآخر في جلستها معه بنظرات تعكس رغبتها الشديدة في الانتباه لها، لكنه كان أبعد حاليًا من وضعها في تفكيره، ابتسمت لنفسها في سخافة، قبل أعوام كان ليكون أبعد شخص عن خيالها لتتمنى الارتباط به، ولكن لشيء لا تعلمه تسلسل حبه إلى قلبها، وبات الوحيد الذي تهواه؛ وإن كان لا يعلم ذلك. قطعت بغتةً حاجز السكون لتقول بنزقٍ، عله ينتبه لأهمية وجودها في حياته:

-تعرف.. أخويا لو مكانش واثق فيا مكانش واقف على صداقتنا دي.

لاحت ابتسامة عذبة على محياه، ورد بعينين تحملقان في وجهها:

- "ماهر" أنا قدامه زي الكتاب المفتوح، وهو عارف غلاوتك عندي، وأنا استحالة أضرك، إنتي زي أختي.

غصة مريرة عصفت بقلبها، مكاتها لن تتبدل أبدًا، وترتقي للمستوى الأعلى، حافظت على ثبات بسمتها، وتابعت ببطءٍ حتى لا تظهر ارتباك صوتها:

-أكيد، ده غير إنه يهمني سعادتك.

امتدت يده لتمسك بكفها، داعبها بأصابعه بالربت على أناملها، أسبل عينيه نحوها، وقال بعذوبةٍ زادت من عذابها الداخلي:

-مش عارف أقولك إيه يا "لولو".

سحبت بتمهلٍ يدها من أسفله، وهتفت بصدرٍ مختنق متحاشية النظر إليه:

-لما خالها تلاقية واقف لوحده اتكلم معاه.

هز رأسه موافقًا وهو يرد:

تمام ..

التفت لتبتسم له بعينين تلمعان بعبراتٍ خفيفة، وأكملت قولها:

و- Good Luck

شكرها "آسر" في امتنان:

ميرسي يا "لولو"

منحته نظرة دافئة من عينيها قبل أن تحدق أمامها، لمحة خفية من الحزن طفت على صفحة وجهها الناعم رغم إنكارها ذلك، لكنها كانت واثقة أن الأمر لن يصل للنهاية تحت أي ظرف.

.....

كان محنًا في اختيار نوع الضحية التي سيرتبط بها، أرادها معدومة الخبرة فيما يخص الشأن الرجالي، غير اجتماعية تقريبًا، لا أصدقاء لها، محدودة العلاقات حتى في النطاق الأسري. باتت "فيروزة" الخيار الأنسب بمجرد أن جمع المعلومات التي احتاجها عنها، وتبقى له فقط القيام بالخطوات الجادة لإتمام الأمر. لم يكن "آسر" غيبًا كي لا يلاحظ مدى اهتمام شقيقة رفيقه به؛ "علا". أدرك شغفها به منذ اليوم الأول من وقت تبدل طريقة تعاملها معه، وتحولها لنوعٍ من الحميمية الزائدة، حتى في توافه الأمور؛ ومع هذا عمد إلى تجاهل كل ما يصدر عنها، وحصرها في منطقة الصداقة الأخوية؛ حفاظًا على الروابط الأسرية مع عائلتها، كما أنها تبعد كل البعد عن مخططاته بشأن عروسه المستقبلية. وباستشارات ساذجة مُلحة مع "علا" - للحصول على مبتغاه من صديقتها- حقق نتائج باهرة في استقطابها لصالحه.

تهادى في خطواته وهو يتجه نحو "خليل"، كان الأخير مقروءًا بالنسبة له، حفنة من النقود ربما تُذهب عقله، الطمع أسمى أهدافه، ما عرفه من "علا" عن طريق الحديث العفوي بين الصديقتين كان كفيلاً ليرسم صورة تمهيدية عنه، ويستنتج الباقي بسهولة. وببسمة واثقة استطرد يقول له حين أصبح في مواجهته، وهو يمد يده ليصافحه:

مساء النور

صافحه "خليل" على عجلة، ثم رمقه بنظرة مستطيلة متفحصة قبل أن يرد متسائلاً:

مساء الخير، أيوه؟ في حاجة؟

قال "آسر" بنفس الصوت الهادئ المليء بالثقة:

هو حضرتك مش فاكرنى يا أستاذ "خليل"؟

بوجوم رد عليه الأخير:

لأ..

تابع موضحاً حتى يساعده على التذكر:

أحنا كنا اتقابلنا قبل كده في المطعم، أنا المحامي "آسر وهبة".

عقب عليه بسخافة:

طيب.. تشرفنا، وعاوز إيه؟

تنحج قائلاً بركة مصطنعة:

-أحم .. أنا كنت عايز حضرتك في ... موضوع شخصي يخص الأنسة "فيروزة".

اتسعت حدقاته على الأخير، ورد مدهوشًا بقلقي:

- "فيروزة"! مالها؟

لاحظ تعابير المنزعجة، وقال مطمئنًا إياه:

-متقلقش يا فندم، ده كل خير.

تقلصت عضلات وجهه في امتعاض، بينما تابع "آسر" حديثه مسهبًا:

-أنا عارف إن الظرف مش مناسب، بس فكرت إنها فرصة إني أتشجع وأتقدم،

وأطلب من حضرتك إيد الأنسة "فيروزة"؟

استنكر ما تفوه به، وزجره بحدّة:

-نعم .. بتقول إيه؟ على كده بتقابلها من ورانا وآ...

قاطعته على الفور بعد أن اتجه تفكيره بابنة أخته لشيء آخر قد يفسد ترتيباته،

وهتف موضحًا:

-مش عايز حضرتك تسيء الظن، هي متعرفش أصلًا بطلبي ده، أنا جاي من

نفسي أكلم حضرتك.

هتف في استهزاء رافضًا تصديقه:

-يا سلام!

أكد عليه بثبات وثقة:

-أيوه يا فندم، حضرتك اللي قصاد ده محامي كبير، ليا لي اسم وسمعة، مش حد عادي والسلام.

لانت ملامح "خليل" قليلاً، استشعر جديته في تلك المسألة، وانتابته حالة من الانتشاء، في حين استرسل "آسر" مادحا إياها:

-كمان الآنسة "فيروزة" مثال للأدب، والأخلاق العالية.. وكل الحكاية إنها صاحبة "علا" قريبتني، وكنت شوفتها معاها وسألتها عنها، وعرفت هي مين، وده شجعني أتقدم لها بشكل رسمي، لأن عارف إن مالهاش لا في اللف ولا الدوران.

عزز "خليل" من مكانته ليقف مستقيماً بشموخ زائف، وكتفاه منتصبان نوعاً ما، ثم قال بقليلٍ من العنجهية:

-شوف يا أستاذ آ...

توقف عن إكمال جملته لتخرجه من عدم تذكره لاسم من يحاوره، كان في هذا نوعاً من عدم اللباقة، فساعده "آسر" على ذلك، معرفاً بنفسه مرة أخرى:

- "آسر وهبة" يا فندم..

رد بنبرة شبه هازئة:

-تشرفنا..

وتابع بعد توقف دام للحظة:

-بس عاوز تتقدم لبنت أختي، يبقى تمشي حسب الأصول، مش كلمتين على الواقف كده!!

رد عليه يؤيده:

تمام، وده اللي بأعمله، جيت أتكلم مع حضرتك.  
أردف موضعاً أكثر، ونظراته تحولت تلقائياً نحو "اسماعيل":  
-لأ معلىش، أنا صحيح خالها، بس عمها موجود، وهو المسئول عنها.  
لم يظهر "آسر" اعتراضه، وبدا متشجعاً وهو يقول:  
-معنديش مشكلة، وأنا جاهز أتكلم معاه.  
اكتسبت نبرته إيقاعاً مختلفاً يميل للترحيب حين رد عليه:  
-حلو .. يبقى تسييلي رقم تليفونك وأنا هاكلمك بمعرفتي.  
تبادل كلاهما أرقام الهواتف قبل أن يعلق "آسر" في حبور:  
-تمام يا أستاذ "خليل"، وهستنى أسمع منك قريب.  
لم تذبل ابتسامة الأخير وهو يرد متحمساً:  
-إن شاء الله طبعاً.  
أوماً "آسر" برأسه خاتماً حديثه معه:  
-ومبروك للعrsان.  
قال وهو يمد يده لمصافحته كنوع من المجاملة:  
-الله يبارك فيك.

.....

تكتلات بشرية تجمعت في حيز السرادق المقام به حفل العرس، مع استمرار فقرات الحفل لساعات طويلة، بعد عقد القران. انسحب "منذر" و"دياب" مبكرًا لاضطرارها للسفر باكر لأجل بعض الأعمال؛ وإن كان يشك "تميم" في وجود ما يخفيه عنه، بينما امتدت تلك السهرة لمنتصف الليل تقريبًا، وتخللها عشاءً وفيرًا يكفي لمئات الأفراد. بقيت "فيروزة" خلف توأماتها معظم الوقت على الكوشة، راقبت المشهد من زاويتها، كانت نظرات "خلود" الحاقدة مسلطة عليها، لم تخف الأخيرة مقتها الشديد نحوها، ومع هذا لم تول لها أي اهتمام، وركزت انتباهها مع المتوترة الجالسة قبالتها، أما والدتها كانت من حين لآخر تعرج عليها لتشد من أزرها، وتشجعها على تبديد أي رهبة تنتابها بشأن هذا اليوم، أما العريس فقلما جلس، سحبه رفاقه للرقص باستخدام العصي تارة، وبالأسلحة البيضاء تارة أخرى؛ وكأنها مبارزة رجولية بحته.

اتجهت عينا "هيثم" نحو "تميم" وهما يرقصان سويًا، أظهر الأول احترامه لابن خالته لصراحته الواضحة معه، فبعد مشاجرتهم الأخيرة، التقى به في نفس اليوم بالدكان -بحضور الجد "سلطان"- ليعتذر منه أولاً على تهوره، ثم ليعده بإصلاح ما أفسده؛ وإن كان في ذلك عدم رضائه. قدر مشاعره النبيلة تجاه شقيقته، وتجاوز كلاهما بوادر تلك الأزمة العائلية، دون الإفصاح علنًا عن تصالهما.

أشهر "تميم" مديته، رفعها أمام وجه العريس يتحداه:

-جاهز يا عريس ولا هتكسفنا؟

تناول "هيثم" من "ناجي" الواقف على مقربة منه خاصته، وأشهرها معلنًا قبوله:

-الكسفة دي للحرير



هلل في انشاءٍ ليستحبه على مبارزته:

حطب ورينا الجدعنة يا رجولة!

تشكلت حلقة دائرية حول كليهما ليبدأ الاثنان في الاستعراض بقدراتهما على استخدام المطواة باحترافية ومهارة عالية، خلال بعض الحركات الراقصة، وتعالى الصافرات والهمهمات الذكورية المتحمسة. سدّد "تميم" بمديته ضربة قاتلة في اتجاه ابن خالته دون أن يمسه، لمجرد إرهابه، أبدى "هيشم" إعجابه بسرعته، وقال: معلم طول عمرك.

أخفّضها "تميم" حتى لا يتسبب في إحراجها، بالرغم من تركه له في بعض الأوقات الأسبقية للتفوق عليه، لكنه لم يكن بارعًا مثله، ومع استمرار القتال الزائف بينهما سيبدو ضعيفًا، وغير قادر على مجابته، تراجع للخلف تاركًا لبقية الشباب مهمة إحاطة العريس والاحتفال معه، وقف عند الجانب يلتقط أنفاسه، وفي نفس الآن يختلس النظرات نحوها، لم ينكر أنه في بعض الأوقات وجد صعوبة في التركيز لاحتلالها بطلتها الفاتنة مشهد الكوشة، لو لم يكن في مأزقٍ مع زوجته الحالية لاختلّفت الأمور كثيرًا. أخرج علبة سجائره، والتقط منها واحدة ليشعلها، حرر دخانها الحارق من صدره دفعات متتالية. لمحتة "خلود" وهو محقق بـ "فيروزة" بنظراتٍ شبه مترددة، فاشتعلت نيران الغيرة بها، إنها زوجته، ومن حقها ألا يرى غيرها، وإلا لماذا انتظرت كل تلك السنوات لتحظى به في الأخير، وبكل وقاحةٍ اقتربت منه تسألها:

إيه عجبك؟

تنفس بعمق حتى لا يتصرف بردة فعلٍ غير محمودة أمام جملتها المستفزة. اعتبرت صمته نوعًا من التأكيد على مزاعمها، وهتفت مقترحة بمرارة:

طب ما أروح أطلبها لك من قرايبها؟ مش فكرة برضوه؟

قال ببرودٍ، وبعبارات موحية، وتلك الابتسامة المتسلية تعلو زاوية فمه؛ وكأنه يحرقها حية بكلماته:

-روحي.. أنا مش ممانع، وأقدر أفتح بيتين، طالما في الحلال.

احتقن وجهها على الأخير، لم تتوقع مثل ذلك الرد مطلقًا، ظنت أن الإنكار كالعادة سيكون وسيلته لتبرير نظراته العادية؛ لكنه باعتهما بإبداء ترحيبه باقتراحها، تحولت للنقيض، واختلج تعبيراتها المزيد من الحنق لتتطق بحدة:

-إنت هتجنني؟ عاوز تجوز عليا؟ لأ.. والبتاعة دي!

قال بتهمج وهو يستدير نحوها ليرمقها بنظرة محذرة:

صوتك ما يعلاش..

ثم لفظ دخان سيجارته في وجهها وهو يكمل بنبرة جادة:

مش إنتي اللي قولتي؟ زعلانة ليه؟

تراجعت عن حديثها أمام جديته الظاهرة على قسماته، لعقت شفثتها، ولجأت لأسلوبها الساهم في الحديث لتستميله:

-أنا بأهزر معاك يا حبيبي، مقدرش استحمل واحدة تانية تبصلك، فما بالك لو

لاقيت واحدة جت تاخذك مني، أو حتى تشاركني فيك؟ وبعدين احنا مش خلاص

اتصالحنا، وبقينا سمنة على عسل؟

نظر لها مليًا بغموضٍ استرابت منه، ولم ينبس بكلمة. تعلقت في ذراعه وأسبلت  
عينها نحوه قائلة:

-إنت بتاعي أنا لوحدي، من حقي أنا ويس.

استل ذراعها منها ليرد باقتضابٍ جعل الخوف يدب في قلبها:

هنشوف.

.....

تدرت عشرات المرات على ذلك المشهد الذي بات متكررًا على مسامعها في  
الآونة الأخيرة، لن تسمح له برؤيتها عارية حين يختلي بها، لن تتركه يلمسها؛ وإن  
كانت تحبه، لن تتمكن من النوم معه بسبب مفاجأة غير سارة نالت منها قبل  
مجيئه. أغلق "هيثم" باب المنزل بعد مشقة واضحة عليه لصرف المدعويين الذين  
انتقلوا لمنزله لتوديعه مع عروسه، نفخ في إرهابٍ محدثًا نفسه بتبرم:

-إيه ده الناس مابتخلصش؟ مش يراعوا إن لسه ورانا ليلة ثانية هتبتدي.

راقبته "همسة" من مسافة بعيدة، وهي لا تزال ترتدي ثوبها، رفضت خلعه، وما إن  
رأته متجهًا إلى الردهة الطويلة حتى توارت عن أنظاره، وأغلقت الباب خلفها. لمحها  
زوجها، وارتسمت على شفثيه ابتسامة مبتهجة، فرك كفيه معًا مرددًا لنفسه:

-أيوه بقي..

نزع سترته، وحل رابطة عنقه التي خنقته، ثم حرر ياقتي قميصه، وحل أزراه حتى  
برز معظم صدره، تنحنح يناديها بعذوبة غريبة عليه:

- "هموسة"، يا عروسة!

وقف أمام باب غرفة النوم، ودق بظهر كفه عليه مستئنذًا في الدخول بصورة مازحة:

-اللي خالغ راسه يغطيها.

تنحى بصوتٍ شبه مرتفع وهو يدير المقبض، ثم أطل برأسه أولاً وهو يدير نظراته في الغرفة باحثًا عنها، كانت تجلس على طرف الفراش تحتضن كفيها في حجرها، استقام في وقفته، ومسح كامل جسدها بعينين يملأوهما الرغبة واللهفة، استطاعت أن تسمع هسيسه المنخفض رغم صمته، أبعدت نظراتها عنه، ولكنه استمر في التقدم نحوها، وتنهد مادحًا جمالها:

-ما فيش بعد كده يا "هموس".

بلعت ريقها وردت:

-شكرا.

جلس إلى جوارها على طرف الفراش يسألها، كنوعٍ من إذابة الجليد والتوتر السائد بينهما:

-إيه رأيك في اليوم؟

همست بلعثة:

-حلو

امتدت يده ببطءٍ لتلامس كفيها، وبدأ في مداعبة جلد بشرتها الناعم بأصابعه، انتفضت هاربة من جواره كمن صعقه تيارًا كهربائيًا، ثم رفعت سبابتها تحذره بصوتٍ متلجلج:

-بص أنا مش جاهزة لأي حاجة النهاردة  
نهض واقفًا قبالتها ليحاصرها مرددًا بهدوء:  
-ده احنا هناخد وندي بشكل ودي يا "هموسة".  
ورغم الرجفة المسيطرة عليها إلا أنها أصرت على وضع مسافة آمنة بينهما، وأضافت  
بلهجة جادة لم ترق له.  
-ودي بس .. تاتش وحركات تانية مش هاينفع.  
رفع حاجبه للأعلى في استنكارٍ قبل أن يعترض بملامح شبه عابسة:  
ليه؟ ده حتى قرب حبة تزيد محبة.  
زادت ربكتها، وانعكست على بشرتها فتخضبت بحمرة حرجة، همهمت مع نفسها في  
خجلٍ كبير:  
-مش عارفة أقولها له إزاي..  
دنا منها "هيثم" ولا مس بكفيه جانبي ذراعيها، داعبهما صعودًا وهبوطًا بحركة بطيئة  
متأنية، ثم أحنى رأسه عليها، كما لو كان على وشك تقيلها:  
-إنتي مكسوفة مني ولا إيه؟  
دفعته من صدره بقبضتيها رافضة اقترابه الحتمي منها بأي شكل، وصاحت محتجة:  
-بص أنا .. Out of service (خارج نطاق الخدمة) النهاردة.  
تعقدت ملامحه متسائلًا في حيرة:  
-وده معناه إيه؟

قضمت شفتها السفلى، وأدركت أنه لم يفهم المغزى من جملتها المتوارية، ومع ذلك تشجعت لتقول له، ليكف عن ملاحظتها في تلك الليلة:

-هات ودنك، وأنا أقولك.

اتسعت عيناه في صدمة حين همست له بزيارة استثنائية لضيفتها الشهرية بعد تأخرها لبضعة أيام بسبب توترها الزائد في الفترة الأخيرة، واليوم تحديداً قد أتتها لتقضي على كامل فرصته في التودد لها، تهدل كتفاه، وحل العبوس على وجهه، نظر لها في غيظٍ لاعتناً بضيقٍ منزعج:

-يادي الحظ ..

ربتت على كتفه قائلة بركةٍ لطيفة؛ وكأنها تواسيه:

-معلش، أنا أسفة.

فرك مؤخرة عنقه متسائلاً بوجهه المكفهر:

-ودي بتقعد كثير؟

هزت كتفها قائلة ببساطة:

-يعني.. ممكن أسبوع

هنا انفجر صائحاً بغيظٍ غلف حتى نظراته:

حسبي الله ونعم الوكيل.

وضعت "همسة" يدها أعلى منتصف خصرها ترمقه بنظرة لائمة، وعاتبته:

-بتقول إيه؟

زفر متبرماً وهو يدعي كذباً:

خلينا ناكل أحسن، مش هايبقى جفاف عاطفي، وجوع كمان.

أخفت ابتسامة متسلية كانت تحاول الظهور على شفيتها بسبب تدمره الذي بدا طفولياً عنه رجولياً، راقبته وهو يخرج من الغرفة مجرداً أذيال الخيبة ورائه لتتنفس بعمق، مستشعرة أنها ربما تكون فرصة جيدة للتفاهم أكثر، وللتقارب وجدائياً عنه جسدياً.

.....

أصر عليها أن ترتديه خصيصاً له هذه الليلة، وافقته دون نقاش، بدا الأمر يستهويها أيضاً، وبالتالي عاد كلاهما إلى منزله ليحصلوا على المزيد من الخصوصية بعيداً عن نظرات عائلته المراقبة لهما. وقفت "خلود" عند حافة الفراش، بثوب ليلة دخلتها الأبيض، مزدانة بمساحيق التجميل، وتتمايل في ميوعة مغرية بجسدها الذي انتفخ قليلاً، نثرت العطر النفاذ على جانبي عنقها، وتخيلت في عقلها بقضاء ليلة حميمة دافئة، في أحضان زوجها، تعيد ترميم الشروخ بينهما، خاصة أنه بدا رائع المزاج قبيل انتهاء العرس. التفتت نحو "تميم" الذي ولج للغرفة بعد أن نزع سترته، وبقي بقميصه الأبيض، سألته بأنفاس مضطربة من انفعالها:

-إيه رأيك يا حبيبي؟

دار على تفاصيلها الأنثوية المشوقة -والبادية من خلف قماش ثوبها- بنظرات متمهلة، بطيئة للغاية، أصابتها بالحماس والإثارة، وتنهى يقول بخفوت:

جميلة من برا زي تمللي.

في البداية لم تستشعر الغرابة من جملة المركبة، وأصابها لوسة مؤقتة بتغزله الغريب منها، لم يكن على عادته معها، لكن لمدى احتياجها الشديد إليه اعتقدت أنها سلبت عقله بمفاتها المثيرة، وبالتالي لن يقاوم إغراء جسدها الفاتن، مهما ادعى تجاهله لها، ستدفعه الأشواق الراغبة إليها. منحها "تميم" تأكيدًا على رغبته فيها بإيماءة إعجاب أخرى من رأسه، وأضاف يسألها بجدية:

لسه عاوزاني؟

ردت دون تفكير:

-أنا مقدرش أستغني عنك، إنت بتاعي ويس.

سألها معمقًا نظراته نحوها؛ وكأنه يختبرها:

حتى بعد اللي حصل بينا؟

أجابت ببساطة رغم ملاحظتها للنفور الظاهر على تعبيراته:

-وايه يعني؟ طالما بيعجبك، أنا تحت رجلك يا حبيبي.

ران الصمت في الغرفة للحظة، شرد يفكر في خطوته التالية؛ وكأنه يمنح نفسه الفرصة لحسم أمره قبل الإقدام عليه فعليًا. راقبته "خلود" بإمعانٍ حائر، حيث استغربت من انجرافه وراء شهوته بتلك السهولة، كان يقاوم توددها الملح عليه في الأيام السابقة، محتجًا ببغض على محاولاتها المضنية لجره للفراش، أما في تلك الساعة فكان على النقيض؛ مختلفًا كليًا، نهمًا، طامعًا فيها، لم تترك ترددها يحيرها، وقالت بتنهيدة مفعمة بالرغبة:

-أيوه..



تبين من أنفاسها مدى حاجتها أيضًا إليه، وبذل ما في وسعه لتأجيج مشاعرها نحوه. خلع قميصه بروية، ونظراته الغامضة ما زالت عليها، ثم استل بنطاله، وتقدم نحوها ليبادر بتقبيلها من شفيتها بقبلة عميقة بث فيها مشاعرًا قوية، وأغرقها بعشرات من القبلات الناعمة على كامل وجهها حتى تأوهت من الشوق والحماس. سحبها برفق نحو الفراش ليستلقيا سويًا، ومنحها نظرات والهة لعاشق أضناه عذاب الحب. ترك أصابعه تتجول على بشرتها، وأعطاهها المزيد من المحفزات المثيرة التي أطلقت شرارات الحب في أنحاء جسدها، وأشعلته بحاجته الماسة إليه ليروي ظمأه.

خاضت معه تجربة حاملة ومختلفة أطلقت فيها العنان لكل مشاعرها المكبوتة، تناست ما حولها مستسلمة لتيار الحب الجارف، وتجاوب حواسها بطريقة لينة وطامعة في غرامه الذي يُذهب عقلها، ويدفعها لحافة الجنون .. وقبل أن يجرفه طوفان الشهوة لأبعد من ذلك، تباطأت لمساته، وتوقف عن ممارساته الزوجية لتشعر "خلود" بشيء مريب ينتابه. انطفأت الرغبة فيها فجأة، وتحولت للوح من الجليد المتصدع حين نطق "تميم" في أذنها، بصوت أقرب للفحيح:

إِتي .. طالق ..... !!

.....

## الفصل الخمسون

الميل للتملك؛ هو غريزة موجودة بالنفس البشرية، قد تتحول بفعل كلاً من الغيرة، والأنانية، والمشاعر المندفعة غير الناضجة إلى نزعة هوسية؛ إذا تم التمادي في الأمر بشكل مفرط؛ وبالتالي تتحول من مجرد حب طبيعي إلى رغبة مرضية وغير صحية، تؤدي في النهاية للهوس بفرض السيطرة على الآخرين، أو أحد بعينه. حينئذ ينتهي الأمر بانتهاك الخصوصية، والسعي بشتى الطرق للتحكم في تفاصيل حياة الأشخاص صغيرة كانت أم كبيرة، لضمان عدم فقدانهم والاستحواذ عليهم.

حاربها بنفس سلاحها اللعين مستنزفاً عواطفها، جارحاً بلا هوادة كرامتها الأنثوية، داعساً ما كان بينهما يوماً من مودة ورحمة، مُذيقاً إياها مرارة الإهانة الحقيقية، ومانحاً جسدها المتعطش لوجه المعنى الحقيقي للجفاء القاتل خلال علاقتها معه. مجرد زوجة للفراش! لم يكن ما سمعته وهماً، ولم تكن خزعبلات آخر الليل عندما أبرأ ذمته من ارتباطه به. رفعت "خلود" جسدها المتصلب عنه، وحملت فيه ملياً بعينين مصدومتين. تعايره كانت باردة كالجليد، نظراته خالية من العطف أو الشفقة، بل بدا وكأنه أزاح ثقلاً أرهق روحه. ألقاها "تميم" جانباً بتأفف؛ وكأنها خرقة بالية، لينهض عن الفراش، وهي ما زالت تحت تأثير الصدمة. رويداً رويداً بدأت تستفيق من جمودها الزاهل لتصرخ في هياج:

إنت عملت إيه؟

عدل من هندامه قائلاً بصوتٍ جليدي:

-الصح، واللي كان المفروض يتعمل من زمان.

هزت رأسها بشكلٍ هيس تري نافية حدوث الانفصال بينهما:

-لأ.. إنت استحالة تطلقني!

عبث بأصابعه في شعره، وكأنه يمشطه، قبل أن ينطق بنفس الصوت الجاف:

-بكرة الصبح ورقتك هتبقى عندك.

أشعل جذوة غضبها المتقدة مسبقاً، تركت قميصها المغربي غير مرتب على جسدها،

لا يهم مظهرها الآن، بدت فوضوية بشكلٍ غير مقبول. حملت فيه بقلبٍ يخفق

بقوة، ظلت تهز رأسها بالنفي وهي تدنو منه، التفت حوله لتغدو قبالتها، امتدت

يدها لتمسك بذراعه، شدته منه وهي تسأله بصراخها المتشنج:

-أومال الحب اللي بينا ده كان إيه؟

نفض ذراعه بعيداً عن يدها، رمقها بنظرة فوقية نافرة، ليرد بعدها بصدق:

-أحنا مكانش في بقينا حب من الأساس، على الأقل من ناحيتي.

تعلقت بذراعيه مجددًا تهزه منهما، وهي ما تزال تهدر فيه بعصبية:

-لأ إنت بتحبني! ماتكرش ده.

صاح في حدةٍ مخلصاً نفسه من قبضتها:

-فوقي يا "خلود"، أنا عمري ما حببتك.

لم تستوعب حقيقة هجرانه لها بعد، وواصلت إلقاء اللوم عليه:

- كل ده عشان إيه يا "تميم"؟ بتبيع اللي مستعدية تضحي بنفسها عشانك من غير ما تفكر للحظة؟ وحببي ليك؟ مالوش قيمة عندك؟

رد بقساوة؛ علها تستفيق من أوهامها الأفلاطونية:

- كل ده قضى، اللي بينا خلص، وأنا نهيتته.

احتجت بصراخ جرح حبالها الصوتية:

-لأ إنت غلطان.. ما فيش حاجة هتخلص بينا، سامعني؟ إنت جوزي، وهتفضل ليا لو حدي.

لم يكن قادرًا على منحها أدنى شعورٍ بالإشفاق على حالها التعس، اكتفى مما عايشه معها، عاملها بقلب خالٍ من أي عاطفة وهو يملي عليها أوامره:

جهزي نفسك، ده لو حابة تروحي عند أمك تقعدى عندها، شوفي لازمك إيه وخديه، وأنا الصبحية هوصلك، ما هو احنا مش هنروح لها في أنصاص الليالي.

أسرعت بالركض نحو الدولاب الذي يحوي ثيابهما، لتلقي بظهرها أمام ضلفه، معتقدة أنها ستمنعه من جمع متعلقاتها. فردت ذراعيها على الأسطح الخشبية، وهتفت معترضة برفض قاطع:

-أنا مش هامشي من هنا، ده بيتي، وإنت جوزي.

صح لها بوجهٍ قاسٍ اكتسب تعبيرًا صخرية:

-كنت ..

برزت عيناها وهي ترد بإصرارٍ جنوني:

-لأ إنت جوزي، وأنا مش هاسييك يا "تميم".

تابع القول ببرودٍ أعجب موضحًا لها:

-مؤخرك، ونفقتك، وكافة شيء هيوصلك، واللي في بطنك ملزوم مني.

اختنق صدرها بالعبرات، وهتفت بنحيب مريـر:

-إنت بتعمل فيا كده ليه؟

تجاهلها ليضيف:

-غلطة وبأصلحها.

استفزتها كلمته، فهدرت بصوتها المجروح:

-بقي أنا غلطة يا "تميم"؟

للحظة تخلى عن قساوته، ليقول بنوع من اللين معترفًا لها بصدق:

-لأ أنا غلطان أكثر منك، عارفة ليه؟

صمت للحظة يخنق بها غصة آلمت حلقه، ثم تابع:

-لأني ظلمتك معايا لما صممت نكمل حياتنا سوا.. كان قدامي فرصة أسيبك، بس

صُعب عليا مقدرش انتظارك ليا، وفكرت إني هاقدر أكمل معاك، بس للأسف ما

بقاش ينفع.

أرخت ذراعيها، واقتربت منه لتحتضن جسده، شددت من ضمها عليه ليحتويها

بالإجبار، مرغت وجهها المبلل بعبراته على صدره تتوسله:

-ماتسبنيش يا "تميم"، أنا عايزاك ليا.

عادت القسوة لتسيطر عليها، أبعدها عن أحضانها قاصداً لإيلاها بكلامه الجارح:  
-وأنا مش عايزك.

استنفرت كافة حواسها على نبذه الصريح لها، وزادت نوبة هياجها لتتهمه علناً:  
قول إن الهبابة دي احلوت في عينك، من بعد ما شوفتها ثاني، وقعدت جمبك  
تلاغيك وترمي شباكها عليك؟ صح؟

لم يعرف إن كان ينقض عليها ليطبق على عنقها لنجاحها في استنزازه، أم يتركها  
تحترق بكمدها، أثر الاختيار الأخير، وأولاها ظهره ليبعد عينيه المليئين بالحنق  
عنها، وقال بنوعٍ من التحقير من شأنها بصورة وقحة:

لا، هي ماينفمش تتحط معاكي في جملة واحدة، إنتي في حته، وهي في حته ثانية  
خالص.

كان كمن سكب البنزين على النيران المستعرة، بدا ما تفوه به دون احترازٍ -  
مدحاً في أنثى غيرها، شابة تعرفها جيداً. انفجرت فيه بكل ما يعتريها حالياً من  
مشاعر غاضبة:

أه طبعاً، بنت الـ (...) فتحت نفسك على الجواز من ثاني، ومش مهم بيتنا  
يتخرب!!

استدار كلياً نحوها ليحذرهما بسبابته:

-ماتغلطيش فيها، هي مالهاش علاقة بينا أصلاً.

قال بتهمك صارخ يحوي كلمات تهاجم باحتقارٍ شخصه الرجولي:

-أيوه دافع عنها زي تملي، ما هي العقربة دي كلت بعقلك حلاوة، وبلفتك تحت  
دراعتها، عشان تنخ وتطاطي، بس فالح تعمل راجل عليا.  
استشاطت نظراته على الأخير من لسانها السليط، وهدر بصوتٍ جهوري اهتزت  
الجدران على إثر قوته:  
- "خلود".

على الفور عدلت من نبرتها الهجومية لتقول بصوت مهزوم:  
-أهون عليك تسييني؟ عملت إيه لكل ده؟ ده أنا حبيتك من كل قلبي، استنيتك  
سنين، وكنت مستعدية أستناك العمر كله عشان نكون سوا.  
سأم من تكرار سماع نفس العبارات المستهلكة على أذنيه، وقال بصوته الذي ما  
زال محتدًا:

-كفاية زهقت بقي، أنا ندل يا ستي، ارتاحتي؟  
انخلع قلبها قهراً على فراقه المحتوم، وقالت بعينين تبكيانٍ بحرقة:  
حطب قولي غلظت في إيه؟ عشان عاوزاك في حضني، تبقى ليا لوحدي، قلبك  
وجسمك معايا، خلاص الذنب كله عليا؟  
رد بنبرة جافية:

يا بنت الناس، كل واحد راح لحاله.  
تحولت تعبيراتها للشراسة، واحتقنت بشرتها بمزيدٍ من الحمرة الغاضبة، حتى تكاد  
تشعر أنها ستنفجر من شدة انفعالها، رمقته بنظرةٍ مغلولة، واختفى الضعف من  
صوتها لتغدو نبرتها غليظة رغم البحة المسيطرة عليها:

-وانت إيه؟ كنت غلبان؟ مسكين يا حرام! مش عارف تاخد حقتك من واحدة زبي؟

ضحكت بسخرية وهي تشير إلى عنفه الذكوري معها:

-ده إنت جبروت ياخي! نسيت اللي عملته فيا وأنا حامل؟ ده إنت كنت هاتجيب أجل ابنك عشان مزاجك الزفت .. ورضيت بقسوتك، واستحملت اللي عملته فيا وبلعت الجزمة في بوي، مع إن الكل استغلطك.

استشهادها بفضيحتها العلنية دفعت دمائه للثورة بكل الغليان المتشعب فيها، نظراته لها حاليًا كانت كفيلة بقتلها، ومع ذلك ابتلع شراسته المهددة في الأفق، والتي تجبره على ردعها بنفس الطريقة الاحتقارية، ليرد ببرود، وابتسامة مستخفة تلوح على جانب شفتيه:

-ما هو ده تمامك معايا.

ردت تستفزه بتهديد صريح:

-ده أنا كان ممكن أرجعك السجن لو مشيت ورا كلام أمي، خسرتها وعاديتها عشانك.. كنت هاوألع في نفسي قصاد عينك عشان بس تسامحني، إيه مش مكفيك كل ده؟

وصل النقاش بينهما لنقطة مسدودة، حتى ما كان بينهما يومًا بلغ الحضيض، حدجها "تميم" بنظرات نارية مميتة، تجاوزها ليخرج من الغرفة وهو ينهي حوار بصوته الأجوف:

-إنتي من دلوقتي بنت خالتي وبس!



لم يستدر نحوها حين صرخت به:

- "تميم"! استنى، ده آخر كلام عندك؟!

بدا جملة كنوع من المزاح الثقيل وهو يضيف:

- وأم العيل اللي جاي.. أكثر من كده مافيش!

تبعته لتقف خلفه وهي تواصل تسلطها عليه:

- أوعى تفكر إن الحكاية خلصت لحد كده.. إنت غلطان..

رد غير مبالٍ:

- مات الكلام.

تبعته كالمجذوبة رافضة تركه، وحين تعثرت في سيرها وسقطت أرضًا، تعلقت بساقه، جرها معه إلى باب المنزل، نبشت أظافرها في بنطاله لتتشبث أكثر به، بصعوبة تخلص "تميم" من ملاحظتها، خرج من المنزل دون أن تتوقف عن الصراخ المليء بمزيدٍ من الوعود التي لن تنكثها حتمًا:

- حياة حبي ليك، وكل لحظة استنيتك فيها لأخليك ترجع، مش "خلود" بنت خالتك اللي تفرط في اللي يخصصها.

.....

دعكت عينيها بقبضتيها وهي تسير على مهلٍ متجهة إلى باب المنزل بعد تكرار الدق العنيف عليه، لم تفق "بثينة" بعد من نومها المتأخر، وبالتالي إجبارها على النهوض مبكرًا شكل لها صدادًا قويًا، قطبت جبينها، وتجهمت تعبيراتها المجعدة بشكلٍ قلق حين رأت ابنتها على أعتابه تستجديها بصوتها الباكي:

-الحقيني يامه؟

ألقت نظرة فاحصة عليها، ولمحت تلك الحقيبة الموضوعة إلى جوارها، اتسعت  
عينها بتوتر، هرب النعاس من ملامحها، وسألتها بقلب يقفز بين ضلوعها خوفاً:

خير في إيه؟ حصل للي في بطنك حاجة؟ وياه الشنطة دي؟

انفجرت بأكية بمزيد من العويل:

- "تميم" طلقني!

لعنته "بثينة" بغضبٍ جم:

عملها ابن ال ..... !

ارتمت "خلود" في أحضان والدتها، انهمرت عبراتها بغزارة، وهتفت تشكو لها بأنين  
فؤادٍ منفطر:

-أنا قلبي موجوع أوي يامه، مش قادرة!

ربتت على ظهرها، وسحبته معها للداخل وهي ترد:

طب اهدي، وفهميني بالراحة حصل إيه.

.....

فقريه من يومك!

رددت "حمدية" تلك العبارة الناقمة بعد أن جاءت بصحبة شقيقة زوجها لزيارة  
العروس قبيل وقت الظهر لتفقد أحوالها، والاطمئنان من ناحية أخرى على عفتها.  
ما لم تتوقعه أن تمضي "همسة" ليلتها تعاني من آثار تعب ضيفتها الشهرية، لم تكف

عن إظهار سخطها بالتواء ثغرها في حركة مستهزأة بها، اكتفت العروس من نظراتها الشامتة، وإيماءاتها الحاقدة، وقالت بنوعٍ من الضيق

-خلاص يا مرات خالي، ده النصيب، وأنا كنت هاعرف منين؟

غمغمت "حمدية" بمزيدٍ من القنوط، لتزعجها أكثر:

-أتاري عريسك وشه مقلوب، ومقابلته لينا مش ولا بد.

حذرتها "آمنة" بنظراتها وهي تخبرها:

-اللي حصل يا "حمدية"، هتعمل إيه يعني، تتعوض وقت تاني، لسه العمر قدامهم.

برقت نظرات زوجة خالها حين أضافت بصوتها الناقم:

-وطبعًا زمانت حماتك عرفتك، وجرست في الحتة؟

احتجت "همسة" على تناول ما يخص شأنها الزوجي على ألسن الغرباء، وقالت

بلهجةٍ مغايرة لتلك الودودة التي دومًا تتحدث بها:

-وتعرف ليه أصلًا؟

ردت عليها ببساطة لتخرجها:

-ما فيش حاجة بتستخبي، وخصوصًا في المسائل دي يا عين أمك.

تخضب وجهها بحمرة خجلة من وقاحتها، والتفتت تستغيث بوالدتها بنظراتها لتلزمها

عند حدها، فضغطت على شفيتها متممة:

-ماما!

وضعت "آمنة" يدها على رسغ زوجة شقيقها، ونهرتها بلطف:

-بطلي يا "حمدية"، البنت لسه بتكسف، مايصحش الكلام ده.

ردت باستمتاع وقح:

-بكرة تقلع برقع الحياء وتيجي تحكيلنا.

اشتعلت بشرة "همسة" بلمحة أخرى من الحمرة الخجلة، وتضاعفت مع ظهور زوجها الذي بدا وسيماً في ثيابه المنزلية الجديدة. بادر الأخير مرحباً بضيفتيه:

-منورين يا جماعة.

افتعلت "حمدية" الابتسام، وزينت محياها بابتسامة زائفة، ادعت الضحك الماكر وهي ترد عليه:

-ده نورك يا عريس..

جلس "هيثم" إلى جوار زوجته يرمقها بنظرات مهتمة، فتحاشت النظر نحوه حرجاً من الأعين المسلطة عليها، وخاصة زوجة خالها الفوضولية، التي متلهفة لسماع التفاصيل عن ليلتها الأولى. مضت بضعة دقائق في صمت تخلله بعض العبارات العادية عن أجواء حفل الزفاف، إلى أن استطردت "حمدية" تقول بسخافة:

-بأقولك إيه يا "آمنة" ياختي، احنا ناخذ الحاجة الحلوى والساقع معانا نشربه على راحتنا في بيتنا، ونخلي العرايس سوا يتهنوا ببعض.

ورغم وقاحة طلبها إلا أن "همسة" اعترضت بعبوس:

-ما لسه بدري، احنا موراناش حاجة.

غمزت لها قائلة في تسلية:

-لأ عيب ما يصحش يا بت، شوفي طلبات جوزك..

ضحكة سخيفة أخرى أطلقتها قبل أن تضيف:

-ادلعوا سوا، ده إنتو عرسان.

رمقتها "همسة" بنظرة منزعجة، وهي بالكاد تنفجر حرجًا من تلميحاتها الجريئة،

بينما أردف "هيثم" قائلاً وهو ينهض من مكانه:

-ابقوا تعالوا تاني.

هزت "آمنة" رأسها وهي ترد:

إن شاء الله يا "هيثم" يا ابني، وربنا يفرحك مع عروستك.

حانت منه نظرة جانبية نحو زوجته وهو يرد مبتسمًا:

يا رب

.....

امتلاً صدرها بالمزيد من الحنق المغلول عليه، ودّت لو استطاعت إحراقه حيًا

مثلما حدث مع زوجها. ابنتها مكلومة بالداخل، منزوية بغرفتها لليالٍ طوال، رافضة

الحديث معها بعد حصولها على ورقة الطلاق، كانت تعاني ويلات فراقه، نحل

جسدها، وخسرت المزيد من الوزن، وبالتالي خشيت عليها من فقدان الجنين

الذي أصبح مهددًا بالضيق إن استمرت على تلك الحالة المزرية، لهذا لجأت

للتصرف على طريقتهما. استدعت "بثينة" شريكها السري، واستضافته في صالون

منزلها، قدمت له القهوة في صينية صغيرة قبل أن تجلس إلى جواره ليبدو صوتها

الخافت قريبًا منه:

-كوبس إنك جيتلي على طول يا "محرز".

أمسك بفنجانه، وارتشف منه القليل بصوت مزعج متلذذاً بمذاق القهوة، ثم سألها:

خير يا ست الكل

ردت بتجهم:

-إنت معندكش خبر باللي حصل بقي؟

تطلع إليها في حيرة وهو يسألها بهدوء، واضعاً طرف فنجانها على شفتيه:

خير؟

أكتسبت نبرتها لمحة حاقدة قبل أن تجيبه:

-البية أخو مراتك طلقها.

بصق ما ابتلعه في صدمة، كفكف بظهر كفه العالق على زاوية فمه معتذراً:

-لا مؤاخذة..

ثم ترك الفنجان في موضعه متسائلاً باهتمام:

طلقها؟ ده إزاي؟ وامتى؟ وليه؟ مش كانوا رجعوا لبعض.

ادعت كذباً عليه دون أن يرف جفناها:

في واحدة تانية لايفة عليه، وخطفته منها، وحكمت عليه يرمي مراته المسكينة في

الشارع.

نعتها بعدائية:

-الفاجرة، وسمع كلامها كده؟ فين مخه؟

واصلت كذبتها الملفق، وأضافت "

-بعيد عنك وعن السامعين عملا له عمل، ده أنا لاقيته في وسط هدوم بنتي، ومكوتتش هصدق لولا شيخ بتاع ربنا شاف اللي حصل وقالنا.

هتف في استنكار:

يا ساتر يا رب، لأ وعلنا فيها أبو الشهامة والجدعنة، وحتة حُرمة تمشيه وتجييه. مصمست شفيتها في سخط، لتكمل بعدها:

-شوفت يا "محرز"، وأنا فكرت خلاص إن ربنا هداه، ومشى عدل، بس نقول إيه، الحرام لحس مخه.

ردد في نزقٍ مستعيدًا في ذاكرته زيارتها السابقة لمقر عملهم:

-يبقى أكيد ده سبب الفضيحة إياها اللي عملتها عند الدكان.

استلذت "بثينة" تذكيره بتلك الحادثة العرضية، وفكرت في استغلال تلك الفكرة، وتطويعها لأهوائها الخبيثة، لذا جارته في أقواله مؤكدة له:

-مضبوط يا "محرز"، مخلصوش إنها عرفت، وبتحاول تحابي على جوزها وبيتها، قام مبهدلها وضاربها، وعدمها العافية، ده لولا ستر ربنا كانت راحت فيها.. وعمك "بدير" حاول يلم الليلة، بس ولا همه! طايح في الكل.

سبه بنزق:

إخص .. طلع (...)!

توحشت نظراتها، وغلفها الإظلام حين نطقت بغتة:

-أنا عاوزك تجيبه راكم لحد عندي، يرجع ندمان، وما يقدرش يرفع عينه فيا.

مط فمه قليلاً، ليبدو كما لو أنه يفكر ملياً في الأمر، صمت للحظات استغرق فيها في التفكير العميق، واستطرد بزفير متمهل:

-وماله .. نشوفله سكة...

توقف للحظة عن الكلام ليحوز على كامل انتباهها، ثم عاود المتابعة بعدها:

-بس أنا طريقتي مش هاتعجبكم.

ردت دون تفكير:

-اعمل اللي إنت شايفه صح.. أكسره! وجيبه مذلول!

تقوست شفتاه عن ابتسامته وضيعة، وعلق وهو يمسح على صدره:

-ماشى.. عز الطلب، بس الحكاية هتتكلف شوية فلوس!

سألته بنظراتها المترقبة:

-أد إيه يعني؟

راوغها في الرد، وقال:

-هاحسبها وأقولك.

على الفور أضافت لتشجعه:

-أقولك ابقي اخصمهم من الإيراد الجديد، مش خسارة في بنتي.



تهللت أساريره وبرقت عيناه بخبثٍ شيطاني، ثم أوماً برأسه محذراً بلهجة شبه صارمة:

-اتفقنا .. بس مش هاتكون في ساعتها! آه، مش عايزين حد يشك فينا.

لم تجادله على الإطلاق، وردت بإذعانٍ تعجب منه:

-ماشي، طالما هتعمل المطلوب.

رفع كفيه للأعلى مردداً في انشَاءٍ غريب:

-الاعتماد على الله، تقرى الفاتحة على روح "تميم"؟!!

ابتسمت "بثينة" هي الأخرى، وقالت في استحسانٍ:

-تقراها .. ونطلع القرافة على روحه كمان!

.....

مضت عدة أيام وقرر خالها اصطحاب العائلة والسفر -دون ترتيب مُسبق- لبلدتهم الريفية بحجة قضاء بضعة ليالٍ هناك كنوعٍ من تغيير الأجواء الخائفة في المدينة بأخرى أكثر هدوءاً؛ لكن الغرض الحقيقي بقي غير معلوم بالنسبة لـ "فيروزة" تحديداً، حيث شددت "حمديّة" على زوجها بعدم البوح لابنة أخته بمسألة الخطبة المزعومة تحت أي ظرف إلا في حضور عمها الكبير، ليتولى الأخير تكاليف تلك الخطبة بالكامل، وأيضاً لتقضي على أي احتمالية لرفضه، خاصة بعد التأكد من وضعه المادي المريح.

نفضت "فيروزة" الغبار العالق بالأغطية الموضوعة على الأثاث في الردهة الواسعة، وأعدت طيها تمهيداً لغسلها لاحقاً، بينما تولت والدتها مهمة كنس الأرضية المليئة

بالأثرية وبعض الأوساخ الصغيرة، في حين ادعت "حمدية" إرهابها من مشقة السفر وهربت من التزاماتها، ولم تقدم يد العون لكليهما، بل على العكس زادت من إنهاكها بترك أولادها في رعايتهما ريثما تغفو. تدمرت الأولى من عناء ما تبذله من مجهود منذ اللحظة التي وطأت بها منزلها بالبلدة، وقالت بحنقٍ مفهوم:

-بجد معندهاش دم، يعني هي تعبانة واحنا بصحتنا؟ ما الحال من بعضه، وكلنا مهدود حيلنا.

ردت عليها بتنهيدة مرهقة وهي تمسح جبات العرق من على جبينها بظهر كفها:  
-اعتبريه بثوابه يا بنتي.

تمرت على تساهلها معها، وهتفت بحدية:

-مش كده يا ماما؟ طب تاخد بالها من عيالها، يعني حرام بجد كل حاجة فوق دماغنا، دي ولا اللي على رجليها نقش الحنة.

كانت تعلم أنها محقة في تدمرها، لكنها وعدتها بإنجاز الأعمال، وبالتالي سقط كامل العبء عليها، تنهدت على مهلٍ، ورددت:

-مش عارفة أقولك إيه!

أضافت "فيروزة" بضيقٍ تعاضم بداخلها، لعدم اتخاذ والدتها أي موقف حاسم، حتى في أبسط المسائل:

-وطبعًا هاتقوم من النوم جعانة، ولازم تلاقي المحمر والمشمر وآ...

قاطعتها "آمنة" بنبرة متحمسة؛ عليها تخفف من وطأة انزعاجها:

من الناحية دي متفلا كيش، مرات عمك محلفاني ما أطبخ حاجة، هي مجهزلنا  
وليمة كبيرة.. إتي عارفة هي بتحبنا.

ورغم حنقها إلا أن التطرق لسيرة تلك السيدة الطيبة جعل ملامحها تلين قليلاً،  
فهتفت ثني على صفاتها الكيسة:

-والله ما في زيبها، ربنا يباركها، عمرها ما قصرت معانا أبداً.

تحولت نبرة والدتها للأوامر وهي تتابع:

-ياللا شهلي عشان نلم الصالة أوام، عشان لسه كومة الغسيل اللي أد كده.

صاحت في غيظ:

-دي أشغال شاقة، مش رحلة أبداً!

نهرتها بابتسامة لطيفة:

-بلاش لكاعة يا "فيرو".

تحول وجهها لكثلة من الحمم الحمراء تدمراً على ما قالتها، وهتفت من بين أسنانها  
المضغوطة:

-كل ده وبأتلحك؟ إنت شايف يا رب بأعمل إيه!!!

.....

ختمت فريضتها بخشوع، وجلست على مصليتها لبعض الوقت، تدعو الله بصلاح  
الحال، ودرأ المفاسد عنها، وعن عائلتها. لم تنتبه "همسة" لزوجها الذي كان يقضم

ثمرة التفاح، ليسد جوعه المؤقت، وما إن رآها الأخير على تلك الوضعية، حتى  
تدلى فكه السفلي في صدمة فرحة، وهتف يسألها عاليًا وهو يقترب منها:

-إنتي بتصلي؟

نزعت عنها إسدالها، وأجابته مبتسمة، وبعفوية تامة:

-الحمدلله، هاروح أشوف الأكل اللي على النار وآ....

سد عليها الطريق بجسده محتجًا، وقد ألقى بالثمرة خلف ظهره:

-مش وقت أكل خالص، ده أنا مصدقت إنك بقيتي تمام.

فهمت تلميحه المتواري، واتسعت عيناها قلقًا، شعرت باضطراب عظيم يغزو  
جسدها، بانتفاض حواسها. تراجعت تلقائيًا للخلف، ورفعت إصبعها أمام وجهه  
تحذره:

-بص يا "هيثم"، أنا مش جاهزة، اديني وقتي.

حُصرت عند الزاوية، لا مهرب لها، خاصة مع اندفاع زوجها نحوها، قبض الأخير  
على رسغها يسحبها منه ورائه وهو يقول:

-اشتري وخدي مني، مش هتخسري حاجة

قاومته قدر المستطاع متسائلة في حيرة:

-أشتري إيه؟

استدار برأسه نحوها يرمقها بنظراتٍ نهمة مليئة بالرغبة، وغمز لها قائلاً:

-ودي يا "هموس"، يالا يا عسل.

حاولت عرقلة خطواته، وإبطاء سرعته، محتجة عليه بارتباكٍ كبير:

-كده مش هاينفع خالص.

أصر عليها بلطافته الزائد:

صدقيني هاينفع، جربي بس.

ألحت في اعتراضها:

-لا يا "هيثم"

عبس بتعاييره موضحًا لها، بما يشبه المزاح:

- "هموس" شوفي البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل

انتشلت يدها من قبضته والغيظ متمكن منها، رمقته بنظرة حادة قبل أن توبخه:

نعم؟ بضاعة، لأ ماسمحلکش، إنت كده بتغلط فيا.

تشكل على ثغره ابتسامة عريضة أظهرت نواجذه، وقال وهو يحاوط خصرها

الرشيق بذراعه:

-حاشا لله، ده إنتي فرز أول يا "هموس".

.....

أراح ظهره للخلف وهو مازال محدق بمشبك الرأس الذي بين أصابعه، فمنذ انتقاله

للإقامة بمنزل أبويه، وقد شعر "تميم" بأنه تخلص من العبء الكبير الذي أضنى

قلبه. ابتسم لتصميم الطاووس اللامع في يده، انعكس بريقه المغري في حدقتيه،

فبدأ كبلورة سحرية. كان تسليته المؤقتة، مجرد التطلع إليه يأخذه لفضاءات خيالية،

يُعاشها بعقله ضمن أحلام يقظته، في بعد آخر من الزمن، عنه مشبكًا تقليديًا للرأس. انقضت عدة أيام على انتهاء كابوس زيجته بابنة خالته، وإن ظلت رواسب تلك الزيجة الفاشلة تنغص عليه أوقات خلوته، فوالدته لا تكف عن لومه، ولا عن تذكيره باندفاعه الأهوج لتخريب حياته دون أسباب مقنعة تكفي لإخراص صوت الضمير الحي بداخلها، فكل ما علمته منه أنه لم يعد قادرًا على إكمال القادم من حياته معها.

بدت "ونيسة" ناقمة على أنانيته، واتهمته بالإجحاف في حق تلك المظلومة البائسة، التي تحمل في أحشائها جنينًا لا يعرف مصيره بعد. لم يكثر لظنون والدته، تركها تحمله الذنب كاملاً، المهم ألا يعود بأي حال لتلك الشخصية المنفرة. شرد بتفكيره في "فيروزة" مجددًا، ورغم ما يكنه الفؤاد من مشاعر تنبض نحوها بقوة، إلا أنه كان مؤمنًا بعدم وجود فرصة له معها؛ وإن بدت الظروف حاليًا مهيأة قليلًا. فمثلها يستحق الأفضل، أن تكون حياتها الزوجية مع شخص جدير بها، لا مع واحد مثله يحمل ماضيًا سيخرجها حتمًا، بالإضافة لاحتمالية رغبتها في الارتباط بشخص لم يسبق له الزواج، وعلى شاكرتها. بدت لوهلة بعيدة المنال، صعبة التحقيق، حتى أحلامه رغم بساطتها غلفها الفشل.

شنت تفكيره عنها، وألقى نظرة أخيرة على المشبك قبل أن يضعه بمكانه بداخل الكومود. اعتدل في رقدته المسترخية على الفراش، حين سمع والدته تناديه من الخارج:

-الأكل جاهز على تربيذة السفر.

رد "تميم" وهو يخفض ساقيه:

-حاضر يامه.

دار حول فراشه، وهندم من ثياب العمل التي لم يبدلها بعد، ثم اتجه إلى باب الغرفة، أدار المقبض، وخرج مبتسمًا ليجد والدته ترمقه بنفس النظرات اللائمة المليئة بالعتاب، حافظ على ثبات بسمته، وسألها؛ وكأنه لم يفعل ما أزعجها قط:

طابخة إيه يا ست الكل؟

تنهدت قائلة بقنوط، ودون أن تخبو تكشيرتها العظيمة:

هو حد ليه نفس للأكل ولا الطبخ بعد اللي حصل؟ ده الناس في الحتة كلوا وشي!

سألها ببرود أقرب للمزاح:

طيب احنا هناكل إيه؟

لوحت بيدها وهي تجيبه:

جبنة وعيش.

هلل في حبور استفزها:

-رضا

اشتدت قبضتها على ذراعه الذي أمسكت به، استطاع أن يرى تفرق العبرات في مقلتيها وهي تلومه:

-مش حرام عليك يا ابني ترمي مراتك واللي في بطنها كده؟

بالطبع لم تتوقف خالته أو ابنتها عن إلقاء كامل اللوم عليه، وتبارعت الاثنتان في الظهور بمظهر الضحية المضطهدة، على عكسه هو؛ الظالم، الجاحد، المتبذل في مشاعره. برفق استل "تميم" ذراعه من يدها، وقال بنبرة متجهمه، وقد انقلبت تعابيره للعبوس:

-أنا راجل مفترى.

انخرطت في نوبة بكاءٍ جديدة مواصلة عتابها:

-وأخرت الظلم والافتراء ده إيه؟ يا ابني خاف ربنا، وخاف من دعوة المظلوم.

كور "تميم" قبضته في غضبٍ بدأ في الاندلاع بداخله، شعر بصدرة يحترق من كم تليفق الحقائق لخداع والدته الساذجة، والتي على الفور اتخذت موقفًا معاديًا له. التفت نحوها ليرمقها بنظرة قوية صارمة قبل أن ينطق بجفاء:

يا ستي هي تستاهل الأحسن مني، ولما تخلص عدتها تبقى تتجوز، معنديش مانع. اتسعت عيناها في صدمة، وضاعفت من لومها له قائلة:

-للدراجدي عاوز الغريب يربي ابنك ولا بنتك؟

هتف محتجًا، وقد انتفضت عروقه الغاضبة بقوة:

-ومين قال كده؟ اللي في بطنها هيتربي معايا، مش هاسيدها لل.....

تدارك لسانه قبل أن ينعتها بكلمات نائية، وفتح في حنقٍ ليثبط ثورته، ثم صحح على عجلة:

-مش هاسيوه ليها يامه.



عادت لتلومه بشدة ضاغطة على أعصابه المستثارة:

-وكم ان عايز تحرم أم من ضناها؟ إيه الجبروت ده؟

-لا إله إلا الله!!!!

أدرك "تميم" أن والدته تدفعه للخروج عن شعوره بدفاعها المستميت عن تلك المرأة غير المؤتمنة، لوهلة لام نفسه لأنه أخفى الحقيقة عنها، لكنه قطع العهد على نفسه ألا يجعل من شخصه أضحوكة بالتطرق لما يخص أسرار الحياة الزوجية في غرف النوم المغلقة، وتصبح خصوصياته مباحة لألسن العامة. أبعد عينيه اللاتين تقدحان بالشر، وقال بصوتٍ مختنق:

-بأقولك إيه يامه، أنا نازل ..

سألته على مضض؛ وكأنها تؤدي واجبها الأمومي فقط:

-والأكل؟

رد بتبرم ويده تستريح على المقبض:

-ماليش نفس.

لم تكثر له، وقالت:

-اللي يريحك.

انزعج من معاملتها الجافة معه، وانصرف كابتنًا غضبه المشتعل ليهبط الدرجات عدوًا، فلا داعي للتشاجر مع والدته، وهي تجهل كافة الحقائق المؤسفة، وإلا لأحدث القطيعة مع شقيقتها الحرباء الخبيثة. استوقفه رنين هاتفه عند مدخل

البنائة، أخرجته من جيبه، وحدث في اسم المتصل، دون ترددٍ أجاب متصنعا  
الهدوء:

-أيوه يا "منذر"، لا أنا تمام، خير في حاجة؟

أتاه صوت الآخر قائلاً بلهجة شبه جادة:

-كل خير، أنا بأتصل أعزمك على كتب كتابي.

تعقدت تعابيره مردداً في اندهاشٍ متعجب:

-كتب كتابك؟

ضحك "منذر" متابعا:

-أيوه يا عم "تميم".

لاحقه الأخير بسؤاله:

-وده إزاي حصل؟ مش احنا كنا مع بعض في فرح الواد "هيشم"؟

زفر "منذر" الهواء دفعة واحدة قبل أن يوضح:

-كل حاجة جت بسرعة.

رد في استحسان:

-وماله.. خير البر عاجله.

دعاه رفيقه مشيراً لمدى عمق صداقتهما:

-وبعدين إنت مش محتاج عزومة يا "تميم"، ده إنت صاحب بيت.

علق يمدحه في فخر:

طبعا يا "أبو الرجولة"، ده إنت أخويا وعشرة عمر، ومتأخرش عنك أبدا.

شكره بابتهاج:

حبيبي يا "تيمو".

واصل "تميم" القول، وطيف "خلود" المزعج يلوح في مخيلته:

-وربنا يتمملك على خير، المهم تكون بنت ناس، وأصلها طيب، أوعى المظاهر  
تخدعك، مش عايزين حد يكدرك بقية حياتك، كفاية الخبطة الأولى.

ضحك عاليًا ليرد بعدها بصعوبة:

من الناحية دي اطمن، أخوك ناصح.

ابتسامه باهتة احتلت شفثيه وهو يعقب:

على خيرة الله.

أضاف "منذر" بصوته الجاد ليؤكد عليه:

-أنا هابتلك العنوان عشان احنا عاملينه عند قرايب الجماعة.

نظرة شاردة مهمومة ألقاها "تميم" على العلية، ربما في دعوته وسيلة جيدة للهروب  
من الضغوطات التي تحاصره بها والدته، تنهد يقول حاسمًا أمره:

إن شاء الله يكون في المريخ.. أنا جايلك ..... !!

.....

## الفصل الحادي والخمسون (الجزء الأول)

أصرت على تبديل ثيابها المنزلية العادية بأخرى أكثر إغراءً، تصلح ليلتها المؤجلة، انتظر "هيشم" على جمرات متقدة، متلهفاً لرؤية زوجته الفاتنة، وتعمدت الأخيرة التباطؤ في الخروج من الحمام لإكساب نفسها المزيد من الثقة، والتغلب على الرهبة الغريزية الخاصة بتلك الأمور الحميمة. طال غيابها، وضجر العريس المتلهف من كثرة الانتظار، فتخلى عن رقدته المترقبة بالفراش ليذهب إليها عند الحمام، دق بابه متسائلاً بأنفاس جاهد لتبدو أقل حماساً:

- "هموسة"، إيه يا حبيبي؟ إنتي هتباتي جوا؟

أناه صوتها معتذراً:

-سوري.. إديني وقتي وهطلعك.

احتج على مماطلتها مرددًا بتبرمٍ مازح:

-وقتك إيه بس.. ما أنا قاعد على الدكة بقالي كذا يوم ..

رفع يده استعدادًا لطرق الباب مجددًا، لكن قبل أن تصل يده للكتلة الخشبية، فتح من تلقاء نفسه، وأطلت عروسه الجميل بثوبٍ حريريٍّ من اللون الأبيض، غطى كامل جسدها، فيما عدا صدرها وكتفئها؛ فقد كان مكشوفًا بشكل يحفز المشاعر الكامنة على التحرك بإثارة ورغبة. توهجت عيناه بمزيد من الشوق والتلهف، بالكاد تجزم أن لعبه قد سال لرؤيتها متضجرة بحمرتها الخجلة، ونظراتها المليئة بالحياء. التوت شفثاه عن ابتسامه عريضة، وهتف يتغزل بها:

-ماشاءالله على الجمال.. ده إيه ده؟!

توترت من تغزله الصريح، وحاولت إخفاء مفاتنها المغرية بعقد ساعديها أمام صدرها، لم تنظر نحوه وهي ترد باقتضابٍ خافت:

-شكرًا.

التف ذراعه حول خصرها، ليضمها إلى صدره، ويشعر بدفء بشرتها على جسده، ثم همس لها وهو يحني رأسه على وجنتها ليقبلها:

-ده أنا عندي كلام كثير هاقوله للصبح.

رجته بقلبي لم تستطع التغلب عليه:

-بالراحة ممكن.

قال دون أن تفتر ابتسامته:

-ده احنا على أقل من مهلنا.

نظرة أخرى استقرت على منحنياتها اللافتة، وقال بتشويق أكبر، وأصابعه قد اتخذت دورها في مداعبة مشاعرها:

هو أنا ورايا إلا إنتي يا "هموس".

.....

أطلقت زغرودة مبتهجة بمجرد أن أطلعتها ابنتها على إتمام مراسم زيجتها، لم تتمكن "آمنة" من إخفاء مشاعرها الأمومية الفرحة لإثبات طهر وعفة ابنتها، خاصة لكون تلك المسألة مرتبطة بسمعة وشرف العائلة. استراح صدرها، وانعكست غبظتها على تعبيراتها، فازدادت إشراقًا. اقتربت من "سعاد"، وأخفضت رأسها عليها لتعلمها بالأمر، شاركتها الأخيرة أيضًا في فرحتها، وربتت على كتفها قائلة بابتسامة نضرة:

عقبال نهار فرحتنا بـ "فيروزة".

رد بوجه ضاحك:

يا رب يا "سعاد"، وتكوني إنتي واقفلها.

على الفور هتفت دون تفكير:

طبعًا، دي الغالية عندي.

في تلك الأثناء، وكعادتها المتلصصة، رأتهما يتهاامسان في خفوت، فاشرأبت بعنقها للأعلى لتلمح الاثنتين تثرثران بضحكٍ خجل. استثار الأمر حفيظتها، وبعجرفة لا تليق بها اقتحمت "حمدية" المطبخ لتتطفل عليهما؛ لكنها لم تفهم ما يتحدثان عنه بصوتها الهامس، بدا حوارهما كالألغاز. لاكت آخر قطعة من ثمرة الموز لتنتهي كليًا من التهام ما في طبقها، ثم ألقَت بالبقايا في سلة القمامة، وضعت الصحن في

الحوض دون أن تكلف نفسها عناء تنظيفه، وتساءلت بفضول واضح، ونظراتها تحوم حول كليهما:

-بتودودا في إيه كده؟

التفتت "سعاد" نحوها، وأجابتها بفرحة لا تقل عن رفيقتها الطيبة:

-باركي لـ"آمنة"، بنتها خشت على عريسها، وكله تمام والحمدلله.

لم يظهر الرضا على ملامحها، وقالت باقتضاب:

-كويس..

تفرست "سعاد" في تعبيراتها المتجهمة، وسألتها مباشرة:

-هو إنتي مش فرحناها ولا إيه؟

ابتسمت على مضض، وأنكرت على الفور:

-لا إزاي..

ثم تأوهت من الإرهاق، وتعلت كاذبة:

-بس تلاقيني مش مركزة كده اليومين دول، حيلي مهدود من السفر، و"خليل"

والعيال ما بيريحوش أنفسهم.

من لا يعرف طبيعة شخصها الكسول، لاعتقد بالفعل أنها تفني كل مجهودها لأجل

أسرتها؛ لكنها كانت أبعد عن ذلك بكثير. تجاهلت "سعاد" لغوها التافه، وقالت بما

يشبه إملاء الأوامر:

طيب يالا عشان نخط الأكل للرجالة، وبعدها نجهز لليلتنا الثانية، لأحسن النهاردة وارنا حاجات كثير، والوقت بيجري بسرعة.

لم يمنع فضول "حمدية" من سؤال "سعاد" بوقاحة:  
صحيح، إنتو اتحشرتوا ليه في موضوع بنت "رياض"؟  
أجابت عليها الأخيرة بتمهل:

إنتي عارفة الحاج "اسماعيل"، طول عمره حقاني، مخلصوش اللي حاصل معاها،  
وبعدين ما هي زي بناته، ماخيرهاش عنهم.  
لوت ثغرها مغممة بضيق تلون به وجهها:  
أيوه..

دنت منها "سعاد"، وبادلتها ابتسامة صافية خالية من أي ضغائن، قبل أن تنطق:  
وعقبال ما يقف لولادك.

ردت "حمدية" بتكليف، وامتعاضة صريحة على وجهها:  
إن شاء الله يا حبيبتي.

ثم رمقتها بنظرة حاقدة، لتبعد وجهها عنها، وهمست لنفسها في غلٍ ينبع في صدرها:  
يا بختك بيه، كان زمني مرات الكبير، والكل بيخدم عليا!

.....

كلتاهما جلستا تتحدثان على انفرادٍ لبعض الوقت في غرفة خالية من الزحام، وبعيدًا  
عن الحركة غير الاعتيادية لأصحاب المنزل، أو حتى الضيوف القادمين للمكوث به.



حظيت الاثنان ببعض الخصوصية، فدفعهما ذلك للروح بمكنونات القلب المتعب؛ حيث ربطت بينهما صداقة بعيدة، واحتفظت -رغم مضي العمر، وانشغال الجميع- بنفس الود، والمحبة، والتفاهم. مشطت "فيروزة" شعر رفيقتها بتمهلٍ بطيء، لتعطيها ذلك الدلال الرقيق الذي افتقدته، وتأملت انعكاس تعبيراتها الذابلة في المرآة. رأت ذاك اللعان الخفي في حدقتها، وربما طغى بريقه الغريب على الحزن المرسوم على ملامحها المهمومة، تركت المشط على التسريحة، والتفتت نحوها تهنئها، وعيناها تتطلعان إليها:

-مبروك يا "أسيف"، وربنا يتملك على خير.

ابتسمت برقةٍ وهي ترد:

-الله يبارك فيكي يا "فيروزة".

تهيدة بطيئة تحررت من صدرها قبل أن تعلق:

-أنا مش عارفة أقولك إيه على موضوع البيت، قلبي عندك.

لمحة حزن أخرى طفت على صفحة وجهها، وتضاعف معها ذلك اللعان المؤلم في عينيها، لحظات استغرقتها في الصمت، لتقطعه بعدها قائلة:

-الحمدلله..

ردت عليها "فيروزة" بنوعٍ من المواساة اللطيفة:

-كله بيعدي، وإن شاء الله اللي جاي يبقى أحسن.

عقت عليها "أسيف" بقلبٍ ملتحٍ يتن من آلام الفقد:

صدقيني ما فيش بعد الأم والأب أي حاجة تتعوض.

نكست رأسها قليلاً وهي ترد بصوتٍ بدا متأثراً:

-معاكي حق...

قاومت "فيروزة" تلك الغصة التي اجتاحت حلقها، وحاولت تبديد الأجواء الحزينة بأخرى فرحة ومناسبة لهذا الطرف السعيد، فاستطردت قائلة باهتمام:

-بس شكل خطيبك ده ابن بلد وجدع..

نظرت "أسيف" نحوها، وقالت ببسمة باهتة:

-ايوه..

أضافت عليها رفيقتها بنوعٍ من الغموض المُحير:

-بس أنا حاسة إني شوفته قبل كده.. يعني ملامحه مش غريبة عليا.

بمنطقيةٍ أوضحت لها "أسيف":

هو بيتنقل من مكان لمكان، بيحيب بضاعة، بيودي شغل، ويستلم من كذا حته.

ردت في تفهم:

-ربنا معاه ..

ثم تشجعت لتسألها دون مراوغة:

-وعلى كده إنتي بتحبينه يا "أسيف"؟

برقت عيناها بوميضٍ لم يكن قلقاً، ومع هذا خجلت من منحها الجواب. لم تحاول "فيروزة" الضغط عليها لاستخراج الرد من بين شفيتها، لكنها استنتجت من

صمتها، وتورد بشرتها وجود بعض المشاعر الودودة والإيجابية نحوه .. ابتسمت بلطفٍ لها، وأضافت مغيرة مجرى الحوار:

-ربنا يسعدك معاه، وعمتك وبناتها كويسين معاكي؟

تنفست "أسيف" بعمقٍ أولاً، أمهلت نفسها الفرصة لتعطيها ردًا محايدًا:

-يعني الوضع كان صعب علينا كلنا، أنا مش عارفاهم، وهما نفس الكلام، وأدينا بنتعامل.

تفهمت "فيروزة" اقتضابها في الحديث معها، فتلك طبيعتها الكتومة، لم تعدد على الإفصاح عما يجيش في صدرها بسهولة، كانت والدتها الراحلة "حنان" الأقرب إليها، ومن قبلها كان والدها "رياض"، كما أنها لم تكن من النوع الاجتماعي المختلط بالآخرين، تحبذ غالبًا قضاء وقتها بصحبة أهلها إلى أن تبدلت أحوالها بين عشية وضحاها. ظلت رفيقتها هادئة في تعبيراتها، وأضافت تشجعها:

-تمام .. أهم حاجة عندي تكوني مبسوفة ومرتاحة يا "سوفي"

ابتسمت قائلة لها عن رضا:

-الحمدلله.

عقدت "فيروزة" ذراعيها أمام صدرها، وتابعت القول بنوع من التهكم:

-كويس إنكو هتعملوا كتب الكتاب هنا، بصراحة، ومن غير زعل كده، عم "فتحي" يتفاته بلاد.

عاد الحزن ليحتل نظرات "أسيف"، أغمضت عينيها، وردت بزفيرٍ منزعج:

-ربنا يهديه.

أرخت صديقتها ساعديها، ووضعت يدها على كتفها لتضغط عليها، ثم قالت بنوعٍ من التفاؤل:

-ماتلقيش طول ما عمي "اسماعيل" موجود، وإن شاء الله هتبقى ليلة جميلة.  
قالت مجاملة بابتسامة مقتضبة:

يا رب.. بس كان نفسي أشوف "همسة".

ضحكت "فيروزة" وهي توضح لها سبب غيابها:

عروسة جديدة بقي، وإنتي كمان هتحصليها أهوو.

عمقت "أسيف" من نظراتها نحوها، وقالت بما يشبه التمني:

عقبالك يا "فيروزة".

على عكس المعتاد من معظم الفتيات لم تنشغل بأمر البحث عن الزوج المناسب كثيرًا، أو حتى تهتم بحدوثه من عدمه، كانت غير مبالية بذلك، تفكيرها يؤرقه أمورًا أهم من هذا، لذا هتفت تشكرها بشكلٍ روتيني:

تسلمي يا حبيبتني.

.....

بدا الهروب من حلقة الضغط النفسي هو الحل المتاح حاليًا، للحصول على قسطٍ من الراحة العقلية، قبل أن يعود لهومومه المتكالبه عليه. لم يأبه "تميم" بمشقة السفر المفاجئ، واستقل سيارته قاصدًا البلدة التي دُعي إليها. كانت الطرقات غير معبدة تقريبًا حين وصل إليها؛ أغلبها رملي تثير الأغبرة في الجو حين تتحرك العربات عليها، أو ضيقة نسيًا، تكفي لمرور سيارة واحدة ذهابًا، وأخرى إيابًا؛ لكنها تمرق بين

الزراعات المشبعة بالخضرة النضرة، والباعثة بالسرور على النفس. توقف في فسحة متسعة، يبحث عن أحد المارة، ليستعلم منه عن وجهته. أطل برأسه من النافذة، وحركها في الجانبين بغير هدى. في نفس الأثناء، مرت "حمدية" على مسافة قريبة منه، لمحته دونًا عن غيرها وهي تتهدى في خطواتها. كانت سيارته مميزة، وفي نفس اتجاهها، اقتربت بتؤدة منه لتتأكد من هويته. لم تتفاجأ بوجوده، وهلت عاليًا لتفعل أنظاره إليها:

-الله! ده المعلم "تميم" بنفسه هنا!!

استدار الأخير في اتجاه مصدر الصوت الأثوي، علامات الاستغراب ارتسمت على محياه حين رآها، وقال بدهشة لم يكلف نفسه عناء إخفائها:

-إزيك يا حاجة؟ إتي بتعملي إيه هنا؟

اعترضت على اللقب الذي منحه لها، وصاحت بتذمرٍ منزعج:

-أنا مش حاجة ياخويا، أنا لسه صغيرة .. في دور إخوانك يا معلم.

لاحت على زاوية فمه ابتسامة تهكمية، واعتذر على مضض:

-لا مؤاخذة .. مقصدش.

باغتته بسؤاله مباشرة دون تمهيد:

-قولي إنت جاي هنا ليه في بلدنا؟

ضاقت عيناه باستغرابٍ، وهو يردد:

-بلدكم؟!!

أكدت عليه باقتضاب:

-أيوه..

لكن ما لبث أن أسهبت في الحديث موضحة:

-لأحسن يكون "خليل" عزمك على قراية فاتحة البت "فيروزة"، مالوش حق، ده معرفنيش إنك جاي!!

هبطت الكلمات على رأسه كالصاعقة، تصلب في مكانه للحظة فاقداً قدرته على النطق أو الحركة، حلق فيها بعينين متسعيتين في اندهاش غير مسبوق، لكن ما علمه بمحض الصدفة وخز قلبه بشدة، وحز فيه بألم مهلك لم يختبر شدته مُسبقاً، انفرجت شفتاه متسائلاً بصوتٍ شبه مختنق:

هي.. هتتخطب؟

أجابته بنوعٍ من السخرية:

-أيوه.. أومال كلنا ملمومين هنا ليه برابطة المعلم!؟

ثم أطلقت ضحكة هازئة متوقعة أن يشاركها التعليق، لكن خالف حدسها، وبقي صامتاً. لاحظت "حمدية" الوجوم المستريب الذي كسا تعابيره بشكلٍ غريب، رمقته بنظرة فضولية متفرسة، وهنا تداركت حقيقة الأمر، ليس لديه معرفة سابقة، ولذا عبرت عما يدور في عقلها مرددة:

-باين معندكش خبر..

حاول "تميم" ضبط حالة الإحباط التعسة والمؤلمة التي حلت عليه، وقال بوجهٍ حزين منطفيء:

-لأ.. وربنا يتمم على خير.

ولأنها سمة تختص بها عن غيرها، تساءلت "حمديّة" بسخافة، وكامل نظراتها عليه:

-مقولتليش جاي ليه؟

لم يكن يملك من الطاقة الكلامية حاليًا ما يجاريها في قدرتها على جذبته للحوار، فقد رغبته في كل شيء، أظلمت عيناه، وغامت تعبيراته، حتى ما كان يتمتع به خلصة في خيالاته غير المرئية من أحلام أصبح من المحرمات عليه، ليتلاشى ما احتفظ به بينه وبين نفسه من مباحج لا تخصه، لتتحول حياته للمزيد من البؤس والحرمان. تباعدت عيناه عن نظراتها التي تتفحصه، وأجابها بصوت غلفه التوتر:

-دي زيارة على السريع بخلصها هنا مع جماعة حبايبي.

ألحت عليه بفضولها:

-مين يعني؟ أنا أعرف كل بيت هنا.

لم تكن لتتركه يتعد دون أن تحظى على الرد الذي يشبع فضولها، كانت من ذلك النوع الذي لا يكل أو يمل، أو حتى يشعر بالحياء. نفخ في سأم، ورد باقتضاب:

-بيت الحاج "اسماعيل".

هتفت بحماسة:

-ده نسيب "خليل" جوزي...

لم تمنحه الفرصة للاختيار، بل فرضت نفسها عليه وهي تتابع:

خدني في سكتك يا معلم "تميم"، وأنا هوريك البيت، شكلك تبع فرح قريية  
الحاج "فتحي"، ما هو كتب كتابها النهاردة على واحد مجدع كده.

وجودها المستفز زاد من حالة الاختناق المطبقة على صدره، ومع هذا لم يكن أمامه  
مهرب منها، لذا باستسلام يئس قال:

-تفضلي .. ما أنا معرفته.

استقرت في المقعد المجاور له بعد أن أغلقت باب السيارة خلفها، ابتهجت  
أساريرها مرددة في حماس، لم يزد إلا آلمًا وقهراً:

-مين يصدق جوازتين في ليلة واحدة.

تضاعفت وخزات قلبه المميته، وانعكست آثارها على تقلص عضلات وجهه،  
اشتدت عروقه، واختنقت الدماء بها. بحركة غير ملحوظة من يده، رفع "تميم"  
ذراعه للأعلى قليلاً، وقربه من وجهه، ليمسح بإصبعه طرف عينه الذي حبس تلك  
العبرة الخائنة المتسللة إليه، حزناً وكمدًا على خسارة ما لم يملكه يومًا

!! .....

.....



## الفصل الحادي والخمسون (الجزء الثاني)

عُرف عن الألم الجسدي بزوال آثاره مع مرور الوقت، أما ألم الروح؛ فقلما يتم التعافي منه! بصعوبة بالغة استهلكت بقايا ثباته الزائف، كافح "تميم" في حضور "حمدية" السقيم ليخفي ما عصف بصدرة من حزنٍ أَمات قلبه النابض، آه لو أطلع أحدهم على روحه المتأكلة، لأدرك مدى العذاب الذي يعانيه الآن! غلف ملامحه بقساوة خارجية، ونظراته بجمودٍ مصطنع، حتى لا يُرى ما بهم من قهر يفتك بجوارحه. ومع ثرثرتها الزائدة عن ترتيبات الخطبة المزعومة من قبل زوجها، انفرطت آخر حبات عقد أمله الميؤوس منه، وتأكد عن ظهر قلب بأنها لم ولن تكون له يوماً. أوصلته "حمدية" عند منزل الحاج "اسماعيل"، تراجلت من السيارة قبل مسافة لا بأس بها، وتولى مهمة صفها عند بقعة خاوية، على مقربة من ذلك السرادق

المقام على مرمى العين. استطاع أن يتبين رفيقه وسط الضيوف المتزاحمين، دنا من "منذر" الذي تزين في أبيه ثيابه، لتليق بهذه المناسبة السارة، وهناك على عقد قرانه. سأله الأخير باهتمام، ونظراته تتجول على ملامحه الواجمة:

-ها عرفت توصل بسرعة، ولا قابلت مشاكل في السكة؟

ابتسامة مرسومة بالإجبار على محياه، كانت وسيلته المؤقتة، لدفن أحزانه في الأعماق، حافظ عليها "تميم"، وأجابه بهدوء:

-الطريق تمام يا "منذر"، بس فجأة كده قررت تتجوز؟

جاوبه "منذر" بصوتٍ انخفض قليلاً:

-شوية حاجات حصلت كده عجلت بالموضوع.

هتف مجاملاً، ودون أن تظهر رغبة واضحة عليه في معرفة التفاصيل:

-ربنا يتمم بخير..

تفرس أكثر في تعابيره المهمومة، وسأله:

-شكلك مش فرحان؟

تعلل كاذباً:

-لأ إزاي .. ده بس إرهاق السفر.

-تمام.

قالها "منذر" وهو يصطحبه للداخل ليجلس وسط المدعويين من أهل البلدة، وأقرباء العريس ومعارفه. كان ممتناً لبقائه في معزل عن البقية بالرغم من الصخب

المحيط به؛ لكن لا شيء يُقارن بالصراخ المكتوم المتالم المنطلق بين جنبات نفسه.  
عاد إليه "منذر" ليقف إلى جواره متسائلاً:

-الحاج "بدير"، والحاج "سلطان"، وباقي العيلة بخير؟  
قال وهو يومئ برأسه:

-كلنا في نعمة .. تسلم على سؤالك.

جالت نظرات "تميم" على الوجوه المألوفة التي التقاها من قبل في حفل زفاف ابن  
خالته، دفعه ذلك للسؤال بجدية:

-بأقولك يا "منذر"، هو إنت تعرف نسايب "هيثم" منين؟

أحنى الأخير جزعه عليه، وأشار له بعينه قائلاً:

-شايف اللي قاعد ناحية الشمال ده.

تساءل في حيرة وهو يركز نظره على كلٍ من "اسماعيل" و"فتحي":

-أنهو واحد، اللي قالب سحنته ولا الثاني اللي بيتكلم مع آ....

قاطعه بصوت أجش رغم خفوته:

-لأ الأول، اللي اسمه "فتحي".

رفع "تميم" أنظاره نحوه، وسأله:

-ماله بقى؟

على مضض أجابه:

ده قريب الجماعة، ابن خالة أمها، وبعيد عنك شخصية ما يعلم بيها إلا ربنا، سواد من برا وجوا، مايتوصاش في الغل والحدق.. عمل أفلام وحركات عشان يأكل حق الغلبانة قريبتة.

كان وصفه دقيقاً عنه، حتى أن قسماته عكست بُغضه الظاهري بوضوح، فتساءل في غرابة:

حطب وعملت معاه إيه؟

غمز له رفيقه في ثقة قبل أن يرد:

عيب عليك، ده أنا "منذر طه حرب"، وانت عارفيني في الحق زي السيف، معرفش أبويا.

ربت على كتفه قائلاً بزهو لا يقل عنه:

أبو الرجولة كلها يا عمنا.

خفف حضور "منذر"، ومرحه الذي مزج بين الجدية والهزل من وطأة الأحزان الجاثمة على قلبه، هكذا خدع نفسه ليلتهي مؤقتاً عما أهلك روحه .. وظل بالقلب نبضة أخيرة، تتلف بتوق رهيب لرؤيتها -ولو للحظة- قبل أن تصبح مستحيلة للأبد.

.....

تلفت حوله بتوتر، وهو يدقق النظر في الطريق الذي امتد على مرمى البصر، متفحصاً عن كشي، كل مركبة تعبر من جواره. أراد الالتقاء به أولاً قبل أن ينتقل لمنزل "اسماعيل"، لوضع النقاط على الحروف، والتأكد من اتباعه للنهج الذي

رسمه للظفر بابنة أخته كعروس. حرك "خليل" الهاتف المحمول على أذنه، ليتلقى إشارة إرسال قوية، واستدار برأسه للجانب وهو يقول بتلهف:

-أنا واقفلك على أول الطريق أهوو ..

أتاه صوت "آسر" معلقاً عليه:

-خلاص شوفتك يا أستاذ "خليل".

أنهى المكالمة الهاتفية معه ليجد إحدى السيارات تقترب منه، لمح يد "آسر" وهو يخرجها له من النافذة ليلوح له بها، تنحى للجانب مفسحاً المجال لإيقاف السيارة على جانب الطريق، صفها على مهل، وترجل منها ليتلقى بمُضيفه الذي هتف مرحباً به:

-حمدلله على السلامة يا أستاذ "آسر".

قال وهو يحتضنه في ود:

-الله يسلمك، وما فيش داعي للألقاب، احنا خلاص قربنا نبقي نسايب

رد في استحسان:

-فعلاً..

ثم سأله مبدئياً اهتماماً مبالغاً فيه:

-ها، قولي البلد مش بعيدة عليك، مضبوط؟

أجاب بدبلوماسية استساغها الأخير:

-الطريق حلو، مسألتش كثير، وعرفت أوصل على طول.

غمغم "خليل" في حبور:

-كويس.. تعتبر ماخدتش وقت من آخر مرة كلمتني.

ضاقت نظرات "آسر" بشكٍ وهو يسأله:

-وايه الأخبار يا أستاذ "خليل"؟ في مشكلة لو فاتحت عمها وخطبتها النهاردة؟ هو

مش عارفني وآ...

قاطعته مؤكداً بما لا يدع أي مجال لإثارة الريبة:

-لأ.. اطمن، أنا مظبطلك الدنيا كلها، كلمت الحاج "اسماعيل" عنك من يومين،

وهو بعث ناس تسأل عليك زي ما قولتي أروح فين، وعند مين، وطبعًا جيتك

عنده عشان تتكلم معاه شخصيًا دي حاجة كبيرة، وهايقدرها.

التوى ثغره بابتسامة ممتنة وهو يعقب:

-شكرًا يا أستاذ "خليل"، حضرتك سهلتلي حاجات كثير.

هتف الأخير في خبث، وتلك النظرة الماكرة تتراقص في حدقتيه:

-ما أنا بيهمني مصلحة بنت أختي.

تنحج مرددًا بنبرة ذات دلالة غامضة:

-مفهوم، وبالنسبة لموضوع التأشيرة لقريبك ده اللي كلمتني عنه أنا خلاص تقريبًا

خلصتها، كلها كام يوم وهتبقى عندك.

انفرجت أساريره عن ابتسامة غريبة وهو يهمل:

-أيوه بقي، بشرني بالأخبار الحلوة..

مسح على كتفه مؤكداً من جديد:

-اطمن، أنا عند وعدي.

تساءل "خليل" بجدية:

-والحساب هيبقى أد إيه؟

بسمة منمقة تشكلت على جانبي شفثيه حين أجابه:

-الحساب وصل .. عيب نتكلم في الحاجات البسيطة دي، احنا بقينا تقريباً نسايب.

تحدث "خليل" في صوتٍ متحمس، جعل "آسر" أكثر ثقة عن ذي قبل:

طبعاً، هو في زيك يا ابني، وأنا مش عايزك تقلق، موضوع "فيروزة" هيخلص على خير بأمر الله، وأنا عند وعدي.

.....

في كل غضب الدنيا استدارت بثوبها البراق لتواجه والدتها، بعد أن أخبرتها بمجيء "آسر" لخطبتها دون علم مسبق منها. رمقتها "فيروزة" بنظرة نارية محتقنة، عبرت عن قدر محدود من الثورة المندلعة بداخلها، احتجاجاً على تقرير مصيرها بهذا التجاهل المستفز. هدرت مستنكرة فرض الأمر عليها، وهي تلوح بيدها:

-وازاى محدش يقولي؟ أنا آخر من يعلم يا ماما؟!!

بررت "آمنة" موقفها بتوترٍ ملحوظ في صوتها:

يا بنتي أنا زبي زيك.. خالك مقاليش حاجة غير على آخر وقت.

صاحت بصوتها المتشنج تلوم خذلانها، حتى في أهم القرارات الحياتية:

- ده جواز يا ماما، مش فستان ولا جزمة جديدة عاجبته فجبها لي..

صمتت والدتها، ونظرت لها بأسفٍ مما زاد من غيظها، تصلبت عروقها، وتابعت صياحها الغاضب:

- والمفروض أوافق على اختياره.

قالت محاولة تهوين المسألة عليها:

- دي أعدة رجالة، هيتكلموا ويشوفوه .. وما فيش حاجة رسمي.

احتد صوتها وهي ترد:

- أنا مش "همسة"، ما فيش حد يقدر يجبرني على حاجة مش عايزاها.

وضعت "آمنة" يدها على ذراعها، وقالت بتردد:

حبيب خلاص، أنا هاكلم عمك وآ....

وقبل أن تكمل عبارتها اقتحمت "حمدية" الغرفة لتقاطعها قائلة ببرودها السمج:

- يعني عاوزة تحرجي خالك قصاد الخلايق دي كلها؟ وتقللي منه؟ ما تبطلي أمور الجنان دي!

استدارت "فيروزة" لتصبح في مواجهتها، كانت الأخيرة تقف عند باب الغرفة الذي أغلقته من خلفها، تستند بظهرها عليه، وعلى وجهها تلك الابتسامة الباردة المليئة بالحق. قست نظراتها نحوها، واشتعلت بحمرتها الملتهبة، ثم تقدمت ناحيتها لتصبح على بعد خطوتين منها، وهتفت فيها بعصبية:



-وهو خالي كان عملي حساب؟ ده ما يرضيش ربنا إنه يجوزني غصب عني!

ردت "حمدية" ببرود، وهي تتغنج بجسدها:

-ده مجرد تعارف.. مش حاجة يعني.

صاحت توبخها في غيظ:

يا سلام، بأمانة ما جايينه لحد هنا؟ بلاش الكلام الأهل ده!

اعتدلت زوجة خالها في وقتها، وحدجتها بنظرة جافية غير مبالية، ثم نظقت بسخافة قاصدة إخراجها عن شعورها:

-وانتي إيه اللي مزعلك؟ هو أنا اللي جيباه؟ ما هو من طرف صاحبك إياها..

كزت "فيروزة" على أسنانها في حنقٍ ووالدتها ترجوها:

-خلاص يا "حمدية"، هي مش عايزاه، بناقص منه.

توحشت نظراتها، وردت:

-أحنا جايين نهرز يا "آمنة"؟ ده جواز، وكلام رجالة.

استغربت شقيقة زوجها من حميتها الزائدة، وتحفزها لأمر تلك الخطبة بتلك الحدية؛ وكأنها مسألة مصيرية.. ومع ذلك لم يظهر انفعالها، وقالت لها:

-أيوه، بس بالاتفاق، مش بالغصب.

تقوست شفقا "حمدية" عن بسمة خبيثة، وعمدت إلى تزييف تفسير الأمور لتترك والدتها، وبالتالي لا تتخذ صفها، فقالت تتهمها بنفس الأسلوب المستفز:

-ما جازي يا "آمنة" قايلين لبعض من قبلها، عاملة الشويتين دول علينا، آل يعني بنتك المصونة في الحركات دي..

ثم غمزت لـ "فيروزة" بعينها خاتمة حديثها:

يا بت اطلعي من دول، أنا فهمي كويس.

جاء النفي من أعماق "فيروزة" مصحوبًا بصراخٍ رافض، لتدافع به عن نفسها:

-أنا مش كده يا مرات خالي، طول عمري واضحة ودوغري، ماليش في الف ولا حركات البنات إياها، و"علا" صاحبتني ليا لي كلام معاها بسبب ده.. أنا مش هاسكت.

مدت "حمدية" يدها لتضرب كتفها عدة مرات، وقالت بجمود:

-وماله، اتعاتبوا، اتحاسبوا، اصطفلوا مع بعض، بس ده اللي حصل يا حلوة ...

ثم تعمدت التباطؤ في نبرتها وهي تستكمل:

-ولعلمك الموضوع دلوقتي بقي في إيدين عمك، يعني خالك مالوش دعوة، عمك "اسماعيل" صاحب الكلمة الأخيرة فيه.

وكأنها منحتها الحل السحري لكافة مشكلاتها، تسلحت "فيروزة" بشجاعته النابعة من قوة شخصيتها، وتحدثها قائلة:

-سهلة! أنا هاطلع أتكلم مع عمي، وأقوله إني مش موافقة على العريس ده.

همت بالتحرك، لكن أمسكت بها "حمدية" قبل أن تخطو للأمام خطوة أخرى،

شدت على معصمها، وجذبتها بقوة للوراء، لتقول لها بعينين يملأوهما الحقد:

-أخريها زي تملي، ده اللي بيرحك، ما هو إنتي غيتك تولعي الدنيا، لا ليكي كبير،  
ولا بتعملي اعتبار لحد.

استلت بعنف يدها من قبضتها، وردت عليها بنظرات غلفها الكره:  
-أنا حرة في حياتي.

نظرت لها بازدراء وهي تنعتها:

-بدل ما تبقي عانس يا عين أمك، بايرة، لا تنفعي في جواز، ولا تنولي خلفه، الحق  
علينا بنعمل اللي فيه مصلحتك؟  
انفجرت صارخة بها:

-ملكيش دعوة بيا، أنا مش زيك!

هنا ولج "خليل" للغرفة متسائلاً بوجه متجهم وهو يدور بنظراته على ثلاثهن:  
صوتكم عالي ليه؟

على الفور قلبت "حمدية" الطاولة على رأس الجميع، واتهمت ابنة أخته علناً لتوغر  
الصدور:

-البت دي عاوزة تفضحك يا "خليل" ..

استشاطت نظراته غضباً، وتساءل بملامح نافرة:

-نعم تفضحني؟

ردت "فيروزة" نافية على الفور:

-لأ يا خالي الحكاية مش كده، ماتصدقش كدبها ده!

هتفت "حمدية" تعنفها بحدّة:

-أنا كدابة؟ سامع يا "خليل"؟ دي جزاتي عشان بأصحك؟ وبأقولك بلاش تبنتري على النعمة اللي جياالك لحد عندك؟

تجاهلتها "فيروزة"، ووقفت قبالة "خليل"، لتقول له بأنفاس هادرة:

-اسمعني يا خالي.. أنا مش هاتجوز أي حد بالطريقة دي، حتى لو كان العريس ملاك نازل من السما، صحيح اتضايقت إنك عملت كده من ورايا واتكلمت مع اللي اسمه "آسر" ده، بس أنا بأقولك أنا مش عايزاه، وهاروح لعمي أعرفه ده، وهو يتصرف معاه.

مجرد تلميحتها الصريح بنيتها للجوئها لعمها لدعمها ونصرتها عليه، أصابه بالمزيد من الغضب نحوها، ليس لتجاوز سطوته التي أكد عليها لـ "آسر"، بل لإفسادها للمصالح السرية بينه وبين زوج المستقبل، أطبق على عنقها يخنقها منه، انحشرت أنفاسها في حلقها، وبرزت عينيها في ذهول صادم.. ضغط "خليل" بأصابعه أكثر على عروقه ليقطع الهواء أكثر عنها، وهو يهتف بغلي:

-إتتي إيه؟ جبروت! عاوزة تجيلنا الفضايح حتى هنا كمان؟

تدخلت "آمنة" لنجدة ابنتها من بين برائنه، وبكت في حرقّة ترجوه، محاولة إبعاد قبضته عنها:

-سيبها يا "خليل"، هتموت في إيدك.

زاد من ضغطه الخانق على عنقها، وهو يتابع بتهديد عدائي:

-أنا مش هاعجز إني أموتك.. هادفك حية ولا إنك تفضحيني قصاد أهل البلد.

قاومت "فيروزة" انقطاع أنفاسها بتشنج، نجحت في تحرير نفسها، لكن بقيت آثار أصابعه القاسية على جلدها، لم تضعف أو تهتز، غالبت ألمها، ووقفت تواجهه باستبسالٍ جريء، رافضة خشوته وعنفة المفرط:

فضيحة إيه بالظبط؟ هو أنا عملت حاجة حرام؟ خلي عمي يعرف، ويحكم بنفسه، وبأقولها لك يا خالي، أنا مش موافقة على البني آدم ده، هتدوني بالحيا عشان قولتلك لأ؟!

أطلقت جراتها غير المرتاعة نوبة غضبه عليها، تلقت صفة موجعة على صدغها، لم تكن قد استفاقت منها بعد، لتحصل على أخرى عنيفة جعلتها ترتد بترنج نحو والدتها التي احتضنتها لتحميها من بطش شقيقها الغاضب، بالكاد نجت من عنفه الأعمى، نظرت له بكراهية، وهي تحاول الوقوف ثابتة أمام قسوته، وقبل أن تنطق مدافعة عن حقها، ونايذة كل محاولاته لردعها، وضعت "آمنة" يدها على شفيتها تكتم صوتها، توسلتها بانكسار:

خلاص يا "فيروزة"، عشان خاطري يا بنتي، ماتكلميش وهو في الحالة دي.

آلمها ضعف والدتها ورضوخها الدائم، استعطفتها الأخيرة بنظراتها الذليلة، فصمتت لأجلها مرغمة، ومع هذا رفعت عينيها نحو خالها تتحداه بصمودها. نظرات الشماتة الظاهرة في عيني "حمدية" كانت مستفزة لأبعد الحدود، وبكل برود هتفت من تلقاء نفسها- تستثير أعصاب زوجها عن قصد:

يا ساتر على نشوفية دماغها، عمالة اتحايل عليها من صباحية ربنا، وهي ولا عايزة تسمع لحد، أعوذو بالله من كهن البنات، إيش حال ما كان العريس من طرفها؟

أشار "خليل" بسبابته أمراً:

-البت دي تفضل هنا ماشوفش خلقتها برا، تحبسوها في الأوضة دي لحد ما الليلة دي تعدي على خير.

ردت زوجته على الفور تؤيده:

-وماله يا خويا، اللي تشوفه، احنا مش ناقصين فضايح.

تابع ملقياً أوامره على زوجته وشقيقته بصوته الأجش:

-متخرجش منها إلا في وجودي، سامعيني إتنو الجوز.. الخطوبة هتم قصاد الكل، بيكي من غيرك، هتحصل يا بنت "آمنة"!

ضربت "حمدية" على صدره مدعية خوفها عليه:

-اهدى بس يا "خليل"، كل اللي إنت عايزه ها يحصل.

لم تكلف نفسها عناء إخفاء تشفيها فيها، ونظرت لها باستمتاعٍ حاقد قبل أن تتبع خطوات زوجها لتغلق الباب بالمفتاح. نقرت الدمعات المختنقة من عيني "فيروزة" التي دمدمت شاكية لأمها بصوتها المجروح:

-والله العظيم اللي بيحصل فيا ده حرام، ومايرضيش ربنا، هو بالعافية؟!

.....

ذوى قلبه بألم لا يطاق في ضلوعه، وكأن أحدهم يقتلعه بشراسة غير آدمية، حين أبصر تعانق الأيدي بحرارة، لمباركة الخطبة الجديدة، عقب قراءة الفاتحة، خلال مراسم عقد القران الخاص برفيقه "منذر". كان حاضرًا بجسده، مغيبًا عن حوله، لم يظهر حتى طيفها بين الحضور ولو لمرة واحدة. رأى "تميم" والدتها بابتسامتها المنقوصة، زوجة خالها بنظراتها النهمة الطامعة؛ لكن طاووسه الأبيض أبي أن يمنحه

نظرة أخيرة، غابت عن خطبتها، وتركته وحيدًا يعايش الآن حزنًا محتومًا، ومن نوع مختلف؛ ينهش في بقايا الروح، ويحيل القلوب الحية لحجارة صماء. دمعة أخرى غادرة فرت من عينه، أزاحها على الفور قبل أن تلحقها أخرى. انسحب من السرادق باحثًا عن بقعة خاوية من البشر، اختلى بنفسه لبعض الوقت، لم يحتسب كم مضى؛ لكنه كان مفصولاً عن حوله، بكى في صمتٍ يدمي القلوب، بعد أن فشلت كل محاولاته لكبح ذلك الضعف المخزي.

شعر باحترقٍ يلتهم أحشائه، ازدادت قسوته مع اختناق أنفاسه، وقد أدرك الحقيقة المفطرة لقلبه، بأنه تذوق عذاب الحب الحقيقي قبل حلاوته. الآن بعد فوات الأوان، اعترف بينه وبين نفسه بأن ما ضميره في وجدانه من مشاعر مرهفة، شغلت عقله كثيرًا، وألهبت عواطفه بالرغبة، كان فقط لأجلها، نعم لقد امتلأ قلبه شغفًا بها، ودبيب الحب الموجه الذي اشتعل في صدره لم يكن إلا لها وحدها؛ وإن كانت لا تعلم هذا.. وحدها من حركت الماء الراكد من أسفله، لتطلق العنان لأحاسيسه الكامنة، ووحدها من اغتالت أحلامه، وأعادته للحضيض.

أخرج من جيبه علبة سجائره، التقط واحدة منها، ودسها بين شفثيه، ثم حاول إشعال ولاعته؛ لكنها عاندته، لم تنبث الشرارة منها، فكف عن المحاولة. انتصب في وقفته بتأهبٍ حذر، عندما رأى تلك الذراع الممتدة نحوه، بشرارة لهبٍ صغيرة تريد إشعال عقب سيجارته. استدار للجانب ليجد "آسر" بتعبيراته الباردة، تنعكس في عينيه المحققنتين بوضوح، رغم العتمة المتواجد بها. استهل الأخير حديثه ناطقًا بصوتٍ رتيب؛ لكنه ساخر:

صحيح الدنيا صغيرة، مكوتش أتوقع أشوفك هنا.

لفظ "تميم" السيجارة من فمه ليرمقه بنظرة احتقارية بائنة، ثم هدر به بخشونة:  
-هات آخرك معايا.

استقام "آسر" في وقفته، ليرد بغموض أصابه بالحيرة والارتباك:

-أنا أخري معروف، الدور والباقي عليك إنت!

اخشوشنت نبرته مرددًا بما يشبه الزيتير:

-ماتحورش، وهات اللي في بطنك.

غامت عينا "آسر" بشكلٍ غير أليف، بات شخصًا آخرًا وهو يوضح له:

يا عم ما تتحمأش أوي، بس أنا فاهمك، ما احنا رجالة زي بعض!

اعترض عليه بغلظة، وبوجه مشدودٍ على الأخير:

-لأ مش زي بعض!

اختفت الابتسامات المنمقة من على تعايدره، تحول "آسر" لما يشبه المسخ وقد سقط القناع المهذب الذي دومًا يغلف به تقاسيمه، من المؤكد أن نظرة "تميم" له كانت في محلها، خاصة حين سأله بفحيح بعث على نفسه الرهبة؛ ليس خوفًا منه، وإنما خوفًا عليها:

-بيني وبينك كده .. المزة عجبك؟ صح .....!!!؟

.....



## الفصل الثاني والخمسون

طفرت الدموع من عينيها بغزارة وهي تنوح نادبة حظ ابنتها التعس، وكأن الحياة تأتي منحها السعادة التي تستحقها، لم تعلق "همسة" بشيء على زيارة حماتها المفاجأة، فقد فرضت الأخيرة حضورها عليها بأسلوب متطفل، غير عابئة برغبة العروسين في التمتع بقدر من الخصوصية، ومع هذا استقبلتها بودٍ وترحيب. رفعت "بثينة" أنظارها نحوها، وأمرتها بنوع من الازدراء:

قومي هاتلي مياه، هاتفضلي أداة كده بوزك في بوزي؟

صدمت "همسة" من وقاحتها الفجة، وردت بغصّةٍ شعرت بها في حلقها:

-حضرتك قدامك المياها، تقدرني تشربي براحتك.

وأشارت بيدها نحو زجاجة المياها الموضوعة على الطاولة الدائرية الصغيرة التي تنتصف غرفة الصالون، ورغم ذلك علقت "بثينة" بسخط:

طعمها ماسخ، مش عاجبني، هاتي غيرها، ولا مستخسرة فيا شوية مياها عدلين..  
ثم التفتت نحو ابنها تشكو له:

-شايف مراتك، بتعامل أمك إزاي؟ ده بدل ما تاخذ بخاطري وتطبب عليا.

كان "هيثم" يعلم جيدًا -وفي أعماق نفسه- أنها ستسعى لإفساد صفو حياته الهائلة مع عروسه قبل أن ينعم بها، كعادتها اللئيمة. استرخى في مقعده، ووبرود قال لها جعلها تستثار غيظًا:

-وهي "هموس" عملت إيه؟ ما المياها قدامك يامه.

انفجرت صارخة فيه بأسلوب وقح، شبه مهين:

-إنت هتاخذ صفها من دلوقتي؟ طرأها يا واد، عاوزة أقولك كلمتين على انفراد،  
يابابي!

لم تتحمل "همسة" تجريحها بهذا الشكل، وردت بكبرياءٍ محاولةً لملمة كرامتها المبعثرة، وهي تنهض من أريكتها:

على فكرة حضرتك ممكن تطلبي ده ببساطة، مش لازم تغلطي فيا؟

نهض "هيثم" هو الآخر ليعاتب والدته بضيقٍ لم يخفه:

عيب كده يامه، دي مراتي، ومحبش حد يجي عليها ولا يضايقها

لوت "بثينة" شفيتها في استهجانٍ صريح، ورمقت كلاهما بنظرات احتقارية، خاصة حينما أحنى ابنها رأسه على جبين زوجته ليعتذر منها بابتسامة صغيرة:  
-حق عليا يا "هموسة"، متزعليش.. تمشي بس وأنا هصالحك.

غمغمت "بثينة" معلقة بتهكمٍ صارخ:

-رجالة سُراة خُرج بصحيح!

التفت برأسه مانحًا والدته نظرة محتجة، لكنه أبعد نظراته عنها ليتطلع إلى زوجته التي قالت بخفوت:

خليك مع مامتك، وأنا جوا، ناديني لو عوزت حاجة

هز رأسه هامسًا:

-ماشي يا حبييتي

تبعها بعينين ملهوفتين وهي تختفي بالداخل، وتلك التنهيدة البطيئة تتسرب من جوفه، ليعاود بعدها التحديق في وجه والدته الغائم، اختفت ابتسامته البلهاء، وسألها بعبوس:

-عاوزاني في إيه يامه؟

أجابته متسائلة بملامحها المتجهمة، ونظراتها اللئيمة:

-هاتسكت عن اللي حصل لأختك؟

رد ببساطة:

-مش إنتي كنتي عاوزاها تطلق؟ وأهو "تميم" عمل ده، زعلانين ليه بقي؟

وكزته في ذراعه بغيظٍ وهي تخبره:

-إنت جايب البرود ده منين؟ ياخي حس على دمك، أختك مقهورة، وإنت نايم في  
العسل جوا مع اللي تتشك في قلبها مراتك.

فرك ذراعه المتألم، وعلق بامتعاض:

-يامه ماتغلطيش فيها، ده بيزعلني!

وبخته بحدّة:

-إتلهي، آل يعني غلطت في البخاري

-لا حول ولا قوة إلا بالله

نظرت له بعينين حانتين، فنفخ قائلاً في حيرة:

-والله إنتو غلبتوني معاكو، يرجعها مش عاجب، ويطلقها برضوه مش عاجب، حددوا  
عاوزين إيه بالظبط؟

ردت بعصبية:

-إنت أخوها، وراجل البيت، اتصرف..

نظر لها ملياً بضيق، ثم استنشق الهواء المكتوم بعمق، ولفظه على مهل، ليه مهم  
بعدها لنفسه بخفوت، والتعاسة تزحف على وجهه:

-شكلي مش هخلص من ليلة "تميم" و"خلود".

.....

استرابت من غيابها العجيب، والذي لا يتوافق مع تلك المناسبة السارة التي تخصصها تحديدًا، فمن المعهود أن تنضم العروس لعائلتها؛ وإن كانت تجلس مع النساء، خلال تقدم أحدهم لخطبتها، لسماع رأيها في حضور رجال الأسرة من أعمامها وأخوالها، ومن له صلة بها .. انسحبت "سعاد" بهدوءٍ من الأجواء الصاخبة لتبحث عنها في أرجاء المنزل، توقعت وجودها في الغرفة الخاصة بـ "أسيف"؛ حيث تم استضافة الأخيرة فيها، أرهفت السمع لصوت النحيب القادم من الداخل، تضاعفت ريبتها، ووضعت يدها على المقبض لتديره؛ ولكن الغريب في الأمر أنها وجدته موصودًا، دقت عليه منادية:

يا "فيروزة"! إتي جوا يا بنتي

أتاها صوتها الباكي مستغيثًا بها:

أنا محبوسة يا مرات عمي هنا.

رددت متسائلة في دهشة عظيمة:

محبوسة؟ ومين عمل كده؟ وعشان إيه؟

صاحت متجاوزة عن إجابة تساؤلاتها:

طلعييني يا مرات عمي لو سمحتي.

على الفور نطقت موضحة لها:

حاضر يا بنتي، المفاتيح الأوض زي بعض، بتفتح بنفس المفتاح، هاروح أجيب واحد وأرجعلك.

استمعت لها وهي تعقب عليها:

-سرعة الله يخليكي.

طمأنتها قائلة بنبرتها المتلهفة:

-متخافيش يا بنتي، أنا جياالك ثاني ..

ثم ابتعدت عن الباب، لتتجه إلى غرفة نومها الرئيسية، وهي تغمغم مع نفسها بتبرم منزعج:

على آخر الزمن بناتنا يتحبسوا في بيوتنا!!

.....

يُقال أن لكل شخص نقطة ضعف، إن ولجت له منها لتستغله لخدمة مصالحك الشخصية، فهناك خياران متاحان لك؛ إما أن يلين ويرضح، وإما أن يحدث العكس، ومعه تحول من الطبيعة المستكينة للوحش الهوجائي الكامن بداخله، هاجت دماؤه المشبعة بحنقه وغزت كل شرايينه لتجبره على الانتفاض ثائراً فيه. جحظت عينا "تميم" الملتهبتان بشكلٍ موتر، وهدر بذاك الوضع يسأله؛ وكأنه يمنحه الفرصة الأخيرة للتراجع عن حماقته، قبل أن ينفذ فيه حكم الموت:

-مين دي اللي بتقول عليها كده؟

نظر له "آسر" باستخفافٍ وهو يجاوبه:

-اهدى عليا يا معلم...

ثم بتر عبارته ليراقب حمته الثائرة بنظرات مليئة بالحقد والغيرة؛ فإن كان يملك مقومات الذكورة مثله، لما فكر مطلقاً في اصطياذ ضحاياه من الفتيات السذج، معدومات الخبرة، للارتباط بهن، بعد أن أدرك عجزه الجسدي؛ لن يستطيع مطلقاً

أن يمنح أي امرأة الشعور بالكمال والرضا، خلال ممارستها الحميمية معها. اكتشف ذلك مبكرًا، ومن وقتها أصبح ناقدًا على الجميع، ولهذا حول شعوره بالنقص إلى نوع من الاستفادة المادية، ليخرج رابحًا في النهاية، ولهذا لجأ لوسائل أخرى غير شرعية للإتجار بما لا يملكه، وقد وقع الاختيار على "فيروزة"؛ الضحية المناسبة، ليتمتع معها لبعض الوقت قبل أن يقايضها على حرقتها، أو يمنحها لمن يدفع الثمن، ومن خبرته المحنكة في قراءة لغة الجسد، استطاع أن يلاحظ الاهتمام الكبير من قبل "تميم" نحوها؛ وإن كان الأخير ينكر ذلك .. عاد من شروده المؤقت ليتابع حديثه قائلاً بوقاحة:

إنت فاهمني كويس، العروسة .. "فيروزة" ..

تلفظ اسمها مجردًا؛ وكأنه مشاعٌ للعامة، ناهيك عن إيحاءه المهين لكيئوتها المقدسة بالنسبة له، جعل غضبه المتدافع بداخله ينفجر على الفور، انقض عليه "تميم" قابضًا عليه من عنقه، وهزه بعنف ناهزًا إياه بصوته المتشنج:

إنت إزاي يجي في مخك تكلم عليها معايا؟

أصاب هدفه، وتيقن من دقة اختياره، وهو يرى كيف شق قلب كيانه ببضعة عبارات موحية ليستثير تلك النزعة الرجولية فيه. تحول جسد "آسر" المتراخي لكتلة من العضلات المشدودة، وقاومه مرددًا بنفس النبرة المستفزة:

يا سيدي، اعتبرني باخد رأيك في بضاعة حلوة.

أشهر "تميم" مديته بعد أن أخرجها من جيبه، رفعها للأعلى، وغرز نصلها المدبب في جلد عنقه، حدجه بنظرة خالية من الحياة، وهو يهدده بلهجة تحولت للقتامة، ويخيم عليها الموت المحتوم:

-كلمة زيادة عنها ومحدث هيبص في خلقتك نهائي، هاشرّحك! ومش فارق معايا  
أخش فيك اللومان تاني!

شعر "آسر" بوخز جارح يخترقه، وقال متراجعا بحذر، دون أن تخلو نبرته من  
السخرية:

-بالراحة على عضلاتك يا "تايسون"، احنا بناخد وندي مع بعض!

زجره "تميم" بزمجرة هادرة:

-إلا في عرض الحريم! ده مافيش فيه تفاهم معايا!

.....

في تلك الأثناء، وفي مكانٍ ليس ببعيد.. شهقت مصدومة من اندفاعها المباغت  
نحوه، واستندت بكفيها على صدره، محدقة فيه بنظرات مشدوهة ممزوجة  
بالخجل، تحول لون بشره "بسمة" إلى حمرة صريحة، بادلها "دياب" نظرة شغوفة  
متلهفة لاقتربها الساحر. نجحت خطته، وباتت معه، قريبة منه حد الهلاك، وإن  
كان الأمر مفتعلاً، لكنه حاز على مراده في الأخير. عمق نظراته المتقدمة حباً نحوها،  
استشعرت بأصابعها المسترخية على صدره دقائق قلبه العنيفة، أحست بتأثيره  
عليها، وبارتباكٍ موثر يسيطر عليها لتغلغل ذلك الشعور اللطيف فيها. لم يتحرك من  
مكانه، وبقي كالصنم يتمعن فيها، ومسلطاً فقط كل عينيه عليها. بحذرٍ ملبك لها،  
انسلت متراجعة للخلف، ومتحررة من قيده الاختياري، لتبدي انزعاجها من  
تصرفات الصغيرين الطفولية التي وضعتها في موقف محرج كهذا.. أرخى الطفلان  
أذرعيهما عنها بإشارة صريحة من "دياب" لتحرر "بسمة" كلياً، تنحنحت معتذرة له  
بتلعثم:



-أنا.. أسفة، مقصدش!

ثم أخفضت عينيها بحرج أكبر، لتتجنب نظراته، شاعرة بتلك السخونة المربكة المنبعثة من وجهها، لم ترغب في حدوث ذلك؛ ولكنه القدر. رد عليها "دياب" بهدوء، واضعاً يده على مؤخرة رأسه ليفركها:

-ولا يهملك، حصل خير!

انسحبت من أمامه دون إضافة المزيد، وقد سارعت في خطواتها، رغم عرجها الملحوظ.. ظلت أنظاره تتبعها ومتعلقة بها حتى اختفت من أمامه، فأخرج تنهيدة ملتهبة من صدره الملتاع بحبها الكبير، استدار للخلف ليحدق في الصغيرين بنظرات ممتنة، ثم فتح ذراعيه لهما ليندفاعاً في أحضانها، ضمهما قائلاً بثناءٍ عظيم:

حبايب قلبي!

سأله "يحيى" ببراءة:

-أنا شاطر يا بابي؟

أجابه "دياب"، وهو ينحني نحوه ليقبله من وجنته:

-إنت أستاذ زي أبوك!

ثم ربت على كتفه ليأمره شقيقته الصغرى:

-خدي "يحيى" يا "أروى"، واسبقوني على جوا.. أنا هحصلكم كمان شوية.

ردت بانصياع تام:

-حاضر يا أبيه..

تسلطت نظرات "دياب" عليهما وهما يتسابقان في الركض للداخل، ليشرع بعدها في التجول في المكان لبعض الوقت، غير راغب في لفت الأنظار لتواجهه بصحبتها قبل قليل. كان وجهه ما زال محتفظًا بابتسامته المتحمسة؛ ما لبث أن تلاشت حين رأى التلاحم البدني بين "تميم" وأحدهم، دقق النظر في اتجاههما ليتبين بالضبط ما يحدث، كان رفيقه ممسكًا بتلابيب الآخر، ويضع طرف مديته على عنقه، يريد نحره. دون أن يفكر، اندفع بهوجاء نحو ذلك الغريب ليضربه بخشونة في جانب ظهره، ثم استخدم ذراعه في طرحه من صدره أرضًا، وسط أئنه المتألم من عنف الضربات الموجعة عليه. تدحرج "آسر" على جانبيه ليتفاداه، لكن أصر الأول على تقييد حركته، وإذلاله. تفاجأت "تميم" من حضور صديقه المباغت، وقبل أن ينطق كان "دياب" يجثو فوقه ينكره في صدغه متسائلًا بنبرة جافة:

-الواد ده قل أدبه عليك يا "تميم"؟ قولي بس، وأنا وربنا ما هيطلع عليه صبح!

حاول "آسر" إزاحة ثقل جسده عنه، وهو يسأله في اندهاش قلق:

في إيه يا كابتن؟ هو حد داسلك على طرف؟

لكمه "دياب" في فكه بلكمة خشنة نوعًا ما، لكنها ليست قوية، وهو يحذره:

-اخشع يا ض!

وقف "تميم" خلف رفيقه محاولاً جذبه من على ذلك الدنيء، قائلاً له بنبرة غير هادئة:

-سيه دلوقتي يا "دياب"!

رد عليه صديقه بجراءة متهورة:

-متخافش يا صاحبي، هي ديتة علقة محترمة، ونرميه في التربة، ويدور على اللي مايطه تسخن.

تفاجأ "آسر" من وحشية الأخير، ونيتة المبيتة للتخلص منه، دون إبداء ذرة ندم واحدة، فهتف محتجًا، ومدافعًا عن حياته المهددة:

-أنا تتكلم معايا كده؟ إنت مين أصلًا؟

تشدق "دياب" مرددًا على مسامعه بنزق:

-وأشقتك ياله! في إيه!

ثم منحه وكزة مؤلمة أسفل ذقنه قبل أن يرغمه "تميم" على النهوض، ويزيحه بعيدًا عنه. اعتدل "آسر" في رقدته، وبدأ في النهوض نافضًا الأغبرة والأوساخ التي علقت بثيابه، ثم توعد كليهما هاتفًا بعصبية، لحفظ ماء وجهه فقط:

-أنا هوريكم يا غوغاء!

ضحك "دياب" على لفظه الأخير، وتنمر عليه بمزيدٍ من الاستهزاء:

غوغاء! إيه الكلام ده؟ يبقى إنت كده غلطت فيا، يعني الليلة بقت عندي رسمي فهمي نظمي.

تشبث "تميم" بذراعه، وشده منه ليستوقفه قائلاً له من بين أسنانه المضغوطة:

-اركز يا صاحبي.

.....

-الحقيني يا مرات عمي!

قالتها "فيروزة" وهي ترتدي في أحضان "سعاد" التي فتحت باب الغرفة لها،  
لتنصدم الأخيرة برؤيتها على تلك الحالة الفوضوية، تطلعت إليها في خوفٍ حقيقي  
معكوس في نظراتها نحوها، ثم حاوطت وجهها الباكي بكفيها، وسألته في جزع:

في إيه بنتي؟ إيه اللي حصل؟ ومين حبسك هنا؟

أجابته بأنفاسٍ متقطعة:

خالي عايزني أتخطب بالعافية، وأنا مش عاوزة ده!

انعقد حاجباها متسائلة في دهشة مستنكرة:

- "خليل"! طب ويعمل كده ليه؟!

احتشد في ذهنها كل المشاهد العنيفة التي جمعتها بخالها؛ حيث يقوم دومًا بإجبارها  
على ما لا تريد مستخدمًا القسوة، والإيذاء البدني، بغض النظر عن رأيها، لم  
يتناقش معها يومًا، ولم يحاورها ليعرف رغباتها، ربما لو حدث الأمر بشكلٍ آخر  
لتقبلته؛ لكنه يلجأ لاستخدام نفس الأسلوب الشرس لتذعن له، ووالدتها تقف على  
الحياد، لا تقوى على معارضته، تاركة له زمام الأمور ليتحكم في مصير ابنتها،  
رفضت أن تستسلم كتوأمتها، وتخضع لجبروته، لهذا تمسكت برفضها؛ وإن بدا غير  
منطقي للبعض. تنفست "فيروزة" بعمقٍ لتضبط انفلات أعصابها، وتستعيد هدوئها  
المفقود، في حين تابعت زوجة عمها موضحة:

ده بالعكس قلنا إنه شاب كويس، ومحترم، وعمك بت يسأل عليه، وكلامه طلع  
مضبوط.

ردت مبررة لها سبب عزوفها:

-أنا مقولتش حاجة وحشة عنه، بس مش عايزة أتخطب بالشكل ده لحد ما أعرفوش.

سألته لتتأكد منها:

-يعني إنتي مش موافقة عليه؟

أجابت بما لا يدع مجالاً للشك:

-أيوه، ولازم عمي يعرف بده.

هزت رأسها في تفهم وهي تعقب عليها:

-كله إلا كده، حاضر يا بنتي .. أنا هابت حد يناديه، وقويله على كل اللي إنتي

عاوزاه، مافيش حد هيجبرك على حاجة مش جباها.

احتضنتها مجددًا، وهي تهتف في امتنان:

-ربنا يخليكي ليا

استخدمت "سعاد" كم عباءتها لتزيح دمعاتها المرطبة لوجهها، ثم أوصتها بلهفة

أمومية غير مصطنعة، أو حتى مكتسبة:

-اهدي كده، وأنا هاعملك كوباية ليمون تروقي بيها دمك لحد ما عمك يجي.

رفضت طلبها مرددة:

-مش عايزة حاجة.

حينما رفعت عنقها قليلاً ظهرت آثار الالتهابات على جلد عنقها، اتسعت حدقتا "سعاد" في صدمة، وسألتها وهي تتفحصها بنظراتها، ولمسة حنون حذرة من أناملها:

إيه ده كمان؟

ضغطت على شفيتها لترد بأسف حزين:

من خالي يا مرات عمي.

تبدلت نظراتها للقتامة، وعلقت بلوم:

إخص عليه، حد يعمل كده في بنات أخته؟ أو مال لو مكانش في مقام أبوكي الله يرحمه.

لفظت "فيروزة" الهواء الخانق من صدرها دفعة واحدة، ودمدمت باستياءٍ مُحبط: مافيش زي بابا، عمره ما هيتعوض.

تأثرت "سعاد" بجملتها الموجهة تلك، وعفويًا ضمتها إلى صدرها، ثم ربتت على ظهرها، وهي تقول لها بلطف، على أمل أن تهون عليها الأمر:

متزعليش يا بنتي، أنا جمبك، وعمك مش هايقبل أبدًا إن حد يتعرضلك طول ما هو على وش الدنيا.

.....

خرج يتفقدته بالخارج بعد أن طال غيابه عنه، كان مشغول البال به، فعلى الأغلب قد يتوه في تلك الأرجاء غير المألوفة عليه، وخاصة مع حلول الظلام. انتبه "خليل" للأصوات الرجولية الصاعدة من مسافة تبعد عن المنزل نسيًا، اتجه إلى هناك،

ورأى تهديدات ضيف الحاج "اسماعيل" العلنية لـ "آسر"، انقبض قلبه في فزع، وتشكلت أمارات الخوف على ملامحه، سار بخطواتٍ أقرب للركض متسائلًا بصوتٍ شبه لاهث:

في إيه اللي يحصل هنا؟

وكان نجدة من السماء قد هبطت إليه لإيقاظه، على الفور تحول "آسر" للشخصية الوديفة المسالمة، واستدار بجسده ليواجهه مرددًا بانكسارٍ حرج:

-الحقني يا أستاذ "خليل"، معارفك مبهدلني هنا، وأنا مش عارف أتعامل معاهم.

اعتذر منه بشدة، دون أن يسأله حتى عن الأسباب التي دفعتهما للتشاجر معه:

-أستاذ "آسر"، أنا أسف جدًا عن اللي حصل.. حق عليا.

ثم التفت ناحية "تميم" الذي ظهرت تعابيرهِ الواجمة بوضوح، وسأله:

هو فيه بالظبط يا معلم "تميم"؟ ومين ده كمان؟

كانت جملته الأخيرة موجهة نحو "دياب"، وبادر الأخير معرفًا بنفسه بنوعٍ من الغرور، وتلك الابتسامة الواثقة تلوح على زاوية فمه:

-أنا "دياب حرب"، أخو العريس اللي جوا يا حضرت ... إنت مين بقى؟

كانت لدى "خليل" بعض المعلومات المتناثرة على الألسن عن مدى قوة ونفوذ تلك العائلة، عرفه أغلبها من الحاج "اسماعيل"، وبالتالي كان من غير المحمود أن يتطرق معه لمعركة جانبية غير متكافئة مطلقًا، ومع هذا تمالك نفسه، وأظهر انزعاجه، حين سأله بصوته الغاضب:

تشرفنا.. بس بتتخاقق مع نسيبي ليه؟

أجابه "تميم" بنظراتٍ نارية مسلطة على "آسر":  
-أسأله..

تلقائيًا تحركت رأس "خليل" نحو "آسر" الذي ادعى انشغاله بتنظيف بدلته المتسخة، متعمدًا تجاهل الرد عليه؛ وكأن الحديث غير موجه له على الإطلاق، بينما أردف "دياب" مهاجمًا، ونظراته لا تنتوي أي خير:  
-إنت شكلك مش مريحني...

ردد "خليل" مذهولاً، وقد برزت حدقاته في غيظٍ، معتقدًا أنه قد أساء إليه:  
-أنا؟ عيب كده! إنت بتغلط فيا؟

نفي "دياب" بنبرة صارمة:  
-لأ يا حاج..

صمت لهنيهة ليضيف بعدها بما يشبه الاستحقار:  
-أنا كلامي مع البأف ده!

تركزت عيناه بالكامل على "آسر"، والذي تحولت تعابير وجهه للاحتقان من إهائته بهذا الشكل السافر. التوى ثغر "دياب" بابتسامة باردة مستفزة، وقال مواصلاً استهزائه به:

-الهلومة اللي إنت فيها دي أونطة.

غضبًا عظيمًا زائفًا استبد بـ "آسر" وهو يردد:  
-أنا كلامي مش معاك يا كابتن..



استشاطت نظرات "دياب"، واتخذت وضعية الانتفاض عليه، لهذا عدل عن مناطحته، فلا جدوى من إثارة المتاعب معه، والتفت يخبر "خليل" بقليلٍ من الشهامة المقنعة، متخيلاً بذلك أنه يستدعي رجولة حقيقية لا يمتلك منها أدنى ذرة، -ولولا إني عامل خاطر ليك يا أستاذ "خليل" كنت رديت جامد، وقلبت الدنيا، بس أنا بأفهم في الأصول.

شعر مُحدثه بوجود خطب ما، حتى احترامه لم يكن مقنعاً، هناك شيء مريب يلوح في الأفق؛ تحيُّز "تميم" -ومن معه- ضد نسيبه الجديد لم يأت من فراغ، هناك حلقة مفقودة في الأمر، لذا تساءل "خليل" بجدية؛ عله يحصل على رد منطقي:

-أنا مش فاهم حاجة.. هو إنتو اشتبكتوا مع بعض ليه أصلاً؟

لم يمتلك "دياب" الرد المبرر، فقد تصرف بناءً على ما رآه من التحام جسدي، وليس بناءً على حكمة وروية، في حين أجابه "آسر" متهرباً بزفيرٍ منزعج، ونظراته مثبتة على وجه "تميم" المخضب بحمرته الغاضبة:

-خلاص يا أستاذ "خليل"، بعدين نبقي نتكلم...

ثم سحبه بعيداً عن كليهما، وأكمل حديثه بغموض:

-أنا مضطر أمشي دلوقتي.

سأله "خليل" باستغرابٍ شديد:

حطب والجماعة اللي مستنين جوا.. هاقولهم إيه؟

بلباقة معهودة فيه -والتي يجيد إظهارها بالرغم من إذلاله قبل قليل- أجابه:

-اعتذرلهم بالنيابة عني، أصلاً في ظرف طارئ خاص بالشغل عندي، ومحتاجين وجودي ضروري.. ومش هاينفع اتأخر.

سأله "خليل" بتوتر:

-مشاكل يعني؟

مال على جانب رأسه ليهمس له في أذنه:

-حاجة ليها علاقة بالتأثيرات.. ولازم أكون متواجد بنفسني عشان تتحل.

شحب وجه "خليل" قليلاً، ولعق شفثيه مهممًا:

-ربنا يستر.. أنا مش عارف أقولك إيه؟

هز رأسه في تفهم، وقد انطلت عليه خدعته، ليعقب بعدها:

-أكيد إنت فاهم الوضع.

زم شفثيه متابعا قوله:

-أنا عارف ومقدر، بس المفروض كنت هتقابل باقي عيلتنا وآ...

قاطعته "آسر" بهدوءٍ مظهرًا حزنًا غير صادق في نظراته:

-حظي وحش للأسف..

لكن ما لبث أن تحولت ملامحه لابتسامة مبتورة وهو يكمل:

-وعموماً اللي حصل النهاردة ربط كلام، تعارف مبدئي زي ما بتقولوا، ولسه قدامنا وقت عشان نتم الخطوبة، ومن بعدها كتب الكتاب.

حرك "خليل" رأسه في استحسان ليرد بعدها عليه:

-أُكيد إن شاء الله

مد "أسر" يده لمصافحته، وقال بتهذيبٍ لطيف:

-هستأذنك .. وفرصة سعيدة يا أستاذ "خليل".

بادلته المصافحة، بحرارة شديدة، وابتسامة متسعة ودعه:

مع السلامة يا ابني، هنتقابل على خير إن شاء الله

-أُكيد

اصطحبه إلى سيارته التي لم تكن بعيدة عن ذلك المكان المعتم، وظل باقياً إلى جواره حتى أدار المحرك، وانصرف متجهاً إلى مخرج البلدة. استدار "خليل" بعدها بجسده ليتفاجأ بوجود "تميم" خلفه، كان الأخير بحاجة إلى أجوبة حاسمة لما يدور في رأسه، خاصة بعد النوايا الخبيثة التي طفت على السطح تجاه الوضع "أسر". تحفز في وقفته، ورمقه بنظرة عميقة، غريبة، تبعث على الخوف. حاول "تميم" أن يكبت نفسه؛ لكنه لم يستطع، تأهبت حواسه، واستنفرت بطريقة مريبة؛ وكأنه يريد قتله للتفريط فيها بتلك السذاجة المهلكة، تنفس بعمق، مانحاً جوارحه لحظاتٍ من ضبط النفس قبل أن يسأله مباشرة، ودون مقدمات تمهيدية:

-إنت هتجوز قريبتك للبنني آدم ده؟

ورغم غرابة السؤال على مسامع "خليل"، بالإضافة إلى علامات الاندهاش المرسومة على قسماته، إلا أنه أجاب بوضوح:

-أيوه يا معلم .. في اعتراض ولا حاجة؟

دنا منه خطوة أخرى حتى باتت نظراته القاتمة تستحوذ كليًا عليه، أرهبته تقريبًا من التهايبها البائن، ثم لاحقه مستفسرًا، وأسوأ الأفكار عن شخص "آسر" المقيت تهاجمه الآن:

-سألت عليه كويس؟

بلع ريقه، وأجاب:

طبعا.. إنت مفكرني هارمي بنت أختي في الشارع يا معلم!؟

لا يعرف كيف لم يحكم السيطرة على لسانه الذي لم يطاوعه وسأله بنزق؛ وكأنه يفتش عن أمل أخير في أطلال حبه البائن:

-وهي موافقة عليه؟

لحظة استغرقها "خليل" في التفكير لينطق بعدها بما ألم الفؤاد ومزقه:

-أيوه، أومال عاملين الأعدة دي النهاردة ليه؟

وخزة قاتلة أخيرة اخترقت قلبه المتألم، لتتضي نهائيًا على حلم لم يتجاوز طيات الخيال، لذا لم يكن أمامه إلا أن يحذره بوجوم، أخفى خلفه ما يسري في بدنه من قهر عظيم:

حطب خد بالك منه!

سأله في حيرة:

ليه؟

لم يمنحه ما يشبع توق فضوله، وكرر عليه بلهجة الصارمة:

من غير ما تسأل .. اسمع الكلام!

تدخل "دياب" في الحوار معلقًا:

طالما المعلم "تميم" قالك كده يا حاج، يبقى ما تناقش!

وزع "خليل" نظراته بين الاثنين، فرأى استعدادًا جليًا لإشعال فتيل معركة شرسة،

حتمًا لن تنتهي على خير، تنحج في توترٍ أكبر، واستطرد مُطلقًا:

-واضح كده إن في سوء تفاهم مع نسيبي الجديد، ده محامي محترم وآ...

اشمئز "تميم" من الإصغاء لما يخص سيرته، وهتف مقاطعًا بلهجة مماثلة لتلك

الخشنة التي يتعامل بها مع الأوغاد:

-مش هارغي كثير.. حافظ على أهل بيتك! سامعني؟

ما كان منه إلا أن رد بخنوع:

تمام يا معلم.

في تلك اللحظة يمكن أن تتبين مدى الألم الذي يطل من عيني "تميم" كمدًا على

خسارته المحتومة، فلم يعد الأمر مجرد زيجة جيدة تليق بها؛ لكن بات مصيرًا

مؤسفًا يحق بحياتها، ووحده من يدرك ذلك .....

!!

.....

## الفصل الثالث والخمسون

ما زالت تحتفظ بتلك الخصال المخادعة، في اكتساب تعاطف الآخرين معها، خاصة من لا يعرف حقيقتها المؤسفة، ذرفت العبرات الحارقة وهي تحاول تكوين جملة واضحة من خلال لعثمتها المصطنعة، لتبدو أكثر إقناعًا لها، أفرغت ما يزيد عن نصف علبة المناديل الورقية الموضوعة بحقيبتها، لتمسح دموعها الغزيرة التي أغرقت وجهها، وذلك المخاط المتسرب من فتحتي أنفها. نظرت لها خالتها بإشفاقٍ، وأعدت لها مشروب الليمون البارد لترطب به صدرها المحترق؛ لكن ما الذي

يشفي جراح القلوب؟ تناولته منها "خلود"، وارتشفت القليل منه، قبل أن تستنده على الطاولة أمامها، تطلعت إلى "ونيسة" مجدداً بعينيها المنتفختين، وأردفت قائلة بنههة متقطعة:

-يرضي مين أفضل كده؟ أنا صبرت.. وماتكلمتش، بس اللي بيعمله فيا حرام.

أطرت خالتها رأسها في حرج، وقالت بنبرة آسفة:

-أنا مش عارفة أقولك إيه يا بنتي.. وشي منك في الأرض.

اختفى التلعثم من صوتها، وجفت العبرات تقريباً من مقلتيها حين مالت عليها لتهمس لها بالحاح:

يا خالتي كلميه تاني وتالت وعاشر، قولي لعمي "بدير"، ما هو في مقام أبويا.

رفعت "ونيسة" أنظارها نحوها تطالعها بحيرة، بماذا تخبرها وقد بذلت ما في وسعها لإثناء ابنها عن رأيه، والأخير مُصر على رأيه؟ رفت عينها، وعلقت وهي تلعق شفيتها:

-أنا عملت ده كله، وتقريباً مقاطعة "تميم"، بس هو راكب دماغه، ربنا يهديه.

امتدت ذراع "خلود" نحو كف خالتها، احتضنت أصابعها، أو بالأحرى أن يُقال اعتصرتهم نسيباً وهي ترجوها، بنظراتٍ كادت تبرز من عينيها المحتدتين:

حطب قولي لجدي "سلطان"، أنا عارفة إن ليه تأثير عليه.

بصعوبة استعادت يدها من قبضتها، وردت بتوجيسٍ خفيف:

-ولو إنه مايحبش كده، بس أنا هاتكلم معاه.

عاد الحزن ليغلف صوت "خلود" عندما تابعت ببؤس، أرادت أن ينعكس في ملامحها أيضًا:

يا خالتي أنا لسه قدامي كتير في العدة، وده من رحمة ربنا بيا، يعني لو كلنا اتعاوننا مع بعض، وكمان شوية زن عليه، هيعرف إنه غلطان، وساعتها هنرجع لبعض... كانت محاصرة بين توسلاتها المُلحة، وعاطفتها المشفقة على حالها. تنهدت "ونيسة" قائلة بإيماءة من رأسها:

الله الأمر من قبل ومن بعد.. هاشوف يا بنتي.

ادعت اختناق صوتها وهي تشكو لها التعاسة الأبدية التي فرضت عليها:

-وبعدين أنا مش عايزة اللي في بطني يطلع ما يلاقيش أبوه جمبه، هو أنا غلظت في إيه يعني؟ جوزي وبحابي عليه، بس الظاهر أنا مش مكفية طلباته.. وده مش عيب لما أقول كده..

انتابتها نوبة أخرى من البكاء، اختلطت بصوتها، عندما أكملت:

-وهو لو عاوز يتجوز ثاني وتالت، أنا مش ممانعة، هاحط لساني في بؤي وأخرس، طالما ده هيربحه، وأديني ببص لمصلحة العيل اللي جاي، المهم أكون جمبه.

كان الشقاء والحزن ظاهران عليها بشكلٍ يجبرك على التعاطف معها، ولهذا انخدعت مشاعرها مع ما تبثه لها من هموم. وضع "ونيسة" يدها على كتف ابنة أختها، وقالت بنوعٍ من الدعم لها:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، اهدي يا بنتي، هو في لسه بنات أصول كده زيك؟ وربنا أنا زعلانة على اللي حصلك، هي عين وحشة صابتكم.



مسحت "خلود" بمنديل ورقي آخر دموعها، وعقبت عليها بحسرة:  
منهم لله اللي كانوا السبب.

اتجهت أنظار كلتاها فجأة نحو الصوت المنادي بزمجرة مزعوجة:  
- "ونيسة!"

كان الجد "سلطان" يقف عند الردهة المتسعة، ممسكاً بعكازه، ونظراته غير  
المريحة مرتكزة على وجه "خلود"، لم يضيف المزيد، ولم يرحب بها؛ وكأنه يتجاهل  
وجودها. كانت أمارات الاستنكار والتأفف تنطق على محياه، لم تتحرك رأسه حين  
سأله "ونيسة":

أيوه يا حاج.. أوْمُرني؟

أبعد عينيه القاسيتين عن نظراتها المراوغة ليتطلع إلى زوجة ابنه، وطلب منها بلهجته  
الآمرة:

-اعمليلي قهوة مضبوط.

هزت رأسها في امتثالٍ وهي ترد:

حاضر.

ادعت "خلود" الإرهاق وهي تنهض من مكانها لتتجه إليه، أقبلت عليه منحنية  
قليلاً لتمسك بكفه، وتقبله، مُلقية التحية عليه بتهديبٍ عجيب:

إزيك يا جدي؟ أخبار صحتك إيه؟

سحب يده قبل أن تطالها للخلف، ورد بما يشبه الازدراء:

- أهلاً بخلفة "بثينة" ..

اتسعت عيناها من إيحائه الساخط، ومع هذا تجاوزت عنه، لتشكو إليه،  
باستجدائها المتسول لمشاعره، مستخدمة منديلها الورقي، في مسح دموع أوشكت  
على الجفاف:

-أنا ماليش غيرك يا جدي من بعد ربنا، يرضيك خراب البيوت و..؟

قاطعها بصوت جاف خالٍ من أي نوعٍ من التعاطف:

-شوفي يا بنت "بثينة"، بلاش الشويتين دول معايا..

غامت نظراتها نحوه، حتى عبراتها التي تطيعها وقتما تشاء لتبكي بتأثيرٍ لم تقوَ على  
استدعائها أمام خشونته البحتة. رمقها "سلطان" بنظرة قاتمة نفذت إليها على الفور؛  
وكأنها تجردها من أقنعتها الزائفة، وأضاف بصوته المليء بالجفاء:

-المحن وشغل التلات ورقات ده عفا عليه الزمن، أنا مش خالتك "ونيسة"  
هتضحكي عليا بدمعتين، وابن ابني راجل.. عمل الصبح..

تخلت عن ضعفها المستكين لتسأله بوجهها الحقيقي:

-يعني إنت موافق إنه يطلقني؟

بساطة أجابها، ودون أن يستغرق وقتًا في التفكير:

-ده اختياره، ماليش إني أدخل.

نظرت له بعينين تتقاذف فيهما شرارات الغضب، وردت بصوتٍ أقرب للصياح:

-بس إنت جده، وكلامك سيف على رقبتة، خليه يرجعني، احنا لسه في العدة.

سألها بنوعٍ من التهكم:

-وهو أنا اللي هاعيش معاكي؟ طالما مش عايزك، خلاص...

ثم عمد إلى مواجهتها بقساوة، ودون أن يأبه بمشاعرها:

-إنتي بالنسبale باب اتقفل في حياته.

تصاعد الدم في وجهها غيظًا من صراحته الفجة، وسألته بوقاحة:

-ده كده كويس يا جدي؟ يطلقني وأنا حامل؟ وإنت عارف كلام ربنا كويس!

علق بهدوء، ليفسد عليها محاولتها الشنيعة لاستفزازه:

-ربنا يقول **فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ** .. و"تميم" عمل اللي ربنا أمر

بيه، لما الحياة تبقى مستحيلة إن اتنين.

كزت على أسنانها في غيظٍ أكبر، وأضافت متسائلة:

-يعني يرمي لحمه في الشارع؟

أجابها ساخرًا بابتسامة باهتة:

-شارع إيه؟ ما هو سايلك بيت أد كده ترمحي فيه إنتي وأمك، وكافة طلباتك

بتوصلك أول بأول، عايزة إيه تاني؟

لم تتردد حين جاوبت على المقطع الأخير من جملته، وعيناها تتسعان بتملكٍ

وسطوة:

-أنا عايزاه هو..

بدا جليًا من نظراتها نحوه، وتلك العلامات التي تحيط بوجهها من إصرارٍ مُعاند، أنها لن تتخلى عن فكرة ملاحظته، لذا أراد أن يكون صريحًا وواضحًا معها وهو ينطق بكلماته اللاذعة مشددًا على كل عبارة يتفوه بها:

-ولو إنك هتضايقي من اللي هاقوله، بس أنا مش بتاع نفاق، والصراحة كده "تميم" مش عايزك، من الآخر معدتش طايقك، إن جيتي للحق، ده مصدق خلص من الجواز دي كلها.

انزع قلبها وتمزق من حدة جملة، وهتفت مرددة في عدم تصديق:

إيه؟ يعني إيه الكلام ده؟ هو.. قالك كده؟

أشاح بوجهه عن قسماتها المحتقنة بدمائها الغاضبة، وقال بنبرة باردة:

-روحي جنب خالتك خليها تعملك ينسون ولا نعناع، وشك أصفر، وده مش حلو للي في بطنك.

زاد احمرار وجهها من أسلوبه المليء بالقسوة، وتابع بصياح وهو يسير في اتجاه غرفته:

يا "ونيسة"، سكي على القهوة، أنا داخل أناام.

ظلت عينا "خلود" الناريتين مثبتتين على أثره طيفه، حين اختفى من أمامها، اعتصرت قبضة يدها هامسة لنفسها بعزمٍ أشد:

- "تميم" هيرجعلي!

.....

عاد إلى داخل المنزل بعد توديع الزوج المستقبلي لابنة أخته، وهو يدعو الله في نفسه ألا تفسد محاولاته المضنية للحصول على تلك التأشيرة؛ حيث ستعود عليه بالنفع المادي، ناهيك عن أمور أخرى يسعى لتأسيسها بعيدًا عن أعين زوجته المتطفلة. رفع "خليل" رأسه للأعلى، في اتجاه "اسماعيل"، الذي على ما يبدو كان ينتظره، وهو يسأله بوجه متجهم:

-أومال فين العريس؟

أجابه الأول مستخدمًا يده في الإشارة:

مشى، وراه شغل مستعجل، فاستأذني يرجع ثاني، هو في حاجة يعني؟  
أوما برأسه بهزة خفيفة، وضرب بعكازه الأرضية من تحته، ليقول بغموض مثير للاهتمام:

-كويس .. لأنني عايزك في كلمتين مهمين.

دارت عيناه بشك، وسأله:

خير يا حاج؟

لم ينطق الحاج "اسماعيل" بكلمة، وانطلق موليًا إياه ظهره نحو إحدى الغرف الداخلية البعيدة عن الضيوف أو الخدم؛ حيث تعتاد العائلة على الجلوس بأريحية. ضاقت حدقتا "خليل" بانزعاج ملموس، وارتد وجهه بالغضب، وقد سأله الأول مباشرة، دون أدنى استهلال لحديثه:

قولي، هو احنا من امتي بنجوز بنات عليتنا غصب؟!!

رد متسائلًا بنظرة حيرى:

-مش فاهمك يا حاج؟

أعاد صياغة السؤال على مسامعه -بشكل أوضح- قائلاً:

-يعني بنت أخويا موافقة على الجوازة دي؟

أكد له على الفور:

-أيوه .. كله برضاها

هنا نطقت "فيروزة" من خلفه، مبدية رفضها الشديد:

-لأ يا خالي.

استدار برأسه للخلف ليواجهها، وقد بدا مصدوماً لرؤيتها غير محتجزة، استشاطت

نظراته، وهمّ بالاتجاه نحوها ليعنفها بقساوة:

-مين خرجك من الأوضة الثانية؟!

ظهرت من ورائها "سعاد"، وتقدمت للأمام لتعرض طريقه بجسدها المكتنز،

حجبت عنه "فيروزة"، ورمقته بنظرة استنكارٍ قبل أن تجيبه:

-أنا!

ثم سحبتهما نحو عمها لتجلسها على الأريكة العريضة إلى جواره، لتظهر له عن عمدٍ

حمايته لها، وعدم قدرته على إيدائها في حضوره. قست نظرات "اسماعيل"،

وتقلصت عضلات وجهه، وهو يسأله بصوته الغاضب:

-بتحبس بنت أخويا ليه؟ لأ وكمان بتمد إيدك عليها؟!!

لوح بذراعه مهدداً عندما أجابه:

-بأديها طالما غلطت.

ظهرت "حمدية" عند أعتاب الباب، وإلى جوارها الغائبة الحاضرة؛ "آمنة"،  
وتدخلت في الحوار قائلة بسخطٍ، لتدعم زوجها في شراسته نحوها:  
مش بدل ما تطلع تفضحنا قصاد الغريب والقريب.

حدجها "اسماعيل" بنظرة محذرة قبل أن يجرها بوقاحة جمّة:  
أنا بأتكلم مع الرجالة، مش مع الحريم.

تلون وجه "حمدية" بحمرة مزعوجة لإحراجها لهذا الشكل السافر؛ وكأن رأيها  
نكرة لا يُعتد به، تصاعدت الدماء إلى رأسها لتزيد من حقدتها نحوه؛ ولكن جاء رد  
"خليل" مؤيداً لموقفها:

-لا مؤاخذة يا حاج "اسماعيل"! بس مراتي مقاتلش حاجة غلط .. ده اللي كانت  
"فيروزة" ناوية تعمله.

أشعرها ذلك بنوع من الفخر لرد اعتبارها سريعاً، وقررت ألا تدع الليلة تمر دون أن  
تقلب الطاولة على رأس "فيروزة"، وتفسد ما بينها وبين عائلتها؛ ربما للأبد. تجاهل  
"اسماعيل" تحيز "خليل" لزوجته، وسأله من جديد بصوته المنفعل، ونظراته لا  
تبشر بخير:

حبست بنت "علي" ليه جوا بيتي؟ مش عايزها تقول رأيها ليه؟

أجابه الأخير بعصبية، ونظراته تحمل الاتهام نحو "فيروزة":

-ما هو مش بعد ما اتفق مع الراجل، تيجي هي تغير كلامها، لأ وكمان تكسفني  
قصاد رجالة البلد، عايز شكلي يكون عامل إزاي؟

أضافت "سعاد" موضحة بنبرة شبه عالية:

معلش! كل شيء بالخناق، إلا الجواز بالاتفاق.. وبنتنا مش عايزاه

أخرجتها "حمدية" بوقاحة:

مش الحاج قال الرجالة هما بس اللي يتكلموا؟ ولا كلمتي بس اللي بتقف في الزور؟

التفتت نظرات "سعاد" نحوها لتجدها تبتسم لها بازدياء، ورغم هذا لم تناطحها احتراماً لهيبة زوجها، وقالت بهدوء، وتلك الابتسامة الباردة تتدلى من على جانب شفيتها:

معاكي حق.. نسكت ونخلي الرجالة يصلحوا غلط الحريم.

اعترضت "فيروزة" على كلمة زوجة عمها الأخيرة، وقالت بتحفظ:

أنا مغلطتش يا مرات عمي، خالي اللي عمل كل حاجة من دماغه، وحتى مخدش رأيي

توحشت عينا "خليل" من جراتها، وهتف يلومها بتشنج، وعروقه تنتفض من شدة انفعاله:

أيوه مخدتش رأيك لأنك جايباه لحد عندي في فرح أختك، تفتكري واحد بيقولي عاوز بنت أختك، واتقدملك، وجاي من طرفك، هأقوله إيه؟ خليته يتصرف بالأصول، ده على اعتبار إنك موافقة من الأساس، وإلا مكانش جه كلمني عليكي.

ثم توجهت نظراته نحو "اسماعيل" وهو يتابع:



-يعني أنا عملت الصبح، وقولتله تيجي يا ابني البلد تطلبها من أهلها، واحنا هنسأل عليك، وعملت اللي عليا، وبعثت ناس تتطأس عنه، والشاب طلع محترم وكويس، وقادر يفتح بيت كامل من مجاميعه، وأظن كده عداني العيب.. فين بقى غلطي؟

بدا حديثه منطقيًا، لا يشوبه شيء، واعتراض "فيروزة" مريبًا لحد ما، وعند تلك الجزئية أتى دور "حمدية" لتظهر براعتها في قدرتها على حياكة المؤامرات الدنيئة؛ ولكن بشكلٍ مثير، غرضها في الأخير كسر الهامات، قسم الظهور، وإحناء الرؤوس في مذلة وعار، لذا استأنفت قائلة بخسة، وبكلمات موحية بانتهاكاتٍ غير أخلاقية: -إلا إذا كان الموضوع فيه إن.. وعشان كده خايفة الجوازة تكمل، ده لأنه دخل في الجدد.

سألتها "آمنة" بقلبٍ واجف:

-معناه إيه الكلام ده يا "حمدية"؟ قصدك إيه؟ فسريه؟

التفتت برأسها نحوها لتجييها بتهم مُلفقة، وبنظراتٍ احتقارية:

-إنها عاملة حاجة غلط، وبتداري على فضيحتها، يعني شرفها اتمرغ في الوحل.

شهقت مصعوقة انطلقت من جوف "آمنة" قبل أن تسده بكلتا يديها، ونظراتها تحولت على الفور نحو ابنتها، بينما هدرت بها "سعاد" مستنكرة بشاعة التلميح:

عيب عليكِ الكلام ده!

كما انتفض "اسماعيل" واقفًا لينهرها بغلظةٍ شديدة:

-لم مراتك يا "خليل"! اللي بتقوله ده فيه قطع رقاب!!

على الرغم من صدمته مما تلفظت به زوجته، إلا أن ذلك أشعره بمدى دهائها المقلق في التعامل مع الأزمات؛ وإن كانت الأمور قد اتخذت منحنا خطيرا، لم يعنفها، ولم ينطق بشيء، فقط نظراته المدهوشة ارتكزت عليها؛ وكأن تفكيره مع كامل حواسه قد أصابهم العطب. وعلى عكسهم صرخت "فيروزة" في إنكارٍ متعاضم:

-أنا ماسمحل كيش، كله إلا سمعتي!

لوحث "حمدية" بذراعها بحركات مهينة أمام وجهها، وهتفت تهاجمها بعدائية وغل: مين إنتي أصلاً عشان تسمحي لي؟ حته بت لا راحت ولا جت عايزة تمشي رجالة بشنبات على مزاجها!

ثم دنت منها أكثر، وواصلت قذفها بتهمها، بصدرٍ يملأوه الحقد:

قولي خايفة توافقي عليه ليه؟ راجل مافيهوش غلطة، وإنتي خاوتة دماغنا مش عايزاه، واللي في سنك جابوا بدل العيل ثلاثة وأربعة.

كانت "فيروزة" على وشك الهجوم عليها، وربما ضربها، غير مبالية بمكانتها؛ لكن فرد "اسماعيل" عكازه أمامها ليمنعها من الاقتراب منها، وهتف أمراً بوجهٍ مقلوب، ونظراته تبدلت للإظلام:

-خدي بنتك يا "آمنة" السعادي من هنا.

شعرت "فيروزة" بالشكوك تحوم فوق رأسه، فصاحت مدافعة عن نفسها، وقد باتت في نظرات الموجودين -إلى حد كبير- مذنبه، العار يُدينها:

يا عمي متصدقش كلامها، أنا أشرف من الشرف، أقسم بالله ما عملت حاجة غلط ولا حرام، أنا زي ما أنا..

تجاهل ما سمعه منها ليقول بقساوة غلفت نبرته:

-اسمعي الكلام يا "آمنة"، خدي بنتك من هنا...

احتضنت "آمنة" ابنتها بذراعها، وألقت الأخيرة نظرة آسفة على عمها، والذي على ما يبدو اتخذ موقفًا مغايرًا لذلك الذي كان عليه قبل قليل، وقبل أن تخرج كلتاها من الغرفة أتى صوته من الخلف يأمرهما:

-وماتخرجوش برا بيتي!

تجمدت قدما "فيروزة" في مكانها، التفتت برأسها نحو عمها، لم يكن ناظرًا ناحيتها، كان واجمًا بشكلٍ مستريب، اتجهت بنظراتها نحو "حمدية" التي بادلتها ابتسامة انتصارٍ خبيثة، وبصعوبة أجبرتها والدتها على التحرك من مكانها لتناى بها -مؤقتًا- عن شرٍ جديد بات يحقق بها.

.....

تمكن منها الإعياء، فتسللت إلى غرفته بعد استئذان خالتها، حيث لاقت من الأخيرة ترحيبًا بفعل ذلك، ولما لا؟ فربما تتيح لهما الفرصة للتقارب مجددًا، وإنهاء ما اعتبرته خلافًا زوجيًا. تأملت "خلود" بعينين مشتاقتين متعلقاته الشخصية، جابت على كل ما ضمته غرفته بنظراتٍ متأنية؛ وكأنها تسترجع ملكيتها لما كان لها في الماضي. اقتربت من ثيابه المعلقة على المشجب، أمسكت بأطرافها، وقربتها من أنفها لتشم عطره العالق بها، تضاعفت اللوعة بقلبها، ورغبت بشدة في استعادة ما فقدته معه، همست لنفسها بتنيذة بطيئة تنم عن حاجتها الملحة إليه:

-وحشتني أوي..

سحبت قطعة من ثيابه، واحتضنتها وهي مغمضة العينين، متخيلة أنه يحويها بين ذراعيه القويتين، وشفته تنهلان من على شفيتها مذاق الحب الجارف. انبثت لصوته القادم من الخارج، فتأهبت حواسها، وقفز قلبها في تلهفٍ راغبٍ إليه. وبخطواتٍ شبه سريعة اتجهت إلى الفراش لتستلقي عليه، ووضعت ثيابه إلى جوارها، وأراحت ذراعها عليهم، لتدعي استغراقها في النوم، خلال تأملها الوله لما يخصه.

فتح "تميم" باب غرفته ليتفاجأ بوجود طليقته بها، ألقى عليها نظرة ناقمة منزعة، خاصة حينما لمح ثيابه بجوارها، كان ذلك حقًا ما ينقص يومه البائس لتكتمل تعاسته وبؤسه، تنفس بعمقٍ، ثم طرد الهواء خارج صدره بصوتٍ مسموع، والتفت متحركًا في اتجاه الباب مناديًا والدته بصوتٍ شبه حاد:  
يامه!

جاءته الأخيرة مهرولة، وتساءلت بنبرة أقرب للهاث، ونظراتها المتوترة تفضح تواطئها:

خير يا ابني في إيه؟

وقف في الردهة الضيقة خارج غرفته، وأجابها بعبوسٍ غطي كل قسماته:

-بنت خالتي بتعمل إيه جوا في أوضتي يامه؟

ردت عليه بكذبٍ شبه مكشوف:

-كانت تعبانة، وأنا قولتلها تنام جوا، مافيهاش حاجة يعني

علق بتنمرٍ وقح، وبصوتٍ أراد أن يصلها:

يا سلام؟ طب ما عندها أوضة "هاجر" .. فاضية ونضيفة، ما تقعد فيها، ولا هو رمي جتت والسلام؟

تقلبت "خلود" على الفراش من الداخل، ونظراتها قد التهبت من جفائه الموحش، اضطرمت نيران غضبها في قلبها مع هجرانه القاسي؛ وكأن ما منحته يومًا له لم يشفع لها، اعتدلت في رقدتها، وأرهفت السمع لما يقال بالخارج. تدلى فك "ونيسة" في بلاهة، فأدرك "تميم" أنها كانت تساعد ابنة أختها في مسعاها للولوج إلى حياته مجددًا، بإقحامها باستمرارٍ في طريقه، حتى لا يجد المهرب منها، لهذا قال لها بوضوح قاطعًا أي أمل معقود على عودته إليها:

شوفي يامه احنا بقينا أغراب عن بعض، تنام في أوضتي، تنام في الحمام، إن شاء الله تنام تحت الأرض، أنا مش راجعها.  
هتفت فيه والدته تلومه ببكاءٍ زائف:

حرام عليك اللي بتعمله فيها ده! اتقي ربنا، وارجع لعقلك، مهما كان في بينكم عيل جاي وآ....

رمقها بنظرةٍ قصد أن تكون خالية من أي مشاعر حين قاطعها حاسمًا المسألة عليها:  
قولتلك أنا ظالم ومفتري .. والعيل اللي ماشافش النور ده مش هيجبرني أرجعها، حتى لو كانت آخر واحدة على الأرض ..... !!

.....

## الفصل الرابع والخمسون

أمعنت في كبح ما يعتريها من غضبٍ مهتاجٍ حالياً لشكسب وجهها هدوئاً يُغاير الطبيعي، والذي من المفترض أن تكون عليه، لتدعي أنها لم تسمعه ينبذها، أو الأخرى يقصوها من حياته للأبد، لتبدو كمن غفلت لبعض الوقت بسبب إرهاق الحمل، ولم تصلها لعناته أو طرده لها. نهضت "خلود" عن الفراش، وتأرجحت في خطواتها وهي تتجه نحو الباب، لتظهر وكأنها تعاني من عدم اتزانٍ بسبب تأثير الحمل عليها، هتفت من الداخل مُعلنة كذباً أنها لم تنتبه لوجود طليقها بالخارج:

-أما يا خالتي شوفت حطة حلم جميل، ربنا يجعله يتحقق، شوفت "تميم" شايل ابنا، ومصمم أنا اللي أسميه، وكان في إيده دبله جوازنا ...

عند تلك الكلمة الأخيرة توقفت أمام باب الغرفة، راسمة على وجهها علامات الدهشة، لتبدو أمام الاثنين متفاجئة من تواجده، ردت بأنفاسٍ مرتبكة:

- "تميم"!

منحها الأخير نظرة غير مريحة، على أدق تعبير ساخطة، قبل أن يشيح بنظراته بعيداً عنها، تجاهلها عن عمدٍ، وقال لوالدته بصوتٍ تحول للبرود:

-أنا جيت أطمئن عليك، وعلى جدي، احتمال أبات في الدكان النهاردة، ورانا توريد كبير من بدري

رمقته والدته بنظرة معاتبة، ثم حثته على محادثة "خلود"، فقالت:

مش هاتسلم على بنت خالتك، وتطمئن على ابنك؟

لم يلتفت نحوها، ورد قاصداً إحراجها:

-لأ.

زجرته "ونيسة" في عصبية:

عيب كده يا "تميم"، راعي اللي كان بينكم، الدم عمره ما كان مياه

تدخلت "خلود" في جدالها الحاد معه، لتستعطفها بما يشبه الرجاء:

خلاص يا خالتي، سبيه على راحته..

ثم تنهدت هنيهة لتضيف بعدها:

مهما عمل فأنا لسه بأحبه.

استدار "تميم" برأسه في اتجاهها، وحدجها بنظرة جافة، خالية من أي تعاطف، ثم

التفت نحو والدته من جديد ليقول:

لو عوزتي حاجة كلميني.

همّ بالتحرك، لكن استوقفته "خلود" بالتعلق في ذراعه، وكأن صاعقة من السماء

لامسته، انتفض مُخلصاً ذراعه على الفور من قبضتها، ومنحها نظرة صارمة محذرة،

ومع هذا النفور الواضح على محياه إلا أنها ابتسمت مقترحة عليه في نبرة ناعمة

متدلة:

-أنا هاروح للدكتور بكرة، ما تيحي معايا عشان نطمئن على ابننا، وتشوفه في  
السونار، إيه رأيك؟

أجابها ببرود، وكان الأمر لا يعنيه حقًا:

-مش فاضي ..

ثم أشار بيده بإشارة خاطفة نحو والدته متابعًا حديثه:

-خالتك موجودة، هاتبقى تروح معاكي وتحكي لي.

عابتته والدته بشدة، وقد انقلبت تعبيرات وجهها للعبوس:

-وما تروحش إنت ليه؟

لم يكلف نفسه عناء الرد عليها، غير مبالٍ بضيقها، فصاحت به بحدة:

-رد يا "تميم".

تحرك صوب الباب، ملقيًا خلف ظهره كل ما لا يرغب في سماعه، وعلق بسماجة  
مهينة:

-ماتنسيش تقفلي الباب بالترباس لما الضيفة تمشي، سلام يامه.

ضربة موجعة تلقفتها "خلود" في قلبها بعد جملته تلك، هو يعدها غريبة عنه،

ويتعامل معها في أضيق الحدود، حتى جنينه الذي ينمو في أحشائه لم يهتم لأمره،

ولهذا أدركت جديًا أن مسألة استعادته ليست بالهينة أبدًا، لم تستطع التحكم أكثر

من ذلك في ضبط غيظها، فانفجرت في "ونيسة" تشهدها:



-شوفتي بعينك يا خالتي، وأنا مكالمتش أهوو، بأتهان وساكته، ويا ريت بعد ده كله  
عاجب!!

ربتت الأخيرة على ظهرها في أسف، واعتذرت منها بوجهها الممتقع:

-معلش يا بنتي، أنا مش عارفة أقولك إيه بس؟

نكست رأسها في حزن، وهممت بتنهيده بطيئة منكسرة:

-الحمد لله على كل حال.

لمعت عينا "ونيسة" بدمعاتها المتحسرة، وقالت بشفاه مقلوبة:

-ربنا يسامحك يا "تميم"، ولا كنت أتخيل إنك تعمل كده في اللي من دمك، منه  
لله اللي شقلب كيانك.

تركت "خلود" تلك العبرة الزائفة تنساب من طرفها، وفركت عينيها بقوة لتزيد من  
التهاهما، ثم توصلتها بصوتٍ بدا يائسا للغاية:

-اللي حصل، محدش كان عارف النصيب هيودي لفين...

ما لبث أن أخفضت نبرتها قليلاً لتتابع بمكر:

-بس طول ما إنتي في صفي.. جايز الحال يتعدل، ويرجعني، برضوه إنتي أمه  
وكلامك هيمشي عليه في النهاية.

قست نظرات "ونيسة"، وهتفت تؤيدها دون تفكير:

-هيحصل يا بنتي، أنا مايرضنيش الظلم ولا الافتراء.

.....

أنهت مكالمة سريعة مع ابنتها لتعرف منها تفاصيل لقائها المدير مع طليقتها السابق،  
عل أواصر الود تعود بينهما؛ لكنها كالعادة باءت بالفشل، ولم تتوقع "بثينة" غير  
ذلك، انعكس حقدتها الداخلي على ملامح وجهها، وهمست لها بصوتٍ خفيض،  
كمن يملي عليها البديل لخطتها غير الناجحة:

-اسمعي اللي هاقولك عليه، ونفذه بالحرف الواحد.

جاءها صوتها المختنق تستحثها على النطق بنبرة مليئة بالإحباط:  
قولي يامه.

وضعت يدها أمام فمها، لتخفي حركة شفيتها وهي تقول:

هاتروحي لخالتك، وتقوليها الواد "هيشم" ماسك في أمي، ومش عايزها تروح  
بالليل، وإنتي هتاخدي تآكسي وترجي البيت.

تساءلت "خلود" في ترددٍ حائر:

-وأنا هاعمل كده؟

نهرتها أمها بغضبٍ؛ ولكن بصوتٍ خافت، ومن بين أسنانها المضغوطة:

-لأ يا غبية، دي كلمة تقوليها لخالتك، تضحكي بها عليها، المهم بقي، قبل البؤين  
دول أعملي نفسك مش قادرة.

أعادت صياغة السؤال عليها للتأكد من فهمها لما أملته عليها من تعليمات:

-دايخة يعني ومش قادرة؟

ردت بزفيرٍ بطيء:

-أيوه، وطبعًا لأن الوقت اتأخر هتباتي عند خالتك..  
-ماشي.

ضاقت عينا "بثينة"، وتبدلت نبرتها للمكر حين أوصتها:  
-المهم بقى تلازميها طول الليل، وزني على ودنها، أختي طيبة، وعلى نيتها،  
هتصدقك على طول، والمثل بيقولك الزن على الودان أمر من السحر.  
عقت عليها ابنتها دون نقاش:  
-حاضر.

غمغمت بعدها والدتها في نوم:  
-يا أكش يفلح ده كله في النهاية.  
ردت عليها ابنتها بياس لم تكابر في إخفائه:  
يا رب.

رفعت "بثينة" أنظارها للأعلى لتلمح ابنها قادمًا في اتجاهها، على الفور أنهت معها  
حديثها قائلة:

-سلام بقى عشان أخوكي جاي.

ودون أن تنتظر ردها من الجهة الأخرى، أغلقت زر الاتصال، وأعدت وضع الهاتف  
في جبرها. دنا "هيثم" منها متسائلًا، وهو يمشط شعره الرطب بيده:

-ها يامه، هنزل أوصلك البيت؟

استراحت باسترخاء في الأريكة، وأجابته بابتسامة ملتوية في خبث:

-لأ يا عين أمك، أنا بايتة معاك النهاردة.  
وجوم مندهش حط على تعايبه، وهتف مصدومًا:  
-نعم؟ بايتة عندي؟  
هزت رأسها بإيماءة مؤكدة، وبين شفيتها تتراقص ابتسامتها اللئيمة:  
-أه ياخويا، ولا المحروسة عندها مانع؟  
تجاهل جملتها تلك، ليسألها مستوضحًا:  
-ليه؟ مش هتروحي مع "خلود"؟  
تغنجت بجسدها الممتلئ بحركة ساخرة وهي ترد:  
-خالتك ماسكة فيها، وحلفانة ما تسيبها، إيه عايزني أكر بخاطر أختي؟  
لوى ثغره مدمدماً بخفوت، وبتذمرٍ منزعج:  
-طب ليه العكنة دي؟!  
ركزت "بثينة" عينيها الحادثين عليه، وسألته في استمتاعٍ مستفز:  
-بتبرطم يايه سمعني؟  
لوح بيده نافياً بوجهٍ مكفهر:  
-مافيش..  
ثم لعق شفثيه متابعًا:  
-هاقول لـ "همسة" إنك قاعدة معانا.

أشارت له بسبابتها تحذره:

-أعمل حسابك أنا مش ببات في سراير المساخيط دول.

لم يفهم ما الذي ترمي إليه، فسألها بتلقائية:

-يعني إيه؟ مش فاهمك؟ إيه المساخيط دول؟

أجابت بهزة ساخرة من جسدها:

-يعني أوضة العيال اللي مالهاش لازمة دي...

ثم قست نظراتها وهي تكمل بطريقتها المسيطرة الباعثة على الضيق:

-الدلعي مراتك تنام فيها، أنا يا حبيبي هنام في أوضتك، وعلى السرير الكبير

كمان، ماشي يا خويا؟

هتف محتجًا بغیظ:

ليه يامه بس؟ ده السراير مريحة والأوضة كويسة.

ردت باعتراضٍ ساخط:

-مريحة؟ دي أد كده، ماتكفينش.

اقترب منها، ومال نحوها هامسًا برجاء:

-ماينفعش يامه، أنا و"همسة" لسه عرسان جداد، ومايصحش يعني في أول جوازنا

حد يقعد معانا

رفعت يدها أمام جبينها لتصيح به بنظراتها المتتمرة:

-وأنا مش أي حد يا عين أمك.

صح لها بمزيد من الرجاء:

-مقصدش، بس عشان نبقي على راحتنا كده.

أخضت "بثينة" يدها، ووضعت إصبعيها أسفل ذقنها، ثم علقت بأسلوبها الساخط:  
-أدي دقني إن شوفتوا خلفه، دي واحدة مقطوع أملها، مالهاش لازمة تنام جنبها أصلاً.

كانت كلماتها كالسهم القاتلة، جعلت ملامحه تزداد تقلصًا، لم يستلذ أبدًا تطرقها لهذه المسألة الحرجة تحديدًا، ووبخها بقليلٍ من الحدة  
-لا إله إلا الله، لازمته إيه الكلام ده يامه؟ هنعیده تاني؟ وإنتي دخلتي في علم الغيب؟

ردت ببرودٍ، وتعابير قاسية:

-ده كلام الدكاترة يا روح الروح.

همهم بسبة خافتة لم تسمعها بوضوح، وبنفس لهجتها الباردة أمرته مشيرة بعينيها:  
-نادي عليها خليني أشوف حاجة من عندها جديدة ألبسها.

هلل في تشنج:

-كمان؟

ردت مستفزة إياه بطريقتها الفجة:

-أه، أو مال عايزني أنام بهدومي دي؟ ولا مستخسرين فيا حته بيجامة أقضي بيها الليلة؟ دي تلاقيها جيبها من سوق البالة!

ضرب "هيشم" كفه بالآخر، وقد تدلى كتفاه في انهزام، ليغمغم بعدها بزفيرٍ ممتعض  
بأس:

-كده إنتي ناوية على خراب بيتي أنا كمان.

هدرت به بسماجة:

-يالاً اتحرر شوية، الهدوم طابقة على مراوحي.

أولاها ظهره؛ لكنه رفع عينيه للسماء، وظل يردد بين جنبات نفسه في ضيقٍ مبرر:

-يا رب، إنت شايف وعارف.

.....

بكلماتٍ مُلطفة، وعبارات استهلاكية لبقة، حاول "هيشم" أن يخبر زوجته ببقاء  
والدته في منزلهما الليلة للمبيت فيه معهما، بالإضافة لطلبه استعارة إحدى ثياب  
نومها الجديدة لارتدائها بدلاً من عباءتها، ورغم الانزعاج الظاهر على تعاير "همسة"  
بسبب معاملتها الجافة، والمتحفظة معها، إلا أنها وافقت على رجاواته. مسح الأول  
على جانب ذراعها صعودًا وهبوطًا، ويرفقٍ لطيفٍ معتذرًا منها

-أنا أسف يا "هموس"، المفروض ما يحصلش كده، بس أنا والله محروج منك.

ابتسمت قائلة في تفهمٍ مهذب:

-ما فيش مشكلة يا حبيبي..

ثم أضافت بعد صمتٍ لحظي:

طالما على أد الليلا دي وخلص.

تقوست شفتاه معقبًا في غموض:

يا ريت تكون كده!

اتسعت عينها متسائلة في توتر:

هي ممكن تقعد أكثر من كده؟

جاوبها بهدوء حذر:

-الله أعلم، محدش عارف أمي بتخطط لايه..

تطلعت له بغرابة، خاصة حين أكمل مفصحا عما يدور في خلدته:

-بس وجودها مش مريحني.

كان محققًا في توجسه منها، وشاركته زوجته الرأي؛ فوالدته ليست بالشخصية السمحة، لينة المعشر؛ لكنها أبعد ما يكون عن الحماة الوديعة أو الودودة. لفظت "همسة" الهواء على مهل، لتضيف بعدها بانزعاج كسا قسماتها:

-ربنا يستر.

.....

لا يمكن أن يعترف أبدًا أن ما قذفت به ابنة أخيه مجالاً للنقاش، أو التهاون فيه، لقد أساءت إليه شخصيًا، بقولها أنها فرطت في عفتها، وتخشى اكتشاف أمرها. اختفت ملامح الطيبة من على وجه "اسماعيل"، وغلف نظراته وحشية شرسة، رفض رحيل "خليل" أو انصراف زوجته بعد صرف "فيروزه"، ليبقى كلاهما لسماع كلمته الأخيرة فيما يخص شأنها. ضرب بعكازه أرضية الغرفة، فانتفضت "سعاد" على



إثر خشونته، بلغت ريقها في حلقتها الذي اكتسب مرارة لاذعة، وركزت نظرها معه عندما استطرد ناطقًا:

-إنتي اتجننتي يا "حمدية"؟ سامعة نفسك؟

تجمدت في مكانها من هيئته المرعبة، وتلك الجراءة التي تملكها من قبل فرت أمام قوته، لظالما كان له الأثر في نفسها، أرادته لها، أو على أسوأ تقدير أن يماثله زوجها؛ لكن لحسرتها، كان أبعد ما يكون عنه. انتزعها من شرودها السريع، واهتزت مع قوة كلماته المدافعة عن "فيروزة":

-بنت أخويا أشرف من الشرف!

ثم تحولت نظراته القاتمة نحو "خليل" ليعنفه بحدته الشديدة:

-إزاي تسمح لمراتك تكلم عن لحمنا كده؟ مين دي أصلاً في الحريم عشان تتجرأ وتقول الكلام ده قصادي؟ لأ وعن مين، بنت المرحوم أخويا.

طعنة مهينة قصفت بـ "حمدية"، وأخرجتها علنًا، خاصة في حضور زوجته، أشعرتها كم هي ضئيلة، نكرة، لا قيمة لها، خجلت من رفع أنظارها، والأفضع من تلك الإهانة هو صمت زوجها، فبدلاً من الدفاع عنها، أطبق على شفثيه بقوة، اشتعل الغضب بقلبها، وحركت ثغرها لترد؛ لكن "اسماعيل" أخرسها بإشارة من يده:

-ماسمعش حسك، ده كلام رجالة.

رددت "سعاد" في نفسها بفخر واعتزاز، وكامل نظراتها مسلطة على زوجها:

-الله ينصرك يا حاج، أيوه كده علمهم الأدب.

انفلتت أعصاب "حمدية"، وردت بوقاحة، حين تخلى زوجها عنها:

يا حاج أنا غلطت، بس إيه اللي يضمن إن كلامي ما يطلعش صح؟  
بردك هتعيدي نفس الكلام، إنتي عاوزاني أتهور وأموتك، لم مراتك يا "خليل"!  
تحرك الأخير بوجهٍ صاغر نحوها، وهمس لها:  
خلاص يا "حمدية".

استشاطت نظراتها من خنوعه، وما زاد الطين بلة أنه يزيد من إحراجها، وبعثرة  
كرامتها أمام عدوتها القديمة، لهذا لن تصمت أبدًا عن إحراق الأرض ومن عليها، ثأرًا  
لنفسها، لذا تنحت بعيدًا عن زوجها، وتقدمت نحو "اسماعيل" لتواجهه، وقالت  
بصوتٍ ثابت، ينم عن كرهٍ دفينٍ

ما هي لو كانت دي بنتي كنت هتلاقيني أول واحدة أحط صوباعي عيني في  
التخين، وأقوله اتأكد من ده بنفسك، بنتي سمعتها زي البرلنت، بس إنتو خايفين  
يطلع العكس، وساعتها العار هيطول العيلة، وخصوصًا بناتك.

مستفزة لأبعد الحدود؛ هذا أقل ما يُوصف عنها، كادت يد "اسماعيل" تمتد  
لصفعها لولا أن تدخلت "سعاد" وتعلقت بذراعه، تتوسله بهلع:  
لا يا حاج، اهدى.

أجبره ثقلها على إخفاض ساعده للأسفل، ومع هذا أصرت "حمدية" على استشارة  
أعصابه، وقالت:

هتضربني يا حاج "اسماعيل" في بيتك؟ ده كرم الضيافة عندك؟ ده أنا جوزي  
معملهاش!

انتفضت ذكورة "خليل" الغائبة، وعادت لتطفو على السطح، ليرد بعصبية وحدة، وقد أبعده زوجته للخلف ليتصدر المشهد بجسده:

محصلتش يا حاج "اسماعيل" تمد إيدك على مراتي وأنا موجود...

تصاعد التوتر فجأة بينهما، وتركزت الأنظار الغاضبة على وجهي كليهما، تابع "خليل" بصوته المحتقن، معاودًا اتهام "فيروزة":

-واللي بتحاميلها دي ليا لي فيها زي زيك، وكلمتي تمشي على رقبتها، وأي حاجة هتعملها صح أو غلط هتُحسب عليا.

لوهلة عادت الابتسامة الماكرة، تتدلى على جانب شفتي "حمدية"، بعد استئثار حمية زوجها الذكورية، وانتفاضة المتعصب لأجلها؛ لكنها أخفت استمتاعها برؤية تناحرهما، لتنوح بزيف، وهي تخفض رأسها، متعمدة إخفاء عينيها؛ وكأنها تبكي:

-هو أنا غرضي إيه غير مصلحتها، نفسي أشوفها متجوزة ومتهنية، ده أنا أقربلها من أمها، وحتى اسألوا "آمنة"!

بارعة في تليفق الأكاذيب، والدوران عن حقائق الأمور لخدمة أمورها، هكذا يمكن وصفها، هزت كتفيها لتبدو متأثرة، وهي تستأنف قولها:

-تقدروا تسألوا أي حد غريب، هيقول إني معملتش حاجة برا العُرف بتاعنا.

اقترح "خليل" بغتةً، وبكلماتٍ صدمت الجميع:

-ونروح للغريب ليه؟ ما نسأل الحاج "فتحي"، أهوو عارفنا كلنا، واللي يحكم بيه أنا راضي.

تطلع إليه "اسماعيل" في ترددٍ، بينما اعترضت عليه "سعاد" بتخوفٍ؛ لكونها تعلم بتشدده، وعصبيته الزائدة، وحتماً لن يكون رأيه محموداً:

-كله إلا الحاج "فتحي"! ده ما هيصدق، هو حد ناسي اللي عمله في "أسيف" وأمها الله يرحمها.

التفت نحوها "خليل" قائلاً بوجهه القاسي:

-بس راجل دوغري، وهيقول الحق.

رمقته بنظرة معترضة، ما لبث أن توجهت نحو "حمديّة" التي أخبرتها بخبث:

-وبعدين يا حاجة "سعاد"، ده إنتي أكثر واحدة المفروض يهيك مصلحة بناتك.

حسم "اسماعيل" أمره قائلاً بصوتٍ خشن:

-لا "فتحي" ولا غيره، احنا هنعمل شوشرة على الفاضين، عشان كلام الحريم

شيطان رأسه سول له بارتضائه، وتراجعه، لن تكون النتيجة مرضية له، بالطبع سيؤدي هذا لانهاية علاقته التي بدأت مؤخراً مع خطيب المستقبل السخي، ولن يمنحه المزيد من التسهيلات لإنجاز عمله، لهذا رفع "خليل" ذراعيه في الهواء مردداً بإصرار:

-تمام، اللي إنت عايزه يا حاج، بس أنا عاوز أطمئن على شرف بنت أختي، إيه قولك في ده؟

لولا اقتحام إحدى الخادمت للغرفة لتطور الصدام بينهما، حيث هلت الأخيرة بابتهاجٍ عظيم:

-يا حاج "اسماعيل"، سي "فضل" رجع بالسلامة.

خبت التوتر المتصاعد لحظيًا مع تلك العبارات المبتهجة، رددت "سعاد" في لوعةٍ واشتياق:

-ابني الغالي رجع..

وقبل أن تحرك قدمها، توسلت زوجها بنظراتها، ونبرتها الحنون:  
-بالله عليك يا حاج "اسماعيل"، ماتضيعش فرحتنا برجوع "فضل".  
وحتى لا يمنحه الأفضلية، تراجع "خليل" عن تزمته قائلاً:

-روح شوف ابنك يا حاج، ولينا كلام ثاني.

ربتت "حمدية" على كتف زوجها لتأزره هائفة:

-أيوه ده عين العقل يا "خليل" ..

ورسمت تلك البسمة الناعمة المحملة بالخبث وهي تضيف مادحة:

-ربنا يخليك ليا يا راجلي.

رمقتها "سعاد" بنظرة مزعوجة، وأشاحت ببصرها بعيدًا عنها ترجو زوجها:

-ياللا يا حاج، ده احنا محرومين من شوفت "فضل" أديلنا زمن.

استسلم "اسماعيل" أمام الإلحاح والضغط المتزايدين عليه، ليرد بعبوس، وهو يلكز عكازه بالأرضية:

-ماشى .. بس الموضوع مخلصش على كده.

.....

كسجينة في حبس انفرادي، مكثت "فيروزة" في غرفتها الحالية، تضم ركبتيها إلى صدرها، تسند أعلاهما رأسها، وتحاوطهما بذراعيها معقودين. شردت تتأمل الفراغ بنظرات حزينة مهمومة؛ كانت تعلم أن ما قيل في حقها، لن يمضي على خير؛ النظرات الاتهامية، والألسن النارية ستحيك روايات كاذبة عنها، وكل ما في الأمر أنها لا ترغب في زواج مفروض عليها؛ يجعلها تقضي القادم من حياتها في تعاسة ومعاناة، أرادت أن تكون زيقتها مبنية على انسجام وودٍ متبادل بين الطرفين، ولا مانع من أن يطوقه الحب العذري. انتشلها من صخب رأسها صوت والدتها المتسائل، بما يحمل الاتهام واللوم:

إتني السبب في أي حاجة هتحصل بعد كده.

خنقت عبراتها المتسللة في حدقتها، ورددت بصعوبة:

أنا؟

أجابت "آمنة" بمرارة:

أيوه.. عمك وخالك مش هيعدوا لبعض الكلام اللي اتقال، محدش هيقبل بكده، أنا عارفة كويس هيعملوا إيه عشان يتأكدوا، وأنا غصب عني مش هاقدر أقف قصادهم.

حلت "فيروزة" تشابك ذراعيها، وانتفضت ناهضة عن الفراش، لتتجه إلى والدتها المتوسدة المقعد، جثت على ركبتيها قبالتها، ورفعت أنظارها نحوها، رأتها تبكي في عجز، ووخز ذلك قلبها، وضعت يدها على كفها المستريح في حجرها، وقالت لها:

أنا مقولتش إني مش عايزة أتجوز، بس مش بالشكل ده، أدوني حقي في الاختيار، أقول أيوه موافقة على الشخص ده ولا لأ.

سحبت والدتها يدها من راحتها، ورمقتها بنظرة قاسية قبل أن تنطق بآلم:  
-أومال عايزاه يكون إزاي؟ إنتي كده خليتهم يفتكروا إنك خاطية؟ عارفة يعني إيه  
يصوصك إنك كده؟ ده أقل حاجة ممكن يعملوها هنا إنهم يطردونا، يحرموا علينا  
نرجع بلدنا أو ندفن فيها.

ورغم تحفزها بسبب ما تمليه عليها إلا أن نبرتها لانت نحوها وهي تسألها:

-وإنتي مصدقة ده يا ماما؟ مصدقة إن بنتك وحشة؟ خاطية في نظرك؟

مع تلك الكلمات بكت "فيروزة" آسفاً على حالها، ولم تخبئ دمعاتها الحارقة، على  
الفور احتضنت "آمنة" وجه ابنتها بيديها، وقالت، والندم يبدو ظاهراً في عينيها:  
-لأ يا ضنايا، إنتي مش كده، أنا واثقة فيكي، ربنا يسامحهم على اللي عملوه فيا  
وفيكي.

اتكأت "فيروزة" برأسها على حجر والدتها تستعيد قوتها المهترزة بلمساتها الحنون  
على بشرتها، ورأسها، مسحت بظهر يدها ما بلل وجهها من عبرات، وأخبرتها، بما  
توسمت أن يكون حقيقياً:

عمي هيقف جمبي.. أنا واثقة فيه.

.....

غضب عنها هنظمن، مش بخطرنا يا بابا

كان أول ما نطق به "فضل" بصوت صارم، غاضب، مليء بالتشدد بعد أن أطلعه  
"خليل" على ما دار من جدال أخير بينه وبين والده بشأن ما تم تداوله عن سمعة  
ابنة عمه الراحل، لم يكن من النوع المتساهل، ملامحه القاسية، ونظراته الغائمة

دللت على هذا بوضوح، ووجد رأيه المتعصب تأييدًا واسعًا من "حمدية" وزوجها، واعتراضًا ظاهرًا من والدته الحنون، ومع هذا أصر على تمسكه بقراره مرددًا من جديد على أبويه؛ وكأنه الأمر الناهي في ذلك المنزل العريض:

- ما عاش ولا كان اللي يكسر عينا على آخر الزمن، مش عايزة تتجوز الأستاذ ده براحتها، بس نطمن احنا كمان على شرفنا، وده من حقنا.

ردت عليه "سعاد" بوجهٍ مصدوم:

يا ابني بنت عمك متريية على إيدي، تعرف الصح من الغلط، والعيبه ما تطلعش منها.

تصلب في جلسته، وقال في تهكم، مستخدمًا يده في الإشارة:

-الكلام ده كان زمان، وقت ما كانت عيلة بضافير قاعدة في حرك، دلوقتي عايشة بعيد عننا، والزمن اتغير، يعني الله أعلم بتعمل إيه من ورانا.

لامته بقلبٍ مفطورٍ على تصديقه تلك الشائعات المغرضة:

حرام عليك، كله إلا كده!

تجاهل لين والدته، واستدار برأسه نحو أبيه يسأله في حزم:

-إنت رأيك إيه يا با؟

صمت مليًا قبل أن يرد بنبرة أوضحت معارضته:

-أنا واثق في بنت أخويا يا "فضل".



كان الأخير يعلم معزة تلك الفتاة عند أبويه، ورغبتهما قديمًا في تزويجها له حين تنضج، وينطق جسدها بمعالم الأنوثة؛ لكنه لم يكثر يومًا لأمرها، وساعده الفارق العمري بينهما على اختيار عروسٍ أخرى تناسبه، تكون طوع بنانه، و"فيروزة" بالنسبة له لا تتخطى في مكانتها منزلة ابنة عمه اليتيمة، لهذا قال بقلبٍ متحجر، ووجه قاسٍ كالصخر:

شوف يا حاج "اسماعيل"، الموضوع مش هايطلع برا، حد ثقة هنجيبه يطمنا عليها.

لطمت "سعاد" على صدرها، مرددة في خوفٍ:

يا لهوي، إنتو عايزين تفضحوا البت؟

نظرت "حمديّة" نحوها لترد:

الفضيحة لو كانت غلطت بصحيح، غير كده مافيهوش حاجة.

أيدها "فضل" في رأيه، وأضاف بنبرة مهددة أرعبت الجالسين:

مضبوط، وبعدين أي كلام هيطلع براتنا ويتقال بعد اللي ها يحصل فيها سواء حلو ولا وحش نهايته الدبح، للي قال واللي نقل.

بهتت تعابير والدته، ولامته بقلبٍ واجف:

لطفك يا رب، بقى إنت جاي يا ابني عشان تشعللها؟

علق بقساوة منقطعة النظير، لم تتخيل أن يكتسبها ابنها:

لو واحدة من إخواني اتقال عليها كده مش هاسكت، هاثبت إنها نضيفة، ده عرض ولايا يامه، يعني شرفنا وسمعتنا! وكله إلا إننا نحط راسنا في الوحل عشان دلع البنات.

دعمته "حمدية" قائلة بابتسامة متسعة:

عين العقل يا "فضل"، صح يا "خليل"؟

رد باقتضاب، وباله مشغول بمصالحة المهددة حالياً:

أيوه.. شرفنا لازم نطمئن عليه.

أصرت "سعاد" على احتجاجها، وقالت بصوتها المرتجف:

ده مايرضيش ربنا وآ.....

قاطعها "اسماعيل" بحزم:

خلاص يا "أم فضل"، ابنك قال وحكم!

برزت عيناها في اتساع مستنكر، لبشاعة ما يريدون فعله بتلك الشابة، لكون الأمر لا يتعلق فقط بإثبات براءتها؛ ولكنه يعني إذلال نفسها العفيفة، وكسر روحها النقية قبل كبرياتها كأثى حرة.

.....

صرخات مقاومة صدرت من تلك الغرفة منذ مطلع الصباح، وبعد رحيل الأعراب، تنفيذًا لقرار ابن عمها، بفحص دليل نقائها. وقفت "آمنة" بالخارج، تبكي ابنتها بحرقة، وهي بالكاد مكتفة من قبل "سعاد" حتى لا تشق جلبابها احتجاجًا على ظلمهم البين، بينما تواجدت "حمدية" بالداخل مع زوجة "فضل"، والتي تدعى

"سها"، وإحدى القابلات المخلصات، والمحنكات في المسائل النسائية، ممن عُرف عنهن حفظ السر أياً كانت ماهيته إلى القبر، كانت ذات جسدٍ ضخم، ووجه لفتحته أشعة الشمس الحارقة، ترتدي السواد دوماً، حداداً على رحيل زوجها.

تلوت "فيروزة" بجسدها بشراسةٍ وقوة، محاولة إفلات ذراعيها من القبضات المثبتة لها، لم تصدق عينيها حين اقتحم عليها ابن عمها الغرفة ليطلعها بقساوة مجحفة بما وصل إليه النقاش المحتدم، وبدلاً من الترحاب بها، عاملها باضطهادٍ كمدنية مُدانة، أصدر حكمه عليها بلا رحمة؛ دون أن يمنحها الحق، وهي التي كانت تكن له كامل الاحترام والمعزة. انهار ما اعتبرته السند، بإقحام تلك المرأة ليديها، في أشد المناطق خصوصية، لتنتهك حصونها؛ وكأنها متاحة للجميع، أزاحت ثيابها الداخلية، تاركة ثوبها الطويل يستر باقي جسدها، وشرعت في مهمتها المكلفة بها. صرخت فيهن "فيروزة" مستغيثةً بوالدتها، بصوتٍ بح من كثرة ندائه غير المجدي:

يا ماما! ابعديهم عني، أنا معملتش حاجة! حرام عليكم!

حاولت "سها" تثبيط مقاومتها، وطمأنتها عن عمل القابلة قائلة لها:

متخافيش، هي مش هتعملك حاجة تقلقك، إنتي اهدي بس.

وكان التطلع إلى عفتها يمثل تلك البساطة، رفضت بشدة تسهيل الأمر عليهن، وازدادت شراسة مع إبعاد القابلة لما بين ساقيهما، ركلتها، وأصابتها بكدمة مؤلمة في وجهها، حتماً ستترك أثرها لبضعة أيام عليها،

بينما تلذذت "حمدية" برويتها تُذل، وُثَّان، شعرت بأنها أحنث هامتها، وقضت على شموخها للأبد، لم تتنازل عن حضورها، لتشهد على لحظة إخضاعها، وقد كان ابتسمت لها بشراسة، ومالت نحو أذنها تهمس لها بشماتةٍ عظيمة:

شوفتي عملت فيكي، عشان تصدقيني لما أقولك هايجي يوم، وأكسر فيه مناخيرك. وشددت من قبضتيها عليها، متعمدة غرز أظافرها في لحم ذراعها، لتذكرها بأنها كانت متواجدة في تلك اللحظة المهمة، التي اعتبرتتها لا تقدر بثمان، ومن بين الامها صرخت بها "فيروزة"، ونظراتها الملتهبة المليئة بدموعها الغزيرة:

عمرك ما هتقدري، واللي عملته فيا هتعيشي زيه!

شحذت كامل قواها الغاضبة لتطلقها دفعة واحدة، ونجحت في تحرير نفسها منها، ثم وكزتها بعنف في صدرها، لتتأوه "حمدية" من الألم الشديد والمباغت، والتفتت دافعة "سها" عنها بعدائية بحتة، أجبرتها على الابتعاد عنها، ثم نهضت كالمسوعة عن الفراش، لتعجز المرأة الغريبة عن إكمال عملها. ركضت "حمدية" نحو باب الغرفة طالبة للمساعدة:

مش قادرين عليها، هتموتنا بنت "آمنة"

دق الباب من الخارج، ليأتي صوت "فضل" عاليًا بعده:

إيه اللي بيحصل عندكم؟

استنجدت به صارخة بلهاث:

تعالى يا "فضل" إلحقنا.

كان الأخير يملك مفتاح باب الغرفة، أداره في قفله، وولج للداخل، وعيناه تقدحان بالبشر، مسح أركان الغرفة بنظرة سريعة باحثًا عن ابنة عمه بها، كانت منزوية عند الدولاب، تمسك بمزهريّة في يدها، على ما يبدو تحاول الدفاع بها عن نفسها، هددته بصوتها المجروح:

-محدث يقرب مني، محدش هيلمسني!

لم يكثرث "فضل" بتهديدها، وتقدم نحوها قاصدًا إيذائها؛ وإن تعرض للضرب والمقاومة منها، لوحت بالمزهريّة أمام وجهه، وضربته بمقدمتها على جبينه، لم يأبه بالدماء النازفة من مقدمة رأسه، انتشلها من يدها، وألقها خلف ظهره، عجز من حولهما عن التدخل لفض الاشتباك بينهما، حتى زوجته "سها" ابتعدت عن مرمى غضبه. انقض "فضل" على ابنة عمه، جاذبًا كومة من شعرها، ليرفع وجهها إليه، وحينها تلقت عددًا لا بأس به من الصفعات العنيفة، التي أفقدتها قدرتها على المقاومة، وزلزلتها، وسط صراختها الأخيرة. جرحها نحو الفراش، وألقاها عليه، ثم سددها لكمتين عظيمتين، جعلتها تدخل في حالة من الهذيان، نظر لها شزرًا، وبكراهية مشمئزة من تصرفاتها، ثم التفت نحو القابلة يأمرها:

-كملي شغلك يا ولية!

أومات برأسها في انصياع، فهددها مشيرًا بإصبعه:

-ولو كلمة اتقالت عن اللي دار هنا مش هيحصلك طيب

لم يكرر جملة مرتين، واتجه نحو الخارج، لتقفز عليه "آمنة" تلومه بنواحه الباكي، ووالدته بعتابها القاسي، لم تتبدل ملامحه، ولم تلين قسامته، أغلق الباب من خلفه، وعادت المرأة لتكمل عملها في هدوء، بعد ذلك المجهود الشاق، كفكفت عرقها بطرف حجابها الأسود، وبددت الشكوك السائدة، بقولها الحاسم:

-الحمدلله .. البنت زي الفل، وبختم ربها ..... !!

.....

## الفصل الخامس والخمسون

وخزات مؤلمة انطلقت ضاربة أنحاء متفرقة من جسده تشعره بومضة من شيء لطالما افتقده، في البداية ظن أنها بضعة أوهام عابرة، لكن تلك الرغبة المتأججة جعلته يئن نوعًا لإشباع ما يتقد بجسده، ترك "آسر" حاسوبه المحمول على مكتبه، وانتفض متجهًا إلى الحمام، غاب بالداخل لدقيقة أو أكثر، ثم عاد ورأسه محني في خزي، وضيق، لاح الأمل وتبدد سريعًا، هذا ما رده في عقله! سحب مقعده للخلف، وجلس عليه بإحباطٍ نطقت به ملامحه قبل أن يعبر عنه لسانه:

حاجة تقرف!

تطلع بنظرات غاضبة، إلى شريط الدواء، الموضوع في درج مكتبه المفتوح جزئيًا، دفعه في عصبية ليغلقه متابعًا حديثه اليأس:

برضوه ما فيش فايده، ده إنت أحسن نوع جبتة عشان أجره، وخذت منك حيتين، وزى ما أنا كده!!!

رفع بصره للشاشة الحاسوب المضيئة بصورة لوجه "فيروزة"، تلك التي حصل عليها بمراوغة بسيطة مع "علا"، وضعها على أحد برامج تعديل الصور الاحترافية، وواصل العبث بها، ليتم إضافتها على الصور غير الأخلاقية التي يستخدمها للترويج والدعاية لموقعه الإباحي، والذي يدر عليه ربحًا طائلاً لا حصر له، بسبب المتلهفين لتلك النوعية من المواقع المتجاوزة. ابتسم لنفسه في سخرية، وهو يعيد تشغيل ذاك الفيديو البدائي الذي أعده؛ حيث قام بتركيب صورة وجهها على إحدى الفتيات المنحرفات، لتبدو كما لو كانت تمارس الزريلة مع أحدهم، باستمتاع شديد، غمغم في تنهيدة بأسة بطيئة:

-شكلي ها قضيتها فرجة بس!

وليبدو أيضًا كمن يشاركها المتعة الحسية، أضاف صورته على الرجل الظاهر في الفيديو، ليدعي أنه هو، وبدا متأثرًا لوهلة مما يحفز خلايا عقله، وظن مع التركيبة الدوائية الجديدة، أنه سيحصل على النتيجة المرجوة؛ حينما تنبت الإثارة من منابعها، ولكن قبل أن يمضي قدمًا في عبثه الماجن، سكن ما ظن أنه قادرًا على العطاء. لعن بغيظٍ، وأغلق الفيديو، ليقوم بنقله من موقعه الحالي، وحفظه في ملف منفصل، وبدأ في تحميل مقاطع أخرى جديدة، وصلت إليه للتو. قطع انهماكه رنين الهاتف المسنود على سطح المكتب، نظرة خاطفة ألقاها على شاشته، دون أن يلمسه، انتظر بضعة ثوانٍ ليضغط بعدها على زر الإيجاب، وقال بجدية بحتة:

-أيوه يا سيدي، إيه جديدك؟

صمت لبرهة مصغيًا للطرف الآخر الذي قال بتوتر:

-الحاوية دخلت المينا، وخذت دور في التفتيش، أنا قلقان، وانت مقولتليش حاطط الأمانة فين.

رد عليه بثقة مربية:

-اطمن أنا عامل حسابي كويس.

سأله المتصل بنبرته الحائرة:

-يعني كان لازم نستورد تفاح؟ ما كنا جنبنا شحنة هدوم ولا حاجة تانية، كانت هتصعب الدنيا عليهم شوية.

قال في استرخاء:

-ده عز الطلب.

بدت جملة غامضة، فسأله مستفهمًا:

إزاي يعني؟

أجاب ببساطة شديدة:

-ريحة التفاح هتضلل الكلاب، وده يخدمنا.

ردد برجاء:

يا رب تفلح.

أكد عليه دون تشكيك:

-لأ دي طريقة متجربة.

أضاف المتصل على عجلة:



-ماشي، وأنا هاكلمك لما نطلع من الجمرك، عشان ننسق مع رجالتنا يعدولنا الحاجة.  
رد عليه منهيًا المكالمة:

-حلو أوي، مستنيك.

ثم حملق في شاشة حاسوبه متابعًا تدفق الأرقام المتزايدة لرؤية الفيديو الجديد في  
انتشاء، لف ذراعيه خلف رأسه، وتوسد بها عليهما قائلًا بوهج خبيث تراقص في  
عينيه:

-وأنا أشوف شغلي هنا كمان.

.....

عملٌ متواصلٌ بلا توقفٍ لجني أكبر قدر من المال في وقت قصير، جعله يشعر  
كأنه آلة غير بشرية، تدور دون كللٍ أو ملل، لإشباع تلك الرغبة الطامعة، فلم يهتم  
سوى بهذا، إلى أن نضبت طاقاته المحفزة، وزاد الحنين للعودة للوطن، أعد العدة  
وارتحل عائداً إلى بلده، صاحبًا خلفه زوجة مطيعة، غير قادرة على عصيانه، وأطفالاً  
صغارًا بطونهم الجائعة تحتاج للملء.

مجيئه غير المتوقع تحول من فرحة وسرور، لكارثة وشور، خاصة مع تعاظم  
الغضب، وحجب العقل عن التفكير بروية وبمنطقية، تصاعدت الشكوك، وأوغرت  
الصدور؛ لكن في الأخير وقع المراد، وأخترقت الأسرار. لم يحمل "فضل" نفسه  
اللوم، وبدا متفاخرًا بما أقدم عليه مع ابنة عمه، كان يحظو بمكائنه المقدسة على  
رأس عائلته؛ وكأنه حاكم فريد من نوعه؛ هكذا يُعامل أغلب ذكور عائلات تلك  
البلدة، يمنحوا كافة السلطات، والحريات، ويُعتد بقوة برأيهم؛ وإن كان على غير  
علم. رفع رأسه للأعلى في إباءٍ، بدت تعابيره مسترخية، لا يشوبها ذرة ندم واحدة،

حتى على ظلمه غير المنصف لها، ارتشف ما تبقى في فنجان قهوته، ثم سحب نفسًا طويلًا من سيجارته، ليلفظ الهواء عاليًا، قبل أن يتجشأ بعدها بصوت مكتوم، أسند فنجانه على حافة أريكته الخشبية، والتفت نحو أبيه، ليقول له ببرود متناهٍ، وهو يستند بمرفقه على ساقه المرفوعة للأعلى:

-أنا عملت الصبح يا حاج، واطمنت على شرفنا.

علق عليه "اسماعيل" بوجهه العابس:

- "فيروزة" مش زي أي حد يا ابني، دي أمانة أبوها عندي.

أخفض ساقه في عصبية، وتوحشت نظراته نحوه، معترضًا على ما اعتبره لين قلبه:

-وعمي -الله يرحمه- لو كان عايش، كان بنفسه صمم يتأكد من شرف بنته، بلاش قلبك الطيب ده يا با مع الحريم، هيركبونا.

نظر له والده في أسف، لكن "فضل" واصل القول بقساوة يتفاخر بها:

-أكسر للبت ضلع يطلعها أربعة وعشرين، ولو خايف على زعلها يا با، هما يومين وهتنسى، وكان مافيش حاجة حصلت، دي حاجة زي شكة الدبوس.

بامتعاض منزعج ردد "خليل" عاليًا:

-ما كفاية كلام في السيرة دي، خلونا نشوف هنعمل إيه في التقاوي اللي الأرض عايزاها.

استدار نحوه "فضل" ليرد:

-أنا عندي واحد هيجيلنا اللي عايزينه بسعر معقول.

رد "خليل" في استحسان:

-كويس أوي.

أضاف عليه "اسماعيل" مشددًا:

-عمل حساب عمك "فتحي" معانا، هو موصيني يا "فضل".

هز رأسه معقبًا:

-اللي إنت عاوزه يابا

تساءل "خليل" في فضول:

-وانت مش مسافر تاني؟

أجابه نافيًا:

-لأ يا عم "خليل"، أنا نزلت نهائي، ومش راجع تاني.

نظر له باستغراب وهو يسأله:

ليه بس؟ ده بيقولوا قرش برا حلو!

زفر مليًا ليرد بعدها:

-بس الغربة بتاخذ من الواحد، وأنا عايز أفضل جمب أهلي، وخصوصًا بعد ما

عملت قرشين حلو.

تشكلت بسمة طامعة على محياه، وهو ييدي رضائه:

هو ده الكلام الموزون، ولو عوزت أي حاجة أنا موجود

هز رأسه بإيماءة ممتنة، قبل أن يشكره:

تسلم يا عم "خليل".

فرغت الغرفة إلا من والدتها الباكية، حاولت تهوين الأمر على ابنتها، مواساتها إن صح التعبير، لكن ظلت الأخيرة صامتة، مفصولة عن حولها، تخوض حربًا خفية بينها وبين نفسها، لا تدري كم انقضى عليها من الوقت، وهي في تلك الحالة الساكنة! تضم ركبتيها إلى صدرها، تتكور على نفسها؛ وكأنها تبحث عن حماية مفقودة، لن تحصل عليها أبدًا، شردت من جديد تعايش ما مرت به، حيث أرادوا كسر كبريائها، إحناء هامتها، اغتيال روحها المتمردة، وتدمير نفسياتها، بتطفلهم غير الجائز على مواطن أنوثتها، للتأكد من شائعات مغرضة نشروها، ادعوا فيها أنها فتاة لعوب؛ فرطت في شرفها، وهي أبعد ما يكون عن هذا الاتهام الباطل. دمعة أخرى انضمت لشقيقاتها في صمتٍ، لتنساب على وجنتها، مسحت بظهر كفها مظاهر ضعفها البائنة على وجهها الحزين، أرادت فقط أن تجد من يصدقها بلا دليل، يمنحها ثقته غير المرهونة بشروط؛ ولكن ما رغبت فيه كان بالعسير عليهم. توقفت عن نحيبها الساكت مملمة شتات نفسها، لم تكن لتسمح لزوجها خالها الشامتة الحاقدة بإظهار انتصارها عليها، تذكرت بقوة تلك النظرات المغلولة، المليئة بشرور النفس، وهي تبرز من عينيها؛ وكأنها تتشفي بها، لو كانت النظرات تقتل حقًا لقتلها!

اهتز جسدها بقوة، حين لامستها والدتها تسألها بخذلانٍ لازم شخصها الضعيف:

إنتي كويسة يا بنتي؟

تطلعت لها بنظرات فارغة؛ وكأن وهج الحياة قد انطفأ بها، حتى أمها لم تكن لتسمح لها برؤيتها ذليلة، قست عينا "فيروزة" نحوها، وردت متسائلة:

-تفتكري إيه؟

نكست رأسها في أسفٍ وهي تعتذر منها:

-حقك عليا، أنا قلبي بيتقطع عشانك، بس غصب عني، مكوتنش هاقدر أقف قصاد جبروتهم، وخصوصًا في الحكاية دي.

وضعت "فيروزة" يدها على ذقن والدتها، رفعتها برفقٍ إليها، وحدقت في عينيها الكسيرتين بقوة غريبة، لا تعرف من أين استدعتها، أو استجمعتها، ثم قالت بصوتٍ خبت منه لمحة الوهن:

-ارفعي راسك لفوق يا ماما، بنتك شريفة، وطاهرة، ليه زعلانة؟

هتفت بقلبٍ متألم، وعينان تبكيان:

-أنا زعلانة عليك، من كسرة نفسك قصادهم، من آ....

انخفضت يدها عن لمس ذقنها، وقاطعتها بصرامةٍ، وقد احتدت نظراتها:

-لا عاش ولا كان اللي يكسرني أو يذلني...

ثم ابتعدت عنها، ودفعت جسدها لتهبط عن الفراش، لتتابع بصيغة أمرة:

-يالا بينا..

قتلت "فيروزة" اختناقًا موجهة، حاولت الظهور في صوتها، حين أكملت:

-مافيش حاجة يتبكي عليها هنا.

لم تفكر "آمنة" حتى في مجادلتها، وردت في خنوع:  
حاضر يا بنتي.

قطع محدودة من الثياب قامت بجمعهم في وقت ضئيل، بعد إعادة ترتيب الغرفة، لتبدو نظيفة، منسقة؛ وكان أحدًا لم يطأها من قبل، تقدمت "آمنة" نحو الخارج أولاً، تاركة ابنتها خلفها، لتستعد نفسيًا للمغادرة، متوقعة إحساسها بالخجل، وربما الانكسار، مثلما تشعر هي؛ لكنها فاجأتها "فيروزة" حين تبعتها رافعة أنفها للأعلى، في شموخ عجيب؛ كمن لم يتعرض للإساءة أبدًا، مع فارق عظيم؛ نظراتها تبدلت من المحبة والدفء، للقسوة والعدائية، والسبب كان معلومًا. تفاجأت "سعاد" باتجاه الاثنتين نحو باب المنزل، فقطعت عليهما الطريق بجسدها، وتساءلت في جنح:

على فين العزم؟

بادرت "آمنة" مُجيبة نيابة عن ابنتها:

-مالناش قعاد هنا.

تعلقت بذراعها ترجوها:

-استني يا "آمنة" ..

نظرت لها الأخيرة بعتابٍ، قبل أن ينطق لسانها:

-كثر خيركم على اللي عملتوه.

ردت "سعاد" مدافعة عن نفسها بحزنٍ يعتصر قلبها:

-أنا ماليش ذنب يا "آمنة"...

ثم اتجهت أنظارها نحو تلك المسكينة، ذات الملامح الواجمة، نظرت لها بإسفاقٍ، وهتفت ترجوها بصوتٍ غلفه العطف، وهي تمد يدها لتلمس كتفها:

- "فيروزة" يا بنتي!

انتفضت الأخيرة من لمستها، وتراجعت قبل أن تكرر ذلك، كارهة بشدة، وبسخطٍ متعاضم للغاية، أن يضع أحدهم يدها على جسدها، أو أن يدنو منها، أيًا كانت معزته عندها. اعتذرت منها زوجة عمها بقهرٍ واضح عليها، وقد بدت الأكثر تأثرًا بما حدث:

حقك عليا يا بنتي، أنا عمري ما هسامح "فضل" على اللي عمله فيكي.

سدت "فيروزة" أذنيها بيديها، حتى لا تسمع ما يذكرها بما خاضته من تجربة مهينة لذاتها، واستدارت تقول لوالدتها بصوتٍ متشنج:

-يالاً من هنا.

هناك شرح جسيم غير مرئي - نال من كل ما ظنت أنه ثابت لديها، ومن تلقاء نفسها تساءلت "سعاد" بديهيّة:

-مش هتستنوا "خليل"؟

ردت "آمنة" بوجه عابس؛ كمن لا تدِين لها بشرح:

-هو حر مع مراته، يرجع وقت ما يحب.

لم تكلف "فيروزة" نفسها عناء الرد عليها، حتى محبتها الصافية لم تشفع لها عندها، وضعت حاجزاً وهمياً بين كل من تورط في أذيتها، بينما أَلقت عليها "سعاد" نظرة أخيرة مطولة؛ وكأنها تودعها للأبد، وقلبا يبكي حزناً على رحيلها المفروغ منه.

.....

رؤيتها بثوبها الفضفاض، بعد كل سنواته العُجاف، أوقف به تلك المشاعر الحسية المنسية مع كد الحياة الذي لا ينتهي، جعل رغباته المفترسة تثور وتزأر بقوة، تدعوه للتمتع بما حباه المولى من مواهب ذكورية مفرطة، طالما أنها تحدث في نطاقها الشرعي؛ خاصة أنه يعشق ترويض أمثالها، وامراته لم تمنحه ذلك الشعور بالسطوة المطلقة؛ لكن هناك ما اعتبره عقبة شائكة، تمنعه حالياً من إتمام ذلك، لا يوجد ما يُعيب زوجته مطلقاً، فهي تحمل السمات المثالية للزوجة المنشودة؛ الوفاء، الطاعة العمياء، لا تعانده، تكفي يومها بالقليل، ولا تطمع أبداً فيما لا يرضيه، يُقال عنها باختصارٍ بأنها طوع بنانه؛ لذا إن تهور وباح برغبته بالزواج مجدداً، حتماً سيلومه الجميع على هذا. إذا ليتريث لبعض الوقت، على أمل أن تصر تلك العنيدة على رفضها، ويستغل ذلك لصالحه.

لمح "فضل" طريدته المثيرة وهي تندفع خارجة من المنزل، فتلفت حوله بنظرات خاطفة سريعة، ليتأكد من عدم رؤية أحدهم لهما معاً، ويلمح البصر، تقدم نحوها معترضاً طريقها، ألقى عليها نظرة بطيئة جالت على تفاصيلها، ليستهل حديثه بخشونة نفرت منها:

ماشية كده وواحدة في وشك؟ مش معبرة حد فينا ليه يعني؟



رمقته "فيروزة" بنظرة نارية مغلولة، وأشاحت بوجهها بعيدًا عنه، استوقفها بشدها من ذراعها صائحا بها بغلظة:

-مش بأكلمك تردي عليا؟

انتزعت ذراعها من قبضته القوية، وحدجته بنفس النظرات الكارهة قبل أن تصرخ به، رغم جرح أحبالها الصوتية، رافعة سبابتها أمام وجهه:

-إنت آخر حد تفكر تكلم معايا بعد اللي عملته!

لم ينكر أنها لفتت أنظاره بعد تلك الفترة الطويلة من الغربة، حيث أنهكته دوامة الحياة، والسعي وراء جني المال في أقل وقت ممكن، لم يكثر لتواجد زوجته معه ودعمه في تلك المشقة. دقق "فضل" النظر في تفاصيلها الأثوية، وتخيّلها بدون ما يحجب الرؤية عنه، تغيرت كثيرًا عن آخر مرة رآها فيها، وكان ذلك قبل بضعة سنوات، بدت مختلفة في الوقت الحالي، برزت معالمها وتكورت، كانت مفعمة بالنشاط، والقوة، على عكس شريكته التي أهملت في نفسها، وكرست حياتها لخدمته ورعاية الصغار، فتناست أنوثتها، وباتت روتينًا مزعجًا خلال متابعته لسير حياته الرتيبة، عاد من شروده السريع ليبرر تصرفه البغيض قائلاً ببرود استنفاها:

-وأنا عملت إيه، ده أنا كنت بأطمئن على شرفي.

صرخت توبخه بقوة، غير عابئة باحتمالية تكرار بطشه الأهوج عليها:

-أنا شريفة غصب عن عين أي حد!

التوت شفتاه ببسمة خبيثة، عابثة، وأضاف بغمزة من طرف عينه:

-ما احنا اتأكدنا يا بنت عمي.. زي الفل!

رمقته بنظرة استحقاقٍ نافرة، وهي تهمهم بخفوتٍ، مولية إياه ظهرها لتشعر بعدها في السير:

قدر.

لم يستمع بوضوح لما نعتته به، ولم يهتم، سار إلى جوارها بخطواتٍ متسعة ليلحق بها، هاتفاً من خلفها:

-إيه مش هتتعدي معانا؟ وترحبي بابنك عمك؟ ده أنا غايب بقالي زمن.

توقفت عن الحركة، واستدارت نحوه تحدجه بمزيد من النظرات الحاققة، خاصة تلك النظرة الاحتقارية التي اشتملته من رأسه لأخص قدميه، قبل أن تهزأ منه:

-ابن عمي؟! ده بجد؟ ولا نكتة بايخة..

قست نظراته من ازدرائها الواضح، بينما تابعت "فيروزة" بنفس القوة؛ وكان أياديهم لم تمسسا بسوء:

-عارف إنت كنت زمان حاجة كبيرة أوي في نظري.. دلوقتي بقيت ولا حاجة.

إهانتها المتطاولة أغضبته، فأشار لها بسبابته يحذرها:

-احفظي أدبك معايا.

وكأنه لم ينطق بشيء ذو قيمة، فأضافت بنفس الثبات والقوة:

-أنا مغلطتش فيك، بس دي الحقيقة.. وأوعي تفكر إن اللي حصل معايا ده هيكسرنني، بالعكس، ده عرفني نوعية الناس اللي من دمي، وحققتهم.

رد بشدة، وبوجه مُربد بحنقه الغاضب:

-أنا مافيش حرمة تعصى عليا، عندك "سها" مراتي لو بس فكرت تعارضني مش هتلاقي غير حزامي.

نظرة أخرى نارية نالها منها قبل أن تهتف منهيّة الحديث معه:

-ربنا يرحمها ويرحمنا... من اللي زيك.

توقف في مكانه ولم يتبعها، وقد أبصر زوجته تطل برأسها من النافذة، أراد إخفاء تأثيره الواضح بها، فاستقام في وقفته، ونفخ صدره بالهواء، ليصيح بعدها بسخافة:

على مهلك وإنتي ماشية يا بنت عمي.. لأحسن الطريق وحش على اللي زيك.

ثم وضع يده على بطنه الجائع، ومسح عليه بحركة دائرية متكررة، لتخفض بعدها نبرته هاتقاً لنفسه، بما يشبه الوعد، وتلك النظرة المفترسة تحتل حدقاته:

ما احنا مسيرنا هنتقابل ..

.....

بتعسفٍ وقسوة رفضت السماح لها بالتواجد معها طوال فترة إعدادها للطعام؛ وكأنها تعلن لها بشكلٍ ملتبسٍ أنها لا تجيد الطهي من الأساس، رغم براعتها في تجهيز المأكولات، والتي يشهد الجميع عليها بذلك. ظلت "همسة" باقية في الخارج على مسافة معقولة، تمكنها من رؤية حماتها، وهي تعبت بأدوات الطهي، مخرجة كافة ما رتبته في الأدراج، لتزيد من الفوضى الحادثة به، كتمت ضيقها مرغمة، حتى لا تمنحها الفرصة لإفساد ما بينها وبين زوجها، فالأخير قد حذرهما من لجوء والدته لتلك الأساليب المستفزة لينشب الشجار بينهما. لمسة حنون منه على جانب ذراعها أجبرتها على إبعاد نظراتها المزعوجة عنها، التفتت ناحية "هيثم" الذي سأله:

هي لسه مخلصتش؟

نفخت وهي تجيبه بضيق:

-معرفش، بس قالبه المطبخ كله، وما فيش حاجة مطلعتهاش، كأنها قاصدة ده.

غمغم بتبرم، وهو يفرك مؤخرة عنقه:

-أنا عارف أمي، هتتكد علينا النهاردة.

التفتت في اتجاهه تشير له بسبابته منذرة إياه:

-يكون في معلومك أنا مش هانضف ده كله لوحدي، بجد حرام أوي، دي ما

سبتس حاجة مطلعتهاش من دواليب المطبخ.

أمسك بيدها ليخفضاها، وقال مبتسمًا:

-هابقى أغسل الأطباق والحلل معاكي، مرضية؟

أومات برأسها في استحسان قبل أن ترد باقتضاب:

-ماشبي.

سألها "هيثم" مغيرًا حوارهما:

-أمك رجعت من البلد ولا لسه؟

أجابت عليه بعد تنهيدة شبه مهمومة:

-أيوه .. كلمتها قالتلي هي في البيت، بس صوتها مش عاجبني، شكل في حاجة كده

حصلت.

علق عليها بنبرة عادية:

تلاقيها تعبانة من مشوار السفر

هزت كتفيها قائلة:

جايز.

سألها في فضول:

-وأختك اتقرت فاتحتها؟

أجابته بقليلٍ من التردد:

باين كده.. الصراحة معنديش تفاصيل.

رد غير مبالٍ بمعرفة الأمر:

متستعجليش، هنعرف كل حاجة، يا خبر بفلوس..

ابتسمت وهي تتم القول الشعبي الدارج:

بكرة يبقى ببلاش.

وضع يده على ظهرها ليدفعها برفقٍ للأمام، وهو يتابع:

تعالى أما نشوف أمي بتعمل إيه جوا.

سارت معه متممة:

أوكي.

ولج كلاهما لداخل المطبخ، حيث أحدثت "بثينة" فوضى عارمة، عن قصد، وسوء نية، انعكست علامات النفور والضيق على ملامح وجه "همسة"، ولم يستطع

"هيثم" التعليق، فالمكان ينطق عن نفسه، تقدم نحو والدته الواقفة أمام الموقد،  
سألها في اهتمام:

-إيه يامه؟

استدارت نحوه مرحبة به:

-تعالى يا حبيبي، أنا خلاص هحمر البط، وأقلل الفرن على صينية البطاطس،  
زمان وشها اتحمر..

مط فمه في إعجابٍ قبل أن يقول:

-بط مرة واحدة

وكزته برفقٍ في جانب ذراعه، وهي تستكمل موضحة ما أعدته:

-لأ وحشيت هولك مرّة من اللي بتحبها.

استنشق "هيثم" بعمقٍ رائحة الطعام الشهية التي عبقت المكان، وهز رأسه معقبًا  
عليها:

-ما هو باين من الريحة.

تساءلت "همسة" من خلفها، وهي تكبح غيظها المتنامي بداخلها:

-مش عايزة مساعدة يا طنط؟ أنا شاطرة في الطبخ.

نظرت لها شزرًا، ثم أبعدت عينيها عنها، لترد بتهمك:

-بأمارة إيه يا ادلعي؟

أجابت عليها "همسة" بثقة، مستعيدة في مخيلتها العبارات المشيدة ببراعتها خلال فترة عملها بعربة الطعام:

-الناس كلها عارفة ده، وتقدري تسألني ماما.

علقت بنقمة سافر:

من يشهد للعروسة غير أمها.

ورغم نبرة السخرية المحسوسة في صوتها، إلا أنها ردت بجأش تُحسد عليه:

-تقدري تدوقي أكلي بنفسك وتحكمي.

على الفور احتجت بأشمئزاز:

-لأ مش عايزة، وبصراحة كده أنا مضمنش تحطي لابني حاجة في الأكل.

بدت جملتها مليئة بالاتهامات الغامضة، ضاقت نظرات "همسة" نحوها، وسألتها

بقلبٍ ينبض في توتر:

حاجة؟

حيلة مأكرة رغبت في نشرها بين الزوجين للتفريق بينهما، لهذا ادعت عليها "بثينة"

بأكاذيب ملفقة، وهي تضع قناع البراءة على ملامحها:

-بص يا "هيثم"، أنا مردتش أقولك يا حبيبي، وأنا بأدور على التوابل، لاقيت علبة

البرشام دي مستخبية وراهم..

ثم أظهرت من جيب صدرها علبة دوائية غريبة الشكل، دقق "هيثم" النظر فيها

هاتفًا بدهشة:

برشام؟!!!!

تابعت كذبها المرتب قائلة:

أيوه، شكله مريحيش، وصفته للصيدي اللي بتعامل معاه في التلفون، وقولته على اسمه، فقالي إنه منشطات من إياها.

شهقت فاضحة خرجت من جوف "همسة" على كذبها البيّن، بينما ردد "هيثم" مصدوماً:

نعم منشطات؟!!!

حدجت "بثينة" زوجته بنظرات مقية، وأضافت بأسلوبها الحاقد:

-شوف مراتك بتعمل إيه من وراك؟

نفت "همسة" كامل اتهاماتها بصوتٍ بدا مختنقاً بوضوح:

-والله ما حصل، دي أول مرة أشوف العلبة اللي في إيدك.

على الفور استغلت والدته كلماتها الأخيرة، وأعدت صياغتها بشكلٍ ملاوع لنتهمها من جديد:

-يعني أنا كدابة؟ بقي دي آخرتها، سامع مراتك بتشتمني إزاي؟

انفجرت "همسة" بأكية من الظلم المجحف الواقع عليها، بينما استنكر زوجها ما تحاول والدته فعله قائلاً بتجهمٍ شديد:

-هي نطقت أصلاً؟

من بين بكائها الحارق، هتفت "همسة" بصوتها المتقطع:



أنا عمري ما أعمل كده، صدقني يا "هيشم".  
لم يكذبها للحظة، ودلل على ذلك بدعمها الصريح:  
-مصدقك.

ثم استدار نحو والدته، ليختطف من يدها الدواء، وهو يقول بحدة:  
-هاتي العلبة دي يامه.

لم تتحمل "همسة" المزيد، وانصرفت راضية من المطبخ لتنزوي بغرفة الأطفال  
مواصلة بكائها المرير، بينما صوت "بشينة" يرن في جنبات المكان عاليًا:  
-بنات آخر زمن، والله أعلم بتهيب إيه ثاني من ورانا.

تركزت أنظارها بعد ذلك على ابنها الذي انتزع قرصًا من شريط الدواء، ابتلعه بقليل  
من الماء، وسط دهشة عارمة من والدته، برزت عيناها في صدمة، وسألته:  
-إنت بتعمل إيه يا واد؟

ابتسم بعثية ليستفزها حين جاوبها:

-هاخد قرص أجرب مفعوله مع مراتي حبيبتني.

تبدلت تعابير الانتصار لغيظ كبير، وصرخت فيه وهو يتعد:

-يا واد خد هنا، ماتبقاش دلدول!

تجاهل ألاعيبها المكشوفة لإفساد استقراره الأسري مع حبيبته، واتجه إلى زوجته  
الباكية، جلس إلى جوارها على طرف الفراش الصغير نسيًا -بالمقارنة مع فراشهما

المزدوج بالغرفة الأخرى- يرت على ظهرها، ويمسح عليه بنعومة، هون عليها حزنها  
قائلاً بلطف:

-متزعليش نفسك يا "هموسة".

ردت عليه بنحيب، وهي تنظر نحوه:

-مامتك بتفتري جامد أوي عليا، وأنا مقدرش أستحمل الظلم ده.

أحنى رأسه على جبينها ليقبله، ثم قال معتذراً:

-حقك عليا، مسيرها تمشي، هي مش هتفضل هنا على طول.. وأنا هتكلم معاها  
عشان ترجع بيتها.

غمغمت دون تفكير:

يا ريت.

شعر "هيثم" بتدفق الحرارة إلى جسده، مع تقاربهما الجسدي المشوق، فتنحنح  
متسائلاً بتسليّة:

-هو الجو ماله بقي حر كده ليه؟

كفكت زوجته عبارتها متسائلة في استغرابٍ طفيف:

حر؟

أوضح لها بنزق:

-مش معقول البرشام اشتغل بالسرعة دي! أنا مش "طرزان"!

تدلى فكها السفلي للحظة في صدمة استوعبتها بعد لحظاتٍ، برقت عيناها وهي تسأله بوجهٍ تخضب بمزيد من الحمرة الدافئة:

إنت عملت إيه؟

مرر ذراعه حول خصرها ليحاوطها، وضغط بأصابعه على منحنيات المثيرة، ثم غمز لها قائلاً بنبرة لعوب:

شوفي إحنا نخلي أمي ملبوخة في البط، وخليني أنا هنا في العسل.

أهملت في متابعة تلك الفترة الأولية في حملها، وعرضت نفسها للكثير من المخاطر، والمجهودات البدنية والعصبية غير المحمودة، وكأنها لا تهتم، إلى أن قررت الذهاب لطبيبها، بمفردها، تاركة والدتها تمكث عند شقيقها، لتفسد هنائه، ومتوقعة أن يكون جنينها على ما يرام، خاصة في عدم وجود عوارض مقلقة؛ ولكن جاءت المفاجأة كالصاعقة المميته، حين تفقدها الطبيب، وفحصها بدقة، أضاءت شاشة أجهزته الحديثة بمعطيات غير طيبة، مع انخفاض كبير لمعدل نبض الجنين، والذي يناقض ما يفترض أن يكون عليه في تلك الفترة الزمنية. لم يعرف كيف يستهل حديثه معها، ومع هذا عليه أن يكون أمينًا مع مرضاه، طلب من الممرضة مساعدتها على النهوض وارتداء ثيابها، انتظرها خلف مكتبه، مدونًا بعض الأشياء في ملفها، وتطلع إلى نتائج التحاليل المخيبة للآمال أيضًا، والتي تؤكد على صعوبة حالتها. جلست "خلود" قبالة، واضعة حقيبة يدها على حجرها، وسألته:

معناه إيه إن نبض الجنين ضعيف؟ ده وحش يعني؟

رفع عينيه نحوها، وأجاب بهدوء تام:

للأسف أه.. واحتمال كبير الحمل ينزل.

انفجرت شفاتها عن صدمة مرعبة، أحست بتلك الخفقة القابضة تعصر قلبها مع صراحته المطلقة، رفض عقلها التصديق، وهتفت مستنكرة:

-إنت بتقول إيه؟ فال الله ولا فالك يا شيخ .. أنا ابني زي الفل، قول كلام غير ده!!!

تفهم طبيعتها الغاضبة، وحافظ على ثبات نبرته الرزينة متابعًا توضيحه:

يا مدام المشيمة عندك فيها مشاكل، أشعة الـ (4K) مبيينة ده قصادي.. استحالة يكمل.

صرخت به بعدائية، ووجهها التهب على الأخير:

-الله أكبر عليك، إنت هتحسدني؟

ضاقت عيناه في اندهاش، وردد مذهولاً:

-أحسدك؟

-أيوه، ابني ما فيش فيه حاجة.

رفضت بشكل قطعي تصديق ما قاله، بل تعذر عليها تفسير مصطلحاته الطبية التي حاول بها توضيح طبيعة حالتها المرضية المهددة بإجهاض وشيك. منحته تلك النظرة النارية، فأضاف على مهلٍ، متجاوزًا عن عصبيتها:

-الجنين عشان يتكون بيتغذى من الحبل السري، وبيكون ده متصل بالمشيمة، اللي بتمده بالدم، وبكل العناصر اللي محتاجها والأكسجين، و.....

قاطعته بلوعة:

حبيب شوف لي دوا أخده، وتتصلح البتاعة دي.

عقد حاجباه مكرراً في استغراب:

-تتصلح!!

قالت ببساطة شديدة:

أيوه .. زي أي حاجة، مش إنت دكتور، ولا دي شهادة مضروبة؟

للمرة الثانية تهينه بشكلٍ فج، وحاول قدر المستطاع ألا تنفلت أعصابه، لذا تنفس

ببطء، وقال لها:

-حضرتك برضوه مش فهماني يا مدام، معدل نبض الجنين في الفترة دي أقل بكثير

جداً من اللي المفروض يكون عليه

سألته ببلاهة:

-يعني أخذ إيه ويزوده؟

أدرك أنها حالة ميؤوس منها لتستوعب حقيقة إجهاضها، فلجأ لطريقة أخرى

لإقناعها، واستطرد قائلاً:

حطب أنا هسألك شوية أسئلة، ممكن؟

تقوست شفتنا "خلود" عن امتعاض واضح، وردت على مضض:

-اتفضل.

أخفض نظراته ليسجل إجاباتها دون تأخير، وهو يسألها:

حضرتك وزوجك أقارب؟

أجاب دون تفكيرٍ مطول:

أيوه ولاد خالة، من دم بعض.

زم شفتيه قليلاً، ثم تسأل بحذر:

تمام.. طيب في الفترة الأخيرة حصل بينكم تواصل جسدي، علاقة يعني؟ غير

المرّة اللي جيتلي فيها وعندك نزيّف!

قطبت جبينها نافية:

لا.

تابع تساؤلاته المحققة في حالتها:

لما الممرضة قاست ضغطك، القراءة كانت عالية في الجهاز، زي كل مرة، حضرتك

بتعاني من الضغط؟

هتفت باستنكار:

هو إنت عاوز ضغطي مايعلاش من الهم والقرف اللي بأسمعه

حصلك نزيّف ثاني؟ بقع دم؟

شردت للحظة متذكّرة تلك القطرات التي لطخت ثيابها الداخلية، وتكررت بشكلٍ

دوري على مدار الأيام الماضية، تجاهلتها معتقدة أنه شيء طبيعي، أن يلفظ

جسدها بقعاً من الدم الداكن. استراب الطبيب من صمتها الطويل، وأعاد سؤالها:

يا مدام حصلك نزيّف ثاني؟

ادعت كذبًا لتضلله:

هو مش نزيف أوي، دي كانت مرة ولا اتنين، كنت مجهدة وكده.  
بات كذبتها مفضوحًا، مع محاصرتها بالمزيد من الأسئلة الطبية الدقيقة التي تكشف  
عن عوارض الإجهاض، وما إن فرغ من أسئلته المستفيضة معها حتى قال بصراحة،  
وبناءً على الاستنتاجات المؤكدة التي جمعها عن حالتها:  
طيب يا مدام، حضرتك لازم تكوني مستعدة لأي طارئ الأيام الجاية، لأن في  
احتمالية كبيرة إن الجنين يموت في بطنك.

صرخت بوجهه وهي تضرب بيدها على سطح مكتبه:

إنت الظاهر عليك ما بتفهمش، عايز تموت ابني، وهو لسه عايش.

ابتلع إهانتها بأعصابٍ مشدودة، ثم تنفس ببطءٍ، ليتابع بعدها:

حضرتك تقدري تروحي لأي دكتور تاني أحسن مني، وأنا متأكد إنه هايقولك نفس  
الكلام.

هبت واقفة ترمقه بتلك النظرة الناقمة، ثم دفعت بيدها محتويات سطح مكتبه في  
عصبيةٍ، لتتناثر على الأرضية، وتسبب الفوضى، صرخت داعيه عليه بسخطٍ كبير:  
منكم لله يا ظلمة، ربنا يهدكم.. إنت ولا تفهم حاجة في الطب.

تدخلت الممرضة لتساعد في إبعادها عن مكتبه، نجحت في إخراجها منه، ولم  
تتوقف "خلود" عن نعته بالفاظٍ شبه نابية تعبر عن سخطٍ عظيم وسط ذهول  
الجالسين بالخارج.

.....

لم يجد مكانًا يصلح لركن سيارته، سوى تلك البقعة القريبة من إشارة المرور، والمحاذية في نفس التوقيت للشارع المؤدي لطريق الكورنيش. أوقفها "تميم" تاركًا إشارة الانتظار مضيئة، وألقى نظرة عابرة على السائرون من حوله قبل أن يلتقط هاتفه المحمول، وضعه على أذنه، بعد عبثه برقم أحدهم، مترقبًا رده، وما إن سمع صوته حتى بادر بسؤاله:

إنت فين يا عم "ناجي"؟

جاءت نبرته لاهثة وهو يرد:

دقيقة وهاكون عندك، إنت فين بالضبط

جاوبه بزفيرٍ متعب:

قبل الإشارة بشوية..

عقب بلهات:

تمام، أنا جايلك.

غاص "تميم" في مقعد سيارته، وأراح رأسه للخلف، مغمضًا عينيه للحظات، لم ينكر أن التهاؤه المتعمد بالعمل الزائد لم يفلح في إيقاف عقله عن التفكير فيها، ما زالت تستحوذ حتى على أصغر فراغات عقله، وتجبره بشتى الطرق على الاستغراق في التفكير مجددًا فيها، ورغمًا عنه - بعد كلام خالها الأخير معه - تخيلها ترتدي خاتم الخطبة، وابتسامة ساحرة سعيدة تظهر على شفيتها، أحس بكآبة تثقل صدره، فنفض المشهد الوهمي عن مخيلته، لكن ما لبث أن لاح على زاوية فمه ما يشبه البسمة الساخرة، كانت "فيروزة" نادرًا ما تبسّم له، معه دومًا متجهمًا، عاقدة



لحاجبيها، مقتضبة الجبين، ومع هذا كان تأثيرها جليًا عليه! بيأس انتزع نفسه من شروده الحزين، لا جدوى من التفكير فيها الآن، أصبحت رسميًا لغيره، ولمن لا يستحقها أبدًا، وهذا ما وخز قلبه بشدة، من ينالها عليه أن يكون الأفضل في كافة النواحي، يميل للكمال.

فتح "تميم" عينيه ليتفاجأ بطيفها متجسدًا عبر زجاج سيارته الأمامي، للحظة توهم أن ذلك من وحي عقله المرهق؛ لكنها كانت بشحمها ولحمها، تقف تقريبًا على بضعة خطواتٍ من سيارته، تركز كامل انتباهها على الطريق لتعبره، انقطعت أنفاسه؛ وكأنها سرقتها منه. قفزات متحمسة أصابت قلبه، فأحس به ينتفض بقوة بين ضلوعه، تصلب في جلسته، وحملق فيها بضمٍ مفتوح، لم يدرك أنه يبتسم لمجرد رؤيتها، تأملها محاولاً التطلع لتفاصيل وجهها من زاويته، تعذر عليه هذا، المثير في الأمر أن حواسه تحفرت بشكلٍ رائع، قضى على ما يشعر به من إحباطٍ ويأس، ومع هذا تبددت سعادته المؤقتة مع استعدادها للانتقال للجانب الآخر معتقدًا أنها ستلتقي بزوج المستقبل. حل الوجوم التعيس على خلجاته، وتهدل كتفاه باستياءٍ ناغم، قضى على رجفة مزعجة تسربت إليه حين اقتحم "ناجي" سيارته ليسأله:

-تأخرت عليك يا ريس؟

أجاب بتعابير مكفهرة للغاية:

-لأ.

نظر إليه في استغرابٍ، وسأله:

-مالك يا "تميم"؟ في حاجة حصلت؟

سحب الأخير نفسًا عميق يخمد به ما انتفض في صدره من طقطقات الغيرة ليرد:

-مافيش

أشار له بيده لينطلق:

-هنطلع على الوكالة ولا رايعين فين؟

تعلقت نظرات غير طائعة، من عينيه القاتمتين، نحو بقايا أثرها المتسرب في زحام الطريق، قبل أن يدير المقود، ويندفع مبتعدًا عما يؤلم قلبه، ليقتضي ببطءٍ، وبلا رحمة، على مشاعره النابضة لأجلها .....!!!

.....

## الفصل السادس والخمسون

ومضات خاطفة غزت لحظتها الشاردة، حين توقفت لبرهة على قارعة الطريق، منتظرة هدوء حركة السيارات، لتعبر للجهة الأخرى، استعادت لقطات من حديثها المحتدم مع والدتها، موجة الغضب الحارقة التي اجتاحتها منذ تلك اللحظة المشؤومة لا يمكن أن تُمحي آثارها القاسية بسهولة، هي فقط حاولت الخروج من ذاك المكان الملعون بأقل الخسائر الممكنة، خاصة مع لقائها المنفر بابن عمها، فلا يعرقل ذهابها بتسلطه المقيت، وما إن عادت إلى منزلها -القابع بنفس البلدة-

بصحبة والدتها فقط حتى ثارت ثائرتها، وتقاذفت حمم غضبها في كل مكان، التفتت ناظرة إلى أمها تلومها:

-إنتي اللي عملتي فيا كده مش أنا!

ردت "آمنة" متسائلة بوجهها العابس:

-أنا يا "فيروزه"؟

أكدت عليها ابنتها، بكل ما يعتريها من حنق:

-أيوه، لو كنتي خدتي موقف من الكلام اللي اتقال في حقي، مكانش حد اتجرأ ولمسني..

جاهدت لتخنق تلك الغصة التي احتل نبرتها، وقالت بمرارة، وانكسار تكاد تراه في عينيها:

-عارفة يعني إيه يكشفوا سترك؟ يجردوكي من كل حاجة عشان بس نفوسهم المريضة صدقت كدبة مالهاش أساس..

أطرقت والدتها رأسها، ولم تعقب، فأكملت "فيروزه" حوارها أحادي الجانب، مفرغة تلك الشحنة الجاثمة على أنفاسها فيها:

-جائز معملتيش حاجة معاهم، بس سكوتك واستسلامك خلاني في نظرهم كده، مذنبه من غير دليل، خاطية وأنا معملتش حاجة خالص.

انتحبت والدتها وهي تعقب عليها:

-خلاص بقي ذنبي دلوقتي؟

نظرت ابنتها في عيني والدتها بنظراتها الجريحة، ثم تابعت بألم شديد:  
-أنا اتكسرت من جوايا يا ماما، مع إني مظلومة، في حاجة اتهزت فيا، مابقتش زي  
الأول، حتى لو اللي اتعمل ده فيا إتنو شايفينه عادي!

ربتت "آمنة" على كتفها بحنو، وهونت عليها عذابها قائلة لها:

-متقوليش كده، اللي حصلك مش سهل عليا برضوه.

رغم بكائها الصادق، إلا أنها لم تشعر بتعاطفها الحقيقي معها، أفسدت سلبيتها  
المميتة رباط الثقة بينهما. بلعت "فيروزة" ذاك العلقم المرير في حلقها، وتنهدت  
متابعة بأنفاسها المنفعلة:

-شوفتي نظرات "حمدية" ليا، مع إنها عارفاني كويس، بس كانت أول واحدة لفت  
جبل المشنقة حوالين رقبتى.

علقت عليها بنواح:

-والله أنا حاولت أتكلم مع عمك، جاز مايسمحش ده يحصلك وآ....

قاطعتها "فيروزة" بحزنٍ جلي، وحسرة مقروءة في نظراتها:

عمي.. يا خسارة عليه!

زاد اختناق صوتها مع قولها:

-النهاردة اتأكدت إن السند راح من زمان!

حاولت أن تكبح عبراتها لتبدو متماسكة، لكنها فشلت، فالأمر يفوق قدرة أي إنسان طبيعي على الاحتمال، كفكفت دموعها الحارقة، واستأنفت معبرة عن قسوة أقاربها:

-وعمي وقت الجد خد صف ابنه، ونسى إني متريية تربية أصيلة، ما عملش العيبة ولا فيها موتي!!

احتضنتها والدتها، ومسحت على ظهرها معتذرة منها:  
حقك عليا يا بنتي.

انسلت من أحضانها متسائلة في قهر:  
هترجع الكلمة دي إيه ولا إيه؟!!

تنفست "فيروزة" بعمق لبضعة مرات حتى تقتل ضعفها الذي طغى على السطح، وقالت بحزم، وبقساوة كست نظراتها:

-بالنسبالي كل حاجة ربطتني في يوم بالبلد دي انتهت!  
تساءلت أمها في حيرة:

-يعني إيه؟

قالت حاسمة أمرها نهائياً، كمن يقرر، لا من يُخير:

-أنا مش هارجع هنا تاني يا ماما .. حتى لو مت!

عند تلك الكلمات الختامية استفاقت "فيروزة" من سرحانها المفطر للقلوب على صوت البوق المزعج لإحدى السيارات، انطلقت عابرة للجهة الأخرى، مانعة نفسها

من ذرف أي عبارات، كانت كراهيتها لما مرت به خلال الفترة الأخيرة قد وصلت لمنتهاها، ليبقى ضعفها مخبئًا بداخلها، غير مسموح لأحد، برؤية الهزيمة التي نالت من روحها وسحقتها.

.....

كان لسيرها المرهق الأثر المحمود في تخفيف وطأة معاناتها، دارت لوقت طويل في الشوارع، آملة أن تفرغ شحنتها المكبوتة في صدرها، تمكن التعب من قدميها، فاتجهت أخيرًا إلى محل رفيقتها؛ وكانت آخر من تحبذ اللقاء بها في تلك الظروف، استقبلتها "علا" بتلهف متحمس، ما إن رأتها حتى قفزت عن مكتبها، واتجهت إليها لتحتضنها مستهلة حديثها المرح معها بتهنئة حارة:

-قول مبروك بقي؟!

ضاقت نظراتها الملتهبتين نحوها باستهجانٍ بائن، وسألتها بما يشبه الاتهام:

-يعني كنتي عارفة؟

بتلقائية أجابتها رفيقتها:

-أكد.. "آسر" ليه مكانة مميزة عندي وآ..

قاطعتها "فيروزة" متسائلة بنوع من الهجوم:

-ومحذرتنيش؟ أو حتى عرفتيني باللي ناوي يعمله؟

تطلعت إليها في استغرابٍ، لم تبدُ سعيدة بتاتا، مظاهر الفرحة الطبيعة كانت معدومة من على ملامحها الواجمة، لم تبعد عينيها المتفرستان في وجهها، وقالت مبررة تصرفها، بدهشة غلفت نبرتها:

هو معملش حاجة غريبة، طلبك للجواز من أهلك، كأني حد عايز يرتبط ببنت بشكل رسمي.

احتقت عينا صديقتها، وبدت وكأنها تقاتل شيء ما بداخلها، بينما أكملت "علا" ببساطة شديدة؛ وكأنها لم تفعل ذلك حقًا:

-ولو إنتي مش راضية أرفضه عادي.

هنا صرخت بها "فيروزة" بصوتٍ متهدج:

- "علا" بسببه أنا اتأذيت!

وضعت رفيقتها يدها على فمها، كبتت شهقة تنازع للخروج من بين شفيتها، وقد كانت في حالة صدمة، أخفضت يدها لتسألها في قلق:

إزاي؟ هو عمك حاجة؟

ندمت الأخيرة لاندفاع لسانها الأخرق، في البوح بما لا يفترض قوله، فصحت بحزنٍ ملموس بقوة في تعبيراتها الذابلة:

-لأ مش هو.

ألحت عليها متسائلة في فضولٍ شديد:

-أومال؟

تجنبت منحها الإجابة الحقيقية بنوعٍ من المراوغة:

حاجة مش مهمة، بس كان لازم على الأقل تعرفيني يا "علا"، إنتي صاحبتني.

شعرت رفيقتها بغرابة تصرفاتها، بوجود ما تخفيه عنها، وردت في توجيس:

- "فيروزة" أنا متوقعتش إنك تزعلي كده خالص، افكرت هتفرحي بجو الخطوبة والحب والرومانسية، الحاجات اللي أي بنت بتحلم بيها.

نظرت لها بعينين فارغتين، خالية من المشاعر تقريبًا، يغطيها الحزن والهم، حاولت "علا" الابتسام، وأضافت بنعومة، عل رفيقتها ترى الجانب الدافئ في شخصيته، مثلما تراه هي:

-وعلى فكرة "آسر" بيحبك أوي، تقريبًا مش شايف غيرك، عايزة إيه ثاني غير كده؟ اعترفت دون ندم:

-وأنا مش بأحبه!

ورغم كون ردها الصريح قد أراح "علا"، إلا أنها احتفظت بسعادتها في الخفاء، استمعت إلى رفيقتها وهي تواصل قولها:

-ومش عايزة جواز صالونات، ولا حد يجبرني على حاجة مش عايزاها.

تصنعت البراءة، وسألتهما لتتأكد من فتور مشاعرها نحو "آسر":

-أنا بجد مش فهمامي، حد يجيله عريس لُقطة زي ده، ويرفضه.

أجابت بلا شك:

-لُقطة بالنسبة لغيري؛ لكن مش أنا.

انفلتت تنهيدة حاملة من بين شفتي "علا"، تبعها نظرات ساهمة، وهي تردد في جنبات نفسها برجاءٍ عظيم:

يا ريتني كنت مكانك!



.....  
امتزجت حرارة الجو، مع الرطوبة العالية، والتي غطت معظم رصيف الميناء،  
بشكلٍ غريب، لتمنح المتواجدين إحساسًا كبيرًا بارتفاع درجات الحرارة عن المعتاد،  
أصبح الطقس خانقًا بشكل غير اعتيادي، خاصة والمكان يعج بزحامٍ شديد، بسبب  
تكثيف الإجراءات الأمنية لتفتيش كافة البضائع الواردة والصادرة. أظهر "تميم"  
تصريحه المروري ليلج للداخل بسيارته، بينما تساءل "ناجي" في تدمر:

مش شغل الميناء والفواتير بتاع "هيثم"؟ مالنا احنا ومال القرف ده كله؟  
قال ببسمة باهتة مرتكزة على زاوية فمه:

عريس يا سيدي.. والفواتير دي لازم ناخذها قبل ما نسلم التوريد الجديد.  
علق ساخراً من مكوثه الطويل بالمنزل:

هو هياخد الشهر كله وإلا إيه؟ ده كل الرجالة بتطفش من ثاني يوم!  
رد عليه "تميم" مازحاً:

سيه كام يوم، بكرة النكد يلبس فيه.

تجراً صديقه ليسأله بوقاحة طفيفة، وذلك الفضول يبرز في نظراته نحوه:

صحيح الناس بتقول إن الجماعة بتوعك أعدين معاك في بيت العيلة، هو إنتو  
رجعتوا لبعض ولا إيه؟

انعطف "تميم" بسيارته نحو الموقف المخصص لركن السيارات بداخل الميناء،  
رمقه بنظرة محذرة قبل أن يوبخه بخشونة:

-ومن امتي أنا بأتكلم يا "ناجي" في حاجات تخص أهل بيتي مع حد؟

برر له على الفور:

-أنا يا سيدي عاوز أباركك لو رجعتوا لبعض، وبعدين ده الناس اللي بتقول، إكمن شايقين الجماعة عندكم ليل نهار.

زجره بحدّة، وتلك الشراسة المقلقة تغزو حدقتاه:

خلينا في شغلنا اللي جاين عشانه أحسن.

لعق شفّتيه، ورد دون تفكير:

-اللي يريحك.

في تلك الأثناء، وعلى مسافة غير بعيدة منهما، كان "محرز" يجري مكالمة هاتفية مع أحدهم، لإطلاعه بأخر مستجدات إنهاء إجراءات تخليص الحاوية التي تحوي ثمار التفاح المستوردة، أنهاها واستدار ببطءٍ ليتفاجأ بتواجد الاثنين في الميناء؛ وكأن مسألة حضوره إلى هنا مستبعدة عن ذهنه، بهتت ملامحه، وأصابته لوسة موترة، كان كمن تعرض للصعق كهربياً، فهتف بصوتٍ خفيض:

-يادي المصيبة، إيه اللي جابه هنا؟!!!

بحث سريعاً بعينه عن حاجز ما ليتواري خلفه، قبل أن يلمحه شقيق زوجته، مردداً لنفسه:

-ده كده الحكاية كلها تتكشف لو عرف إني هنا!

وجد ضالته المنشودة، سيارة نقل كبيرة، اختبئ عند مقدمتها، مانحًا عينيه زاوية رؤية جيدة، وضع الهاتف على أذنه ليهاتف نفس الشخص الذي حادثه قبل قليل، وردد بصوتٍ مضطرب:

-بأقولك إيه يا أستاذنا، أخو مراتي هنا، كده مش هاعرف أتحرك براحتي..

جاء صوت "آسر" من الطرف الآخر ناطقًا بذهول:

- "تميم"؟ وده إيه اللي جابه؟ إنت مش قايلي إنه مالوش في شغل المينا؟

رد في حيرة:

-معرفش، أنا زيي زيك اتفاجئت بيه هنا.. ها أأجل الحكاية ولا أعمل إيه؟

أجابه معترضًا:

-لا استنى

هتف متسائلًا:

لحد امتي؟

جاوبه بهدوءٍ عاد ليسيتر على نبرته:

-شوية، جايز يكون جاي في حاجة في السريع وماشي.

على مضض عقب عليه:

طيب.

سأله "آسر" في اهتمام:

-والأمانة فين؟

بابتسامة واثقة، لا تنم عن كونها المرة الأولى أبدًا، أجب:  
في الحفظ والصون، مستني راجلي يعدي عليا ياخذها.  
حذره بلهجة شديدة:

-حاول ماتظهرش قصاد "تميم"، مش عايزين حد يشك فيك  
خطر لـ "محرز" خاطر سريع، ذكره بليلة عرس "هيثم"، حين تفاجأ برؤية "آسر"  
في حفل الزفاف، كان أمرًا صادمًا تواجهه في المكان، ومع هذا عمد إلى التعامل  
معه كشخص غريب، لم يسبق له رؤيته أبدًا، والأخير تصرف بنفس الأسلوب؛  
وكان تعاملاتهما لا تمتد لسنواتٍ سابقة.. نفص ما يشوش صفاء تفكيره حاليًا، ليرد  
بزفيرٍ ممتعض:

-حاضر يا سي الأستاذ.

.....  
لم يمض الكثير من الوقت على تواجهه بالميناء، فمجرد حصول "تميم" على الأوراق  
المطلوبة انصرف من هناك، ليستعيد "محرز" ضبط نفسه، ويخرج للعلن بعد أن  
كان يختبئ كالجرذان .. اتجه نحو المخرج، حيث ينتظره أحد أتباعه المخلصين،  
ممن يقومون بالتهريب مقابل ربح مادي سريع، لوح له الأخير بيده مرحبًا بهتافٍ  
مادح:

عمي وعم الناس كلها

لوى "محرز" ثغره مرددًا بسخطٍ طفيف:

فين أراضيك يا "حاتم"؟ أنا افتكرتك بطلت الشغالة، وما بقتش محتاج!

هتف نافيًا:

حد يرفس النعمة بردك يا ريسنا؟ بس كان عندي شوية مشاكل كده ولبخ

سأله بنظرات قاسية:

حاجة ليها علاقة بشغلنا؟

نقى "حاتم" على الفور:

-لأ خالص، احنا في السليم.

تأبط "محرز" ذراعه، وجذبه بعيدًا نحو زاوية خالية من البشر، ثم أخفض صوته

ليقول له:

طيب عاوزك في تهريئة خفيفة، بس يا تطلعك لفوق، يا تجيبك أرض.

ابتسم وهو يقول دون تفكير:

معاك يا ريس.

شدد عليه بلهجة لا تمزح:

خد بالك، دي حاجة مهمة أوي، ولو نفع تجيب المدام معاك يبقى زي الفل، منها

تزغلل عين بتوع الجمارك، ومنها لو اتقفشت ماتروحش في ثوكر، إنت بتاعنا

وراجلنا.

صمت للحظة في تردد، قبل أن يستجمع جأشه ليعترف له:

مش هاينفع أجيب الجماعة معايا!

ضغطت أصابع "محرز" على ذراعه، وقست نظراته متسائلًا

ليه؟ هي كانت أول مرة؟ ده إنت في جيتها بدل الطاق طاقين، يعني مافيش حاجة بتروح عليك

قال موضحًا بنزق:

-أنا طلقت "نيرمين" من فترة، وبصراحة كده كانت وش بومة، جاينة لأمي الفقر! بدت علامات الحيرة والانزعاج ظاهرة على وجه "محرز"، والذي أردف قائلاً في استنكار:

يا شيخ، دي كانت نفعانا في حاجات كتير.

لم يكن مكثرًا بضيقه، وأضاف مقتضبًا:

-اللي حصل بقي.

فرك "محرز" طرف ذقنه، وقد بدا كمن يفكر في عمق:

-الليلة دي محتاجة حريم عشان نعرف نعيها.

رد عليه مقترحًا:

-أنا هاتصرف، هأجر واحدة من غير ما نديها تفاصيل.

سأله بنبرة مهمة:

عندك اللي يعمل كده؟

أجاب مؤكدًا:

-أيوه، الواد "ناصر" صاحبي عارف نسوان بعدد شعر راسه.

شدد "محرز" من قبضته عليه، ليحذره مجددًا، من مغبة التصرف برعونة، في هذا  
الوضع الحرج:

-أنا مش هنوسع الدائرة يا "حاتم"، الحكاية مش ناقصة شوشرة، ده احنا عمالين  
نقول يا حيطة دارينا، كده هتفتح العين علينا، وباليزيد.

أوضح له معلقًا:

-أنا مش هاقوله حاجة، هافهمه إنها عملية تهريب هدموم عادية، زي ما بيحصل كل  
مرة، ويشوف واحدة كده من إياهم تساعدني، إكمن الشغل كثير، هلاوعه!

استغرق "محرز" لدقيقة في تفكيره، يدير الأمر في رأسه، قبل أن يمنحه رده  
النهائي:

-استنى ماتعملش حاجة غير لما أشور على كبيرنا

تساءل "حاتم" بقلقي، وقد بدا في حاجة ماسة للمال:

هو ممكن يعترض؟

رد عليه بوجه يكسوه الجدية:

-أه طبعا، ده كل خطوة بنعملها في شغلنا دي محسوبة بالورقة والقلم.

.....

دقات ثابتة على باب المنزل، حثت الصغيرة -ذات الجديلتين، والأعوام الخمسة-  
على التحرك نحوه لفتحه، ارتسم على شفيتها ابتسامة طفولية فرحة لرؤية والدها  
الغائب، فردت ذراعيها تدعوه للإقبال عليها واحتضانها. ترك "خليل" ما في يده من

أكياس ممتلئة بالطعام والفواكه على الأرضية، لينحني حاملاً إياها، بعد غلقه للباب،  
ضمها إليها هاتفاً بحنوٍ، رغم اللهاث المصاحب لصوته:

حبيبة بابا.

سألته الصغيرة بعتاب:

-أتأخرت ليه؟

أجاب "خليل" مبتسماً:

-كان عندي شغل أد كده.

عبست الطفلة، وقالت ببراءتها غير الملوثة:

-أنا بأزعل لما بتسافر.

رد عليها بحنوٍ كبير، وهو يمسح على صدغها بكفه:

معلش يا حبيبتي، ده عشان أجيبك لعب حلوة.

ظهر أمامه امرأة عشرينية، حسنة الوجه، قمحية البشرة، تلتصق ثيابها المنزلية  
ببدنها بشكلٍ مغرٍ، انفرجت شفتا "خليل" عن رغبة جائعة، خاصة مع دلالتها الأنثوي

وهي ترحب به:

-حمدلله على السلامة يا "خليل".

تقدم نحوها، والتف ذراعه الآخر حول كتفيها ليضمها إليه، وليشعر بمنحنياتها  
الجزابة على جسده، تنهد قائلاً لها بلوعة الاشتياق:

-وحشتيني يا "سماح".



لكزت كتفه برفقي، وتغنجت بجسدها معاتبه إياه في عبوس رقيق:

-كده بردك ماتتصلش بينا الفترة اللي فاتت يا سي "خليل"؟

رد معللاً سبب غيابه:

-ما إنتي عارفة "حمدية"، كانت فوق دماغي.. مش مخلياني أشم نفسي حتى.

تأففت كمن تذوق شيئاً لاذع المذاق، لتقول بعدها بنفور، وهي تضع يدها على

صدرها:

-أعوذو بالله منها، لما تيجي سيرتها قلبي بيتقبض.

قال مؤيداً بسخطٍ كبير:

-بومة طول عمرها، ربنا ياخذها ويربطني، وبعدين أنا جاي أقعد معاكي إنتي كام يوم.

تمايلت "سماح" بجسدها بدلالٍ أكبر، وهي تحمل الطفلة عنه، لتسأله بعدها:

صحيح، إنت سيبتها في البلد لوحدها؟

أجاب نافيًا بصوتٍ مرهق:

-لا، مع العيال، وبعدين هيجرالها إيه يعني؟

ردت بتوجس:

-لأحسن تشك فيك، سفرك بقي كثير وكده.

انتزع ساعة يده، وأزاح سترته المتعرقه عنه، ليرد بغير مبالاة، وهو يلقي بثقل جسده

على الأريكة العريضة:

-أنا قولتلها مأمورية طارئة، زي كل مرة.. تصدق ما تصدقش تتفلق، أنا هريان من مشاكل الدنيا كلها عشان أجيلك يومين أروق دماغي.

هتفت بتدليل:

-أحلى دلع هتشوفه معايا، ده أنا مراتك حبيبتك..

ثم تحولت نبرتها لقليلٍ من الجدية، حين سألته:

-إنت كنت قايلي قبل ما تسافر إن في خطوبة بنت أختك، عملتوا الخطوبة؟

أخبرها بعد زفيرٍ بطيء، صرف معه إنهاكه:

-لأ .. لسه.

جلست الطفلة في حجره، وأحاطت بجسد والدها، بينما تساءلت "سماح" بفضول:

ليه؟

راوغها "خليل" في الرد، وقال:

-بعدين بقى، أنا دماغي أد كده من الطريق.

اعتذرت منه بابتسامةٍ، كانت لعوب إلى حد ما:

-دلوقتي أنسيك التعب وهدة الحيل.

اتسعت ابتسامته العابثة، وقال لها مستخدمًا يده في الإشارة:

-هتلاقي في الشنط اللي هناك دي كباب وكفتة، أنا جايبهم عشان ناكل ونروق على نفسنا.

سال لعابها مع إحضاره لذاك الطعام الشهى، وارتفع زئير بطنها الجائع، لتصبح في حبور:

-الله .. وأنا هاجهز السفره على طول.

أمرها بما يشبه الرجاء:

-أوام يا "مووحة"، لأحسن أنا واقع من الجوع.

ردت عليه بلؤم ممتزج بالخجل:

-ما أنا زيك، محطتش الزاد في بؤي من ساعة ما اتصلت عليا وقولتلي أنا جاي، هو أنا يجيلي نفسك أكل ولا أشرب من غيرك؟

هتف في انتشاء:

-أصيلة يا ست البنات.

أحتت "سماح" جسدها للأمام لتجمع الأيكاس التي أحضرها، بطريقة شبه مغرية، متعمدة أن تبدو مقوماتها في مرمى بصره، ليظهر تأثيرها عليه، وسألته، دون أن تعتدل في وقتها:

صحيح عملت إيه في تأشيرة أخويا؟

أجابها على الفور، ونظراته لم تفارق منحنيات جسدها:

-كلمت الراجل معرفتي وهيخلصهالي قريب، متقلقيش.

اعتدلت ببطء في وقتها، وردت تشكره في امتنان

- ماتحرمش منك يا غالي.. مسافة ما تغسل إيدك هتلاقي الأكل محطوط على التريذة.

هز رأسه مرددًا بابتسامة متحمسة، ويداه تلاطفان طفلته الصغيرة الجالسة في أحضانه:

- ماشي يا عسل.

.....

صعدت إلى سطح المنزل، في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وقفت عند حافته، عاقدة لساعديها معًا أمام صدرها، تتأمل بعينين متعبتين الأمواج المتلاطمة وهي تتكسر على الشاطئ، كانت روحها مثلها، تتكسر مع القساوة التي تختبرها من آن لآخر، وكلما حاولت لملمة شتاتها المبعثر، يظهر ما يحطمها من جديد، لم تختر أن تكون الضلع المنوط بتحمل عبء المسؤولية كاملة؛ لكن فرض عليها رعاية أسرتها، في ظل طبيعة شخصية والدتها المسالمة، ومع رهافة مشاعر توأمتها، ووجود خالها الطامع وزوجته الحقود، وعائلة تسكن بعيدًا عنها، لا تلتقي بهم إلا في المناسبات السارة.

أطالت "فيروزة" النظر في السواد الحالك على مرمى البصر، وهي تسمح لحزنها بالطفو بعيدًا عن الشامتين، بكت في صمت، نحيبها الخافت اختلطت مع أصوات المياه العالية، لم ترغب في مشاركة أحدهم ضعفها، لم تفعل ذلك من قبل، ولن تفعله الآن. انتفضت بقوة مع رنين هاتفها الموضوع في قبضة يدها، لم تعتد على اهتزازها في مثل تلك الساعة، حدقت في الشاشة بالرقم الغريب الذي احتلها، تجاهلت الرد عليه؛ لكنه أصر على المواصلة، فاض بها الكيل، وأجابت بحدوة:

-ألو.. أيوه

صوتًا رجوليًا عميقًا رحب بها بلطف:

-مساء الورد يا "فيروزة".

تحفزت في وقتها، وتقلصت تعبيراتها متسائلة:

-إنت مين؟ وعرفت اسمي إزاي؟

في خضم ما عايشته قبل لحظات لم تتبين من الوهلة الأولى صوته الناعم المألوف؛  
ولكنه أجاب بهدوء، حتى لا يُطيل حيرتها:

-أنا "آسر".

ذكر اسمه كان كفيلاً باتقاد النيران فيها، لم تبادله الترحيب أبدًا، بل تسابق في  
عقلها الذكريات المؤلمة التي ارتبطت به، وهتفت تهاجمه بضراوة، دون أن تعطيه  
الفرصة لقول نصف كلمة على الأقل:

-إنت جبت رقمي مين؟ ومين سمحك تكلمني أصلاً؟ أنا مافيش بيني وبينك  
حاجة، ومش موافقة أتجوزك، يا ريت تكون فهمت.

لحظة من الصمت حلت عليه، حاول أن يستوعب فيه ما اعترفت به تَوًّا، قبل أن  
يرجوها:

طب ممكن تسميني؟

صاحت بعصبية لافظة أي محاولة للتودد لها بمعسول الكلام:

ده اللي عندي، ويا ريت ماتتصلش تاني، لأني هاعمل بلوك لرقمك، ولأني رقم تفكر تتطلبني منه.

ثم قطعت الاتصال فجأة، وصدرها ينهج بقوة، كافة الانفعالات الشائنة التي لطالما قاومتها، اندفعت ككتلة حارقة في تلك اللحظة تحديداً، لم تهدأ ثروتها إلا بطرده من حياتها، وإن لم يرتكب شيئاً سيئاً في حقها؛ لكن وجوده اقترن بشرور لم تتعاف منها بعد.

.....

بضعة أيامٍ أخرى انقضت عليها، في منزل خالتها، وهي تعافر آلام رحمها الصارخة، بدأت علامات الإجهاد تظهر عليها، من تقلصات موجعة تضرب أسفل بطنها؛ وكأنه يلفظ بشراسةٍ ما احتواه في الأسابيع الماضية، مع نزيف متزايد جراء اتساع عنق الرحم، ورغم هذا رفضت تصديق حدوثه، وأنكرت ما أخبرها به الطبيب عن تدهور حملها، واحتمالية خسارتها لجنينها، قاومت التقلصات الموجعة، واستعانت بالدواء المسكن لتكتم أين جسدها المستنجد، تشبثت بقوة، بالأمل الأخير الباقي لها، لاستعادة طليقها.

اتجهت "خلود" للشرفة لتستنشق الهواء، أو الأخرى أن يقال أنها تحاول عدم لفت الأنظار إليها، فقد ظهر عليها الإعياء، مع التعرق الغزير، وارتفاع درجة حرارة جسدها، استندت براحتها على حافة الشرفة، لم تركز في أوجه المارة، كانت تعتصر عقلها محاولة البحث عن حل بديل لمأساتها، الأکید ستدعمها والدتها وخالتها، موقف شقيقتها على الحياد؛ لكن ماذا عن الجد وابنه؟ كلاهما عقبتان بارزتان في طريق إكمال سعيها، زفرت في سأم، وقالت لنفسها:

-لازم يبقى ليها حل.

تجمدت عيناها على وجه لم تحبه يومًا، حيث رأت "فيروزة" تسير متأبطة ذراع والدتها عند ناصية الشارع، تجمعت كراهية العالم بأسره في مقلتيها، نعتتها بصوتٍ خفيض بكلمات نائية عدائية:

-بنت ال (... )!!!

تتبع سيرها بغيظٍ طفح على ملامحها، توحشت عيناها، ولم تطرف بجفنيها، ومضة خاطفة شيطانية دارت في رأسها، عندما وجدت كليهما تتجهان نحو المدخل، حتمًا ستزوران "همسة"، فالأخيرة تسكن بالطابق العلوي، تحفزت أكثر وقد برزت معالم خطتها الجهنمية، لما لا تستغل مأزقها، وتورط تلك البائسة بشكلٍ أو بآخر معها، وتجبرها على الاشتباك البدني، لتكون السبب الرئيسي في إلحاق الأذى بالجنين، فتثار لنفسها، وتنتقم منها.

لم تتردد للحظة، أو تفكر مرتين، استدارت خارجة من الشرفة، لتقول بصوتٍ عالٍ بالكذب:

-أنا هاطلع الزبالة يا خالتي، بدل ما تعمل ريحة في المطبخ

أتاها صوت "ونيسة" معترضًا:

-ماتعبيش نفسك، "تميم" هيجي كمان شوية، يبقى ياخدهم مرة واحدة يرميهم في المقلب.

أصرت على طلبها، وإلا لفسدت خطتها:

-ولا تعب ولا حاجة، دي شنطة صغيرة.

التقطت الكيس -شبه الفارغ- من الصندوق الملاصق لحوض المطبخ، واتجهت بخطواتٍ متعجلة نحو باب المنزل، تركت الكيس في مكانه بالخارج، وتلكأت وهي تدنو من الدرابزين لتتلمص على الأصوات الأثوية الآتية من الأسفل، سمعت "آمنة" وهي تقول:

-أنا مش هنطول عند "همسة"، هنظمن عليها، ونمشي.

ردت "فيروزة" باقتضابٍ:

طيب.

تراجعت "خلود" للخلف قبل أن تلمحها إحداهما، وهي تتجسس عليهما، استعدت لمواجهتهما، تفاجأت "آمنة" بوقوفها على حافة الدرج، ونظرت لها بغرابةٍ مرددة عليها التحية:

سلامو عليكم.. إزيك يا بنتي؟

ردت عليها "خلود" بوقاحة:

-أنا مش بنتك.

حمة حرجة تشعبت بها بشرة الأخيرة، بينما تقاذف الغضب في حدقتي "فيروزة"، وبادلتها نظرة قاسية محذرة، ومع هذا تعمدت "خلود" لإحراج الضيفتين، واستفزاهما لأقصى الحدود، ليتم تنفيذ خطتها الوضيعة بحذافيرها، فأردفت بوقاحة:

طالعة أرمي الزبالة، لاقيتها في وشي، صحيح العمارة لازم تنضف كل شوية.

أمسكت "آمنة" بذراع ابنتها التي بدأت في التشنج، وضغطت عليه تستحثها على التحرك، هامسة لها:



-سيبك منها يا "فيروزة"، وخلينا نطلع.

تابعت "خلود" قائلة بسخرية، وهي تضع يدها على أنفها:

-ريحة زفارة وحشة، يا ساتر يا رب، هاجيب اللي في بطني.

لم تصمت "فيروزة" عن إهانتها، وردت بقوة، وبنظراتٍ احتقارية:

-ماتبقيش تقفي جنب الزبالة كثير.. لأحسن ريحتها لازقت فيكي.

التقطت الشرارة من هنا، ورفعت نبرة صوتها لتصرخ بها، وهي تلوح بذراعها في الهواء:

-زبالة مين يا (...)، تعالوا وشوفوا مين بتكلم.

حالت "آمنة" بينها وبين ابنتها، فقد عمدت الأخيرة للتناول اليدوي لاستفزاز "فيروزة" بصورة فجأة، وقالت برجاء:

خلاص يا بنتي، عيب كده!

استدارت "خلود" بجسدها، وتحركت بخطوات محسوبة لتغدو بالقرب من حافة الدرج، لتصبح مسألة انزلاق قدميها أكيدة، وتابعت صياحها المهلل بصوتٍ أعلى، وهي تصفق يديها:

عيب؟ هو إنتو لسه شوفتوا العيب؟ ده أنا هاخلي اللي ما يشتري يتفرح عليكم!

ردت عليها "فيروزة" وهي تمنع يدها من الإمساك بها، أو جذب ثيابها:

-إنتي قليلة الأدب، ومش محترمة، وفعلاً تستاهلي الواحد يقل أدبه عليك.

ارتمت "خلود" بجسدها على "آمنة" قاصدة الاعتداء على "فيروزة" موجهة لها وإبلاً  
من السباب الحقير، مستغيثة بخالتها:

-تعال يا خالتي شوفي اللي بيحصل برا.

وفي لحظة معينة، عند لمحها لخالتها "ونيسة"، دفعت نفسها بارتدادٍ عنيف  
للخلف، سامحة لقدمها، بالتخلي عن قمة الدرج الواقفة عليه، لتبدو وكأنها مدفوعة  
عن عمدٍ، من قبل "فيروزة"، وصوت صراخها المفزع يزلزل جدران البناية:

-الحقوووني ..... !!

.....

## الفصل السابع والخمسون

قبيل الكارثة التي وقعت بلحظاتٍ، تأكدت من إعادة تنظيف الصالة، ونفض الأسطح الزجاجية، وإزاحة أي عالق من الأتربة، ليبدو المكان مرتبًا، نظيفًا، وطيب الرائحة. انتقلت بعد ذلك لغرف النوم لتبديل الأغشية، وإعادة وضع الوسائد على الأسرة بشكل جمالي رقيق، تأكدت "همسة" من اللمسات الأخيرة لمنزلها، وانتظرت بترقبٍ مجيء والدتها. مشط "هيثم" شعره، وعدّل من ياقة الزي الرياضي الذي ارتداه، تركزت نظراته على زوجته حين أردفت قائلةً بتنهيده متوترة:

ماما على وصول، وبصراحة كده أنا خايفة يحصل خناقة مع مامتك...

ضاقت نظراته بقليلٍ من القلق أيضًا، بينما أكملت "همسة" بنفس الصوت المتوتر:  
هي أسلوبها صعب أوي، وآ...

قضمت شفتها السفلى؛ وكأنها تستعد نفسيًا للبوح بالبقية، زفرت الهواء على مهلٍ، وعلقت:

-و"فيروزة" مش هاتسكت لو سمعت حاجة معجبتهاش.

فرك "هيثم" مؤخرة عنقه، كانت محقة في ذلك، لم يبعد نظراته عنها، وهتف مرددًا  
في حيرة وقلق:

مشكلة الصراحة.

سألته بترقب:

-هنعمل إيه؟ هنفصل القوات إزاي؟!

أجابها بأسلوبه المازح:

-أقولك على حاجة حلوة..

هزت رأسها في اهتمام، فأضاف مبتسمًا:

-أحنا نسيدهم يخبطوا في بعض، ونقعد نتفرج، جايز أومي تطفش في النهاية، ونرتاح. أطلقت ضحكة ساخرة من طرفته التي تهون عليها صعب الأمور، لكن ما لبث أن تلاشت بسماعها لصياح والدته المتذمر:

-الحق يا "هيثم"، شوف المصيبة اللي حصلت؟

حيث قامت الأخيرة بإيقاف دورة الغسيل، غير عابئة بالمياه التي أغرقت الأرضية، وحشرت زي الصلاة الخاص بها -والذي يمتاز بلونه الأحمر القاني- ضمن الثياب البيضاء، وأعدت تشغيل البرنامج، ليتم غسلهم جميعًا، على تلك الحرارة العالية، فجاءت النتيجة البديهة لمزج اللونين معًا؛ اكتساب غالبية الملابس للون الوردية، واختفاء اللون الأبيض تقريبًا عن قطع بأسرها. أمسكت بإحدى القطع في يديها، وعلى الفور ألقّت بلومها على "همسة"، وهي ترفعها للأعلى لتريه إياها:

-بص شوف مراتك، وعمايها!!

نظر لها "هيثم" متسائلًا في اندهاش:

هي عملت إيه؟

حدجتها "بثينة" بتلك النظرة الحقود، وأجابت وهي تلوح بالثياب الوردية:

-الغسيل كله باظ.

انفجرت شفتا "همسة" عن ذهول، وعيناها تتابعان الثياب التي فسدت، في حين واصلت حماتها إلقاء التهم عليها:

-يعني عامية مش شايفة الغسيل الأبيض من الألوان؟ ارتاحتي كده لما باظوا؟

نفت تلك التهمة الباطلة عنها، وردت بصوتٍ شبه مختنق:

-والله أبدًا، أنا بصة كويس قبل ما أحطهم في الغسالة..

لمحت تلك البسمة الصغيرة المتشفية فيها على ثغر "بثينة"، فقسست تعبيراتها نحوها، فطنت للخدعة الدنيئة التي لفتتها، وتساءلت ببساطة؛ وكأنها تتحقق من صدق قولها الباطل:

-وبعدين أنا مشغلة البرنامج، ومتأكدة إن كل حاجة تمام، يبقى إزاي ده حصل؟ إلا إن كان حد بقي وقف البرنامج وعدل عليه، عشان ينكد علينا.

صاحت بها "بثينة":

قصدك إيه؟ إني عملت كده؟

ردت بجرأة:

-الله أعلم! لكن مش أنا.

تدخل "هيثم" في الحوار، ليفض بينهما، وقال:

-خلاص يامه هلبسهم بامبي، أنا مش زعلان..

ثم استدار نحو زوجته، وأضاف بابتسامة عريضة؛ كمن يتغزل بها:

-وأهوو الحياة تبقى بامبي بيني أنا ومراتي.

زجرته والدته في تهكم مستفز، كعادتها:

-ياخويا أنا عارفة بتحبها على إيه، دي نحس، مافيش منها رجا!

حذرتها "همسة" مشيرة بسبابتها أمام وجهها:

لو سمحتي بلاش الكلام ده، أنا مبالغطش في حد، فيا ريت متغلطيش فيا!

دعم "هيثم" حديثها قائلاً:

يامه كده عيب، وآ...

صرخت به في حدة:

أخرس إنت، هتاخد في صفها كده على طول

وقبل أن توبخ زوجته بعدائية بغیضة، انتبه ثلاثتهم لصوت الصراخ الصادر من الخارج، تعرفت "بثينة" على الفور على صوت ابنتها الغاضب، واندفعت لاكرة "همسة" في جانبها بغیظٍ، لتتجه نحو باب المنزل، لترى ما يحدث مع "خلود"، تبعها "هيثم" متوقفاً حدوث مصيبة ما، ولم تتأخر زوجته في اللحاق بهما.

.....

أمسكت "بثينة" بحافة الدرازين بكلتا يديها، وأحنت رأسها للأسفل لتتطلع إلى "خلود" المتلاحمة بشراسة شديدة مع "فيروزه"؛ وكأنها تود الفتك بها، ووقفت إلى جوارها "همسة" المذهولة مما يحدث، فليست من طبيعة توأمتها افتعال المشاجرات مع تلك المستفزة، في حين هبط "هيثم" الدرجات سريعاً، ليتدخل فوراً، قبل تفاقم الشجار الذي لا يعلم سبب نشوبه. أرخت "بثينة" إحدى قبضتيها عن الحافة، ولوحت بذراعها تحذر ابنتها بصوتها الصادح:

خدي بالك يا بت!

وكان الأخيرة فاقدة لحاسة السمع، لم تتجاوب مع أي أصوات تنادىها بالتوقف، بدت أكثر عزمًا على إتمام مخططها للنهاية، التفتت برأسها للوراء، لتلقي نظرة أخيرة على الثماني درجات من خلفها، لن تكون الإصابة جسيمة؛ إن تدرجت عليه، خاصة مع بسطة السلم المربعة، ستفترشه بأريحية. رآها "هيشم" بوضوح، من زاويته، وهي تتراجع ببطءٍ دافعة نفسها للخلف، دون أن تمسها أي يد، لتزلّ قدمها -بعمدٍ- عن حافة الدرج، وتسقط سقوطًا مروّعًا عليه، أصاب المتواجدين بالصدمة والارتعاب الشديدين.

.....

غامت الصور في عينيها قبل أن تتحول لإظلام كامل، والأصوات الصارخة تجتاح عقلها الذي يتخلى عن وعيه تدريجيًا، بعد تلك السقطة العنيفة، التي حتمًا لن تتعافى منها بسهولة، كان آخر ما أبصرته وجه شقيقها المرتاع، والذي قفز الدرجات قفزًا ليكون إلى جوارها، لامها بصوتٍ حزين:

عملتي كده ليه يا "خلود"؟

لم تجبه، ومنحته تلك النظرة الأخيرة، لتطبق على جفنيها، مستسلمة للخدر الإجباري، الذي تفسى في جسدها، ورغم الرجفة المربعة التي نالت منها لرؤيتها تسقط على الدرج بهذا الشكل الشنيع إلا أنها لحقت بها لتتفقدتها، جلست "فيروزة" على ركبتيها أمامها، وصاحت تأمره في خوف:

متحركهاش، أنا هاطلب الإسعاف.

أوماً "هيشم" برأسه، وهو ينظر إلى شقيقته الفاقدة للوعي، جذبة عنيفة من كتف "فيروزة" طرحتها أرضاً بعيداً عنها، وأسقطت الهاتف من يدها، تبعها سباب مهين، التفتت للمتسببة في ذلك، فرأت "بثينة" وهي تعنفها بنواحا المزعج:

أوعي يا بوز النحس عنها، عاوزة إيه تاني من بنتي؟ خلاص ارتاحتي لما جبتي أجلها؟

هتفت "فيروزة" نافية التهمة عنها:

محدثس جه جمبها، بنتك اللي عملت كده في نفسها، وكلكم واقفين وشاهدين.  
ردت "آمنة" مدافعة عن ابنتها بغرابة لم تتوقعها الأخيرة:

أنا كنت ماسكة بنتي، وبعداها عنها، هي من الأول اللي قاصدة تشتبك معها!

اندهشت "فيروزة" من موقف والدتها، وجالت بنظراتها على الحشد المتجمع من حولهم، فبالرغم من الشجار الحاد بينها وبين "خلود"، إلا أنها لم تغفل عن بعض التفاصيل الهامة، فحين رفعت رأسها للأعلى على إثر الصوت الحاد، القادم من فوقها، رأت "بثينة" وهي تتدلى بنصف جسدها للأسفل، لتحذر ابنتها بشكلٍ صريح، من الاقتراب من حواف الدرج، ووالدتها كانت شبه مقيدة لذراعيها، وحين أدارت رأسها للجانب، ظهرت "ونيسة" وهي تندفع خارجة من باب منزلها مع نبرتها المتسائلة عن سبب الجدل، فكيف لها أن تدفعها وهي منشغلة عنها -ذهنياً وبدنياً- في تلك اللحظة المصيرية؟

انضمت "ونيسة" لأختها، وجلست على الدرجة الأخيرة تبكي وهي تقول:

-استرها يا رب، دي في بطنها عيل، احميها يا رب.



ردت عليها "بثينة" بصراخها:

-ما فيش غيرها إلا عايزة تجيب أجل بنتي واللي في بطنها.

تحولت نظراتها المغلولة نحو "فيروزة"، بادلتها الأخيرة نظراتٍ غريبة مستنكرة ما تقذفه من اتهامات مجحفة، وضعت "همسة" قبضتها على ذراع توأمتها، لتنتشلها من تحديقها الناري بها، شدتها بعيدًا عن حماتها الغاضبة، والتي من المتوقع أن تتناول باليد عليها، لتفرغ حنقها الأسود بها، وهتفت ترجوها:

-تعالى معايا يا "فيرو".

ردت عليها توأمتها بإصرار:

-مش هامشي .. هو أنا جيت جمبها أصلاً؟

همست لها بصوتٍ مضطرب:

-أنا عارفة، بس بلاش تبقي في وشها السعادي.

كانت تقصد بحدِيثها تلك المرأة، وبهدوءٍ انسحبت "فيروزة" لتفسح المجال للجد "سلطان" الذي هبط عن قمة الدرج، ملقياً نظراتٍ مستريية على "خلود" قبل أن ينطق بلهجته الصارمة:

-كلم الإسعاف بسرعة يا "هيثم"، مش هانستنى لما روحها تطلع عشان نتحرك.

هز رأسه قائلاً بحزن:

-حاضر يا جدي.

.....

-كلمت عمك "بدير"؟

تساءل "سلطان" بتلك العبارة الجادة، وهو يجلس على المقعد المعدني -غير المريح- في بهو الاستقبال، بعد أن تم نقل "خلود"، بواسطة عربة الإسعاف، إلى أقرب مشفى، ووضعها بقسم الطوارئ للتعامل مع حالتها الحرجة، حرك "هيثم" رأسه بالإيجاب، وأضاف:

-أيوه يا جدي، وهو جاي على طول على هنا، وقالي إنه هيعرف "تميم" باللي حصلها، وهيجيبه في سكتة.

زم شفتيه قليلاً، ليعقب بعدها مردداً في هدوء، وهو يستند بكفيه على رأس عكازه:  
-ماشى يا ابني..

صمت للحظة، وأمر حفيده، وعينه تتركزان على "بثينة":

-روح اطمن على أمك، وقولها بلاش تقلبها مندبة.

وجه "هيثم" نظراته نحو والدته التي كانت تلطم على صدرها، وفخذيها، في حسرة، للفاجعة التي آلمت بشقيقتها، وصوتها اللائم لم يتوقف عن العويل:

-كان مستخبيلك ده كله فين يا بنت بطني؟ رديتي بالهم والهم مرضاش بيكي يا حبة عين أمك!

ربتت "ونيسة" على حجر أختها، وواستها قائلة:

-استهدي بالله ياختي، إن شاءالله تعدي منها على خير.

هتفت في استنكارٍ ناقم:

خير منين يا "ونيسة"؟ هنضحك على بعض؟ ده البت كانت متكومة لا حس ولا  
خبر، ولا اللي في بطنها؟

تنهدت ترد في رجاء متضرع:

-استرها عليه يا رب، ارمي حمولك على ربنا، وهو هينجيه.

قالت في عدم رضا:

-إنتي مش حاسة باللي أنا فيه ياختي.

أنكرت عدم تقديرها، معاتبه إياها برفق:

-متقوليش كده، ده معزة "خلود" عندي زي معزة "هاجر" بنتي وزيادة.

واصلت نديها المتحسر مضيئة:

-آه يا حرقه قلبي عليك، يا ريتني كنتي أنا، ولا إني أشوفك كده بين الحياة  
والموت.

رددت "ونيسة" في أسف:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

قست نظرات شقيقتها، وكزت على أسنانها مغممة بغل:

-لأ وشوفي القادرة، جاية تقعد هنا عشان تشمت في بنتي.

التفتت "ونيسة" ناظرة نحو "آمنة" التي اتخذت مقعدًا معزولاً عن المحيط

المزدحم، شتت نظراتها عنها، وقالت مدافعة عنها:

-بالعكس دي جاية تظمن عليها.

عنفتها "بثينة" بحدّة، وقد تلونت عيناها بحمرتها الغاضبة:  
إنتي بيخيل عليكي كهن النسوان ده؟ أشوف قلبها محروق على بناتها قريب.  
وضعت يدها على فمها تهتف في ارتعاب:  
حرام كده.. بلاش الدعوة دي!  
ارتفعت نبرتها الساخطة إلى حد ما وهي تقول:  
-لأ مش حرام مع الأشكال دي، هو أنا عندي أغلى من عيالي الاتنين؟ دخلتها  
كانت شوم علينا هي وبناتها الفقر!  
التقطت أذنا "هيشم" سبابها الأخير، فقال راجياً والدته، كي تكف عن ازدرائها  
العلمي:  
-خلاص يامه، المستشفى بيتفرجوا علينا.  
زجرته "بثينة" بغيظ:  
-غور من قدامي يا واد إنت، مش طايقاك.. عيلة مراتك جابوا أجل بنتي  
كان يعلم كراهيتها لـ "فيروزة"، لكنه رأى الحقيقة كاملة، فرد ببرود:  
-بلاش افتراء، أنا كنت واقف وشايف اللي حصل بعيني دول، "خلود" اللي  
حدفت نفسها وآ....  
قاطعته بوقاحة، رافضة الإصغاء له:  
-هو إنت بقيت بتشوف أصلاً؟ من ساعة ما اتبلينا بالجوازة الشوم دي!

.....

طابق تلك الفواتير التي تحصل عليها، بالأخرى المدونة في الدفتر الخاص بتسجيل المعاملات التجارية، لاحظ "تميم" اختلاف بعض الأرقام، لفواتير سابقة، وإن كانت النسب طفيفة، حك مؤخرة رأسه في حيرة، وواصل المراجعة الدقيقة، ليعرف سبب ذلك الخلاف؛ لكن قطع تركيزه نداء والده الصارم:

يا "تميم"! سيب اللي في إيدك وتعالى معايا.

رفع رأسه عن المكتب، وتطلع إليه بنظرات حائرة، قبل أن يسأله مهتمًا:

في إيه يا حاج؟

بدا صوته أكثر حدية وهو يرد:

من غير ليه، هتيجي معايا حالاً في المشوار ده.

أغلق "تميم" الدفتر، وأعاد وضع الفواتير بعد طيها في الدرج السفلي، ثم أغلقه بالمفتاح، وعلق عليه معترضًا:

ده أنا لسه هاطلع على سوق الجملة، في بضاعة هناك وآ....

قاطعته "بدير" بتجهم، لم يخفه:

خلي حد من الرجالة يروح مكانك، الموضوع ده مايستناش.

تطلع إليه باسترابة، وسأله مباشرة:

-وغوشتني يا با، حصل إيه؟

أجاب على مضض، ونظراته تتفرس في وجه ابنه، ليعرف ردة فعله:

-بنت خالتك وقعت من على سلم البيت، واتنقلت على المستشفى.

لم تتأثر ملامحه بما سمعه، بدت غير مقروءة، ومع هذا تساءل في اهتمام:

يا ساتر، وده حصل إزاي؟

أجابه بعد زفير:

-مش عارف لسه، خيلنا نروح نطمئن عليها، و...

تباطأت نبرته حين أكمل:

-وعلى ابنك اللي في بطنها.

أدرك من تبدل نبرته وجود خطب ما خطير، وليس الأمر مجرد حادثة عابرة، تبعه

متجهًا إلى سيارته، بعد أن أملى على أحد رجاله أوامره لينفذها، جلس والده في

المقعد الأمامي، واحتل "تميم" مقعده خلف الموقد، ليتجه بعدها إلى عنوان المشفى

المعروف، وهو يغمغم بتضرع:

عديها على خير يا رب

.....

تناقلت الأخبار سريعًا في تلك المنطقة الشعبية، وعلم الجميع بالحدث المأساوي

الذي تعرضت له "خلود"؛ لكن التفاصيل الحقيقية للحادثة، شابها الكثير من

الأغلاط والأقاويل غير الصحيحة، لإضفاء التشويق على تلك النوعية من الأخبار.

وصل "محرز" إلى المشفى، واتجه إلى الاستقبال ليستعلم عن حالة المريضة، دلته

إحدى الممرضات على عائلتها الجالسة في ردهة الانتظار المتسعة، وهناك اقترب

من الجد "سلطان" ليسأله بلهاث زائف؛ وكأنه جاء ركضًا:

ها يا جماعة، إيه الأخبار؟

رمقه الجد بنظرة غريبة، قبل أن يشيح بوجهه بعيدًا عنه، فأجاب "هيثم" عن جده، وهو يدعك يده وجهه المتعب:

لسه ما فيش جديد.

رد عليه بقليلٍ من التفاؤل:

-دلوقتي الدكتور يطلع ويطمنكم عليها.

هز رأسه معقبًا عليه:

يا رب يا "محرز".

تسلطت كافة الأعين على الطبيب الذي خرج لتوه من الداخل، مرتديًا زيه الأخضر، وذلك القناع الطبي يتدلى عن فكه، قاصدًا الاتجاه ناحيتهم، سألهم بنبرته الروتينية، وعيناه تتحركان على وجوههم القلقة:

-حضراتكم أهل المريضة؟

هبت "بثينة" واقفة بمجرد سماعها لصوته، وهرولت نحوه صارخة به:

-أيوه .. أنا أمها يا ضاكتور.

وقام "هيثم" بالتعريف أيضًا بنفسه:

-وأنا أخوها.

أشار الطبيب بيده نحو موظفي الاستقبال؛ وكأنه يوجههم للذهاب إلى هناك، وهو يتابع قوله:

طبيب عايزين توقيع حضراتكم على إجراء العملية.

تساءلت "بثينة" بصدري ملتاع، وملامح واجلة:

عملية إيه ياخويا؟ هي حالتها خطيرة للدرجاي؟

أطرق رأسه قليلاً، وأجاب بحذر:

للأسف، حصل إجهاض للجنين اللي في بطنها!

لطمت بعنفي على صدغيها، لتصبح بعدها في عويلٍ صارخ:

يا لهوي! يا لهوي! يا لهوي!

أوقف "هيشم" والدته عن التصرف بتلك الطريقة المؤلمة، وهتف بحزنٍ صادق على

شقيقته:

أهدى يامه.. ما ينفعش كده.

انضمت إليها "ونيسة"، ورجتها بصوتها الباكي:

حرام عليك ياختي، ده أمر الله!

التفتت "بثينة" نحو "سلطان" لتشاركه مصابها وصوتها لم يتوقف عن الصراخ

المزعج:

سمعت بنفسك يا حاج، حفيدك مات قبل ما يشوف الدنيا!

هز الجد رأسه للجانبين في أسفٍ واضح، وردد بصوتٍ خفيض:

لله الأمر من قبل ومن بعد.

بينما أردفت "آمنة" معلقة على ما تراه، ودون أن تتدخل بشكلٍ مباشر لمؤازرة

"بثينة":



جيب العواقب سليمة يا رب.

جوزك قالك حاجة؟

وجهت "فيروزة" سؤالها المهم لتوأماتها، والتي فرغت لتوها من مكالمة عاجلة مع "هيثم"، لتستعلم منه عن آخر المستجدات الخاصة بحالة شقيقته، رمت بجسدها المتعب على الأريكة إلى جوارها، ورفعت ساقها عن الأرضية لتضمها إلى صدرها، وشبكت ساعديها حول ركبتيها، وأجابتها بحزنٍ بائنٍ في نبرتها:

-أيوه، "هيثم" قالي الحمل مكملش.

ضغطت "فيروزة" على شفثيها في أسفٍ، توقعت حدوث ذلك، بعد سقطتها القوية، ثم حركت شفثيها لتتطق بهدوءٍ:

-ربنا يصبرها.

ردت عليها "همسة" بصوتٍ بدا مختنقًا نسيبًا؛ وتلك اللمحات الخاطفة عن معاناتها السابقة تدور في عقلها:

يا رب، صعب بصراحة على أي واحدة تخسر ابنها، وخصوصًا لو كانت مستنياه...

ثم انخفضت نبرتها إلى حد ما، لتكمل بخفوتٍ؛ وكأنها تُحادث نفسها:

-ما بالك بقي اللي نفسها في عيل، واحتمال ده ما يحصلش.

أرهفت "فيروزة" السمع لكلامها الأخير، وبدت غير راضية عن حزنها الواهي، لذا علقت عليها بنبرةٍ موحية:

-اللهم لا شماتة، شوفي هي عملت فيكي زمان إيه، وربنا أراد تجرب نفس الحكاية، سبحانه! ليه حكمة في اللي حصل!

تنفست "همسة" بعمق، لتخفق تلك الغصة العالقة في حلقها، وتساءلت في حيرة:  
-الواحد بس مستغرب، هي عملت كده ليه في نفسها؟

أجابت وهي تفرد ذراعها على حافة الأريكة، لتغوص أكثر بها:

-معرفش، بس من الأول يا "همسة" كانت قاصدة تتخانق معانا، كأنها بتقول شكلا للبيع، أنا وماما كنا طالعين عادي عندك، وهي زي ما يكون واقفة مستنيانا، وقلت أدبها جامد علينا، بصراحة كده أنا حاسة إنها كانت مستقصداني بالحكاية دي.

عقدت "همسة" حاجبيها في اندهاش، واستنكرت تفكير "خلود" اللثيم، لتقول معترضة:

-مش للدرجادي، ربنا يهديها لنفسها.

أضافت عليها "فيروزة" بتنهيدة:

-ويبعدها عننا..

ساد الصمت للحظات بين الاثنتين، قبل أن تقطعه "همسة"، وهي تحل وثاق ساعديها، لتسترخي في جلستها:

-قوليلي إنتي مالك؟ من ساعة ما رجعتي وأنا حساكي في حاجة، بس مش عارفة إيه هي!

ادعت الابتسام لتخفي ما يعتربها من ضيق وانكسار، لتقول بفتور:

-أنا بخير.. متقلقيش عليا.

غمزت لها متسائلة في إلحاح:

-وأخبار قراية الفاتحة إيه؟ أنا عايزة أعرف كل التفاصيل، وبعدين العريس جابلك دبله ولا لأ وآ....

قاطعتها بعبوس غريب:

-مافيش نصيب يا "همسة".

بهتت ملامحها تقريبًا من ردها الصادم، وسألتها وقد اعتدلت على الأريكة، لتبدو أكثر قربًا منها:

ليه؟

غطت على ما تريد البوح به بمراوغتها:

-بعدين نبقي نتكلم عني .. المهم حماتك عاملة إيه معاكي؟ أنا اتفاجئت إنها لسه موجودة هنا.

نفخت "همسة" مرددة باستياء شديد:

-أعوذو بالله منها، دي ماسبتناش للحظة من يوم السبوع، زي ما يكون قاصدة تخرب عليا أنا و"هيشم" .. ولسه قبل ما تيجوا دابة خناقة معايا، بوظت الغسيل، ومتهماني فيه.

علقت عليها "فيروزة" بتهمك صريح:

-وطبعا بنتها نسخة عنها، وجوزك بيعمل إيه بقى؟

أجابت دون تشكيك في موقفه الداعم لها:

-الصراحة "هيشم" واقف على طول في صفي، تقريبًا مامته هتتنقط منه.

ردت عليها توأمتها بإيماءة خفيفة من رأسها:

-ربنا يبعد شرها عنكم.

يا رب، أنا هاكلم ماما أطمئن برضوه منها على الوضع.

قالت "همسة" جملتها تلك، وهي تنحني للأمام، لتمسك يهاتفها المحمول، وتعبث

بأزراره، في حين هتفت شقيقتها ترد باقتضاب:

-ماشي.

.....

بنظراتٍ حذرة جالت على الرواق المزدحم، انتظر هدوء الحركة من حولها، ليتقدم

ناحيتها؛ وكأنه يتفقد أحوالها، بشكلٍ طبيعي، لا يدعو لإثارة الريبة حول تصرفه،

مال "محرز" نحو "بثينة"، ليبدو صوته قريبًا من أذنها، وهو يهمس لها:

-عاوزك على جمب في كلمتين يا خالتي.

حملت فيه بغرابة، ولم تجادله، تبعته إلى حيث توقف، بالقرب من مدخل

المشفى، واستطردت تنوح له بشكواها:

-شوفت اللي حصلنا يا "محرز"؟

رد مواسيًا:

-أيوه، وقلبي عندك يا خالتي.

حركت كامل جسدها في اهتزازة ثابتة للجانبين، متابعة نديها الشاكي:

خسرنا كل حاجة .. كله في ثانية راح!

هز رأسه مؤكداً:

-ربنا هيعوضها قريب، البطن اللي شالت مرة هتشيل عشرة

هتفت باستنكارٍ جلي:

إزاي؟ والمعدول ابن خالتها رافض يرجعها، والعيل خلاص نزل، إيه اللي هيجبروه  
يرجعها ثاني؟

برقت عيناه بوهجٍ عجيب، وقال عن ثقة واضحة:

-أنا عندي الحل..

وكأنه امتلك زمامها في غمضة عين، هتفت مستنجدة به:

قولي بسرعة عليه يا "محرز"، إلهي يسترك.

رد مبتسماً بغرور:

-متقلقيش..

ثم قست عينها وهي تتابع بغلٍ، ونظراتها مثبتة على "آمنة":

-نفسى أشوف الولية اللي هناك دي متحسرة على بناتها قريب

لاحت بسمة مأكرة على زاوية فمه، حين رد بنفس النبذة الواثقة:

-هيحصل يا خالتي، وبكرة أفكر...

تحولت نبرته للغموض الجاد، وهو يكمل:

-بس ده لو سمعتي اللي هاقولهولك، ونفذتية بالحرف!!  
لم تجادله، وهتفت مبدية استعدادها التام للانصياع له:  
قول!

للحظة تلفت "محرز" حوله، ليتأكد من عدم مراقبة أحدهم له، قبل أن يرد قائلاً:  
-مش هاينفع نتكلم هنا، الشيطان ليها ودان، لازم نمشي الأول من المكان ده.  
تقلصت تعاير وجهها بشدة، وعلقت في استهجان؛ وكأن طلبه لم يروقها:  
-وأسيب بنتي لوحدها؟! ده كلام بردك!؟

أصر عليها بجديّة أشد غلفت نبرته، وغطت ملامحه:  
-مش هنتأخر كثير، إنتي أصلاً محتاجة تجهيلها غيار عشان لازماً هتبات في  
المستشفى، مش هيرضوا يطلعوها على طول.  
لانت تعايرها قليلاً، وردت بزفير مهموم:  
-أيوه، في دي معاك حق، منهم لله البعده.  
وضع يده على جانب كتفها، ليحثها على التحرك، وتابع:  
-تعالى هوصلك، وتتكلم في الطريق.  
سارت معه إلى حيث قادها، ولسانها يسأله:  
-ماشى.. بس عايز منى إيه؟

جاء رده عاديًا، وهو ينظر في اتجاهها:

-دي حاجة عادية، أمانة تبع الناس اللي ممشيالنا شغلنا في الدكان الثاني، هاشيلها عندك كام يوم.

رفعت حاجبها للأعلى في تعجب، وسألته بوقاحة:

-وماتسيبهاش ليه في بيتك؟ ما إنت عندك خزنة أد كده!

استنشق الهواء بعمق، ولفظه مليًا، ليثبط مشاعر السخط بداخله. برع في رسم تلك الابتسامة السمجة على محياه، وهو يحاول إقناعها بالقبول مبررًا:

يا "أم هيثم"! ده كلام بردك؟ وأنا اللي بأقول عليكى مخك نور، أسيبها عندي، و"هاجر" تخشلي في سين وجيم؟

تلمست طرف حجابها الذي استرخى عن كتفها، وألقته عليه مجددًا، وهي ترد: معاك حق.

قضى "محرز" على ابتسامة انتشاءٍ تداعب ثغره، وردد صوته الرخيم:

-تعالى عشان ما نتأخرش، وأقولك هنعمل إيه في سكتنا.

برزت تلك النظرة البغيضة في عينيها، وهي تدمدم بإيجاز:

طيب.. أما نشوف آخرتها.

.....

ربتة خفيفة من جده، تلقاها على كتفه، كنوع من المواساة، بعد أن أخبره بفاجعة إجهاض طفله الذي لم تكتب له النجاة، من تلك الحادثة العرضية المؤسفة، وقاصدًا

عدم التطرق -مؤقتًا- لتفاصيل سقوطها عن الدرج، إلى أن تهدأ مهاجه الحزينة. لم يجد "تميم" ما ينطق به معبرًا عما يشعر به حاليًا، فواحدٌ غيره، لانفطر قلبه لمُصابه العظيم، وهاج وماج لخسارته أعز ما ينتظره؛ ولكن رغم مشاكله الأخيرة مع طليقته، بكل ما فيها من سخط وبغض، طفت أحاسيسه المتأثرة عليه، وكان تقبل خسارته المؤلمة، هو الخيار الوحيد المتاح له، استدار برأسه نحو والده الذي عزاه قائلاً:  
-ربنا يعوض عليك يا ابني، ده حكمته وقضائه.

لعق شفتيه، وهتف بنبرة تعسة، وتلك اللمعة الرطبة تتسلل إلى طرفيه:  
-ما يعزش على اللي خلقه.

علق الجد "سلطان" بجديّة:

-مسيرك تتجوز تاني وتجب العيال اللي نفسك فيهم.

نظر إليه بعينين مليئتين بالحزن، وقال بلمحة متأثرة:

خلينا نطمئن الأول على بنت خالتي، أيًا كان اللي حصل بينا، هي بردك كانت مراتي في يوم من الأيام، واللي في بطنها كان ابني.

رد والده في امتنان:

-طول عمرك بتفهم في الأصول يا ابني.

من المعروف في الشريعة الإسلامية، وحين يتم إجهاض أحد الأجنة، أن يقوم فرد من الأسرة، بدفن البقايا، ولهذا كان من البديهي أن يتصرف "تميم" وفقًا لذلك. ابتلع غصة مريرة كالعلقم في جوفه، وأضاف بصعوبة، محاولاً إظهار صلابته وتماسكه:



هاروح أسأل استلمه منين عشان أدفنه.

أنا جاي معاك.

هتف "هيثم" بتلك العبارة وهو يقترب منهم، ثم تبادل بعض الجمل المقتضبة مع ابن خالته، كنوع من المواساة، وعرف منه بعض التفاصيل المتكررة، حيث اختلت قدم "خلود" عن حافة الدرج، خلال تواجدها عليه، وغفل الأول عن ذكر المشاحنة المفتعلة التي وقعت، ظن أنه لا طائل من تناول الحديث عنها الآن؛ لكن الجد أردف قائلاً فجأة، ليضع النقاط على الحروف، وليكمل المشهد المنقوص:

بس غريبة حكاية خناقة أختك مع جماعة مراتك يا "هيثم"، إيه اللي خلاها تطلع من البيت عندنا، وتقلهم على السلم؟

برزت عينا "تميم" على اتساعهما في صدمة، وحملق في جده باندهاش زاهل، بينما رد عليه "هيثم" بعفوية

-ولا أعرف يا جدي، هي كانت ماسكة في أخت "همسة"، وحلفانة ما تسبها

تضاعفت دهشة "تميم"، وانتفضت كامل حواسه الكامنة، لتعمل بكل طاقتها، وجد نفسه يهمس بتلقائية، بصوت بالكاد خرج من بين شفثيه؛ مستشعراً تورطها -رغمًا عنها- في الأمر:

- "فيروزة!"

تابع "هيثم" موضحاً بنبرة حائرة، ومستخدماً يده في الإشارة والتوضيح:

-أحنا سمعنا صوت الخناقة على السلم، طلعلنا كلنا نشوف في إيه، بس كان حصل اللي حصل بقي، و"خلود" ملحقتش نفسها.

المزيد من التفاصيل الغائبة عادت لتحتل المشهد، وتملاً رأسه بالشكوك، كان لديه عشرات الأسئلة يريد الاستفهام عنها؛ لكن تعذر عليه فعل ذلك بسبب مجيء الطبيب، توقفوا عن الثرثرة ليبادر "هيثم" متسائلاً:

-إيه الأخبار يا دكتور؟

أجاب مُبينًا طبيعة وضعها الصحي:

-الحمد لله الحالة دلوقتي مستقرة، لكن العمود الفقري عندها اتعرض لحاجة بنسبها "الكسور الانضغاطية"، وده حصلها نتيجة وقعها العنيفة.

تبادلوا نظرات حائرة فيما بينهم؛ لكن كان "تميم" الأسبق في الاستفسار:

-يعني إيه؟

التفت الطبيب برأسه نحوه، وأوضح له:

-يعني مش هاتقدر تمشي بشكل طبيعي في الأول!

وقبل أن يسيئوا فهمه، بادر مستفيضًا:

لكن ده مش معناه إنها عاجزة لا سمح الله، هي بس هتضطر في البداية تستخدم حزام طبي، مع الأدوية المسكنة، وأدوية مرخية للعضلات، بحيث تقدر الفقرات تقوم بعملها من تاني، ولازم الراحة التامة، ويكون في متابعة مع دكتور متخصص في العلاج الطبيعي، وده عشان يساعدها في تخفيف الآلام اللي عندها، وكمان يقوي العضلات بحيث ترجع تمشي وتتحرك عادي جدًا.

رد "تميم" دون تفكير:

هنعمل كده يا دكتور.

تصنع الطيب الابتسام، وقال وهو يمسح بيده على ذراعه:

-وربنا يطمنكم عليها.

رد "هيشم" مجاملاً:

-متشكرين.

كان من السخيف أن يلح "تميم" بأسئلته في الوقت الحالي على "هيشم"، نحى فضوله جانباً، فهناك أوقات حرجة لا تصلح سوى للصمت، تناول الوصفة الطبية من الطيب ليأتي بالأدوية المطلوبة، ليعود بعدها، ويجلس بجوار والدته، والتي لم تتوقف عن الشكوى، وإلقاء اللوم عليه لتقصيره في حق رعاية من كانت في يومٍ ما زوجته.

.....

نظرة أخيرة ألقتها على هاتفها المحمول، وقد أصبح الوقت متأخراً لتعود بمفردها إلى المنزل، ومع هذا لم تحبذ "آمنة" الرحيل مبكراً، آملة بتواجدها أن تخفف من وطأة الأمر على أصحابه، بدأ جسدها في الأنين من جلوسها غير المريح، فاضطرت أن تنهض من مقعدها، وتتجه إلى أفراد العائلة لتستأذنها في الذهاب، تنحنحت لتزيح تلك الحشيرة عن أوتارها، ووجهت حديثها للحاج "بدير"، ووالده، مرددة بتلعثم:

-حمدلله على سلامتها.

رد بإيماءة بسيطة من رأسه:

-الله يسلمك يا حاجة.

بينما عقب عليها "سلطان" بصوته الأجش:

-كتر خيرك، تاعبة نفسك طول اليوم معانا.

دون أن تبحث عن الإجابة، ردت بعفوية:

-دي زي بنتي، وربنا يتمم شفاها على خير.

شكرها "بدير" بلطف:

يا رب، وتسلمي يا حاجة مرة ثانية.

ثم نادى عاليًا:

-روح يا "تميم" مع الحاجة وصلها البيت.

نظرت في اتجاه ابنه الذي نهض من جوار والدته على مهل، فاستدارت تنظر إلى

"بدير"، واعترضت عليه بحرج ظاهرٍ عليها:

-مالوش لزوم، أنا هاخذ تاكسي من هنا وآ....

قاطعها بإصرار:

-لا مايصحش، ده العربيات كتير عندنا.

تقدم "تميم" نحوها، وأشار لها بالتحرك بيده، وهو يدعوها:

-اتفضلي.

حاولت أن تبتسم وسط حرجها، وقالت وهي تهم بالسير:

-كتر خيرك يا ابني.. أنا مش عارفة أقولك إيه؟!!

هز رأسه قائلاً بصوتٍ عبر عن حزنه:

-الحمد لله، ده قضاء ربنا.

.....  
لم تكن بالمسافة الكبيرة التي تحتاج لسيارة أجرة لتقلها إلى منزلها، قطعت "فيروزة" الطريق عائدة إلى هناك سيرًا على الأقدام، دهشة عجيبة نالت من تعبيراتها الواجمة حين رأت إحدى عربات الشرطة تسد المدخل، أسرع في خطاها، وتساءلت بصوتٍ شبه لاهث، وعيناها تدوران على أفراد الشرطة المتواجدين من حولها:

-إتو مين؟ بتسألوا على حد معين هنا؟

اتجهت نظراتها نحو صاحب الصوت الخشن الذي سألها برسمية بحتة:

-أيوه.. ده بيت "فيروزة أبو المكارم"؟

لم تفكر وهي تجاوبه معرفة بنفسها:

-أيوه.. دي أنا.

قبضته القاسية، انقضت دون إنذار، على ذراعها تجذبها بعدائية غريبة، وتجرها نحو السيارة، وصوته يأمرها:

-تفضلي معانا، الطابط عايزك في القسم.

قاومته متسائلة في جزع:

ليه في إيه؟ أنا معملتش حاجة أصلاً.

ولحسن حظها -ربما- كان قد وصل بوالدتها إلى منزلها، لمح الأضواء المميزة لسيارتهم، فتوقف قلبه عن الخفقان في هلع، سد "تميم" بسيارته الطريق على عربة

الشرطة، وترجل منها دون أن يوقف محركها، ليهاجم بلا تفكيرٍ على الضابط، منتشلاً ذراعها من قبضته، ومُكوّناً بجسده حائلاً بينها وبينه، قبل أن يهتف بنبرة كانت أقرب للزئير:

إيه اللي بيحصل هنا؟ وواخدينها على فين

رمقه الضابط بنظرة نارية، وهو يعنفه:

إنت إزاي تتجرأ تعمل كده؟ ليلتك سودة

سيطرت عليه رغبة عارمة في حمايتها من الخطر؛ وإن كان يعني هذا وقوعه في المشاكل مع الجهات الأمنية المسؤولة، بجهدٍ كبير حافظ على جمود تعابيره، وقال بتحفظٍ، ومدافعاً عنها بشكل غريب:

يا باشا مقصدش، بس في أكيد سوء تفاهم هنا، الأبله طول عمرها ماشية في السليم.

تفاجأت "فيروزة" من دفاعها عنها، رغم عدم معرفته مثلها بملابسات إلقاء القبض عليها، في حين احتضنت "آمنة" ابنتها، وحاوطتها بذراعيها، وتساءلت في رعبٍ جلي:

حصل إيه؟ وواخدين بنتي ليه؟

أجاب الضابط ببسمة ساخطة، وبعد نظرة بطيئة فاحصة، تجولت على أوجه ثلاثتهم:

ده استدعاء رسمي للقسم، في بلاغ متقدم ضدها، بمحاولة قتل "خلود غريب".

بمجرد أن تلفظ باسم طليقته، انفرجت شفتا "تميم" عن صدمة كبيرة، تخطت ما قد يخطر في باله مُطلقًا، وهتف مستنكرًا قوله، بقلبٍ توقف لحظيًا عن النبض، ونظراته تلتفت نحو طاووسه:

-بتقول مين .....!!!!؟

.....

## الفصل الثامن والخمسون

قبضة الغريب على ذراعها، بدت بالنسبة له، كجمرات متقدة، تحرق جلده بقساوة، وأشد ألمًا من طعنه بغتةً في صدره، لم يتردد للحظة للدفع بنفسه أمام المخاطر المهلكة، في سبيل عدم إلحاق الضرر بها. تشوش تفكيره في صدمة؛ وكأنه أصيب بعطبٍ ما، حتى استوعب عقله ما صاغه الضابط من اتهامٍ صريح من قبل زوجته السابقة لها، التفت "تميم" تلقائيًا برأسه نحوها، ليحدق في وجهها المغطى بعلامات الدهول، ثم عاود التحديق في الضابط، ونفى التهمة عنها دون الحاجة لسماع أدنى مبرر منها، مصدقًا إياها بكامل جوارحه:

-استحالة الأبله تعمل كده! أكيد في غلط في الحكاية!

نظر له الضابط شزرًا، قبل أن يوبخه بخشونة:

-هو أنا جاي أهزر معاكو هنا؟ ده استدعاء رسمي يا حضرت.

لم تخفت الحدة من نبرة "تميم"، وهو يجادله:

-يا باشا، أنا عارفها كويس، الأبله دايمًا في حالها، وعمرها ما أذيت حد ...

استمعت له "فيروزة" بصدمة، أنكرك حقًا النزاعات السابقة بينهما، وكأنهما على وفاق منذ اللقاء الأول؟ تدلى فكها السفلي في مزيدٍ من الدهشة، في حين تلثم "تميم" نوعًا ما، وهو يتابع إعطائه تلك المعلومة المزعجة:

-دي غير اللي بتتهمها تبقى .. بنت خالتي و..... طليقتي.

رمقه الضابط بنظرة طويلة مهمة، ليضيف بعدها، وهو يفرك راحتيه معًا:



حلو أوي .. هنشوف الكلام ده في القسم، لكن دلوقتي لازم الأستاذة تتفضل معايا.

لم يكن حديث الضابط بالمازح مطلقًا، نظراته وحركته أكدت على احتمالية جره لها بإهانة، ما لم تتجاوب معه، أدار "تميم" رأسه نحو "فيروزة" التي نظرت إليه بملء عينيها، وقالت بصوتٍ لاهث مضطرب نافية التهمة مجددًا عنها:

-أنا معملتش حاجة اقسم بالله.

عمق نظراته في عينيها المرععتين؛ وكأنه لا يرى سواها حوله، ورد بقلبه قبل أن ينطق لسانه:

-من غير ما تحلفي، أنا مصدقك.

لم تشعر "فيروزة" مطلقًا بأنه يخدعها، أو يكرر تلك العبارات الروتينية المستهلكة التي توحى بالدعم الزائف، بل منححتها نظراته المتلهفة، والمليئة بشيء لم تفهمه بالضبط، إحساسًا مريبًا بالطمأنينة والصدق، هذا الشعور الذي نزع منها مؤخرًا، بينما هتفت "آمنة" مدافعة عنها:

-بنتي بريئة، مظلومة يا حضرت الطابط، مراته هي اللي وقفت قصادنا على السلم وآ...

قاطعها الضابط بلهجته الرسمية، ونظرته الحادة مسلطة عليها:

-هناخد أقوالكم كلكم كده هناك...

ثم أشار بكفه موجهًا حديثه الصارم لـ "فيروزة":

-بس الأستاذة لازم هتيجي معانا الأول، يالا، مش هنقضي الليل واقفين هنا!

على الفور صاح "تميم" وهو يفرد ذراعيه في الهواء، محافظًا على بقاء جسده، كحائل بشري، يمنع أي فرد من الاقتراب بها:

هي هتربك من غير ما حد يتعرضلها.

بدا الضابط على وشك فقدان صبره من تلك المماطلات السخيفة، ومع هذا تقبل بصعوبة محاولة "تميم" إقناع "فيروزة" بالامتثال للأوامر، والصعود لعربة الشرطة، سار إلى جوارها، وكامل عيناه عليها، حتى أنها لم تبعد نظراتها عنه، بل بدت أكثر إصرارًا على التحديق به وهي تكرر على مسامعه:

أنا مجتش جمبها، والكل كان موجود وشاهد.

رد بكلمة واحدة عنت لها الكثير:

عارف..

ثم أشار لها لتصعد بالسيارة، وتابع بصوته القلق:

اطمني، أنا وراكي بالعربية، مش هاسيبك لوحك.

هتفت بنبرته التي مالت للاختناق:

ماعملتلهاش حاجة.

هز رأسه بإيماءات متعاقبة وهو يخبرها بتوترٍ خائف عليها، حاول أن يخفيه عنها:

أنا متأكد من غير ما أسمع.

حاولت "آمنة" اختراق أفراد الأمن لتصعد إلى السيارة مع ابنتها، لكن أبعدها

أحدهم، فواصلت صراخها الملتاع، وهي ترجوهم بشدة:

-سيبو بنتي، هي مظلومة، والله ما عملت حاجة.  
وضع "تميم" يده على كتفها ليلفت انتباهها إليه، وقال على عجلٍ مشيرًا بعينه نحو  
سيارته:

-تعالى معايا يا حاجة، احنا رايجين وراها بالعربية.  
ردت بامتنانٍ عظيم، وعيناها تبكيان بشدة:  
-الله يكرمك يا ابني ماتسيناش لوحدنا، ده احنا غلابة وآ...  
قاطعها مرددًا بنبرة عازمة:  
-أنا معاها للآخر.

ثم هرول ركضًا نحو سيارته التي تسد الطريق على عربة الشرطة، استقلها، وانتظر  
للحظة حتى ركبت "آمنة" إلى جوارها، تتبع سيارة الشرطة، والهاتف على أذنه، بعد  
أن هاتف محامي العائلة، انتظر أن يأتيه رده على أحر من الجمر، ليهتف بمجرد  
سماعه لنبرته:

-الوو.. أيوه يا أستاذ، عايزك تيجلي على قسم (...). حالاً، هافهمك لما أشوفك  
هناك.

وفي تلك الأثناء، أخرجت "فيروزة" هاتفها المحمول من جيبها، بمجرد أن استقرت  
في العربة، لتطلب بأنامل مرتعشة، رقمًا احتفظت به، ولا تحبذ حتى استخدامه  
عند الطوارئ؛ لكنها باتت مرغمة على اللجوء لصاحبه، لتعرف أبعاد الكارثة الجديدة  
التي تخوضها، ارتجف صوتها بوضوح، وهي تنطق بنبرتها التي ظهرت للطرف الآخر  
متوسلة:

-أيوه يا "ماهر" بيه، أنا أسفة إني بأطلب حضرتك، بس في مشكلة كبيرة حصلتلي، وما فيش غير سعادتك يقدر يقف جمبي.

.....

لم تكن عيناه على الطريق أبدًا، طوال سيره الملازم لعربة الشرطة، وهو يقود من خلفها، ارتكزت نظراته القلقة على مراقبة ما يحدث معها، آملًا ألا تتعرض لأي نوع من المضايقات السخيفة من قبل أحدهم، أبعد حدقتيه عنهن مضطرًا، حين توقفت السيارة أمام القسم الشرطي، ففتش، بصبرٍ مفقود، عن بقعة خالية، ليصف سيارته عندها، وهذا ما أدى لتعطيله لدقائق تُعد على أصابع اليد الواحدة، مضت عليه كأنها سنوات، أما قلبه فكان في جزع يفتك به.

ركض "تميم" في اتجاه المدخل الرئيسي، سابقًا بخطواته والدتها، انحرف نحو الرواق الضيق، حيث يتواجد مكتب الضابط النبطشي، كان أحد العساكر قد وضع في يدها الأصفاد المعدنية، وكأنها محكوم عليها، استشاطت نظراته لرؤيتها في وضع المدانة، وهي أبعد ما يكون عن ذلك، تصلب جسده، وبصعوبة بدت على ملامحه قاتل ما يعتريه من مشاعر غاضبة، ودنا من الضابط الذي ألقى القبض عليها وهو يعطي أوامره لآخر:

هنحطها في الحجز لحد ما يجي الباشا "محمود".

مجرد تخيلها وسط تلك الحفنة من النساء الغليظات، والتي لن تسلم من تعليقاتهن المتهمكة، وربما بعد المناوشات المسيئة معها، أصابه بالغضب المحموم، اكتسبت نبرة "تميم" حدة أكبر وهو يعترض بشدة على قراره:

-ماينفعش تنزل هناك.

تحفز الضابط ضده، وهتف فيه بوجه عابس للغاية:

-إنت هتتعرفني شغلي ولا إيه؟!!

رد "تميم" معترضًا بأنفاس حارقة، ونظراته الملتاعة تتجه نحو "فيروزة":

-لأ يا باشا، بس دي بنت ناس، ومش وش بهدلة.

علق عليه الضابط ساخرًا منه:

-آها .. قولتلي بقى، وإنت المحامي بتاعها كمان وأنا معرفش؟!!

بذل أضعاف ما يستطيع من جهد ليكبت غضبه الذي يأكله، ليظهر على السطح،

وقال بصوتٍ خرج هادرًا رغم هذا، والشرر يتطاير من عينيه:

-يا باشا آ ...

قاطع الضابط بغلظة، وتلك النظرة الساخطة موجهة إليه:

-دي جريمة قتل، مش لا مؤاخذة خبطت عربية حد!

نفى عنها التهمة بإصرارٍ تعجبت "فيروزة" منه:

-وهي بريئة معملتش حاجة.

لكزة الضابط بخشونة قاسية في صدره وهو يرد بأسلوبه الساخر:

-الكلام ده مش إنت اللي تقوله يا فتوة.

ثم التفت أمرًا أحد رجاله:

-خدها يا ابني على التخشبية، لحد ما يجي الباشا "محمود".

فشل "تميم" في منعهم من اصطحابها للحجز النسائي، ومع هذا ردد متعهدًا لها بصوته العالي ليضمن وصوله إليها:

-مش هاسيبك هناك، هاطلعك!

تفاجأ حين ردت عليه، وهي تحاول النظر إليه، خلال سحبها لنهاية الردهة الطويلة:

-معملتش حاجة، هي السبب والله، هي اللي قاصدة تعمل كده في نفسها.

ضرب "تميم" الحائط بقبضته بقوة، حتى أن صوت الضربة العنيف لفت الأنظار إليه، لم يعبأ بأي أحد، ووضع الهاتف على أذنه صارخًا في محاميه؛ منذرًا إياه بتهديد شرس:

-الوو.. إنت فين يا أستاذ؟ جاي من المريخ ولا إيه؟ تعالى أوام، وإلا الدنيا هتخرب هنا!!!

أتاه صوت الأخير لاهتًا:

-حاضر يا معلم "تميم"، دقائق وهاكون عندك في القسم.

.....

-رد يا "خليل"، مافيش مرة أطلبك وألاقيك ترد عليا!

قالت كلماتها في غممة خافتة بلوعةٍ حزت بشدة في قلبها، ودموعها المتحسرة تهبط بغزارة، سعت للاتصال بشقيقتها؛ لكن تعذر عليها الوصول إليه، لم يكن هاتفه بالمتاح، شعرت باختناق أنفاسها، بعجزها، وبقلة حيلتها. انزوت "آمنة" عند الحائط الرمادي كئيب اللون، تستند بجسدها المهتز عليه، شعرت بارتخاء ساقها، لو لم

تكن تلك الكتلة الأسمنتية موجودة، لربما تكورت على الأرضية الباردة، نذبت  
حظها التعس ووحدها قائلة لنفسها:

-لا إله إلا الله، طب أعمل إيه يا ربي؟ بنتي هاتروح مني؟ وأنا هافضل كده  
ساکتة..

لم يكن أمامها سوى الاتصال به، هكذا قالت لنفسها بصوتٍ مسموع، مبررة نكتها  
بوعدها لابنتها:

-مقدميش إلا هو... مهما كان الدم عمره ما يبقى مياه.

وجدت رقم هاتفه، وضغطت على زر الاتصال به، انتظرت إجابته على مكالمتها  
لتهتف مستنجدة دون استهلال:

-أيوه يا حاج "اسماعيل" .. أنا واقعة في عرضك.. الحقنا قبل ما بنتي تضيع مني.

سألها بصوته الرخيم:

خير؟ حصل إيه؟

أجابت بصوتٍ بالكاد بدا مفهومًا له، من بين دموعها الغريزة:

- "فيروزة" خدوها على القسم، واقعة في مصيبة كبيرة، وأنا مش عارفة أعمل إيه.

أمرها بلهجته الشديدة:

قوليلي فين العنوان، ومتتحركيش من عندك، وأنا مسافة الطريق هاكون عندك،

ومعايا "فضل".

هزت رأسها، كأنه واقفٌ أمامها، وردت بصدرٍ ينهج:

-ماشي يا حاج، متتأخرش عليا الله يكرمك.

دفعة قاسية من كتفها نحو ذلك المكان المعتم نسيبًا، إلا من مصباح يتيم يتدلى بسلكٍ قصير، من سقفة الغرفة المطلية بلون رماديٍ داكن، تفسده بعض الخربشات والكتابات الخجلة. حاولت "فيروزة" أن توازن خطواتها فلا تنكفي على وجهها، زكم أنفها تلك الرائحة العطنة المنفرة، وأصابت على الفور معدتها بالغثيان، فالجو خانق بصورةٍ لا تحتمل، لذا وضعت يدها عليه لتسد الرائحة، وحاولت التقدم للأمام. نظرة بطيئة، لن تنكر أنها خائفة أيضًا، منحتها للسجينات المحتشدات من حولها، دارت ببطءٍ على أوجههن المختلفات في تعبيراتهن نحوها؛ رأت من تدخن السجائر، ومن تعبت بخصلات شعرها المصبوغ باللون الأصفر الفاقع، ومن تعلق في ثغرها علكة بصوت مزعج، ومن تضع أحمر الشفاه على فمها، بشكلٍ سافر.

توقفت عيناها عن الدوران، والتفتت لجانبها، حينما سألتها إحداهن بنبرة تهكمية:

-الحلوة جاية في إيه؟ آداب ولا تعاطي؟!؟

بينما علقت أخرى بسخرية، وتلك الضحكة الرقيقة تسبق إجابتها:

-شكلها آداب يا أوخة.

مصمصت شفيتها مضيئة، ونظرتها نحوها تؤكد أنها كذلك:

-باين كده.

ثم دنت منها لتفحصها عن قرب، انكمشت "فيروزة" على نفسها، وتقرزت من لمستها الوقحة التي أرادت بها اكتشاف مفاتها، وصرخت بها:



-ماتلمسنيش.

دارت المرأة حولها، وحذرتها بنبرة ذات مغزى:

-لأ بالراحة علينا يا مُزة، ده احنا لو اتكاترنا عليكى هنفرمك.

تلك التحرشات اليدوية بجسدها، نشطت ذاكرتها بقوة، بمشهد لم يكن بالبعيد عنها، انتفضت بقوة، ودفعت تلك المرأة بعيدة عنها، بقوة لا تعرف من أين انطلقت، صارخة بحدّة، حتى جرحت بها أحبالها من ارتفاعها الشديد:

-سيبوني في حالي.

لوحث لها إحدى السجينات بيدها، قبل أن تعقب:

-نظام خدوهم بالصوت مايكلش هنا ...

ثم أمرت النساء من حولها:

صوتي يا بت منك ليها

ارتفع الصخب النسائي الساخر من حول "فيروزة"، وشكلوا دوائر تضيق عليها، فباتت تقريبًا محاصرة من قبلهن؛ لكن الصوت الرجولي الصارم، أوقفهن قبل أن يسيئن إليها:

-ارجعي يا حُرمة ورا.

امتلئن لأمره، وابتعد عن محيط "فيروزة" ليرمقن إياه بنظرات جمعت بين العدائية والبغض، خاصة أنه يحمل عصا مهددة بيده، مرر الضابط نظراته عن كل واحدة على حدا، وكأنه يدرس ملامحها، قبل أن ينادي:

- "فيروزة أبو المكارم!"

وكان نجدة هبطت من السماء إليها، أجابته بلسان يلهج:  
أيوه أنا.

أمرها وقد اتجهت أنظاره نحوها:

تعالى معايا، البيه الضابط عايزك.

ابتسمت لخروجها من ذلك المكان الحثير، والذي بدا أشبه بمعجزة تقرأ عنها؛  
ولكن صوتًا أثويًا متهمًا جاء من ورائها يحقد عليها:  
إنت لحقتي؟ حتى في البورش بقي فيها كوسة!!!

.....

تم الاستعانة بعلاقاته الوثيقة بالمسؤولين رفيعي المستوى، لتحسين أسلوب التعامل معها، ريثما يتم البت في قضيتها المعلقة، اصطحبها أحد أفراد الأمن، إلى غرفة أشبه بمكتبٍ لعقد الاجتماعات المحدودة، ولجت "فيروزة" للداخل، وألقت نظرة سريعة خاطفة عليه، كان المكان مفروشًا بالأرائك الجلدية العريضة، فيما عدا اثنتين متجاورتين، ومنضدة صغيرة خشبية تتوسطهم، وطلائه فاتح، غير ذلك القابض على الأنف، استدارت كليًا للخلف حين سمعت صوته المألوف يسألها في اهتمام بائن في نظراته إليها:

هنا أحسن مضبوط؟

تخرجت "فيروزة" من وجود "تميم" خلفها، ومع هذا شعرت بالارتياح لتواجهه معها، الحق يُقال أنه بات مصدر أمنها المؤقت، باندفاعه غير المشروط لزود أي

مخاطر عنها، تراجعت للخلف لتفسح له المجال، تاركة مسافة بينهما، كتفت ساعديها أمام صدرها، وباعدت نظراتها عنه، محاولة التحديق في أي شيء، إلا وجهه، أجبرت شفتها على الابتسام، فظهرت ابتسامتها منقوصة وهي تشكره:  
-أيوه.. كتر خيرك.

ولكونه يعلم طبيعة النساء المحتجرات بالقسم الشرطي، فاتتابه هاجس مزعج، من احتمالية تعرضها لبعض المضايقات، أو التحرشات المنفرة من هؤلاء النسوة، لم يترك نفسه لحيرته، وسألها مباشرة، وعيناها تدرسان تفاصيلها الواجمة:

قوليلي حد عملك حاجة من الواغش اللي في الحجز؟

قالت بنوعٍ من السخرية، وتلك الابتسامة المزدرية تتدلى على زاوية شفتيها:  
-لأ ملحقوش.

منع سبة مزعوجة من الإفلات من فمه، وسحب الهواء بعمق ليثبط به تلك الحمم التي تحرقه من الداخل، ثم لفظ الهواء المحمل بغضبه، وقال بوجه مقلوب:  
-بصي إنتي هاتفضلي هنا، محدش هيضايك نهائي!

كانت ممتنة لكل ما يفعله لأجلها دون أن يضطر حقًا لهذا، وذاك ما أصابها بالتخبط، فالماضي بينهما لم يكن بالجيد، ليدين لها بشيء، انتشلها من دوامة شرودها السريع موضحًا لها طبيعة ما يتم من إجراءات رسمية:

-دلوقتي المحامي يطلع على تفاصيل المحضر، وهنهم بالضبط في ايه.

نفت على الفور تلك التهمة المجحفة عنها، فلا يسيء الظن بها:

-أنا مقربتش منها.

ودون أن يضيع لحظة في التفكير، أخبرها بإحساس لا يعرف الزيف، وعيناه تبهران  
في تأمل حدقتها التعيستين:

-والله مصدقك.

سألته بلمسة قهر محسوسة في نبرتها؛ وكأنها تستكثر على نفسها قيامه بذلك:

-بالبسطة دي؟

ترأى له بوضوح معاناتها في اكتساب ثقة الآخرين، وقال دون تشكيك:

-أيوه، أنا مصدقك.

فقط حدقت في عينيه المتطلعتين إليها بثبات، وكأنها تتبين مدى صدقه، فاسترسل  
متسائلاً بأريحية طفيفة:

ليه مش مقتنعة بكلامي؟

أجابته مبررة ترددتها:

-أصلها غريبة إنك تكون معايا بدل ما تكون في صف مراتك! وخصوصاً بعد ما...

صمت للحظة لتضيف بأسفٍ لم تخفه:

خسرت طفلك اللي في بطنها.

ودّ "تميم" لو تحسست قلبه النابض في تلك اللحظة، لتشعر بما يضمه لها من  
مشاعر لم تكذب يوماً، مع اكتشافه المثير لرهافة مشاعرها الرقيقة، والمخباة خلف  
قناع القوة الذي على ما يبدو لم تخلعه كثيراً، لم يحد بنظراته عنها، وأجابها بهدوء:

-ده نصيب.. ومقدر ومكتوب...

ثم عمق من نظراته نحوها، مشددًا بابتسامة راضية، رغب أن يبدد بها التعبير  
الحزين المحتل لصفحة وجهها:

-بس لازم تعرفي إنها معدتش مراتي، هي بنت خالتي وبس.

حملت فيه بحيرة، بدا ما قاله تصریح عنه توضیح، لكن تشتت نظراتها عنه وصوت  
الفردی الأمی يقتحم حديثهما:

-تعالی یا حضرت بدل ما تعملنا مشكلة.

أشار له "تميم" بيديه قائلاً على مضض:

طيب يا دُفعة.

عاد ليتطلع إلى وجه "فيروزة" ممعناً النظر فيها، مستغلاً فرصة لن تعوض في  
التواجد بقربها، قبل أن يخبرها، بنبرة أقرب لقطع وعدٍ نافذ، لا يمكن المناس منه  
أبدًا:

-أنا راجعلك ثاني.

.....

انتشر الدواء المخدر في خلايا جسدها، ليُسكن تلك الأوجاع التي تصرخ في  
عظامها من آن لآخر، لتذكرها بما اقترفته، من أجل التخلص ممن اعتبرتها عدوتها،  
ورغم شراسة ما فعلته، لم تندم "خلود" للحظة، على إقدامها على تنفيذ تلك الخطة  
الشيعة، ففي كل الأحوال، خسارة جنينها كانت أكيدة؛ لكن تحويلها لملحمة  
درامية، تظهر فيها الضحية المضطهدة، والمجني عليها، أفضل بكثير، على أن تكون

المُطلقة التعسة، ناهيك عن خلق تلك الفرصة الذهبية للمساومة مع حبيبها، واستعادته بالتأكد، بعد لقاء والدتها المثمر بـ "محرز".

أسند "هيثم" كيسًا بلاستيكيًا مليئًا بالعصائر الطبيعية، على المنضدة الملاصقة لنافذة المشفى، وتحدث إلى والدته متسائلًا في اهتمام:

- "خلود" عاملة إيه دلوقتي يامه؟

ردت بتهكمٍ صدمه:

هاتقول تتحزم وترقص دلوقتي.

انفجرت شفته في ذهول، بينما تابعت قولها بأسلوبها الناقم:

إنت مش شايفها مدشدشة قصاد عينك.

علق "هيثم" بامتعاض:

خلاص يامه، أنا غلطان إني سألت.

رمقته بتلك النظرة الحقود قبل أن تأمره:

- بأقولك إيه، استنى ماتمشيش، عاوزاك.

لوى ثغره متسائلًا، وهو يضم كفيه معًا:

خير يامه

أشارت له بعينها ليجلس إلى جوارها، وهي تتابع بنبرة لانت تقريبًا معه:

- كل خير يا حبيبي.

رمقها بتلك النظرة المتشككة وهو يقول:

-مش مستريحك يامه، حاسس إن في حوار.

تصنعت العبوس، وهي تنظر له بانكسارٍ مفتعل، قبل أن تغمغم بنوعٍ من المراوغة:

-حوار إيه بس؟ ده كل اللي بنعمله عشان مصلحة أختك الراقدة دي.

اعترض عليها مصححًا:

-هي اللي عملت كده في نفسها، محدش قالها احد في نفسك من على السلم، وموتي

اللي في بطنك

قالت في حزنٍ:

-كانت ساعة طيش من الشيطان.

سألها بنظرةٍ ثابتة:

-والمطلوب مني إيه؟

ابتسامة مأكرة ممزوجة باللؤم تكونت على شفيتها، وهي تجيبه:

-كل خير يا ضنايا.

ما زال متشككًا من أسلوبها المتلوي غير المريح، نفخ في ضيقٍ، وسألها:

-قصدك إيه؟ قوليلي على اللي في دماغك يامه على طول.

مالت عليه لتخبره بصوتٍ هامسٍ بتحريزٍ محضٍ، ضد شقيقة زوجته، تتهمها فيه،

بمحاولة قتل الأخيرة، خلال الشجار الذي نشب بينهما على الدرج، وطلبت منه -

دون حياءٍ- إنكار الحقيقة كليًا، والشهادة في صالح أخته لمساعدتها في تقوية موقفها.

حدق فيها بعينين متسعيتين في عدم تصديق، وسألها بصوتٍ بدا غاضبًا:

عاوزاني أشهد زور يامه؟

أجابته مبتسمة؛ وكأنها تجمل الأمر له:

مش زور يا واد، دي كلمتين كده لا راحوا ولا جوم...

ثم لجأت إلى أسلوب الاستجداء، وتسولت عواطفه بنحيبٍ مكشوف:

-وبعدين أختك غلبانة، وحالها يصعب على الكافر، يرضيك اللي هي فيه؟

استنكر ما تطلبه منه، وأصر على رفضه بعناد:

-لأ مش هاعمل كده، وده اختيارها، وأنا مش هاقول غير الحق

اختفت ملامح اللين من وجهها، وارتد بالغضب وهي تعنفه:

-إنت جاي تتوب دلوقتي يا عين أمك؟ ده إنت مكوئتش بتعمل إلا الحرام طول

حياتك!

ورغم لسانها السليط إلا أنه قال مبتسمًا ليستفزها، وهو يقبل ظهر كفه وباطنه

بفمه:

-والحمد لله يامه ربنا هداني، جاية تبوظي ده ثاني، بدل ما تدعيلي بالثبات؟

قالت بوقاحة، ونظراتها الحائرة مسلطة عليه:

-لأ، أنا هادعي عليك طالما بتعصاني، ومش عايز تسمع كلامي.

ردد مذهولاً:

-إيه اللي أنا باسمعه ده، في أم كده؟

عقت عليه "بثينة" بروودٍ مستفز:



-أه ياخويا، وبعدين يرضي مين ما تدافعش عن أختك؟

أجابها بصدق:

عشان خايف من ربنا.

ردت باستهجانٍ وقح:

-وهو أنا قولتلك أكفر لا سمح الله؟ دي كدبة بسيطة، لا راحت ولا جت.

هز رأسه في استياء شديد، وتعايره تنطق بلسان حاله:

حقيقي يامه مش عارف أقولك إيه.

وضعت يدها على كتفه تستحته على الرضوخ لها:

-وافق يا "هيشم" عشان أرضى عنك، ويفتحلك أبواب الخير.

قال في سخرية:

-ده كده هنتقفل في وشي بالضبة والمفتاح.

لكزته بغلظة، وصاحت فيه بتشنج، وقد فاض بها الكيل من رفضه العنيد:

قوم يا ض غور من هنا، قلبي مش راضي عنك، واعرف إن كل مصيبة هتجرالك،

بسبب إني مش مسمحاك.

نهض من جوارها، وأضاف وهو يضرب كفه بالآخر:

-لا إله إلا الله! هو في كده؟

بصقت في وجهه، كتعبيرٍ عن ازدرائها المستحقر له؛ لكنه رد بنوعٍ من الممازحة:

ده لو الشيطان كان واقف مكاني هنا، وسامعك وإنتي بتوسوسيله، كان اعتزل الشغلانة من زمان، وسبهالك.

مدت "بثينة" يدها لتمسك بالكوب البلاستيكي المليء بالماء، قذفته به في وجهه، فأغرقه، وتناثر على كامل ثيابه، قبل أن تطرده من الغرفة بغضبٍ أكبر استبد بها:  
-امشي من هنا!

غمغم في تهكم، وهو يمسح الماء عن وجهه:

-يعني بأطرد من الجنة؟ أنا طالع من غير قلة قيمة.

نعتته بسبابٍ من خلفه؛ لكنه لم يستدر أو يهتم بغیظها المتزايد فيها، ومع هذا لم يعلم أن المسألة قد اتخذت بالفعل مسارها الخطير.

.....

عاد إليها بعد برهة، محملاً بأكياس الطعام الشهي، رغم فقدانها للشهية؛ لكنه أصر -وبشدة- على حثها على تناوله، وإن كان قدرًا بسيطًا، ليتمكنها من استعادة طاقتها المفقودة، اعترضت بلطف، واكتفت بالغوص في الأريكة الجلدية، متنهدة بتنهدات طويلة، راقبها "تميم" باهتمام، وقال بلهجة حازمة:

-مش هاينفع يا أبله، لازم تأكلي..

ثم قرب الأطباق الشهية منها، بعد أن أفرغ ما تحتويه الأكياس، على الطاولة المنخفضة الفاصلة بينهما، وأضاف بنوعٍ من المداعبة:

ده حتى يعتبر عيش وملح بينا.

قالت في سخرية:

-المفروض عيش وحلاوة.

أكد لها بعينين لم تطرفا:

إنتي مش هتطولي هنا.

لم تخفت ابتسامة "تميم" معها، كان يتسم بتلقائية، رغم عدم إدراكه لهذا، تطلعت إليه في استغرابٍ، وسألته:

-للدراجدي إنت مصدقني؟ وواثق إني مش هاتسجن؟

كان أول حوار هادئ بينهما، رغم تأزم الموقف، وبمزيد من الجدية جاوبها: أيوه .. مع إنك كدبتي عليا في حاجة.

ضاقت عينيها في استرابةٍ، فأوضح لها سريعًا، حتى لا تدور في رأسها الهواجس: -الحريقة.

أرجعت "فيروزة" ظهرها للخلف، وقالت وهي ترفع رأسها للأعلى بتعب:

إنت لسه فاكِر، ده موضوع واتقفل.

بقيت عيناه مثبتة عليها، وقال بوجهٍ شبه متقلص:

عمومًا مش وقته، مدي إيدك وكلي..

نظرت إليه مليًا، دون خجلٍ، وكأنها تحلل طبيعة شخصيته، كان لطيفًا للحد الذي أشعرها بالغرابة والخوف معًا؛ الغرابة من عدم اعتيادها على تصديقه لما قالته هكذا دون تعقيد، وبلا دليلٍ قاطع على عدم زيف ادعائها، والخوف من انسياقها غير المتردد- وراء مشاعرها الغامضة التي تستحثها -وبقوة- على الوثوق به.

وعلى الرغم من المواقف الخشنة، والمليئة بالمشاحنات التي جمعت بينهما فيما مضى؛ من صفة حرجة أمام العامة، من إهانة وقحة في منزلها خلال خطبة توأمتها، من صدام بالكلمات في المطعم، إلا أنه كان وديعًا معها، على نحو غير مألوف، وكأنهما على وفاق دائم، ولم يحدث بينهما أي صدام في يوم من الأيام؛ وهذا ما وترها نسيًا!

"تميم"؛ الوحيد الذي لم يشكك في قولها أبدًا، صدقها منذ الوهلة الأولى لاتهامها، ودون الحاجة لبرهان بَيِّن، مقارنة واقعية سريعة انعقدت في رأسها، بين أقاربها، وبينه؛ وكانت النتيجة في صالحه، الغريب عنها بدأ أحن بكثيرٍ عن تربطهم بها صلة الدم.. انتعش عقلها بذكريات غير سارة؛ خذلان والدتها، عنف خالها، إهانات زوجته الحقودة، قساوة عمها، ووحشية ابن عمها، فاستنزفت روحها بالتدرج، وظل الوحيد الذي طعنته علنًا، وانتقصت من رجولته أمام العامة، هو الدرع الواقي لها بعد فراق والدها المؤلم، برحيله شعرت بخواء الحياة، وتناقص متعتها، حتى بدأ الشقاء ملازمًا لها.

ورغما عنها تسلل إلى عقلها المتكدر ذكرى أخرى تخشاها، سرحت فيها بكامل حواسها؛ جسد "غريب" المشتعل، تجسد المشهد من جديد أمامها؛ وكأنه يُعرض في شاشة سينمائية ضخمة، تحتل الفراغ بأكمله أمامها، حملت بعينين غائرتين، تدوران في دوائر من التيه والتخبط، ومتسائلة بقلبٍ متألم، ينزف في صمت، لماذا لم تفتن روحها في الحريق؟ لو حدث حقًا هذا، لكانت أراحت الجميع من همها، واستراحت من الأعباء القاسية التي مزقتها، في معترك الحياة، تزايد إحساسها باليأس، وامتزج مع إحباطها الشديد، وبدأ ينعكس ذلك ظاهريًا عليها، حيث أحست بالهواء ينسحب من رئتيها، يصعب استعادته، بأن صدرها قد بات ثقیلاً، وقلبها يصرخ في ألم، أدركت "فيروزة" في تلك اللحظة، أنها أصبحت على

وشك الدخول في إحدى نوباتها المهلكة، وتلك المرة أرادت بشدة أن يكون الموت  
رحيمًا بها، وتتمكن من التخلص من حياتها خلال معاناتها  
!! .....

.....

## الفصل التاسع والخمسون

حول مائدة مستديرة، اجتمعت القيادات الأمنية، برتبها المختلفة، لمناقشة تطورات قضايا التهريب، وما يحدث خلالها من تجاوزات تضر المجتمع والمواطنين. رن هاتف "وجدي"، فأوصده على الفور معتذراً عن ضجيجه الذي أزعج الحاضرين، وضعه على وضعية الصامت، وحرص على تدوين الملحوظات الهامة، من قبل رؤسائه المخضرمين، للاستعانة بها في تحرياته الدقيقة، خاصة بعد انتقاله لمكتب مكافحة المخدرات، وما يتطلبه ذلك من يقظة وفطنة شديدة، لاكتشاف أساليب المهربين الملتوية، لإدخال تلك المواد المخدرة، عبر حدود البلاد، أو الموانئ المختلفة.

انفض الاجتماع، وخرج منه ليجد عدة مكالمات فائتة من صديقه "ماهر"، أيقن وجود خطب ما، فهاتفه على الفور، ليأتيه صوته الجاد متسائلاً:

-إنت فين يا باشا؟

أوضح له بتريث، ونبرته يشوبها زفير مرهق:

-كان عندي اجتماع مهم مع سيادة اللواء والقيادات في مديرية الأمن.

علق في تفهم:

عشان كده مردتش عليا.

قال مقتضباً:

-أيوه ..

سأله "ماهر" كتمهيد في الحديث:

-والدنيا تمام معاك؟!!

منحه ردًا حياديًا حين أجب:

-يعني أهوو.. بس إنت عارف شغل المكافحة، لازم تحريات دقيقة عن أي بلاغ يجيلنا، واحنا اليومين دول شغالين على حاجات من دي.

تنحج وهو يكمل بنبرة شبه حرجة:

-الله يعينك، معلش يا باشا هاطلب منك خدمة على السريع، إنت عارف أنا في أجازة، ومش هاينفع أنزل دلوقتي وآ...

قاطعته معترضًا على خجله منه:

-أؤمر يا "ماهر" .. ومن غير ما تبرر يا باشا.

شكره مجاملًا:

تسلملي يا غالي،..

ثم دخل في صلب الموضوع متسائلًا:

-فاكر البنت اللي جيت أتوسطلها قبل كده في القسم عندك، وقت ما كنت شغال هناك؟

فرك جبينه؛ وكأنه ينشط بذلك ذاكرته، قبل أن يرد:

-مش واخد بالي أوي.

أعطاه إضافة أخرى ليتذكرها بقوله:

-صاحبة "علا"، كان اسمها "فيروزة".

على الفور تذكر مشاجرتها المميزة، خلال خدمته في ذلك القسم، وقال ببسمة جانبية صغيرة:

-افتكرتها، مش دي بتاعة خناقة عربية الأكل؟ اللي كانت على الكورنيش؟

أكد عليه صحة جوابه قائلاً:

-أيوه هي دي.

سأله "وجدي" في سخرية:

-مالها؟ اتخانقت مع مين تاني؟

أجابته بحيرة لم يخفها عنه:

-هي مش خناقة، حاجة تانية أهم، بس معنديش تفاصيل أوي عنها.

أوما رفيقه برأسه، وقال:

-خلاص، أنا هاطلع على القسم دلوقتي، أنا عارف "محمود" بيه، هتواصل معاه، وأعرفلك الليلة فيها إيه، وأكلمك بعدها.

هتف في امتنان أكبر:

-حبيبي، مش هنسالك الخدمة دي.

ابتسم معقبا عليه:

-أحنا في الخدمة معاليك، النهاردة عندي، بكرة عندك، وكده.

ضحك "ماهر" معلقاً على كلماته الأخير:

-بالظبط يا باشا، يالا مش هاعطلك بقي، وهستنى مكالمتك.



ياذن الله .. سلام.

قالها "وجدي" وهو يختم اتصاله معه، قبل أن يبحث في هاتفه عن رقم الضابط "محمود"، ليطلبه وهو يتابع سيره خارج المبنى الأمني، حيث تتواجد سيارته.

.....

الجلوس معها -بمفردهما- كان يُعد حلمًا مستبعدًا، غير قابل للتحقيق، على أرض الواقع مُطلقًا، خاصة بعد معرفته بمسألة خطبتها بذاك البغيض، الذي فهمه بمجرد التطلع إليه؛ ولكن لقائه بها حدث، وإن كانت الظروف غير مناسبة، فماذا عن مشاركتها لقيمات معدودة من الطعام؟ شعور لا يوصف بالسعادة العارمة تخلل تحت جلده، تسبب له في تأثيرات حسية ظاهرة عليه، جعلته في حالة من الانتشاء والطرب، حتى دقائق قلبه خفت بقوة، من حماسه المتلهف، كقرعٍ عنيف على طبول أفريقية في احتفال قبائلي عظيم، وياله من إحساس رهيب يخوضه الآن! لم يعيشه من قبل أبدًا، ورغب بشدة ألا ينتهي شعوره به. اختلس "تميم" النظرات الحذرة نحوها، كان مفتونًا بابتسامتها الهادئة، وإن كان يشوبها الحزن، ورغم هذا كانت تمنحها جمالاً ناعماً غير متكلف، وحين لجأت "فيروزة" للصمت، تولى زمام الحوار عنها، وأخبرها بهدوء، ليواصل سلاسة حديثهما:

متقلقيش على الحاجة والدتك، أنا وصلتها البيت...

تنحني بخفوتٍ، وتابع بحرجٍ طفيف:

-يعني ما يصحش ست محترمة زيها تفضل هنا، وتبهدل من الأعدة في المكان ده، فاطمني عليها..

كان حذرًا في اختيار كلماته، حتى لا يتسبب في إزعاجها، بدا مترددًا بعض الشيء وهو يكمل:

-وأنا وعدتها هفضل معاكي..

رفع عينيه نحوها ليراقب ردة فعلها، كانت محدقة به بغرابة، فأبعد نظراته معتقدًا أنها أساءت فهمه، وبادر بالتوضيح بلجلجة خفيفة:

قصدي يعني إني موجود لحد ما تطلعي من هنا، كل حاجة هتتحل .. مش عايزك تشيلي هم يا أبله.

لم يجرؤ على النظر إليها، خشية أن يرى علامات الضيق في عينيها، بعد أن كانت مليئة بشيء مختلف، ظل مطرقًا لرأسه وهو يختم حديثه معها في ذلك الموضوع الشائك:

-هو الغلط من عندنا احنا .. وبنت خالتي مكانش ينفع تعمل كده..

بلغ ريقه، واعتذر موجزًا:

فحقك عليا.

انتظر أن يأتيه الرد منها، ولو كان على سبيل المجاملة؛ لكنها بقيت صامتة، رفع رأسه نحوها، وتطلع إليها بنظراتٍ حذرة، لم تكن تنظر ناحيته، بل كانت محدقة أمامها في الفراغ، وذلك الوجوم المريب يغطي وجهها، ناداها باهتمامٍ قلق:

يا أبله!

لم تعقب عليه، وبقيت جامدة في مكانها، لم تهتز لها عضلة، أو يتحرك لديها طرف من أطرافها، تحفز في جلسته، وضافت عيناه بشك، ثم سألها بتوجس ظاهر في صوته:

-مالك؟ إنتي كويسة؟ في حاجة تعبكي؟

نهض من مكانه ليتأملها عن كثب، وكانت المفاجأة التي انخلع فيها قلبه؛ رؤيتها على نفس الحالة المرضية التي عايشتها من قبل، مع فارق تأثيرها الأقوى، أزاح يديه الطاولة التي تعوقه عن الوصول إليها، ثم وضع ركبته على الأريكة بجوارها، ليلقي بثقل جسده عليها، انحنى نحوها يربت على وجنتها برفق، وهو يناديها بلهفة ملتاعة:

-"فيروزة"، ردي عليا.

لم تتجاوب مع ضرباته الخفيفة، بل تراخى جسدها كلياً، وباتت في حالة من اللاوعي، تضاعف خوفه، وتراجع عنها مخفضاً ركبته، ليساعدها على التمدد على الأريكة، كان قريباً من وجهها، ناداها بأنفاس مضطربة:

-"فيروزة"، سمعاني؟

خفق قلبه بقوة، حين استجابت لحظياً لندائه، والتفتت ناظرة إليه. منحته نظرة حزينة سريعة، عكست مدى الألم الذي تعانیه، وتخفيه عن حولها، قبل أن تطبق على جفنيها، وابتسامة باهتة ظهرت على شفثيها، لتختفي مع هروب عقلها المؤقت عما يؤذيه. تركها في مكانه، واستدار مهرولاً نحو باب الغرفة طالباً للنجدة، صاح بنبرة أقرب للصراخ المفزوع:

يا جدعان حد يلحقنا.

ولج إلى الغرفة على إثر صوته بعض أفراد الأمن، وكان على رأسهم أحد الضباط،  
فتساءل في جدية، وهو يدنو منها ليتفقدتها:

حصلها إيه؟

أجابه بقلبي، وقد تضرع وجهه بحمرته المنفعلة:

-دي نوبة بتجيلها كل شوية

سأله الضابط بسذاجة:

صرع يعني؟

نفي ذلك كلياً، موضحاً له، بناءً على تصريح توأمتها السابق:

-لأ، حاجة نفسية.

هز رأسه في عدم اقتناع، وهو يرد:

طيب .. هاشوف.

رمقها الضابط بنظرة أخرى مدققة، وقد بدا مستخفاً بحديثه عن مرضها، انتظر

"تميم" أن يتخذ ذلك الضابط الخطوة الملائمة للتعامل مع حالتها، لكنه لم يكن

مهتمًا بالقدر الكافي، لذا هتف قائلاً بحدة ملموسة:

شكلها مايطمنش، أنا هطلبها الإسعاف وآ...

قاطعها الضابط بلهجة رسمية:

هي مش ساوية عشان تعمل كده من نفسك، ما جازر تمثيلية منها وآ....

رد عليه مقاطعاً بصوتٍ شبه قاتم، ونظراته الحائرة مسلطة عليه:

خلاص هاتلها دكتور يا باشا يشوفها، بدل ما ناخذ وندي، وهي قصادنا كده مفرفة.

علق بسماجة باردة، تناقض طبيعة الموقف:

-لازم الضابط يشوفها الأول، ويقرر.

احتج بعصبية بائنة في نبرته، ونظراته، وأيضًا حركة جسده:

-وأنا قولت إيه غير كده؟ هات حتى المأمور، بس نتصرف!

علق الضابط ساخرًا منه:

-إنت واخذ بالك أوي منها، تكونش متجوزها؟

رد بحنق، وعروقه تنتفض بغضبه المكبوت:

-لأ..

بدا صوته كالهسيس وهو يحدث نفسه:

-بس يا ريتني كنت متجوزها، على الأقل مكوتنش سمحت لحد يتعرض لها ولا حتى

دخلتها مكان زي ده!

سأله الضابط السخيف بفضول:

-إنت بتكلم نفسك؟

رد بوقاحة:

ليه شايفني مجنون؟

زجره بخشونة:

-اتكلمِ عدل، ماتنساش نفسك، إنت هنا في قسم!

تدخل "وجدي" مقاطعًا الاثنين بجديّةٍ بحته، ويتبعه شخص آخر، تبدو هيئته رسمية:

في إيه بيحصل هنا؟

أجاب "تميم" موضحةً على الفور:

يا حضرت الضابط الأبله تعبانة جدًا.

مد الضابط الأول المتواجد بالغرفة مصافحًا زميله، وقاصدًا تجاهل ما أفصح عنه "تميم"، ليشعره بعدم أهميته:

- "محمود" بيه، نورت معالك.

ثم انتقل للترحيب بزميله السابق، بمصافحة حارة أيضًا:

- أهلاً "وجدي" بيه..

تساءل "محمود" في اهتمامٍ، وهو يتجول بنظراته على جسد "فيروزة" المسجي أمام الجميع على الأريكة:

هي دي قرية "ماهر" بيه اللي مكلمك عشانها؟

تلك النظرات العادية، أو حتى غير المهمة، من بعضهم على جسدها، كانت بمثابة السهام القاتلة التي تخترق صدره، وتفتك بأعصابه، لم يكن راضيًا أبدًا عما يحدث، احترقت أحشائه وتقطعت وهم يمررون عليها أنظارهم الفضولية، وعلى قدر المستطاع حاول حجبها عنهم بجسده، يتحرك مع اتجاه أي وجه ينظر إليها ليمنعه من النظر إليها، وليحافظ على خصوصيتها، انتبه إلى صوت "وجدي" المتسائل:

حصلها إليه؟

أجابه محذراً بأعصابٍ شبه تالفة من حنقه الشديد:

-مش عارف، بس لو فضلت كده هيجرالها حاجة.

التفت "وجدي" للضابط الأقل رتبة، وقال بلهجة آمرة:

-بعد إذنك يا "محمود" بيه، هتخلي حد من رجالتك يطلب الإسعاف.

رد عليه بإيماءة من رأسه:

-تمام يا "وجدي" بيه، وفي قوة أمنية هتروح معاها المستشفى...

ضاقت عينا "تميم" بحدة، لكن الضابط تابع كلامه موضعاً:

-بحيث لما تفوق ناخذ أقوالها هناك..

ثم تركزت نظراته على "تميم" وهو يكمل باقي حديثه:

-وبالمرّة تتكلم مع الضحية، ونعرف بالضبط تفاصيل الواقعة.

نظرات الاتهام كانت ظاهرة في عيني الضابط "محمود"، وقوبلت بزفيرٍ ثقيل من

"تميم" الذي كان يركز على أسنانه، مانعاً نفسه من التصرف برعونة، فقط من أجل

الوصول إلى الحقيقة، وإثبات براءتها.

.....

أصر على نقلها لأكثر المستشفيات حرصاً على تقديم الرعاية الطبية القصوى

لمرضائها، ولا يدري إن كان ذلك لحسن حظها أم لسوءه، فقد تواجدت في نفس

المشفى مع طليقته السابقة؛ ولكن كان الفارق في مكوث "فيروزة" بالطابق الخاص

بالشخصيات الهامة، على عكس "خلود" التي مكثت بغرفة أقل تكلفة، وانتظر بترقب خروج الطبيب المكلف بفحص حالتها لطمأنته عليها، جالت نظراته على القوة الأمنية المتواجدة أمام باب غرفتها، وبدا هذا مزعجًا له بحد كبير، فلم يثبت بعد إدانتها، لتعامل بتلك الطريقة؛ لكن نصيحه محاميه الخاص، بعدم الاحتكاك بهم، حتى لا يتعقد الموقف، والانتظار ريثما تنتهي التحريات والإجراءات القانونية المتبعة في مثل تلك الظروف.

مضى ما يزيد عن النصف ساعة، وهو ما زال واقفًا بالخارج، تحركت عيناه مع الطبيب الذي خرج لتوه من الداخل، أقبل عليه دون تأخير، وعيناه تحاولان التطلع إلى "فيروزة" من تلك الفرجة الصغيرة في موضع الباب، ليتمكن من رؤية ما يحدث لها، ثم سأله في اهتمام واضح:

عامة إيه دلوقتي؟

أجابه بهدوء، ونظرات ثابتة:

حالتها مستقرة حاليًا.

سأله بتردد، وهو يشرب بعنقه للأعلى ليلمحها بعد أن حجبت الممرضة -المتواجدة أمام فراشها- الرؤية عنه:

طب يعني أقدر أشوفها؟

جاوبه بالنفي القاطع:

لأ..

انخفضت عيناه "تميم" على وجه الطبيب، فاستأنف موضحًا أسبابه:



هي هتفضل نايمة بسبب المهدئات اللي واخدها، وده أحسن لها الفترة دي.

هز رأسه قائلاً بضيقٍ انتشر على تعايره الواجمة:

حبيب يا دكتور، طالما فيه الفائدة ليها.

التفت الطبيب برأسه نحو المحقق الشرطي الذي سأله:

ها يا دكتور، ينفع تتكلم مع الأستاذة ولا ..؟

تنحج موضحًا من جديد:

-لا يا فندم، هتضطر تنتظر شوية، المريضة مش في وعيها، ونايمة تحت تأثير

المهدئ.

حك الضابط "محمود" ذقنه؛ وكأنه يفكر في حديثه، لم يكن راضيًا عن رد الطبيب،

ونظراته لم تفارق وجه "تميم" أيضًا، بينما طالعه الأخير بنظراتٍ متشفية؛ لكن الأول

عاد ليقول بسماجةٍ رسمية:

عمومًا هنروح نشوف المجني عليها، وناخد أقوالها، بيتهيألي هاتكون فاقت.

وارتسمت على قسماته ابتسامة باردة مستفزة، متوقعًا أن يعارضه زوجها الأسبق؛

لكنه خالف توقعاته، وقال مرحبًا:

يا ريت، وكمان تاخذ أقوال الشهود كلهم اللي كانوا موجودين.

انزعج الضابط من مناطحته الرأس بالرأس، وعنقه بلهجة قوية:

إنت مش هتعرفني أمشي شغلي إزاي؟

بهدوءٍ تام علق عليه "تميم"، وهو يشير بيده:

-وأنا أقدر يا باشا، تعالى أما أوديك بنفسي.

حده الضابط "محمود" بنظرة قاسية، تعكس حنقه منه، وقبل أن يتكلم مجددًا ليعنفه، توقف أمامه أحد أفراد القوة الأمنية، انتبه إليه، عندما نطق برسمية بحته:

-ساعات الباشا، مكالمة لحضرتك من الباشا المأمور.

تناول الهاتف المحمول منه، وهو يرد على مضمين:

طيب.

تحرك الضابط مبتعدًا عن محيط "تميم"، شيعه الأخير بنظراته القاتمة وهو ينصرف، ليردد في نفسه بقنوط:

-تبسطي كده لما خربتيا يا "خلود"؟

.....

-يعني إيه مكوتتش عايزيني أعرف؟

تساءلت "همسة" بتلك العبارة، وبصوتها الحاد، وهي تسحب والدتها بخطوات متعصبة في اتجاه المصعد، فزوجها هاتفها ليطلعها على آخر المستجدات، والتي لم تكن على علم بها، لتهرع بعدها إلى أمها، وتأتي بها إلى المشفى، في حالة انفعالية مفهومة. حاول "هيثم" إيقافها، وتهدئة ثروتها قائلاً:

-ما هو ده اللي كنت خايف منه، تجي وتجيبي أمك على ملي وشها.

رمقته بنظرة نارية وهي ترد عليه:

مش أختي يا "هيثم"؟ ولا عايزني أعرف اللي هي فيه وأناام على المخدة، ولا كأن في حاجة حصلت؟

رد بوجه مقلوب، وتكشيرة جانبية:

ماشى، بس الأمور تتأخذ بالعقل، مش قفش كده!

صاحت بنفاذ صبر، وقد فُتح بابي المصعد:

معدتش في عقل..

ولجت كلتاهما للداخل، وظلت "همسة" تردد بصوتها المنفعل:

ده احنا كلنا كنا واقفين وشايفين أختك عملت إيه.

صاحت فيهما "آمنة" ليكفا عن الجدل:

خلاص يا ولاد، مش وقت خناق، لا ده مكانه، ولا حتى وقته، وخلوني أطمئن على بنتي.

رد "هيثم" وهو ينضم إليهما بداخل المصعد:

-اتفضلي يا حماتي.

منحت "همسة" زوجها نظرة لا تبشر بخير، وقد خبت نبرتها حين قالت له مهددة:

-الكلام بينا لسه مخلصش يا "هيثم"!

نظر لها بقلّة حيرة، وهو يردد في نفسه:

ده اللي أنا كنت خايف منه، هاتقلب الليلة عليا في الآخر، ويتقال أختي وأختك!

.....

اصطحب كلاهما إلى غرفتها بالطابق المميز، ورغم المحاولات المضنية لمنعهما من رؤيتها، إلا أن والدتها وتوأمتها نجحتا في الأخير في الدخول لها، والبقاء بجوارها، بعد اللجوء لوساطات لا طائل لها من مسئولين ذوي مناصب هامة، كلمتهم مسموعة، ونافذة. انتظر "تميم" بالخارج مع ابن خالته، لم يحاول اقتحام خصوصية العائلة، وطلب من "هيثم" التواجد معه؛ لكن تلك النظرة المختلصة على وجه "فيروزة" النائمة، وهي تدير رأسها للناحية الأخرى، أشعرته بالارتياح. انغلق الباب، فاستدار "تميم" في اتجاه شقيق طليقته، ليمسك به من ياقته، جذبه بعيدًا عن أعين أفراد القوة الأمنية المراقبة لهما، ليشرع في توبيخه بغلظة، وهو يركز على أسنانه:

إنت غبي يا ابني؟ كلمتهم ليه؟ لازمتها إيه الشوشرة دي؟

حاول "هيثم" انتزاع ياقته من قبضته المحكمة عليه، وقال مبررًا تصرفه:

- ما كده كده كانوا هيعرفوا، دي أمها ودي أختها، يعني مش حد غريب...

ثم بلع ريقه، وأضاف بتمهل؛ وكأنه يفصح عن عيبٍ خطير:

- وبصراحة كده أنا ما بعرفش أمسك لساني مع مراتي!

أرخی "تميم" أصابعه عنه، ومنحه تلك النظرة الحادة، قبل أن ينطق بغيط:

- ما هو باين!

سأله "هيثم" وهو يضبط هيئته:

- ها قالك إيه الدكتور؟

أجاب على مضض، وبزفيرٍ سريع:

-واحدة مهدي، نفسيتها مش حلوة.

أكمل "هيثم" مسترسلاً في الحديث بتوترٍ مختلط بالمزاح:

-آه لو أمي عرفت إنها هنا، يا لهوي، هتولع الدنيا.. وهي أصلاً والعة لواحدتها.

نظر له "تميم" بطرف عينه، وقال:

-ومين هيقولها غيرك!؟

رفع ابن خالته كفيه معترضاً:

-لأ مش للدرجادي، أنا برضوه بأفهم.

ساد الصمت للحظات لم تدم كثيراً ليروح بعدها "هيثم" بمناقشته المحترمة مع والدته:

-ده أنا مرضتش أشهد زور

التفت "تميم" كلياً نحوه، وسأله بوجه حائر:

تشهد زور في إيه؟

رد بكتفين متهدلين:

-ما هي عايزاني أخذ صف "خلود"، وأقول إن أخت مراتي وقعتها من على السلم.

تحفز ابن خالته في وقفته بعد سماعه لذلك، وسأله بقلبٍ يدق بقوة:

-والأبلة معملتش كده، صح؟

أتاه دليل براءتها واضحاً حين جاوبه:

-أنا شايف أختي وهي قاصدة تحدف نفسها من عليه، محدش لمسها، ده غير إن كان في مسافة كبيرة بينهم، ومراتي شافت ده كمان، بس أمي الله يسامحها ضميرها ميت.

سكت "تميم" لبرهة ليستعرض في عقله ما يدور ويحلله، قبل أن يخبره:

-وطبعًا هتجبرك تشهد معاها.

حرك "هيثم" رأسه موضحًا موقفه النهائي:

-ما أنا قولتلها لأ.. وقلبت بخنافة معها...

ثم لفظ الهواء المحبوس في صدره ليطلب منه، بما يشبه النصيحة:

-حاول إنت تحل الليلة دي كلها يا معلم، لأنها لو فضلت على الشكل ده مش هنخلص أبدًا، والحكاية هتوسع وهتبقى محاكم، وجايز يبقى فيها سجن.

غامت عيناه بشكلٍ غريب، حاليًا لم يلم بعد بالأبعاد القانونية لتلك المسألة العويصة؛ لكن لا يضمن عواقب تركها معلقة، فخالته ليست بالشخص الهين الوديع، وابنة خالته لا تقل خطورة عنها، تنفس بعمق، وتحدث بعدها بغموض:

فعلًا لازمها حل، ويجيب من الآخر كمان.

.....

وجودهما بغرفتها، وإلى جوار فراشها، كان بدون طائل، ما زالت في سباتها الإجباري، ومع صرامة الضابط "محمود" الواضحة، اضطرت والدتها وتوأمتها للذهاب، وتركها بمفردها، وسط الحراسة المفروضة عليها، بدون أسباب معلومة؛ وكأن الضابط يشك في احتمالية هروبها، وإدعائها لتلك التمثيلة السخيفة، بعد ما

وَرَد إليه من معلومات، أو بمعنى أدق أوامر مشددة، بتضييق الخناق عليها، وزيادة القوة التأمينية، إلى أن ترد أوامر جديدة بشأنها.

ألقي الضابط "محمود" نظرة متأملة عليها، بعد أن قرأ ما كتبه الطبيب في اللوح المعدني المعلق على فراشها، أمعن النظر فيها مرة أخرى وهو يسألها، رغم يقينه بعدم استطاعتها الرد عليه:

إنتي مزعلة مين من الكبارات؟

الغريب في الأمر أن التوصيات التي جاءت لصالحها، تفوق تلك التي تشدد على إبقائها محتجرة، بدا الوضع متناقضًا، محيرًا، ومُريبًا بالنسبة له، يُظهر صراعًا خفيًا، محوره تلك الشابة غير الواعية، خرج من غرفتها، وأعطى أوامره للأفراد قائلًا بلهجة صارمة:

محدثش لا يدخل ولا يخرج من هنا بدون إذني، مفهوم؟

أدى الفرد الأمني التحية العسكرية له، وقال:

تمام يا باشا.

انصرف بعدها الضابط "محمود" من المشفى، وقد تعذر عليه أيضًا الالتقاء بالطرف الآخر في قضيته المنوط بها؛ "خلود"، بسبب ظروف حالتها الصحية، ليعود إلى منزله، ويأخذ قسطًا من الراحة، قبل أن يأتي مجددًا لهذا المكان، ويبدأ في تحقيقه الدقيق، ويملاً تلك الفراغات المحيرة فيه.

.....

بوجه مكفهر، ونظرات متممة، وأنفاس مدمغة برائحة التبغ، من السيجارة المتدلية من بين شفثيه، التقط "فضل" بعينيه مساحة خالية، في المنطقة المخصصة لركن السيارات بالقرب من مدخل المشفى، تصلح لإيقاف السيارة العتيقة التي استأجرها، دفع جسده دفعًا للخروج من المقعد الجلدي المشقق، وهو يلعن بكلمات قانطة، التفت نحو والده الذي ترجل من السيارة أيضًا، وإجهاد السفر يبدو واضحًا على تعايره، وحركته الثقيلة، صاح الأول فجأة بما يعتريه من حنق:

خلينا كده نلف ورا الهانم من الأقسام للمستشفيات!

رد عليه "اسماعيل" بصوته الأجش:

-دلوقتي تقابل مرات عمك، ونفهم في إيه بالضبط.

لامه بنوع من الهجوم، مستخدمًا يده في التلويح:

-إنت اللي غلطان يا با، كان لازم تفضل معانا في البلد، مش مطلوقة كده لا ليها كبير ولا عاملة اعتبار لحد.

نظر له بنظراتٍ متشددة، وقال على مضض:

-مش وقته الكلام ده.

رد بعنادٍ، ونظراته لا تنم عن لمحة خير:

-لأ وقته يا حاج، عايزني أسكت زي الحریم؟

تطلع إليه والده في انزعاج، فتابع ابنه كلامه الناغم:

-هانستنى إيه بعد كده؟ ده تلاقي أهل البلد واخدين سيرتها لبانة في بؤهم.



علق باستهجان، وهو بهم بالتحرك بعيدًا عن الموقف:

-وحد يعرف في إيه لسه؟!

تبعه بخطواتٍ شبه متعجلة، وبرر له سبب حمته المتعصبة:

-الناس بتألف على مزاجها، ومش هتقدر تمنع حد مايتكلمش، وحتى لو مش في وشك، هيتكلم من وراك، والكلام يمس سمعتنا.

توقف "اسماعيل" عن السير، واستدار نحوه، ليزجره بنفاذ صبرٍ:

-"فضل!" متخلنيش أندم إني جبتك معايا!!

لوى ثغره معقبًا باستنكارٍ متهم:

-يعني كنت هاسيبك تروح لوحك تدور وراها؟

ثم نفخ عاليًا، لافظًا بقايا سيجارته المحترقة، وأكمل:

-تعالى يا حاج نشوف راقدة في أنهو أوضة.

تنهد أباه مرددًا بصوته المغلف بالتعب:

-بيننا.

واتجه كلاهما إلى مدخل المشفى، الذي كان على بُعد بضعة خطوات، ليبادر

"فضل" بالسؤال عن مكان حجرة "فيروزة"؛ حيث ترقد بها، أو الأخرى تحتجز بها

موقتًا.

.....

بلغا الطابق المنشود، ولم يجدا صعوبة في معرفة غرفتها، فالحراسة الأمنية كانت كفيّلة بالإشارة إلى تواجدها بالداخل، انعكست علامات السخط على وجه "فضل"، وظل يُسمع والده بالمزيد من العبارات الناقمة، عن سوء تصرفاتها، وتركها دون رقابة، لتسيء لنفسها ولسمعة العائلة في النهاية، أراد شحن عمها ضدها، فلا ينحاز لصفها، حين يتخذ القرار الحاسم، ويقيد حريتها. حاول ابن عمها تجاوز رجال الشرطة، والمرور عنوة للداخل، لكن تم منعه، ولم يسمح له أو لغيره برؤيتها دون موافقة الضابط المسئول عن التحقيق في قضيتها، بعد التعليمات الجديدة التي تلقاها، فأدى ذلك لانفلات أعصاب "فضل"، فصرخ باهتياج:

-أنا ابن عمها، مش حد غريب.

رد الفرد الأمني ببرود:

-إن شاء الله تكون أبوها حتى، ممنوع.

صاح به بغیظٍ، وقد انتفخ وجهه:

-يعني إيه؟ هي محبوسة هنا؟

قال بسماجة سخيّة؛ مظهرًا عدم أكثرائه به:

-دي أوامر، ولو خالفتها هتتحبس يا أستاذ.

غمغم في سخطٍ:

-استغفر الله العظيم، يعني يبقى بيني وبينها باب، ومعرفش اطمئن عليها؟

لم تهتز شعرة للفرد الأمني، وعلق بجمود:

-حتى لو خطوة، ممنوع!

اغتاظ "فضل" من أسلوبه السمج في طرده، فهدر به بانفعالٍ شديد:

-إنت مخك قفل يا دُفعة؟

اشتعلت نظرات الأخير، وسأله بتعابيرٍ محتدة:

-بتغلط في الحكومة؟

تدخل "اسماعيل" على الفور معتذراً:

-لأ يا دُفعة، مايقصدش، دي بردك بنتنا، وكنا عايزين نطمئن عليها.

نظر الفرد الأمني في اتجاه الرجل الكبير، ورد عليه يأمره بلهجته الجافة:

-خد ابنك وامشي يا حاج.

وضع "اسماعيل" قبضته على ذراع ابنه، وجذبه منه بمجهودٍ واضح، ليبعده عن

الباب، وهو يرجوه بتوسلٍ:

-تعالى يا "فضل"، الحكاية مش ناقصة شوشرة.

استل ذراعه منه بخشونةٍ، وصاح محتجاً:

-يا بابا مش شايف اللي بيحصل؟

رد عليه بعقلانيةٍ، ونظراته مسلطة عليه:

خلينا نكلم محامي ونشوف هنعمل إيه، ده باين الحكاية فيها عواً كبير، واحنا مش

أده.

بصعوبةٍ استجاب لوالده، وتحرك في اتجاه المصعد، ثم توقف أمامه يسأله بأنفاسه

الهادرة، بعد أن ضغط على زر استدعائه:

-ومرات عمي فين؟ المفروض تكون هنا، ولا هي بس فالحة تجيبنا من آخر الدنيا  
عشان المصايب دي

تنهد قائلاً بتعب:

-جايز قالولها تمشي زينا.

أضاف بنبرته المتنمرة:

-وأنا بأطلبها وتليفونها مايجمعش، حاجة قرف.

أشار له والده وهو يلج لداخل المصعد

-بيننا على بيتها، وهناك هنتكلم.

.....

تسمرت قدماه في مكانه، ورأسه تدور باحثه عن أحدٍ بالجوار، فسيارته محتجزة  
تقريباً بسيارة شخصٍ آخر، لم يراعِ وضع مسافة بين السيارتين، لتمكنهما من  
الحركة بحرية، وبات عليه انتظاره، ليزيحها. أطل "اسماعيل" برأسه من نافذة  
السيارة، بعد أن طال وقوف ابنه بالخارج، نظر إلى وجهه الحائق، وقال له بهدوء  
مغاير لما عليه الأول:

-تعالى يا ابني اقعد بدل الوقفة دي.

صاح بغضبٍ أكبر:

-لا يا بابا، أنا مستني أشوف الحمار اللي عمل كده عشان أرييه، ما قدمه حتت كتير  
فاضية.

تلقت والده حوله ليجد انشغال غالبية الموقف بالسيارات، فتلك الفترة تقريباً هي الموعد المخصص لزيارات أهالي المرضى بالمشفى، استراح في جلسته، وقال معللاً ما حدث:

-جائز حد كان مستعجل، وملقاش ركنة.

نعت "فضل" ذاك المزعج بسبة نائية، وتوعده بالرد العنيف حين يظهر أمامه.

في تلك الأثناء، كان "تميم" قد انتهى لتوه من إيصال "آمنة" وابنتها إلى منزل الأولى، وبصحبتهم "هيثم"، ثم توجه لاحقاً لأقرب مطعم لشراء وجبات جاهزة لـ "بثينة" ووالدته المرافقتين لـ "خلود"، لم يجد في البداية مكاناً متاحاً لركن السيارة، وبالتالي أوقفها بشكلٍ عشوائي، لبضعة دقائق، أمام إحدى السيارات، وبعيداً عن طريق عربات الإسعاف، ليسلم الطعام للثنتين قبل أن يعود ويصفها بالخارج، فما زال لديه حديث معلق مع طليقته.

لمح "تميم" أحدهم، يرتدي جلباباً من اللون البني، تظهر عليه بقع متفرقة مبللة من العرق، ويبدو في حالة غليانٍ، ووجهه يختلجه أمارات الغضب، فاعتذر من بعيد رافعاً ذراعه:

-لا مؤاخذة يا عمنا.. أنا جاي أشيل العربية

التفت إليه "فضل"، ولعنه:

-الله يحرقك، إنت البغل اللي سيبنا ملطوعين كده، مش عارفين تتحرك

تباطأ "تميم" في خطواته، وسأله بوجهٍ تلون بحمرة مشبعة بغضبٍ مهدد:

حطب وليه الغلط يا بلدينا؟

رد بوقاحة أكبر:

-شاييني واقف بعمّة قصادك يا طُربش، يا (...)?

حذره "تميم" بغموض، وقد شمر عن ساعديه:

طب إدي بالك جياالك!!

سأله "فضل" باستخفاف:

معناه إيه ده؟

وقبل أن يتطور الوضع للأسوأ، ترحل "اسماعيل" من السيارة، ليحول دون

استمرار ابنه في التشاجر مع الغريب، ورجاه:

-بالراحة يا ابني.. ماينفعش اللي بتعمله ده.

لم ينظر "فضل" في اتجاه والده، وقال بشراسة:

-خليك على جنب يا حاج، وسيني أربي الأشكال بنت ال ..... !!!

عند تلك الإساءة المهينة، فقد "تميم" السيطرة على غضبه، وسدد لكمة عنيفة

مباغته إلى فك "فضل" جعلته يرتد للخلف، وتبعها بأخرى أشد قوة طرحته أرضاً،

لم يتركه بعد، بل جثا فوقه يخنق عنقه بركبته، مانعاً الهواء من الوصول إلى رئتيه، ثم

أشهر مديته المخبأة في جيبه الخلفي، وألصقها بجلد وجهه المتعرق، وهدده

بوحشية جمعها مما مر به طوال اليوم من ضغوطات قاسية مكبوتة:

-الـ (...) اللي مش عاجبك ده، هيرقدك الليلا دي في الإنعاش

!! .....

## الفصل الستون

بركبتة الثقيلة، زاد من ضغطه القاسي، على جلد عنقه، قاصداً منع رثتيه من الحصول على الهواء اللازم لإعاشته، تضاعفت معاناة "فضل"، وتخبط بذراعيه وهو يجاهد لإبعاده عنه، ورغم هذا إلا أن "تميم" كان محكما قبضته على كتلة اللحم المسجاة من أسفله، توحشت عيناه، ورمقه بتلك النظرة الميتة، والتي تعني بكل وضوح هلاك غريمه، قبض الأخير بيده على فك الأول يعتصره بشراسة، ثم غرز نصل مديته الحاد في جلده، متعمداً اختراقه، كز على أسنانه يخبره بعدائية بحتة:

-مش أنا قولتلك من الأول، إدي بالك جياالك؟

صرخ "فضل" متأوهاً من وخز النصل المؤلم، والذي شق طريقه في وجهه، فتابع "تميم" موضحاً:

-يعني هتاخذ في وشك لحد ما أمك متعرفكش!!

وتبع ذلك لكمة عنيفة جعلت الدماء تنزف من بين أسنانه، حاول "اسماعيل" إزاحة "تميم" عن ابنه؛ لكنه فشل أمام عنفه الشديد، اعتذر منه بتوسل:

-خلاص يا ابني، سييه، حقك عليا أنا، ابني "فضل" مايقصدش.

لم يكلف "تميم" نفسه عناء النظر إليه، ليعرف من يخاطب، وقال بصوته الأجوف، المحمل بغضبه:

-ابنك ناقص رباية، وأنا هاظبطهولك!

كان الشجار غير متكافئ من وجهة نظر "اسماعيل"، فابنه يتصارع مع شخصية عنيفة، ملمة بأساليب القتال المهلكة، وهو رغم بنيته الضخمة لا يجيد الحركة مثله، وبالتالي إن لم يتدخل فورًا، لربما خسر ابنه حياته، لذا هرول باحثًا عن مساعدة خارجية، يأتي بها لتعاونه في إبعاد هذا المعتدي الشرس عنه، بينما منح "تميم" من أرقده أرضًا لكمة أخرى، جعلته يشعر بتهمش فكه السفلي، بالكاد قاوم "فضل" للإبقاء على حياته، أرخى الجاثم فوقه ركبته عنه قليلًا، ليستنشق الهواء بصعوبة، فسعل وبكى وهو يستغيث:

يا جدعان، حد يحوشه عني!

علق عليه "تميم" بنبرته الهازئة:

-دلوقتي قلبت حُرمة؟ أومال كنت نافخ نفسك معايا ليه يا بغل؟!!!!

عاد "اسماعيل" وبصحبه أفراد من أمن المشفى، استعان بهم في دفع "تميم" عن ابنه، ورغم كثرتهم، إلا أنهم وجدوا صعوبة في إزاحته، حتى نجحوا أخيرًا في تحرير "فضل" الذي تدحرج على بطنه، واستلقى عليها لبرهة، قبل أن يزحف بإعياء بعيدًا عنه، وسعاله المتحشرح يجرح في أحبال صوته المتألّمة، تحسس وجهه بتوجس، ليرى الدماء تنزف من جرح المدينة، والذي حتمًا سيترك أثره لبضعة أيام على وجنته. نفذ "تميم" الأذراع القابضة عليه، وأعاد نصل مديته لمكانه بإبهامه قبل أن يوجه حديثه إلى الكهل المصدوم:



-ربي ابنك يا حاج!

لم تكن ملامح وجهه بالغريبة عن "تميم"، تذكره بمجرد التطلع إليه، وإن لم يتعرف إليه الأخير بعد، انخفضت عيناه نحو "فضل" الذي نهض على قدميه، ومسح بظهر كفه خيوط الدماء التي اصطبغت بها بشرته، بمنديل قماشي، كان محتفظًا به في جيب جلبابه، ابتعد أفراد الأمن بعد تحذير شفوي لثلاثتهم، بعدم افتعال الشجار مجددًا، ولم يكثر بهم "تميم"، أو بتهديدهم، كان مستعدًا لتصعيد الأمور لأقصاها؛ لكن الغليان الواضح على وجه "فضل" الذي أهين على يده، كان يأكله بشدة، وقبل أن يشرع في لعنه -حفظًا لماء الوجه- بعد بعثرة كرامته، وسحق رجولته أمام الغرباء، رفع "اسماعيل" ذراعه محذرًا ابنه:

-خلاص يا "فضل"، مش جايبين من آخر الدنيا عشان نتعارك مع خلق الله!

رد بغيظٍ، وبنظراتٍ مغلولة موجهة نحو "تميم"، ويده لا تزال موضوعة على خده:  
-ماشى يا بابا، اللي تؤمر بيه.

اتجهت أنظار "اسماعيل" إلى "تميم"، ودقق النظر فيه جيدًا، أدرك حينها أنه راه سابقًا، وقبل أن تتحرك شفتاه ليسأله، بادر الأخير بالقول:

-إنتو قراب جماعة "هيثم"؟ نسايه يعني؟

دون تفكيرٍ أجابه "اسماعيل":

-أيوه.. أنا شوفتك قبل كده.

استقام "تميم" في وقفته، ولم تبتعد نظراته العدائية عن وجه ابن ذاك الرجل، وهو يرد عليه موضعيًا:

مرتين يا حاج، هنا وعندكم...

توقف هنيهة عن الكلام ليضيف بعدها:

-بس مشوفتش البغل ده معاك!

استشاط "فضل" على الأخير من إهائته له مجددًا، وصاح بصوته المبحوح في أبيه:

-سامع يا حاج؟!

تحده "تميم" ببرود، وتحفز في وقفته، بدا كمن يستفز عن عمدٍ، لجره لشجار آخر:

-ما يسمع، هتعمل إيه يعني؟ الغلط بدأ من عندك، فاستحمل للآخر.

صاح "اسماعيل" بضيقٍ، ووجهه متضرج بحمرة منزعجة:

-خلاص بقى، مش عايزين مشاكل مع حد! كفاية اللي احنا فيه، وبيننا من هنا!

تجه "فضل" معقبًا عليه، وملامحه يغطيها تكشيرة عظيمة:

-عشان خاطر ك يا بابا.

ثم دنا من "تميم" ليقول له، بما يشبه الوعيد:

-لينا كلام تاني، الحوار بيننا مخلصش!!

ابتسم مرحبًا بوعده، وقال باستهزاء

-وأنا جاهز، ومستنيه، بس ساعتها، مش هتدخل باب المستشفى ده

وأشار بيده نحو المدخل المخصص لدخول المرضى، قبل أن يحركها نحو بقعة

أخرى ليشير إليها وهو يتابع:

هتطلع من هنا..

وغمز له مضيئًا بهسيس:

باب المشرحة!

ازدرد "فضل" ريقه، وكظم غضبه مرغبا ليتبع والده، وبضعة شتائم محتجزة في جوفه، شيعه "تميم" بنظراته النارية إلى أن انصرف بسيارته، ليلقي بعدها نظرة على مبنى المشفى، وعقله قد انشغل مجدداً بـ"فيروزة".

.....

وقف في شرفته، المطلة على الحدائق الواسعة، في الحي الراقي الذي يسكن به، واضعاً هاتفه المحمول على أذنه، وكوب النسكافية الساخن بيده الأخرى، أسنده "آسر" على حافة السور، ليبرد قليلاً، وهتف مجاملاً بتملقٍ مبالغ فيه:  
- كل الشكر لمعاليك يا فندم على اهتمامك، عيلة قريبتني مش عارفين يودوا جمایل سيادتک فین!

هز رأسه بإيماءة خفيفة وهو يصني للطرف الآخر، ليعلق بعدها بلهجة متشددة:

-أکید طبعا، لازم القانون يحاسب البنت المجرمة دي.

أطلق ضحكة مفتعلة قصيرة، كنوعٍ من إظهار اهتمامه بحديثه الساخر، وقال منهيًا مكالمته بتهديب:

-شکرا مرة ثانية، وباعتذر عن إزعاجك.

صافرة مليئة بالغبطة والانتشاء دندن بها لبعض الوقت، كتعبيرٍ عن سعادته لنجاح خطته التي رسمها على عجاله، حيث اتفق مع "محرز" سرًا، بعد أن أخبره

بالمشكلة التي وقعت، على تحفيز "بثينة" وتوجيهها للإبلاغ عن حادثة ابنتها، وبما يخدم مصالحه وأهوائه الشخصية، ليتم اتهام "فيروزة" بشكلٍ صريحٍ بالتسبب في إيدائها، ليتدخل لاحقًا أيضًا ويساعد في تقوية موقف "خلود"، باللجوء للوساطات الرسمية من ذوي الكلمة النافذة، فيضيق الخناق على "فيروزة"، وتشعر بجدية الموقف وخطورته، وتدرك أنها لن تجد المناسق أبدًا من مشكلتها المهلكة، سوى بطلب مساعدته؛ باعتباره المحامي البارِع، وإن لم تفعل هذا، لن يمانع أبدًا في فرض حضوره عليها، ليظهر كالبطل المغوار الذي أنقذها من مغبة عظيمة .. عاد ليمسك بكوبه، وحدث نفسه بتفاخرٍ:

نستنى بقى لحد ما "علا" تكلمني، وتعرفني باللي حصل .. وساعتها يجي دوري. وحدث ما توقعه، دقائق، وصدح رنين هاتفه، ألقى نظرة مستمتعة على شاشته التي امتلأت باسم "علا"، نشوة غريبة انتشرت في جسده، مستشعرًا مدى قوته وقدرته على التحكم في مجريات الأمور، اكتسبت نبرته هدوءًا مصطنعًا حين أجابها: -أيوه يا "علا".

ردت عليه بتعجلٍ:

- "آسر" .. الحق في مصيبة كبيرة حصلت لـ "فيروزة".

تصنع القلق المتلهف وهو يرد:

-بتقولي إيه؟

.....

وضع ولاعته التي تحمل شعار سيارة الجاغوار الشهيرة على علبة سجائره، بعد أن أخرج واحدة، وأشعلها، ليحرر دخانها في الهواء الطلق، التفت "محمود" إلى "وجدي" الجالس إلى جواره في المطعم الحديث يسأله مستفسراً، والفضول الحائر مسيطر عليه:

-بصراحة أول مرة أقابل حاجة بالشكل ده، يعني ساعات نلاقي حد موصي على حد ثاني، ونروق عليه، وحد عايزنا ناخذ بالننا من حد عزيز عليه، لكن البنت دي الأقي منها الاتنين، غريبة أوي؟ مش كده!!

سحب نفساً آخرًا عميقًا من سيجارته، وتطلع إلى "وجدي" الذي شاركه حيرته قائلاً:

-والله ما عارف أقولك إيه، يعني على حسب ما أعرفه عنها، مالهاش في أي حاجة، وخبقتها كانت عادية مقارنة باللي بنشوفه عندنا في القسم...

ثم التقط فنجائه بيده الأخرى، وأوضح له:

-ملفها نضيف، مالهاش سوابق

سأله "محمود" بنظرته الذكية المتشككة:

-تفتكر مين ورا إصراره على حبسها...!؟

سكت للحظة وتابع موضحًا:

-مع العلم إن المحضر لسه قيد التحقيق والتحري.

رد وهو يرتشف قهوته التي أوشكت على الانتهاء:

-مش عارف، بس شكله حد ثقيل.

أراح "محمود" ظهره للخلف، ورد بتنهيذة متمهلة:

عمومًا .. كل حاجة هتبان في وقتها.

واقفه الرأي معقبًا عليه:

-بالظبط..

ثم أضاف "وجدي" بهدوء:

-الغريبة يا سيدي إن خناقتها مع الواد البلطجي ده خلصت بمحضر صلح، يعني المفروض مافيش مشاكل بينهم.

علق عليه "محمود" بابتسامة ساخرة:

-استنى أما أقولك، الواد البلطجي ده بقى حكايته حكاية.

انتبه له الأخير، وسأله في اهتمام:

-ماله؟

رد بمزيد من التشويق:

-عارف يطلع مين بقى؟ طليق الست اللي أمها مقدمة في البت دي البلاغ، واللي هي برضوه خالته.

أخرج "وجدي" سيجارة أخرى من علبة سجائره، وأشعلها بولاعته معقبًا في ذهول:  
-أوبا.. دي جديدة.

رد عليه بنفس الأسلوب المتهمك:

-يعني ملخص الليلة دي خناقة جوز حريم في بعض.

ضحك "وجدي" وهو يختم الحديث عن ذلك الموضوع:

-أيوه، والرجالة اللي بتحاسب على المشاريب في الآخر.

عاد "محمود" ليسأله:

-وانت أخبار شغلك إيه؟

أجابه، وهو يطلق الدخان من رتتيه في الهواء:

في حاجة جديدة شغالين عليها، بلاغ غريب من واحدة ضد طليقتها، من المهرين.

ضحك مجددًا قبل أن يرد بطريقة:

-دائمًا كده تلاقي الستات ورا مصايب الرجالة..

-مضبوط، يجيبوا أجلهم بدري بدري.

.....

اقترب من السطح الرخامي الجالس خلفه عدة ممرضات، كان مترددًا في الإقدام

على ذلك، لكن قلبه المتلهف حثه على سماع ما يطمئنه عنها، ولهذا تشجع للتقدم

منهن، أشار لإحدهن بعينه لتنهض من مكانها، وتبعه. وقف "تميم" معها بعيدًا

عن الأعين المراقبة لهما، ثم أخرج من محفظته ورقة نقدية كبيرة، طواها في راحته،

ومد بها يده إليها يطلب منها:

-عاوزك في خدمة.

تناولت الممرضة النقود منه، ودستها في جيب زيها الوردي، وسألته بحذر، وعيناها

تتلفتان حولها:

خير يا أستاذ؟

أجابها "تميم" بصوته الخفيض:

تخشي تطمني على الأبله اللي في الأوضة دي.

اتجهت نظراتها نحو باب الغرفة، المرابط أمامه القوة الأمنية، عادت لتنظر إليه باسترابة، وعلقت:

بس هي نايمه، وآ....

قاطعها قائلاً بجديه غير مازحة:

ما أنا عارف، بس بصي شوفيا عاملة إيه، وتطلعي تطمينيني، ومن غير ما تقفلي الباب.

رغم غرابه طلبه، إلا أنها هزت كتفها قائلة بإذعان تام له:

حاضر يا أستاذ.

راقبها بعينه وهي تتحرك في اتجاه غرفتها، تبعها بخطواتٍ بطيئة، حتى توقف عند زاوية جيدة الرؤية، فإن فتحت الباب، سرق من الفرجة المواربة لحظاتٍ يتأمل فيها ملامحها الساكنة، ويروي ظمأه إليها، لمعت عيناه مع رؤيتها، وأحس بارتفاع ديب قلبه، لم يهدأ لرؤيتها، بل ازداد شوقاً للتواجد بقربها، وفي محيطها، كان من الصعب عليه التحكم في انفعالاته المتأثرة به، بلع ريقه، وسحب الهواء دفعا متعاقبة ليضبط مشاعره، واستدار للناحية الأخرى بمجرد خروج الممرضة من الداخل، تعمد السير بخطى متمهلة إلى أن اقتربت منه، ابتسمت وقالت بلطف:

هي بخير يا أستاذ.



شكرها بنصف ابتسامة:

متشكر ..

سحب نفسًا آخرًا يخنق به تلك الغصة التي آلمت صدره، وأحرقته وجدانه؛ فُقربه منها مؤلم، وبُعده عنها مُهلك!

استعاد "تميم" إيقاع تنفسه غير المنتظم، واتجه للمصعد بثباتٍ، ليهبط للطابق المتواجد به غرفة طليقته؛ حيث المواجهة التي تنتظره مع والدتها هناك؛ وربما أمه أيضًا، لم يستبعد حدوث ذلك.

.....

إنت مين؟

بوجهه المتورم، وتلك الضمادة التي تنتصف خده الجريح، تساءل "فضل" بتلك العبارة المتجهمة، بعد أن وجد شخصًا غريبًا يفتح له باب منزل زوجة عمه، لم يتعرف إليه، ولم يره مسبقًا، في حين رمقه "هيثم" بنظرة سريعة شاملة، جابت عليه من رأسه لأخمص قدميه؛ كأنه يتفحص هويته، ويدرس معالمه. ظل واقفًا في مكانه يسد عليه المدخل، ودون أن يتحرك، سأله ببرود ممتزج بالتهكم:

-المفروض أنا اللي أسألك السؤال ده، إنت اللي جاي بتخبط عليا السعادي!

اشرب "فضل" بعنقه، محاولاً اختلاس النظرات من وراء ظهره، فشعر بوخزة موجعة تضرب فقراته التي عانت من قساوة "تميم"، فركها برفق بيده، وسأله وهو ينفخ في ضيق:

-مش ده بيت عمي "علي أبو المكارم"، ومراته، وبناتها؟

لم تكن الحالة المزاجية لـ "هيثم" رائقة، ليتحمل على المزيد من الثرثرة السمجة، ورد عليه بسؤال:

-أيوه.. إنت مين بقى؟

لكزه "فضل" في صدره بخشونة، ليحركه من مكانه، قائلاً بعصبية مهينة:

-إنت اللي مين يا بأف؟ وبتعمل إيه في بيته؟ وسع كده خليني أدخل.

اعترض "هيثم" طريقه، وأمسك به من ياقته هاتفاً به بحدّة:

-نعم يا خويا؟ بأف؟ استناني بقى!

لم يكن من المقبول في عُرفه أن يصمت عن إهائته، وإن كانت غير مقصودة، أو زلة لسان من غريب وقح، لذا دفعه "هيثم" من صدره للخلف بيده الأخرى، مصراً على منعه من اقتحام المنزل هكذا بوقاحة، ودون استئذان، بالكاد طرده منه، وهو يواصل قوله الغليظ:

-هي وكالة من غير بواب؟ أنا مش واقف قصادك شوال بطاطس! ولولا إني عامل احترام لأهل البيت ده كنت رميتك من فوق

وقبل أن يتناول باليد على ذلك اللزج، لمح "اسماعيل" يصعد الدرجات من خلفه، صائحاً به:

-سيه يا "هيثم"! ده ابني.

ركز عينيه عليه، وصاح مدهوشاً:

-حاج "اسماعيل"! بتعمل إيه هنا؟

ردد "فضل" بغيظٍ كبير، وهو يبعد يده المحكمة عليه:

-تعالى يابا، شوف مين ده كمان، ما هو أنا الكل واخديني ملطشة النهاردة!

علق "اسماعيل" معرفًا به:

-ده جوز بنت عمك؛ "هيثم".

مد الأخير يده لمصافحته، فرفض "فضل" وضع يده براحته لإحراجه عن عمدٍ، ومع هذا قام "هيثم" بدفعه للجانب، ليتمكن من رؤية ضيفه الآخر، ورحب به معتذرًا بابتسامة سخيفة متكلفة:

-لا مؤاخذة، يا أهلاً وسهلاً يا حاج، اتفضل.

استشاط "فضل" غضبًا من معاملته الوقحة، ووبخه بتشنج:

-لولا أبويا كان ليا لي كلام تاني

منحه نظرة استحقاقٍ قبل أن يرد في سخريّة:

-خلي الكلام بعدين، لما اللي على وشك يروح.

تلقائيًا تحسس "فضل" الكدمات البارزة في وجهه، وكم أئينه، وتلك النظرة النارية

مسلطة على وجه "هيثم"، الذي أولاه ظهره ليقول:

-اتفضلوا في الصالون لحد ما أنا دي حماتي ومراتي.

.....

همسات خافتة دارت بين الشقيقتين، وهما جالستان على الأريكة الشنائية الجلدية،

الموجودة في حجرة "خلود"، فالأخيرة استعادت وعيها، وتحدثت مع والدتها قليلاً

بخفوت، لتعرف منها تفاصيل ما جرى لها عقب سقطتها المروعة، وأطلعتها أمها على ما نفذته بهسيس، حين ولجت شقيقتها للحمام، وأكدت عليها التمسك بقولها، إن أرادت الانتقام حقًا ممن دفعها لارتكاب تلك الجريمة، استراحت ابنتها لأفكارها الجهنمية، ثم استسلمت لغفوتها المؤقتة.

جمعت "بثينة" بقايا الطعام في الكيس البلاستيكي، وألقته في السلة الموضوعة على يمينها، وتركت "ونيسة" معظم طعامها كما هو، لم تمسه، كانت فاقدة لشهيتها، طغى حزنها على ما ألم بابنة شقيقتها عليها، خاصة خسارة حفيدها المنتظر، ما تعجبت منه هو حالة "بثينة"، لم تكن بالمقهورة مثلها، وإن كانت لا تزال ناقمة على ما حدث.. وبمجرد أن وقف "تميم" على أعتاب الباب، ران السكون في المكان، تحولت نظرات اللوم والاثام نحوه من كليهما، سارت خالته ناحيته لتمنعه من الدخول وهي تصيح به:

عايز إيه من بنتي يا "تميم"؟

نظر لها بوجوم، فتابعت هجومها المتحفز ضده:

-اللي بينكم انتهى خلاص، لا في عدة ولا في عيال!

قالت "ونيسة" من خلفها لتهدئها:

-اهدي يا "بثينة"، هو جاي يطمئن عليها.. مش كده يا ابني؟

ونظرت إلى ابنها، بنظرة ذات مغزى، ليفهم رجائها الخفي في تأكيد قولها، بينما استدارت شقيقتها برأسها نحوها لتقول بأسلوبها اللفظ:

-وأنا مش عايزاه هنا.

تنحني قائلاً بوجهه العابس؛ وكأنه يلوح لها بمعرفته المسبقة عن ملابس الحادث:

هي اللي عملت كده في نفسها.

اتهمته "بثينة" بوقاحة:

بسبب معاملتك ليها، إنت مراعتيش ربنا فيها، خليتها توصل للحالة دي، وماتبقاش  
واحدة بالها من نفسها ولا اللي في بطنها...

ثم تعلقت في عنقه لتمسك به من ياقته، هزته بعنف وهي تواصل صراخها به:

دي الأمانة اللي موصياك عليها؟

نظر لها بعينين محتقتين مستنكرا كذبها البين، ورد بهدير مشحون بغضبه:

-وأنا مخوتنش الأمانة...

ثم أزاح قبضتها عنه، وأكمل:

-الدور والباقي عليكم إثم، ولا إئتو بتكدبوا الكدبة وتصدقوها؟

وبخته بلسانها اللاذع:

صحيح، تقتل القتل وتمشي في جنازته!

رمقها بنظرة نارية قبل أن يكشف كذبها الملقق:

-أنا برضوه؟ إيش حال ما كل اللي في البيت شافها وهي بتحدف نفسها، وأولهم

ابنك "هيثم" ..

ثم أشار بيده لها متابعا صراخه الوقحة معها:

-وانتي بقي عاوزاه يشهد زور بحاجة محصلتش أصلاً؟! مين الظالم والمفتري هنا؟

ردت ببرود:

-وهو أنا عملت حاجة لسه؟ كل حد زعل بنتي هاجيب أجله.

اشتعل غضبًا من قصدها المتواري، وتوعدها بنظراته قبل أن ينطق بلهجة قاسية:

-وأنا مش هاسمحك تأذي حد بريء

ردت باستخفاف:

-مين إنت عشان تسمحلي؟

ثم غلف عيناها شر يليق بشخصها المتوحش، وتابعت مهددة إياه:

-ومش بعيد أرجعك مطرح ما خرجت يا معلم.

خرجت شهقة مصدومة من شفطي "ونيسة"، وعلقت عليها تلومها:

-مش للدرجادي يا "بثينة"؟ ابني مغلطش، وفوق ده كله احنا إخوات، وعمر الدم

ما يبقى مياه!!

حدجتها بنظرتها الشرسة وهي ترد:

-واللي ابنك عمله في بنتي عادي؟ دي كان ممكن تروح فيها لولا ستر ربنا.

أطرقت رأسها في أسف، بينما صاح بها "تميم" بحدّة، وقد فاض به الكيل من كذبها

الملاوع:

-هاقولك من تاني هي اللي اختارت تعمل كده، وتموت نفسها بإيدها، بلاش تعيشوا

دور مش راكب عليكم!

قاطعته والدته لتسكته جبرًا:

- "تميم!" متكلمش مع خالتك بالشكل ده!

رمقها بنظرة قائمة تعبر عن غضبه المحترم، لم يرغب في إحراجها، أو تحويل مجرى الجدل معها، وقال بزفيرٍ ثقيل:

صح.. معاكي حق يامه، الكلام مش هيرجع اللي حصل!

أبعد نظراته عن خالته التي تكاد تقتله بنظراتها، وأردف بوجهه المتقلص:

لو خلصتي أعدتك، فأنا جاهز أوصلك للبيت، أعدتك هنا لا هتقدم ولا هتأخر.

همس ضعيف، بصوتٍ متقطع، ظهر وسط الأجواء المشحونة بالاتهامات يناديه:

- "ت.. تميم!"

استدار برأسه في اتجاه فراشها، وجد ابنة خالتها تفتح عينيها بثقلٍ، وتجاهد لرفع ذراعها والإشارة إليه، لم يشعر بالشفقة نحوها، حتى إحساسه بالتعاطف معها تناقص كليًا مع لسان والدتها السليط، تلك التي انتفضت متحركة نحوها قائلة بابتسامة متلهفة، وهي تحني رأسها على جبينها لتقبلها منه:

- "خلود!" بنتي حبيبتي.. الحمدلله يا رب إنك بخير.

همَّ "تميم" بالتحرك، وترك الغرفة، فجاءه توصلها بصوتها الضعيف، وعيناها ترتكزان عليه:

- "تميم" .. ماتمشيش.

أبعد نظراته عنها، وقال بنبرة جافة:

- حمدلله على سلامتك يا بنت خالتي.

راوغته برجاءٍ، وبكلمات موحية، استشف المقصود منها على الفور:  
خليك.. لو يهيك مصلحتها.

حملق فيها مجددًا بنظرة نافذة، وبادلته نظراتٍ لها معنى محدد، ثم لعقت شفيتها  
الجافتين، قبل أن تأمر والدتها:

-معلش يامه سيننا لوحدنا شوية.

وحاولت النظر في اتجاه خالتها لتطلب منها:

-روحي معاها يا خالتي.

اعترضت عليها "بثينة" بشدة:

-لأ يا "خلود"، أسيبك معاه يحرقك دمك وإتني في الحالة دي؟

قالت وهي تحاول الابتسام:

-اطمني عليا.

وضعت "ونيسة" يدها على كتف شقيقتها تشجعها على الذهاب معها:

-تعال معايا يا "بثينة"، وربنا يهدي الحال بينهم.

لحظات وخلت الحجرة إلا من الاثنتين، تبادلتا بينهما نظراتٍ مطولة، مليئة بالكثير

من المشاعر المعبأة بالكراهية والسخط، استطردت "خلود" قائلة بتعابير مرهقة،

وهي تريح جسدها على الوسادة التي سحبت خلف ظهرها:

-إيه؟ مافيش كلمة تعزية ليا؟ اللي راح مني ده ابني اللي كنت مستنياه منك.

رد بجفاءٍ، وعيناه تتطلعان إليها بكره:



-ربنا يعوض عليكى.

ضمت شفيتها بغيطٍ من رده الخالي من التعاطف، وسألته بعدها مباشرة، دون تمهيد:

خايف عليها؟

منحها رده الصريح:

-أيوه.

احترق قلبها كمداً وقهراً، من اعترافه القاسي، وغير المزين بكلماتٍ حتى مشفقة عليها، نظراته الثابتة عليها أكدت له صدق قوله، مما أغضبها بشدة، اهتمامه بها أشعل جذوة حنقها، فبدلاً من أن يكون حبه، ورعايته، وكامل جوارحه معها، غيرها يحظى بذلك، من لا تربطه بها أي صلة. ابتلعت غصة كالعلقم في جوفها المشبع بمرارته، وعلقت بابتسامة باردة؛ كأنها تقطع وعداً على نفسها:

-وأنا هضيعهالك.

حرق فيها بنظرات قاسية، فأكملت بنفس الابتسامة:

مش هسيبها تتهنى بلحظة معاك، هاخرب حياتها، وأسود عيشتها.

هدر بها متسائلاً بأنفاس منفعة، وهو يشير بيده لها:

-إنتي بتعملي كده ليها فيها؟ إيه الشر والغل اللي جواكي ده؟

ردت على الفور:

عشان بأحبك.

احتج على تبريرها هاتفاً بصوته المحتد:

-إنتي ما بتحبيش إلا نفسك! اللي بيحب عمره ما يأذي حد بالشكل ده..

دنا من فراشها، ووقف قبالتها يرمقها بتلك النظرة النافرة، قبل أن يسألها بوضوح:

-بتكرهي "فيروزة" للدرجادي ليه؟

تلفظه باسمها، بكل ذلك الاهتمام، زاد من احتراق أحشائها، فصرخت به باهتياج:

-ماتنطقش اسمها قصادي

منحها نظرة أخرى مشمئزة وهو يضيف:

-فعلاً، اسمها ماينفعش يتقال قصاد واحدة فيها كل الشر ده.

ضحكت بهيستيرية رغم الألم الشديد الذي ضرب بجسدها، امتزجت عبرات وجعها مع صوتها المتقطع وهي تقول بصعوبة، وكأنها تحاول السيطرة على نوبة ضحكها الغريبة:

-هي مشافتش لسه حاجة مني...

وضعت يدها على بطنها، واستأنفت بضحكٍ مجلجل:

-عارف يا حبيبي، أنا هعلق رقبتها على جبل المشنقة.

تقدم خطوة أخرى من فراشها حتى التصق به، رفعه ذراعه على الحائط فوقها، وأسنده، ليميل عليها بجسده، أصبح صوته قريباً، مهدداً، وأنفاسه تلفح بشرتها حين تعهد لها:

-مش هايجصل طول ما أنا موجود يا بنت خالتي!

مدت يدها لتداعب ذراعه العضلي بأناملها، رغم الوهن المسيطر عليها، وقالت في تحدٍ:

-يبقى إنت متعرفينش كويس.

كالملسوع أبعد ذراعه عن لمساتها غير المقبولة، وقال بهجومٍ:

-إنتي مش طبيعية.

صاحت بحشجة الألم:

-أيوه، أنا مجنونة، وبأحبك، وبنت الـ (...) دي وقفت في طريق حبي ليك، وخطفتك مني.

رد عليها بنفس النبرة الهجومية، ومدافعاً عن "فيروزة" باستماتة:

-إنتي سامعة نفسك؟ احنا الاتنين مش في حساباتها أصلاً، أفعالك وقراراتك الغلط هي اللي خربت عليك حياتك، مش هي...

ثم اشتد صوته قساوة وهو ينهي حديثه العقيم معها:

-وأنا هاطلعها من المصيبة دي بطريقتي.

وضعت "خلود" قبضتها على ذراعه تشده منه ناحيتها، تفاجأ من حركتها المباغته، التي لا تتناسب مع وضعها الصحي، غالبت آلام جسدها، واعتدلت في رقدتها لتصير أقرب منه، غرزت أظافرها في لحم ساعده، بكل ما فيها من غلٍ وحقد، ثم هدرت بأنفاسها في وجهه:

-شوف يا "تميم" اللي تقتل ابنها بمزاجها، اعرف إنها مستعدية تقتل أي حد يبعد عنها حبيبها....

اقشعر بدنه لاعترافها المثير، فأكملت بصوتٍ لا يبدو مازحًا على الإطلاق، ودون  
أن يرف لها جفن:

-يعني حتى لو طلعت منها براءة، فأنا هاقتلها، اقسم بالله هدبها قصادك  
!! .....

.....

## الفصل الحادي والستون

بنظراتٍ حاقدة، نطقت عما تجيش به نفسها من بغضٍ شديد، معتبرة نفسها في مركز قوة، شحذت قواها، واستجمعتها معًا، بالرغم من الألم الذي يئن في أنحاء جسدها، أظهرت "خلود" الجانب المظلم في شخصها المريض، دون حاجتها لارتداء أقنعة الاضطهاد والخنوع، لاسترقاق قلب طليقها، وتسول مشاعره .. ركزت عينيها على ملامحه المصدومة، وأضافت بتلك النبرة المميته، التي جعلت شعيرات ساعديه تنتفض فزعًا على حبيبة لا تعرف عن حبه الصادق شيئًا:

-ومش هندم للحظة.. هي مش أغلى عندي من اللي كان في بطني!

أكدت عليه جدية نيتها الوحشية وهي تكمل:

طول ما واقفة بينا يا "تميم"، ومنعك ترجعلي، فأنا هاموتها.

استفاق من غيبوبة عقله المؤقتة على الكارثة التي تخطط لها علنًا، وصرخ فيها باستنكار:

-إنتي بتقولي إيه؟ استحالة تكوني طبيعية!

تجاهلت عصبيته، وأراحت ظهرها على الوسادة لتساومه بما يشبه الاختيار:

-حياتها قصاد إننا نكون سوا، اختار يا معلم!!

رأى "تميم" في وجهها استمتاعًا مريضًا بهوسها غير العقلاني بتملكه؛ وكأنها تسلبه حرته بتهديدها الشرس، وما أكد ذلك قولها المشدد:

-إبتلي إنك ليا وپس، بتاعي لوحدي، وإنك مش في بالها زي ما بتقول .. واتجوزني.

رفض الخضوع لها، وهدر بها محتجًا، بعروقه التي انتفضت نائرة في وجهها؛ معترضًا  
على تجبرها غير الطبيعي:

-سامعة نفسك يا "خلود"؟

ردت بابتسامة غريبة:

-أيوه.. وعارفة أنا بأعمل إيه كويس...

لم تبعد أنظارها عنه، وتابعت مشيرة بيدها:

-إنت من حقي أنا لوحدي، أنا اللي أخلصت ليك في حبي، مفرقش معايا عمري  
يضيع واستنيتك تخرج، وتكون ليا ..

سأم بنفور انعكس على ملامحه المتجهمة، من تكرار نفس الأسطوانة المستهلكة  
على مسامعه، في أي وقت تسنح لها الظروف بهذا، وكأنها وحدها صاحبة الفضل  
في التكرم على شخصه، والموافقة على الزواج منه، وليس باتفاقٍ من الطرفين،  
قاطعها - قبل أن تستأنف نفس السيل من الكلمات العقيمة- متسائلًا بأنفاسه  
المنفلة:

-حازاني أعيش معاكي إزاي بعد كل اللي حصل بينا؟

ردت بهدوءٍ استفزه؛ وكأنها قد استحضرت الإجابة مسبقًا في عقلها:

-سهلة أوي، انساه، ونبدأ من جديد، على مياه بيضاء.

رمقها بتلك النظرة الحائقة، قبل أن يسألها بصوته المتشنج:

-بالبسطة دي؟

غاصت برأسها في الوسادة، وأرخت ذراعها إلى جانب جسدها، ثم ابتسمت قائلة له ببرود تام، مناقض للغضب المستبد به:

إنت اللي عاوز تعقدها يا حبيبي، والحكاية مش عايزة ده كله، خد اللي بتحبك، وشارياك، ومستعدة تعمل أي حاجة عشان تكون جمبك...

ثم اتسعت ابتسامتها، وأخبرته بتنهيده:

-أحنا طول عمرنا لبعض، مش من النهاردة، لأ من زمان يا حبيبي.

وصل النقاش معها لطريق مسدود، لن تقتنع مطلقًا بحقيقة انتهاء ما كان بينهما في يوم، ولم يكن ليقبل أبدًا بفرض ذلك الاختيار عليه؛ العودة إليها. تحكم بأعجوبة في أعصابه المنفلتة، ضبطها ليرد برسومية شديدة، ضاغظًا على كلماته؛ كأنه ينعته:

عارفة يا بنت ال... أصول.

تطلعت إليه بابتسامتها السمجة، فأضاف مهددًا:

لولا إنك بنت خالتي، وعامل حساب للي كان بينا في يوم، كنت عملت اللي ما يخطرش على بالك.

رفعت ذراعها أعلى رأسها، وأراحتها فوقها، ثم بادلت تلك النظرة غير المبالية، قبل أن تجلي صوتها المتحشرج، لترد بعدها باستخفاف، متعمدة ازدراء تهديده:

حطب عارف يا "تميم"، إنت بتاع كلام وبس...

استشاطت نظراته من تعقيبها الفج، وأكملت مؤكدة على ما نطقت به:

-أيوه، دي الحقيقة اللي الكل عارفها عنك، عمرك ما هتعمل حاجة تأذيني بيها، أقولك ليه؟

انتظرت للحظة لتضمن استحواذها على كامل تركيزه، لتستكمل بعدها بأسلوبها  
المغتر الواثق، الذي يغيظه:

-لأنك بتخاف على العيلة دي، وأنا يا حبيبي من العيلة، وكنت مراتك، وهارجعلك  
ثاني، وبمزاجك.

علق بتهمك، وهو يحدجها بنظراته الحادة:

-الظاهر البرشام عملك دماغ متكلفة..

ضحكت ساخرة منه، وهزت رأسها بالنفي؛ لكنه أعلن صراحة لها، بنبرة مختلفة كلياً  
عما اعتاد التحدث به:

-شوفي يا بنت خالتي، يا اللي معتبرة سكوتي ده ضعف، وعشانك من العيلة، لو  
انطبقت السماء على الأرض مش هارجعلك!!

ابتسم لها لثوانٍ معدودة ليبدو غير مبالٍ بما هددته به، ثم اختفت تلك الابتسامة  
كما ظهرت، وغطى وجهه تعبيراً محذراً، ليتوعدها بعدها مشيراً بعينه اللاتين غلفهما  
القسوة:

-وفكري تقربي من الأبله، ساعتها بس هاتشوفي وشي الثاني، اللي عمرك ما تعرفي  
عنه حاجة.

برودٍ سمج تحدثه قائلة، وقد ارتخت نظراتها:

-هترجعلي يا "تميم"، وبكرة أفكرك يا معلم.

تحرك في اتجاه الباب، وأخبرها دون أن ينظر إليها، قبل أن يصفقه في وجهها  
بعنف:



-أبقي اتغطي كويس..

انجرت أحبالها بآلم، حين صاحت بأعلى صوتها، ليصله:

-أحنا لبعض يا "تميم"، إنت جوزي، وأنا مراتك، هنفضل مع بعض لحد ما نموت  
سوا.

بدت غير طبيعية بالمرّة، وصراخها يخترق الكتل الخشبية ليصله، اندفع متجهًا إلى  
المصعد رافضًا البقاء في مكانٍ واحدٍ يجمعه بها، لا يمكن أن يعود أبدًا لما كان عليه  
من قبل معها، لن يستطيع إجبار نفسه على العيش معها؛ لكنه بقي أمام عقبة  
خطيرة، تهديدها غير المازح لطاووسه، فكيف سيحميها من شرها الخفي؟

.....

انزوى كلاهما بغرفتها المعزولة عن الخارج، ليتحدثا سويًا، بعد أن تأزم الوضع،  
واتخذت المشاجرة العابرة، منحنا قانونيًا، يستلزم حلاً فوريًا حاسمًا لإنهائه، قبل أن  
يتم تصعيده، أو يزداد تعقيدًا. سحبت "همسة" زوجها من ذراعه، ووقفت إلى  
جواره عند الشرفة، رمقته بتلك النظرة غير المتسامحة، وأخبرته بصوتٍ خافت؛  
لكنه صارم:

-زي ما أمك وقعتنا في الخيّة دي، تطلعنا منها.

رد "هيثم" وهو يهز كتفيه، كتعبيرٍ ظاهري عن قلة حيلته:

-وأنا بإيدي إيه ومعملتوش؟

صاحت به بنبرة ارتفعت نسبيًا:

-أصرف.. وبعدين إنت أخوها، يعني المفروض ليك كلمة عليها.

علق في تهكم:

-لأ مش مع دي، إنتي متعرفيش "خلود" كويس يا "هموسة" ..

ارتسمت بسمة هازئة على شفثيه وهو يختم جملته:

-ده تلاقيها دلوقتي بتتعاون مع أمي على الإثم والعدوان.

احتفظ وجهها بتكشيرته العظيمة، وهتفت به:

-إنت هتهزري يا "هيثم"؟ أختي هتتسجن ظلم، وإنت فايق للتنكيت.

ازدرد ريقه، وخفف من ابتسامته، ليرد بحذر؛ وكأنه ينصحها:

-إن شاء الله مش هتوصل لكده، وهيبقى ليها حل.

ارتخت عضلات وجهها المتصلبة، حين قالت بحدية أقل:

-يا ريت والله، لأن بجد حرام أوي اللي بيحصل في "فيروزة" ده كله، هي ماتستهلش كده.

امتدت يد "هيثم" لتمسح على جانب ذراعها؛ وكأنه يداعبها، قبل أن يطلب منها بلطف:

-اهدي بس إنتي، أعصابك يا "هموس".

نظرت لحركة يده، صعودًا وهبوطًا على طول ذراعها، ومنحته تلك النظرة الصارمة، لتوبخه بعدها بتحفظٍ شديد:

-وده وقته، شيل إيدك!

رفع كفيه في الهواء متراجعا عن الاقتراب منها، فلم تكن في مزاج جيد لتقبل مزاحه؛  
لكن ابتسامته لم تفتر نحوها.

.....

على الجانب الآخر، جلبل صوت "فضل" المتزمت بين جدران غرفة الصالون،  
ليعلن عن سخطه الصريح تجاه ما حدث مع "فيروزة"، بل وأكثر من ذلك حملها  
المسئولية كاملة عن وقوعها في تلك المصيبة؛ وكأنها كانت تتصرف برعونة -ودون  
تفكير- لتزج بنفسها في المتاعب، بإرادتها الحرة. تحفز في جلسته، ولوح بذراعه  
في وجه أبيه متابعا تدمره:

قولتلك يا با من الأول، أعدة الحريم لوحدهم بتجيب نصايب.

رد عليه والده بزفيرٍ منزعج:

خلاص يا "فضل".

تحولت نبرته لشيء آخر، يحمل الشدة، وأيضا الإلزام، عندما أكمل حديثه، وعينه  
موجهتان نحو زوجة عمه:

-لازما ولا بد يكون في راجل معاهم، والكلام ده نهائي.

عاتبته "آمنة" قائلة بنظراتها الحزينة، ووجهها التعس:

-مالوش لازمة تقول كده يا "فضل"، احنا طول عمرنا في حالنا، وماشين جنب  
الحيط، لا حد سمع عنا حاجة، ولا بنعمل مشاكل مع خلق الله.

سألها "فضل" بصوته المتعصب، وعرقه الغزير يتجمع عند جبينه، بسبب انفعاله  
المغتاظ:

-أومال اللي حصل ده تسميه إيه؟

ضغطت شفيتها قليلاً، قبل أن تجيبه:

-النصيب..

علق بأسلوبٍ متمر، وشفته مقلوبتان:

-كلام خايب!

رد عليه "اسماعيل" بنفاذ صبر:

-مش وقته يا ابني، عايزين نشوف هنعمل إيه..

توقف ثلاثتهم عن الحديث، حين ولجت "همسة" إلى الغرفة، حاملة بين ذراعيها صينية بها عدة فناجين للقهوة، أسندتها على الطاولة التي تنتصف الأرائك، وتراجعت لتجلس في واحدة شاغرة، وعلى مقربة منها جلس "هيثم"، بعد أن انضم إليهم. ارتكزت أنظار "فضل" على وجه زوج ابنة عمه، رمقه بنظرة مغلولة، وصوت هدير أنفاسه شبه مسموع، ثم تشدق هاتفاً بنزقٍ، مستخدماً يده في الإشارة نحوه:

-ولما إنتو عيلة في قلب بعض، وما فيش مشاكل، ليه أخت الأفندي اللي متجوزاه "همسة" اتبلت على البت أختها؟

شعرت "همسة" ياهانة واضحة تسيء لتوأمتها في كلامه عن شخصها، ناهيك عن تقليده من شأنها هي شخصياً؛ وكأنها نكرة، فصاحت فيه تحذره:

-أختي مش بت، ليها اسم تناديه بيه.

تصلب في جلسته، وقست ملامحه إلى حد كبير، وهو يرد بنوع من الهجوم:

-إنتي هتعلي صوتك عليا؟

قبض "هيثم" على كتف زوجته يمنعه من النطق، وانتفض واقفًا ليرد منذرًا إياه، بنفس أسلوبه العدائي:

-إلزم حدودك! دي مراتي اللي بتفكر تغلط فيها، هي مش سايبية، ولا شغل فتونة، هتقل أدبك عليها، هتلاقيني معلّم عليك في الناحية الثانية من وشك.

هتفت "آمنة" بحرقة، وقد فاض بها الكيل من تلك المشاحنات الجانبية:

يا ناس كفاية خناق ومشاكل اللي يكرمكم، احنا كلنا هنا عشان نشوف حل للمصيبة اللي فيها بنتي.

رفعت "همسة" ذراعها لتمسك بمعصم زوجها، جذبته منه ليجلس، وهي تقول له:  
تعالى يا "هيثم".

غمغم بتبرم خافت، ونظراته الحائرة مسلطة على وجه "فضل":

قريبكم ده أعوذو بالله.

ردت عليه بصوتها الهامس:

-مكانش كده زمان، كانت أعدته حلوة، ودمه خفيف، والكل بيحبه، معرفش قلب كده ليه!

التفت ناحيتها ليحدجها بنظرة مغتظة غاضبة، وهو يرد من بين أسنانه المضغوطة:

-نعم .. في إيه؟

سألته بعدم فهم، بنفس النبرة الخفيضة:

إيه اللي في إيه؟

احتدت نظراته نحوها، وأجابها متسائلاً بصوتٍ بدا محمومًا:

إنتي هتتغزلي فيه قصادي؟

نفت على الفور سوء فهمه، لتصيح له:

-لأ يا "هيثم" مقصدش، بس حساه بقي واحد تاني.

جاء رده صارمًا بشأن تلك المسألة، وهو ينهرها:

-لا تحسي ولا غيره، الكائن ده مايتحطش في أي جملة مفيدة ولا ضارة.

هزت رأسها بقبولٍ، لترد بعدها:

حاضر.

ثم تابع مخاطبًا إياها بصوته الهامس، وعيناه تتطلعان إليه:

-ده تنح، ودمه واقف.

تلقائيًا نظرت في اتجاه "فضل"، والذي تجشأ بصوتٍ خافت، بعد أن انتهى من

تجرع زجاجة المياه الغازية، ليمسك بفنجان القهوة، وردت بنفورٍ انتشر على محياها:

معاك حق.

.....

انتهى عامل القهوة من رص أكواب الشاي الساخنة الجديدة، على الطاولة المربعة

الموضوعة بين ثلاثتهم، ليجمع بعدها الأكواف الفارغة من أمامهم، وينسحب تاركًا

إياهم يتناقشون في اهتمامٍ حول الموضوع الشائك، المطروح على الساحة، وعلى

غير العادة، كان الجد "سلطان" متواجدًا في الدكان لوقتٍ متأخر؛ لكن الخطب  
جلل، وحتماً سيحتاج حفيده لمشورته. لم يمد "تميم" يده ليمسك بكوبه، وتطلع  
إلى والده الذي سأله بتعابيرٍ جادة:

-يعني مالهاش حل؟

أجابه بوجومٍ شديد، وظهره محني قليلاً:

-مش عارف، بس أنا استحالة أرجعلها.

علق "بدير" في يأس:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

أراح ابنه ظهره للخلف؛ لكن بقي كتفاه متهدلان، حين أضاف بحنق:

-الواحد إزاي كان مخدوع فيها كده، ده أنا بأفهمها وهي طيارة، أبقى غبي  
للدرجادي؟!!!

عقب عليه جده "سلطان" بنبرة عقلانية:

-صوابك مش زي بعضها، وزى ما في العيلة الكويس، فيها برضوه الوحش.

التفت برأسه ناحيته ليرد بندمٍ لم يجاهد لإخفائه:

-وكانت قدامي الفرصة أسيبها، ولا تظلمني ولا أظلمها.

وفجأة خاطبهما "بدير"؛ وكأنه تذكر ما غفل عنه:

-أحنا ناسيين حاجة مهمة يا بابا.

تركزت الأعين عليه؛ لكن بادر "سلطان" بسؤاله:

إيه هي يا "بدير"؟

أجاب مشيراً بعينه:

-الكاميرات اللي ركبت.

نظر له "تميم" بغرابة، ولم يتفقه ذهنه إلى مقصده، بينما علق الجد مشاركاً في حوار:

صحيح، إنت كنت قولت هتجيب واد يركبهم.

هز رأسه مؤكداً، وقد لانت ملامحه:

أه وعملت ده فعلاً وقتها.

ليقتل الفضول الذي يساوره، تساءل "تميم" على الفور:

-كاميرات إيه اللي بتحكوا عنها دي؟

بأريحية أجابه والده، دون أن ينتبه لكونه لم يأت على ذكر تلك الحادثة من قبل:

-بعد السرقة إياها، كان اللواء معرفتي قالي أركب كاميرات للأمان في العمارة، وده عملته واحدة ناحية المنور، وواحدة عند المدخل، ما نشوف كده جايز تكون بينت حاجة.

استنفر في جلسته، وتطلع إليه بنظرات حادة، قوية، متسائلاً في ضيق بائن على تقاسيم وجهه:

سرقة؟! إيه ده كمان؟ وإزاي أنا معرفش أي خبر بيها؟

تدارك والده خطأه غير المقصود، لعق شفثيه، وقال متهرباً من إجابته:



-مش وقته يا ابني.

أصر عليه بعنادٍ، وكل الضيق يتجمع في عينيه الملتهبتين:

-لأ يا بابا وقته، هو أنا قاعد كده معاكو زي الأطرش في الزفة ولا إيه؟

رد عليه جده بهدوءٍ:

-موضوع وعدى بقاله فترة، وخلصنا منه.

استدار برأسه في اتجاه جده، وقال له بإلحاحٍ، رافضًا تمرير الأمر:

-لازمًا يكون عندي علم بيه، مين اللي اتجراً وفكر يخش البيت؟ وبعدين افرضوا

كان الحرامي ده عمل حاجة فيكو ولا آ....

قاطعته "بدير" موضحًا له:

-ما هو مكانش حد غريب.. طيش عيال وراح لحاله.

احتقنت عيناه بشدةٍ، وهتف في استنكارٍ:

-كمان؟ يعني حد نعرفه؟

لم يكن والده موفقًا في التطرق لذلك الموضوع تحديدًا، وبات مرغماً بالحديث عن

تفاصيله، فأردف طالبًا منه بملامح جادة:

-أيوه، بس قبل ما أقولك مين هو اوعدني الأول ما تتهورش عليه، الموضوع ده كان

اتحل وخلص من زمان.

توزعت نظراته بين وجهي أبيه وجده، وقال في صدمةٍ غاضبة:

-شكل الحكاية كانت كبيرة.

رد عليه جده ملطفاً من حدة غضبه:

-لأ مش أوي.

بجملٍ مرتبة مختصرة، قصّ عليه تفاصيل حادث السرقة، والذي وقع خلال ليلة عرسه، حيث قام "هيثم" بالتسلل خلسة للمنزل، عبر منور العمارة، وتسلق الشرفات غير المستخدمة، المطلة عليه، ليقتحم المكان من المطبخ، ومنه إلى الدرّهة الطويلة، وصولاً إلى غرفة النوم، وسرقة الدرج العلوي الذي كان يحوي بعض النقود، ثم هروبه، واكتشاف السرقة، ومعرفة هويته بمساعدة غير رسمية من أحد رجال الشرطة. إربد وجه "تميم" بالغضب الشديد، وهدر من بين شفّتيه بانفعالٍ مغتاظٍ:

-ابن ال.....، ويوم فرحي كمان!!!

عقب عليه الجد محاولاً تهدئة انفعالاته الشائنة:

-خلاص يا "تميم"، الواد تاب ومكرهاش ثاني، وأبوك عمل معاه الصح.

توعده بهسييس:

-وقعته سودة، بس أفوق من اللي أنا فيه ده.

رد عليه "بدير" بضجرٍ ظاهر عليه:

-هتخليني أندم إني قولتلك.

قال له معاتباً:

-كان لازم أعرف بنصيبته دي من بدري يا حاج.

سأله والده بتبرم:

يا ابني الواد ماشي زي الألف، هنرجع نحاسبه تاني على القديم؟  
ضم شفثيه في غيظ، كان في موقفٍ مُحير، واستدار برأسه ليحدق في وجه  
"سلطان" الذي استطرد يقول لهما:

سييكم من الهري ده، وخلصنا نشوف الكاميرات، جايز نلاقي فيها اللي عايزينه.  
غمغم حفيده على مضض:

ماشى.

في حين أضاف والده قائلاً:

هاجيب الواد اللي ركبالي، ونشوف.  
زفر وهو يهز رأسه بإيماءات متتالية:  
طيب.

.....

لم يكن مُحنكًا فيما يخص استخدام التكنولوجيا الحديثة، فقط معلومات عامة أولية، تمكنه من التعامل مع أجهزة المحمول المتطورة؛ لكن فيما يتعلق بالمستجد والمستحدث من الأدوات الالكترونية وتعقيدها، لم يكن ملماً بها، ولهذا -وبشكلٍ بديهي- لم ينتبه "تميم" للجهاز العجيب الموضوع على (الدرسوار) في صالة منزله، والذي يشبه تلفازًا صغيرًا، معتقدًا أنه أحد قطع الديكور، المُهداة ربما من زوجته أو شقيقته، خاصة مع تغطية والدته له بقماشٍ مطرز، لحمايته من الاتساخ، كعادة معظم الأمهات.

كان المنزل خاليًا من والدته، وبالتالي كانت المهمة بسيطة، لا أسئلة، ولا استفسارات فضولية تحتاج لتبرير. جلس الشاب المختص بتركيب الكاميرات وتفريغها على مائدة الطعام، موصولاً حاسوبه الشخصي، بالجهاز الآخر، تطلع "تميم" إلى شاشة الحاسوب المحمول، وحملق فيها مراقبًا ما يفعله بحيرة، ما استطاع أن يفهمه من ثرثرته المملة، طوال عمله المتلكح، أن الذاكرة المستخدمة في تسجيل ما يدور، تمحو تلقائيًا ما يُوجد عليها، بعد وصولها لعدد معين من الساعات، وامتلأها، لتبدأ عملها من جديد، وسعة تلك الذاكرة يجعلها تستغرق ما يقرب من الأسبوع. تنفس الصعداء، فهناك احتمالية كبرى لتسجيل الشجار، ارتكزت كامل حواسه على تفريغ الأشرطة، وكانت المفاجأة، من الزاوية العالية الموضوعة بها الكاميرا، حين رأى "خلود" تبعد مسافة خطوتين عن "فيروزة"، ولا تمكن الأخيرة بأي حالٍ من الوصول إليها، ودفعها، كما أظهرت انزلاق قدم الأخيرة بميلها الزائد للخلف، دون أن تلمسها يد. رفع أنظاره نحو والده وجده اللذين كانا يراقبان الشاشة مثله، نطق والده أولاً؛ وكأنه يحاول الكشف عن نواياه:

هتعمل إيه يا ابني؟

أجابه "تميم" مبتسمًا بثقةٍ وبكلمة موجزة:

-الصح..

ثم وجه حديثه للشباب بما يشبه الأمر:

-حطلي الفيديوهات دي على فلاشة.

هز الشاب رأسه طواعية وهو يرد:

-ماشى يا معلم.

رفع "تميم" رأسه في اتجاه والده، حين طلب منه والده بهدوءٍ جاد:

-تعالى يا ابني، عايزك في كلمة.

انصرف معه بعيدًا عن الشاب، لكون الموضوع حرجًا، وخاصًا، استطرد "بدير"  
يحذره بلهجة جادة:

-خالتك مش هتعددي ده على خير.

وقبل أن يعلق عليه، رد "سلطان" الذي تبعهما بحسم:

-بنتها السبب، تستحمل بقي غلطها.

قال له "بدير" بتوجيس:

-الموضوع كده هياخد سكة ثانية خالص يا حاج، بوليس ونيابة، وجايز محكمة،  
و"بثينة" دماغها شيطان.

تنحج مرددًا بتريث:

-هنحاول نلمه.. وبالعقل.

هتف "تميم" بنبرة عازمة، وعيناه تلمعان بوميضٍ غريب؛ لكنه مشرق، وممتلئ  
بالحماس:

-هنشوف حكايتها بعدين، المهم دلوقتي الغلبانة اللي اتظلمت بسببها، وكانت هتضيع  
من غير ذنب.

.....

ساعات مكثها أمام القسم الشرطي، منتظرًا قدوم الضابط المسئول عن التحقيق في البلاغ المقدم ضد "فيروزة"، وبصحبة محاميه، من أجل تقديم دليل براءتها؛ وإن كان يعني ذلك نشوب مشكلات عائلية لاحقة، لتوريطه طليقته السابقة في مسائل قانونية، تخص تقديم البلاغ الكاذب وتبعاته، وربما لجوء الأولى لرفع قضايا ثأر شخصية، لرد الاعتبار. لم يكثر لكل ذلك، المهم حاليًا أن يوفي بوعده الذي قطعه لها، وما إن التقاه الضابط "محمود" حتى أعطاه (الflashe) على عجلة، ليقول له موضحًا:

-دي نسخة يا باشا، وتقدر تشوف الأصل من الكاميرات عندنا.

تفحصها الضابط بأصابعه، قبل أن يضعها في المكان المخصص لها، ليوصلها بجهازه، ثم قام بتشغيل محتوياتها، وتابع ما تعرضه التسجيلات باهتمام، ليهز بعدها رأسه في استحسان، أوقف تشغيل ما يُعرض، والتفت إلى "تميم" ليسأله بنوع من الفضول:

-بس مش غريبة إنك بنفسك جاي تعمل كده؟ والموضوع كله يخص مراتك؟

صح له بنظرات نافذة، وتلك البسمة الخفيفة تتشكل على زاوية فمه:

طليقتي يا باشا، وماينفعلش أسكت عن الحق.

مط ثغره في إعجابٍ للحظة، ثم قال:

تمام.

تساءل "تميم" في تلهف متحمس، ونظراته تتجول على وجه الضابط، ومحاميه:

-إيه اللي هيتعمل بعد كده؟

هنا أخبره المحامي بهدوء:

متقلّش يا معلم "تميم"، ولا تشغل بالك، الإجراءات معروفة، وأنا هتابع بنفسي كل حاجة، وهتاكد إن الأستاذة "فيروزة" معدتش طرف في أي حاجة.

تحولت أنظار "تميم" نحو الضابط "محمود" الذي أضاف عليه بابتسامة متكلفة، وهو يسحب فاتحة الأظرف من غمدها ليعبث بها، كلازمة معتادة منه:

-زي ما المحامي قالك.. اطمن.

نهض واقفًا، ومد يده لمصافحته، وهو يشكره بامتنان:

متشكرين يا باشا.

تراجع "محمود" في مقعده، وأراح ظهره معلقًا بقليلٍ من السخرية:

أنا معملتش حاجة، بالعكس إنت اشتغلت شغل الداخلية!

منحه "تميم" ابتسامة صغيرة صامتة؛ لكن صوته الداخلي انطلق في جنباته، وعقله يجسد ملامح وجهها في مخيلته:

طالما ليها، أنا مستعد أشتغل أي حاجة.

.....

انتصفت الشمس في كبد السماء، ولم تمنع الستائر الخفيفة أشعتها من اختراق الزجاج لتملأ الأرضية بها، وطيف وجهه المتلهف خوفًا عليها، يحتل المساحة الخالية على البلاط اللامع. باعدت "فيروزة" نظراتها الشاردة عن وهم صورته، لتحقق في وجه الضابط "محمود" الذي جاء إليها خصيصًا، ليخبرها بالتطور الجديد في البلاغ المقدم ضدها، وكيف انتهى بأعجوبة لصالحها. لم ترمش بعينيها رغم

صدمتها من تصرف "تميم"، فلم يخطر على بالها مطلقاً، أن يبذل قصارى جهده -  
وأزيد- لأجلها، بدا الأمر محيراً وموتراً، ملبكاً إن دق التعبير، توقفت عن شرودها،  
محافظة على جمود ملامحها، لتسأله بلهجة هادئة:

-يعني أقدر أمشي من هنا؟

أجابها ببساطة:

-أيوه طبعاً، إنتي حرة تتحركي، وكمان الأمن اللي واقف برا خلاص مالوش لازمة.  
هزة خفيفة من رأسها صاحبها ردها المختصر:

-كويس.

وقبل أن ينصرف "محمود" من الغرفة، أشار لها بسببته مردداً:

-حاجة أخيرة بس محيراني.

نظرت له بحاجبين معقودين، وهي ترد:

-إيه هي؟

أمسك بقبضته حافة فراشها المعدني، وأجاب:

-إنتي مزعلة مين عشان يوصي عليك بالشكل الغريب ده، رغم إنه محضر عادي،  
لسه قيد التحري؟!!

زادت تعبيراتها تعقيداً، وهتفت:

-مش فاهمة!!

بسّط لها سؤاله المحير قائلاً:



-يعني في حد حاطك في دماغه، وحد مش سهل كمان!  
سكتت للحظاتٍ تدير الأمر، وتفكر فيه مليًا في عقلها، بلعت ريقها في حلقها  
الجاف، وسألته بحيرة ملموسة في صوتها:  
-وأنا المفروض أقلق ولا أعمل إيه؟

رد بدبلماسية:

خدي بالك وخلص ..

ثم ابتسم منهيًا حديثه معها بقوله:

-وحمدلله على سلامتِك مرة ثانية.

قوست شفيتها قليلًا لتظهر ابتسامة باهتة عليهما وهي ترد:

-الله يسلمك.

شيعته بنظراتها إلى أن خرج من الغرفة، لتستغرق في أفكارها الحائرة مجددًا،  
وبشكلٍ أعمق، سؤالاً واحدًا ظل يلح عليها:

-مين ده اللي عايز يأذيني؟!

لكن أفعال "تميم" وشهامته الزائدة معها، عادت لتطفو على السطح، وتلهيها عن  
التفكير مؤقتًا في أي شيء .. سواه!

.....

لم يمر الكثير بعد على زيارة الضابط "محمود"، لتأتي إليها "علا"، حاملة بطول ذراعها لباقة من الورد الطبيعي الأبيض، أسندته على طرف الفراش، وجلست إلى جوارها ماسحة بيدها على كفها، نظرت نحوها، وابتسمت قائلة في لطف:  
حبيبتي.. قلبي عندك.

وقبل أن تخبرها "فيروزة" بشيء، تجمدت الكلمات على طرف لسانها، بسبب رؤيتها لـ "آسر" الذي انضم إليهما، وفي يده علبة شيكولاته فاخرة، وضعها على الطاولة، واستقر في المقعد متسائلاً في اهتمامٍ مبالغ فيه:  
عاملة إيه دلوقتي؟

أجابت على مضض، وبضيقٍ لم تسع لتغطيته:  
-الحمدلله.

أشار بعينه نحو باب الغرفة المفتوح، وعلق متسائلاً:  
-بس مش غريبة إننا ملقناش حد من الأمن برا؟ يعني على حسب ما عرفت كانوا مانعين الزيارة وآ...

قاطعته بجدية بحتة، وعيناها تحدجاء بنظرة غامضة:

-ما هو الأخبار الحلوة مابتوصلش زي الوحشة.

سألها "علا" مستفهمة، ووجهها يعلوه ذلك التعبير الحائر:

-يعني إيه؟

التفتت برأسها نحوها، وأجابت على مهلٍ، بدون التطرق لأي تفاصيل:

-المشكلة اتحلت، كان في سوء تفاهم..

ثم استدارت في اتجاه "آسر"، وأكملت:

-ومكانش في داعي تتعبوا نفسكم.

ردت عليها "علا" بعتابٍ رقيق:

إزاي تقولي كده؟ أنا والله اتجننت لما عرفت من "ماهر" باللي حصل، وبعدين

تتصلي بأخويا وماتكلمنيش أنا؟

تنحنحت بخفوتٍ، وابتسمت وهي تجاوبها:

محببتش أقلقك، على أساس إن ساعتها مكونتش عارفة أتصرف إزاي، وهو بيافهم

في الحاجات دي، بس الحمدلله، كله بقي تمام.

تحركت أنظارهما في اتجاه الباب، عندما بادر "آسر" مرحبًا بأحدهم بودٍ شديد:

جاي بنفسك يا "وجدي"؟ إيه الصدف الحلوة دي؟

تخرجت "فيروزة" من كثرة الزيارات الذكورية، والتي لا طائل منها سوى إرهاقها،

وتقييد حريتها، بالطبع رسمت تلك الابتسامة السخيفة على محياها، وهي تشكره

على قدومه، ولم تسلم من بعض النصائح الوجودية منه، بضرورة تجنب كافة أنواع

الشجارات والمشاكل، والتي تنتهي بتواجدها في قسم الشرطة. قبل أن ينصرف،

تساءل "وجدي" مخاطبًا "علا":

لو خلصتي أخذك في سكتي، أنا رايح ناحية بيتكم.

التفتت تلقائيًا ناظرة إلى "آسر"، كان التردد واضحًا عليها؛ لكن تلك النظرة الغامضة من الأخير، منحتها الجواب الحاسم، بالذهاب معه، وتركه بمفرده مع "فيروزة"، عبثت بحقيبتها، وردت بابتسامتها المشرقة:

أوكي.. أنا مش عايزة أتعب "فيرو"، هي أكيد محتاجة ترتاح.

ثم نهضت لتحتضنها، وودعت "آسر" قائلة له؛ وكأنها توصيه:

خد بالك منها

رد بابتسامة عريضة:

في عينيا، متخافيش عليها.

كانت حيلة مكشوفة، ومفهومة لها، ظلت محافظة على هدوئها، ورفيقتها تلوح لها بيدها لتنسحب مع "وجدي"، حاولت "فيروزة" ألا تحدق في اتجاه زائرهما الأخير، ضغطت على أصابعها في توتر، حيث أن تواجهه معها في الغرفة، بمفردهما، لم يكن من الصواب، اختفت ابتسامتها الباهتة، وطلبت منه، بتحفظ:

تقدر تمشي يا أستاذ "آسر"، أنا بقيت كويسة، وكمان عشان معطلكش.

ارتبكت، وكسا وجهها الشاحب القليل من الحمرة، حين وجدته ينهض من مكانه ليقرب مقعده من فراشه، تقريبًا ألصقه به، ورد في عتابٍ محب، ورأسه ينحني في اتجاهها:

أستاذ وتعطيني؟ ينفع كده يا "فيروزة"؟

رمقته بنظرة صارمة وهي تطلب منه:

لو سمحت ممكن تبعد شوية؟ كده أي حد ممكن يفكر إن بينا حاجة، وأنا مش عايزة شوشرة

بامتعايض منزعج قال لها:

حاضر.. طالما ده اللي عايزاه.

تراجع بمقعده خطوتين للخلف؛ لكنه أبقى انحناءة ظهره نحوها، واستأنف حديثه معها قائلاً بأسلوبه الناعم:

أنا مش فاهم إزاي يعملوا كده مع واحدة محترمة زيك؟

كانت غير رائقة المزاج لتبادله الحديث، يكفيها ما مرت به، ليعيد تذكيرها بالتفاصيل البغيضة إلى نفسها، اشتدت تعبيراتها، وحملت ناحيته باستغراب، وقد هتف عالياً:

أنا استحالة أسكت عن المهزلة دي؟ هو كل حد يقول كلمتين خلاص يصدقوه ويجرروه على الأقسام؟ البلد دي فيها قانون، وإجراءات رسمية لازم تتعمل قبل ما حتى يفكروا يقبضوا عليك.

علقت في هدوء:

-الموضوع اتحل، فمالوش لازمة نتكلم فيه.

أسبل عينيه نحوها يُخبرها بكلماتٍ بطيئة:

-لأ ليه لازمة، إنتي غالية عندي أوي، حتى لو مافيش نصيب بينا ..

أحنت رأسها على صدرها حرجاً منه، لم تحبذ تطرقه لتلك الجزئية، المصحوبة بذكريات مذلة، تزيد من إحساسها بالخذلان، ابتسم "أسر" وهو يعاتبها:

-وبعدين ينفع أعرف من برا، ومش منك؟ ده لولا "علا" كلمتني تستنجد بيا،  
مكوتنش هعرف باللي حصلك!

ضغطت على شفيتها قبل أن تحررها لتعلق عليه:

-أستاذ "آسر"، أنا آ....

امتدت يده لتمسك بكفها، انتفضت في ارتباكٍ حرج، ورمقته بنظرة حادة، كانت  
على وشك جذب يدها من أصابعه القابضة عليها؛ لكنه رفض تركها تملص منه،  
واعترف لها، وعيناه تسبحان في نظرات عينيها:

-أنا بأحبك يا "فيروزة"!

لم تتوقع بوحه بمشاعره، رغم صدها له بكل الطرق الممكنة؛ ولكن هز الغرفة صوتًا  
رجوليًا غاضبًا، يتهمها بوقاحة، عرفت صاحبه الفظ على الفور، دون الحاجة للنظر  
في وجهه المقيت:

-إيه جو الغراميات ده؟ إنتي عاملة فيها عيانة ولا مقضيها مسخرة وقلة أدب هنا؟!!!

استعادت "فيروزة" يدها، وهتفت محتجة على اتهام "فضل" المسيء لها:

-ماسمحلکش

في حين انتفض "آسر" من مكانه ليحده بنظرات معادية، وحذره بشدة:

-إنت مين يا كابتن؟ وإزاي تدخل علينا الأوضة كده؟

قست ملامح "فضل"، وزجره بسبابٍ حاد، قاصدًا التشاجر معه، وبكراهيةٍ

واضحة اندفعت من عينيه:

-أنا ابن عمها يا (...)!-

استشاط "آسر" على الأخير من إهائته الوقحة له، وأمام من؟ من يعدها خطيبته؛ كان شيئاً يمس هيئته، وإن كانت رجولته منقوصة؛ لكنه لن يقبل أبداً بالتحقير من شأنه، بينما رمقته "فيروزة" بتلك النظرة الساخطة الاحتقارية، فمجيئه كما عهدت منه -مؤخراً- كان مصحوباً بنوايا غير بريئة نحوها، لن تسلم منها، ولن تقوى على مجاببتها، نظراته الاتهامية نحوها أكدت لها ذلك، سيحطم ما تبقى منها بمزاعمه المهلكة لروحها التي ما زالت تتعافى .. وقبل أن يزيد الطين بلة، صرخت فيه لتوقفه، بما لم تتخيل أنها سترتضي به:

-ملكش دعوة بخطيبي!

تصريح مفاجئ وصادم، خرج من داخل الغرفة، ليرن صداه بقوة في الردهة، فهز بقساوته الجارحة، بدن ذاك القادم من على بعد، ليشعر "تميم" فجأة بخفقة قابضة اعتصرت بشراسة لا ترحم صدره، فجعلت مباحج الدنيا تختفي كلياً، وحلت تعاسة أبدية في عينيه، انسحب هارباً، وعبراته تختنق في حلقته، كانت حالته أشبه بمن فقد عزيز لديه، هبط الدرجات سريعاً، وقد أدرك الحقيقة المريرة، أن ما ظنه حباً ينمو بين ضلوعه، أغتيل بغتة في مهده، ولا عزاء إلا لنفسه

!!! .....

.....

## الفصل الثاني والستون

لحظة فارقة، لم تظن أنها ستحدث هكذا، حيث اختارت فيها الهروب مما يطاردها، ولإسكات لسانه الشرير الذي ينهش في سمعتها، بتهمه المجحفة، والتي لا تتوقف أبدًا عن النيل منها، لجأت لآخر الحلول المستبعدة عنها، إلى ذاك الذي زج بها منذ البداية في مستنقع الآلام، ليكون الخلاص لها منه؛ وإن كان يعني هذا إلقاء نفسها، في مجهول محفوف بالمفاجآت الصادمة لها؛ لكنها لن تُعايش مثل تلك التجربة المذلة مجددًا بسبب أكاذيبه المفضلة. رمقته "فيروزة" بتلك النظرة النارية الناقمة عليه، وأكدت له بصراخها:

إنت ملكش دعوة بأي حاجة تخصني من هنا ورايح.  
وبكل وقاحةٍ علق عليها "فضل"، والشرر يتطاير من حدقتيه:  
-ولما هو كان عاجبك من الأول، رفضتیه لیه؟!  
هدرت به بانفعال:



-وانت مالك؟

تابع "آسر" بنظرات فضولية، واهتمام لا بأس به، حدة الأجواء بينهما، وفطن لوجود رواسب خلاف سابق، ما تزال عالقة، وقد راقه الأمر كثيرًا، ففي الأخير هو يصب في مصلحته، لهذا استغل الفرصة، وهتف بنوع من الجراءة التي تُغَيِّر طبيعته الهروبية:

-اهدي يا حبيبتني، لو البني آدم ده مضايقتك فأنا جاهز أريه

زجره "فضل" قائلاً بنوع من الازدراء، وهو يرمقه بتلك النظرة الدونية بعد أن تحولت عيناه إليه:

-اركن على جمبك ..

تقدم "آسر" نحوه، ورد بتحدٍ، وهو يلوح له بذراعه:

-إنت بتكلم إزاي بالأسلوب ده معايا؟ إنت عارف أنا ممكن أعمل فيك إيه؟

بادله "فضل" سبة مهينة لإحراجة، وتحرك صوبه ليهم بضربه، مما دفع "فيروزة" للتدخل فورًا، وإيقاف تلك المهازل المخجلة بصراخها العنيف:

-بس بقي، كفاية فضايح.

على إثر صوتها جاءت "همسة" ركضًا من الخارج، متسائلة في جزع:

في إيه اللي بيحصل هنا؟

ردت عليها "فيروزة" بصوتها الصارخ، وتعبيراتها المهتاجة:

-تعبت بقي، سيديوني في حالي.

تبع "هيثم" زوجته، ومن خلفه ظهرت "آمنة"، ارتكزت نظرات الأول على وجه "فضل"، متعجبًا من وجوده، فقد تحجج الأخير بحاجته لشراء بعض الأشياء قبيل ذهابهم، وسيلحق بهم في المشفى فيما بعد، وها هو الآن متواجد بغرفة "فيروزة"، لم يسترح لحضوره، استراب من تصرفاته غير المفهومة، اتجهت أنظاره نحو "آسر"، واستنكر وجوده أيضًا، ثم تساءل بوجه متجهم:

دول بيعملوا إيه هنا؟

حرك "هيثم" رأسه في اتجاه "فيروزة" التي واصلت صراخها:

-كله يطلع برا، مشوهم من هنا، مش عايزة أتكلم مع حد.

ردت عليها "همسة"، وهي تمسك بها من ذراعها لتهدئها:

-حاضر يا "فيرو"، هنعمل كل اللي إنتي عايزاه.

وانضمت إليها والدتها لتحتوي غضبها الغريب، بينما أشار "هيثم" بذراعه للاثنتين ليطردهما:

-ياللا يا كابتن، سمعتوها، بالسلامة من هنا.

بسماعةٍ سخيفة، تنحح "آسر" قائلاً، وعيناه تتطلعان إلى "فيروزة":

-خلاص يا حبيبتى، هنتكلم تانى، نظبط فيه كل حاجة.

وصل إليه "هيثم" ودفعه نحو الخارج، بعد أن طرد "فضل" الذي كان يحترق غيظًا بالخارج، ثم صفق الباب في وجهيهما، وانزوى عند الركن يتابع بصمت، حالة تلك البائسة التي كانت تقريبًا في وضع انهيار.

.....

أين المفر من حبِّ حُكم عليه بالنهاية قبل أن يبدأ حتى؟ لذا كان كل ما سرقه، وفي غفلة منها، نظرة أخيرة لملامح وجهها المتشنج، وهي تنطق باعترافها المَهلك، لينسحب سريعًا بعدها، وصوت "آسر" يلازمه في عقله، ليؤكد له موافقتها الواضحة على خطبته، وأنها تنتمي إليه. "فيروزة"! اسم حُرْم من تداوله بين شفتيه، وإن كان قد مُنح فرصًا لينطق به أمامها وبعيدًا عنها؛ لكنه بات محرّمًا عليه كليًا من الآن فصاعدًا. وفي جانب هادئ تمامًا، في نهاية طريق الكورنيش الموازي للشاطئ، أوقف "تميم" سيارته، ليستند بظهره على مقدمتها، ويحدق بعينين تحتجزان العبرات الحزينة الرقراقة، وقلب محطم في زرقة المياه القائمة.

كانت المرة الأخيرة التي يسمح فيها لنفسه بالظهور بهذا الضعف، فكما أجاد إدعاء جهله بسرقة "هيثم" أمام أبيه وجده، متقنًا دوره ببراعة، بينما كانت والدته قد أطلعتة سابقًا على تفاصيل السرقة، سيفعل ذلك مجددًا، سيدرب نفسه، ويطوعها أكثر، ليجيد إخفاء مشاعره المهزومة؛ وكأنه جماد، بلا قلب نبض مرة لأجل الحب. مسح عبراته التي تسلت خارجه من طرفيه، بظهر كفه، وتحدث إلى نفسه قائلاً؛ وكأنه يحفزها:

-أيوه، إنت هاتقدر تنساها يا "تميم"، زيها زي أي حاجة كان نفسك فيها وراحت، مش نهاية الدنيا.

غلف نبرته حزنًا غير مستتر، وهو يكمل إفراجه عن مكونات نفسه لنفسه:

-بس هي مش زي أي حد..

أطبق على جفنيه بقوة، وهمس بحرقّة:

هي "فيروزة" واحدة وبس!

عند نطقه باسمها رغمًا عنه، أجهش بالبكاء، وقد فقد قدرته على ضبط انفعالاته، ببساطة خرجت مشاعره عن السيطرة، واستسلم لمرّة أكد لنفسه مرارًا وتكرارًا أنها ستكون الأخيرة، بإظهار جرحه المعنوي، بأكما حبًا يجهل عنه العالم بأسره .. فيما عدا قلبه!

.....

غيابه كان مريبًا حد الشك، وهي بمفردها مع أبنائه في البلدة، بعيدة كل البعد عن أجواء الصراع المحترمة في المدينة، أكلها فضولها وحثها على الذهاب؛ لكنها لم تكن لتتحمل أعباء ومشاق السفر بمفردها، ما نما إلى مسامعها من تطورات مثيرة حفزها على العودة، تبقى لها فقط إعلام زوجها، وسحب القطيع خلفها .. كعادته في تجاهل الرد على اتصالاتها المتعاقبة التي تلاحقه، خاصة حين يكون في ذروة عمله، ينسّت "حمدية" من الوصول إليه، لولا سماعها لأنفاس لاهثة، قبل أن تضغط على زر إنهاء الاتصال، تبعتها سؤال طفولي لصغيرة ما:

-ألو، مين معايا؟

اعتدلت في جلستها بشرفة منزلها المطلّة على الأرض الزراعية، وتساءلت بوجهٍ تبدلت ملامحه للجديّة التامة:

-مش ده تليفون "خليل"؟

أجابت الصغيرة بتلقائية:

-أيوه..

سألتها بشكلٍ آلي، وعقلها مشحونٍ تقريبيًا، بالتفكير الاستنباطي، في ماهية تلك  
الطفلة التي أجابت عليها:

هو فين؟

ردت باقتضاب:

هناديه ..

أرهفت "حمدية" السمع جيدًا للطرف الآخر، وبدأ لها أنها تسمع أنفاسٍ لاهثة لتلك  
الصغيرة التي تركض تقريبيًا، ثم جاء صوتها مناديًا بعفوية واضحة:

بابا! يا بابا!

انقبض قلبها بقوة، وشعرت بضيقٍ يجثم على صدرها، تماكنت أعصابها، وكتمت  
أنفاسها الشاهقة بيدها لتبدو هادئة كليًا، أتاها صوت زوجها واضحًا وهو يتساءل:

في إيه يا "كوكي"؟

جاوبته بتمهل:

حد يتصل بيك.

تصلب جسد "حمدية"، وبدت تعبيراتها غائمة، وزوجها يجيب على الهاتف:

ألو، مين؟

ردت عليه بوجوم شديد:

إنت فين يا "خليل"؟ ومين دي اللي ردت عليا؟

استطاعت أن تتبين الارتباك في صوته المهتز، حين ادعى كذبًا:

ده أنا.. على القهوة، مع صاحبي و.. آ..دي بنته كانت بتلعب في الموبايل وآ...

قاطعته متسائلة بقتامة:

جاي امتي؟

هتف دون تفكير:

على طول يا حبيبتى، ده أنا خلصت الشغل كله، وكنت هفاجئك وأرجع النهاردة..

ولسوء حظه هللت "سماح" تناديه:

يا "خليل"! السفره جاهزة، تعالى قبل ما الأكل يبرد.

لم تكذب "حمدية" أذنيها، كان النداء واضحًا، ويخص زوجها، وما تبعه من كلام

يشير لوجود ما يخفيه عنها، غلت الدماء في شرايينها، وتصاعدت إلى رأسها لتزيد

من حنقها، بالكاد كظمت غضبها وهو يهتف موضحًا بكذب:

مرات صاحبي عازمنا على الأكل، وأنا مش عارف أخلع منهم.

ردت تسأله مباشرة لتكشف كذبه الواهي:

هو إنت على القهوة؟ ولا عند مرات صاحبك؟

تلجلج وهو يقول:

ده احنا كنا في القهوة تحت بيت صاحبي، ومراته بتنادي علينا نطلع.

علقت عليه باستنكارٍ، ونظراتها تقدح بالشر:

-وواخدة عليك أوي؟ بتقولك يا "خليل" كده حاف؟

تنحنح وهو يبرر لها:

-دي أد أمي .. وأنا ما بأردش..

ثم أخفض صوته ليتغزل بها:

-ولا إنتي بتغيري يا "أم العيال"؟ ده إنتي اللي في القلب.

أنهت معه المكالمة قائلة بغموض، تأكدت أنه سيربك كافة حساباته:

-تعالالي على البلد على طول يا "خليل"، هنتكلم لما تيجي.

لم تمهله الفرصة للرد، وأغلقت الاتصال، وشكوكها الأنثوية تتزايد بداخلها، قبضت على أصابعها المحتوية للهاتف، وضغطت عليهم بشدة، حتى ابيضت مفاصلها، لتغمغم لنفسها بتوعدٍ بعدها:

-أه لو طلعت متجوز عليا، ولا بتلعب بديلك من ورايا يا "خليل"، ساعتها بس هتعرف مين هي "حمدية"!!!!!!

.....

في الناحية الأخرى، انسابت ساقى "خليل"، وشعر بانخفاض ضغط دمه، تهاوى جالسًا على الأريكة الموضوعة بجوار النافذة، اختفى التورد من وجهه، وتحول للشحوب والارتعاب، كان حرفيًا يرتجف، يدها تهتزان بتوتر رهيب. تطلعت إليه "سماح" باندهاش، وسألته:

-مالك يا راجل في إيه؟ مش على بعضك كده ليه؟

أجابها بغموض، وبصوتٍ متذبذب:

-نصيبية يا "سماح"، وحلت على دماغى!

قطبت جبينها متسائلة:

خصيبة إيه دي؟

لعق شفثيه، وأجابها بأنفاس مضطربة:

- "ح.. حمدية" اتصلت.

ردت ببرود:

ما تتصل، فيها إيه؟

انخفضت نظراته نحو هاتفه، الذي سقط من يده إلى جواره، وقال بتوجيس:

هي اللي كانت على الخط، وسمعتك إنتي والبت!

لطمت على صدرها في صدمة، ورمشت بعينها متسائلة:

يا لهوي، طب والعمل؟ تفتكر إنها شكت فيك؟

رد بتشتت:

مش عارف ...

استجمع نفسه، ونهض من مكانه بقدمين مرتعشتين، ثم أكمل عازماً، بتوتره البادي

عليه، ويؤبؤاه يتحركان بقلق كبير:

-بس أنا لازمًا امشي دلوقتي من هنا، وأرجع البلد

سألته "سماح" بعبوس:

طب والأكل؟



أجابها وهو يهرع متجهاً نحو غرفة النوم:

-كليه إنتي!

زمت "سماح" شفيتها في سخطٍ، وحركتهما للجانبين، قبل أن تدمدم بتذمرٍ، وهي رافعة ليدَيها في السماء:

-منك لله يا "حمدية"، دايماً معكنة كده عليا!

.....

مكثت في غرفتها وحيدة، منعزلة عن البقية، بعد أن خرجت من المشفى، وعادت إلى منزلها، رافضة النقاش مع أي أحد في قرارها الأخير، كانت بحاجة لمساحة خاصة، تجعلها تفكر برويةٍ، وبعمقٍ، فما حاربت لعدم حدوثه، أعلنت عن رغبتها في تنفيذه! دقت "همسة" الباب على توأمتها قبل أن تفتحه، وتلج للداخل، وهي حاملة لصحن صغير بيدها، ابتسمت تشجعها على تناول ما به:

-شوية شوربة بمكرونة لسان عصفور حكاية.

استلقت "فيروزة" على جانبها، ورفضت قائلة:

-ماليش نفس

أسندت الصحن على الكومود، وتمددت إلى جوارها، لتمسح برفقٍ على جانب كتفها، وسألتها بنبرة مهتمة:

-مالك يا "فيرو"؟ من ساعة ما رجعنا البيت، وإنتي واخدة جمب...

لم تجبها شقيقتها، وظلت ممددة على جانبها، استمرت "همسة" في تمسيد شعرها، وكتفها، وهي تسألها بالحاح طفيف:

حصل إيه في المستشفى خلاكي تتعصبي؟

لم تمتلك من الشجاعة ما يدفعها للالتفاف، والنظر في وجه توأمتها، وأجابت بفتور:  
-مافيش.

سألته مجددًا معللة أسباب سؤالها المستفسر:

- "فضل" ضايقتك؟ بيني وبينك كلامه بايخ معايا، وكان هيشتبك مع "هيثم"، فأكيد  
عمل دقة نقص معاكي، صح ولا أنا غلطانة؟

حافظت على جمود تعبيراتها، وتنهدت ترجوها بهدوء:

عشان خاطري بلاش تتكلم عنه، كفاية أوي إنه غار من هنا.

ابتسمت تؤيدها:

على رأيك..

أراحت "همسة" ظهرها للخلف، ووسدت يديها وراء رأسها، وأضافت:

-تعرفي يا "فيرو"، أنا فرحانة إنك هتتخطبي، مع إن الظرف مش مناسب، يعني

عشان اللي مريتي بيه، بس دي فرصة تدلعي، وتشوفي نفسك مع واحد بيحبك..

حاجة حلوة أوي إن الواحدة تحب وتتجوز حد كويس...

تحولت عباراتها للفضول عندما سألتها:

صحيح إنتي واقفتي عليه ليه؟ مش كنتي رفضتيه في البلد وآ...

قاطعتها منهية النقاش في ذلك الموضوع قبل أن يبدأ:

- "همسة" لو سمحتي، أنا دماغتي ثقيلة، وعازية أنام، ممكن تتكلم في ده بعدين.

هزت رأسها في تفهم، لتقول بعدها:

ماشى يا حبيبتى، خدي راحتك ..

ثم اعتدلت في رقدتها، ومالت نحو توأمتها تقبلها من أعلى رأسها، شعرت بتخبطها، بحالة العزوف المسيطرة عليها، ولم ترغب في الضغط عليها، لتحصل على ما تريد من معلومات، تركتها تختلي بنفسها، وختمت حديثها الودي معها بقولها:

أنا هاقد شوية مع ماما برا وهمشي، وهكلمك أطمئن تاني عليكى.

استدارت لتنظر إليها في امتنان، لترد بكلمة مقتضبة:

أوكى.

أشارت "همسة" بعينها نحو الكومود، قبل أن توضح لها:

الشوربة هغطيهالك، بس كليها، دي عمایل إيديا، وإنتي عارفة أنا طبخة بريمو.

حانت من "فيروزة" ابتسامة لطيفة تشكلت على ثغرها، وودعتها بنظراتها إلى أن خرجت من الغرفة، لتختفي تلك البسمة الزائفة، وتعود لحالة الجمود الحزينة التي تمكنت منها.

.....

منذ لحظة وصوله، وتبدد الهدوء الذي عم المنزل لصخب وشجار، لم يتوقف "فضل" عن إثارة المتاعب مع من يلقاه في طريقه؛ وكأنهم وسيلته لإفراغ الكبت المحبوس بداخله، بعد أن تمت إهائته لأكثر من مرة، أراد التغطية على شعور النقص المستبد به، باستعراض قوة زائفة على من هم أضعف منه؛ شخصية،

وبنيانًا. وبخطواتٍ متمهلة اقتربت منه "سها"، وهو جالس بمفرده في المضيئة لتسأله، دون أن يطرأ ببالها أنه سيثور هكذا في وجهها:

-مرات عمك و"فيروزة" بنتها عاملين إيه؟ عدت المشكلة اللي كانوا فيها على خير ولا إيه الأخبار؟ طمني كده عليهم.

التفت ناظرًا إليها بعينين حادتين، قبل أن يوبخها:

-مالك إنتي ومالهم يا ولية يا حشرية؟ عايزة تعرفي أخبارهم ليه؟ كنتي من بقية أهلهم وأنا معرفش؟ ولما أحب أتكلم في حاجة تخصهم هاجيبك إنتي يا أم مخ فاضي أحكي معاكي، وأخذ برأيك!!

تلون وجهها بحمرة خجلة من إهانتته الشديدة، وتقليله لشأنها، كانت أدري بطبيعته المتقلبة، ولم تقابل أسلوبه المتعنت معها إلا بالهدوء، فمن الخير أن تتجاهل فظاظته البشعة حتى لا تثير غضبته البائنة عليه، جلست على المصطبة الخشبية إلى جواره، وقالت متصنعة الابتسام، كأنها لم تسمع ما يهينها قبل ثوانٍ:

-وماله ياخويا لما نتكلم سواء، ما أنا مراتك بردك، وانت لما تفضفض معايا هتشيل عن قلبك وترتاح.

دفعها بقساوة من كتفها، ليزيحها من جواره، وقال بعينين شرستين:

-قومي فيزي يا ولية، اتكشحي من هنا، مش ناقصك!

ابتلعت مرارة الإهانة، خاصة حين رأت "سعاد" مُقبلة عليها، وفي عينيها نظرات إشفاقٍ ولوم، أطرقت رأسها، وانسحبت من المكان سامعة صوت الأخيرة يعنف ابنها:

حرام عليك يا "فضل"، عملتلك إيه المسكينة دي عشان تبهدلها كده؟  
لوى ثغره معلقًا عليها بنبرة جافية:

-مالكيش دعوة يامه، دي مراتي، وأنا حر فيها، إن شاءالله أقطم رقبتها...  
ثم اكتسب صوته إيقاعًا غريبًا وهو يتابع:

-مش زي بنت "آمنة" اللي ملاقتش اللي يربيهها ولا يلماها..

حملك في الفراغ أمامه، وكز على أسنانه متوعداً في نفسه- بنوع من التمني:

-آه لو كانت مراتي، كنت عرفتها مقامها، دي مكانش ينفعها إلا واحد زيي، يمشيها  
على العجين متلخبطوش!

استغربت "سعاد" من تحامله عليها، وسألته مباشرة بعد أن استقرت على المصطبة:  
-مالك ومال "فيروزه" يا "فضل"؟

انتبه لها، وأجاب وقد برقت عيناه:

-مافيش يامه، بس إنتي عارفة، أنا مابيعجنيش الحال المايل.

تهدل كتفاها، وأضافت في لهجة هادئة، متعمدة الدفاع عنها:

-بنت عمك طول عمرها في حالها، ماشية زي الألف، مالهاش في أي حاجة،  
فبلاش تيجي عليها تاني.

لا إرادياً، تحسس "فضل" بيده الجرح المتروك أثره على وجهه، بعد أن أزاح  
الضمادة من عليه، متذكراً عدائية "تميم"، وتهديداته التي لم تكن من فراغ، تقوس

فمه في امتعاضٍ ظاهر عليه، وهسهس بسبة نائية انحصرت بين شفثيه، بينما لانت تعبيرات والدته حين تكلمت بحماس:

-وبعدين المفروض نفرحها، أبوك قالي إنها وافقت على العريس، وكلها أيام وهتتخطبله ويتكتب كتابها، يعني احنا يدوب نجهز نفسنا عشان نروحها.

رد بوجه عابس:

-أنا مش رايح في حته.

سألته باستغراب، والدهشة تغزو محياها:

ليه كده؟ ده إنت ابن عمها الكبير، ومش عايزين النفوس تفضل شايلة من بعض، ده الضفر مايطلعش من اللحم.

أجلى أحوال صوته المحتشجة بنحنة عالية، قبل أن يعلق عليها بسخطٍ، مستخدمًا يديه في التلويح:

-المثل بيقول إيه يامه، أردب ماهولك (مش ليك) ما تحضرش كيله، تتعفر دقنك، وتتعب في شيله .. وأنا الليلة دي كلها ماليش فيها خلاص، أنا شيلت إيدي.

نطق بلسانه ما يناقض رغبته الحقيقية، فلو اتيححت له الفرصة، وكان في مركز قوة، وهي تحت يده، وحاضرة هنا في بلدته، لحشد أعيانها، وأجبرها على الزواج منه قسرًا، ومارس عليها طغيانه، كما اعتاد أن يفعل مع زوجته المقهورة، أشاح بنظراته عن والدته التي ما تزال محدقة فيها بتعجبٍ، تنهدت الأخيرة ببطءٍ، لم تعرف ما الذي يدور في رأس ابنها؛ لكنه لم يكن هكذا يحاوطه الغموض، نهضت من جلستها، وهي تردد في يأس:

هاقولك إيه يا ابني، غير ربنا يهديك لحالك.

بأعجوبة، وألعيب المخضرمين من المحامين، خاصة الداهية "آسر"، نجت "بثينة" ببدنها من كارثة كادت تزح بها بالسجن، وتعرضها لمشاكل في غنى عنها حالياً، بعد كشف الحقيقة كاملة، وإظهار براءة "فيروزة" من التهمة الملفقة التي اتهمتها بها، انتهى المحضر على خير، وحُفظ في الأدراج، كغيره ممن ينتهون دون تصعيد قانوني. تجرعت "بثينة" رشفة كبيرة من كوب الماء، وأسندته في مكانه بالصينية، ثم بدأت تهت جسدها بحركة عصبية، بعد أن جلست في الصالون، بصحبة ضيفيها "محرز"، وزوجته، تنوح مُصابها لهما:

-بقي دي آخرتها يا "هاجر"؟ شوفتي أخوكي وعمايله؟ كان ناقص يجبس خالته، ولولا ستر ربنا وولاد الحال!

نظرت "هاجر" لخالتها في حرج، وظلت تهدد رضيعها بين ذراعيها باهتزازة خفيفة ثابتة، بينما واصلت الأولى نديها الناقم:

-هي دي صلة الرحم اللي ربنا أمره بيها؟ مش كفاية مراته خسرت اللي في بطنها، لأ يزود الهم علينا ويجرجرنا في الأقسام.

رفرفت بعينها وهي تتطلع إلى زوجها في تردد، ثم استدارت ناظرة إليها مرة أخرى، وردت تواسيها:

-متزعليش يا خالتي، ده أنا جاية أخذ بخاطرك النهاردة، وأراضيك.

هتفت معترضة في سخط:

-لا يا "هاجر"، اللي عمل أخوكي ده مش ها يروح بالطبقة.

أردف "محرز" قائلاً بهدوء، وعيناه تلمعان في خبث:

يا حاجة ده إتي طول عمرك قلبك طيب.

انخرطت في بكاء مصطنع وهي ترد عليه، لتستجدي مشاعرها

هو أنا مضيعني غير قلبي وحنيته؟

وضع "محرز" يده على كتف زوجته يحثها على النهوض، عندما أمرها بلطف:

قومي يا "هاجر" شوفي بنت خالتك، أكيد الموضوع مش سهل عليها، طيبي

خاطرها بكلمتين، وخديها الواد تشيله شوية.

ردت بإيماءة موافقة من رأسها:

طيب يا "محرز".

بدا كحمامة للسلام ولسانه ينطق بمعسول الكلام، ليزيل الوحشة المعششة في

القلوب، ما إن تأكد من اختفاء زوجته بالداخل، حتى انتقل من مكانه، ليجلس

قريباً من "بثينة"، أحنى رأسه عليها، وهمس لها؛ وكأنه يلومها:

-كنتي هتودينا في داهية، مش تاخدي بالك إن في كاميرات راكبة؟ لولا البيه بتاعي

كان زمانك لبستي فيها.

مسحت دموع التماسيح التي لم تترك مقلتيها، وردت بخفوتٍ بلهجة جافة:

-وأنا كنت أعرف منين؟ بأشم على ضهري إيدي ولا بأضرب الودع؟

قست نظراتها، وانزلت مضيعة من تلقاء نفسها:



-وأختي "ونيسة" مجابتيش سيرة عن الحكاية دي.

سألها "محرز" بجدية، رغم انخفاض نبرته:

-سيك من ده، وقولي لي هنعمل إيه دلوقتي؟ زي ما احنا ولا غيرتي رأيك؟

تصلب كتفاها، وردت بحقدٍ مغلول:

-أغيره؟ ده أنا عايزة أنتقم منه، أولع في جتته، ده أنا خسرت كل حاجة.

ابتسامة لثيمة خبطت على شفثيه وهو يرد بتلذذ انعكس كذلك في نظراته:

-حلو الكلام، قريب هتسمعي البشارة.

تنهدت في رجاءٍ:

يا ريت يا "محرز".

أضاف طالبًا منها:

-عايزك تجيبلي الأمانة اللي شايلها عندك.

سألته في استغرابٍ، والفضول يكسو أنظارها:

ليه؟

أجاب بتهمكٍ، وبتعايرٍ جادة:

-صاحبها عايزها، هاقوله لأ؟ هاتيها بسرعة قبل ما تخرج "هاجر" من جوا.

همهمت وهي تحرك جسدها بثقلٍ، لتنهض من جلستها:

-ماشي ياخويا.

شيءًا بنظرات كالصقر وهي تمرق عبر الردهة الطويلة متجهة إلى غرفتها، فقد أذف الوقت للقيام بعملية التهريب المُرْتب لها، بعد أن صدرت الأوامر العليا بالشروع فورًا في تنفيذها ..... !!

.....

### الفصل الثالث والستون

بروية انحن بجسدها للأمام لتفتش بين أغراضها في دولاها الخشبي، خاصة الرف الأوسط، والذي تحتفظ به بأغطية الفراش المطوية النظيفة، وجدت "بشينة" ضالتها، فاعتدلت في وقفها، وأخرجتها من الداخل لتنظر لها مجددًا؛ لفة بلاستيكية مغلقة بإحكام، بلون داكن، لا يظهر ما تحويه بداخلها، تبدو بيضاوية بعض الشيء، أدارتها بين يديها، متسائلة في نفسها بفضول كبير:

يا ترى فيها إيه دي؟

لم تكن أيضًا بثقيلة الوزن؛ لكنها أصابتها بالحيرة، رغبت في معرفة ما بهل، ومع ذلك تحركت بها نحو ضيفها المنتظر بغرفة الصالون، ناولته إياها وهي تسأله:

دي عبارة عن إيه يا "محرز"؟

كان متحفظًا، ومراوغًا، في رده عندما أجابها:

سيبك منها، وخلينا في المهم...

ثم أسندها إلى جواره؛ وكأنه غير مبالي بها، ليقول بهدوء:  
عندي طلبية جديدة تبعنا، توريدة من العيار الثقيل، يومين وهخلصها، وأجيبك  
المعلوم.

هزت رأسها في استحسان، وعلقت:

-كويس.. أهي حاجة تعوض الخسارة اللي حلت عليا.

استأذنها "محرز" بتهذيب:

-هاتبعك معايا يا ست الكل، عايز فنجان قهوة مضبوط يعدل دماغني  
-إنت تؤمر يا "محرز".

تابعها بنظراتٍ مراقبةٍ إلى أن اختفت بداخل مطبخها، فأخرج هاتفه المحمول،  
وطلب على عجلةٍ أحدهم، أخفض نبرته، ليبدو صوته غير مسموعٍ حين قال:  
-الأمانة معايا، جاهزة على التسليم.

أصغى للطرف الآخر بانتباه تام، وعقب:

-حاضر هبلغ "حاتم"، وأظبط معاه.

بتعجلٍ أنهى المكالمة محافظًا على ثبات تعابيرها، وفحص اللفة بدقة، ليتأكد من عدم  
فتح "بثينة" لها؛ كانت كما هي، ابتسم في رضا، فقد كانت كل الأمور تسير على ما  
يرام، وجلس مسترخيًا منتظرًا عودتها إليه.

.....

-أيوه يا "هاجر" أخوكي ظلمني!

رددت تلك العبارة المصحوبة بنبرة حارقة، وصدرها قد غص بالبكاء الخانق، حين سألتها شقيقة طليقتها عن أحوالها، لم تمسح "خلود" دموعها عن خديها، تركتهم كدليل حي وملموس عن قهرها، ومدى الظلم الذي تعايشه الآن، نظرت في عينيها بنظراتٍ ملتهبة، وتابعت نحيبها بمشاعرها الناقمة:

-وانتي أكثر واحدة عارفة أنا بأحبه إزاي.

اقتربت منها بعد أن مدت رضيعها على الفراش، وضعت يدها على كتفها، وربت عليه بحنو، قبل أن ترد بتعاطف:

من غير ما تقولي، أنا متأكدة يا حبيبتي.

تحركت خطوة بعيدًا عنها، لتزيح يدها من على كتفها، والتفتت نحوها لتواجهها، واستطردت مُلقية بسيلٍ من التهم الحارقة عليه:

-وبدل ما يقف جمبي، يهون عليا اللي حصلي، رميني خالص، وشاغل عقله باللي خربت بيتي ...

سكتت للحظة لتثبط من اضطراب أنفاسها المختنقة، ثم كزت على أسنانها معاودة لومها له بعينين ناريتين:

-تلاقيه دلوقتي يفكر يتجوز من تاني، ويعيش حياته، وإياكش أنا أولع

اعترضت عليها "هاجر" بحذر، حتى لا تثور ثأرتها مجددًا:

-أنا مش معاكي يا "خلود"، "تميم" مش كده!!

نظرت لها ابنة خالتها بعدائية، في حين أكملت موضحة لها:

-ولا عمره بتاع بنات، ممكن أصدق أي حاجة عليه إلا كده، لا دي كانت أخلاقه، ولا تربيته.

علقت عليها بنظرات جامدة، وقد توقفت عن ذرف الدموع:  
-إنتي مش عارفة حاجة.. طيبة زي تملي يا "هاجر"، أنا بأموت كل ثانية وهو مش جمبي فيها، حسي بيا يا "هاجر"، ده احنا بنات زي بعض.  
هزت رأسها في تفهم، ثم انخفضت نظراتها نحو يد "خلود" التي قبضت على رسغها، ضغطت عليها الأخيرة بقبضتها، ورجتها بما يشبه التوسل:  
-أنا عاوزاكي تساعديني أرجعه.

حملت فيها باندهايش مليء بالغرابة، وسألتها بتردد:  
-إزاي؟

تعمدت "خلود" التهاوي بساقها لتركع قبالتها على ركبتيها، رفعت أنظارها المغلقة بدموع تنجح دومًا في استدعائها، حين حاجتها إليها، لتتسول عواطف الآخرين، انتحبت بصوت مرتفع، واستعطفتها بصوتٍ ذليل:

عشان خاطري يا "هاجر"، اقفي جمبي، ماترفضيش بالله عليك.  
حاولت الأخيرة سحب يدها من بين أصابعها التي تشدها، وفي محاولة يائسة منها لإجبارها على النهوض، تمكنت "هاجر" من إيقافها، ثم ردت عليها بقلة حيلة:  
-وهو أنا في أيدي حاجة؟ يعلم ربنا مقطعاة تقريبًا، وعمالة ألومه في الرايحة والجاية.  
لهج لسانها وامتزج عبراتها بمخاط أنفها، وهي تزيد من ضغطها عليها برجائها المُلح:

خليه يرجعلي، أنا بأموت من غيره، وحياة ابنك "سلطان"، اتكلمي معاه، قوليله مراتك بتحبك، مراتك مستعدة تسامحك، بس يردني ليه، إن شاءالله أكون خدامة تحت رجليه.

تفاجأت "هاجر" من حالتها التعيسة، بدت لوهلة مصدومة من وضعها، اعتبر ما تمر به يقطع نياط القلوب، ويدفعك للتعاطف مع ظروفها غير العادلة، بسبب إخلاصها الشديد وتفانيها في حبها، هزت رأسها بالموافقة، قبل أن تؤكد لها علناً، ودون إعادة تفكير:

من غير ما تحلفيني بيه، أنا هاعمل اللي عليا، وربنا يقدم اللي فيه الخير. برزت ابتسامة امتنانٍ باهتة على محياها، واكتفت بعدم إضافة المزيد، عل إلحاح من حول "تميم"، والإشارة لبؤسها الموجه، وقهرها المفطر للقلوب، يعيده إليها.

.....

أصغت لأكاذيبه والترهات التي لم يتوقف عن الثرثرة بها، منذ لحظة عودته إلى المنزل، مدعية تصديقها له؛ لكن حدسها يؤكد لها النقيض، لم تبتسم، وبدا وجهها خالياً من أي تعبير غريب، بل على العكس قالت له بنبرة عادية؛ وكأنها تهتم لأمره: -الله يكون في عونك يا خويا، غير هدومك كده وروق على نفسك.

مسح "خليل" عرقه الزائد المتصبب على جبينه، بمنديل قماشى مصنوع من القطن، لعق شفثيه، وتابع كذبه:

-والله يا "حمدية" الواحد بيتعب جامد في شغله، نفسي أسيب الهم ده كله وأركز في الدكان الجديد.

ببرودٍ مريبٍ قالت له:

-وماله يا "خليل"، شوف المصلحة فين وأعملها.

ابتسم مضيئاً:

تسلمي يا "أم العيال" ..

ثم تنهد في تعبٍ، وأكمل؛ وكأنه يوضح لها باقي روتينه:

-هاخش الحمام أخذ دش، لأحسن جسمي معفر من الطريق، وبعد كده هاقاعد معاكِ إنتي والعيال، وآخر النهار هنزل عند "آمنة" اعرف منها الجديد.

علقت بكلماتٍ موحية، أظهرت التوتر على ملامحه:

-الجديد كله عندي.

ابتلع ريقه، وسألها:

قصديك إيه؟

أجابته بنفس الهدوء المريب له:

-متخدش في بالك يا "خليل" ..

وأشارت له بيدها، حين تكلمت مضيئة:

-ابقي شوف السخان حرارته عالية ولا لأ.

حرك رأسه بإيماءة صغيرة، وخطا في اتجاه الحمام مكملاً حديثه له، بما يشبه الوعد:

-لما ربنا يفرجها معانا، هنبقي نجيب سخان غاز نركبه بدل التعبان ده.

قالت بوجه جامد التعبيرات:

إن شاء الله ..

رافقته "حمدية" بنظراتٍ غريبة، توحى بنوايا غير بريئة مطلقًا، وما إن اختفى في الداخل حتى توعدته:

قالوا للبوثة كام مهرك، قالت 10 بيوت خراب، وأنا هاخر بها عليك يا "خليل"، لو طلعت متجاوز عليا!!

.....

سكونها كان ظاهريًا؛ لكن بداخلها كان كل التخبط الذي لا يمكن تخيله، ما رفضته، وأصرت على عدم القبول به، لكونه يجبرها على اختيارات لا تروق لها، اليوم ترتضي به، وبخنوع يناقض شخصيتها المتمردة على ما هو عقيم. أشاحت برأسها للجانب، بعد أن اكتفت من التطلع لزرقة المياه المغربية، وعادت لتطلع إليه، بابتسامته المنمقة، وهيئته البقة، لم تمس "فيروزة" كأس مشروبها البارد، والذي تحول للسخونة بفعل حرارة الجو، واحتفظت بصمتها المغلف بابتسامة مرسومة بعناية، خلال محادثة "آسر" لها، في نفس المطعم الذي اجتمعت به توأماتها مع زوجها وأقربائه .. يا للسخرية! الزمن يعيد نفسه، مع فارق أنها تجلس كعرويس مستقبلية، لشخص لا تكن له أي مشاعر، ولا تشعر نحوه حتى بقدرٍ من الانجذاب .. انتفاضة منزعجة سرت ببدنها، وقد تجرأ مُضيفها على لمس كفها المستريح على الطاولة، سحبته سريعًا للخلف في صرامةٍ وتحفظ، أسندته في حجرها، لتمنعه من تكرار الأمر، وعلى عكس ما توقعه، بدا "آسر" هادئًا، لم يظهر



على تعايره المسترخية أدنى تغيير احتجاجًا على جمودها المتشدد معه، تركزت نظراتها المحملة بالكثير على وجهه عندما سألها:

تحبي نزل امتي ننقي الشبكة؟

ردت بهدوء، وتاركة لها حرية الاختيار؛ وكأن الأمر لا أهمية له لديها:

-الوقت اللي يناسبك.

استند بمرفقيه على الطاولة، بعد أن أبعده فنجان قهوته، بادلها النظرات المهمة، وقال:

-أنا معاك في اللي تختاره يا "فيروزة".

تنهيدة بطيئة لفظها من جوفه، ليكمل بعدها:

-بس أتمنى نخلص كل حاجة بسرعة، إنتي عارفة بعد كتب الكتاب لازم أسافر، عشان أرتب للإقامة بتاعتك، وبعد كده أبعث أجيبك، وآ..

أعطته جوابًا صريحًا:

-هسأل ماما، وأرد عليك.

أوما برأسه معقبًا عليه، وابتسامته ما تزال تحتل شفثيه:

-تمام ..

ساد الصمت من جديد، وعادت "فيروزة" لتدير رأسها بعيدًا عنه، وتحقق في أمواج البحر المتقلبة، في فترة وجيزة تبدلت الأمور عليها؛ ما بين سعيها لإقامة مشروع شبابي يدر عليها المال، وبين معاناتها لحرق حلمها، وبيعه بسعر زهيد،

ليتبّع ذلك إذلالها بين الأقرب إليها، وأخيراً تجربة الحبس المهينة، لمحات غير مضيئة مرت بحياتها أضفت المزيد من السواد عليها، انتشلها "آسر" من استغراقها في تفكيرها المرهق لروحها، نظرت إليه مرة أخرى، وقد استطرد متجاوزاً معها أطراف الحديث:

-أنا عاوز أسألك في حاجة، بس متردد شوية.

سمحت له قائلة:

-تفضل.

سألها بصراحة، ونظراته الحذرة تدور على ملامحها، لتلاحظ ردة فعلها:

هو إيتي زعلانة عشان مش هنعمل حفلة للخطوبة أو حتى للفرح؟ أكيد إيتي بتحلمي بليلة مميزة زي أي عروسة، وده طبيعي.

بمنطقية بحتة أجابته، ودون أن تتأثر تعبيراتها:

إنت هاتكون مش موجود، أعتقد ما فيش داعي ليه، الفرح مش هايكون ليه لازمة من غير وجود العريس.

كانت محقة في رأيها، وأيدها مدعيًا حزنه:

فعلاً.. اللحظة دي مهمة عندي زي ما هي عندك، بس أنا أوعدك هاعوضك.

حركت شفيتها لتظهر ابتسامة مجاملة، بينما أخبرها "آسر" وهو مسبل عينيه نحوها:

- "فيروزة"، أنا عايزك تتأكدني إنك هاتكوني أكثر واحدة سعيدة معايا.

ظلت ابتسامتها المصطنعة كما هي على ثغرها، وهي ترد:  
-إن شاء الله.

أرجع ظهره للخلف، واعترف لها بحمايس:  
-الصراحة متوقعتش إني أقع في الحب بسرعة كده، ومن أول لحظة شوفتك فيها مع  
"علا".

تنحنت بخفوتٍ، ورمشت بعينها قبل أن تتشجع لتبوح له:  
-أنا حابة أكون صريحة معاك، أنا لسه مش حاسة ناحيتك بحاجة دلوقتي، يعني  
بأقدرك، وأحترمك، جايز مع الوقت آ...  
قاطعها بشكلٍ مفاجئ:

-أنا مش مستعجل، المهم نكون سوا يا حبيبتى.  
قطبت جبينها، وضافت نظراتها في استنكارٍ، فاستأذن منها، وهو يتسم:  
-اسمحيلى أقولك يا حبيبتى..

اعتذرت منه بجديّة بائنة في قسماتها، وكذلك نظراتها:  
-ممكن ماتقولهاش غير لما تبقى العلاقة بينا رسمية، ده أفضل.  
اعترض بلطف:

-أنا عارف كلها كام يوم وهنكون سوا، بس مش قادر أستنى، أنا مجنون بيكي.  
تخرجت من اعترافاته الهائمة بها، لم تعتد على مثل ذلك، فتجنبت الخوض معه في  
جدال، ربما سيسير في اتجاه حميمي أكثر إن استمرت في الاعتراض عليه، وللمرة

الأولى امتدت يدها، وتناولت الكأس، بللت جوفها بالمشروب الطبيعي المنعش،  
وسألته بعدها:

-إيه اللي عجبك فيا؟ أنا عادية جدًا، معنديش حاجة مميزة، في مليون بنت غيري  
تقدر تتقدملها، وأكد ظروفهم أحسن مني.

صمت لبرهة، وعيناه مثبتتان على وجهها؛ وكأنها تدرسه، ليقطع سكوته اللحظي  
معترفًا لها بصدق؛ وإن كانت نواياه خبيثة:  
-لأنك يا "فيروزة" مختلفة عن أي حد عرفته.

.....

على الجانب الآخر، جلست "همسة" مع والدتها على طاولة ثنائية، وإلى يسارهما  
جلست "حمدية" بصحبة زوجها، على طاولة منفصلة، ركزت الأولى كامل انتباهها  
مع توأمتها، وخطيبها، بدت سعيدة للتجاذب اللطيف بينهما، وإن كان خاليًا من أي  
حماس؛ لكنه مُرضي للطرفين، مالت نحو والدتها، ليبدو صوتها مسموعًا إليها، وهي  
تقول لها:

-حلوين أوي يا ماما، شكلهم يفرح القلب، تحسيهم لايقين على بعض.

التفتت "آمنة" لتنظر نحوهما، وردت بإيجاز:

-ربنا يهنيم.

أراحت "همسة" جانب وجهها على باطن كفها، وتطلعت إليهما بمحبة، قبل أن  
تواصل حديثها:

يا رب.. بجد "فيروزة" تستاهل كل خير.

لم تكن ملامح والدتها بالسعيدة مُطلقًا، فقد رأت جريرة رفض ابنتها الأولي له كخطيب، وشعرت بأنها مرغمة على القبول به، لتتأى بنفسها من شر ابن عمها، وإن كان يعني ذلك تعاستها، دمدمت بأنفاسٍ مهمومةٍ، والضيق يكسوها:  
طول عمرها حظها قليل.

استغربت ابنتها من التشاؤم البادي عليها، واعترضت بصوتٍ خفيض:  
- ماتقوليش كده يا ماما، كل واحد بياخد نصيبه، وأنا واثقة إن "فيرو" هتلاقي مع "آسر" كل اللي كانت بتتمناه.

همهمت بفتورٍ:

يا ريت.

استدارت "همسة" برأسها للجانب الآخر، وألقت نظرة على "خليل" وزوجته، كانا مشغولان بتناول الطعام الشهي، احتلت الأطباق المليئة بالأصناف المختلفة مساحة الطاولة بالكامل، وهذا غير اعتيادي على خالها، حيث كان الأخير حريصًا كل الحرص على عدم إنفاق ماله إلا في الضرورة القصوى، وبمعايير معينة، واليوم ينفق بسخاء شديد، مطت فمها في دهشةٍ، ثم أبعدت نظراتها لتهمس لوالدتها، بنوعٍ من التهكم:

-أومال خالي واخد جمب مع مراته ليه؟ مش بعوايده يدلعها كده، جايلها أكل غالي، وحلويات وعصاير، ده يتحسد.

بدت غير مبالية وهي تجيبها:

-جايز بيعوضها عن غيابه.

لم يكن بالرد المقنع، فكتفت ساعديها، وتساءلت باهتمام فضولي:  
-تفتكري؟!!

نهرتها والدتها عن التدخل فيما لا يعنيهها مشددة عليها بنظراتها، وأيضًا بنبرتها:  
-مالناش دعوة بيهم، هما أحرار.

ثم طردت الهواء الثقيل من صدرها، ونطقت بتعب:  
-خلينا نشوف هنعمل إيه بعد كده، لسه ورانا حاجات كتير تخص جوازة أختك.

.....

بطيئة كأدهر، انقضت الليالي عليه كل واحدة تشبه الأخرى، بما فيها من كآبة،  
وأحزان، لم يترك نفسه لعقله، أرهقه بإغراقه في المزيد من الأعمال المستنزفة لقواه،  
ليعود مساءً إلى فراشه، غير قادرٍ على الحركة أو التفكير، فينام مانعًا الأحلام من  
زيارته .. عكف "تميم" على مراجعة دفتر آخر، بعد أن اكتشف عدم تطابق  
البيانات والأرقام في الدفتر الأول، قارنه بالفواتير المجمعة في ظرف قديم من اللون  
الأصفر الداكن، والتي من المفترض أنها تخصه، لاحظ وجود نفس الفروق على  
فترات متزامنة، ليست متعاقبة؛ لكنها متكررة بطريقة تدعو للاسترابة، ناهيك عن  
ضياع بعض الفواتير ذات القيم الشرائية العالية. لف يده خلف رأسه، ليضعها على  
عنقه، ويفرك بها فقراته المتيبسة، مرددًا لنفسه:

-الحكاية دي مش طبيعية، مش مرة والسلام!

قلب في الفواتير مجددًا، وفتش في الدرج السفلي الذي تتواجد به الأظرف، باحثًا  
عن فاتورة ضائعة، أو أخرى تائهة بين مقتنياته؛ لكن لا شيء، مما ضاعف من

حيرته، توقف عن البحث، وأرجع ظهره للخلف ليربحه، متابعًا حديث نفسه؛ وكأنه توصل لاستنتاج ما:

-إما إن في حد يسرقنا، يا حد بيعمل شغل من ورانا.

أنهكه البحث عن التفسير المنطقي للتلاعب البائن في الأوراق التي فحصها، وبالتالي لم ينتبه لمن يراقبه في الخلف، غامت تعابير "محرز"، وتوحشت نظراته، بخطواتٍ حثيثة، انسحب قبل أن يلحظه وهو يتوعده:

-هو لو فضل على الحال ده، كل حاجة هتتكشف، يبقى لازم أتغدى بيك قبل ما تتعشى بيا.

كالمذعور قفز في مكانه حين باغته "هيشم" متسائلًا من خلفه:

-بتعمل إيه يا "محرز"؟

استدار نحوه بوجه مفزوع، وادعى بالكذب، وهو يحاول لملمة شتاته:

-بأراجع الطلبات اللي ورانا في دماغى، الشغل اليومين دول كثير والحمدلله.

حك "هيشم" طرف ذقنه معلقًا عليه بطرافة:

-إيه يا عم هتחסدنا ولا إيه؟!

رمقه بتلك النظرة الحادة قبل أن يوبخه:

-أنا عيني شبعانة طول عمرها، الدور والباقي عليك، يوم هنا، ويوم في أجازة، تقولش موظف شغال في الحكومة.

رد عليه بتعصب:

هو بمزاجي يا "محرز"؟ ما إنت عارف المشاكل اللي واقعة اليومين دول، ده غير أخت الجماعة هتتجوز.

كان في البداية غير منتبه لجدالهما الصاخب؛ لكن إفصاحه عن قرب زواج "فيروزة"، وتطرقه إلى سيرتها، دفعت حواس "تميم" للتيقظ كليًا، واشتعلت بروحه المعذبة، تلك النيران التي تلتهم صموده الزائف، وتزيد من تحطيم فؤاده، جاهد بكل ما امتلك من بقايا قوى وعزيمة على تجاهل ما يخصها؛ لكنه فشل، دومًا تسحبه إلى دوامتها المهلكة؛ وكأنها تعرف من أين تُجيد تعذيبه. عض على شفته السفلى، كاتمًا مشاعر الحنين لحبٍ لا أمل فيه، وخنق بقساوة دمعة غادرة فرت إلى طرفه، ليهب بعدها واقفًا، ودافعًا مقعده الخشبي للخلف، قبل أن يلتفت نحوها ليصيح بهما بخشونة:

-ما كفاية رغي بقي، وكل واحد على شغله، البضاعة لسه في سوق الجملة، عايزة تتشحن على التلاجات.

نظر "محرز" في اتجاهه، وقال بوجوم:

-أنا واخذ الرجالة وطالع على هناك..

ثم التفت ناحية "هيثم" ليسأله:

-جاي معايا؟

هز رأسه بالنفي وهو يرد:

-لا، رايح مع الجماعة مشوار عند الجواهرجي، ولو خلصت معاهم بدري هحصلك.



انقلت أعصاب "تميم" بعد جملته العفوية تلك، بدا في تصرفه المنفعل عليه، وكأنه قنبلة تُزع فتيلها للتو، فامتلات الأجواء بالبارود الحارق، حيث صرخ به:  
نسينا من شغلنا، ونركز مع موال جماعتك يا "هيشم"، ده مال ناس، ومصالح، ولا عايزنا نجيب ضرفها بدري؟!  
رد عليه بأسلوبٍ شبه هازئ:

-لأ يا معلم، مش هتوصل للدرجادي، أنا بردك خايف على المصلحة .. وبعدين هانت .. كلها يومين وتنفض الليلة دي كلها.  
طعنه بكلماته الأخيرة دون أن يدري، فاحترق أكثر، وانكوى بنيران هجرٍ لن يتذوق مرارته سواه، بلغ تلك الغصة التي تشكلت في حلقه، وقال بجمودٍ منهياً الحوار، ومستديراً بظهره لبيتعد عنهما:  
-يكون أحسن.

ركل "تميم" المقعد بقدمه في عصبيةٍ، فأسقطه أرضاً، مما سبب صخباً مزعجاً، وجمع الدفاتر معاً، ليعيدها في مكانها بالخزينة، قبل أن يغلقها وينصرف. تابعه كلاً من "محرز" و"هيشم" بنظراتٍ متعجبة، فتساءل الأول في استغراب:  
-هو ماله ده؟

أجاب الأخير بنفس الحيرة:

-مش عارف!

ربت "محرز" بيده على ذراعه، وأضاف، وقد همّ بالتحرك:

حبيب خليك إنت هنا، وأنا ماشي.

أكتفى بهز رأسه، وظل ماكثًا في الدكان يدير حركة العمال، بعد ذهاب الجميع.

.....

لسه زي ما إنت؟

تساءل "محرز" بتلك الجملة الساخرة وهو يدفع الباب ليلج للسطح، ليجد "نوح" ما زال يدخن تلك النارجيلة المشبعة بالمواد المخدرة، وهو يجلس مستلقيًا على الوسائد الأرضية، انضم إليه، وجذب منه خرطومها ليسحب نفسًا عميقًا يختبر به مدى جودة المنتج، أطلق الدخان في الهواء، وقال في مدح:

حثة أصلي يا صاحبي.

قال بتفاخر، وهو يستعيد خاصته ليستنشق دخانها:

إنت عارفني، في المزاج أستاذ.

أثنى عليه "محرز" بهدوء:

طبعا.

ثم مد يده ليتناول إحدى زجاجات البيرة، نزع غطائها، وألقاه على الأرضية، ثم تجرع ما بها في جوعه، لتتقلص عضلاته مع مذاقها اللاذع، أدار رأسه في اتجاه رفيق السوء، عندما تساءل بفتور، وهو يضبط حجر الفحم المتقدم ليزيد من وهجه:

ها .. السبوية إيه المرادي؟ نقلة جديدة؟

نفي موضحًا بغموض مثير:

لا، حريقة كبيرة.

بدا من حديثهما المتبادل في اقتضابٍ، أنها لم تكن المرة الأولى التي يتشاركان فيها في أعمالٍ غير مشروعة، تساءل "نوح" بفضولٍ، وقد أظهر استعداداه للمشاركة:

-حلو .. فاضي ولا مليون؟

رد غامزًا له بابتسامة منتشية:

-مليون يا بونط.

حرر "نوح" أنفاس الدخان من صدره، وقال بتلميحٍ متوارٍ:

-كده الفيزيتا (التكلفة) هتعلّى!

أكد له بثقةٍ ملموسة في صوته، وتعاييره المستريحة:

-متقلّش.. هنتراضى كويس.

تساءل، وخرطوم نارجيلته بين شفتيه:

-زي الفل، الكلام على مين بقى؟

جاوبه بغموضٍ، ونظراته تحولت للقتامة:

-واحد حبيك..

سأله مستفسرًا، قبل أن يسحب نفسًا آخرًا عميقًا، حبسه للحظات في صدره المحترق:

-مين يعني؟

ثوانٍ لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة صمت خلالها، لينطق بعدها مفصّلًا عن هوية الضحية الجديدة:

- "تميم"، ودكانه.

بمجرد الإعلان عنه، هبطت الصدمة غير المتوقعة على رأسه، لتصيبه بالارتباك والذهول، اختنق بدخان نارجيلته، وسعل بقوة جارحًا أحباله الصوتية، بصوتٍ مبرحٍ مختلط ببقايا الدخان والسعال، سأله في توجسٍ مندهش:

- نعم .. "تميم" بتاعنا؟ ابن الحاج "بدير"؟

حرك "محرز" رأسه بإيماءة بسيطة، دون أن يبدو عليه التعاطف معه، وقال مؤكدًا - وبحسم- وتلك اللعة الشيطانية تتراقص في نظراته:

-أيوه .. هو المغضوب عليه ..... !!!

.....

## الفصل الرابع والستون

كان من العسير عليه، أن يستوعب فكرة التخلص من أحد أهم رجال منطقتهم الشعبية، ممن يملكون الصيت القوي، والسلطة غير المحدودة، ناهيك عن سيرة واسعة النطاق، بين أوساط رجال السوق، والتجار الثقال. ظل "نوح" باقيًا على حالته المندهشة، محددًا في وجه "محرز" بنظراته المصدومة، لعق شفثيه، وسأله مجددًا، ليتأكد من كونه لا يهزئ، وأن مفعول المخدر لم يعبث برأسه حقًا:

-إنت بتكلم عن المعلم "تميم" بتاعنا؟ مش حد تاني؟ ولا ده المدعوق اللي بأشربه؟

أجابه ببرود، وهو يحمر دفعة أخرى من الدخان من صدره:  
-أيوه هو!

دعك وجهه بيده المتعركة، وصاح متسائلاً في توتر:  
طب ليه؟ وعشان إيه؟

استوى على المقعد الهابط، واسترخى أكثر عليه، قبل أن يجيبه بغموض، وبلهجة  
شبه امرأة:

-من غير ما تسأل، وتوجع دماغنا، نفذ على طول  
ثبت عينيه عليه، وأظهر تردده بوضوح عندما أكمل:  
-بس الحكاية كده ماتطمنش، طول عمر المعلم جدد معانا، وآ...  
قاطعته بجمود، وتعايره القاسية بائنة للعيان:  
-ساعته أزفت، كفاية عليه كده!  
اعترض بنفس الخوف البائن في نبرته:  
-بس آ...

تلك المرة قاطعه بحزم، ليقطع عليه السبل للتراجع:  
-بأقولك إيه، ماتلوكش كثير، واعتبره زي أي مصلحة بنخلصها، الفرق هناخذ سبوبة  
زيادة.

ورغم هذا رد "نوح" بتوجيس مفزوع:

-ده احنا هنهيج علينا الدنيا كلها، المعلم "تميم" مش واحد عوا والسلام، ده آ....

توقف عن الكلام ليلتلع ريقه؛ لكن "محرز" مد ذراعه ناحيته، ووكزه برفق فيه، ثم غمز بطرف عينه يستحثة:

- ماتخافش، وخلي قلبك جامد، دي زي طلعات زمان.

لم يخبت خوفه، بل زاد عليه موضحًا هواجسه:

- ده أنا لازم أخاف، وأعمل حسابي مليون مرة، ده المعلم "تميم"، هو إنت بتكلمني عن واحد صايع، ولا موظف كحيان، ده ليه شنة ورنة!

سأم من خذلانه الواضح، وهدر به يوبخه:

- يخربيت المعلم زفت بتاعك ده، فلقت دماغى بيه...

ثم لانت نبرته قليلاً، حين استخف به:

- ده ولا يقدر يعمل أي حاجة، صدقني، اللي زي "تميم" ده من بتوع الصيت ولا الغنى.

تساءل "نوح" ببساطة، وقد رأى مدى بغضه له في حدقيته:

- للدرجادي إنت بتكرهه؟!!!

رمقه "محرز" بتلك النظرة النافرة، قبل أن يبعد نظراته عنه، وعلق بفتور:

- لا كره ولا محبة، أنا مع المصلحة مطرح ما تكون!

لم يسترح لرده، ولا للمسألة برمتها، شعر أنها ستكون بداية النهاية لمسيرتهما غير المشروعة، لفظ زفيره ببطء من صدره، وهمهم بارتعابٍ معلوم أسبابه:

- استرها علينا يا رب!

تصدع غير مرئي شعرت به في علاقتها معه، رغم تلك الابتسامات المنمقة التي تغطي محياها، لئشعر من حولها أنها حقًا تهتم لأمره، أغدق عليها بكل ما تحتاج إليه الفتاة؛ من المحبة، الاهتمام، والتفاهم، ليستحوذ عليها قلبًا وقالبًا؛ لكن علاقتها افتقرت إلى الانسجام، والتناغم. لم تجد روح "فيروزة" الضائعة نصفها المكمل في شخصه الهادئ، بدا بأسلوبه المنظم والدقيق غريبًا عنها، وإن كان يسعى بشتى الطرق ليشرعها بقربه، وتواجهه في محيط حياتها، بذلت جهدًا مضاعفًا لتجبر عقلها، وقلبها -معًا- على فكرة تقبله، وكان ذلك من الأمور المستعصية عليها، مذكرة نفسها أنه لم يفعل ما يسئ لها مطلقًا، دومًا يعاملها بلباقةٍ وتهذيب، يمنحها معطيات السرور الأولية، لهذا بعقلانية رجحت كفة الميزان المنطقية، واستمرت في مسعاها لإتمام زيجتهما.

زيارة شبه يومية كان يقوم بها، ليحرص على إنجاز ما تم الاتفاق عليه أولاً بأول، وفي مرته تلك، جلس منفردًا بها في غرفة الصالون بمنزلها، إحساسًا من الرهبة اتخذ طريقه إليها، وتسلى أسفل جلدها، بعد أن منحها مظروفًا مغلقًا يحوي الأوراق التي تخص سفرها، رفعت أنظارها لتتطلع إليه، وهو يوضح لها بابتسامته الثابتة:

-كل حاجة مترتبة يا "فيروزة"، مش ناقص بس غير إنك تنوريني في بيتنا المتواضع في "دبي".

بادلته نظراتٍ تائهة، لم يكن بالمازح حين أخبرها أنها ستنتقل للإقامة معه بعد عقد قرانهما، ببضعة أسابيع، قطعت صمتها اللحظي لتسأله:

-هو لازم أسافر؟

رد "أسر" متسائلاً، بنوع من العتاب الممتزج باللؤم:

-يعني ينفع كل واحد فينا يفضل في بلد؟

بدت تعبيراتها غير مسترخية وهي تعقب عليه:

-أنا كنت مفكرة هنكتب الكتاب، وتقعّد فترة، عقبال ما نوضب بيتنا هنا، وتجاوز فيه، وبعد كده نساfer سوا.

أكد لها بابتسامة أكثر اتساعاً، تناقّصت مع استمراره في حديثه:

-ده هيحصل، وبيتي موجود زي ما قولتلك...

تنهد سريعاً، وعلل لها سارداً أسبابه:

-بس هياخد وقت في التوضيب، لأنه قديم، فمالوش لازمة التأخير عشان أظبط مع شوية عمال، ومقاولين، ويتوع نجارة، ومش عايز أقولك إن كل يوم يدوني ميعاد شكل، وما فيش حد ييلتزم، ولا حاجة بتخلص في وقتها ...

ثم تجراً ليمسك بيدها الموضوعة في حجرها، احتضنها بين كفيه، وأسبل عينيه نحوها قائلاً لها بتنهيذة بطيئة:

-وبعدين يا حبيبتي، أنا بعد الثواني عشان نكون سوا.

شعرت بقشعريرة مزعجة تجتاحها لمجرد تلمسه لها دون استئذان، سحبت يدها سريعاً للخلف لتتحرر منه، وقالت بوجه شبه عابس؛ كأنه تهذبه:

لو سمحت، مش بحب كده.

هز رأسه بإيماءة متفهمة، وقال دون أن تخبو بسمته، وهو يعيد ظهره للوراء:



-براحتك .. وأنا مش حابب إني أضايقتك.

وعلى حين غرة ولج "خليل" للداخل لينضم إليهما مرحبًا بضيفه:

-منور يا عريس.

استدار "آسر" برأسه نحوه، ورد مجاملًا:

-البيت منور بأصحابه دايمًا يا أستاذ "خليل".

سأله الأخير مستوضحًا:

-على ميعادنا الخميس الجاي إن شاء الله؟

هز رأسه بالإيجاب وهو يقول:

-أيوه، اتفقت مع المأذون يجي هنا على بعد صلاة العشاء، وسلمته الورق المطلوب.

تصنع العبوس، وزفر الهواء بتمهلٍ، ليضيف بعدها؛ وكأنه حقًا يشعر بالتعاسة لأجلها:

-كان نفسنا نعمل حفلة وهيصة، دي بنتنا وفرحتها تهمنا.

تحولت أنظار "آسر" نحو "فيروزة" ليتأمل تعابيرها الواجمة، بدت غير راضية عن

تذمر خالها، ومع ذلك استغل الفرصة ليكرر اقتراحه بهدوءٍ واثق:

-معنديش مشكلة .. لو "فيروزة" حابة، فأنا جاهز نحجز في أكبر فندق و.....

قاطعته حاسمة أمرها، بما لا يدع أي مجال للمناقشة:

-لأ مش عايزة، زي ما اتفقنا من الأول، أعدة عائلية على الضيق.

على أعتاب الغرفة، وقفت "حمدية" في سكونٍ حذرٍ تتابع بتلصص ما يدور بالداخل، وعلامات الامتعاض تكسو وجهها، حدجتها بنظرة ساخطة مزدرية، وتمتمت من بين شفيتها بصوتٍ خفيض:

-وش فقر!

تنحنت عاليًا بعدها وهي تكمل سيرها نحو الداخل، وصينية موضوع بها حلوى الجلي بالموز تحملها بين يديها، وضعتها أمام الضيف، وقالت مفتعلة الضحك:  
-بص بقى يا سي الأستاذ دي عمائل إيدي، ولا أجدعها شيف فيكي يا جمهورية.  
هتف مجاملاً، ونظرته المشرقة تضيء قسماته:

-ما هو باين من شكلها اللي يفتح النفس.

ضحكت مجددًا، وجلست إلى جوار "فيروزة"، ثم استطردت مضيفة بسماجة سخيفة:

-بس أنا زعلانة منك، إزاي تهاود عروستنا كده، وتعملها فرح سُكيتي؟ ده إنت مقامك عالي، وهي ..

تعمدت التباطؤ في كلماتها الأخيرة، وعيناها مرتكزتان على وجه "فيروزة"، لتراقب ردة فعلها بانتشاءٍ مستفز؛ وكأنها تريد تذكيرها بمذلتها الأخيرة، في بيت عمها، على يدها، ويد غيرها، من أجل كسر هامتها:

-بنت بنوت، وزى الفل.

بساطة علق عليها "آسر":

-والله أنا مش ممانع.

نظراتها الوقحة، وتعابيرها الشامتة كانتا كفيلتان ياشعال جذوة غضبها، تلون وجهه "فيروزة" بحمرة نارية، وصاحت بها بعصبية، قاصدة إحراجها، وربما التشاجر معها: -ممكن ماتدخليش، دي حاجة تخصني.

اغتاظت "حمدية" من هجومها عليها، خاصة أنها بدت متحفزة للتشابك اليدوي معها، وهيئتها أكدت استعدادها الفعلي للمضي قدمًا في ذلك، لذا التفتت نحو زوجها تشكوها له:

-شايف يا "خليل" بتكلمني إزاي؟ أل وأنا اللي عايزها تفرح وتتبسط! على ما يبدو لم يكن زوجها منتبهًا لها، فهاثفه المحمول كان في يده، وتركيزه بالكامل تقريبًا مع ما تم إرساله إليه عبر رسائل خطه، في حين ردت "فيروزة" بتشنج، ونظراتها قد تحولت للقتامة:

-واتي مالك؟ دي حياتي أنا، خليك في اللي يخصك وبس. أشار لها "آسر" بيده، راجيًا:

-اهدي يا "فيروزة"، الموضوع مش مستاهل ده كله. للمرة الثانية أخرجتها أمام الضيف، فشعرت "حمدية" بمزيد من الاستياء، وهتفت في زوجها:

-ما تقول حاجة يا "خليل"!!!

رفع الأخير نظراته المشغولة عن شاشة هاتفه، وأدرك أن كافة الأعين متجهة إليه، خاصة نظرات "حمدية" الحانقة، أومأت له برأسها في اتجاه ابنة أخته، ليقول بصوت

رخيم، وبجملة اعتراضية محايدة، محاولاً مجازاة المحادثة التي لا يدرك ماهية تفاصيلها بالضبط:

جـرى إيه يا "فيروزة"؟ ماتزعليش حد منك!

ردت عليه "حمدية" بتهمكم:

ده اللي ربنا قدرك عليه؟

هنا تدخلت "آمنة"، وزجرتها بصرامة:

خلاص يا "حمدية"، زي ما بنتي تعوز هنعمل.

استغربت الأخيرة من تضامنها مع ابنتها، على عكس المعتاد منها، وقالت لاوية ثغرها بتأفف:

هو أنا قولت حاجة غلط؟ على رأي المثل، العروسة للعريس والجري للمتاعيس.

نهض "خليل" واقفاً ليستأذن، بقليل من الريكة البادية عليه:

معلش يا ابني، المدير طالبني في الشغل، هارد عليه في البلكوتة، وراجعلك ثاني.

أشار له "آسر" قائلاً بتفهم:

-تفضل خد راحتك يا أستاذ "خليل".

لعق شفتيه، وقال مؤكداً:

دقيقة وجاي.

لم تسترح "حمدية" للتوتر الملبك الظاهر على تصرفات زوجها؛ كان مرتبكاً،

متلجلجاً، يبدو وكأن به خطب ما، استتراب حدسها الأثوي بشدة، وانتظرت

خروجه لبضعة لحظات، حتى تتبعه، وتفتش ورائه .. سارت بخطواتٍ حثيثة، استندت بظهرها على الحائط الملاصق لنافذة الشرفة، وأرهفت السمع لهسيس صوته وهو يقول:

-حاضر يا "سماح"، إديني كام يوم بس، وهاقولها أي حجة، وأجيلك.

غمامة مظلمة حلت على ملامح "حمدية"، والتي كانت تكتم أنفاس حنقها بصعوبة، مجهود يفوقها بذلته لتبدو ساكنة، وهي تكتشف حقيقة خيانتها لها مع امرأة غيرها، وإن كانت زوجته، لا يحق لأخرى مشاركتها فيه، تصلبت في مكانها، ولازمت الهدوء، فلا ينتبه لوجودها، سمعته يقول لها بلهجة منزعة رغم خفوتها:

-هعمل إيه يعني؟ خدي البت للدكتور يشوفها.

زفيره الطويل وصل إلى مسامعها، ليكمل بعدها منهيًا مكالمته:

طيب هبعثك فلوس بكرة في البريد، سلام بقي.

على عجلة أخفت تعابير الغضب، وتراجعت بضعة خطوات للخلف، لتبدو وكأنها قد جاءت لتوها، ادعت اهتمامها الزائف بأمره، وسألته:

في حاجة يا "خليل"؟

تفاجأ من وجودها، فردد بلعثة متوترة، والعرق يغزو جسده:

-...حمدية!"

ببرودٍ متقن سألته، وكأنها لا تعرف الحقيقة المخبأة:

-وشك قلب كده ليه؟

لعق شفتيه الجافتين، وقال نافيًا:

م.. مافيش.

رفعت حاجبها للأعلى، وتساءلت بابتسامة ساخطة، أخفت ورائها نيران حقدتها:

ها، المدير كان عايزك في إيه السعادي؟

تنفس الصعداء لاعتقاده أنها صدقت بسذاجة كذبتة السخيفة، وأجابها بعبوس:

ده .. بيتقولي إن بنته تعبانة، ونقلها المستشفى، واتحجرت هناك.

زمت شفتيها في أسف، وتساءلت:

يا حرام.. شوف إزاي؟ وده من إيه يا خويا؟

تنهد على مهل، ثم جاوبها مسترسلًا في تجميل كذبتة بوقائع منطقية، عليها تنطلي عليها:

مش عارف.. بس باين من كلامه حالتها صعبة، واحتمال يغيب كام يوم، وبيرتب معانا الشغل هيمشي إزاي.

قطبت جبينها، وعلقت باقتناع مفتعل:

ده شكل الموضوع كبير.

أكد عليها بثبات، بعد أن استعاد كامل هدوئه:

الظاهر كده، المرض مالوش كبير.

ضاقت عينها، وقالت:

أيوه.

نظر إليها مضيئًا بشيء من الرجاء المختلط بالسخرية:  
عندك حق. ادعيها يا "حمدية"، ده إنتي دعوتك مستجابة.  
على ثغرها ارتسمت ابتسامة باهتة وهي ترد:  
أه طبعًا.

وقبل أن يختتم كلامه معها، أخبرها بحذرٍ، مترقبًا لردة فعلها:  
مش عارف بقي إن كان هيكلفني أقوم بالشغل مكانه ولا لأ.  
أتاه تعليقها حياديًا:

هنشوف يا "خليل" ..

ثم ربتت على كتفه تستحثة:

-بلاش نشغل بالننا بحاجة لسه مجاش وقتها، وتعالى نشوف العريس اللي مستني  
جوا.

وافقها الرأي، وقال في استحسانٍ:

معاكي حق.

تباطأت "حمدية" في خطواتها وهي تتبعه؛ لكن نظراتها نحوه أكدت أنها ستذيقه  
من الويلات ما لن يطيق مطلقًا.

.....

أزاح المنشفة عن رأسه المبلل بعد تجفيف خصلاته تقريبًا، وألقى بها بإهمالٍ على  
فراشه، ليقف أمام المرأة، ويبدأ في تمشيطة، وترتيب المتنافر منه، وما إن انتهى

"تميم" من إكمال ارتداء ثيابه، حتى خرج من غرفته، واتجه إلى غرفة الطعام؛ حيث شرعت شقيقته في رص الأطباق، استعدادًا لتناول الغذاء، ألقى عليها التحية متسائلًا:

-عاملة إيه يا "هاجر"؟ وحيب خالو أخباره إيه؟

بوجه شبه متجهم أجابته:

-الحمد لله.

كان متفهمًا لجفاء معاملتها معه، فتلك وسيلتها المكشوفة للضغط عليه، من أجل العودة إلى زوجته السابقة؛ لكنه لم يشتك من جمود تصرفاتها، وتقبل ما تفعله برحابة صدر، بينما تساءلت "ونيسة" بصوتٍ شبه عالٍ، وهي تضع صينية البطاطس بالفرن الساخنة في المنتصف:

-مش ناوي تتغدى معانا؟

هز رأسه بالنفي وهو يجاوبها:

-لأ يامه، كلوا إنتو بالهنا والشفاء، أنا عندي شغل متل ورايا.

عقبت في تدمرٍ ساخط:

-أهوو كل يوم واجع قلبي كده، لا بترضى تأكل، ولا بقينا نشوفك، ولا كأنك تعرفنا، زي ما تكون قاعد في لوكاندة، تيجي تبات فيها آخر النهار، مش بيت أهلك ولا ...

ثم تطرقت للموضوع الآخر، والذي لا يحبذ سماعه مُطلقًا:



حتى مش عايز ترد "خلود" الغلبانة تاني لعصمتك، ده البت بعد كل اللي حصل فيها لسه شريك، هتموت نفسها عليك، وبتحبك، والله ما يرضي حد إنك تظلم مراتك كده!

حاول إجبار شفثيه على التقوس، والابتسام قليلاً، ثم صحح لها -ككل مرة- بأسلوب ساخر:

-ما بقتش مراتي يامه، دي بنت خالتي وبس، إنتي على طول كده ناسية؟! حدجته بنظرة قوية مستنكرة، قبل أن تنمر عليه:

-ده اللي فالج فيه، تتنازز عليا بالكلمتين الخايين دول.

أصر على قوله مشدداً عليها، عليها تتخلى عن تلك الفكرة الميؤوس من حدوثها:

-ماهي دي الحقيقة اللي لحد دلوقتي إنتي مش قادرة تستوعبها.

أريد وجهها بالضيق من تعنته، والتفتت إلى ابنتها تُشركها في الحوار:

قوليله حاجة يا "هاجر"، اتكلمي معاه إنتي، أنا جبت أخري، ومابقاش عندي حاجة أقولها.

وقبل أن تشرع شقيقته في لومه، بادر الجد "سلطان" متدخلًا، وهو يجلس على رأس المائدة:

-ما تسيبوا "تميم" في حاله، بلاش شغل الحريم ده عليه.

ردت عليه "هاجر" مبررة تصرفها:

-يا جدي احنا كلنا عايزين مصلحته، نفسنا نشوفه متهنى في بيته وآ...

قاطعها معلقًا بنبرة هازئة:

-وما فيش إلا بنت "بثينة" عشان تعمل كده؟!!

أطبقت على شفيتها في حرج، فتابع ملوحًا بذراعه:

-ما أكم (يوجد) في مليون بنت غيرها.

ردت عليه "ونيسة":

-أحنا أولى بيها من الغريب.

أشاح بنظراته الباردة عنها، وقال:

خليها للغريب، معدتش تنفعه.

كان "تميم" يراقب جدالهم دون أدنى تدخل منه، كان فاقدًا للرغبة في النقاش في

أمر يستبعد كليًا تكراره، ابتسم بتلقائية، وارتخت ملامحه، حين أخبره جده:

-أتوكل على الله يا ابني، وسبيك من كلامهم، دي صفحة واتقفلت من حياتك.

هز رأسه في استحسان، واستطرد بكلماتٍ مقتضبة:

تسلم يا جدي.

ثم ودع والدته، التي لم تنبس بكلمة، واتجه إلى خارج المنزل، ليتساءل بعدها

"سلطان" موجهًا حديثه إلى حفيدته:

-وجوزك عامل معاكي إيه؟ معدناش بنشوفه خالص.

أجابته بتنهيدة متمهلة:

-الحمدلله، مشغول على طول يا جدي في الدكان.

رفع حاجبه للأعلى، وقال بابتسامة ذات مغزى:

-يعني زي أخوكي، طفحان الدم، مش فايق لرغي الحريم، ولا مين طلق مين.

تلون وجهها بحمرة حرجة من تلميحه الصريح، وتلعثمت وهي تبرر:

-أنا عاوزة الخير لأخويا.

أشار لها بعينه قائلاً بصرامة:

-أخوكي عارف مصلحة فين، وركزي إنتي في حياتك، وابعدي عن الوسواس  
الخناس خالتك!

على مضض ردت:

طيب.

.....

زيلت بيدها توقيعها بجوار اسمها في قسيمة الزواج الموضوعة أمامها، قبل أن تلتخ  
إبهامها بالجر الأزرق لتختم به الأوراق، وأصوات الزغاريد تصدح حولها، ليتم  
الإعلان بهذا عن إتمام عقد قرانها. تلقت "فيروزة" التهنئات الغبطة من "همسة"  
أولاً، مصحوبة بقبلات حارة على جانب وجنتها، ثم تبعتها والدتها، وزوجة عمها،  
وصديقتها "علا"، بينما وقفت "حمدية" على الجانب ترمقها بنظراتها الحاقدة. كان  
التجمع عائلياً، ومحدوداً؛ المقربون فقط هم من حضروا، لم يتجاوز عددهم عن  
العشرين، تواجدوا في مطعم شهير تم حجزه مسبقاً للاحتفال بالزواج.

التفتت "فيروزة" برأسها للجانب، عندما تحدث إليها عمها:

-مبروك يا بنت الغالي، بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير.

وبوجه خالٍ من التعبيرات، ردت تجامله:

-أمين، شكراً يا عمي.

وضع يده على كتفها، واعتذر منها:

-أنا مش عايزك تزعلي مني يا بنتي بسبب اللي حصل، أنا عارف إنك بنت أصول،

ومترية، بس الشيطان بقي وآ....

أفسد عليها -دون قصد منه- مزجها المتوتر مسبقاً، بكلماته المُحفزة، لذكريات

ترفض وبشدة نبشها من جديد، لذا قاطعته مدعية كذباً:

-خلاص يا عمي، أنا نسيت الموضوع ده.

ربت على كتفها بضربات خفيفة، وابتسم يمتدحها:

-ربنا يكملك بعقلك..

ثم صمت للحظة ليضيف بعدها:

-"فضل" كان عايز يجي، بس مراته تعبانة، عقبالك يا رب حامل.

بابتسامه متحفظة ردت:

-ربنا معاها.

انتهى من حديثه معها، لتتخذ "سعاد" دورها في إسماعها بعض التوصيات التقليدية

من أجل حياة أسرية سعيدة، مستقرة، وهانئة، دقائق أخرى انقضت عليها وهي

تجيد تمثيل اهتمامها بالإصغاء للجميع، حتى لمحت زوجها مقبلاً عليها.

تقدم "آسر" نحوها وهو يتأملها بنظراتٍ بطيئة، متمهلة، مليئة بالإعجاب، تجول بعينه على ثوبها الكريبي الرقيق الخالي من البهرجة، أو الزينة المبالغة فيها، كان قماشه مدعماً بطبقاتٍ من التل المتراسة فوق بعضها البعض، ليمنح الثوب كثافة مقبولة، فتزيده حجماً من الخصر، وصولاً للأسفل، أما كتفيه فكانا يغطيان ذراعيها بالكامل، وفتح صدره لا تكشف إلا عن عنقها فقط، لاق الثوب بها كثيراً. ارتفعت أنظاره نحو تفاصيل وجهها، مسحة ناعمة من مساحيق التجميل ازدانت بها بشرتها، فمنحتها المزيد من الجمال الباعث على السرور في النفس، كما أنها لم تحرر خصلاتها، وعقدتها في كهكة تدلت لأسفل رأسها، مزينة بطوقٍ من الإكسسوارات الذهبية، ووضعت مشبكاً رقيقاً، على جانب شعرها، تصميمه كان كما تحب؛ لطاووسٍ صغير.

ابتسم بعذوبةٍ وهو يمد يده ليمسك بكفها، رفعه "آسر" إلى فمه ليقبله في لباقةٍ تخرجت منها للغاية، لكونه يفعل ذلك علناً، ثم مال نحو صدغها برأسه، ليبدو صوته قريباً من أذنها، وهمس لها:

-زي القمر يا "فيروزة".

ردت بابتسامةٍ صغيرة:

-شكراً.

رفع ذراعه للأعلى تقريباً، وبخفةٍ مسد على شعرها، وكأنه يسويه، شعرت "فيروزة" بيده تنتزع مشبك رأسها من الجانب، اختفت ابتسامتها، وتطلعت إليه باندهاشٍ مستنكر، وقبل أن تعترض على تصرفه، كان مشبكها في راحته، يخبئه بداخلها،

حاوطها بذراعه من خصرها، وظلت أنظاره مثبتة على وجهها المتقلص عضلاته،  
ابتسم موضعًا لها بصوتٍ خفيض:

-شكله رخيص، وبلدي أوي عليكِ.

ردت بتحفظٍ محتجة على رأيه:

-بس عاجبني.

أوما برأسه بحركة خفيفة، وقال ملطفًا:

-هاجيبلك الأحسن منه، ده مافيش حاجة تغلى عليكِ يا حبيبتِي.

اتسعت ابتسامته أكثر، وغمز لها بطرف عينه، قبل أن يقول بعبثية:

-دلوقتي من حقي أقولك يا حبيبتِي.

من المفترض -وفي تلك الليلة- أن تسعد "فيروزة" كثيرًا لمشاعر الحب الودودة  
المحاصرة لها، وكذلك لتلهف زوجها على التودد إليها؛ لكنها لم تشعر بمظاهر  
السعادة تجتاحها مطلقًا، فقط أحاسيس الانقباض، والخوف من المجهول، وبدا  
ذلك مُربكًا لها.

ارتفع صوت الموسيقى، فأرخی "أسر" قبضته عن المشبك، ليلقيه بغير مبالاة على  
الأرضية، تحرك بخفة في اتجاهه، ودعسه بقدمه ليحطمه بكعب حذائه، وفي غفلة  
منها، وكأنه تخلص من قمامة، لا قيمة لها.

.....

بقلبٍ مكسور، وروحٍ محطمة، وعينين تحبسان الدمع فيهما، اختبأ "تميم"  
كاللصوص، في تلك البقعة المعتمة نسيًا، في سيارته، وعلى مسافة جيدة من هذا

المطعم تحديداً، حيث تكشف حوائطه الزجاجية عما يدور بالداخل للمارة في الطريق، رآها توقع صك ملكيتها لغيره، ولم يجرؤ على إبعاد نظراته عنها، ومع سماعه لانطلاق أصوات الزغاريد، ذرف الدموع قهراً، فالحقيقة أصبحت نافذة، لم ولن تكون له أبداً، تبخرت الأحلام البسيطة، وتلاشت في معترك الحياة الأليمة، أما الوحشة فعادت لتحتل قلبه وتغلفه، اشتدت أصابعه على عجلة المقود، وقال لنفسه بحزن؛ وكأنه يواسيها:

هي خلاص اختارت طريقها، وحتى ماتعرفش أصلاً إني .....

بتر اعترافه بعشقه المنفرد، قبل أن تتجرأ شفتاه على النطق به، تنفس بعمق، ومسح بظهر كفه وجهه المبتل، ثم قال في أسف، كما لو كان يناجي المولى، وبندرتة الحزينة:

يا رب أنا ما عمريش طلبت حاجة لنفسي مخصوص، طول عمري بأفكر في غيري، وضحيت بسنين من عمري عشان غيري...

نشج صوته أكثر، وغلفه المزيد من الشجن، وهو يتابع:

هي الحاجة الوحيدة اللي اتمنيتها من كل قلبي.. بس راحت خلاص مني..

انسابت دموعه الحارقة مرة أخرى تأثراً بابتعاده المحتوم عنها، والذي بدا وكأنه دوامة ساحقة للروح من العذاب الأبدي، نكس رأسه منتحباً في أنين خافت، وأنهى سلوان نفسه مردداً بعينين ارتفعتا ببطء نحو السماء:

-أُكيد يا رب ليك حكمة في كل اللي بيحصل، أنا راضي بقضاءك، فصبرني عليه.

أخفض حدقتيه المشبعتان بعبراته ليراها تحملق أمامها بشروءٍ، التقت عيناه -وسط العتمة التي يختبئ بداخلها- بنظراتها الضائعة لمرّة كانت فعليًا الأخيرة له.

.....

بغير ترتيب مسبق، اتصل هاتفياً بها، في تلك الساعة المبكرة، لتستفيق من نومها العميق على خبر صدمها بشدة، وجعل حواسها تتيقظ بالكامل، خاصة أنه كان بعد بضعة ساعات من عقد قرانها عليه، ليربك كافة حساباتها، ويفسد جميع مخططاتها بشأن إعادة تغيير تصاميم الديكور للمنزل المملوك لزوجها، والذي لم تره بعد! سألته "فيروزة" في ذهولٍ، وهي تدعك عينيها بقبضة يدها، لتطرد بقايا آثار النعاس منهما:  
-يعني إيه إنت في المطار؟

رد عليها "أسر" بنبرة هادئة معتذراً منها:

-أنا أسف يا حبيبتي، بس في مشكلة حصلت في الشغل، ولازم أسافر حالاً.

تعقدت ملامحها وهي تسأله مستفهمة:

فجأة كده؟

أخبرها باقتضاب:

-أيوه.

سأله بنفس النبرة المصدومة:

طب وأنا؟ وترتيباتنا سوا، احنا متفقين على إننا هنروح نختار ألوان الدهان، وآ...

منعها من إكمال جملتها بتكرار اعتذاره:



حقك عليا، هعوضك لما تجي عندي، هتقضي أحلى أيام.  
سألته كمحاولة أخيرة فاشلة، كانت متأكدة أنها لن تجدي نفعًا:  
-مكانش ينفع تأجلها كام يوم؟ الموضوع شكله بايخ أوي لما تسافر ثاني يوم كتب  
كتابنا.

بهدوءٍ علق على ذلك، وقال:

-حبيبتي محدش ليه عندنا حاجة، وبعدين كان صعب أأجل السفر.  
زلة لسان انفلتت منه دون وعي، التقطتها "فيروزة"، وسألته مباشرة على الفور:  
-يعني إنت كنت حاجز قبلها؟!!

تلجلج وهو يبرر لها:

-لأ.. مش بالضبط... ده أنا آ...

وقبل أن يبدو ضعيف الحجة أمامها، أضاف بلهجة رسمية للغاية:  
-بصي أنا هاكلمك أول ما أوصل، لأحسن الطائرة ميعادها جه، خلي بالك من  
نفسك.

طردت زفيرها المهموم من رثتها، قبل أن تنطق:  
-حاضر.

غازلها بمعسول كلامه الناعم، فقال:

-هتوحشيني يا قلبي، الدنيا من غير مالهاش طعم، غصب عني أسافر.  
لم تجد ما تقوله له سوى:

حصل خير.

أنهت معه المكالمة وهي ما تزال في حالة اندهاش من سفره المباحث، خابت آمالها، وانهار سقف توقعاتها في تشييد مسكنها؛ لكن ما باليد حيلة، عليها أن تتعامل مع الواقع ومفاجآته الصادمة.

.....

بمحض الصدفة عَلم من "وجدي"، خلال حفل عقد قرانه، عن انشغاله مؤخرًا، بكشف الخيوط المؤدية لإحدى عصابات التهريب الخطيرة، بعد انتقاله لمكتب المكافحة، واستشف من جملة المقتضبة، أنه بصدد الإمساك بأول أطراف الخيط معًا، فاتخذ "أسر" حذره، وحجز تذكرة ذهابٍ (فقط) لدولة الإمارات، على أول طائرة متجهة إلى هناك، استقر في مقعده بدرجة رجال الأعمال، وأمسك بهاتفه المحمول ليهااتف "محرز" ليأمره بلهجة من يقرر:

ماتخليش أي حاجة ليها صلة بينا، سامعني.

سأله مستوضحًا:

ليه يا ريس؟

رد بكلمات ذات دلالة مفهومة لهما:

النسر بيشمشم.

جاءه صوته متوترًا وهو يلاحقه بأسئلته:

أوبا، وبعدين؟ إيه العمل؟ وحاجات الناس؟

أمره بنفس اللهجة الصارمة:

-نصف كل حاجة وراك، مافيش قشاية.

لم يكن "محرز" راضيًا عما يخبره به، ومع هذا قال له بإذعانٍ مرغم:

-ماشى الكلام، مع إن فيها خسارة كبيرة.

شدد عليه بنبرة لا تمزح:

-الخسارة تتعوض، لكن حياتنا لأ.

رد عليه مستسلمًا:

-معاك حق.

عاد "آسر" ليأمره، بعباراتٍ متوارية:

-واطلع شم هوا، الجو حلو اليومين دول، قبل الزحمة.

علق بنوعٍ من السخرية:

-حاضر.. نقضيها مصايف.

أنهى "آسر" المكالمة معه، وأغلق هاتفه المحمول، ليغوص بعدها في مقعده المريح،

وقد قامت المضيفة بالتأكد من ربطه لحزامه، التفت للنافذة البيضاوية إلى جواره،

واستمع بابتسامةٍ تعلو زاوية فمه، إلى صوت المذياع الداخلي بالطائرة، حيث تطلع

المضيفة جميع الركاب، على إرشادات السلامة خلال الرحلة الجوية، وشعوره

بالارتياح إزداد تدريجيًا مع بدء تحرك الطائرة على مدرج الطيران

!!! .....

.....

## الفصل الخامس والستون

في نفس ليلة عقد القران، وتحديدًا قبيل الفجر تقريبًا؛ حيث الهدوء الطبيعي في تلك الساعة، والتزام غالبية سكان المنطقة لمنازلهم، ظهر هذا الغريب من بقعة ما، وبثيابه السوداء، وغطاء الرأس الذي أحكم وضعه عليه، بمقدمته المقوسة، ليخفي ملامحه عن عدسات كاميرات المراقبة، تسلل ذلك المثلث بخطوات حذرة نحو البناية التي يعرف مداخلها جيدًا، تلفت حوله يمينًا ويسارًا، ليتأكد من عدم تتبع أحدهم له، وكان الطريق خاليًا من المارة، مجهورًا إن دق التعبير، كما ساعدته

الحُلْكة السائدة على ستره من الأعين التي يُمكن أن تلمحه، انتظر لهنيهة قبل أن يحمل الجِوال الأزرق المصنوع من (الخيش) فوق ظهره، لم يكن ثقيلاً؛ لكنه بحاجة للانتباه لمحتوياته حتى لا تتبعثر، فتحدث فوضى دون داعٍ.

توقف عند أعتاب المدخل، ورفع رأسه للأعلى ليلقي نظرة متأملة عن كُتب، كل النوافذ مغلقة، لا إضاءة تقريباً إلا من تلك المنبعثة من أعمدة الإنارة، السكون كان سيد الموقف، ابتسم من خلف الوشاح الذي يلثم به وجهه، وواصل السير الحثيث نحو الداخل، اعتلى الدرجات في حذرٍ شديد، عاونه المصاييح ذات الإنارة الباهتة على رؤية مساره، صعد قاصداً ألا يتسبب وقع أقدامه في إصدار أقل صوت، وبحرصٍ مبالغ فيه، توقف عند الطابق الخاص بعائلة "بدير"، تركزت أنظاره القائمة على اللافتة النحاسية المحفور عليها لقب "سلطان"، قست نظراته، وغلفها الضيق، وهمس لنفسه، بما يشبه الوعيد:

-النهاية قربت.

تجاوز الباب ليصعد للطابق الأعلى؛ لكنه توقف في منتصف الدرجات، ليسند الجِوال على البسطة الصغيرة التي تتوسط الدرج، استقام في وقفته، ووضع يده على الدرازين، سمع حفيف أقدام قادمًا من الأسفل، يزداد وضوحًا كلما تقدم، قفز قلبه في رعبٍ، وانحنى متوارياً عن الأنظار، حبس أنفاسه، وانتظر في ترقبٍ، لم يتوقع قدوم أحدهم في تلك الساعة المتأخرة، وآخر من توقع رؤيته هو "تميم"، لمحاه وهو يقف عند باب المنزل، يدس المفتاح في قفله، حرص كل الحرص على عدم التحرك، وتابعه بعينين متوترتين، آملاً ألا يشعر بوجوده، وما إن أغلق الباب حتى نهض من جلسته غير المريحة، والتي آلمت قدميه، ليفر هارباً قبل أن يكتشف

أمره، ومثلما جاء في الخفاء، اختفى في الظلمة، دون أن تظهر من ملامحه أي تفصيلا تدل عليه.

.....

جلس في شرفة غرفته، بعد أن عاد متأخرًا من الخارج، على المقعد الخشبي، ممددًا ساقيه للأمام، مكث فيها حتى سطع النهار، يتذكر تلك اللحظات المؤلمة لقلبه، والتي أبت أن تتركه يهنأ بسلامه الزائف، حرك عنقه المتيبس للجانبين، وبين إصبعيه سيجارته المشتعلة، قربها من فمه، وسحب نفسًا عميقًا منها، كتبه بداخله لبرهة، ليحرر بعدها دفعة جديدة من الدخان الحارق لصدره، قبل أن يتوقف عن تدخينها، ويطفئها في المنفضة التي امتلأت عن آخرها بأعقاب سجائره، واحدة تلو الأخرى تناولها، كوسيلة متاحة - ووحيدة - أمامه للتنفيس عما يخنقه، نظر إلى آخر سيجارة أخرجها من علبتها الكرتونية مقوسًا ثغره في سخرية، طوى العلبة بقبضته، وألقاها إلى جواره، وأمسك بالسيجارة بين شفثيه ليشعلها، وأغمض عينيه في إرهاق غطى كامل وجهه.

تصلب في جلسته غير المريحة، حين سمع صوتًا أثويًا يأتي من الأعلى، وكأنه يتحدث مع أحدهم:

-دي قلة ذوق منه والله، إزاي يسبها كده؟ ده أنا اتجننت لما ماما قالتلي.

استغرقت بضعة لحظاتٍ ليدرك أنه صوت "همسة"، تتحاور مع زوجها، اعتدل في جلسته، وركز كل حواسه مع جدالهما، فقد خمن أن لنقاشهما المشبع بأمارات الانزعاج علاقة قوية بليلة الأمس، خاصة بعد ترديد اسم طاووسه بقوة على لسانها:

- "فيروزة" ماتستهلش كده!

نهض "تميم" من مقعده، وتراجع للخلف، حتى لا يلاحظ وجوده، ويتوقفا عن سرد التفاصيل المبهمة التي يتطلع لمعرفة بتلهم واهتمام، أثار صوت "هيشم" مبرراً بنبرة عادية:

أكد حمله مصيبة في شغله، الظروف ياما بتحصل.

ارتفعت نبرتها المتدمرة وهي تعقب عليه:

ماما بتقولي إنه كان حاجز تذكرة الطيران من قبلها، يعني الموضوع مش مفاجأة بالنسبale.

حاول "تميم" أن يستجمع أطراف الخيوط معاً، ويربطها، ليصل في الأخير إلى صورة أولية تفسر حديثهما الغامض؛ لكن "هيشم" أنهى النقاش قائلاً:

-كبري دماغك يا "هموس"، هما أحرار مع بعض.

على مضض قالت له:

طيب، بعد ما أكمل نشير للغسيل، أنا هاروح أقضي اليوم مع "فيروزة"، هأخذ بخاطرها، أكيد هي زعلانة.

رد عليه "هيشم" بنبرة شبه مستاءة:

-ماشي، بس عايزين نركز في بيتنا.

ردت بتبرم:

-هو أنا هاقعد في الشارع؟ ده من بيت لبيت يا "هيشم".

اقتضب زوجها في رده قائلاً:

-ماشي.

شعور بالاستغراب والاسترابة في نفس الآن تسرب بقوة إلى "تميم"، وحثه على عدم تجاهل الأمر، ودون إعادة تفكير قال لنفسه بنبرة عازمة:  
-لازم أعرف الحكاية فيها إيه!

.....

كناج وجد طوق النجاة، بعد معاناة مع الغرق، تلكاً في خطواته بمجرد خروجه من المنزل، وإغلاقه لبابه، ظل "تميم" واقفاً أمام عتبه، منتظراً نزول "هيشم" من الأعلى، ليسأله بنوعٍ من المراوغة، عن تفاصيل ما سمعه خلال حوارهِ مع زوجته، استطاع أن يسمع صوته وهو يودعها، فاستعد للتحرك، ليبدو كما لو أنه التقاه مصادفةً على الدرج، تنحنح بصوتٍ شبه مرتفع، ليستهل حديثه بعدها، وهو ينظر في اتجاهه:

صباح الخير.

رد وهو ينظر في اتجاهه:

صباحك فل يا معلم.

سأله بفتور؛ وكأن التوق لا يحرقه لاستدراجه في الحديث، واستخراج المعلومات التي يحتاج لمعرفة منها:

جاي معايا يا "هيشم"؟

رد بنظراتٍ شردت في اتجاه الجوال:

-أيوه...



ثم تساءل وعيناه مثبتتان عليه:

هو الشوال ده تبع حد؟

قطب "تميم" جبينه، ورد متسائلاً في استغراب:

-أنهو شوال؟

أشار "هيثم" بيده وبعينيه نحوه موضحاً:

-اللي محطوط هنا.

تحرك ابن خالته في اتجاهه، مُرجئاً ما يفكر فيه لبعض الوقت، حتى يتبين الموضوع، وصعد على مهل بضعة درجات، ليقف أمام الجوال المريب، دارت نظراته عليه دون أن يمسه، فحسه من الخارج، وهو يتساءل أيضاً:

ده بتاع إيه ده؟ حاجة تخص جماعتك؟

نقى على الفور:

-لأ.. وبعدين ده مكانش موجود هنا بالليل.

استراب من جملته الأخيرة، وبدأت الهواجس تساوره، لذا قام "تميم" بفتحه من الأعلى، فوجد نشارة أخشاب جديدة تملأوه، تلك المستخدمة في صناديق نقل الأشياء الضخمة الثمينة، حتى لا تتحطم، مما زاد من دهشته، نظر إلى ابن خالته، وردد بقليل من الحيرة:

-دي نشارة خشب!!!

زوى ما بين حاجيه مغمغماً:

-نشارة! وجايينها هنا ليه؟

نظر لها بنظراتٍ حادة، قبل أن يعلق بسخطٍ:

-بتسألني أنا؟

لعق شفثيه، وقال وهو يهز كتفيه:

-ما أنا زي زيك مش عارف.

تساءل "تميم" في فضولٍ حائر؛ وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

-مين اللي جابه من برا لهننا؟ وإزاي ماشفنهوش

ببلاهة أجاب "هيثم":

-مش عارف، وبالليل لما رجعنا مكاتتش هنا.

ضاقت عينا "تميم" بشكٍ، فهذه الأنواع من الأجوال، تستخدم في بعض الأحيان،

لتهريب المواد المخدرة والممنوعة، هتف مفصحا عما يدور في رأسه فجأة:

-لأحسن يكون فيه حاجة من إياها!

تحولت تعابير "هيثم" للصدمة، وقال مذهولاً:

-أوبا، ده ابن .... اللي يفكر يعمل كده، لأ وعندنا كمان؟!!!

-هنشوف

أوجز حديثه بتلك الكلمة، ولف ذراعه خلف ظهره، ليخرج من جيب بنطاله الخلفي

مديته، أشهرها، ونغز بنصلها الحاد -وبعمقٍ- أماكن متفرقة في الجوال، ليكشف

بتلك الوخزات عن وجود ما يعيق مرور نصله، وبالفعل علقته مديته في شيء ما،

جذبها بخشونة ليحدث شقًا عريضًا في تلك المنطقة، ثم دس يده، وسحب العائق؛ وكانت المفاجأة، وجد كلاهما مغلقًا مريبًا، مصنوعًا من البلاستيك، مخفيًا داخله. تفحصه "تميم" بنظراتٍ دقيقة، واستعان بمديته مرة أخرى، ليفض الكيس المحكم، وهنا تم الكشف عن أشرطة دواء غريبة، تبادلا النظرات المصدومة، نطق "هيثم" أولاً وهو يزدري لعابه:

يا صباح اللومان، لأ وعشماوي كمان.

وبخه "تميم" بصوته الأجش، وتلك النظرة الصارمة تكسو عينيه:

إنت هتعدد؟ اسكت، مش ناقصين فضايح.

سأله بسداجة ليتأكد من صحة ما تفقه إليه ذهنه:

ده برشام، مضبوط؟

أجاب ابن خالته بنفاذ صبر، وكأنه يجره:

أيوه، واهدى على نفسك مش عايزين شوشرة.

هوى قلبه في قدميه رعبًا، فمعنى وجود تلك المواد المخدرة معهما أنهما متورطان فيها، وإن قام أحدهم بالإبلاغ عن وجودها، لوقعا في المحذور، وأصبحا في أزمة خطيرة، لذا على عجالة تساءل في خوفٍ، معبرًا عن هواجسه:

حطب وهنعمل إيه؟

تجاهل "تميم" الرد عليه، ليكمل مهمته في فحص باقي الجِوال، بعد إسناده للمغلف على إحدى الدرجات، ليضمن خلوه من أي مواد مخدرة مخبأة فيه، اعتدل في

وقفته، بعد أن أعاد نصل مديته إلى مكانه، ثم أشار بيده لابن خالته المتوتر، ملقياً بأوامره عليه:

خذ الشِوال ده ارميه في المقلب اللي على أول الشارع، واطلع ورايا على السطح بعد كده.

يايماءة موافقة من رأسه كذلك، قال "هيثم" بانصياح:  
- ماشي.

وإثباتٍ انفعالي يناقض طبيعة الموقف الموترة للأعصاب، صعد "تميم" لسطح المنزل، باحثًا عن إحدى صفائح علب الجبن المعدنية الفارغة، والمخزنة بالأعلى، ضمن الكراكيب المهملة فيه، ليضع بداخلها المغلف، ثم التقط زجاجة البنزين المملوءة بكمية بسيطة منه، والتي أحضرها من الدرج المخصص لأدوات النظافة الموجود أسفل الحوض في مطبخ منزله، ليسكب كل محتوياتها على المغلف، وأخرج ولاعته من جيبه، ثم أشعل النيران بالصفيحة، ليحرق ما بداخلها بالكامل، راقب ألسنة اللهب وهي ترتفع، وتخرج عن حافة الصفيحة؛ لكنها التهمت المغلف وما يحتويه، ضاقت عيناه أكثر، ولم يتوقف عقله عن التفكير للحظة في ذلك المجهول الأرعن الذي تجرأ، ودس مثل تلك الأشياء المهلكة في بيت عائلته، حتمًا لم يفعل ذلك مصادفةً، ولم يأتِ تصرفه الموجه لشخص العائلة من فراغ، هناك من يتربص في الخفاء قاصدًا إلحاق الأذى بأحد أفرادها؛ ولكن من يا ثرى هذا الوغد؟ قطع استغراقه في أفكاره التحليلية صوت "هيثم" اللاهث وهو يسأله:

-تفتكر مين اللي عايز يلبسنا تهمة تعلق رقبتنا على جبل المشنقة؟

أجابه "تميم" بغموض:

-دلوقتي هنعرف.

تطلع إليه في عدم فهم، ولاحقه بالسؤال:

هتعمل إيه؟

رد على مهل مُشيرًا لخطوته التالية، ونظراته موجهة إليه:

-هكلم الواد بتاع محل الكاميرات، يجي يشوفلنا الليلة دي بدأت إزاي.

لوح "هيشم" بذراعه، وتساءل مرة أخرى:

حطب والقرف ده؟

سكت عن الكلام لثوانٍ، ثم قال بصرامة نافذة:

-أكفي على الخبر ماجور، محدش يعرف عنه حاجة، سامع.

أطبق على شفثيه وهو يعلن في صمتٍ عن اتباعه لأوامره، فهذه المسألة لا تحتاج لجدال أو لفت الانتباه، لكون الخطأ بها يؤدي للهلاك الحتمي.

.....

بعد أن فرغا من التخلص من تلك المواد المخدرة، ومهاتفة "تميم" للشباب المسئول عن تركيب كاميرات المراقبة، هبط كلاهما للأسفل، وتحديدًا في منزل "سلطان"، شدد الأول على ابن خالته بالتزام الصمت التام، وألا يتفوه بأي حماقة تخص ما اكتشفاه، حتى لا تثار أي ضجة، ونفذ "هيشم" ما أملي عليه بالكامل، وجلس

منتظرًا قدوم الشاب بأعصابٍ متوترة، جاءت "ونيسة" لتحيته متسائلة عن عمده، وهي تضع كوب الشاي أمامه:

-أختك عاملة إيه دلوقتي يا "هيشم"؟

نظر أولاً إلى "تميم"، الذي على ما يبدو لم يكن مهتمًا بسماع رده، وقال بعدها ببسمة مقتضبة:

-الحمد لله أحسن.

تركزت عينا خالته على ابنها الصامت، وأضافت بوجه مقلوب:

-ربنا يصبرها على اللي هي فيه، ويعوضها خير.

علق بإيجاز:

يا رب

تابعت؛ وكأنها تقصد بذلك إخبار ابنها بطريق غير مباشر:

-أنا رايحة اطمئن عليها عند أمك، بقالي كام يوم ماشوفتهاش، وهي يا حبة عيني من آخر مرة كانت مش عجباني.

تنحج بخفوتٍ قبل أن يعقب عليها:

تنوري البيت يا خالتي.

وجه "تميم" حديثه إلى والدته، فاستطرد قائلاً لها:

-أحنا شوية ونازلين يامه، لو وراكي حاجة خلصوها، مش عايزين نعطلك.

نظرت له شزرًا، وبملامح عابسة متجهمة، قبل أن تشيح بوجهها بعيدًا عنه، ثم  
أخبرت ابن شقيقتها بابتسامة صغيرة:

-إنت مش غريب يا "هيثم"، لو عوزت تأكل ولا تشرب، ماتكسفش، قولي.  
تصنع الابتسام وهو يشكرها:

تسلمي يا خالتي، دايمًا عامر، بس أنا كلت مع "همسة".

تنهدت وهي تعقب على كلامه:

-ربنا يهنيكم مع بعض.

يا رب.

شيح "هيثم" خالته بنظراته خلال انصرافها من المكان، ثم مال برأسه نحو "تميم"  
ليسأله بمزاح حذر، بعد أن لاحظ التوتر السائد بينهما:

هي خالتي مقطعاك ولا إيه؟

رد الأخير بدون مبالاة:

متخدش في بالك.

أضاف "هيثم" بنفس الأسلوب الساخر:

-ماتحسسنيش إن "خلود" السبب.

تجمدت عينا "تميم" عليه، وقال بتحفظ:

-ربنا يهديها لحالها.

فهم ابن خالته من جملته المقتضبة، أنه لا يجذب أبدًا، التطرق لما كان بينهما في يومٍ ما، من شأن خاص، واحترم تلك الرغبة فيه، وانشغل بالتفكير في كشف غموض واقعة المواد المخدرة.

.....

على وجه السرعة، جاء الشاب لمنزل "تميم" ليفحص بحاسوبه النقال، ما تم تسجيله على أشطرة كاميرات المراقبة، جلس الثلاثة بغرفة الصالون، وحرص مُضيفهم على توفير الخصوصية، ليتم مراجعة ما دار بسرية؛ كان الأمر واضحًا كالشمس في كبد السماء، ذلك المثلث يعرف جيدًا ما يفعله، أخفى وجهه بشكلٍ احترافي، فلا تظهر ملامحه، وتعمد التحرك بظهره، ليزيد من حرصه، ما أدهش "تميم" وصدمه بشدة، وجعل الدماء أيضًا تغلي في عروقه، إظهار الفيديو لوجود المثلث في الطابق العلوي، ومراقبته له بتحفظ؛ وكأنه يترصد به، للانقضاض عليه، في حين غفلة، خلال عودته المتأخرة للمنزل، كز على أسنانه مدمدمًا في حنق:

-ابن ال..... كان مرقدلي في الضلمة!!!

رد عليه "هيثم" بنبرة مغلقة بالقلق:

-الحمدلله إنه معملش فيك حاجة، ده شكله ابن ليل!

التفت برأسه نحوه، ورد بتوعدي، وأصابه قد تكورت على بعضها البعض لتشكيل قبضة قوية، تستعد للكم:

-أه لو كنت لمحتة، كنت علقته زي الدييحة.



تأمل "هيثم" هيئته المتحفزة، كان على وشك الفتك بأحدهم، أدار رأسه بعيدًا عنه، ليحدق فيما تعرضه شاشة الحاسوب، لمح شيئًا بدا مألوفًا له خلال مشاهدته، فصاح بغتة، وهو يلكز بيده على كتف الشاب:

-استني كده، وقف الكاميرا هنا.

على الفور تساءل "تميم" في اهتمام كبير:

في إيه؟

رفع رأسه في اتجاهه، وقال:

-عايز أتأكد من حاجة..

ثم مال على الشاب ل يبدو قريبًا من الشاشة، وأمره:

-رجعها لورا..

بقيت نظراته تراقب تفاصيل المشهد بدقة، إلى أن هتف فجأة، عند مقطع بعينه:

-بس وقف.

أوقف الشاب التسجيل، لتتجمد الصورة، وتحتل الشاشة بأكملها، هنا أشار

"هيثم" بسبابته، نحو بقعة فيها، وهتف موضحًا:

-الطقية دي بتاعة الواد "نوح"!

حين أفصح عن هويته، تجهمت تعابير "تميم" بشدة، وسأله بوجه مقلوب، وقد

احتدت عيناه:

-إنت متأكد؟

أتاه جوابه الواثق، بما لا يدع أي مجالٍ للشك:

-أيوه أنا اللي جاييهاله، وكانت مقطوعة من الجنب.

توعده ابن خالته بلهجة تحولت للقتامة:

هيتروق عليه الواد ده، هايشوف النجوم في عز الضهر، والله لهخليه عبرة لمن لا يعتبر.

تعلق "هيثم" بذراعه ليستوقفه قبل أن يتحرك، وأضاف بنبرة شبه مهتزة:

-استنى كده يا "تميم"، دي مش مشيته، ولا ده جسمه، أنا متأكد.

الذبذبة التي استشعرها في صوته، جعلته يرتاب منه، لذا انتزع "تميم" ذراعه من قبضته بعصبية، واستنكر دفاعه عنه بقوله الفظ:

-ولا عشانك اتأكدت إنه صاحبك؟ وشبهك؟

كان تلميحه -رغم عفويته- وقحًا، ويحمل الاتهام في طياته، بأنه مثل رفيقه، ارتكب من الأمور الطائشة والمخجلة، ما يضعه في موضع شبهة، ابتلع "هيثم" إهائته، وقال بنظرات معاتبة:

-الله يسامحك.. مش هارد عليك، بس عشانه زي ما قولت صاحبي، فأنا عارفه كويس، ودي مش مشيته!!

لم يبدُ "تميم" مقتنعًا بما اعتبره لغوًا فارغًا، بينما أصر "هيثم" على توضيح مقصده، فأردف:

-ولما قولت إنها طقيته، مقصدش إنه هو، بس ده واحد غيره لابسها.

زم شفتيه للحظة، قبل أن يعقب بتهكم:

هنشوف إن كانت بتاعته ولا لأ..

ثم خاطب الشاب قائلاً له، وقد أخرج من جيبه حفنة من النقود:

خذ حسابك يا ابني، ومحدث يعرف سيرة بده.

أغلق الشاب حاسوبه، ورد بهدوء:

تمام يا معلم.

.....

استغرقهما الأمر خمس دقائق ليصلا إلى عنوان منزله، أوقف "تميم" سيارته على ناصية الطريق، بسبب الزحام الغريب في المنطقة، في هذا التوقيت المبكر، حشد متداخل يسد الشارع تقريباً، وهمهمات صاحبة تتحدث عن حادثة قتل مروعة تعرض لها أحدهم، ترجل الاثنان من السيارة، وتحركا في اتجاه هذا التجمع، بادر "هيشم" متسائلاً، وهو يشق طريقه بين الأجساد البشرية المتلاحمة:

خي إيه يا جدعان؟ إيه اللي بيحصل هنا؟

أجاب أحد ساكني البناية بقليل من الأسف:

-الواد "نوح" اللي ساكن في السطوح لاقوه مقتول.

تخشب في مكانه مصعوقاً، وحملق فيه بعينين متسعيتين في ارتعاب، شل وقع الخبر المفجع تفكيره، وأيضاً لسانه، ففقد قدرته على النطق أو التعليق، على عكسه كان "تميم" أقل تأثراً، وأكثر تماسكاً، فتساءل مستفسراً عن ملابس مقتله:

عرفتوا منين؟

استرسل الساكن يسرد له:

-واحدة من إياهم كانت الظاهر طالعة عنده، ولاقته مقتول وسايح في دمه، صوتيها جاب التايهين، ولم كل السكان.

تعقدت تعابير "تميم" في استغرابٍ مليء بالاسترابة والشكوك، وسأله في اهتمام،  
أملًا أن يعرف منه المزيد:

-وازاى ده حصل؟

رد الساكن بنبرة عادية:

-محدث عارف لسه! في ناس بتقول واحد ابن حرام اتخانق معاه عشان بت شمال،  
وناس بتقول ولاد الليل طلوعوا عليه، إكمنه ليه في الشم والكيف، قتلوه لأنه  
ماسددش اللي عليه.

هز "تميم" رأسه في تفهم، وعلق عليه:

-الكلام كتير يعني.

أضاف الساكن مؤكدًا:

-أيوه، والبوليس والنيابة فوق، ويا خبر بفلوس!

اختتم معه حديثه هاتفًا:

متشكرين يا سيدي.

ثم استدار في اتجاه ابن خالته، وجذبه بقليلٍ من القوة بعيدًا عن الحشد، متراجعًا به للخلف، وهو شبه يأمره:

-تحرك معايا يا "هيثم".

كان الأخير متثاقلاً في خطواته، يجر قدميه تقريبًا، رافضًا التحرك، ونطق من بين شفثيه، بنبرة مصدومة:

- "نوح" اتقتل يا "تميم"، اتقتل.

بدون شفقة ظاهرة عليه، غمغم ابن خالته:

-الله يرحمه.

تساءل "هيثم" في صدمة؛ وقد بدا غير قادرٍ على استيعاب ذلك:

حطب قتلوه ليه؟

لم يشاركه "تميم" في إظهار عواطفه نحوه، كان تفكيره مشغولاً بشيءٍ آخر، وردد مع نفسه في حسرة انعكست على ملامحه العابسة:

مفتاح أول الخيط كان عنده، ودلوقتي ضاع!!!!

.....

وقع المفتاح من يده، وهو يحاول دسه في القفل، ليفتح باب منزله، ما زالت أطرافه ترتجف، بعد تلك الليلة العصيبة التي خاضها، استجمع جأشه، وتمكن أخيرًا من فتح الباب، ولج للداخل، وأغلقه خلفه بهدوءٍ، حاول "محرز" أن يضم طرفي سترته السوداء معًا، ليخفي آثار اللطخات التي تلوث قميصه الكريمي، وطوى في قبضته الأخرى الطاقة التي استعارها، توقع أن يجد زوجته غافلة؛ لكنه تفاجأ بها تتجول في

صالة المنزل، حاملة لرضيعهما بين ذراعيها، تهدده في لطفٍ وحنو حتى يغفو،  
اندهشت "هاجر" من رؤية زوجها على تلك الحالة الفوضوية، وسألته؛ وكأنها تحقق  
معه:

-مالك يا "محرز"؟ جاي مبهدل كده ليه؟

ارتبك من حضورها، وجاهد ليبدو هادئًا فلا تستريب في أمره، تشتت نظراتها عنه  
للحظة حين بكى الرضيع، فلاطفته بكلماتها الرقيقة، قبل أن تركز عينيها من جديد  
عليه، وهي تلاحق بمزيدٍ من أسئلتها:

-وبعدين إنت مش كنت قايلي هترجع بالليل، إيه اللي أخرك لحد الصبح؟ وقافل  
تليفونك ليه؟

ادعى كذبًا بصوتٍ مضطرب:

-مش أنا قايلك صاحبي عامل عقيقة لابنه، وهافضل معاه طول الليل.

زمت شفيتها في امتعاض، وأعدت تكرار السؤال عليه بسخطٍ، ونظراتها الغاضبة  
موجهة لشخصه:

-وموبايلك؟ إيه مكانش عندك وقت تكلمني فيه؟

استمر في كذبه قائلاً:

-موبايلي فصل شحن، وأنا نسيت الشاحن، ما كفرتش يعني.

تباعد طرفاً سترته عنه، فظهرت البقع الملوثة على قميصه، شهقت "هاجر" مرددة  
في استنكارٍ:

-إيه اللي حصل للقميص يا "محرز"؟

لا إرادياً انخفضت نظراته نحوه، وجمع طرفي السترة معاً، ليخفي الآثار الجافة للدماء عنها، لعق شفثيه، وهتف بصوتٍ متلعثم:

ده.. الخروف، أصل بعد ما .. دبحناه كان لسه فيه الروح، وقام جرى، فأنا مسكته، وبهدلني زي ما إني شايفة

كانت على سجيتها، فلم ترتاب مطلقاً في أمره، لهذا اقتنعت بسهولة بكذبتته، التي بدت منطقية للغاية، وصدقته دون أدنى تشكيك في صحة أقواله، وبتلقائيةٍ طلبت منه:

غير هدومك، وسيدھالي على جمب، وأنا لما أنيم "سلطان" هغسلها وآ....

قاطعها بصوتٍ شبه مرتبك:

لأ.. متغسلهاش.

تطلعت إليه باستغرابٍ، والحيرة تغلف نظراتها نحوه، في حين بلع ريقه، وواصل كذبه:

أصلها اتبهدت، وريحتهما تقرف، هرميها، وأبقي أجيب جديد غيرها.

بساطةٍ ردت عليه:

ما هي لما هتغسل هتنضف.

أصر على رأيه مردداً بعنادٍ غريب:

مالوش لازمة يا "هاجر"، هي قلة فلوس يعني!!

هزت كتفيها في استسلامٍ، وقالت بضمٍ ملتوٍ:

-براحتك، ما أنا اللي كنت هاغسلها، إنت كنت هتتعب في إيه؟

رسم ابتسامة متكلفة على محياه، وعلق عليها بنوع من الدعابة:

-أنا عايز راحتك يا "أم سلطان"، إنتي غاوية شقا ليه؟

-ماشى يا "محرز"، هاروح أحط الواد في سريره

قالتها "هاجر" وهي تتجه نحو الردهة الطويلة لتضع صغيرها بغرفته، بينما أسرع زوجها في خطاه نحو الحمام، أوصده من ورائه، ووقف في المنتصف ينزع سترته عنه، ثم حل أزرار قميصه، وخلعه بتعجلٍ، امتدت بقع الدماء للفانلة الداخلية، فأفسدت لونها الأبيض، مما أفزعه بشدة، بالكاد سيطر على أعصابه أمامها، جمع كل ما ارتداه من ثيابٍ معًا، في كومة واحدة، ليتخلص منها لاحقًا، ثم تحرك في اتجاه المرأة التي تحتل ظهر باب الحمام، وقف مطولاً خلفها، يتأمل في انعكاسها قسماً وجهه الشاحبة، كانت تعابيرها توحى بخطبٍ جلل، لم ينبس بكلمة، وظل جامدًا في مكانه، مسترجعًا في ذاكرته، ومضاتٍ من مشاهدٍ عنيفة غير متوقع حدوثها؛ لكنها، وللأسف الشديد، أفضت للقتل في الأخير.. ازدرد "محرز" ريقه، وحدث نفسه بهسيس لا يحمل الندم:

-إنت اللي اخترت نهايتك يا "نوح" ..... !!

.....

## الفصل السادس والستون



قشعريرة قارصة نالت من بدنه المبتل، رغم دفء المياه المتدفقة على جسده؛ لكن كان لذكرى مقتل "نوح" على يده، الأثر الكبير في توتر أعصابه، وربما خوفه أيضًا. أغمض "محرز" عينيه، وشرد بمخيلته لساعات مضت، حيث كان قلب ضحيته ما زال ينبض بالحياة، كانت التعليمات صريحة ومباشرة، التخلص كليًا من أي شيء أو شخص له صلة بالمواد المخدرة، لقطع كافة الخيوط التي من المحتمل أن تؤدي إليه أو لـ "آسر"، ولهذا بذل ما في وسعه، وأعمل عقله الداهية من أجل القضاء على كل التهديدات المحتملة .. وقف كلاهما خلف أحد الأكواك المغلقة، ومعهما الجوال الأزرق، تساءل "نوح" في فضولٍ، بصوتٍ شبه هامس، والقلق يتراقص في نظراته المراقبة لما حوله:

هو احنا بنعمل هنا إيه؟

أجاب "محرز" مقتضبًا، وهو يفتح مقدمة الجوال:

-شغل.

نظر "نوح" أمامه، وسأله مرة أخرى برنة القلق الظاهرة في صوته:

-بس احنا قريبين من بيت المعلم "تميم" وآ...

قاطعته الأول متسائلًا بتهمكٍ منزعج، وقد تضرح وجهه بأمارات الحنق:

هو محرم علينا نبقى في الشارع اللي هو فيه؟

بلع ريقه، ثم رد نافيًا:

-لأ.. بس بعد الكلام إياه، واتفاق حرق الدكان، آ.....

قاطعته مجددًا، وكأنه يوبخه:

-أقولك إيه؟ أنا مش جايبك معايا عشان ترغي وتصدعني، ده شغل اللي بنعمله.

سأله مستوضحًا:

-هتعمل إيه طيب؟

لم يكن "محرز" راضيًا عن تردده الواضح، ومع هذا قال له بهدوء زائف، وهو يدس اللقافة بداخل جِوال النشارة:

-هخزن البضاعة فوق السطح، لحد ما الأقي تصريفة ليها.

تساءل بنفس الصوت القلق:

-واشمعنى هنا بالذات؟

ثم توقف هنيهة ليضيف بعدها بنزق:

-ما جاز يكون مغرز منك، وبعدها هتبلغ عنه.

فاض به الكيل من خوفه البائن، وصاح في ضجر:

-البيت فيه كاميرات يا أبو مخ ذكي....

بدت نظراته غريبة نحو "نوح"؛ وكأنه يُعيد تقييم موقفه معه، لم ينكر أن الهواجس قد بدأت تساوره ناحيته، تردده غير المشكوك فيه، عزز من ذلك الإحساس، لهذا حاول التصرف بعقلانية، حتى ينهي ما جاء لأجله، فاسترسل موضحًا له:

-شوف يا "نوح"، لو فكرت بشوية عقل، هتلاقي إنهم هيعرفوا مين اللي جاب البضاعة، كل الحكاية إني هتاويهم كام يوم، لحد ما أشوف مكان ثاني آمن.

تطلع إليه بنظراتٍ حائرة، فأكد عليه "محرز" بابتسامته السمجة:

-ماتبقاش خرع كده، ده احنا متودكين في الشغلانة بقالنا ياما.

رد عليه بلهجة محذرة:

-أيوه، بس مش مع المعلم "تميم"!

اغتاظ "محرز" من إعطائه لكل تلك الأهمية لـ "تميم"، ناهيك عن خوفه الزائد منه؛ وكأنه من ذوي السلطة المطلقة، لا يجروا أحدهم على المساس به، أو حتى التفكير في الإساءة إليه، ورغم ذلك كظم حقه مرغمًا، وهتف من بين أسنانه المضغوطة بنبرة أمرة:

-بأقولك إيه.. هات الطاقة بتاعتك.

ضاقت عيننا "نوح" باستغراب وهو يسأله:

ليه؟

علق ساخرًا قبل أن يختطف غطاء رأسه من عليه عنوة:

هتغندر بيها..

ارتداها "محرز" على رأسه، ووضع الجِوال على ظهره، ليقول بلهجة الأمر الناهي:

-بطل رغي، وراقب المكان.

دعك "نوح" رأسه الذي لفحه الهواء البارد بيده، ليعيد إليه دفئه المفقود، وقال على

مضض:

طيب

.....

أنا قلبي وقع في رجلي لما شوفته طالع عندك...

بأنفاس لاهثة ردد "نوح" تلك العبارة، وهو يلج إلى منزله بعد إنهاء "محرز" لمهمته السريعة ببنائة عائلة "سلطان"، تمكن الخوف منه، وشعر بالرهبة من احتمالية كشف أمره، وبمجرد أن لمح "محرز" يخرج، حتى قطع الاثنان الطريق عدواً كاللصوص، ليهربا قبل اكتشاف أمرهما، تسلا عبر الأزقة الضيقة، والشوارع الجانبية ليصلا في الأخير إلى منزل الأول، ظلت بقايا آثار القلق معكوسة على ملامحه، رغم انقضاء المهمة بسلاسة.. استوى "نوح" على الوسائد التي يفترش بها أرضيته، وتابع إفصاحه عما يعتريه من مخاوف، بنبرته التي جمعت بين الجدل والهزل:

أنا خفت لثتمسك، وساعتها كنت هاقر للمعلم "تميم" بكل حاجة من طأطأ لسلامو عليكم، قبل ما يعلقني.

استشاطت عينا "محرز" على الأخير، بدت تعبيرات وجهه متغيرة للغاية، يغلفها الحقد والقساوة، وسأله، وكأنه يحقق معه:

للدراجادي عمله حساب ومش خايف مني؟

بنوع من الاستخفاف، وعدم الاحتراز، أجابه:

إنت تمامك معروف؛ لكن هو نابه أزرق.

مع تلك الكلمات بلغ "محرز" ذروة غيظه، لم يتحمل احتقاره المتواري؛ وإن لم يقصد ذلك عمدًا، فعقب بصوتٍ بالكاد كان مسموعًا، وبنبرة موحية، تحمل في طياتها شرًا عظيمًا:

-يقى متعرفنيس كويس.

وقعت أنظاره على السكين الموضوع في طبق الطعام المتسخ، التقطه بيده، ونظر إليه ليتأكد من عدم ملاحظته له، ثم أخفاه عنه، وتقدم نحوه بخطواتٍ ثابتة متسائلاً بكذب:

-الفحم فين؟ خرينا نولع حجرين.

كان سؤالاً مخادعاً، ليلهيهِ عن عمدٍ عن التركيز معه، أو تتبع خطواته، وبحسن نيةٍ أرشده "نوح" إليه، معتقداً أنه يريد مشاركته المزاج، وليس الغدر به.. التف "نوح" من ورائه، وجثا على ركبته، ليتخذ موضعه خلفه، ثم رفع ذراعه الممسكة بالسكين للأعلى، وقام بوضع نصلها القاطع على جلد عنقه، لينحره بغتةٍ، وبشراسةٍ عنيفة، وهو يهمس في أذنه:

-إنت اللي اخترت نهايتك، ماتزعلش يا صاحبي.

خرج صوت "نوح" كالخوار من جوفه، وهو يسد بيده المرتعشة أنهر الدماء التي تدفقت من عنقه المذبوح، قبل أن يتبع ذلك شهقة مميتة، لتلقيه طعنة نافذة في قلبه، ارتخت أطرافه بالكامل، وسقط رأسه للخلف بعد أن جحظت عيناه، ليستكين بعدها جسده للأبد، تأمله "محرز" بنظراتٍ مليئة بالاستهجان والغضب، ثم نهض واقفاً من جلسته خلفه، استدار حوله، وبحث عن قطعة قماشٍ يمسح بها آثار أصابعه من على السكين الذي بقي مغروذاً في قلبه، سدد له نظرة أخيرة، ثم استطرد قائلاً له، بما يشبه الشماتة:

-أشوفك في جهنم!

مضى بعض الوقت بالمكان ليتأكد من إزالة ما له علاقة به، ليتسلل بعدها خارجه، لينتقل إلى رفاقٍ سوءٍ آخرين، أراد الاستعانة بهم في إكمال باقي مخططه، وأيضًا التخلص من عقبة لا تُذكر؛ تدعى "حاتم".

عاد "محرز" إلى محيطه الواقعي، وقد فرغت المياه الدافئة من السخان، انتبه لانخفاض الحرارة به، فأحس بالمزيد من البرودة تنخر عظام جسده المتجمد، أغلق الصنبور، وخرج من المغطس، ثم لف جسده بالمناشف القطنية، وجمع كل ثيابه في كومة واحدة، ليضعها في أحد أكياس القمامة السوداء، حين يرتدي ملابسه النظيفة ويخرج من الحمام، فيتخلص منها لاحقًا، ابتسامات انتصار متنوعة غزت وجهه الذي كان غائمًا قبل قليل، وما ضاعف من شعوره بالنشوة، رنين هاتفه برسالة تؤكد له إيقاع ضحيته التالية في الفخ، دندن مع نفسه بانتشاء:

هو ده الكلام!

.....

في سابقة لم تبد له غريبة، طلب منه أحد الأشخاص، توصيل أحد الطرود خارج المنفذ الجمركي، بعد أن نما إلى مسامعه، قيامه بمثل تلك الأمور بسلاسة ويسر، ولكون التوصية من "محرز"، فلم يتردد في قبول العرض السخي، كان الطرد يحوي بطاريات خاصة بتشغيل ساعات اليد؛ لكنها من النوع الباهظ، ومع ذلك لم تكن مهمته بالصعبة، بل بدت من أيسر عمليات التهريب التي يقوم بها، تحمس "حاتم" لتنفيذها، نظير ذلك المبلغ المالي المغربي، يا لسعادته! ريح سريع سيجنه في بضعة ساعات! وبحماس واضح عليه، قسم الطرد على دفعات سينقلها بالتتابع، من خلال حقيبة يد جلدية سيعلقها على كتفه، لن تثير الشكوك مطلقًا، سيظن

مسئولي الجمارك أنه أحد مندوبي الشركات، أو موظف ما في مصلحة حكومية ينتقل من مكان لآخر، لإنجاز بعض الأعمال، كان واثقًا من نجاحه، سريعًا ما تبدد شعوره بالثقة إلى الخوف والارتباب، خاصة مع رؤيته لكم أفراد التفتيش المرابطين على جميع بوابات المنفذ، بلع ريقه، وواصل تقدمه نحو الحافلات المخصصة لنقل الركاب للخارج، مؤكدًا لنفسه أنه قادر على إتمامه.

لاحظ خلال سيره تزايد القوات الأمنية، فبدأ متوترًا بشكل كبير، يناقض اعتياده على تنفيذ مثل تلك المهام غير القانونية، أقنع نفسه أن تلك المرة مختلفة، المبلغ المعروض عليه مغري للغاية، ويستحق المحاولة. تنفس بعمق، ليستعيد انضباطه، ثم تسلل بحذر نحو المنفذ الجمركي، مترقبًا بأعين كالصقر اللحظة المناسبة للتحرك والخروج منه، صوت أنفاسه كان مسموعًا له، بحث عن منديل ورقي في أحد جيبه، وجد واحدًا، فرفع يده الممسكة به للأعلى، حركه على جيبيه، ماسحًا حبات العرق الغزيرة المتجمعة عليه. طال الوقت وهو ينتظر اللحظة المناسبة، وما إن تأكد "حاتم" من هدوء الأجواء، حتى استعد للتحرك بحرص، اقترب من حافلة شبه ممتلئة بالركاب، تستعد للمغادرة؛ لكنه شعر بآلم موجه يصيب كتفه، مصحوبًا بصوت آجش خشن يسأله بلهجته الرسمية:

على فين؟

التفت برأسه للجانب، ليجد شخصًا يفوقه طولاً، هتف متسائلاً بنبرة مدعورة:

إنت.. مين؟

نظر له الضابط "وجدي" بنظراته القوية النافذة، قبل أن يسأله بتهكم ملموس في نبرته:

-معك إيه بقى المرادي؟

خمن هويته سريعًا بعدما جاب بأنظاره على ثيابه الرسمية، نظرة خاطفة ألقاها على هؤلاء الرجال المحيطين به من كل اتجاه؛ وكأنه هارب من العدالة، ارتجفت نبرته للغاية وهو يجيبه بتلعثم:

-أنا.. مش معايا حاجة، ده أنا طالع أركب مكروباص و....

قاطعته "وجددي" ساخرًا:

علينا يا "حاتم"؟

صدم من معرفته لهويته، فسأله بنزق:

-إنت عرفت اسمي مينين؟!!!

أجابه مبتسمًا ابتسامًا انتصار، وهو ينظر له بتفاخر:

ده إنت متوصي عليك جامد!

انفجرت شفتاه للأسفل بهلع كبير، فتابع الضابط متسائلًا:

-ورينا مهرب إيه المرادي يا نجم؟!

اهتز جسده من فرط الخوف، باتت نهايته وشيكة إن اكتشف ما معه، جاهد

ليخفي توتره الكبير؛ لكنه فشل كليًا، أكمل الضابط بتشف:

-ماهو كله اتكشف خلاص، واللي مشغلينك اتمسكوا معاك!

ردد لنفسه في ذهول:

-اتمسكوا!



توقف عقله عن التفكير، فمن يعمل لصالحهم كثر، وسقطوه، والإمساك بهم، يعني قضايا لا حصر لها، هنا أدرك الحقيقة المريرة، مصيرًا مظلمًا ينتظره خلف القضبان الموحشة، لعق شفثيه الجافتين، وغمغم مع نفسه مصدومًا، ونادبًا حظه التعس:  
-روح في داهية يا "حاتم"!

.....

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة، حين تواجد كلاهما بالدكان، بدا "هيثم" شاردًا، واجمًا، حزينًا بصدقٍ على مقتل صديقه؛ وإن كانت علاقتهما -مؤخرًا- غير وطيدة، دفعه "تميم" برفقٍ نحو أحد المقاعد الخشبية الشاغرة بالمكان، أجلسه عليه، وصاح مناديًا على أحد عماله، بصوتٍ جهوري:

حد يجيبلنا قهوة يا رجالة.

رد عليه أحدهم من الداخل:

خوريرة يا معلم.

رفع "تميم" بذراعه مقعدًا آخرًا، ووضع في مواجهة ابن خالته، ثم استهل حديثه معه مواسيًا إياه:

-الله يرحمه يا "هيثم"، ادعيه، مافيش في إيدينا حاجة نعملها.

سأله وهو يحبس الدموع في عينيه:

-مين قتله يا "تميم"؟

لم يملك ابن خالته الإجابة على سؤاله، فأبعد نظراته الحزينة عنه ليتابع:

-أنا عارف إنه دايمًا منفض دماغه، وتايبة منه معظم الوقت، بس مالوش في السكة دي.

ربت "تميم" على كتفه مهونًا عليه أحزانه، وقال بهدوء:  
مسير كل حاجة تبان.

ثم التفت باحثًا بعينه عن زوج شقيقته، لم يظهر بسماجته السخيفة على الساحة، ليتقصى الأخبار، لهذا تساءل بنبرة مرتفعة:

يا رجالة! أومال فين الرئيس "محرز"؟

أجابه أحدهم من الداخل وهو يرفع أحد أقفاص الفاكهة:  
مجاش يا معلم لحد دلوقتي.

تعقدت ملامحه متسائلًا في اندهاش كبير؛ وكأن مسألة تأخره مستبعدة كليًا:

خالص؟ ولا حتى ساب خبر إنه هيتأخر؟

رد العامل نافيًا:

-لأ يا معلم، مافيش خبر عنه، وطلبناه مردش!

مط "تميم" فمه في استغراب أكبر، وغمغم مع نفسه:

غريبة!!

انصرف العامل ليتابع عمله، بينما عقب على ذلك الأمر، مفكرًا بصوتٍ مسموع:

-ده عمره ما عملها من سنين، الدنيا تتشال وتتهد، وهو ولا فارقة معاه، بيحي  
الدكان في ميعاده، إيه اللي حصله بقي.

حديثه كان منفردًا، لم يشاركه "هيثم" التعليق، أو حتى أظهر اهتمامه، حزنه كان طاغيًا على أي شيء آخر، صدح رنين هاتفه، فتجاهله، تكرر الاتصال، ولم يحرك ساكنًا، مما دفع "تميم" لإخباره، بصيغة أمره:  
-رد على تليفونك.

قال بوجوم، وكتفاه متهدلان للأسفل:  
-ماليش مزاج.

هز رأسه في تفهم، وهو يرد:  
-براحتك.

تركه بمفرده، لينهض من مكانه، متجهًا إلى عماله، ليتابع معهم سير العمل بالدكان، مر بعض الوقت على انشغاله، اهتز هاتفه المحمول في جيب بنطاله، أخرجه منه، ونظر فيه، وجد اسم والده يملأ شاشته، أجاب عليه دون تأخير، فقال:  
-أيوه يا حاج.

سأله الأخير بصوتٍ بدا جادًا للغاية:

-إنت فين؟

بتلقائيةٍ أجاب:

-في الدكان يا حاج.

رد عليه بلهجة صارمة:

حطب سيب كل حاجة، وتعالى بسرعة على البيت.

سأله "تميم" بتوجيس، وهو يشير بيده لأحد عماله ليخرج رصة الأقفاس من  
الثلاجة:

خير في إيه؟

أخبره على عجاله:

-البوليس عندنا، ومشقلب كيان البيت، ولو "هيثم" عندك، خليه يجي، يفتشوا  
في بيته، وأنا واقف مع مراته.

تبدلت تعابيره للقلق والانزعاج، وهتف مردداً بتلهف:

على طول هنكون عندك يا بابا.

اندفع خارجاً من الدكان، وجاذباً "هيثم" من ذراعه بغتة، اندهش الأخير من تصرفه  
الغليظ معه، وسأله وهو يحاول التحرر من قبضته:

في إيه؟

التفت نحوه، وأجابه بغموض؛ لكن عيناه نطقتا بالكثير من التوقعات:

-اللي كنت خايف منه حصل!!!!

.....

في حالة فوضوية، ترك الأثاث الخاص بالمنزلين؛ وكان حرباً اندلعت بالمكانين،  
بسبب تفتيش أفراد القوة الأمنية الدقيق، بحثاً عن المواد المخدرة المخبأة في  
أحدهما، كل شيء كان نظيفاً، لا وجود لما يُدين ساكنيه، تحفز "بدير" في وقفته،  
وقد رأى نظرات الاتهام واضحة في أعين المتواجدين، اتجه إلى الضابط المسئول  
ليقول له، بضيق كبير، معكوس على تقاسيم وجهه قبل نبرته:

يا باشا ده أكيد بلاغ كيدي، احنا طول عمرنا ماشيين في السليم، مالناش في شغل الهبو، ولا البودرة.

رمقه بتلك النظرة المتفحصة، قبل أن ينطق بأسلوبٍ متهمك:

-واحنا بنشوف شغلنا يا حاج.

رد عليه في استياءٍ شديد:

-وأنا معترضش، بس سمعتنا نضيعة، واللي بتعملوه ده يشبهنا.

قال له الضابط بلهجةٍ رسمية:

يا حاج احنا مش بنتحرك كده عشوائي، في بلاغات وتحريات وآ...

قاطعته "تميم" قائلاً عن ثقة، رغم الحنق البادي عليه:

-براحتك يا باشا، فتش في كل مكان، احنا عارفين نفسنا.

التفت نحوه الضابط، ونظر له بتعالٍ، ليشيح بوجهه بعيداً عنه، تحرك نحو أعتاب باب المنزل، ورفع رأسه للأعلى ليلمح الكاميرات المعلقة بزوايا الدرج، تساءل عاليًا وهو يشير بيده نحوها:

-الكاميرات دي شغالة؟

من تلقاء نفسه أجاب "بدير":

-أيوه.

رد عليه أمرًا:

عايز كل تسجيلاتها!

أخفى "تميم" ابتسامة صغيرة، كادت تلوح على زاوية فمه، فما سجلته عدسات الكاميرات سابقاً تم محوه، بأوامر منه للشاب المتخصص في تركيبها، للبت في الأمر بنفسه، تصنع قلة الحيلة، وأجاب وهو يتقدم نحو الضابط:

-مش شغالة يا باشا بقالها كام يوم، وأنا مكلم الواد اللي ركبها يشوف مالها.

غامت عينا الضابط، وعلق عليه بصوتٍ حاد:

-أنا اللي أقرر وأشوف إن كانت شغالة ولا لأ، مش إنت.

رفع كفيه للأعلى في استسلام، وهو يرد:

-خد راحتك يا باشا.

على الجانب وقفت "همسة" مع زوجها، بعد أن هبطت للطابق السفلي، لتمكث في منزل "بدير"، ولا حقيقته بأسئلتها في خوفٍ لم تسع لإخفائه:

-هو في إيه؟ بيعملوا فينا كده ليه؟ هو في حاجة حصلت؟

لم يجبها، وأشار لها بإيماءة من رأسه لتصمت، أطبقت على شفيتها بامتعاض، والتزمت السكوت مرغمة؛ لكن بقي بالها مشغولاً بما يحدث حولها من أمورٍ مُربية، فالطرقات العنيفة على باب منزلها، وصوت الضابط الشرطي الصارم جعل الرعب يدب في قلبها، ولولا وجود "بدير" لازدادت فزعاً من حضورهم المفاجئ، وغير المرحب به.

.....

لم يتوقف لسانها عن الثرثرة لوالدتها، وتوأماتها، بكل التفاصيل المهمة، وغير الهامة، عن زيارة أفراد الشرطة لمنزلها، ولمنزل عائلة "بدير" صباحاً، لتفتيشهما، وكيف

انقضى الأمر على خير، دون وجود سبب فعلي للاتهام الباطل، تنهدت "همسة"  
في تعبٍ، واختتمت حديثها عن هذا الموضوع، وقالت:

-ده اللي حصل، والمحضر اتحفظ.

ردت عليها والدتها في ارتياح:

-الحمد لله إنها عدت على خير.

أضافت باهتمام، مستخدمة يدها في الإشارة:

-بس أنا برضوه شاكة زي المعلم "تميم" إن الحكاية دي مخرجتش برا حد يعرفوه.

ازدرت ريقها، وقالت بتخوف:

-كلامك يقلق بصراحة.

حركت "همسة" رأسها في اتجاه شقيقتها المتابعة في صمت، وسألتها:

-وانتي إيه رأيك يا "فيرو"؟

بفتورٍ علقت عليها:

-حاجة متخصصينش.

لم تسترح لتعبيراتها الجامدة، تفرست فيها متسائلة بفضول:

-يا بنتي مالك؟ من ساعة ما اتكتب كتابك، وانتي مش مبسوطه.

حاولت أن تبتمس قبل أن ترد عليها:

-أنا كويسة، اطمني.

لم تقتنع بجوابها المقتضب، نظراتها الشاردة، عزوفها عن البوح بما يختلج صدرها كان جليًا، أرادت "همسة" الضغط عليها مجددًا، عليها تفرج عن مكنونات قلبها؛ لكن منعها من فعل ذلك قرع جرس المنزل، فتساءلت في استغرابٍ قليل:  
مين اللي جايلنا؟

ورغم ذلك أجابت بنفسها على سؤالها:

-ماطنش إنه "هيشم"، قالي وراه مصالح مع ابن خالته.  
أومأت والدتها برأسها، وأردفت قائلة:  
-تلاقيها مرات خالك.

سخرت معلقة على تطفلها السمج:

-أيوه صحيح، هو في غيرها بيحشر نفسه معانا؟!

زمت "فيروزة" شفيتها، وردت بتعايرها المتجهمة:

-اللي فيه طبع بقى.

وبخطواتٍ متكاسلة، نهضت "همسة" من على الأريكة، واتجهت إلى باب المنزل، فتحتة بابتسامتها المرحية، والتي تلاشت كليًا، فور رؤيتها لآخر من توقعت تواجده بالمكان، حلت أمارات المفاجأة على قسماتها، واتسعت حدقتها في ذهولٍ كبير، ثم تحركت شفاتها لتنطق باسمها، في صدمةٍ متوترةٍ للغاية:

- "خلود" ..... !!!

.....





## الفصل السابع والستون

ظهرت هكذا بجراءة -وبحضورها غير المرحب به- دون ميعاد سابق أمام باب منزلها، اكتسب وجه "همسة" تعابيرًا مصدومة، سريعًا ما تحولت للقلق الممتزج بالانزعاج، لكونها تعلم أن وجودها سيكون مصحوبًا بمشاكلٍ جمّة، وارتب الباب، وسألته بلعثةٍ ظاهرة في نبرتها:

خير في إيه؟

بوجهٍ غائم، ونظرات تكسوها القتامة ردت عليها "خلود":  
عايزة اتكلم مع أختك.

ظلت "همسة" تسد بجسدها الباب، وممسكة بيدها الأخرى حافته، لتمنعها من رؤية من بالداخل، وقالت لها بلهجة يشوبها التوتر:  
-مافيش بينك وبين "فيروزة" حاجة، لو سمحتي آ..  
قاطعتها بإصرارٍ عنيد:

مش إتي اللي هاتقولي!

ثم استخدمت قوتها الجسدية في إزاحتها عن طريقها، لتقتحم المكان، وصاحت منادية، بصوتٍ أقرب للصراخ:

- "فيروزة"!!!!

خرجت الأخيرة على إثر صوتها المرتفع لتتفاجئ بها تحتل صالة المنزل، رمقتها بتلك النظرة الحادة، قبل أن تسألها بجمودٍ:

إنتي؟ بتعملي إيه هنا؟

لانت تعابير "خلود"، وغطتها تعاسة مبالغ فيها، لتقول لها بتوسلي، مستجدية مشاعرها:

عشان خاطري رجعلي جوزي.

تعقدت تعبيراتها بشدة، وسألتها باستنكار واضح:

جوزك؟ إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟

انحنت للأمام لتمسك بيدها، جذبتها منها بقوة، وادعت محاولتها لتقبيل ظهر كفها، وهتفت بنفس الأسلوب الرخيص في استنزاف عواطفها:

-أبوس إيدك، أنا مستعدة أعمل أي حاجة عشان أخليه يرجعلي...

لكن سريعاً ما لبث أن تحولت نظراتها للإظلام، وملامحها للقساوة، وهي تكمل باقي جملتها:

-وتبعدي عنه!

انتشلت "فيروزة" يدها بأعجوبة منها، تراجعت للخلف لمسافة آمنة، ثم صاحت معترضة على ما قالته:

-وأنا مالي بيه أصلاً؟ إنتو أحرار مع بعض!

استقامت "خلود" في وقفها، ورمقتها بتلك النظرة الحقودة، قبل أن تنطق بغلٍ شاب نبرتها:

-هو مش شايف غيرك دلوقتي، إنتي إيه؟ عملاله سحر؟!!!

ردت عليها "همسة" في لهجة مستنكرة:

-مايصحش اللي بتقوليه ده!!

تدخلت "آمنة" في الحوار المحترم، وقالت:

عيب يا بنتي الكلام ده، بنتي متريية، مالهش دعوة لا بجوزك ولا بغيره...

توقفت للحظة لتتقرب منها، وأذرتها:

-وماتنيسش إنك هنا في بيتنا!

التفتت "خلود" لتواجهها، وهدرت:

-لا، ليها!

ضاقت عينا "فيروزة" في رفض تام لما صرحت به، ورغم صدمتها من وقاحتها

الفجة، واتهامها غير المقبول، إلا أنها هتفت تحذرها بلهجة صارمة، مستخدمة

سبابتها في الإشارة نحوها:

مش هاسمحك تقولي كلام زي ده عني، أنا واحدة متجوزة وآ...

قاطعتها "خلود" صارخة بهياج منفعل:

جوزي بيحبك، وإنتي واقفة في طريق سعادتنا!

تفاجأت من كلماتها المعترفة بحبٍ لا تعلم عنه شيء، وممن؟ من آخر من يمكن أن

تربطها به أي علاقة! ورغم هذا خفق قلبها بتوتر، حافظت "فيروزة" على جدية

تعبيراتها المشدودة، وردت محتجة عليها، رافضة التفكير في احتمالية صدق أقوالها

المزعومة:

-إيه؟ بيحبني؟ إنتي أكيد غلطانة!

أصرت على تأكيد حديثها بقولها المتعصب، وشرارات الحقد تتطاير من مقلتيها:  
-أنا متأكدة من اللي بأقوله، ده اعترفي بحبه ليكي، عايزة أكثر من كده إيه؟  
كان صوت أنفاسها مختنقاً وهي تسترسل بمرارة وحنق، ملفقة المزيد من الأكاذيب:  
-جوزي بيعترف لي وهو نايم على فرشتي، بأنه عاشق لواحدة تانية غير مراته، إيه  
جبروتك ده؟ شيلي السحر اللي عملاه ليه!!!  
كلماتها كانت باعثة على الغضب، والاستياء، زجرتها "فيروزة" بقوة، نافية كل ما  
اتهمتها به بعصية واضحة:

-الكلام ده مش مضبوط، إنتي بتخرفي؟  
ودون تحذير، انقضت عليها "خلود" لتمسك بها من ذراعيها، غرزت أظافرها في  
لحمها، وهزتها منهما بعنف، وهي تسألها بكل ما يعترها من غيظٍ وانفعال:  
-قوليلي عملتيه إيه عشان يحبك بالشكل؟  
بأعجوبة، انتزعت "فيروزة" نفسها من براثنها، ودفعتها بعيداً عنها، لترد بتشنج:  
-إنتي مجنونة؟

عادت لتمسك بها من جديد، وسألتها بنفس الصوت الحانق:  
-اشمعي إنتي يحبك وأنا لأ؟!!!!  
رفضت "فيروزة" تجرأها عليها، وهدرت دافعة إياها للخلف لتتخلص منها:  
-ابعدي إيدك عني.

رفضت "خلود" تركها، وأصرت على الاعتداء عليها قائلة لها:

-وأنا مش هاسيبك إلا لما ترجع ليا...

ثم أطبقت حول عنقها بقبضتيها قاصدة خنقها، غلف نظراتها ظلماً مهلكاً، وردت بشرٍ عظيم:

حتى لو كان فيها موتك!

لم تستمر كلاً من "همسة" و"آمنة" في موقف المتفرج كثيراً، تدخلتا لإبعادها عنها، والفض بينهما، وصوت "فيروزة" يتردد عالياً:

إنتي إنسانة مريضة في عقلك، استحالة تكوني طبيعية.

أومات "خلود" برأسها لتؤكد لها صفات الجنون بها:

-أيوه، وهاقتلك، ومحدث هيحاسبني.

شحذت "فيروزة" كامل قواها الدفاعية، واستخدمتها لتنجو ببدنها منها، فجذبتها من حجاب رأسها للخلف، وعرقلتها بقدمها، لتطرحها أرضاً، ثم جثت فوقها لتثبتها، وهي تضربها بضربات عشوائية، في أماكن متفرقة، أصابتها بالألم، وجعلت مقاومتها لها تضعف، بينما أسرع "همسة" لإحضار هاتفها المحمول، بحثت عن رقم زوجها، ودون أي مقدمات، استغاثت به فور إجابته على اتصالها:

-ألوو، الحقنا يا "هيثم"، أختك موجودة عند ماما، وماسكة في أختي، هاتقتلها لو مجاتش بسرعة!!!!

.....

كالأفعى المنتظرة في جحرها المظلم، مترقبة بتلهف لحظة هجومها على طريدها، تتبعت "حمدية" خطوات زوجها، بحرص شديد، راقبته من مسافة جيدة، لم

تمكنه من رؤيتها؛ لكنها منحتمها الأفضلية للحاق به، ادعت تصديقها بسذاجةً لكذبه المكشوف بشأن تلك المأمورية الطارئة، أتقنت في تمثيل دورها، وأوهمته أنها اقتنعت بكل ما ملأ به أذنيها، حتى صدق أن خدعته انطلت عليها، خرجت ورائه بعد ذهابه، استأجرت عربة أجرة، وأمرت السائق بالسير ورائه، مقابل المبلغ المادي الذي سيطلبه، استغرقها بضعة ساعات حتى وصل زوجها الخائن إلى وجهته الأخيرة، منطقة شعبية ضيقة، تتجاور فيها العمارات القديمة بشكل لا يترك مساحة كافية لمرور سيارتين معًا.

دفعت للسائق أجرته دون مفاوضة أو اقتطاع، ثم ترجلت من السيارة، وعيناها تلاحقان زوجها، رآته يعرج نحو أحد محال البقالة، انتظرت "حمدية" في مكانها، وتساءلت مع نفسها بصوت خفيض:

يا ترى مخبي عني إيه ثاني يا "خليل"؟!

بعد برهة خرج منه، وقد ابتاع الكثير من الأشياء، في أكياس بدا عاجزًا عن حملها، بسبب وزنها الثقيل، كزت على أسنانها تلغنه بسخط:

إن ما عملتها ودخلت عليا قبل كده، بشنط كثير زي دي، زي باقي مخاليق ربنا! ظلت محاصرة في مكانها، إلى أن واصل حركته نحو بناية لم تكن بالبعيدة، اختفى عند مقدمتها، لذا لم تكن متأكدة من ولوجه بداخلها، تحفزت للمضي قدمًا، والتحري عنه من صاحب محل البقالة، وقفت أمامه، وألقت عليه التحية بهدوءٍ عجيب، مغاير لبراكين الغضب المتأججة بها حاليًا:

سلامو عليكم.

بادلها مالكة الترحيب متسائلًا:

-وعليكم السلام، طلباتك يا حاجة؟

حدجته بنظرة مغتظة من نعتها بالسيدة العجوز، فهممت بنقم:

-كل ده وحاجة؟ أعمى البصر بصحيح!!

على ما يبدو لم يفهم ما تفوهت به، فسألها بنبرة رسمية:

-لا مؤاخذة مش سامعك، أجييلك إيه؟

تصنعت الابتسام، واستطردت متسائلة:

-أنا كنت عايزة أسأل عن الأستاذ "خليل"، اللي كان هنا من شوية.

أتبعت جملتها الأخيرة بإشارة من يدها للخلف، لتشير إلى اتجاه سيره؛ لكنه رد

بغلظة، وكأنه يحقق معها:

-إنتي قريبتة؟

أجابت بابتسامتها المتكلفة:

-أنا من جيرانه القدام، وبقالنا ياما مشوفنا هوش من ساعة ما عزل من حتنا.

علق بسخافة:

-خلاص روجي اسأليه، أنا مش شغال في الشئون الاجتماعية عشان أشغل بالي

بكل من هب ودب!

لم يكن الرجل من النوع الثرثار المتطفل، وظهر هذا بوضوح من خلال أسلوبه

الجاف، استشاطت "حمدية" غضبًا من وقاحته، وانعكس ذلك في نظراتها النارية



نحوه، ما خفف من وطأة الأمر، قيام إحدى السيدات بالمبادرة بحديثها عنه بما يشبه المدح، من تلقاء نفسها، ودون دعوة لفعل ذلك:

-الأستاذ "خليل" هو في زيه! ونعم الجيرة والله!

ردت عليها تؤمن على كلامها، فأضافت:

-معاكي حق، ده راجل طيب وفي حاله.

دفعت المرأة ثمن ما اشترته، وحثت "حمدية" على التحرك معها خارج محل البقالة، لتثرثر كلتاهما بأريحية، فعقبت الأولى مسترسلة:

-الحق يتقال ياختي، معمرناش سمعنا عنه حاجة وحشة هو أو مراته!

رفعت "حمدية" حاجبها للأعلى، ورددت باندهاش، صعبه المزيد من الغضب:

-مراته!!!

سألتها المرأة باستغراب، حين لاحظت علامات الصدمة الجلية على محياها:

-هو إنتي متعرفيش إنه اتجوز ولا إيه؟

ادعت جهلها، وقالت:

-لا ياختي، ما أنا بقالي فترة مشوفتوش، بس كان قايل إنه هيخطب.

تأبطت المرأة ذراعها، وواصلت السير المتهادي معها، وهي تخاطبها:

-أهوو ربنا كرمه، واتجوز واحدة سُكرة، تتحط على الجرح يطيب.

بجهدٍ عظيم حافظت على ثبات بسمتها، ودعت لهما كذبًا:

-ربنا يباركله فيها.

استأنفت المرأة حديثها قائلة:

من يوم ما سكنوا حارتنا، وهما قافلين بابهم على أنفسهم، محدش يعرف عنهم حاجة.

علقت ساخرة من جملتها الأخيرة، والتي بدت صحيحة: مظبوط.

تهددت المرأة، ثم زادت في قولها:

-إنتي عارفة، قليل في الزمن ده اللي في حاله.  
على مضضٍ نطقت لثجاريها:  
-أيوه.

مصمصت شفيتها، وأثنت أيضًا على طفلته بعفوية:

-ولا بنته، زي العسل، طالعة لأمها، أدب، وجمال، وتربية.

لكن ما لبث أن تبدل صوت المرأة للأسف وهي تغمغم:

-ربنا يعوض عليه بالولد، مراته بتحاول أديلها زمن تجيبه ابن يشيل اسمه.

عقت باقتضابٍ، ونيران غيرتها وحقدتها تزار بداخلها:

-معلش

أكملت المرأة مضيئة:

-كل شيء بأوان.

ردت، وكأنها تؤيدها:

أه طبعًا..

ثم لعقت شفيتها، وسألتها مباشرة:

هو ساكن فين هنا عشان أعدي عليه؟ ما أنا لازمًا أزوره، وأسلم على جماعته.

بتلقائيّة أرشدتها إلى عنوانه:

-بيت نمرة 12، اللي هناك ده، الدور الثالث، الشقة اللي على اليمين.

ابتسمت "حمدية" لتسهيلها الأمر عليها، وشكرتها:

-كتر خيرك يا حبيبتى، ماتحرمش منك.

قالت المرأة ببساطة:

على إيه، هو أنا عملت حاجة؟

أقبلت "حمدية" عليها لتحتضنها، وتعمق من روابط الود العجيبة بينها وبين تلك

الغريبة التي تجهل حتى اسمها، وقالت بزيف:

-والله قلبي افتحكك، ده إنتي وشك سِمْح!

ربت المرأة على كتفها، وأردفت بامتنان:

-القلوب عند بعضها، قوليلي إنتي ساكنة فين بقى؟

راوغتها "حمدية" في جوابها حين عقبته:

لأ، أنا مش من هنا، ده أنا كنت جاية في زيارة لجماعة قرايبي، وعديت بالصدفة  
من حارتكم وشوفت "خليل"، قصدي الأستاذ "خليل"، بس حظي حلواني  
أشوفك وأتعرف عليك  
ضحكت المرأة، وشكرتها:

كل ذوقك يا حبيبتى، ده أنا الأسعد ..

اختتمت "حمدية" حديثها معها بوعودٍ كاذبة بلقاءٍ آخر، لتبتعد بعدها عنها، ثم  
دمدمت بوعيدٍ مرعب، وعيناها تقدحان بحمم حارقة:  
متجوز ومخلف! ماشي يا "خليل"، هاتشوف!!!!

.....

بالعافية أخوها جابها هنا!

نفخت "بشينة" في إنهاك، بعد أن قالت تلك العبارة، لتنتهي سردها تفاصيل ما حدث  
من ابنتها من تصرفات مليئة بالرعونة لـ "محرز، حيث اقتحمت منزل عائلة  
"فيروزة"، واشتبكت معها بالأيدي، بعد وابلٍ من الاتهامات المجحفة، وبصعوبة  
نجحت نساء المنزل في تقييد حركتها، وإفقادها للوعي، مترقيات على أحر من  
الجمر وصول شقيقها لإخراجها منه، قبل أن ينتهي التشابك العنيف بكارثة دموية  
أخيرة، لتعود إليها في حالة انهيار تامة، أجبرتها على ابتلاع بعض الأقراص المهدئة  
لتغفل بعد عناء .. كان ضيفها قد جاء لزيارتها، في وقت مبكر، وعلى غير العادة،  
متعللاً بحجج واهية، لتبدو شاهدة على تواجده، إن حدث ما لم يتوقعه، وخرجت  
الأمر عن السيطرة، خاصة بعد قتله لـ "نوح"، صرف عن ذهنه مشهد موته،  
وأصغى باهتمام لها، ثم علق معترضاً على طيشها:

-معلش، ما هي بردك مش تصرفات ناس عاقلين.

ردت عليه في حدة:

-وهو المعدول خلى فيها عقل؟ داهية تاخده مطرح ما هو قاعد.

قال مبتسمًا ببرود:

يا رب.

ثم أكمل تناول قهوته السادة، في هدوء؛ وكأنه لم يقترب ما يجعل الولدان شيبًا، انتفاضة دبت في جسده، وقد سمع طرقًا عنيفًا عليه، ترك فنجانها، وشيع بنظراته "بثينة" التي اتجهت إليه لتفتحه، وصوتها اللائم يرن في جنبات الصالة:

-بالراحة يا اللي بتخبط، إيه هتهد الباب على دماغنا؟!

نظرات السخط والكراهية احتلت وجهها، عندما رأت "تميم" يقف قبالتها، في حالة تحفز، وغضب مكتوم، وبكل برود سألته:

خير؟

تخلى عن أسلوب الوقار المصحوب باللين في التعامل معها، ودفعها ليدخل، وصوته المزمجر يسألها:

-بنتك فين؟

تعلقت خالته بذراعه لتبطئ من حركته، وهدرت به:

-اقف هنا وكلمني؟ عايز من "خلود" إيه؟

رمقها بنظرة لا تبشر بأي خير، وقال بوقاحة:

-كلامي معاها مش معاكي.

هتفت محتجة بشراسة:

-وأنا أمها يا ادلعدي!

في البداية لم يلمح "تميم" زوج شقيقته، حيث كان متوارياً في ظهر الأريكة العريض، استجمع الأخير شجاعته، ونهض من مكانه، ليظهر على مرمى بصره مُطلقاً بسماجته المعتادة:

-ما تصلوا على النبي يا جماعة.

ردت "بثينة" بامتعاض، وهي تسد بجسدها الطريق على زوج ابنتها السابق:

عليه الصلاة والسلام.

اعتلت الدهشة تعابير وجهه المشدودة؛ لكنها تلاشت سريعاً، ليسود الوجوم على قسامته وهو يسأله:

-"محرز"! بتعمل إيه هنا؟

عمدت خالته لصرف انتباهه عنه، وهتفت فيه بحدّة، وهي تلوح بيدها:

-ملكش دعوة بيه.

تركزت عينا "تميم" بالكامل عليه، فنفذت إليه؛ وكأنها تعريه من كافة الأقنعة، ثم علق بشكٍ واضح:

-أصلها غريبة إنك تكون هنا، وغايب عن الدكان!!

بلع "محرز" ريقه، وقد شعرت بالتخبط من نظراته المستريية، واستنكر بعبوس مفتعل:

هو ممنوع أزور الجماعة ولا إيه؟

أجابه بوجهه الغائم، قاصداً بث الخوف في نفسه الأمانة بالسوء:

-لأ مش ممنوع، بس أحوالك مش مريحاني، فيك حاجة مش فاهمها.

حاول أن يبدو مستقيماً في وقفته خلال مجابته، ورد بهدوء، لم يكن مقنعاً:

-أنا زي ما أنا يا معلم، وبعدين الحاجة كانت قصادي في الخير، وأنا الصراحة مقدرش اتأخر عنها.

أضافت عليه "بثينة" لتشد من أزره، فلا يظهر بمظهر الضعف أو التردد قصاده:

-ربنا يكرمك يا "محرز" يا ابني، ما هو أنا معنديش رجالة يقفوا في ضهري، ابني مراته بلفاه في عبها، متعرفش تاخذ منه لا حق ولا باطل، أروح للغريب يعني؟

لم يحد "تميم" بنظراته القاسية عن وجهه، واقتضب معها مردداً بنبرة غير مبالية:  
براحتكم!

ضبط "محرز" طرفي ياقة جلابه، وأطرق رأسه مخاطباً مضيفته:

حبيب استاذن أنا، ولو احتاجتي أيتها حاجة كلمني على طول يا ست الكل.

ربتت على جانب ذراعه تشكره بامتنان، متعمدة استفزاز ابن شقيقتها:

تسلملي يا ابن الأصول! يا غالي!

لوح بيده، وهو يمرق سريعاً من أمام "تميم"، هاتفاً بأنفاس مضطربة:

-سلامو عليكم!

أوجز في رده إليه؛ وكأنه لا يستحقه:

-وعليكم..

ثم استدار برأسه في اتجاه خالته يأمرها بلهجة حاسمة:

خشي نادي بنتك من جوا، ده لو عايزة اليوم يعدي على خير.

لم يكن بالمازح في تهديده، ازدردت ريقها، وضمت شفثيها في غيظٍ مكبوت، لم تعقب عليه، أو تجادله، بل انصرفت هاربة من نظراته النارية، لتذهب إلى غرفة ابنتها الغافلة، حتى تحثها على الاستفاقة، وكلها يقين أنها لن تتوانى عن النهوض من أجله.

.....

أمنية حاملة، شكّلها لا وعيها، فغابت في تفاصيلها الوردية، وعاشت ما تضمنته من لحظات رومانسية عميقة، مليئة بالجموح والرغبة، سعادة مزيفة؛ لكنها مزيلة بالآمال والأطماع، انتهت فجأة بهزة عنيفة اجتاحت جسدها، وانتشلتها رغماً عنها من أحضانها الدافئة، لتعيدها إلى واقعها المؤلم، أفاقت "خلود" من غفوتها على صوت والدتها المتكدر، كادت أن تفرغ غضبها عليها، لولا أن أخبرتها بوجوده الفعلي، تبذرت الانفعالات الثائرة، بمشاعرٍ متلهفة، مشتاقة، تواقّة إليه، هبت ناهضة من فراشها، وشدت على والدتها عدم التدخل بينهما، مهما اشتد الجدل، تحركت سريعاً، غير عابئة بمظهرها، وركضت نحو الخارج لتلتقيه .. وبنظراتٍ والهة تطلعت إلى وجهه، تأملته مطولاً، وتقدمت نحوه متسائلة، بصدري ينهج:



- "تميم"! إنت هنا؟

اقتربت أكثر منه، لم تهتم بآمارات الحنق الظاهرة عليه، ورفعت يدها لتتلمس وجهه وهي تقول بابتسامة متسعة في سعادة:

-أنا مش مصدقة إنك موجود، افكرت نفسي بأحلم ...

وبكل جراءة أَلقت بنفسها في أحضانه، محاولة الالتصاق به، أغمضت عينيها قائلة بتنهيدة اشتياقي:

حبيبي، إنت رجعتلي، أنا بأحبك.

بغلاظة أبعدها عن صدره، ودفعها للخلف، فكادت تُطرح على ظهرها؛ لكنها تمالك نفسها، كان رافضاً اقتربها غير الجائر منه، ولو بدافع الشفقة، سلط نظراته القاتمة عليها، وهدر بخشونة:

هو سؤال واحد وعايز أعرف إجابته منك.

لم تنصدم من إقصائه لها، أبدت استعدادها التام لتحمل جفائه، ظلت ابتسامتها المتسعة مرسومة على محياها وهي ترد:

-أنا كلي ليك يا حبيبي.

لم يرف له جفن، وقست ملامحه أكثر، عندما سألها:

-روحتي عندها ليه؟

تجاهلت سؤاله، ولم تكترث لرنه الغضب المغلفة لصوته، بل تقدمت من جديد نحوه، وعاودت الكرة، ورفعت يدها متملمسة بأناملها ذقنه النابتة، تحسستها وهي تنهد قائلة، ونظراتها تحوم على قسماته:

-يا، إنت وحشتني أوي

بقسوة أزاح يدها عنه، وتجاهل بوحها بمشاعرها، ليرد متسائلاً بلهجته الصارمة  
المليئة بالحنق الشديد:

-كنتي عند "فيروزة" ليه؟

استفزها ترديد لسانه لاسمها، فتبدل هدوئها الناعم لعاصفة غاضبة، وصرخت في  
وجهه:

برضوه بتنطق باسمها قدامي؟ ليه عايز تعذبني؟ إنت بتتبسط لما بتشوفني كده؟  
رد عليها بنبرته المرتفعة:

-بطلي أوهامك دي، وجاوبي على السؤال، ليه روحيلها؟

أجابت ببساطة، ونظراتها عليه:

عشان أرجعك لحضني.

عنفها بغیظ:

-وتقوليلها كلام محصلش؟

هزت كتفها قائلة بأنفاس هادرة:

مش فارق معايا، أنا مستعدة أسف التراب، وأذلل نفسي ليها أو لغيرها، المهم  
تكون ليا في النهاية، وترجع لحضني، أنا بأحبك يا "تميم".

نظر لها بازدراء، وصاح بنبرة متصلبة:

مهما عملتي يا "خلود"، استحالة نكون سواء، اللي بينا انتهى خلاص

ردت عليه بعنادٍ، وبصوتها الصارخ:

-لأ مانتهاش يا "تميم"، إنت جوزي، وأبو عيالي.

سددها لها نظرة احتقارٍ، قبل أن ينطق بوجهه المتجهم:

-كنت.. يا بنت خالتي..

ثم أشار بإصبعه يحذرهما بلهجة قوية:

-ولآخر مرة بأقولك إياكي تقربي من "فيروزة"، لأنني ساعتها هاخش فيكي اللومان!!!!

تغاضت عن ذكره لاسمها، حين رأته يدير ظهره، ويستعد للذهاب، هرولت ركضًا

نحوه، وحاوطته من الخلف، لتحتضنه، اختنق صوتها وهي ترجوه:

-استنى! رايح فين؟ ماتسبنيش، أنا مصدقت إنك هنا.

من جديد انتزع قبضتها عنه، وقال في سأم واضح:

-كلامي معاكي مالوش أي فائدة، بأدن في مالطة!!!

رفضت تركه، والتصقت كالعققة بذراعه، مما جعله يسحبها خلفه، اخترق صوتها

المستفز أذنه وهي تردد على مسامعه عباراتها المستهلكة:

-إنت لسه بتحبني، كفاية قساوة عليا.

استل ذراعه منها، ودفعها بعنف بعيدًا عنه، ولسانه ينطق باستياء:

-أعقلي بدل ما أحطك بنفسي في السرايا الصفرا!

فتح الباب، واندفع خارجًا من منزلها، ليصفقه بعصية من ورائه، ارتمت "خلود" على الكتلة الخشبية وهي تنتحب في إحباط حزين، انهارت جالسة على الأرضية، لتجد والدتها تنظر إليها بسخطٍ، لم تتأثر ملامحها وهي ترجوها:  
- ماتخليهوش يمشي يامه.

تجمدت "بثينة" في مكانها، تراقبها بعينين حاقتين، تعكسان غلاً يتعاضم يوميًا بداخلها تجاه "تميم"، بسبب ما يفعله في ابنتها الراضية لتصديق أنهما ليسا معًا.

.....

خلوة جديدة، انفرد بها مع نفسه، عند تلك الكتل الصخرية، حيث تتحطم من أسفلها، أمواج البحر العاتية، فهناك المتنفس الوحيد لكل ما يعتريه من مشاعر، يأبى تحريرها بسهولة، خرج من صدره زفيرًا بطيئًا، محملاً بالهموم والأثقال، وكلام "هيشم" يصدح في رأسه، عن ادعاء شقيقته بحبه الشغوف بـ "فيروزة"، لم تكذب حين أخبرتها -وسط دوامة غضبها الأعمى- بمشاعره المقدسة ناحيتها، واستثيرت أعصابه لاستباحة ما يخصه علنًا، ما أزعجه حقًا، أنه تمنى لو امتلك من الشجاعة، القدر الكافي، لينطق شخصيًا باعترافه، وأمامها، وليس على لسان غيره، بذلك الأسلوب الرخيص، ألقى "تميم" بحصوة صغيرة ابتلعها المياه في لمح البصر، متخيلاً أنه مثلها، غارقًا في قساوة الحياة، وهو يلوم نفسه:

-يا ترى هاتقول عني إيه بعد ما عرفت منها الحقيقة؟

توقع ألا تطبق النظر في وجهه مطلقًا، أن تزدريه، وتستحقه، وترفض حتى ملاقاته مصادفةً في عرض الطريق، زفير آخر تعيس لحق بما سبقه، قبل أن يدمدم في

حزين:

ليه كده يا "خلود"؟ ضيعتي مني حتى حلمي المستحيل!

.....

استلت نفسها من أحضان والدتها، لتنظر إليها بعينين تلمعان بعبراتٍ كثيفة، قاتلت لمنعها من الانسياب؛ لكنها طفت على أهدابها، وعلى عكسها انخرطت "آمنة" في بكاءٍ مؤلم، لتوديعها ابنتها عند المطار، وتساءلت بنشيج:

-الوقت أوام كده عدى؟

خنقت "فيروزة" غصتها، وردت بابتسامة، سعت لتكون مشرقة:

غضب عني والله يا ماما إني أمشي، بس متقلقيش، أنا راجعة ثاني.

جذبتها أمها لحضنها من جديد، شددت من ضمها لها، وهي تمسح على ظهرها، ثم أردفت قائلة:

-هتوحشيني أوي يا "فيروزة".

رغبت بشدة أن تظل هكذا، تحتويها أحضانها الحانية، بدلاً من الغربة التي تنتظرها؛ لكنها باتت الخيار الأمثل، لتهرب من كل التهديدات المدمرة لبقايا أطلال سلامها النفسي، والوجداني، تنفست ببطء، ثم همست بنبرة أظهرت حبها الغريزي لوالدتها:

-واتي أكثر يا ماما.

ابتعدت عنها والدتها، وسألتها بصوتها الباكي:

-مكانش ينفع تفضلي شوية.

كانت صادقة حين أخبرتها بنبرة ذات مغزى:

-كده أحسن للكل.

تفهمت توأمتها رغبتها في الابتعاد عن محيط المشاكل المحاصرة بها، وآخرها اتهام "خلود" لها، بتورطها في تخريب علاقتها بزوجها السابق، لم تجد "همسة" من الكلمات ما تنطق به، دون أن تهطل دموعها، فالتزمت الصمت، مدعية الابتسام، وركزت عينيها مع صوتها القائل:

-وبعدين ما أنا هاكلمكم كل يوم، وكل شوية، لحد ما تزهقي مني.

عابتها "آمنة" برقة:

-وحد يزهق من ضناه؟

توسلتها "همسة" بعبوس:

-كفاية بقي عشان هاعيط منكم.

وضعت "فيروزة" يدها على كتف توأمتها، وشجعتهابضحكة مبتورة:

-لأ اجمدوا كده.

مسحت "همسة" عبراتها المتسللة من طرفيها، وتساءلت:

هو "آسر" عارف ميعاد وصولك؟

أجابتهاب "فيروزة" بإيماءة من رأسها.

-أيوه، وهيقابلني أول ما أنزل من الطائرة.

أكدت عليها والدتها بعينيها التعيستين:

-كلمينا يا "فيروزة" عشان نظمن عليك.

حافظت على ثبات بسمتها المهزوزة، وهي ترد:

حاضر يا ماما.

ثم مالت عليها، واحتضنتها لمرّة أخيرة، لتقول بعدها، بابتسامة أرادت أن تظل آخر ما يلمحاه في وجهها:

-هاسيبيكم بقي، عشان يدوب ألحق أخلص الإجراءات جوا.

مسحت والدتها على وجنتها بنعومة، ودعت لها بتضرع:

-ربنا يحفظك يا حبييتي، ويسلمك من كل شر.

يا رب

ثم أضافت مختمة حديثها معها:

-لا إله إلا الله.

ردت والدتها ببكاء مرير:

محمد رسول الله!

رجتها "فيروزة" بصوت متأرجح بين الضعف والجديّة:

عشان خاطري كفاية.

بررت لها صعوبة تماسكها، فقالت:

غصب عني يا حبييتي.

داعتها بكلماتٍ لطيفة قاصدة تهوين الأمر عليها، قبل أن تجر حقيبة سفرها خلفها، وتختفي بداخل بوابة المطار، وضعت "همسة" ذراعها على كتفي والدتها لتحتضنها، وهتفت بابتسامةٍ منقوصة:

-أنا متفائلة خير يا ماما.

لم تنظر "آمنة" في اتجاهها، وظل بصرها متعلقًا بطيفها الذي رحل، وهي ترد:  
-أنا لأ، قلبي مقبوض.. أول مرة بنتي تبعد عني المسافة دي كلها، يا ريتها كانت ساكنة هنا، ده بينا بلاد!

-إن شاء الله هترجعلنا قريب.

يا رب.

انضم إليهما "هيثم" متسائلاً، بعد أن ترك لثلاثتهن مساحة من الخصوصية للحديث بأريحية، دون أن يتطفل عليهم:

-ها يا جماعة خلاص سلمتوا عليها واطمنتوا؟

ردت عليه "همسة" بهزة خفيفة من رأسها:

-أيوه.

أشار بيده نحو موقف السيارات، وأضاف:

حبيب يالا بينا عشان ألحق أوصلكم، قبل ما أطلع على الدكان.

.....



لحظات تمنى أن تنقضي سريعًا، حتى لا يقتله هذا الشعور المُهلك بالفقد، بذل المستحيل ليلتهى عن التفكير فيها؛ لكن كل خلية فيه تعي جيدًا أنها راحلة اليوم، وما أقساه من إحساس تعاني فيه وحدك -وبجميع جوارحك- من ألم الفراق، دون أن يعلم الطرف الآخر عن عذابك شيء! تحولت الأرقام في عينيه إلى سراب، تداخلت البيانات، وتلاشت قدرته على تفسير ما احتوته الأوراق، توقف "تميم" عن المطالعة، وحملق بشرود -وبعينين تحبسان الدمع فيهما- في الفراغ المعتم أمامه، بعد أن أطفأ المصباح، لم يرغب في رؤية أحدهم لدموعه العريضة، التي دوّما ترفض الانصياع له، وتبوح بما يعجز اللسان عن قوله، وفي غمرة كل هذا، لم ينتبه للمتربص به في الظلام، جاء خلسة بعد انصراف جميع العمال ليراقبه، منتظرًا بحقد اللحظة المناسبة لقطع رأسه، والتخلص للأبد من تهديده الواضح.

وبخطوات متسللة، سار "محرز" على أطراف أصابعه في اتجاهه، بعد أن أخفى وجهه بوشاح أسود، فيما عدا عينيه، استمر في تقدمه الحذر نحوه، رافعًا تلك العصا الغليظة للأعلى، بكلتا قبضتيه، ليضربه بها على رأسه، قاصدًا تهشيم جمجمته، في اللحظة التي هوى بها عليه، تحرك "تميم" من تلقاء نفسه، بضعة سنتيمترات للجانب، غير مدرك للشيطان المتواجد حوله، لتهبط العصا على كتفه، بدلاً من رأسه، فأصابه بإصابة مؤلمة، جعلته يصرخ من شدة الوجع المباغت، التفت مقاومًا آتات ألمه، فتلقى ضربة أخرى على جبهته، أحدثت شرخًا نازفًا فيها، وطرحته أرضًا، مستلقيًا على ظهره، ومع ذلك جاهد لمقاومة المعتدي، مُغالباً كل آلامه، استطاع أن يقف على قدميه، وهو يصيح به، بتوعدي؛ وكأنه الفائز في تلك المشاجرة المفاجئة، وغير المرتبة:

فاكر نفسك غلتنى؟ ده أنا هوريك!

اتخذ "تميم" موقفًا هجومياً؛ لكن ضربة عنيفة مباغتة أصابته في معدته، من آخر ظهر من العدم من خلفه، فـ "محرز" لم يأت بمفرده، استعان بأعوانه من حلفاء الشر، ومع هذا تصدى له "تميم"، تاركًا الشعور بالألم للضعفاء، وانتزع العصا من يد مهاجمه، وضربه بشراسة بها، أحاط به ثلاثة آخرين، فاستدار في مكانه محاولاً التعرف على ملامحهم وسط تلك العتمة، وهدر بهم يلعنهم، بشجاعة منقطعة النظير:

يا ولاد ال.....، مش "تميم سلطان" اللي يكش ويخاف من شوية (...)! وبالرغم من الصحوة التي دفعت الأدرينالين في عروقه، إلا أن كثرة المعتدين عليه، من زوايا متفرقة، جعلت كفة الميزان ترجح لصالحهم، فأصبحت الغلبة لهم، وتدحرج أرضاً مستقبلاً المزيد من الضربات المحطمة للضلع، والكاسرة للعظام. شيئاً واحداً فقط أبصرته عيناه رغم الغمامة التي اندفعت زاحفة إلى عقله، لتحجب الرؤية عنه، حين كان المعتدي الأول عليه جاثياً على ركبته بالقرب منه، ليتأكد من هلاكه؛ حرقاً مميزاً يشبه الثقب، يحتل خياطة الجيب الأمامي لجلبابه، جعله يتعرف إليه، ويدرك حرفياً أن وراء هذا القناع، شخصية نجسة، خائنة، لا أمان لها مطلقاً، وليؤكد له أنه قد علم هويته، همس "تميم" باسمه بأنفاس واهنة:

- "م.. محرز"!

رأى عينيه تتسعان بغتة في صدمة، قبل أن ينتفض مبتعداً عنه، حتى وهو في حالته غير الواعية بهابه؛ كان آخر ما لمح "تميم"، واشتم أنفه رائحته أيضاً، سكب هؤلاء الأوغاد للكروسين بأركان الدكان، الملائين يريدون إحراق جسده حيًا! تفقه ذهنه المتأرجح بين اليقظة والهديان لتصرفاتهم، من خلال الجلبة والصياح الأمر:

عايزكم تجيبوا عاليه واطيه، بيتقى كوم تراب!

عجز عن إجبار أطرافه المتآذية بشدة على التحرك، استسلم مرغماً للسواد الذي تغلغل وانتشر في عقله، ليكون آخر ما احتل مخيلته لمحةً من ماضٍ بعيد، جمعته آنذاك بها ..... !!!

.....

## الفصل الثامن والستون

القلب، ليس فقط موطنًا لشخص عزيز، وإنما منبعًا لكل ما هو نفيس، من مشاعر وأحاسيس، يحيا بهم الكيان، ولأنها تدخر تلك المكونات الغالية لشخص بعينه، يستحق ما احتفظ به القلب طوال تلك السنوات، توهمت أنها ستمنح كنز مشاعرها المرهف لمن أصبح زوجها، رغم ما يعترىها من قلق وخوف. وحيدة في مقعد ثلاثي، استقرت عليه "فيروزة" بجوار النافذة، صامتة، يشوب ملامحها الشرود، فبعد أن أنهت الإجراءات الخاصة بسفرها، صعدت على متن الطائرة، وشعورها بالرغبة يتضاعف بداخلها.

قاومت طوال الأيام الماضية التفكير فيما أعلنت عنه "خلود" خلال نوبة غضبها، عن حبٍ بدأ وانقضى بعيدًا عنها، تحولت السحب من حولها لما يشبه شاشة العرض السينمائية، تعرض لقطاتٍ قصيرة، تُذكرها بمشاهدٍ جمعتها مع آخر من ظنت أن قلبه دق لأجلها؛ اتهامات متبادلة بسبب عملها الذي لا شأن له به، صفقة قاسية منها أمام دكانه، وعيدٌ برد الاعتبار، واستعادة الكرامة المنتهكة، حفل خطبة لتوأمتها وجدال عند عتبة مطبخها، مناقشات كلامية دارت بينهما في المطعم، مصادفة عابرة في الطريق ليلة الاحتفال بميلاد رفيقتها، لقاءاتٍ غير مرتبة في محل بيع الهدايا، دفاعه عن شقيقتها في المشفى، وتهذيبه لزوجته للسانها السليط، إصراره على التواجد في محيطها كلما سنحت له الفرصة بذلك، دعمه غير المشروط لها في مأزقها الأخير، حين كاد يزج بها في السجن، بتهمة لا تمت لها بصلة، وقبل كل هذا ذكرى حادث الطفولى المأساوي.

كان رغم الكراهية المبررة منها نحوه شهماً معها، محافظاً على حدود علاقته به، لم يمسه بسوء، دوماً متواجداً عندما تحتاج إليه، والآن أكتملت قطعة اللغز الناقصة، كان ولا يزال يفعل ما يفعله .. لأنه فقط أحبها، في غفلة منها، وبدون علمها .. لم يكذب ذاك الصوت الصارخ بداخلها، عندما أشعرها أن اهتمامه بها لا يرجع لرجولة متأصلة به، وإنما لمشاعر غالية يكنها القلب لها.

بات عسيراً عليها الآن الاستمرار في التفكير في أمره، وعيناها تقاتلان للاحتفاظ بدموعها في محجريهما، لم تعرف "فيروزة" لماذا تبكي! كان عليها أن تشعر بالفخر لكونها -كأنثى- باتت محط أنظار الجنس الآخر، حازت على اهتمام أحدهم؛ لكنها بدت أكثر تعاسة عن ذي قبل، وجاهدت لتبتعد كلياً عما يمكن أن يعرضها لمواجهة معه، لترحل كما خططت؛ وإن ملأ الأسى قلبها، عقدت العزم على أن تصنع سعادتها بنفسها، وأوهمت عقلها أنها قادرة على ذلك، اختفت شجاعتها اللحظية، وتبددت دفعة واحدة، كما اجتاحتها رعشة باردة تغلغل بقوة في أطرافها، عندما سمعت صوت المذياع الداخلي ينطق:

برجاء الجلوس في أماكنكم، وربط الأحزمة، استعداداً للإقلاع، الكابتن وجميع أفراد طاقم الطائرة يتمنون لكم رحلة جوية سعيدة وآمنة.

زاد إحساسها بالرهبة، وكان هذا أكثر ما يُربكها، ألا تعلم ما تخبئه الحياة لها، لاكت في جوفها علكة لتخفف به وطأة تغيير الضغط عليها، ودعت الله في نفسها:

-استرها يا رب معايا في اللي جاي..

خبا صوتها الداخلي وهي تنهي حديث نفسها الصامت:

-مش هاقدر استحمل أذية ثانية.

بحرفية قائدٍ خبير، انحرف بشاحنته الكبيرة عند ناصية الشارع غير المعبد، فحجمها الضخم لا يسمح بمرورها بين المباني القديمة المتجاورة، ليقترّب من الدكان، فأبطأ من سرعتها بالقرب من تلك المساحة الخالية المسموح له فيها بالاصطفاف، دون أن يعيق حركة المارة، ليصيح صوت زئير المكابح المزعج عاليًا، ويرن صدهاء في الأجواء الهادئة. أوقف "سراج" تشغيل المحرك، والتفت إلى الحاج "عوف" الجالس في مقعد الراكب بجواره، واستطرد يقول له، بوجهه المتجهّم، وعلامات العناد تنعكس في نظراته كذلك:

-لا مؤاخذة يا عم الحاج، أنا مش جاي معاك المشوار ده.

استدار الأخير نحوه، ورجاه بصوته الهادئ:

يا ابني متعقدش الأمور، مش النفوس خلاص هديت؟

رد عليه بامتعاضة ظاهرة على محياه:

-الكلام ده صوري يا حاج "عوف"، فض مجالس يعني، وإنت وأنا عارفين ده كويس، مافيش حد بيتصافي!!

سأله مستفهمًا، وقد أدرك أنه ما زال على موقفه العدائي نحوه:

هو "تميم" ضرك في حاجة من وقت ما اتصالحتا؟

أجابه بصدق، رغم رنة الانزعاج المحسوسة في صوته:

-الشهادة لله لأ، ملتزم باتفاقه، وحق البضاعة بالكامل بيوصل قبل ما يستلمها حتى.

ابتسم الحاج "عوف" وهو يُصر عليه، عله يتخلى عن عناده، ويقنعه:

حبيب، فيها إيه لما تيجي معايا، ونظهر حسن النوايا؟  
أبقى على رفضه معتذراً منه:

إنت عارف يا حاج إني مابجش أكرلك كلمة، بس اعفيني أنا..  
نظر له "عوف" بأسف، فأكمل "سراج" بنوع من العتاب اللطيف:  
-وبعدين لو كنت قولتلي من الأول إنك جاي عنده، مكوتش جيت معاك منطقتة،  
ووفرت على نفسنا الإحراج ده.  
سحب الأول عصاه التي يتكئ عليها، واستعد للترجل من الشاحنة مغمماً بياس:  
-لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يهدي النفوس.

استقام واقفاً بعد هبوطه منها، وأغلق الباب خلفه، ثم رفع أنظاره إليه ليردف بعدها:  
عموماً أنا مش هتأخر عليك، هسلمه فلوس التوريد، وراجعلك، عشان نلحق  
نطلع مشوارنا.

هز رأسه في تفهم، وهو يريح ذراعه على المقود، ليقول بوجه جامد:  
-ماشى يا حاج.

.....

سار بخطواتٍ متمهلة، في الزقاق المختصر، والمؤدي إلى دكان عائلة "سلطان"،  
متوقفاً تواجد "تميم" بالخارج، في انتظاره، كما اتفق معه في مكالمة هاتفية قبل  
ساعةٍ تقريباً، تسمر "عوف" في مكانه مصدوماً، وقد رأى اثنين من الغرباء يحومان  
حول المكان بشكل يبعث على الاسترابة، بسبب الأوشحة التي تخفي معالم

وجهيهما، ضاقت عيناه بشكٍ كبير، حينما وجد أحدهما يسكب سائلاً غريباً على واجهات الدكان، فهدر بصوتٍ أجش:

-إنت بتعمل إيه؟

التفت المثلث نحوه بشكلٍ مفاجئ، وحالة من الارتباك المختلط بالفزع تسيطر عليه، وكأنه يخشى التعرف عليه، بسبب تواجده غير الموضوع في الحسابان، هرع الوضع يركض فراراً منه؛ لكنه ألقى بقداحته على السائل المسكوب، لتنتفض ألسنة النيران كالحمم، بعد ملامسة شرارتها له، صاح "عوف" لاعتنا إياه بغضبٍ شديد:

يا ابن ال.....! الله يخرب بيوتكم!

هرول في اتجاه باب الدكان الذي تحول لكثلة من اللهب المستعر، وصراخه المدعور يهدر في أركان المنطقة الشعبية:

حريقة يا ناس! دكان الحاج "سلطان" بيولع!

لم تسعفه سنوات عمره المتقدمة، في التصرف كالشباب في خفتهم وسرعتهم، لذا كانت وسيلته المتاحة الصياح الهادر، جلبة سريعة انتشرت بأرجاء المنطقة، مصحوبة بأصوات صراخ فزع للنساء، حاول "عوف" اختراق ألسنة النيران الحارقة، والمرور للداخل، حين رأى جسد "تميم" مسجي على الأرضية، وربما فاقد لوعيه؛ لكنه عجز عن تنفيذ هذا، فواصل صياحه المستغيث:

-الحقوا المعلم "تميم"، ده محبوس جوا دكانه! انجدوه يا رجالة!

وفي غمضة عينٍ ازدحم المكان بعشرات المواطنين ممن هبوا لإطفاء الحريق، باستخدام الدلاء، أو الرمل، أي شيء يمكن أن يخمد النيران الجائعة .. أكثر ما



كان يخشاه "عوف" وسط تلك الفوضى المخيفة! هو احتمالية خسارة "تميم" لحياته، جراء فعلة خبيثة لأحد شياطين الإنس، وقبل أن تسود النهايات السيئة في رأسه، لمح "سراج" وهو يضع تلك البطانية -والتي أغرقها بدلو مملوء بالمياه- فوق كامل جسده، لتغطيه، وتحجب عنه الألسنة الحارقة والتواقة لإشباعها، اندفع دون ترددٍ وسط النيران، ملقيًا بنفسه داخل الدكان، رغم امتلاء جسده وضخامته، لم يظهر عليه الخوف، وأبدى استعداداه التام لإتقاده رغم الصراعات الدموية بينهما، في حين شرع من الخارج في إخماد النيران التي تقاتل لتبلغ عنان السماء.

.....

جثا على ركبته أمامه، وسعل باختناقٍ، وحشجة مؤلمة، وهو يكتم أنفه، ليمنع رثتيه من استنشاق المزيد من الدخان الخانق، طقطقات الخشب المحترق أذرتة بانهارٍ وشيك، لهذا وجب التصرف على قدرٍ من السرعة والحذر، أحنى "سراج" جزعه على جسد "تميم"، رأى علامات الضرب الموحشة تاركة آثارها عليه، أدرك أنها لم تكن مشاجرة متوازنة القوى تلك التي خاضها حتمًا بمفرده، اقترب برأسه من وجهه ليهتف به وهو يهزه:

- "تميم"! سامعني!؟

حاول استراق السمع لصوتٍ ربما شق طريقه إليه؛ لكن لا استجابة حيوية منه، تدل على بقاءه على قيد الحياة من عدمه، ومع هذا حسم أمره بإخراجه من هنا مهما تكلف الأمر، رفع ثقل جسده بذراعيه، ثم استدار ليمدده على ظهره، ومرر ذراعيه المرتخيتان من حول عنقه، ليتمكن من رفعه للأعلى، ثم ألقي بالبطانية فوقهما،

كوسيلة حماية ضرورية أثناء تحركهما للخارج، استقام "سراج" واقفاً، ونظر في اتجاه باب الدكان، صوتاً ضعيفاً نما إلى مسامعه هامساً:

- "ف... فيروزة!"

تجمد مشدوهاً للحظة في مكانه، وتساءل:

- "تميم!" إنت فايق؟

لم يجبه، فظن أنها ربما تكون هلوسة ما جراء ما تعرض له، واصل سيره الحذر تجاه الباب، متحاشياً الكتل الخشبية التي تتساقط بغتةً فوق الرؤوس، توقف "سراج" مرة أخرى، وقد سمعه ينطق بصوتٍ بدا واضحاً له:

- "م... .." "محرز!"

هتف متسائلاً في استغرابٍ:

- "محرز"؟ ماله؟ موجود جوا ولا إيه؟

كرر عليه اسمه بصعوبةٍ وضعف:

- "م...حرز!"

تغاضى "سراج" مؤقتاً عن الإنصات إليه، وركز حواسه مع الصراخ الآتي من الخارج، حيث بات مدخل الدكان -إلى حد ما- مهيباً لخروجهما بعد مساعدة أهل المنطقة، وما إن اقتربا منه، حتى تشجع اثنان آخران لمعاونتهما .. بعد لحظاتٍ كان الجميع خارج الدكان المحترق، تمدد "تميم" على الأرضية المغبرة، وانحنى عليه "عوف" ليتفقد أنفاسه، وقلبه يدق في خوفٍ وارتعاب، ما إن شعر بحركة ضئيلة لصدره، مع هواء ضعيف يخرج من جوفه حتى هلل مكبراً:

-الله أكبر، لسه فيه النفس.

وبصوتٍ لاهث هتف "سراج" مشيرًا نحو الدكان:

-كان بينادي على "محرز"، مش عارف إن كان جوا ولا لأ.

صاح "عوف" عاليًا ليحث أهل المنطقة على تفقد المكان مجددًا، للتأكد من خلوه من أي شخص:

-شوفوا في لسه حد جوا الدكان ولا لأ، الظاهر "محرز" كان مع "تميم" فيه.

هبطت ألسنة النيران وانحصرت عند الباب الجانبي، فحث ذلك أحد الرجال على اقتحام الدكان، وإلقاء نظرة متفقدة على ما به،

-لازمًا نوديه المستشفى حالاً يا حاج، إنت مش شايف عامل إزاي

رد بإذعانٍ تام:

-أيوه مضبوط.

رفض "سراج" تركه في حالته الحرجة، دون أن يتخذ موقفًا رجوليًا معه، مُنحياً الخلافات السابقة جانبًا، وأصر على التواجد بصحبته أثناء نقله للمشفى، بادر أحد سكان المنطقة بإحضار سيارته لإيصاله في التو والحال، وتشارك عدة رجال في حمله بحرص، والاتجاه به نحوها، ليتم إسناد جسده المتأذي بالمقعد الخلفي، وأصوات فرقعات الزجاج المتهشم، من الحرارة العالية، بداخل الدكان، تسود في الخلفية.

.....

نفسًا عميقًا سحبته لتملاً به صدرها، بعد أن وطأت ساحة الوصول بالمطار، استعانت "فيروزة" بالعلامات الإرشادية الموضوعة في كل مكان لتصل إلى الخارج، بعد إتمام تسجيل دخولها للبلاد، توقفت عند المكان المخصص لاستقبال المسافرين من ذويهم، وبحثت بعينها عن زوجها، اشترأت بعنقها للأعلى تفتش عنه، عله يقف في زاوية غير واضحة الرؤية لها، لن تنكر أنها شعرت بالخوف يتفشى في أوصالها، عندما لم تجده في انتظارها، زاد إحساسها بالضيق؛ لكنه تناقص تدريجيًا مع رؤيتها له بطلته المهدمة، وهو يتقدم نحوها، حاملاً باقة من الزهور الحمراء في ذراعه، ابتسامة عريضة ظهرت على شفثيه، قبل أن يلاطفها بكلماته الرومانسية:

حبيبتي، وعمري كله، حمدلله على السلامة.

بادلته ابتسامة ارتياح، وإيماءة خفيفة من رأسها، تصلبت بالمعنى الحرفي، واتسعت حدقتها مصدومة، حين خطا في اتجاهها، ولف ذراعه حول جسدها ليضمها إلى صدره، ويحتضنها، لم تستطع فعل المثل معه، ربما لخلجها، أو عدم اعتيادها على تصرفاته الجريئة معها، تراجع عنها، وذراعه لا يزال مستقرًا على خصرها، نظر لها ملء عينيه، ليضيف متسائلًا:

-الرحلة كانت كويسة؟

أجابت باقتضابٍ بعد ابتلاع ريقها:

-أيوه.

أعطاهم الباقة قائلاً:

ده عشانك

تناولتها منه، واحتفظت بابتسامتها وهي ترد:

شكراً

مد "آسر" يده، وسحب حقيبة سفرها بذراعه الآخر، ثم أكمل بعذوبة، وغمزة سريعة من عينه تلازم كلامه:

إن شاء الله نقضي أحلى شهر عسل هنا.

ضغطت على شفيتها في ارتباك، وقالت بجدية، لتغطي على هذا:

أنا عايزة أكلم ماما أطمئنها عليا.

بوجه غير مقروء، أخبرها:

هيحصل، بس لما نوصل البيت.

خبت بسمتها المتكلفة، وتطلعت أمامها، وهو يقودها للتحرك في اتجاه المخرج، حيث يصف سيارته بالموقف المخصص لهذا، حاولت أن تسترخي في حضوره، لكن جسدها ما زال محتفظاً بتصلبه، مع لمساته غير المستحبة عليه.

.....

بدون دعوة، اقتحمها شعوراً جديداً بالاعتراب، غالبته بمجهودٍ لتدعي ابتهاجها بالنقلة الكبيرة في حياتها، راقبت الطرقات النظيفة، والشوارع المنظمة بعينين نهمتين للتطلع إلى ما لا تألفه، وتساءلت في جملٍ مقتضبة عن أسماء بعض الأماكن الجاذبة للأعين، ومنحها زوجها الرد عن كل استفسارٍ بإسهابٍ زائد، فبدأ ذلك جيداً من وجهة نظره- لإذابة الجليد، وكذلك للتقارب بينهما. عند ضاحية راقية، تضم مباني

مصممة على طراز عالمي، وفريد من نوعه، تأملت "فيروزة" الإبداع الفني الذي  
خطف أنظارها، وأيضًا أنفاسها، فتساءلت عفويًا:

هو انت ساكن هنا؟

أجابها "آسر" بابتسامة لبقة:

-لا، بس احنا قرييين من هنا.

انتقل عبره إلى ضاحية أخرى، كانت جيدة؛ لكنها ليست بمستوى الرقي المبهر  
الذي رآته، ومع هذا بدت معجبة بما تراه من علامات التحضر الواضحة، وعند  
مدخل أحد الأحياء، عرج "آسر" بسيارته، نحو موقف خاص، يتسع لعشرات  
السيارات، ليصفها بينهم، ثم أشار بعينه نحو إحدى البنايات المصممة على الطراز  
الفرنسي، وقال:

-احنا ساكنين هنا.

ثبتت أنظارها على المبنى وهي تسأله:

-دي شقتك؟

رد نافيًا:

-لا يا "فيروزة"، دي شقق سكنية للإيجار، زي عندنا كده.

اعتري ملامحها تعبيرًا غامضًا، ولمس "آسر" الشك في عينيها، تنحج، ثم أخبرها  
بلهجة جمعت بين الجد والهزل:

عشان أقدر أشتري حاجة فخمة هنا، محتاج يكون عندي ثورة بالملايين، وده  
طبعا صعب عليا، أنا مش أمير عربي....

ثم مد يده ليمسك بكفها، خلل أصابعه في أناملها، وأسبل عينيه نحوها مضيئًا بغموض، جعلها تتوتر:

-بس معاكي مش هايكون مستحيل.

رفع "آسر" كفها الذي يحتضنه إلى فمه، قبله ببطء، وعيناه تتطلعان إليها بنظرات حالمة، تعبر عن تلهف كبير إليها، اعتقدت أنه سيكون تصرفًا فظًا منها إن سحبت يدها منه، وهو له كامل الحق في التمتع بها، فاكثفت بالابتسام الزائف له.

.....

على عكس ما رسم لها من وصفٍ مبالغ فيه لمنزله الفخم، في أحد أهم أحياء المدينة، بدا الأثاث عاديًا، مقارنةً بما تخيلته، نعم يتسم بالحدائثة، والتصميم المختلف؛ لكنه ليس باهظًا كما أوهمها، شعرت "فيروزة" أن غالبية ما يتعلق بزوجها يتخلله الغموض، ابتلعت أسئلتها الفضولية مؤقتًا، لتتجه إلى الحمام، القابع في نهاية رواق متوسط الطول، بعد أن دلها عليه، كانت بحاجة للاغتسال من آثار مجهود السفر العالقة بجسدها، فلا يصح أن تكون ليلتها الأولى مع زوجها يشوبها شائبة، التفتت برأسها نحو "آسر" عندما خاطبها:

-هابعت أجيبي عشاء، حاجة على ذوقي، هتعجبك أوي.

قوست شفيتها لتبتسم، وهي تعلق عليه:

تمام.

ولجت إلى الحمام، وأغلقت الباب خلفها، استدارت لتأمله، وكانت صدمتها الثانية، ليس حديثًا على الإطلاق، المغطس مغطى بستارة زرقاء، تبدو مستهلكة، فمعظم

الحلقات المعلقة بالحامل المعدني مفقودة، كما ظهر الإصفرار على الفواصل الأسمنتية الممسكة بالبلاط الأزرق كمرأى الشمس في كبد السماء، تحولت أنظارها نحو المرحاض، وكان يتشارك مع باقي محتويات الحمام في قدمه، اقتضبت عضلات وجهها، وحلّ التجهم عليها، من المستحيل أن يكون ذلك مطابقًا للوصف الذي صدع به رأسها كثيرًا، تغاضت عن شعورها بالنفور والضيق، لتستحم وتبدل ثيابها، وحدثًا قويًا بداخلها، يخبرها بأن هناك المزيد من المفاجآت غير السارة- تنتظرها.

.....

جالت عيناه بخوفٍ كبير، على الأوجه التي ترمقه بنظرات ما بين جادةٍ ورسمية، لا أحد يبدو مازحًا على الإطلاق، ولماذا يمزحون وقد قبض عليه متلبسًا بالجرم المشهود؟ استمع "حاتم" إلى قائمة الاتهامات التي تنتظره بعقوباتها الصارمة، مرتعشًا في جلسته، نظر بارتعابٍ إلى الضابط "وجدي"، حين ضرب على كتفه، قبل أن يقول له بتحذيرٍ مستتر:

هاعيد كلامي عليك ثاني يا "حاتم"، عشان تظمن، ومتخافش...

لم يعلق عليه الأخير، فقط راقب تحركاته في صمتٍ، غير قادرٍ على الاعتراض بنظراته حتى، استأنف "وجدي" حديثه مرددًا:

-كل اللي هاتقوله هيتاخذ في عين الاعتبار، وده هيحسن من موقفك في القضية.

تساءل "حاتم" في تلعثمٍ مغلفٍ بأملٍ زائفٍ، وهو يرف بجفنيه:

-يعني ... هطلع براءة؟



رد ضاحكًا بما يشبه التهكم:

براءة إيه بس؟ إنت ممسوك متلبس!!

نظر "حاتم" إليه بنظراتٍ ضائعة، وقد تيقن من سوء خاتمته، عاد الأمل ليبيث فيه عندما أعلمه الضابط:

لكن احتمال يتخفف الحكم عليك، وجايز تاخذ إفراج بدري .. في حاجات كثير ممكن تحصل ...

ثم تحولت لهجته للجدية، ونظراته للوعيد، وهو يكمل بأسلوبٍ حمل التهديد في طياته:

-ولو فضلت ساكت، وعملت فيها مخلص، الحيتان الكبيرة هتتنعم في خيرات ربنا، وإنت هتدفن بالحيا جوا السجن، وإنت عارف كويس إن يوم السجن بسنة، وجايز يسلطوا عليك اللي يجيب أجلك.

التزم "حاتم" الصمت لدقائق، مستغرقًا في أفكاره التحليلية؛ وكأنه يعيد تقييم الموقف برمته، ليحتسب مكاسبه فيه من خسائره، وكانت النتيجة أن حسم رأيه قائلاً بنزق:

خلاص سعادتك، أنا هاقول يا باشا على كل حاجة.

ابتسامة انتصار احتلت ثغر "وجدي" وهو يرمقه بنظراته الواثقة، جلس خلف مكتبه، في مقعده الوثير، مسترخيًا عليه، ثم مدح قراره، فقال له:

-كده إنت بتفكر صح.

ركز "حاتم" كامل نظراته، على وجه الضابط المتابع له بإمعانٍ، لم يتعجل الأخير استجابته، تركه يأخذ كل ما يريد من وقتٍ، ليخبره بما يرغب في معرفته بالأخير، تنفس الأول بعمقٍ، ليستعيد انضباط انفعالاته المذعورة، وباسترسالٍ غير مقطوعٍ، هتف مُفصِّحًا عن أحد شركائه:

-اللي كان بيديني الأوامر، لنقل الممنوعات يا سعادت الباشا، واحد اسمه..  
"محرز" ..... !!!

.....

## الفصل التاسع والستون (الأخير)

طريقة خافتة التقطها بأذنيه، فاتجه على الفور - بخطوات سريعة- إلى باب منزله، وقد عرف هوية القادم، ابتسامة مقتضبة تشكلت على محياه، وهو يراجع سريعاً فاتورة الطعام الجاهز الذي أرسل في طلبه، دفع لعامل التوصيل المبلغ المطلوب، وزاد عليه قليلاً، كنوع من البقشيش، ثم أغلق الباب، وهو يندندن بصافرة مبتهجة، فمن المفترض أنه سيحتفل بقدوم عروسه الليلة، اتجه "آسر" إلى مائدة الطعام المربعة -ثنائية المقاعد- والتي تحتل الصالة، أفرغ عليها ما احتوته الحقائب، ثم سار نحو المطبخ الصغير الذي يحتل مقدمة الجانب الأيسر من الصالة، وبحث عن أكواب نظيفة في الرفوف العلوية، ليصب فيها المشروب البارد، ابتسم لنفسه في انتشاء، وقال:

-كده تمام أوي.

لم ينس "آسر" الاستعانة بإحدى تلك الحبوب العجيبة، حيث أكد له من منحه إياها بأنها الوصفة السحرية -والمضمونة- لعلاج (عجزه)، ورغم عدم اقتناعه بنتيجتها، إلا أنه لم يمنع نفسه من التجربة، فمذ اكتشافه لعلته، نتيجة خلل عصبي، أصابه منذ الطفولة، في تلك المنطقة الحرجة، لجأ للأطباء، وكانت الصدمة الكبيرة، بعد سعي دؤوب، بعدم فاعلية العلاج طويل المدى، أو حتى بالتدخل الجراحي، وبات حله المتاح تجربة الجديد من الأدوية، عل أحدهم يحقق له المعجزة المنتظرة .. ابتلع بآمال معلقة في الخيال القرص الدوائي بشربة ماء، ثم عاود أدراجه ليبدأ في تنظيم الطعام بشكلٍ مرتب، ليبدو مناسباً خلال تناوله للعشاء المتأخر مع زوجته، وربما أثناء حديثهما الرومانسي المحمل بالأشواق

والرغبات، تستجيب خلاياه المستكينة منذ فترات طويلة للتأثير الوهمي للدواء، زفرة بطيئة خرجت من جوفه، قبل أن يتمتم، بقليلٍ من التفاؤل:

-جايز تظبط معايا ...

ثم حملق أمامه بنظرات هائمة، ليتابع حديث نفسه:

-المزة المرادي تستاهل، وحاجة مختلفة!

تبخرت الخيالات الجامحة التي عكست ابتسامة بلهاء على ملامحه، لتتحول لعبوس منزعج بسبب الرنين المتكرر من "محرز"، لم يرغب "آسر" في الرد عليه حاليًا، فسماعته، مع سخافته الزائدة، لا يمكن تحملها في تلك الساعة المميزة، أغلق هاتفه، وتجاهله كليًا، حتى أعماله العالقة أرجأها لوقت لاحق.

.....

السقوط في الهاوية، لن يكون مصيره، إن تخلى عنه الجميع، خاصة من يؤدي عنهم أعمالهم القدرة، وغير القانونية، جلّ ما يربعه حاليًا، هو نجاة خصمه من الحادث المدير، وبالطبع إن تكلم ضاع ما رتبه طوال السنوات المنصرمة سدى، لهذا توارى "محرز" عن الأنظار مؤقتًا، ريثما تتضح الصورة كاملةً، وتنقشع تلك الغمة عنه، فبعد أن دفع المال المتفق عليه لأعوانه، بحث عن مخبأ يأويه، ووجد واحدًا تتوافر في الشروط المناسبة، في مكانٍ بعيد؛ لكنه لن يبقى فيه للأبد، وبدا الاختيار المتاح له الآن مخابرة "آسر"، ليحميه ويعاونه في مأزقه، لذا حدث نفسه بعزم:

-أنا ياما ساعدته، جه دوره عشان يطلعني من الوحلة دي.

اضطر أن يخرج من مخبأه، وسار بحذرٍ شديد بين المارة، متخذًا من الطرق الجانبية مسلكًا له، بحث عن أحد المحال الخاصة ببيع كروت شحن الرصيد، من أجل إجراء تلك المكالمة الدولية الهامة، وبعد عناءٍ من اللف، والاستعانة بإرشادات بعض المواطنين، تمكن أخيرًا من تعبئته بالمال اللازم، توقف عند بقعة هادئة، ووضع الهاتف على أذنه مترقبًا بأعصابٍ متلفة رده عليه، استشاط غيظًا حين تجاهله أكثر من مرة، وبلغ ذروة غضبه في لحظة عندما وجد هاتفه مغلقًا، تذكر امتلاكه لرقم آخر يستخدمه عند الطوارئ، لهذا فتش عنه متوعدًا إياه:

قسماً بالله لو ما رديت عليا، لهكشف المستور كله!

قالها "محرز" لنفسه، وكتبها في رسالة نصية قصيرة، قاصدًا بها التشديد على جدية تهديده.

.....

كنوعٍ من الهروب، غابت بداخل الحمام لوقت حاولت استطالته؛ لكن في الأخير، كان عليها الخروج، والالتقاء به، لم تحبذ "فيروزة" أن يراها زوجها للمرة الأولى بالفاضح من الثياب، لهذا انتقت قميصًا حريميًا من اللون الأبيض، ومن فوقه أحكمت ربط روبه، فلم يظهر إلا وجهها، وكفيها، تنفست بعمقٍ، وأقنعت نفسها أنها مهيأة نفسيًا لبدء حياتها مع شخصٍ يملك من السمات الجيدة، ما يحسدها عليه غيرها، وما إن فتحت باب الحمام، حتى عبقت رائحة الشامبو القوية -والذي دلكت به فروة رأسها لعدة مرات- الهواء بكثافة، لازمت أنفها رائحته النافذة، وتمكن زوجها أيضًا من استنشاق عبيده المميز، ليقول لها بكلماتٍ ذات مغزى، وهو يدنو منها:

نعيمًا يا حبيبتى، حمام الهنا.

وقبل أن ترد عليه، ضمها إلى صدره ليحتضنها، ويشعر بدفئها المنعش يغزوه، حاولت أن تنسل من بين ذراعيه المطبقين عليها، وردت بنوعٍ من المجاملة: -شكراً.

استمر في ضمه له، وهو يشتم رائحة شعرها، مستحضراً في ذهنه، كل الأفكار الجامحة في العلاقات الزوجية، ليحفز المستكين من خلاياه المستعصية في استجابتها؛ لكنها أبت الانصياع له، وفشل كالعادة في استحضار ما لا يملكه، في نفس الوقت تراجعت عنه "فيروزة"، وقد استشعرت جموده المريب، تاركة مسافة خطوتين بينهما، ورفعت رأسها لتتأمل باهتمام تفاصيل المكان، الذي لم تكن منتبهة له جيداً، وإن كانت غير راضية عما رأته بالداخل، ليس رغبة منها في الثراء؛ لكن لكونه قد خدعها بطريقة ملتوية، وهذا ما لم تقبله! تجنبت نظراته الدائرة على تفاصيلها الأثوية، وحدقت فيه بتشجع، لمحت في عينيه الرغبة، وذلك ما أصابها بالتوتر، باعدت أنظارها عنه، وانشغلت بتأمل لوحة زيتية على الحائط لمنظر من الطبيعة، استدارت ناظرة نحو حين قال لها، وهو يشير بيده يدعوها للجلوس: -الدليفري جاب الحاجة، وأنا جهزت السفرة.

ردت بهدوءٍ، وابتسامة متحفظة:

تسلم إيدك.

أضاف وهو يضع يده على خصرها ليدفعها نحو الطاولة:

-إن شاء الله يعجبك، المطعم ده معروف بأكله هنا.

أكتفت بهزة من رأسها، وسحبت المقعد لتجلس في مواجهته، فأخبرها وهو مسبل عينيه نحوها:

-حقيقي البيت نور بوجودك فيه...

امتدت يده لتمسك بكفها، ومال نحوها بعد أن رفعه إلى فمه ليقبله، نظر لها بعينين متطلعتين في اهتمام، وأخفض من نبرته قائلاً، بلهجة ذات مغزى:

-أد إيه أنا كنت مستني اللحظة دي.

قشعيرة موترة سرت في أوصالها، وبلطفٍ حذر استعادت يدها من قبضته، لم يبعد "آسر" نظراته المعلقة بها، وتابع:

-أنا عارف إنك مستغربة الوضع شوية، بس كل ده مؤقت.

أجبرت "فيروزة" شفيتها على الابتسام، وردت بتفهم:

-مافيش مشكلة..

للحظة حاولت ألا تتطرق لتزييفه للحقائق؛ لكنها لم تستطع، فأدرفت قائلة:

-هو في سؤال محيرني شوية

بدأ في إزاحة ورق السلوفان عن أطباق الطعام، وسألها، بعينين محمقتين في تعبيراتها:

-إيه هو؟

دارت بنظراتها في المكان، وتوقفت عنده، لتسأله مباشرة:

-يعني الشقة دي كنت عايش فيها قبل كده؟

توقف عما يفعل، واستقام في جلسته، ليقول بصوت هادئ، وبكلمات مرتبة:  
-انتقلت فيها من قريب، هي مش بطالة، تقضي الغرض، ومناسبة للإيجار بتاعها،  
يعني أنا.. أصلي كنت عايش في حته تانية، بس أقل من دي بكثير، حاجة شبه  
العشوائيات.

صدمها بصراحتة، ومع ذلك حافظت على جمود تعبيراتها، تطلع إليه بنظرات تُعيد  
دراسته، وأخبرته دون تجميل:

-أنا مش قصدي حاجة، بس كان في دماغي صورة عنك غير دي.  
رد عليها متسائلاً:

عشان مظهري ولبسي؟

ضمت شفيتها للحظة، وحركتهما قائلة بصراحة:  
-مكدبش عليك.. أيوه.

قال ببرود، ولمحة من الغطرسة تشوب صوته:

-دي شكليات، يعني لزوم شغلي، مش معقول هالبس مقطع ومبهدل، أنا بأتعامل  
مع علية القوم، والحياة هنا غالية جداً، لما تاخدي على الوضع، هتفهمني كلامي.  
هزت رأسها بإيماءة صغيرة، لتعلق باقتضاب، وتعبيراتها يكسوها الامتعاض.  
تمام.

أشار لها بيده قائلاً:

-يالاً بقي عشان الأكل ما يبردش.



دفعت "فيروزة" مقعدها للخلف، وقالت وهي تنهض:

حبيب أنا هاقوم أجيب مياه.

أوقفها صائحًا؛ كما لو أنها على وشك ارتكاب جريمة خطيرة:

-لا استني، احنا مش بنشرب من الحنفية، دي مياه خزان.

ضاقت عينها في استغراب، سألته، والدهشة تملو قسماتها:

-وايه يعني؟

أوضح لها ببساطة، مستخدمًا يده في التلويح:

-لا مياه الخزانات للنضافة، للحمام؛ لكن الأكل والشرب بنستخدم القوارير المعدنية...

ثم نهض من مكانه، وطلب منها بلهجة شبه آمرة:

-استريحي إنتي يا حبيبتني، وأنا هاجيبك

استجابت لطلبه، وتابعت بنظراتها المهمة، وهو يتجه نحو الثلاجة الموجودة خلفها،

لم تكن قد لاحظتها في البداية، وها هي مع الوقت تكتشف المزيد عن تفاصيل

المكان الذي ستعيش فيه القادم من أيامها، استدار "أسر" ليواجهها، وقال وهو

يحمل في يده زجاجة بلاستيكية، نصف ممتلئة بالمياه:

تقريبًا ما فيش عندي أزايز معدنية كفاية، بكرة هنزل الصبح أجيب من السوبر

ماركت.

ضغطت على شفيتها في استياء، لم تستطع إخفائه، وردت عليه بإيجاز:

-أوكي.

أفرغ ما تبقى من المياه المعدنية في كوبٍ أحضره لها، وناولها إياه، ابتسمت له بامتنانٍ، وتجرعت ما فيه لتبلل حلقها الجاف، واستأذنت منه بابتسامة بذلت فيها الجهد لتبدو طبيعية:

-ينفع أكلم ماما بقي أطمئنها عليا.

بادلها ابتسامة زائفة، ورد متهرّبًا منها:

-إن شاء الله، ناكل بس الأول.

أومات برأسها وهي ترد:

طيب.

عاد ليلوك الطعام في جوفه بنهم، وأكمل حديثه معها مغيرًا الموضوع:

-الأكلات هنا مقولكيش، هندي، وصيني، وكوري، وكل اللي نفسك فيه.

تطلعت بنظراتٍ مهمومة إلى أطباق الطعام، وتنهدت معلقة عليه:

-أنا مش أكلة أوي.

اقتطع قطعة من الدجاج المشوي الموجودة في صحنه، وغرسها في شوكته، ثم مد

بها ذراعه نحوها، ورجاها:

-دوقي بس ..

على مضضٍ تقبلت تناول ما لم تستسغه من طعام، وابتلعت مضطرة، وهي تصغي لثرثرته عن مواضيعٍ مختلفة ومتشعبة، وقبل أن يفرغ كلاهما منه، صدح رنين هاتف

"آسر" الآخر، والذي نسي كلياً إغلاقه، زفر في ضيقٍ، ثم نهض من مكانه معتذراً منها:

-سوري يا حبيبتى.

اتجه بخطواتٍ متعجلة إلى غرفة النوم، وانتزع الهاتف من شاحنه، لينظر إلى رسالة تهديدية مرسلة من "محرز"، إن لم يجب فيها على مكالمته، سيحدث ما لا يحمد عقباه، غامت ملامحه، واسودت نظراته، بدا مرتبكاً إلى حد كبيرٍ من كلماته القوية، أطلق لعنة خافته، قبل أن يرتدي قناع الهدوء، ثم استطرد معللاً بنبرة كذبة:

-مش هاخلص من الشغل وقرفه.

سألته باهتمام:

-في حاجة مهمة؟

تحدث من زاوية فمه قائلاً بأسلوبٍ مراوغ:

-لا مش مهم ..

ثم ارتشف ما تبقى من كوب مياهه دفعة واحدة، وهتف متنحنحاً:

-حبيبتى، أنا هنزل أجيب حاجة ساعة من تحت، وطالع على طول.

تعقد حاجباها في استغرابٍ وهي تكرر عليه، بنوعٍ من التساؤل المندهش:

-دلوقتي؟

ضحك بسخافةٍ، وأردف:

-عشان نهضم.

لم يكن أمامها سوى الرد بتنهيده ملولة:  
خد راحتك.

اقترب منها، وانحنى برأسه نحو خدها، ليطبع قبلة صغيرة عليها، وكرر من جديد  
على مسامعها:  
مش هتأخر يا حبيبتي.

رغم ترديده لذلك اللقب الحميمي، وإرفاقه بنوعٍ من المداعبة اللطيفة، إلا أنها لم  
تشعر بقربه الودي منها، شيعته بعينين جمعت بين الحيرة والتوتر، انتفاضة خفيفة  
انتابتها بمجرد خروجه من المنزل، تسرب إليها شعورًا جديدًا، ومخيفًا في نفس  
الوقت، إنه ذلك الإحساس العظيم بالاعتراب، والوحدة، شعورٌ لم تألفه بعد؛ لكنه  
سيكون ملازمًا لها - وبقوةٍ - خلال الأيام القادمة.

.....

"الأخبار السيئة تصل سريعًا" .. مقولة صح معناها، فور أن علمت الحاج "بدير"  
بالمصاب الذي طال ابنه، حتى هرع إلى المشفى، تاركًا باقي أسرته خلفه، ليلحقوا  
به لاحقًا، لم يعبأ بحريق دكانه، فليفتى عن بكرة أبيه، المهم ألا يفقد وليده، من  
ضحى لأجل العائلة، انتحب في صمتٍ عاجز، وانسابت عبراته المكلومة كالأنهر،  
تشق طريقها على صفحة وجهه المجعد، أما والدته فنواحها المفجوع، وعويلها  
الصارخ كانا كفيلان بتلين القلوب المتحجرة، واستعطاف الغرباء قبل الأقرباء،  
آسفًا على حالها المفطر للفؤاد .. انهارت، ولم تعد قادرة على الحركة، فالمصاب أقوى  
من استيعاب إدراكها له، الوحيد الذي بقي متماسكًا كان الجد "سلطان"، آمن بقوةٍ

أن مصيره بين يدي الله، ووحده -تعالى- من يعلم الغيب، وما عليه إلا الدعاء والتضرع له .

وبخطوات غير متماسكة، تسندها عصا مهتزة، أسرع "بدير" في خطاه عبر الردهة الطويلة، في المشفى الخاص، الذي انتقل إليه "تميم"، قاصداً الطريق المؤدي لغرفة العمليات، اعترض "سراج" مساره حينما لمح، آخر من توقع وجوده بالمكان، بل وإيقاظ ابنه رغم الخصومة العنيفة بينهما، استوقفه الأخير بجسده قائلاً بنبرة أظهرت مؤازرته له:

متقلّش يا حاج، إن شاء الله هايقتي كويس.

رفع رأسه المنكسر لينظر إليه بكل هموم الدنيا ونصائبها الثقيلة، بلع ريقه المشبع بالعلم، وهتف بصوتٍ فشل أن يكون صلباً:

عايز أشوف "تميم" .. ده ابني!

ربت على كتفه بلطف، وأكد له بهدوء:

هيحصل، لما الدكاترة يخرجوا من جوا، ويطمنونا عليه، ادعيه يا حاج.

تهاوى كتفاه، وظهر انحناء ظهره، وربما انكسار هامته، وهو يرد عليه برجاءٍ خاشع، وعيناه تبكيان بالهم:

يا رب سمعنا كل خير عنه.

.....

ادعت أسفها وهي تتلقى من شقيقتها الأخبار المؤسفة عن حادث "تميم"، وحرقيق الدكان، ذرفت عبرات التماسيح الكاذبة تضامناً معها، ووعدتها بالمجيء فوراً

للتواجد معها، ومساندتها في هذه الكارثة الرهيبة؛ لكن ما إن انتهت "بثينة" المكالمة معها، حتى مسحت بلا ندم البقايا العالقة من دموع عن صدغيها، وارتسمت ابتسامة مسرورة على شفيتها، استرخت على الأريكة، وهزت هاتفها المحمول المتدلي من يدها، لتغمغم في انتشاء:

طلعت أد كلمتك بصحيح يا "محرز".

ضحكة عالية سعيدة أطلقتها، ودمدمت بمزيد من الكلمات الشامته، استغربت "خلود" من حالة الابتهاج المسيطرة على والدتها، حين خرجت من غرفتها، فسألتهما في فضول، وأخبرتها الأخيرة بنبرة فاترة عن السبب؛ وكأنها حادثة عابرة، انخلع قلب ابنتها، وهوى بين قدميها في ارتعاب مهلك، جرفتها مشاعر الرهبة، وسألتهما في عدم تصديق:

إنتي بتقولي إيه؟ "تميم"؟ استحالة! ده كذب!

مصصت والدتها شفيتها، وقالت ببرود وجفاء:

ده اللي خالتك بلغتني بيه.

أجهشت بالبكاء، وصرخت منفعلة، بصدري ناهج من شدة انفعالها، وعقلها رافض استيعاب الأمر بشكل كلي:

مش معقول، جوزي! أكيد ده كذب.

بقساوةٍ علقت عليها، غير مبالية بحالة الانهيار الوشيك، والظاهرة عليها:

يا بت فوقي من أوهامك، ده مش جوزك، والبعيد يستاهل اللي حصله! إياكش نسمع خبره قريب.

هزت رأسها بهستيرية، ولسانها يصيح بكاءً:

- "تميم" .. حبيبي!

لعلت "بثينة" شفيتها، وقالت بتنهيدة بطيئة، عبرت عن شماتها:

-يا، أهوو ربنا يبسلط أبدان على أبدان.

وكانها مفصولة عنها، ركضت بلا وعي في اتجاه باب المنزل، وهي تصرخ:

-أنا لازم أروحه حالاً، هو موجود فين؟

تمكنت والدتها من إيقافها بصعوبة، وقبضت على ذراعها لتشدّها للداخل، أغلقت

مزلاج الباب، واستندت بظهرها عليه، ثم رمقتها بتلك النظرة الصارمة، وسألتها

بغضبٍ بدأ يتشكل على تقاسيم وجهها:

-تروحي فين؟ يا بت اهدي كده واقعدي، إنتي عايزة تفرجي الناس علينا؟

انهارت على ركبتيها أمامها، ولطمت على صدغها مواصلة صراخها المتوسل:

-سبيني يامه، ده "تميم" ... جوزي!

ركلتها أمها بقدمها في ركبته، لتجبرها على النهوض .. كالمغبية، استندت "خلود"

على يديها لتقف، رمقتها بنظرة نارية من عينين ملتهبتين بحمرتها الغاضبة، لتنفجر

صارخة باهتياج شديد، واتجهت إلى منقولات البيت، بدأت في إلقاء ما تطاله

يديها، وتحطيمه، وصراخها المتعاقب يكاد يصم الآذان، زجرتها "بثينة" بخشونة،

ودون أدنى تعاطف مع حالة الهياج العصبي التي تمكنت منها:

-هي ناقصة جنان!!!

.....

في عالمِ رسمٍ فيه الخيال لقائهما المستحيل طوعًا، كان معها بكل وجدانه، ودقات قلبه تنتفض لأجلها اشتياقًا، ركز "تميم" عينيه العاشقتين عليها، لم يرغب للحظة في إغماضهما، ليبقى هكذا للأبد، يتأملها، يحفظ أدق تفاصيلها الساحرة .. كانت معه في ظلمته، تنير له عتمته، تبتسم له بنعومةٍ، وتنظر إليه في ولهٍ، لطالما حلم به منها .. وجودها الوهمي أغناه عن قساوة العالم الآخر، المليء بالنكبات، والصدمات المحبطة، حاول وسط ضلالاته أن يمد ذراعه إليها، يتلمس تلك البشرة اللامعة التي أسكرته بتعويذة جمالها، يخبرها أنه لم يعشق غيرها، أن القلب نبض بحبها؛ لكنه لم يتمكن!

شعر بشللٍ غريبٍ مسيطر عليه، حركته معدومة، أخفض نظراته، وتفقد جسده، فأدرك أنه مكبل اليدين والقدمين، قاوم في يأس القيود التي تعوقه عنها، خاصة وطيف البغيض "آسر" يحوم من حولها، اتسعت عيناه هلعًا، ونظر إليها في جزعٍ، حرك شفثيه لينطق ويحذرهما، لم يفعل، كرر المحاولة بقوة أكبر ليناديهما؛ لكنهما كانتا مضمومتان بشدة، ملتصقتان بخيوط قوية، وكأن أحدهم أجرى له عملية جراحية ليمنعه عن الكلام، رمقته بنظرة تعيسة، تحمل اللوم في طياتها، ليس لأنه خذلها، لكن لعجزه الواضح عن إنقاذها، برزت مقلته في فزعٍ أشد، ويدٌ غادرة تطوق عنقها لتخنقها منه، انتفض، وتشنج، وصرخ بصوتٍ مكتوم، لم يسمعه أحد، عله ينجح في تحرير نفسه، وإبعاد شروره عنه، تلاشى طيفها تدريجيًا أمام ناظره، وظلت تلك اللمحة الحزينة هي آخر ما علق في ذهنه، قبل أن يغرق في سواد لا خروج منه، ولسانه المحبوس قهراً يناديها، بحسرةٍ لا طائل لها:

- "فيروزة" ..... !!!



## نهاية الجزء الثاني -

يتبع <<<<<<

الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم:

الأعمال الالكترونية:

- دعني أحطم غرورك
- رهان ريحه الأسد
- الفريسة والصيد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصيد - الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة - الجزء الأول
- دميمة لعنها الحب (نوفيلاً قصيرة)
- كتاب الحب ( و فيلا قصيرة)
- سيدرا (نوفيلاً)
- وجه لا يصدأ أبداً (نوفيلاً قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطة، خير يعودلك شر يرجعلك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)

- شهد الأفاعي (رواية شرقية)
- كبرياء رجل شرقي (نوفيلاً قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفيلاً قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضان مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أنثى (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان
- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطياف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)
- خطوات نحو الهاوية (قصة قصيرة)

- المحترم البريري
- الحب.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء رابع)
- أوتار الفؤاد.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء خامس)
- غسق الأوس (ملحق ثلاثية الذئاب -قصة قصيرة- جزء سادس)
- القائمة السوداء (قصة قصيرة)
- الطاووس الأبيض (الجزء الأول)

### الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث) عن دار إبداع
- للحب شعائر خاصة عن دار إبداع
- رفقا بالقوارير (الجزء الأول) عن دار إبداع
- مريم ابنة عمران - لم أك بغيا عن دار إبداع
- خطأ لا يمكن إصلاحه (الجزء الثاني) عن دار إبداع